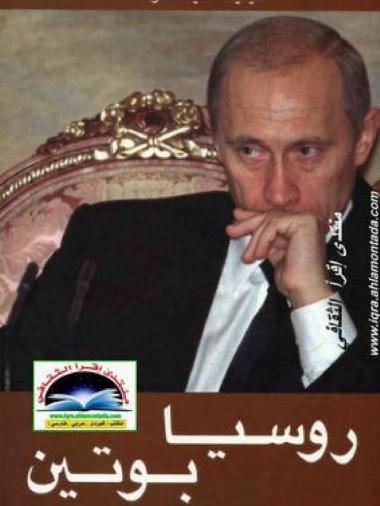


تصوير أبو عبد الرحمن الحكودي

ا شیقتسرف





بضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
PUTIN'S RUSSIA
حقوق الترجمة العربية مرخمن بها قاترنياً من الناشر
Carnegie Endowment for International Peace
بمقتضى الاتفاق الخطي العرقية بينه وبين الدار العربية المارم
Copyright © 2005 Carnegie Endowment for International Peace
All rights reserved
All rights published by arrangement with the publishers
Carnegie Endowment for International Peace

Arabic Copyright © 2006 by Arab Scientific Publishers

روسيا بوتين

تأليــف ليليا شيفتسوفـــا

ترجمــة بســام شيحــا



الدار العربية، للعلوم ـ ناشرون شيء ـل Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L يمنع نسخ أو استعمال أي حزء من هذا الكساب باي ومسيلة تصويرية أو الكرونية أو ميكانيكية بما فيه التسحيل الفوتسوغرالي والتسميل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أحرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطى من الناشر

رىمك 3-235-29-235

الطيعة الأولى 1427 هـ - 2006 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية، للعلوم ـ فلشرون شريعـل Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L عن الترنة، شارع المغنى توفق علاه، بناية الربم منت = 861038 - 785108 - 796109 من ب: 7555-13 غرر ان – بير رت 2050-1102 – لبنان فلكس: 786200 (1-961) – البريد الإلكتروني: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1661) الطباعة: مطابع الدار العربية للطوم، بيروت – هاتف 786233 (611)

المحنتونات حو

ىلىمة	7
نمهرد	
المُصل الأول: الكرماين ولعبة السلطة	17
المصل الثاني: نهاية عصر يلتمين	65
المصل الثالث: بوتين، الزعيم الروسي الجديد	95
للصل الرابع: لحظة الحقيقة	137
للصل الخامس: سلطة في قبضة واحدة	173
للصل المالس: رومنا تجنح إلى الهدوء	207
المصل السابع: التَّقدم الذي طال انتظاره	235
المصل الثامن: ارتباك الكرملين	275
المصل التاسع: روسيا تشهد انتخابات جديدة	321
المصل العاشر: روسيا تحصل على رئيس جنيد: بوتين مرة	363
المصل العادي عشر: من الديكتاتورية النخبوية إلى الديكتاتور	395
المصل الثاني عشر: أجندة جديدة وخبيات أمل جديدة	431
الهصل الثالث عشر: القسمة غير المنتهية لروسيا	483
لمر لجع	497

مقدمة

لا يزال لروسيا تأثير كبير على الساحة الدولية، فالعديد من التحديات العالمية الكبرى، كالحرب على الإرهاب الدولي، ومواحهة الأصولية الإسلامية، والحفساظ على الأمن الأوروبي والعالمي، وتنبيت أسواق الطاقة المتقلبة، ومكافحة تزايد أسلحة اللمار الشامل، والتعامل مع الصراعات الإقليمية، بما فيها أزمة الشرق الأوسط لا يمكن التصدي لها بدون مساهمة بناءة من روسيا. من هنا، يُعتبر ضمان دمج روسيا في المختمع الدولي واحداً من أكثر التحديات طموحاً بالنسسية للفسرب في القسرن الواحد والعشرين.

لقد قام الزعيم الروسي فلاديمير بوتين بالفعل بتحوَّل مناصر للفسرب منفذ الهجمات الإرهابية التي حصلت في 11 أيلول 2001، وذلك حين أصبحت روسيا حليفة للولايات المتحدة في حملتها لمكافحة الإرهاب دون أن تطلب أي شهيء بالمقابل، ودون المساومات الاعتيادية الصعبة التي اعتاد القادة السوفيات اللحوء إليها عند تقديم أي تنازل للغرب. ولكن، للتاريخ لعبته في صنع القادة. ففي خريف عام 2001، محكنت الهجمات من تحويل سياسي كان حتى ذلك الحين حذراً ومتردداً إلى قائد أدهش العالم بإعطائه دوراً جديداً لروسيا، دوراً ربما لم يسبق أن لعبة في كل تاريخها: داعم غير مشروط للغرب.

مع ذلك - كما تذكّرنا الأحداث التي تلت العـــام 1945 - فلـــن يــــتمكن التحالف في زمن الحرب من الصمود حتى فحايتها، إلا إذا كان يجسّد مصالح وقيماً مشتركة. فهل كل من روسيا والغرب مستعدان لتطوير حلفهما المعادي للإرهاب من بحرد حلف إلى شراكة استراتيحية بنَّاءة. تعتمد الإحابة أولاً علم التطورات المحلية في روسيا بوتين، وعلى مدى سرعة تقبل النحبة الروسية والمجتمع الروسسي للقواعد المبتقراطية الليبرائية للعبة.

على أي حال، لا تزال روسيا حسى الآن منطقة محاطة بالغموض. والمتفاتلون والمتشاتمون، على حدًّ سواء، يمكنهم إيجاد براهين تسدعم وجهين نظرهم. فمن جهة، يمكن للمرء أن يلاحظ بدء بوتين بإصلاحات اقتصادية، كانت قد تعطلت أثناء حكم سلفه بوريس يلتسين، وقيامه بثورة في السياسية الخارجية عن طريق انفتاح روسيا على الغرب. لقد استهل نوعاً جديسداً مسن القيادة السياسية؛ براغماتية، عقلانية، مع نوع من الحكم يمكن التوقع به بشكل أكبر عما كان مع أسلافه.

لكن من جهة أخرى، أبدى الزعيم الروسي عدم ارتباح شديد من العناصر الرئيسة للديمقراطية الليبرالية: التعددية السياسية، والمعارضة المستقلة، ووسسائل الإعلام الحرة. لقد ارتكز في حكمه على مزيج من الليبرائية الاقتصادية، والسلطوية البراغماتية، وتوجّه مناصر للغرب. لعل هذه التوليفة كافية لتحديث بلد زراعسي، ولكنها حتماً لن تساعد روسيا في التصدي لتحديات عصر ما بعد الحقية الصناعية. وعاجلاً أم آجلاً، ستنكشف عيوب حكم الرجل الواحد - حتى لو كان مغلفاً بغلاف أكثر براغماتية - وتصبح واضحة للحميم.

لقد أثبتت الأحداث الدراماتيكية التي وقعت في روسيا في العام 2004، بأن الاستقرار لم يكن قد تحقق بعد، وأن على روسيا أن تتعامل بشكل فقسال مسع عواقب الحرب الشيشائية، ومع التهديدات الإرهابية المتنامية. في مواحهه هذه المتغيرات الجديدة، اختار الرئيس بوتين تعزيز حكمه الديكتاتوري. ولهذا السبب، تثير خطواته السياسية قلقاً حدياً بخصوص مستقبل روسيا وسياستها الخارجية.

لهذا السبب أيضاً، يقى السؤال مطروحاً: كيف ستتحضر روسيا لتحقيق تقدمها الكبير: تفكيك سلطتها الفردية، وإقامة مؤسسات مستقلة، وترسيخ حكم القانون؟ عندئذ فقط، يمكن لروسيا الجديدة أن تصبح شريكاً حقيقياً للغرب. يُعتبر كتاب "روسيا بوتين"، الذي صدرت طبعته الأولى في العام 2003، عنابة أول وصف شامل لعملية التحول المضطربة لروسيا، وقيادتها الجديدة، وعلاقاتها مع الفرب. وتتضمن هذه الطبعة المنقحة من كتاب يُعتبر كلاسيكياً في ميدانه، تحلسيلاً للتناتج التي تمخضت عن فترة رئاسة بوتين الأولى وبداية فترته الثانية. لطالما كانت مؤلفة الكتاب، ليليا شيفتسوفا، وهي عضوة هامة في البرنسامج الروسسي، والروسي الأوروبي التابع لموسسة كارنيجي للمنح، ومراقبة متحمسة للسياسة الروسية، مقسمة وقتها بين موسكو وواشنطن. إلها واحدة مسن أكتسر المحللسين احتراماً في روسيا والغرب على حدًّ سواء ممن تتبعوا عن قسرب عمليسة التحول الروسية عقب الحقبة الشيوعية. وكانت دراستها المميزة السابقة، "روسسيا يلتسين" قد نُشر ت أيضاً بواسطة مؤسسة كارنيجي.

إننا نشكر الدعم الذي قلمه كل من البرنامج الروسي، والروسسي الأوروبي التابع لمؤسسة كارنيجي للمنح في نيويورك، ومؤسسة ستار، ومؤسسة تشارلز سيوارت موت.

جيسيكا ت. ماثيوز رئيسة مؤسسة كارنيجي للمنح من أحل السلام الدولي

تمهيد

في 13 كانون الأول 1999، أصبحت روسيا يلتسين روسيا يوتين. فلقد غادر بوريس يلتسين – السياسي المنشق الذي حاول حتى النهاية لعب الدورين اللذين لا يمكن الجمع بينهما، وهما الديمقراطي والقيصر – الكرملين على نحو غسير متوقسع وسلم السلطة، وكأنها هدية رأس السنة، إلى فلاديمير بوتين، وهو ضابط مخسابرات سابق غير معروف لم يحلم أبداً بأن يصبح زعيماً لروسيا.

من الواضح أن يلتسين - التعب، والمريض، والمضطرب، والفاقد لقوته - فهم بأنه لم يعد باستطاعته الحفاظ على السلطة في قبضته أكثر من ذلك. لقد كان قراراً تاريخياً بالنسبة لسياسي كان الصراع الدائم على السلطة والهيمنة بالنسبة له حوهر الحياة وطموحه الأساسي. غير أن صحته المتدعورة، والنوبات القلبية المتعددة - في الواقع - لم تكن الأسباب الرئيسة وراء استقالته غير المتوقعة.

لقد حاءت اللحظة الحاسمة عندما لم يعد باستطاعة يلتسين التحكم في الوضح أكثر من ذلك، والأهم من هذا، أنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مسع التحديات الحديدة التي كانت تواجه روسيا. لقد اعتاد يلتسين على دلا حصون أعدائه، وإلحاق الهزيمة هم، وتذليل العقبات، لكنه لم يكن مستعدا لبناء دولة، ولمشقات الحكم اليومي، وتحقيق الإجماع، وتأسيس وحدة وطنية حديدة. كان يلتسين، بطبيعته، مصارعاً قادراً على القضاء على أعدائه، لكنه لم يكن قائداً قادراً على التغيير. ولهله السبب، كان الوقت قد حان بالنسبة إليه كي يتنحى بلباقة ويسلم السلطة لخلفه.

أصبح الزعيم الروسي الجديد فلاديمير بوتين رمزاً لمزيج مدهل من الاستمرارية والتغيير. بالنسبة لقسم من الشعب الروسي، كان بوتين يجسد صلة وصل مم ماضي يلتسين، بينما كان يمثل بالنسبة للقسم الآخر انقطاعاً حاداً عن ذلك الماضي. في الحقيقة، كان زعيم الكرملين الجديد ذكياً بما يكفي ليترك الشعب يفكر كيفما يشاء، ويتخيل ما يصبو إليه.

في الظاهر، تغيرت القيادة الروسية إلى حداً كبير حداً مع اعتلاء بوتين للسلطة. فعندما دخل بوتين الكرملين للمرة الأولى كان شاباً على نحو غير معتاد بالنسبة لزعيم روسي، لقد كان في الثامنة والأربعين من عمره، حيوياً، وصارم الملامح، مما شكّل تناقضاً حاداً مع بوريس العجوز، المثير للشفقة، في أيام حكمه الأحيرة. لقد نجح بوتين ليس فقط في ترويض النحبة الروسية، والمتنفذين المتعدرفين، بال في المحافظة على نسبة قبول تساوى 70 بالمائة لعدة سنوات أيضاً.

لم يحاول بوتين حتى أن يلعب دور الحاكم المطلق. كان يريد أن يُقبَل كمدير براغماني. خلال فترته الرئاسية الأولى (2000-2004)، نجح بوتين - ظاهرياً على الأقل - في تحقيق النظام والاستقرار، وبدأ ثورة مناصرة للفسرب في السياسة الحارجة، ودفع بالإصلاحات الاقتصادية قدماً بعد أن توقفت في زمسن يلتسين. ولكنه أبدى في الوقت نفسه عدم ارتباح شديد مسن الموسسات اللمقراطية الأساسية، ورغبة واضحة في الحفاظ على سيطرة محكمة على المختمع، كان الزعيم الجديد، بعكس يلتسين الذي عرف كيف يستمر في حو من الإذعان والامتسال، الجديد، بعكس يلتسين الذي عرف كيف يستمر في حو من الإذعان والامتسال، يفضل التبعية والإخلاص. ولكنه، مع ذلك، بدأ غير واتن من قدرته على الموازنة ين الحريات السياسية ومركزية سلطته، وبين الحيمنة والتحاور مع كل من المحتسعين.

لم يتغير قالد روسيا ونموذج قيادتها في تلك السنوات فحسب، بل إن روسيا نفسها تغيرت أيضاً، وكأن شخصاً أغلق فصلاً وبدأ آخر. فانتقل البلد - المرق، مؤخراً فقط، بين أقصى اليمين وأقصى اليسار في سياق بحثه المحصوم عن ذات الجديدة - بشكل تدريجي إلى حالة من الهمود، مدفوعاً من التوق إلى عيش حياة منعزلة هادئة، والقرف من أية أفكار كبرى، والخوف من حدوث تقلبات جديدة.

وأصبح الرئيس بوتين تحسيداً لهذا الاشتياق إلى الاستقرار والهدوء. فهـــو لم يكـــن ليصل إلى القمة لو كانت البلاد تريد الاستمرار في ثورتما.

خلال فترته الرئاسية الأولى، أعلن بوتين بأنه يملك في حميته برنابحًا لروسياً: يشتمل تحديثاً في السلطة، وشراكة مع الغرب. في الحقيقة، إن الإنجاز المذهل الذي حققته إدارته بخصوص التعزيز الاقتصادي الإجمالي وعلاقاته الودية مع القوى الغربية أكَّد بأنه كان يسير في الطريق السليم، وبأنه وجد أخيراً ما كانت روسيا بحاجــــة إليه. لكن تباطو الإصلاحات الاقتصادية في العام 2003-2004، والمشاكل الاجتماعية المتفاقمة، واستمرار الحرب في الشيشان، وخطر امتدادها إلى جمهوريات قوقازية شمالية أخرى، وأحيراً، الازدياد المأساوي للأعمال الإرهابية في روسيا، كل ذلك وضع القيادة الروسية تحت الاختبار؛ وفشلت فيه. لقد واحهت هذا الــزعيم الروسي تحديات حديدة، وكانت ردة فعله تجاهها مشابحة لكل ردود الفعل. التقليدية التي اتخذها الحكام الروس والسوفيات من قبله: فلقد بدأ السير على طريق المركزية، محكماً قبضته على اللاعبين السياسيين المستقلين، والحريات السياسية ولا يخفي على أي مراقب للتطورات الأخيرة في روسيا أن تحسيده للسلطة في شخصـــه كان السبب الرئيسي وراء الفساد المستوطن، ويسروز المحموعات المتنفَّلة ذات المصالح الخاصة التي وقفت حائلًا دون تحقيق المزيد من الإصلاحات، وفشل عملية رسم السياسات العامة، وافتقار كبار المسؤولين للمعلومات المتعلقة بالوضع الحقيقي للمحتمع. بكلمات أخرى، باختياره ذلك الشكل المفرط من المركزية، دفع بوتين روسيا أكثر فأكثر نحو الوقوع في المصيدة.

لقد أثبت أحداث العام 2004 بأن المظهر الهادئ لروسيا ما هــو إلا مظهـر عادع. والكثير من الأسئلة ما تزال تتراكم: ما مدى قدرة النظام السياسي الروسي على البقاء؟ هل ستحافظ روسيا على الأقل على بعض الحريات السياسية السي وزئتها من فترتي حكم غورباتشوف ويلتسين؟ كيف سيتمكن بوتين من المزج بين أساليه الديكاتورية، وبين الليرالية الاقتصادية، والسياسة المناصرة للفرب؟ كيسفا سيؤثر الصراع المتوالي وإعادة توزيع النورة على مستقبل روسيا؟ هل ستتحه روسيا، غو الديكاتورية، أم أن بوتين – أو أية قوة أحرى – سيحاول إيقاف هذه العملية؟

لكن عهد بوتين لم ينته بعد، وكل من الرئيس وروسيا قد يذهلاننا بأحوبتهما على هذه الأسئلة. إن روسياً بوتين قصة لم يُكتّب الفصل الأخير منها بعد.

يبيّن هذا الكتاب كيف تحاول روسيا تحت حكم فلاديمير بوتين تعريسف هويتها الجديدة دولياً وعلياً، متأرجحة في سعيها هذا بين التفاؤل والأمل تارة، والقلق والاستياء تارة أخرى. إنه كتاب يتحدث عن غموض انتقالي. فمسن جهة، يساعد هذا الغموض في المحافظة على استمرارية عهد يلتسين وما قبسل يلتسين، ويلعب دور المسترضي لأولئك الذين يرغبون في العيش في الماضي؛ وعلى هذا الأساس أصبح عاملاً أساسياً في المحافظة على التوازن. أما من جهسة أخرى، فهو يمنع روسيا من القيام بعملية تحوّل أكثر قوة، مع كل ما يرافقها من توترات حتمية. إن كل بلد يعيش طوراً انتقالياً يواجه معضلته الحاصة ما بسين الاستقرار والتقدم. وبالنسبة لروسيا، فهذه المعضلة أكثر تعقيداً من أي مكان آخر، لأن التحول الجذري يساعد على بروز تطورات قد لا تكون روسيا قادرة على السيطرة عليها.

في الفترة الثانية من رئاسته، يبدو أن فلاديمير بوتين قد بدأ بتقليص التناقض المتعلق بمسلكه بالذات، وذلك بانتقاله من سياسة تحاكي سياسات الغربين. من المؤكد أساليب أكثر سلطوية، وإبدائه تشككاً أكبر تجاه شركائه الغربيين. من المؤكد أن هذه الفترة ستكون مولمة بالنسبة للقوى الاقتصادية الليرالية في روسيا. بيد أن الوجهة المباشرة لبوتين تعني أيضاً خداعاً أقل وأوهاماً أقل. فالمختمع سيرى نتائج حكمه السلطوي، وسيتوقف عن الأمل في أن "القبضة الحديدية" سسنقذ روسيا.

يعرض هذا الكتاب أيضاً لتناقضات المرحلة الانتقالية. حيث كانت مراقبة اصطدام ذوي المناصب المنتهية شرعيتهم - الشيوعيون الذين يقاتلون من أحل الديمقراطية البرلمانية، والليراليون الذين يدافعون عن الديكتاتوريسة والحكسم الفردي - مع بعضهم البعض مرحلة مثرة للاهتمام من الناحية الفكرية، ولكنها مرعبة من الناحية السياسية. إنه لأمر عير بالفعل أن ترى الكولونيل السابق في الاستعبارات الروسية (الكي حي بي) بوتين وهو يقود التحول المؤيد للغرب.

ومن المثير للذهول أيضاً أن تجد أن مشاركة روسيا في التحالف مع الغرب ضدّ الإرهاب يساعدها في الحفاظ على حالتها وقوقا التقليديتين. وقائمة ما يذهل لم تنته بعد. إليكم تناقضاً آخر: الشعب الروسي العادي أكثر قابلية للتحديث من النعبة الروسية التي تفضل بقاء الوضع على حاله، كولها غير قادرة أبداً على الحكم بشكل دعقراطي.

سيتحدث هذا الكتاب أيضاً عن القيادة، تلك القيادة التي استطاعت، بدءاً من العام 2000، إعادة الحيوية إلى روسيا. مع أن هذه القيادة نفسها هسي الموسسة السياسية الوحيدة التي تعيق تحوّل روسيا إلى دولة ديمقراطية ليبرالية عصرية. فمنسلة العام 2004، أصبحت القيادة الروسية العقبة الأكثر خطورة في وحسه التحول المستقبلي للبلد.

إنه كتاب لا يناسب أولئك الذين يبحثون عن أحوبة سريعة ومحدة، إلا أنسه يناسب أولئك المستعدين للبحث عما وراء الوقائع الواضحة، الذين يريدون فهم الأسباب الكامنة وراء التأرجح، والذين يستطيعون تخيّل مدى صعوبة محاربة اليأس والفزع، وخاصة إذا كانت الطبقة السياسية غير مؤهلة للتصدي للمهمام الصعبة الراهنة.

إنه ليس مجرد كتاب يتحدث عن بلد ورئيسه فقط. إنه قصة كفاح مستمر، عن التحديات والفرص، وعن القدرة على التعلم من الخسارة وارتكاب الأخطاء. فإذا نجحت في إثارة اهتمامكم لمحاولة حل معضلات روسيا، فستكون مهمتي قسد أنجزت.

الكرملين ولعبة السلطة

انتهى عصر يلتسين. معادلة بريماكوف. من يحكم روسيا؟ الكرملين بيحث عن وريث. فضيحة مصرف نيويورك. 2.2 يأتي بوتين. روسيا تزيد النظام. استخدامات العرب.

إلها موسكو في العام 2000، بعد أقل من نصف سنة على ظهـور فلادهـير بوتين في الكرملين كزعيم حديد لروسيا. كانت الطبقة الحاكمة - التي كانـت في السابق مستبدة وطاغية، فإذا كما الآن تعيش في حوف وترقب مـن أن تزورها الشرطة السرية بأقنعتها السوداء - قد نقلت مسبقاً أموالها وعائلاتها إلى الخسارج، وأصبحت تعيش بعيداً عن الأضواء (1). إن الوحيد الذي كان يحاول يائساً بناء معارضة لتحدي زعيم الكرملين الجديد هو بوريس بويزوفسكي (Berezovsky)، معارضة لتحدي والسيئ السمة الذي كان هو نفسه واحـداً مـن الـذين رحل الأعمال القوي، والسيئ السمعة الذي كان هو نفسه واحـداً مـن الـذين خططوا لوصول بوتين إلى السلطة؛ ولكن أحداً لن يتحرأ على الانفسـمام إليـه. فالمدوولون الروس والأثرياء الإقليميون - معظمهم كانوا يديرون إقطاعات شبه مستقلة في عهد سلف بوتين، بوريس يلتسين - باتوا ينظـرون إلى موسـكو الآن نظرة الخادم لسيده. وأروقة الكرملين تفص بأشخاص ذوي هيئـات عسـكرية، نووجوه عادية لا تنظيم في الذهن.

 حرت في آذار، وبطل القبضة الحديدية في الشيشان و"السلطة العامودية" (مصطلح ابتكرته النجبة الروسية لوصف نظام الحكم الديكتاتوري المرتكز على الخفسوع وعلى هيمنة السلطة التنفيذية). حتى أن بعضهن أعربن عن حبهن لقائدهن الرياضي النحيف في مقابلات تلفزيونية. وهذا ليس مستغرباً لأن بوتين بنشاطه الدائم، وسيمائه الذي يوحي بالتصميم، حيَّر المراقبين الذين اعتادوا على مشاهدة زعيم عليل على الدوام، إضافة إلى تقديم التحمينات المتعلقة بمن سيحكم روسيا. في الحقيقة، هذا الرئيس الجديد يشهم القلق بين مجموعات متنوعة، إذ إن أحداً لا يعرف بالضبط ماذا يدور في خلده.

يقوم رؤساء التحرير في الصحف، ومدراء الشبكات التلفزيونية الكسيرى في البلاد بمهمة الرقابة على وسائل الإعلام الجماهيرية، فيحلفون منها أي موضوع يمكن أن يزعج زعيم الكرملين الجليد. أما المثقفون فقد أصبحوا يكتفون بتوجيه انتقاداقم إلى السلطات في المطابخ على قدح من الشاي أو كأس من الفودكا، كما اعتادوا على فعل ذلك في سنوات بريجينيف التي تسيت منذ فترة طويلة. أما بالنسبة لعامة الشعب، فلم يكن لهم لا حول ولا قوة.

في الحقيقة، لا أنقك أرغب بقرص نفسي لأتأكد من أني مستيقظ نظراً لعدم قدرتي على تصديق ما يجري، كلما تذكرت الأطوار الأخيرة التي مرّ بها يلتسين. فقبل سنة أشهر فقط، مع فحاية التسعينيات، كانت روسيا دولة محتلفة تماساً فقل يلتسين السيطرة عليها وعلى نفسه. أما بويزوفسكي فقد كان بهمسس بخططه المتعلقة بروسيا في أذن ابنة الرئيس الجميلة، التي رفعت وأسقطت بعضاً من كبار المسلوولين، ورسمت سياسات اللولة. فيما شرَّعت القلة الحاكمة أبواب المكاتب المحكومية على مصاريعها، وأدارت لمنفعتها الخاصة ما بقي من الاقتصاد الروسسي، الذي وقع في العام 1998. أما الزعماء المحلون فقسد حكمسوا للانحيار الاقتصادي الذي وقع في العام 1998. أما الزعماء المحلون فقسد حكمسوا المتعلقين في موسكو والرئيس نفسه.

هكذا تآكلت الدولة الروسية، وفقدت سلطتها، ومعها القدرة على القيام

بوظائفها الأساسية (2) الأمر الذي أدى إلى وقوعها في أزمة اقتصادية واجتماعية عطورة كانت تزداد عمقاً يوماً بعد يوم: هبوط متوسط الأعمار (بالنسبة للرحال، من 64.2 سنة في العام 1989 إلى 57.6 في العام 1999)؛ عودة الأمراض المعدية، التي كانت قد استُؤصلت من الاتحاد السوفياتي إلى الظهور مسن حديد، تفشي الاتحالال في المدارس، تشرد مئات الآلاف من الأطفال، ملايين المهاجرين، اقتصاد منكمش - تراجع في عهد يلتسين عملياً بنسبة 40 بالمائة - وأخيراً، انتشار الفساد وعالفة القانون اللذان أصبحا تحط الحياة الطبيعية في روسيا. كل ذلك أفقد الشعب الروسي العادي ارتباطه بماضيه وحاضره، أما المستقبل فقد أصبح ملتبساً بالنسبة للكثيرين منهم. ومع ذلك، لا الرئيس ولا النخبة الروسية بدا عليهما الاكتراث - فقد كانا منشغلين بالتظاهر بالحكم، بيد ألهما كانا، في واقع الأمسر، يصارعان للحصول على المناصب العليا ولهب المولة.

لقد هاجمت الصحف يلتسين بقسوة شديدة، ولكن الناس العاديين سعموا من هذه الحرية غير المسبوقة في انتقاد الحكومة، لألها لم تحدث أي تقدم. كان يُنظر إلى الرئيس نظرة هي مزيج من الإشفاق والازدراء. وكان الناس يحمل ون السلطات المسوولية في كل شيء بدءاً من الآمال التي أحبطت بعيش حياة طبيعية بعد سقوط الشيوعية، إلى مشاعر الإحباط واليأس التي تسيطر على الشسعب. وهكذا فقد الكرملين حو القداسة والغموض الذي كان يكتنف الحكام الروس عبر العصور، وتحول في أعين الناس إلى سوق يُباع ويُشتَرى فيه كل شيء.

وفي حانب آخر محبط، بدت الرئاسة الروسية وكألها ارتدَّت إلى نموذج حكم المسنِّين الذي كان سائداً أيام الحقية السوفياتية، وفيها كان الحاكم الروسي المحوز يظل متربعاً على سدّة الحكم حتى يغيِّبه الموت، فيخلفه رحل مسن آخر. بالنسسية للرئيس يلتسين – الذي كان ذات يوم قوياً وآسراً، مع قوة إرادة مذهلة مكتنه من تعمير الحزب الشيوعي والإمبراطورية السوفياتية معاً – فقد انتهى بسه الحسال إلى النواري عن أنظار العالم، وقضاء أيامه متنقلاً بين الأكسواخ الروسسية (dachas) الراقعة في ضواحي موسكو. وكانت قلة قليلة فقط تتمتع بحق الاتصال به أو زيارته إلى حانب عائلته وأطبائه. أما بالنسبة لحالته الصحية، فقد حرت محاولة للتقليل من

مدى سولها، حيث إنه لم يكن يشكو من مرض القلب فقط - رغم اعترافه لاحقاً بإصابته بخمس نوبات قلبية شديدة - بل كان يعاني، على ما يبدو، من مشاكل صحية في كل شيء تقريباً، بما فيها المشي، والمحافظة على نفسه منتصباً، والتركيز، وحتى استيعاب ما كان يُعلَب منه. وعندما ظهر على التلفزيون، كان الأطباء وحدى استيعاب ما كان يُعلَب منه. وعندما ظهر على التلفزيون، كان الأطباء وحدهم الذين يعرفون أي حهد قام به كي يحمل نفسه على البقاء واعباً، بالرغم من أنه لم يكن مسناً إلى ذلك الحد، فهو كان في أواخر العقد السادس من عمره لا أكثر.

هكذا كان المتعاقبون على الكرملين، شائم في ذلك شأن يلتسين، بعيدين كل البعد عن المجتمع وأمراضه. ولم تكن تثير قلقهم الاقحامات الدائمة بالفساد ولا المشاكل القومية الماحقة، فكل همهم كان منصباً على الاحتفاظ بالسلطة وبالفوالد التي تعود عليهم من خلافا. أما بالنسبة لأولئك الذين يشكلون بطانة الكرملين، فقد كانوا أشخاصاً متهورين، وطائشين، واثقين من أنفسهم ومسن سيطرقم على اللعبة. ومن فرط ثقتهم بأنفسهم لم يخطر ببالهم قط أن اللعبة قد تنتهى يوماً.

في نحاية التسعينيات، لم يكن هناك أحد يدير شؤون البلاد بشكل فعلى. فعنذ العام 1996، كانت الطبقة السياسية مشغولة بمسألة متى سيتنحى بوريس يلتسين عن السلطة، ومن سيحكم روسيا بعده؟ كيف يبدو القيصر بوريس اليوم، هل هو سليم العقل أم لا؟ كم سيبقى على رأس السلطة؟ وكل ما عدا ذلك كان ثانويساً. وهكذا عاش المجتمع الروسي على ما كان يعتقد أنه الوداع المطول للبطريسرك، في حين كانت روسيا ماضية قدماً في تدهورها الاقتصادي والسياسي.

من كان قد سمع بفلاديمو بوتين في تلك الأثناء؟ حسارج دالسرة ضيقة في موسكو، من كان يعرف اسمه حتى في بداية العام 1999؟ والقليلون الذين كسانوا يعرفونه من قبل واحهوا بعض الصعوبة في تذكّر أن يلتسين هو الذي عينه رئيسساً لجهاز الأمن الفدرالي (FSB)، الكي حي بي سابقاً. في العام 1998 أو في معظم فترات العام 1999، كانت بحرد الإشارة إلى أن بوتين يمكن أن يكون الرئيس المقبل لروسيا ستثور الذهول، إن لم نقل السحرية.

كان التداعي البطيء للسلطة الرسمية يبدو أنه غير قابل للإيقساف، وكانست إعادة تعزيز وفرض الرقابة المركزية بعيدة الاحتمال إلى حدٌّ كبير، ولكن سرعان ما تبيّن أن تلك التوقعات، وأحرى غوها، كانت غير صحيحة. فقد بدا أن يلتمسين لن يتخلى عن منصبه طوعاً، وذلك قبل وقت قصير حداً من لهاية فترته الشرعية؛ أي أنه سيبقى في الكرملين إلى أن يموت. وكان يبدو أن صراعاً قاسياً سينشب مــــا بين "جماعات الحكم"، أو الجماعات ذات المصالح، حتى أن بعض زعمائهم كانوا يتخيلون انتصاراتهم المقبلة وشعورهم الغامر بالرضى من حرَّاتها. وكَانَ يبدُو حَلَيًّا أيضاً أن أهم منافسين على عرش يلتسين هما عمدة موسكو، يسوري لوحكسوف (Luzhkov)، الذي انتصر في صراعه مع السلطات الفدرالية حول السلطة والمال، ورئيس الوزراء الجديد، يغفين بريماكوف (Primakov)، الشيوعي الخبير والرئيس السابق لجهاز الاستخبارات الفدرالية (SVR) ووزير الخارجية الحالي. وأحيراً، بغض النظر عما كانت ستؤول إليه نتيجة الصراع على القمة، فالعديد من المراقبين كانوا يعتقدون أن الشعب الروسي قد اعتاد مؤخراً على العبش بحريسة وعفويسة، وعلى المناقشات السياسية التافهة الدائمة، وعلى سوء انضباط النحبة الروسية، وأنه سيرفض حتماً العودة محدداً إلى "القيضة الحديدية". لكن أولئك الذين اعتقدوا ذلك كيف يمكن للحوف والذعر أن يغيرا العقلية السياسية للملايين.



مع لهاية عقد التسعينات، لعبت الإضطرابات الاقتصادية والاجتماعية، والحمى التي أحدثتها بين الجماهير، دوراً هاماً في تسريع الأحداث في روسيا. في عام 1998، كانت روسيا تتحه نحو الهيار مالي لا بحال لإيقافه. في تلك السنة، انخفضت الأسهم الروسية بشكل كبير - وكانت مستمرة في الانخفاض - وبلغت الفائدة على السندات الحكومية ما بين 130 إلى 140 بالمائة، في حين كان البنك المركزي الروسي يحاول حاهداً المحافظة على الروبل مستقراً. في 19 آب، اضطرت وزارة المائية إلى تغطية 34 مليار روبل (تساوي 5.7 مليار روبل قبل انخفاض قيصة

العملة) كانت تستحق الدفع (سندات حكومية قصيرة الأحل). ولم تكن الخزينة عملك هذا القدر من المال، كما لم يكن بإمكانها اقتراضه من أي مكان آخر. أما القرض الذي منحه صندوق النقد الدولي والبنك الدولي - تحت ضفط كبير مسن الرميركي بيل كلينتون - والذي بلغ 22 مليار دولار، فقد ذهب إلى حهات غير معروفة.

خلال الفترة الانتقالية ما بعد الشيوعية، التي اعتبرها الكثير من عامة الشـــعب بألها كانت مؤلمة، اعتادت روسيا على اضطرابات العمال، واضطرابات الحالمين، والانتحار على سبيل الاحتحاج بدافع من اليأس والإحباط. لكـــن الوضـــع ازداد تفاقماً في العام 1998، حيث بدأ عمال المناجم المملوكة من الحكومـــة، الـــذين لم يحصلوا على رواتيهم منذ أشهر، بسد السكك الحديدية، في حين جاء عثلوهم إلى موسكو ونصبوا خيمة أمام البيت الأبيض، حيث يقع مقر محلس الوزراء الروسي. ولم تقتصر مطالب عمال المناحم على الحصول على رواتبهم فقط، بل طالبوا أيضاً باستقالة يلتمين. ما زلت أذكر الرحال، عراة الصدر في الشمس الحارقة، وهم يجلسون في الشارع ويضربون خوذاتهم بشكل إيقاعي على حصى التزفيست الساخنة. ما زلت أذكر نظراتهم الغاضبة إلى سيارات الليموزين الحكومية بنوافذها المغلقة والقائمة وهي تجنازهم بسرعة كبيرة. كانت موسكو في طريقها إلى استعادة ذلك الحقد الطبقي الذي كان سائداً منذ وقت طويل. لقد حاءت روسيا الجائعـــة من المقاطعات إلى موسكو كي تذكّر العاصمة بوجودها، وكانت تلسك السدعوة للصحوة تنذر بالسوء. في أواخر الثمانينيات، كان عمال المناجم - عندما كانوا يريدون يلتسين في الكرملين - هم الذين هــزوا أركــان العــرش مــن تحــت غورباتشوف. وها هم الآن يرينون يلتسين خارج الكرملين. يبنو أن السلطة في الكرملين بدأت تشعر بالأرض قمتز من تحت أقدامها مرة أحرى.

مع ذلك، لم يتعرّض عمال المناجم إلى أية مضايقات، فقد أعطى العمدة يوري لوحكوف أوامره بالسماح لهم بالتظاهر، وليس هذا فقط، بل قداًم لهما الطعام أيضاً. في الحقيقة، كانت مصلحة لوحكوف، الطامح للوصول إلى الكرماين، تقضى بإبقاء عمال المناجم في موسكو أكبر وقدت ممكن، إذ كان

يَامِكَالُهُم تَسْرِيع عَمَلِية انتقال السلطة. وهو كان، بالطبع، أول المنتظرين لتسلُّم حائزته.

كانت روسيا بحاحة ماسة إلى القيادة في تلك الفترة الحساسة مسن تاريخها، ولكن، لا الريس ولا الوزراء ولا الشخصيات السياسية الأخرى كانوا بملكون حلولاً للمشكلات التي تعاني منها البلاد. والرئيس يلتسين كان في معظم الأحيان مختفياً عن الأنظار، أما المناسبات المتباعدة التي كان يظهر فيها بشكل علي، فقد كانت معدة فقط للتأكيد على أنه ما يزال حياً. والتبريس الرسمي لفياب عن الكرملين، "بأنه يعمل على الوثائق"، كان يرسم ابتسامات متشككة على شفاه المروس. حتى الليبراليون الواثقون من أنفسهم بدوا وكأفم بدأوا يفقدون أعصاهم. أما بالنسبة لرئيس الوزراء ذي الأعوام السبعة والثلاثين، سيرحي كهرينكو، الليب لقبته الصحافة باسم "كايندرسربرايز" (تيمناً بنوع من الشوكولاته المشهورة بين الأطفال الروس)، فقد كانت تبدو عليه الحيرة والارتباك. وهي الصورة النقيضة لصورة الرجل الواثق من نفسه التي ظهر عليها عندما رُقي إلى منصب رئيس الوزراء قبل وقت قصير من ذلك. وفي عاولة واضحة منه لإخفاء ارتباكه، كان المطر الطويل الممل، كانت دون أي معن.

لم يكن كيريينكو، المسؤول عن معاجلة أزمة مالية كانت تزداد صعوبة، بملك الوقت الكافي - وبدرجة أقل، المقدرة الكافية - لتقدير مدى خطورتها. فخبرتسه كقائد لمجموعة من الشبيبة الشيوعية (komsomol)، ومن ثم كمدير مصرف في مدينة نيحني نوفغورود قبل مجيئه إلى موسكو في العام الفائس لم تكسن كافيسه لتحضيره لمثل هذه المهمة. ما زلت أذكر ردة فعل المسؤولين في المنظمات الدولية التي تعاملت مع كيريينكو: "يا إلهي، كيف سيندبر أمره؟" تساعلوا وهم يمسكون برؤوسهم: "إنه حتى لا يعرف على أي الأزرار سيضغط"

 تكن عوائد الضرائب تتحاوز 164.6 مليار روبل (22.5 مليار دولار)، حين كان النظام المصرفي الروسي الهش على حافة الالهيار، والاقتصاد يتفكك، والغرب لم يعد باستطاعته المساعدة أكثر. كان الشعب الروسي ما يزال ضابراً، لكن ذلك العسير قد ينفد في أي لحظة. حينتذ، لم يكن ثمة أحد يريد أن يفكر فيما يمكن أن يحصل رووسيا بعد ذلك.

سرعان ما اكتشف بعض أعضاء فريق يلتسين أن الأزمة المالية - مع تسدفق ملايين الروبلات خارج روسيا - شكّلت فرصة فريدة لإثراء بعسض الأشسخاص الذين حافظوا على هدوهم. على أي حال، كل من كان في السلطة آنذاك نجا من الأفيار، لا بل استمر في الازدهار من الناحية المالية، حتى أفضل من السسابق. إن التربخ الروسي يُظهر مدى إمكانية استخلاص القوائد من الأزمات، وخاصسة إذا كنت من يديرها.

في 17 آب 1998، بعد قليل من التردد، أعلنت حكومة كيرينكو إفسلاس روسيا، وقررت اللحوء إلى تخفيض قيمة العملة وإعلان عدم قدر تما على دفسع التزاماتها المالية في آن واحد مماً، وحدث ذلك بعد الوعد الذي قطعه يلتسين بعدم تخفيض العملة. وتضمنت الدائرة الصغيرة التي اتخذت هذا القسرار الإمسلاحيين البارزين أناتولي تشوبايس، ويبغور غايدار. وكان كيرينكو قد طار في اليوم السابق برفقة هذا الأخير، إلى المنسزل الريفي الذي يقيم فيه يلتسين ومعهما مقترحات كان الرئيس مرغماً على الموافقة عليها، إذ ما من خيارات أخرى أمامه، وهكذا أفقدً بلتسين المضطرب السيطرة على الأحداث.

إدراكاً منه بنفوذ المحموعات المتنفذة، قابل كورينكو ممثليهم في وقت متاخر من ذلك المساء لإعطائهم تقريراً عمّا حدث. على الأغلب، كان المتنفذون القريبون من يلتسين يعرفون بما سيحصل. ولهذا السبب، أنهم غريفوري بافلينسكي، زعسيم الحركة اللمقراطية "يابلوكو"، علناً كورينكو بالعمل لصالح الأثريساء المتنفسذين، قائلاً: "كان الافيار الأخير خطأ كورينكو، وذلك لأن أداءه لم يكن فعالاً، والأهم من ذلك هو أنه (أي أداءه) كان يصب في مصلحة بحموعات متنفذة بعينها". على أي حال، كل هو أنه (أي أداءه) كان يصب في مصلحة بحموعات متنفذة بعينها". على

المناسب، ثم، بعد فترة وجيزة، أسسوا بنوكاً حليدة عاصة عمس واستعروا في الازدهار، في حين فقد المواطنون الروس العاديون كل مدّعراغم في ذلك الانميسار وكان عليهم البدء من الصغر. وصع حمزه المحقائق الري المبوع في محمد المحقائق الري المبوع في المحمد من يدعون الى الشغول و الم ميماً طورته والسوفيات وأن مرافع المول الموسيع عمد المحمد المحل الوحد لمن كلما مي النامة المرابعة والشيع عمد المحمد المحم

مع ذلك، لم تكن حكومة كوينكو مسؤولة بالكامل عن الأزمة المالية التي حدثت في آب 1998، فحزء من تلك الأزمة كان مجرد ردّة فعل على الافيسار الاقتصادي الآسيوي الذي كان قد بدأ في العام المتصرم. أضف إلى ذلك، كانت كل الشروط اللازمة المهدة لحدوث هذا الافيار قد نضحت في روسيا في عهد حكومة رئيس الوزراء السابق فيكتور تشير نوميردين، الذي تمكّن من البقاء في منصبه لفترة طويلة بالرغم من التعديلات الوزارية الدائمة التي كان مجريها يلتسبن. غين تشير نوميردين رئيساً للوزراء في العام 1992 بعد إبعاد غايسدار، ولكنه أقبل من منصبه في العام 1998 فقط لأن يلتسين شك في أنه كان مجني رغبة مبيتة بمنصب الرئيس؛ وكان مصيباً في ذلك. (كان أحد أسباب إقالته هو زيارته إلى الولايات المتحدة التي تقابل خلالها مع شريكه التفاوضيي القسليم، النائب آل غور، الذي عامل "تشير نو" كزعيم مستقبلي لروسيا. و لم يستطع يلتسين تمثل ذلك).

في الواقع، إن الذي قاد روسيا إلى الانهيار المالي هو البرلمانية الشعبوية والسلوك الدنيء لرئيس الوزراء. فبدلاً من بذل كل حهد ممكن من أحل وضع ميزانية عملية وقابلة للنحاح، اختار تشيرنوميردين السياسة المالية المسيّاة "هسرم GKO" - أي اقتراض الأموال بفائدة مرتفعة حداً. أما بالنسبة للبرلمان – الذي وضع أموالاً غسيم مضمونة في الميزانية – فنحن نعرف أن الرضوخ لمطالب الشعب وتحدلته في حسال حدوث إهمال مالي يُعتبر من المهام الرئيسة والدائمة للبرلمان، لكن الأمر مختلسف في روسيا، ذلك أن الدوما (المجلس الأدبي في البرلمان الروسي) لا يشكل الحكومة وهو باتالي غير مسؤول عن سلوكها. وهذا كان سارياً في عهد يلتسين، ومسا يسزال سارياً في عهد يلتسين، ومسا يسزال

و لم تكن حكومة كيربينكو بمنائ عن المسؤولية على أي حال. فكيربينكسو كان يملك من المعرفة المالية ما يكفي لكي يدرك بأنه كان يستطيع تجنب الكارثــة عن طريق التخفيض التدريجي لقيمة العملة، لكنه لم يفعل ذلك، إما الأنــه كــان مذعوراً أو الأنه كان متأكداً بأن الحظ لن يحالفه. وإلا، فلأنه كان يعمــل لعسـالح الاثرياء المتفذين، كما الهمه يافلينسكي.

هرع الروس لإنقاذ أموالهم، محاولين سحبها من البنسوك الخاصدة، ولكن الكثيرين كان قد فقلوا كل شيء. حتى الأجانب فقدوا أموالهم أيضاً، فسأغلق الكثيرون منهم مكاتبهم ورحلوا. وهكذا بدا أن الحلم بالثروة الروسية قد انتسهى مرة واحدة وإلى الأبد. وبعد قليل من التردد، حلَّ يلتسين حكومة كيرينكو وقرَّر إعادة فيكتور تشيرنوميردين، الذي كان يعوَّل عليه، آسلاً في أن يستمكن ثقلب السياسي من إيجاد عرج من الورطة. أما يلتسين نفسه، فقد لزم بيته الواقع خسارج موسكو، لعدم قدرته على مواجهة شعبه الذي يراقب بلده وهو ماضٍ في طريقه غو الهاوية.

أثار غياب يلتسين أثناء الأزمة إشاعات تقول بتنجّه عن السلطة. ومنها مسا قالته شبكة سى بي أس الإخبارية في الولايات المتحدة، وهو أن الرئيس الروسسي وقع رسالة استقالته من منصبه وسلم كل السلطة إلى خلفه، على أن تُقرَأ بعد أن يقبل البرلمان ترشيح تشير نوميردين. وقد عمد المقرّبون من تشير نوميردين إلى نشسر هذه الإشاعة بحرص كبير، آملين بأن تساعد في دفع الأحداث في هذا الانجساة. وهكذا سارع العسّحفيون، مرة أخرى، لنشر أوراق نعي يلتسسين، مسن الناحيسة الساسية.

وأخيراً، عندما أصبحت شائعات استقالته القصة الإعبارية الأولى في ذلك الوقت، ظهر يلتسين على الملاً. حدث ذلك في 12 آب، حين قام يلتسين المسريض بتفقد الأسطول الروسي الشمالي وزيارة السفينة الحربية المسيرة على الطاقة النووية بمقرس الأكبر. كانت زيارته رسالة تحذيرية: "لا تقتربوا مني، فورائي قوة عسكرية تساندني" بالرغم من وحود مستشفى بكاملها ترافق يلتسين في ظهوره ذاك - مثل بريجينيف في أيامه - إلا أنه كان يستطيع إحداث الكثير من المشاكل فيما يسدو.

كان الدب العجوز بملك القدرة على إقالة الناس، وتغيير الحكومة، وإعادة تغييرها من حديد، واستخدام القوة إذا ما استدعت الضرورة. الله وحده كان يعرف ماذا يمكن أن يفعل زعيم الكرملين، الذي لا يمكن لمخلوق أن يتوقع سلوكه، إذا ما لهُدَّد أو شعر بالإحباط أو الفضب، أو إذا ما احتار فيما سيفعل.

في 28 آب، ظهر يلتسين في مقابلة تلفزيونية - لا بد ألها حُضَّرت وأنتحست بعناية فائقة - كانت الأولى له منذ وقت طويل. بدا يلتسين عجوزاً ومريضاً حسداً في تلك المقابلة، إذ كان يجد صعوبة واضحة في التكلم، وصعوبة أكبر في السنفكير. ولم تدبّ الحيوية في عروقه إلا مرة واحدة، حين صرَّح بحزم: "أنا لسن أسستقيل". حينظ فقط بدا عليه سيماء الأحياء، ولمع العناد القليم في عينيه. كان واضحاً أن المقابلة أجريت من أجل تلك العبارة بالذات.

ولكن الأحداث جاءت بعكس ما كان يشتهي يلتسين، وذلك حين رفسض البرلمان ترشيح تشير نوميردين. وهكذا بقيت البلاد، المثقل كاهلها باقتصاد متداع، بدون حكومة. كان بإمكان يلتسين أن يصرّ على اقتراح تشير نومير دين مرة ثانية، وثالثة، فإذا ما رفض أعضاء البرلمان مرشحه لمنصب رئيس الوزراء ثلاث مسرات، فسيصبح بإمكانه حل البرلمان والدعوة لإجراء انتخابات جديدة. وذلك كان يعن خوض حرب مع البرلمان. ولكن الرئيس لم يعد بإمكانه المضي قدماً لأنه لم يكن واقعاً من أن المجتمع وأجهزة السلطة الرئيسة (الجسيش، والبحرية، وأجهزة الاستخبارات، والشؤون الداخلية - سيلوفيكي كما تُدعى في روسيا) والأثريساء الإقليميين سيدعمونه بعد ذلك. وهكذا بدأ الذعر يدب في أرجاء الكرملين بشكل فعلي الأن، وقاطنوه الذين كانوا في الأمس القريب يقتلهم الزهو والغرور، أصبحوا فحاة مسكونين بالخوف الذي شارً قدوقهم على معالجة الفوضي المتعاظمة.

القى مشاهدو التلفزيون نظرة أخرى إلى الجنرال ألكسندر ليبيد – الذي لطالما أخاف الشعب الروسي بطموحاته الديكتاتورية – عندما وصل إلى موسكو والأمل يحدوه بأن يكون قد دُعي من أحل تولّي المسؤولية. قبل عدة سنوات، كان ليبيد واحداً من أكثر السياسيين نفوذاً في روسيا، ولقد حلَّ ثالثاً في الانتخابات الرئاسية لعام 1996، وكمكافأة على طلبه من مؤيديه إعطاء أصواقم إلى يلتمين في الجولسة

الثالثة، منع منصب وزير المجلس الأمني (الهيئة التي تنسّق أنشطة أجهزة الطلق الرئيسة). وكان ليبيد هو الذي وقع اتفاقية خازافورت للسلام مع الشيشان السق ألهت الحرب الشيشانية الأولى (1994-1996). لكنه لم يتمكن من كبت مطاعب الرئاسيه، الأمر الذي دفع بالرئيس إلى إقالته، وذلك في أواخر العام 1996. إلا أنب استطاع بعد ذلك الفوز في انتخاب الترشع على منصب حاكم إحدى أغنى المقاطعات التابعة لسبيريا، كرازنويارسكي كراي، وأصبع واحداً من القياصرة الإقليمين(أ).

لم يستطع الجنرال أن يكبح ابتسامة النصر وهو ينسزل على سلم الطائرة إبان عودته، وكان لسان حاله يقول، "حسناً، يبدو أنه يتوجب على إنقاذ هذا البلد!" كان يُعترَض بأن ظهور ليبيد في موسكو سيحث الكسرملين علسى الاستعداد لاستخدام القوة من أحل الحفاظ على السلطة التي كانت تُنتزَع منسه. ولكسن، لم يكن لهة داع لذلك، لأن الجميع يعرف بأن الجنرال كانت لديه طموحات واسسعة وبدون أية كوابح. باختصار، كان رحلاً لا يمكن الوثوق به. ولو آلت الأمسور في الكرملين بشكل أصبح فيه ليبيد منقذاً ليلتسين، لكان أقصى ما يمكسن أن يتوقعه لينسين وفريقه هو إحالتهم على التقاعد في اليوم النالي مباشرة.

__**__** ._

أظهر العام 1999، الذي كان حاسماً بالنسبة لمستقبل روسيا، كم من الأشواط قطعت روسيا بعد انتهاء عهود السلطة الاستبدادية الثابتة، التقليدية، وإلى أي حسد كانت ما تزال تعيش على نمطها، رغم أن السلطة انتقلست إلى السزعيم الجديسة بواسطة آليات ديمقراطية. كانت روسيا مزيجاً غريباً ومزعجاً مسن الاستمرارية والتغير، توليفة عجيبة من الحكم؛ روسيا القليمة ولكن مسم عناصسر ديمقراطيسة ليجرالية. إن الضعف الذي أصاب رئاسة يلتسين وتداعي سلطته، اللذين تسسارعت وترقما بعد الانحيار المالي، كشفا عن حوهر نظام الحكم الذي أوحده يلتسين، وهو "الملكية المنتخبة" في الحقيقة، إن يلتسين، التغييري الفريد من نوعه الذي وحمة ضربة قاتلة إلى الإمراطورية الروسية والشيوعية، قد ساعد، دون قصد في الحفساط

على خصائص "النظام الروسي" الذي تمكّن من البقاء على مرّ القرون، رغم مروره بحقبتي القيصرية والثورة البولشفية.

إن النظام الروسي هو نموذج بميز من أنظمة الحكم تشتمل مواصفاته علم مبدآ الرعاية الأبوية، وهميمنة الدولة على الفرد، والانعزال عن العالم الخارجي، مسع الطموح بأن تكون دولة عظمى. وفي قلب هذا النظام يتبع الزعيم الكلّي السلطة، الذي يعلو فوق القانون، والذي يحتكر كلّ السلطات، بدون أي محاسبة، والسذي يهمّش كل المؤسسات الأخرى ويحولها إلى بحرد وظائف إدارية ثانوية. إن النظام الروسي لم يكن بحاجة إلى قواعد ثابتة للّعبة، بل كان بجاحة إلى مصلحين.

إن ارتفاء يلتسين إلى السلطة من خلال انتصاره في انتخاب عادل ونسزيه قوض النظام الروسي وأدخل إلى الحياة السياسية في روسيا نوعاً جديداً من الشرعية الي قضت على قدسية السلطة وجعلتها تعتمد، ولو حزلياً، على المحتمع. لقلم أضعف يلتسين، بصفته رئيساً، النظام الروسي عن طريق فتح المجتمع على الفرب والابتعاد عن على الأقل بعض تناقضات القوة العظمي. لكن الزعيم غيم الشيوعي الأول لروسيا، بحفاظه على مبدأ حكم الرجل الواحد، قد حافظ بسذلك على رمز الفصور الذاتي للنظام الروسي، ليس في ذهنية الشعب وحسب، وإنحا في غوذج الحكم الرئاسي، وفي العلاقات بين السلطات والمجتمع.

لقد أثبت روسيا عبر ما شهدته في عقد التسعينيات بأن نظام حكم الرحل الواحد يستطيع أداء وظيفته بشكل حيد نسبيا في بيئة مستقرة ولكنه لا يسستطيع النحاح أبداً أثناء الأزمات، وخاصة إذا كان الزعيم غير قادر من الناحية الجسدية على القيام بالمهام الروتينية للزعيم، ولا يملك الدعم من الشعب، ولا يمكنه الاعتماد على الجيش وعلى أدوات الإكراه الأخرى. وبغياب المؤسسات الخسيرة، كان يلتسين مرغماً بالطبع على مشاركة السلطة مع أقرب الأشخاص إليه وأكسرهم مؤقية وإخلاصاً. ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء الأشسخاص الأكلسر إخلاصاً وموثوقية هم أفراد عائلته وبعض أصدقاء العائلة.

تضمَّ عائلة يلتسين السياسية آبنة الرئيس الصغرى تاتيانا (تانيا) داياشـــينكو؛ وصديقها المقرب، الذي تبيَّن لاحقاً بأنه كان عشيقها، فالينتين يوماشيف (تزوجــــا بعد استقالة يلتسين)؛ ورئيس أركان يلتسين، ألكسندر فولوشين، وأحد المتنفذين، روحان أبراموفيتش. أما بوريس بيريزوفسكي السيئ السمعة، وسيد المكائد، فقد كان زعيم المحموعة وعقلها المفكّر. هؤلاء هم الأشخاص الذين حكموا الكسرملين في أواخر التسعينيات واستمروا في بسط نفوذهم على السياسة الروسية.

إلها قصة تكرّرت في العديد من البلدان في مراحل تاريخية عتلف: الرَعيم القري الذي عمل حاهداً ولفترة طويلة على جمع كل السلطات في يديه، يصبح رهينة حاشبته عندما يتقدم في السن. ومن داخل سحنه، يراقب سلطته وهي تتراجع، وسمعته وهي تسوء. وقد يدرك، في بعض الأحيان، بأنه أصبح ضعيفاً أو حي أضحوكة، ولكنه في أغلب الأحيان، لا يدرك هذه الحقيقة.

كان من الصعب تخيَّل أن بوريس يلتسين، أو ما تبقى منه، في نحايسة التسعينيات هو نفسه ذلك الرجل الذي قاد موجة الديمقراطية في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات، والذي كان يستطيع الحصول على دعم غير مشسروط مسن الجماهير بمجرد حضوره. ذلك الزعيم، الذي جعل من إعادة روسيا إلى أوروبا وتحويلها إلى دولة ديمقراطية مزدهرة مهسته الأولى، انتهى به الأمر ليصبح سياسياً يعتمد اعتماداً كلياً على أتباعه في الكرملين، ويتحدر إلى مستوى يجعله يلحاً إلى المكائد والخدع البدائية من أجل البقاء في السلطة.

كل ظهور ليلتسين خارج الكرملين كان يشكل خطراً ليس فقط على هيبت الشخصية وإنما على هيبة البلاد أيضاً. وروسيا والعالم كله عرف بتصرفاته الغربية: يلتسين الثمل يقود فرقة موسيقية في ألمانيا، وفي مكان آخر، يخرج يلتسين بسبطء شديد من طائرته، منتفخ الوجه مترنح الخطوات، بعد تخلفه عن اجتماع رسمي مع رئيس وزراء إيرلندا. بالطبع، هذا ما وصلنا عبر وسائل الإعلام، أما ما لم تسستطع كاميرات المراسلين الغربين إلتقاطه، فما علينا إلا تخمين ماذا يمكسن أن يكون. وهكذا أصبح النظام الرئامي الجبار في الظاهر، ضعيفاً بشكل واضح مع تسدهور حالة يلتسين الصحية، ومتحولاً إلى سلطة شولية عاجزة وواهنة.

مع ازدياد ضعف فترته الرئاسية الثانية، تمثّلت استراتيجية يلتسين الأسلسية في مارسته للمسلمية عبر النفير الدائم لموظفيه. ففي سنوات رئاسته الثماني، غيّر يلتسين

رئيس الوزراء سبع مرات، والنائب العام ست مرات، ومدير جهاز الأمن الفدرالي (FSB) سبع مرات ووزير الشؤون الخارجية ثلاث مرات. في الحقيقة، أصبحت مسألة تغييره الدائم لفريقه السياسي أداته الأهم لتمسكه بالسلطة، حيث كانست تعطي انطباعاً - في الأسبوع أو الأسبوعين التاليين - بأنه ما زال محسكاً بزمام الأمور، كما كانت توجد نوعاً من الحاجة المحتلقة إليه كي يلعب دور المنسق والوسيط. بكلمات أخرى، كان الأمر كله لا يعدو كونه إيهاماً بالحكم.

بعد فقدالها الدافع إلى الإصلاح، تحوّلت السلطة المنتخبة إلى مصدر لعدم الاستقرار. ووفقاً للدستور الروسي، الذي عدّله يلتسين بعد حلّ للبرلسان في العسام 1993، لا تملك الأطراف المنتخبة في البرلمان الحقّ في تشكيل الحكومة ولا يملك البرلمان المشكلي أي فرصة حقيقية للتأثير في سياساتها. وهكذا قدّم الحكم لروسيا برلماناً غير مسؤول مع نظام متعدد الأحزاب، غير مسؤول أيضاً، حافظاً على وحودها عن طريق شن هحمات دائمة على السلطة التنفيذية. وبحلس الوزراء، الذي يُشكُل مسن قبل الرئيس وتابعية، ليس أكثر مسؤولية على أي حال. وهو يتألف، بكامله تقريساً، مسن الرئيس جماعات متنفذة يعملون من أحل خلمة مصالحها. بالطبع، مثل هذا النظام لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يواجه التحديات التي كانت تواجه روسيا. وأقصى ما كنه يمكنه الميام به هو المحافظة على الوضع الراهن.

_ **...** __

إن حلَّ ما كان يشغل يلتسين في العام 1999 هو إيجاد مرشح لمنصب رئسيس الوزراء يكون مقبولاً من البرلمان، وفي الوقت نفسه لا يشكل تحديداً له. وفي هسذا الشأن، كان عمدة موسكو يوري لوجكوف - كما كان يبدو - يظنَّ بأن الوقت قد حان بالنسبة إليه لكي يحظى بالعرش الروسي. ولهذا السبب بالذات، كان ينبغي عليه أولاً أن يصبح رئيساً للوزراء. ووفقاً للدستور الروسي، فإن أفضل فرصة لرئيس الوزراء لكي يتسلم الرئاسة تأتي من خلال استقالة الرئيس لأسباب صحية. في هذه الحالة، ينظم رئيس الوزراء انتخابات جديدة، مما يسوفر له - وعلى الأحص في روسيا - كل الموارد اللازمة لضمان نجاحه.

إلا أن المشكلة كانت في أن بعض أعضاء فريق يلتسين نفسه كانوا يراهنسون على لوحكوف، الأمر الذي كان يوحي بوجود شعور بالالهزام يخيم علسى هسذا الفريق. بيد أن لوحكوف، العنيد والمستقل – الذي حكم موسكو علسى طريقة عزابي المافيا – لم يكن مقبولاً على الإطلاق من قبل الرئيس، أو بالأحرى، من قبل عائلته. لكن المشكلة الأكبر التي كانت تواجه فريق يلتسين كانت تكمن في حاشية لوحكوف، فلقد كان واضحاً، حتى بالنسبة لمراقب غيى، العسداوة بسين حاشسية الكرملين وحاشية موسكو، وكانت هذه العداوة تتطور في بعض الأحيان لتتحسول الى حرب مفتوحة.

عندما ظهر اسم وزير الخارجية يفغيني بريماكوف على الساحة السياسية، قرّر يلتسين على الفور بأنه مناسب لشفل منصب رئيس الوزراء لديه. وكان غريفوري يافلينسكي، زعيم الحزب الديمقراطي يابلوكو، أول من اقترح هذه الفكرة. كسان يافلينسكي يجد بريماكوف أقل مكراً من المرشحين الآخرين للمنصب، وكان يعتقد بأنه لن يرغب بأن يصبح رئيساً بل سيكون بجرد شخص انتقالي يساعد روسيا على تجنّب حدوث انقلابات، أو اضطرابات سياسية من أي نوع كانت خلال انتقسال السلطة الحتمى من يلتسين إلى حَلَفَه.

كان بريماكوف شيوعياً سوفياتياً خبيراً يعرف كيف يحافظ علمى علاقسات حيدة مع كل المجموعات الهامة. فلقد نجح في تجاوز محنة الهيار الاتحساد السسوفيائي دون أن يعادي غورباتشوف أو يلتسين. حتى أنه كان صديقاً لكل مسن السرئيس العراقي صدام حسين ووزيرة الخارجية الأميركية مادلين أوليرايت! كان بريماكوف يتحبّ الصراعات ويعرف كيف ينتظر، والأهم من هذا وذاك أنه كسان يعسرف كيف يكون. مخلصاً دون خنوع. هذا هو الرحل الذي يمكن أن يحظى بدعم الجميع على تنوع مشارهم؟ فهو محافظ معتدل كان في ذلسك الحسين النمسوذج المشالي للاستقرار الذي كان يتطلع إليه، ويحتاجه، أغلب الشعب الروسي.

على أي حال، عرض يلتسين منصب رئيس الوزراء على بريماكوف، فسرد عليه هذا الأخير، كما حاء في كتابه (سنوات من العمل السياسي الناجع)، "رفضت بشكل قاطع" غير أنه، بعد خروجه من مكتب يلتسين، هرع إلى ابنة الرئيس الصغرى، تاتيانا داياشينكو، وصديق العائلة فسالينتين يوماشسيف – أي الشخصين اللذين كانا يمكمان الكرملين – اللذين نجحا في إقناعه بقبول عسرض يلتمين. وقد فسّر بريماكوف تحولًه هذا بقوله: "لبرهة، تراجع المنطسق وسسيطر الحدم"

بتسميته بريماكوف رئيساً للوزراء، استطاع يلتسين تمديد فترة حكمه لفتسرة وحيزة. في بدايات العام 1999، ومع تحول الثقل السياسي إلى بحلس الوزراء، ساد نوع من الحكم المزدوج اللارسمي في روسيا، وذلك بعد أن أدخل رئيس السوزراء المحديد المقريين إليه إلى الحكومة وجعلها المؤسسة الأساسية في صنع القرار بحيست ألها لم تعد تنظر النصائح أو المصادقة من المستشارين الرئاسيين - وهذا التطور لم يحظ بترحيب عائلة يلتسين على الإطلاق. وهكذا بدأ "حسرب حساكم" جديسد بالتشكل حول بريماكوف، وانضمت إليه كل المجموعات ذات المصالح التي لم تكن راضية بالأدوار المعطاة لها.

كانت المرة الثانية، خلال عقد واحد فقط من تاريخ روسيا ما بعد الشيوعية، التي تبدأ فيها المطالبة بإعادة توزيع السلطة في الحكومة. حدثت المحاولة الأولى أثناء الصدام الذي وقع بين الرئيس والبرلمان بين عامي 1991 و1993، عندما تنافسست السلطتان التنفيذية والتشريعية لمعرفة من الأكثر نفوذاً. لقد انتهى ذلسك العسراع بشكل مأساوي: بحل البرلمان، وإعطاء يلتسين الأمر بالهجوم على "البيت الأبيض"، وهو مبنى العملان السابق في موسكو. لم تكن عمة إمكانية للفصل بسين المسلطتين بشكل سلمي، لأن كل واحدة منهما كانت تريد احتكار السلطة لنفسها وكلتاهما لم تكونا مستعدتين لوضع قيود على نفسهما.

في العام 1999، بدأ بركماكوف عملية إعادة توزيع الموارد السياسية ضمن السلطة التنفيذية. وتضمنت هذه العملية تعزيز سلطة بحلس الوزراء، الذي لم يكن ابدأ مستقلاً أو قوياً في روسيا، واستلام رئيس الوزراء الأجندة الاقتصادية. أمسا بالنسبة لما تبقى من أجهزة الحكم، بما فيها السياسة الأمنية والسيطرة على أجهزة السلطة الرئيسة، فقد بقيت في أيدي فريق يلتسين. كانت عملية إعادة تقسيم للسلطة ضمن السلطة التنفيذية، بحيث جعلت من القسمة بين السرئيس وبحلسُ

الوزراء ورئيس الوزراء أكثر تساوياً مما كانت عليه في السابق. لقد أعربت عدة قوى سياسية متنفذة - الشيوعيون إضافة إلى ممثلين عن نخب محلية أساسية - عن مسائلة المفتوحة لفكرة الإصلاح البنيوي التي ستزيل السلطات الزائدة للسرئيس، وتصادق بشكل قانوني على مسألة تغيير القوانين التي استهلها بريماكوف. انسهت المقترحات الأساسية بشأن الإصلاح إلى الفكرة التي تقول بضرورة تحوُّل روسيا إلى نظام حكم مركب، يضم الرئيس ورئيس الوزراء، بحيث تستقص فيه السلطة الشخصية للرئيس والعرلمان فيما يمثلك بحلس الوزراء الدور الأكبر.

كان الإصلاحيون الليبراليون الروس، وعلى الأحص أولف المقربسون إلى غايدار وتشوبايس، منذ البداية معارضين لنظام مولف من قوى موازيسة لسلطة الرئيس، لأهم كانوا يعتقدون بأن ذلك قد يبطئ الإصلاح الاقتصادي. وكان موقفهم مفهوماً، لأن الجناح اليساري المهيمن على البرلمان - الأمر الذي كان يعزز من قوة السلطة التشريعية ويشكّل الحكومة، وهذا هو الأهم، على أساس الأغلبية البرلمانية - يمكن أن يسبب مشكلة للإصلاح الاقتصادي. إذاً، خشية من العواقسب الاقتصادية، عارض الإصلاحيون الليبراليون مبدأً في غاية الأهمية من مبادئ الليمقراطية الليبرالية، وهو مبدأ "توزيع السلطة" التي تضمنه المؤسسات القوية.

وهكذا وقعت روسيا في فغ تاريخي، يمعني أن أولئك الذي يسمون أنفسهم ليبراليين لم يثقوا بالمؤسسات التمثيلية أو المجتمع، لأغم كان يخافون إطلاق عنال السياسة الشعبوية. لقد كانوا يفضلون ترك الحكم حصرياً في يدي الزعيم، حاعلين من السياسة الشعبوية لم تكسن من أساس، بالرغم من أن الحكم من خسلال الأسسلوب الرئاسي المطلق بلا أي أساس، بالرغم من أن الحكم من خسلال الأسسلوب الرئاسي المطلق الصلاحيات لم يعمل من سرعة عجلة التحول الاقتصادي في روسيا بأي حال من الأحوال، بل على العكس من ذلك تماماً، إذ إن الإحراءات الإصلاحية التي حايت عن طريق المراسيم الرئاسية كانت تفتقر إلى الشرعية، وغالباً ما كانت تفعل عسن قبل عدد كبير من البيروقراطيين وكذلك من قطاعات احتماعية كانت تشعر بسأن تلك المراسيم تشكل قمديداً لمصالحهم. والأهم من ذلك أن السلطات الواسعة للرئيس شحعت أولئك المتنفذين على المضي نحو مزيد من الاستبداد الصريح.

صحيح أن يلتسين لم يسلك هذا الاتجاه، لكن خلَّفَه قد يحاول.

إضافة إلى ذلك، فإن ضعف المؤسسات كان يعني أن الرئيس مسرغم علسى الاهتمام بإدارة الشؤون اليومية للبلاد، وهو أمر مرهق حتى بالنسبة لشخص أقوى وأكثر قدرة على التحمل من يلتسين. فعندما كانت سياسته ثبت فشلها، كان بسساطة يقيل جميع أعضاء الحكومة، أو يقيل رئيس الوزراء، الذي كان في عهده بحرد موظف معين من قبله بدون حزب قوي يدعمه في البرلمان. من هنا، فإن نحود الحكم في سنوات يلتسين، التي كان تحلاها مجلس الوزراء ضعيفاً - وكان في واقع الأمر امتداداً لفريق الرئيس - هو الذي أفسح المحال لتصرفات الزعيم الشاذة والمعالم.

في بداية العام 1999، قدَّمت حكومة بريماكوف، المدعومة من الدوما، أكثـــرٌ، الميزانيات ليبراليةً في تاريخ روسيا، حيث قامت بتخفيض إنفاق الحكومة وجعلـــت من مسألة السيطرة على التضخم هدفاً من أهدافها. والأمر الأكثر إثارة للــنهول في كان تأييد الحزب الشيوعي للتقشف الاقتصادي. يبدو أن الجناح اليساري، المرغم على تحمل مسؤوليات الحكومة، كان مضطراً لوضع حدّ لشهيته.

غير أن "صيغة بريماكوف" لم يتسنَّ لها أن تصبح حزءاً من الدستور. فغي 12 أيار 1999، أرغم بريماكوف على الاستقالة، وفشلت بذلك تجربة فصل السلطات في روسيا؛ وعلى الأخص إعادة تقسيم السلطة التنفيذية. وبعد الاستقالة مباشرة، أحرت "مؤسسة الرأي العام" استطلاعاً حول مسألة الإقالة، فأعرب 18 بالمائة من المشتركين فيه عن عدم موافقتهم على ذلك، بينما بلغت نسبة الموافقين 8 بالمائه من فقط. وقد قال 22 بالمائة بأغم سيصوتون لبريماكوف إذا ما رشع نفسه لمرئاسة، متفوقاً بنسبة 15 بالمائة على زعيم الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف، و11 بالمائة على الوحكوف. وهكذا بدا أن بريماكوف أصبح يحظى بنعية حيدة، وأنه يملك فرصة مواتية لكي يصبح أكثر من بحرد شخص انتقالي.

بريماكوف ليس ديمقراطياً ولا ليبرائياً بطبيعته - ولم يكن كفلك أبداً من قبل - بل هو مناصر للرأسمالية البيروقراطية، ومعروف بكرهه للانتقباد وبارتياب مسن الصحفين 6، ولهذا السبب، يرجّع أنه لم يكن ليحتمل المعارضة فيما لو تستى له الفوز بالسلطة. إضافة إلى ذلك، فهو لا يثق بالغرب، وعلى الأحسص الولايسات المتحدة؛ وعندما علم بقصف حلف الناتو ليوغوسلافيا في آذار من العسام 1999، وكان في ذلك الحين في طريقه إلى الولايات المتحدة، طلب بريماكوف من الطسار أن يدير الطائرة ويعود أدارجه إلى موسكو، ومنذ ذلك اليوم اشتهرت هذه الحادثة بالطبع، حعلت منه بطلاً في روسساً على الفور.

على أي حال، ينبغي علينا ألا تنفق الكثير من الوقت في رئاء بريماكوف. صحيح أنه أعطى دفعة إلى التغييرات الدستورية التي قلصت السلطة الهائلة التي كان يستع بما الرئيس الروسي، لكننا إذا ما وضعنا في أذهاننا نفوذ الجناح البساري والقوى المركزية، فإننا سنعرف بكل تأكيد أن مثل هذه التغييرات كان من شالها أن تبطئ التحول الاقتصادي حتى أكثر مما كان عليه حاله. وفوق ذلك، ليس لدينا أي سبب وحيه يدعونا للتصديق بأن بريماكوف كان سيشرع ببناء مؤسسات قوية بعد اعتلاله سدة الحكم. وأخيراً، قد نستنج من كل ما سبق أن بريماكوف لم يكن ليقوم بذلك التحول المؤتد للغرب الذي قام به بوتين في 2001، وهذا بحسد ذات يدفعنا لأن لا ناسف على رحيله. عصام الصيول عند المحرف المقتصة ملاغرب

9

لماذا لم تنجع تجربة بريماكوف الا يُعقَل ألها لم تنجع لأن يلتسين لم يكن المستطاعته تحمّل أن يصبح مكتب رئيس الوزراء هو محور أنشطة الحكومة. لقسد كان ذلك أحد العوامل بالطبع، ولكن العامل الأهم هو أن سيطرة عائلة يلتسين على السلطة وفق صيغة بريماكوف لم تكن مضمونة، إذ إن وحسود رئسيس وزراء مستقل مدعوم من بحلس الدوما ومع وجود قاعدة سلطته ضمن جهاز الدولة لم يكن ليسمع لفريق يلتسين بتسمية أي شخص آخر، غير بريماكوف، كوريث

37

ليلتسين. وعائلة يلتسين لم تكن تريد أن ترى بريماكوف القوي والمستقل، والـــذي لا يرتبط بأي إلتزام مع العائلة، وريثاً.

وهكذا عاد إلى الساحة من حديد تقليد روسي قديم مسع اقسراب مسألة المخلافة: إنه الفشل في تأسيس الآليات اللازمة لإحراء انتقبال شسرعي وحقيقي للسلطة. فقد شهدت روسيا في السابق، بفضل افتقادها إلى مثل هذه الآليات، الكثير من انقلابات القصور أيام حكم القياصرة، ولاحقاً الانقلابات العسكرية التي حلبت معها أمناء عامين حدد للحزب الشيوعي. وحسى انتقبال السلطة من غورباتشوف إلى يلتسين في كانون الأول من العام 1991 كان قد ترافق مع سقوط الحكومة، وانحذ شكل انقلاب أدير من قبل ثلاثة زعماء جهوريين، كان بلتسين أحدهم. وبعد لهاني سنوات، عندما تلاشي نفوذ يلتسين وتشكلت شبكة حفيد حوله، انخذت مسألة كيفية حل مشكلة انتقال السلطة صييغة دراماتيكية، إذ إن الحل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار الآن تحدياً آخر، وهو ضمّ رغبة طبقة النحبية في الاستمرار في الحكم مع الآليات الديمقراطية الجديدة في روسيا، وعلى الأحص منها الانتخابات.

لم يكن فريق يلتسين يريد فقط أن يحصل على ضمانات تكف حمايت في المستقبل، بل كان يريد الاحتفاظ بالسيطرة على ما جمعه، هو والأثرياء المتنف ذون المستقبل، بل كان يريد الاحتفاظ بالسيطرة على ما جمعه، هو والأثرياء المتنف أون القريبون منه، من سلطة وثروة خلال حكم يلتسين. كان باستطاعة برماكوف أن يضمن سلامة يلتسين، ولكن لم يكن باستطاعته أن يعد بحياة آمنة لكامل حاشيته؛ وخاصة لأنه بحرًا بعد تعييه رئيساً للوزراء على إعلان الحرب علسى الفساد، أي على طبقة النعبة القوية القرية من الكرملين. لقد انتشرت شائعات في موسكو تقول بأن القوات الخاصة الموالية لبريماكوف كانت قد أعدّت لائحة بأسماء الضحايا المختملين، وعلى رأس هذه اللائحة - وفقاً لتلك الشائعات - كان يوحسد اسسم بوريس يويزوفسكي، صديق ومستشار ابنة يلتسين تاتيانا، وسياسي عنك مشل لكن استعداء بيريزوفسكي كان أمراً خطراً حق بالنسبة لذئب سياسي عنك مشل

لم يكن بيريزونسكي وحده من يجد يريماكوف مثيراً للإزعاج، إذ إن العديـــد

من المويدين الآخرين ليلتسين كانوا يشاركونه الرأي نفسه. مشل التكنسوة واطين والبيروقراطين، الذين خرجوا فائزين من عملية تقسيم السلطة والشروة في عهد يلتسين، فأولئك لم يكونوا أقل اهتماماً منه رأي من يلتسين) بالمحافظة علسي الشبكات الخفية، التي مكتنهم من عقد صفقات مرجمة خلف الكواليس، ولا أقسل تخوفاً من موقف بريماكوف المعادي للفساد. كما أن بريماكوف يموقفه المتشكك من الحريات السياسية، وبشكل خاص حربة الصحافة، كان يثير قلق الليبراليين، من الحريات السياسية، وبشكل خاص حربة الصحافة، كان يثير قلق الليبراليين، الذين لا يمكنهم أن يعذروا له عدم ثقته في الفرب ولا حتى موقفه المتسسلب مسن القوى الغربية. من هنا، لم يكن بريماكوف قادراً على ضم مصولي يلتسسين إليسه، الذين كانوا يتضمنون ليس فقط طبقة النحية والليم اليين، بل كل أوك ك السذين استفادوا من حكم يلتسين.

لكن تحدّي بريماكوف لزمرة يلتسين، في واقع الأمر، هو الذي وقسع على شهادة موته السياسي. فحاشية يلتسين لم تستطع أن تغفر لرئيس الوزراء سلطته التي جمعها، أو قديده باستخدام تلك السلطة ضد بعض أعضاء الزمرة الحاكمة في الكرملين. كان واضحاً من طريقة تصرف يلتسين أثناء لقاءاته مع رئيس السوزراء بأنه لم يكن يجبه أو يثق به. حتى أنه صرَّح في وقت لاحق بأنه لم يكن ينوي تسليم بريماكوف السلطة وأنه كان ينظر إليه على أنه شخص انتقالي. "ساعدني يغفين ماكسيموفيتش بالصلفة على تحقيق هدفي السياسي الأساسي، ألا وهسو إيهسال البلاد إلى العام 2000 وإلى الانتخابات بشكل هادئ. وبعد ذلك، كمسا كنست أعتقد في ذلك الحين، كان بإمكاننا جميعاً أن نبحث عن سياسي شساب وقسوي لتسليمه عصا القيادة السياسية"، كما كتب يلتسين، بشكل غير عظمى إلى حدًّ ما، اعن بريماكوف في كتابه "الماراثون الرئاسي" (5).

ي الشهر الأخير من حكم يلتسين، أصبح الرئيس وفريقه عسدائين بشكل صريح نحو رئيس الوزراء المستقل. عندما ظهر الزعيمان معاً في التلفزيسون، بسدا يلتسين متحهماً، غير قادر على إخفاء انسزعاجه، وتحاشى أي التقاء لعينيه مع عيني بريماكوف. أما رئيس الوزراء فقد حاول جاهداً أن يبدو هادئاً، ولكن كان واضحاً تماماً كم كلفه ذلك. في كتابه "الماراثون الرئاسي"، شرح يلتسين عدم رضاه عسن

قوله أن بريماكوف جمع حوله عدداً من نخبة المحتمع الذين كانوا يحلمون "بـــالعودة إلى الأساليب القديمة" لكن الأمر الذي وحده يلتسين لا يُغتفَر هو أن بريمـــاكوف كان قد أصبح في نظر الكثير من الشعب الروسي مرشحاً لخلافته من غير رضاه.

تسارعت وتورة خطط يلتسين في التخلص من بريماكوف مع اقتراب موحسد تصويت أعضاء البرلمان من أحل محاكمة الرئيس، والذي حدَّده الشيوعيون في 14 أيار 1999. لقد خشي الكرملين أن تؤدي محاكمة يلتسين المحتملة من قبل المحلس الفلرالي – المحلس الأعلى في البرلمان الروسي، الذي كان عداؤه للسرئيس يتزايسه باضطراد – إلى تعزيز سلطة ثاني أكبر شخصية متنفذة في روسيا بعد تنحية يلتسين. في النهاية، قرَّر المحارب الخبير داخل يلتسين توجيه ضربة استباقية. فقبل يومين فقط من التصويت المذكور من قبل المجلس الفدرالي، ودون سابق إنسذار، أقسال يلتسين رئيس الوزراء. يبدو أن الخطر قد أعاد النشاط والعزم إلى يلتسين الضعيف

يلتسين رئيس الوزراء. يبدو أن الخطر قد أعاد النشاط والعزم إلى يلتسين الضعيف والمرهق، وزاد من حدة حاسة الشم السياسية لديه، لأنه بدا قادراً ليس فقط علسى اللفاع عن نفسه، بل على المبادرة إلى الهجوم أيضاً. لكن الحقيقة كانت شيئاً آخر عمانًا، وهي أن يلتسين لم يكن يستطيع أن يتحمل وجود شخص بجانبه، لأنه كسان يريد أن ينفرد تماماً بالسلطة.

على كل حال، فبر عاكوف لم يتوسل إلى يلتسين كي يبقيه في منصبه، بمكس ما قام به عدة رؤساء للحكومة وتقريباً كل مستشاري يلتسين الآخرين، الذين وحدوا أنفسهم في نفس الموقف. "أنا أقبل بقرارك، لأن الدستور يكفسل لك هذا الحق، ولكنني أعتبره خطأ " هذا كل ما قاله بر ماكوف خلال وداعه ليلتسين قبل مفادرته الغرفة. لقد تقاعد بكرامة، دون أن يطلب أي شيء مسن أي أحد.

لم يُرْ رحيل بريماكوف مظاهرات في روسيا، بالرغم من قلق الكرملين مسن ردة الفعل هذه، بيد أنه كان بمثابة ضربة ثقيلة إلى الحاشية التي تشسكلت حسول رئيس الوزراء وحلمت بمناصب مستقبلية. ولهذا السبب بدأت "عائلة بريمساكوف السياسية" بالتلمس حولها بحثاً عن ملحاً آخر، حتى أن بعض أعضسائها حساولوا كسب رضا يلتسين من حديد. لأنه عندما يكون الزعيم هسو المسسدر الوحيسد

للسلطة والحياة السياسية، فإن المهارة الوحيدة التي تستحق أن يمتلكها السياسي هي قلرته على رؤية الإتجاه الذي تسير وفقه السلطة. تحت مثل هذه الطسروف، مسن الصعب البقاء مخلصاً للأشخاص أو المبادئ. وحِمَّا المُستخص بسسيم ﴿ دُرُيُّاً.

-9-

وهكذا فشلت محاولة التخلص من يلتسين، وتركت إقالة بريماكوف المارضة بلا أي قوة. وهذا بالطبع ساعد على إحداث حوَّ جديد في الكرملين، حيث مسنح الفريق الرئاسي شعوراً جديداً بالقوة والتصميم والثقة بالنفس. وكانت كل طاقاقم موجهة نحو تسوية مسألة واحدة، وهي إيجاد وريث سياسي يدين بالولاء ليلتسين ولهم. في ربيع العام 1999، بدا يلتسين بأنه كان يفكر في مغادرة المسرح السياسي بشكل دائم. وكانت حاشيته تعاني الأمرَّين في السيطرة على سلوكه والمحافظة على عميلية النظاهر الذي كان هو نفسه بطلها.

اشتد مرض يلتسين إلى درجة كبيرة في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أنه كان يشهد فترات متقطعة يبدو فيها بأنه حاضر تماماً من الناحية الذهنية والبدنية، إلا أن المرء يشك في أن ذلك الحضور كان يحدث فقط بسبب فعل الأطباء وتأثير الأدوية. كان القيصر بوريس يلتسين ينهار شيئاً فشيئاً، والهياره هذا كان يستير الخوف والشفقة في آن معاً. فهوء من جهة، زعيم دولة نووية كبرى؛ ومن جهة أحرى، إن مراقبته تجعلك تشعر بأنك ترى حنازة سياسية لرجل كان ذات يوم قوياً ومهياً. في ذلك الحين، لم يكن أي شخص يعتقد بأنه سيعود إلى الظهور على المسرح السياسي من حديد. لكن يلتسين كان دائماً قادراً على إدهاشسنا، إلا أن ذلك السياسي من حديد. لكن يلتسين كان دائماً قادراً على إدهاشسنا، إلا أن ذلك سيحدث بعد فترة طويلة؛ بعد تركه منصبه كرئيس للدولة.

مع ازدياد ضعف يلتسين، ازداد اعتماده على من حوله من أشخاص، وبخاصة ابنته الصغرى تاتيانا، التي كانت في منتصف الثلاثينيات من عمرها آنذاك. وقد اعترف يلتسين في "الماراثون الرئاسي" بأن تاتيانا لعبت دوراً جوهرياً في الكرملين: "لقد ساعدتني تانيا بالفعل من خلال حضورها المتواضع ونصائحها الستي كانست تسديها إلى في الأوقات الحرحة".

هذا تقدير متواضع حداً لمساهمة ابنته الصغرى على أي حال، ففسى واقسع الأمر، أصبحت تاتبانا في السنوات الأخيرة من فترة حكمه الثانية الحاكمة الفعلية للبلاد. وحدث ذلك في بداية العام 1996، عندما كان الصحافي فالينتين يوماشيف إيقاء يلتسين لفترة رئاسية ثانية، وكان صديق العائلة، الصحافي فالينتين يوماشيف هو صاحب فكرة الإتيان بتاتبانا إلى الحملة الانتحابية لكي تكون صلة الوصل المباشرة بين فريق الحملة والرئيس. وهكذا وحدت المرأة الشابة الجميلة، الطفلة من الناحية المعلية نظراً لخبرهما المحدودة في الحياة، نفسها فحاة في خضمة الأحسدات السياسية الكوي.

ق أيام بريجينيف الأخيرة، كانت بمرضته الشخص الذي يمتلك التأثير الأكبر عليه. أما يلتسين فقد كانت ابنته الصغرى، ولكن كان يمكن أن تكون بمرضته، أو سائقه أو حتى طباخه، إذ قبل أن تصبح لعائلته التأثير الأكبر عليه كان الحارس الشخصي ليلتسين، ألكسندر كورجاكوف، صاحب النفوذ الخفي في الكرملين⁽⁶⁾. في الواقع، في المسرح السياسي الذي يحتله رجل واحد وخاصة إذا كان رجلاً ضعيفاً كيلتسين ومع غياب المؤسسات المستقلة، يمكن للسلطة أن تصبح، عندما يدخل الزعيم في مرحلة التداعي، في أيدي أشعاص آخرين بشكل عشوائي تماماً.

بعد العام 1996، سيطرت تاتيانا تدريجياً على كل التعيينات الهامة في السبلاد. وكان كافياً أن تلوي وجهها بتكشيرة تنم عن الكره كي يُقال أحد الأشسخاص، أما إذا علت وجهها ابتسامة من الرضا عن شخص آخر فهو يوم سعده الذي أتسي من غير موعد. وهكذا، أبعد كل الأشخاص الفاعلين في حاشية يلتسسين ليحسل علهم إما أناس بحهولون كانوا يفضلون العمل خلف الستائر، أو أناس علمو الرحمة للمرحة ألهم لم يكونوا يجدون أي غضاضة في إظهار طبيعتسهم هسله. بكلمسات أخرى، لقد اختير فريق يلتسين الأخور ~ الفريق الذي أعد مشروع الوريث - من قبل ابنته وأصدقائها المقرين.

أصبح أصدقاء تاتيانا مدراء المؤسسات الحكومية، وحصلوا على قطع ضخمة من أملاك الدولة. وكانت تاتيانا هي التي تقرر موعد ظهور الرئيس أمام الشــعب

وهي التي تعد مسودات خطاباته. كانت تتحكم بعواطف - وفي المرحلة الأخيرة - وبسلوك أبيها الذي كان يزداد عجزاً وقلة حيلة مع مرور الوقست. صحيح أن يلتسين كان عنيداً وأنانياً، لكنه كان يحب تاتيانا، ولهذا السبب تركها تفعل معه تقريباً كل ما كانت تريد، إلى درجة أنه تحوّل إلى ألعوبة بيديها. وهكذا أوصلت التقاليد الروسية وضعف المجتمع المدني البلاد إلى مرحلة لم يعد باستطاعتها أن تفعل شيئاً سوى الجلوس ومراقبة أحداث الهيار السلطة والدولة وتسداعي شخصية الرئيس.

في لهاية التسعينيات دخلت روسيا حقبة العائلة السياسية، وهي الحقبة التي دان فيها الحكم لابنة الرئيس وأصدقائها الذين لا يتمتعون سأى عيم ق أو حنكة أو موهبة. لكن الوضع أصبح أكثر سوءاً مع الفريق الحاكم التالي، الأمر الذي يثبـــت بأن الحكم المرتكز على الولاء والالتزامات المشتركة لا يمكنه أن يأتي أبدأ بأشخاص لامعين ومسؤولين إلى المراكز العليا. ولم تكن أسماء أصدقاء تاتيانا، حسني الأكثر أحمية منهم - فالينتين يوماشيف، ألكسندر فولوشين، رومان أبر اموفيتش - تعين شيئًا بالنسبة لأي شخص في روسيا، باستثناء مستشار تاتيانا، بيريزوفسكي، العقل الْمُفكِّر الأول في حاشية القيصر، الذي كان معروفاً بشكل حيد، وكان ذلك يعود فقط إلى أنه كان ممن يحبون الظهور. ولكن، في السنوات الأخيرة من عمـــر إدارة يلتسين، أرغم بيريزوفسكي على الخروج من التركيبة بواسطة أشخاص أصغر سناً منه، رغم أنه هو من قدَّمهم إلى ابنة الرئيس، إلا أن الأخيرة شعرت بارتياح أكـــبر معهم؛ أشخاص مثل أبراموفيتش وفولوشين اللذين كانا يمتلكان ماضياً غريباً، وحتى مثيراً للربية، ممزوحاً بصفقات غير شريفة(7). من الجائز أن هؤلاء الأشخاص، الذين برزوا على السطح فحأة وأثاروا إعجاب ابنة الرئيس وأصبحوا أصدقاءها المقربين، كانوا يتكلمون لغتها ويشاركونها المصالح ذاتها. ومن المرجّع أيضاً أنهـــــم قدُّموا خدمات متنوعة إلى عائلة يلتسين مما قرُّهم من العائلة وربطهم معها بربـــاط وثيقر.

مع اعتباد الأخوة في الكرملين على سيارات الليموزين المصفّحة والحسراس الشخصيين الرسميين، وعلى فتح كل الأبواب أمامهم وعدم وجود أي مراقبة على

تصرفاقم، فقلوا كل إحساس لديهم بالحدود. فبدأوا بتشويه سمعة كل الخصوم المختملين والمنافسين الاقتصادين، كما في الأيام السوفياتية الفابرة، و لم يسلم مسن شرهم - بالطبع - إلا الخاضعين والمطبعين. إنه لأمر جيد، علسى أي حسال، أن تكون العائلة مدفوعة فقط بدافع الجشع وحده، وأن أعضاءها، لحسن الحظ، لم يكونوا مهتمين في السياسة الخارجية أو العلاقات الدوليسة في مسا بعسد الحقيسة السوفياتية. إلهم لم يجدوا متعة في بناء الدولة. وكل ما كانوا قادرين على فعله هسو تحريك القطع على وقعة الشطرنج السياسية. بيد ألهم أتقنوا هذه اللعبة إتفاناً كاملاً، حيث إلهم أداروا شبكة سرية واسعة من الأنشطة كانت تحدف إلى إحداث انطباع طاهري بألها كانت تحدث بأمر من الرئيس، المحوز العليل، الذي أمن بسدوره - رعا دون إدراك منه - الفطاء لهم. وهكذا، قام هؤلاء الأصلقاء الفاسلون وشركاء الأعمال المتآمرون، من موقعهم في داخل الكرملين، بتكوين ثقب أسسود هالسل لشغط الأموال خارج روسيا، وإلى جيوهم بالذات.

ثم حاءت اللحظة التي أصبحت فيها مسألة الخلّف أكثر أهمية بالنسبة لحاشسية الكرملين والمقربين إليهم مما هي بالنسبة ليلتسين نفسه. وكلمسا ازداد ضعف الرئس، كلما كانت حاجة العائلة لإيجاد خلّف له يمكنها الاعتماد عليه بعد رحيله تصبح أشد إلحاحاً. لقد أصبحت رغبتهم بالبقاء على الساحة السياسية واستمرار نفوذهم شاغلهم الأوحد طوال العام 1999. وكان يتوجب على الوريث أن يكون تعضراً بشكل شرعى من خلال خدمته كرئيس للوزراء، وذلك كي يكون معروفاً من قبل الطبقة السياسية، إذ كان فريق الكرملين يدرك تماماً بأن تنصيب مرشحهم على عرش يلتسين بشكل مباشر لم يكن بالأمر الممكن أبداً، حتى بالنسبة لمتمسع روسى صبور.

إلى الواقع، حتى يلتسين نفسه شغله أمر الوريث لفترة ما. فقبل العسام 1997،
 كانت أهداف يلتسين مختلفة تماماً، إذ كان مهتماً في ذلك الحين بإيجاد زعيم يمكنه
 الاستمرار في مهمته، أي السعى لتحقيق إصلاحاته. ولكنه، بدءاً من العسام 1997،

شرع بالنظر حوله، متأملاً في من يمكنه أن يأتمنه على إرثه السياسي. في البداية، بدا أنه كان معجباً بشكل خاص ببوريس نيمتسوف، حاكم نيحني نوفغورود، وهـــو شاب ليبرالي حريء أصبح لاحقاً أحد قادة اتحــاد قـــوى الحـــق (SPS). وبعــد نيمتسوف، راقب يلتسين عن كثب عمل الجنرال نيكولاي بورديوجا، الذي شغل منصب رئيس أركانه لبعض الوقت.

غير أن بحث يلتمين عن الوريث، على أي حال، كانت له حوانب ميكيافيلية إضافية، فالرئيس كان يستفز الراغبين غير الظاهرين بكرسيَّه الرئاسي حتى يستمكن من معرفة موقفهم تجاهه. ولهذا السبب، انتهت الحياة السياسية لكل من تقدَّم للعب دور الخلف، كما حدث مع رئيس الوزراء تشيرنو ميردين، السذي اعتبر نفسه الوريث في عامي 1997 و 1998. بعبارة أخرى، كان البحث عن الوريسث يعين البحث عن المنافسين من أجل إبعاد خطرهم، أو بالأحرى، محوهم مسن الخارطسة السياسية. ولكن، محلول العام 1999، لم يعد باستطاعة يلتسين أن يحكم أكثر مسن ذلك، حينفذ توجب عليهم إيجاد حل لمسألة الوريث.

في 19 أيار 1999، أصبح سيرجي ستيباشين رئيس ألوزراء الجديد لروسيا (8). كان ستياشين يدين بالولاء ليلتسين وكان قد شغل عدة مناصب من قبل؛ فلقد كان مدير حهاز مكافحة الجاسوسية الفدرالي (الذي تحول إلى حهاز الأمن الفدرالي (FSB)، ووزيراً للعدل، ووزيراً للشؤون اللاعلية. ولستيباشين حياة سياسية متناقضة إلى حد كبير، فالرحل الذي كان ذات مرة ديمقراطياً، تسلم في المام 1994 مهمة إلهاء التمرد في الشيشان. غير أن مثل هذه التحولات الحادة كانت أمراً طبيعياً بالنسبة للسياسين المعينين من قبل يلتسين. كان ستيباشين رحلاً بطبيعته فهو لم يحاول أبداً أن يلعب أدواراً قيادية. في الحقيقة، إن لجوي يلتسين إلى تعيين أشعاص من أحهزة السلطة البنيوية (سيلوفيكي) في منصب رئيس الوزراء يمكس طريقة تفكير المجموعة الحاكمة، إذ لا بد أن الكرملين كان يعتقب بأن رئيس الوزراء في حكومة انتقالية يجب أن يكون شعصاً ترأس من قبل الجيش أو أحهزة السلطة البنيوية الأخرى، لأنه قد يُعلَّب منه الدفاع عن الكرملين في وحه المنافسين الحتملين.

ولكن، في أيار 1999، لم يكن قد تمّ التوصل بشكل لهائي إلى المرشع الأمثل للخلافة. وهذا ما أوضحه يلتسين فيما بعد ف "الماراثون الرئاسي"، حيث قسال: "بالرغم من أنني رشحت ستيباشين، إلا أنني كنت أعرف بأنني سأقيله" في الحقيقة، إن عدم توصل فريق يلتسين إلى قرار لهائي بخصوص مسألة الوريث هسو التفسير الوحيد لحضور مسألة الإخلاص في الدائرة الضيقة المحيطة بيلتمسين أنساء مرحلة فكتور أكسيونينكو - وزير المواصلات - الذي كان يكافع لكسي ينال موقع الشخص الأكثر إخلاصاً. وإذا ما قارنا بين أكسيونينكو الفظ والمنافق، الذي كان دائماً موضع شبهة بارتكاب أعمال احتيال مالية، فإن المرشحين الآخرين للعرش، بمن فيهم وزير الخارجية إيغور إيفانوف، ووزيــر الداخليــة فلاديمــكير روشاييلو، وبوتين، كانوا أشبه بمفكرين عظام وأمثولات للضمائر الحية. فحكم ن ﴿ الْمُ على أي حال، انتهى الأمر بيلتسين وزمرته إلى تفضيل فلاديم وفلاديم وفيتش بوتين. في مذكراته، يقول يلتسين إنه وضع عينه على بوتين في بداية العسام 1997، العام الذي انتقل فيه بوتين إلى موسكو. كان يلتسين "مذهولاً من ردّات فعل بوتين السريعة". كان لدى الرئيس شعور يقول بأن "هذا الشاب... كان مستعداً لأى شيء في الحياة، وهو سيرد على أي تحدُّ بوضوح لا يقبل الشك". يبدو أن شباب بوتين النسبي (45 سنة في ذلك الوقت) قد أثَّر على يلتسين بعض الشيء، فهو لا بد أنه أحس بأن حاجة روسيا إلى الدينامية كانت أكثر من حاجتها إلى الاستقرار أو الثبات. إذا أردنا أن نصدق يلتسين، فيمكننا القول إنه استخدم ستيباشين كواق للصدمات بين بريماكوف والوريث الحقيقي، لأنه لم يكن يجرؤ على اقتراح بسوتين المجهول في الوقت الذي كان بريماكوف فيه ما يزال محتفظاً بنفوذه. ولكـــن، مـــن المرجّع أن الأمر لم يكن بهذا التعقيد، فالكوملين ببساطة كان مــــا يــــزال متــــردداً بخصوص من بختار.

يصوّر يلتمين نفسه في كتابه بأنه ذكبي وحاد السذهن في تحكمسه في سمير الأحداث، ويتحلى ذلك من خلال طريقة اختياره أو ورفضه للمرشحين، وإمعانـــه ن النظر في عواقب خياراته. لكن الحقيقة أكثر مدعاة للإشفاق مما يصورها يلتسين، فهو لم يكن ليتخلى عن منصبه أو بيحث عن وريث لو كان الأمر بيده. لم يكن إذن مقدَّراً لستيباشين أن يكون الوريث ليلتسين؛ وهو لم يكن يدري بذلك. لقد لعب دور رئيس الوزراء بإخلاص تام، حتى أنه حاول أن يؤلف بحلسه، مع أن الكرملين نصحه بألا يفعل. أي إهمال لا يُغتفرا يبدو أنه لم يفهم بأنه إذا أراد البقاء، فعليه أن يكون مطيعاً. لكن الأهم من ذلك، على كل حال، هو أن الكرملين لم يكن متأكداً من أن ستياشين قادر على حماية المحسنين إليبه. ولهما السبب، طُرد ستيباشين في 9 آب، بعد أقل من ثلاثة أشهر على تعييسه، بأشسد الطرق إذلالاً (9. كان الكرملين على عجلة من أمره، فقد حان الوقست لتقسلم الوريث الذي تم اختياره مع بدايسة شسهر آب (10) وهكذا كانت لعبة البوكر المتعلقة برئاسة بحلس الوزراء تشرف على نمايتها.

ظهر فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين على المسرح السياسي الوطني بشكل غسير متوقع من قبل الطبقة السياسية ولا من قبل الشعب، ولكن الجميع كانوا مسرهقين من المراحل التي أدّت إلى هذه التيجة لدرجة أن الحائز الجديد على منصب رئسيس الوزراء لم يثر أية معارضة. لقد رأوا فيه بحرد رئيس وزراء آخر، بحسرد شسخص عرضي. وقد ساعدت شخصية بوتين والاختيار غير المتوقع على إبعاد الشسكوك. وهذا السبب، لم يدرك أحد بأن هذا الشخص هو الوريسث الفعلسي، حسى أن الكتوين لم يعيروه أي اهتمام بل اعتبروا تعينه أمراً يدعو إلى الضحك.

من كان هذا الشخص النكرة إذن؟ كان ضابطاً في الكي حي بي وخسلم قي المانيا الشرقية، ولكن لا توجد معلومات واضحة عن طبيعة عمله هناك. هل كان علمانيا الشرقية، ولكن لا توجد معلومات واضحة عن طبيعة عمله هناك. هل كان يجمع المعلومات أو يتحسس على مواطنيه؟ تقاعد بوتين في رتبة كولونيل، وهاذا يعني أن حياته المهنية في الكي حي بي لم تكن لامعة حداً. ثم شاءت الأقدار بان يعني أن حياته المهنية في الكي حي بي لم تكن لامعة حداً. ثم شاءت الأقدار بان تجمله مساعداً مقرباً للمحافظ الليبرالي مدورت المتحدث المناز ولين منازراء السابق ستباشين الإطلاق في روسيا ما بعد حقبة الاتحاد السوفياتي، فرئيس الوزراء السابق ستباشين كان قد اتبع نفس المسار ولكن بشكل معاكس. في الواقع، خلال عهد يلتسسين،

قام الكثير من الناس بتحولات لا تُصدَّق، فتارة تجدهم في معسكر ما ثم لا تلبث أن تسمع بانتقاهم إلى معسكر آخر، وتارة تجدهم قد اعتلوا المناصب وتسارة أحسرى تسمع بانتزاعها منهم.

بعدما أصبح مساعداً لسوبتشاك، تمول بوتين إلى مدير حقيقي. وإذا ما أردنا فهم كيفية وصوله إلى موقعه الحالي، فإن علاقته مع رئيسه ذات أهمية قصسوى في هذا الخصوص. فقد أثبت بوتين قدرته على الإخلاص والوفاء، وأثبت كذلك بأن الدعم المخلص للرؤساء والأصدقاء كان في غاية الأهمية بالنسبة له. أو لنقل بساطة إنه اتبع القواعد وكان شخصاً يمكن الاعتماد عليه؛ ونحن نعترف بأن هذه الصسفة الأحيرة كانت وما تزال صفة نادرة بالنسبة للسياسيين والمدراء الروس. أضسف إلى ذلك حس اللياقة الذي عميز به بوتين في تصرفاته مع من كانت تربطه بهم علاقات والتزامات. وحير دليل على ذلك استقالته من عمله بعد حسارة سوبتشاك لمركته الانتحابية على منصب حاكم سان بطرسبورغ في عموز من العام 1996، بالرغم من أنه كان يستطيع الاستمرار في عمله مع الحاكم الجديد، فلاديمر ياكوفليف. وحتى بعد انتقاله إلى موسكو وتعينه من قبل يلتسين كمدير لجهاز الأمن الفدرالي، أظهر بويين مرة أخرى إخلاصه إلى رئيسه السابق. وسنتحدث عن ذلك لاحقاً.

من ناحية الشكل الخارجي، لم يكن بوتين بالاختيار المتوقع لكي يكون زعيماً، فهو ليس وسيماً، وأقرب إلى القصر، مع وجه ذي تعابير باردة وسلوك خحول في المناسبات العامة. على الأقل، لم يكن يمتلك بالتاكيد تلك الشخصية الكاريزماتية الساحرة. وبالمقارنة مع يلتسين الطويل القامة وذي البنية الجسمانية المنينة، كان بوتين أشبه بالصبي. أضف إلى ذلك أنه لم يكن ينتمسي إلى حاشسية يلتسين، بل كان بحرد شخص موجود في فلكها لتنفيذ الأوامر. في البدايسة، بدا بوتين بأنه خحول وانطوائي، بعيد كل البعد عن أن يكون شخصية شسمية. وفي هذا الخصوص، من غير المحتمل أن يكون حتى أشد خيراء السياسة الروسية معرفة ودراية قد رأوا فيه الحاكم المستقبلي لروسيا. كان بارداً لا يوحي للناظر إليه باي شيء، إما لطبيعته الخاصة أو لكونه ضابطاً في المحابرات؛ من المؤكد أنه دُرُب شكل حيد كي لا يلفت الأنظار. على أي حال، لا يوجد شيء يمكن تذكّره فيه

سوى اهتمامه بالفن القتالي، الجودو، ما يوحي بأنه لم يكن بسيطاً كما كان بيدو، بل كان يمتلك قوة داخلية وطموحاً خفياً.

عندما سأله يلتسين ما إذا كان مستعداً لكي يصبح رئيساً للسوزراء، أحساب بوتين على الفور – وفقاً لما يقوله يلتسين نفسه في كتابه "المساراثون الرئاسسي" – بأسلوب عسكري: "سأعمل في أي وظيفة توكلني بها". وقد أسرً هسذا الجسواب يلتسين بالطبع. وهكذا صادق مجلس الدوما في 16 آب عام 1999 على تعيين بوتين كرئيس للوزراء. وقد سارت المصادقة بشكل سلس من دون أي صسموبات الأن أحداً لم يأخذ بوتين على عمل الجد. حتى أن الكثيرين رأوا في تعينه إشارة علسي تغلي الكرملين عن صراعه على السلطة. ولا بد، في هذا الحصوص، أن لو حكوف تخلي الكرملين عن صراعه على السلطة. ولا بد، في هذا الحصوص، أن لو حكوف ويريماكوف كانا مسرورين لاختيار يلتسين، فمن المؤكد أن بسوتين، المفسور والسطحي ظاهرياً، لم يكن يوحي بأنه يشكل قديداً حدياً لطموحاهما الرئاسية. لقد كان تقدير هذين الخبيرين العتيقين في السياسة غيباً!

في مذكراته، يتكلم يلتسين (أو الكاتب الذي كتب مذكراته) كشيراً عسن إعجابه بخليفته بوتين، الذي يصفه على النحو التالي: "يمتلك بوتين عينين مشيرتين للانتباه، إذ يبدو للناظر بأفسا تقولان أكثر مما تقوله كلماته... لدي شعور... بأن هذا الرجل، الشاب، كان مستعداً عاماً لكل شيء في هذه الحياة، وأن بإمكانه مواجهة كل التحديات". غير أن تصريحات الحب هذه الواردة في كتاب يلتسين، الذي نُشر بعدما أصبع بوتين رئيساً، ما هي على الأرجع إلا عاولة من قبل "عائلة لينتسين" لإبقاء بوتين ضمن دائرتها، والقول للشعب بألها هي من اختارته وإفهامنه بأنه مدين لها عا وصل إلي.

في الحقيقة، لم تكن عينا بوتين ولا إحاباته الدقيقة هي التي أقنصت يلتمسين باختياره، إذ ثمة شيء ما في هذا الرجل – في سلوكه، في خبرته بالحياة – شسجع يلتسين وأصدقاءه على التمانه ليس فقط على البلد، وإنما على أرواحهم أيضاً. فبعد عملية اختيار طويلة وملتوية، تضمّنت اختبار عدد من المطالبين بالعرش، رأى الفريق الحاكم في فلاديمر فلاديمروفيتش شيئاً جعلهم يعتقدون بأنه لسن يخسولهم، وبأنه شخص يمكن الوثوق به، وألهم معه يستطيعون الاطمئنان على مستقبلهم.

وهم الذين يمتلكون سبباً وحيهاً للخوف من المستقبل، وذلك بسسبب الهسامهم بالفساد، وبسبب اكتسابهم الكثير من الأعداء، وكذلك لألهم كسانوا يتحملسون مسؤولية كل الأمراض التي ألمّت بالبلاد.

في هذا الشأن، عمد حادثه في حياة بوتين لا بد ألها ساهت في طمأنتهم إلى حداً كبير. لقد ساعد بوتين أناتولي سوبتشاك، رئيسه السابق، الذي كان متسهماً بإساءة السلطة والفساد في سان بطرسبورغ، على الحرب إلى باريس بشكل سرى. وهذا أنقذ سوبتشاك من الخضوع للمحاكمة ورعا من تدمير سمعته بالكامل فيما لو أدين. وتطلّب إيصال سوبتشاك إلى فرنسا القيام بعملية عسكرية استلزمت قسوات خاصة وطائرة مستأجرة وتغطية للمسارات التي ستسلكها المطائرة. وفي بساريس، رعا كان سوبتشاك تحت حماية وكالة بوتين أيضاً. بكلمات أحرى، استخدم بوتين موقعه كرئيس لجهاز الأمن الفدرالي FSB من أحل مساعدة شاهد ومشتبه به على موقعه كرئيس لجهاز الأمن الفدرالي FSB من أحل مساعدة شاهد ومشتبه به على مذكراته إنه يكن "احتراماً كبيراً" للرحل الذي يقوم بمثل هذا العمل. وهنا يمكننا أن مذكراته إنه يكن "احتراماً كبيراً" للرحل الذي يقوم بمثل هذا العمل. وهنا يمكننا أن نرى الطريقة التي ينظر بما كل من الرئيسين الحالي والسابق لروسيا إلى القانون. مما سبق يمكننا القول بأن قصة سوبتشاك هذه لعبت دوراً هاساً في إقنساع يلتسسين وحاشيته بأن بوتين لن يتحلى عنهم، حتى لو عرض هذا الأمر حياته السياسية للخطر.

توفي سوبتشاك بشكل مفاجئ في 1 شباط من العمام 2000، بعمد تسولي مساعده السابق زعامة الكرملين بفترة قصيرة. وبكى بوتين بحرقة وألم أثناء حضوره الجنازة، ولم يحاول إخفاء دموعه عن كاميرات التلفزة. لم يكن بوتين يمثل، وكسان باستطاعة المرء أن يتبين ذلك بوضوح، فهو كان حزيناً فعلاً على مسوت رئيسه السابق. وقد ألهب سلوك بوتين هذا مشاعر الشعب الروسي الذي رأى الجانسب الإنساني في زعيمه الجديد. وهكذا نجح بوتين - رغم صعوبة توقع ذلك إلى حدً ما ليس فقط في أن يحظى بقبول العائلة الحاكمة، وإنما في أن يكون عبوباً مسن قبسل الشعب أيضاً.

في ربيع العام 1999، أثبت بوتين إخلاصه عندما دافع عن يلتسين حسلال صراعه مع يوري سكوراتوف، الذي كان نائباً عاماً في ذلك الحين، بالرغم من أن الكثير من نخبة الطبقة السياسية كانوا قد أداروا ظهورهم ليلتسين، وبالرغم من أن الوضع كان يوحي بأن هذا الأخور كان على وشك الإطاحة به. كانت تلك هسي المرة الأولى التي يظهر فيها بوتين في بؤرة الضوء، حيث لعب دور كاشف أسسرار سكوراتوف في عاولة منه للنفاع عن الرئيس(أ11). وبوقوفه إلى حانسب السرئيس، أحرق بوتين كل حسوره وسفنه في وقت كان الجميع، حتى أشد مؤيدي يلتسسين إحلاصاً، يحاولون إبعاد أنفسهم عن الكرملين (وحزء من السبب في ذلك يعود إلى أن يلتسين كان يلعب بطريقة قذرة). ولذلك، وحدت العائلة الحاكمة في بسوتين رجلاً بمكن الوثوق به، رجلاً بمكن الاعتماد عليه.

أما السبب الأهم في اختيار فلاديمير بوتين كخلف ليلتسين فهو أنه كان ملزَماً كلياً بيلتسين، فبوتين لم يكن بملك أي شيء - لا مؤيدين، لا شخصية ساحرة، لا إيديولوجيا، لا شعبية، لا خبرة - يجعل منه شخصية مستقلة. لقد صُنع مسن قبسل الأشخاص المحيطين بيلتسين، ولهذا السبب كانوا يتوقعون ولاء وعرفاناً بالجميسل يمنه.

ولكن، قد تكون هنالك ظروف أخرى في تاريخ حياة بوتين ضمنت اعتماده الكلي على صانعيه. لكننا، في الواقع، لا نملك إلا أن نلجأ إلى التخمين إذا ما أردنا أن نعرف ماهية هذه الظروف. فمن المحتمل، على سبيل المثال، أن يكون فريستى يلتسين قد طلب من بوتين ضمانات أكبر من بجرد وعود الولاء والإخلاص. غسير أن ذلك ليس إلا تخميناً، إذ لا يوجد دليل عليه. أو لعل يلتسين كان يرى حقساً في بوتين شخصاً يستطيع مواصلة ما بدأه، فهو كان ليبراليساً ذات مسرة في السسابق وينتمي إلى حيل أكثر شباباً منه.

كان أمام الوريث المعيَّن ما يكفي من الوقت لإنبسات إخلاصه، لسيس إلى يلتسين وعائلته فحسب بل إلى بعض أفراد طبقة النحبة الأكثر نفوذاً أيضاً. لقسد تذكَّر بوريس بيريزوفسكي فيما بعد: "كان بريماكوف ينوي زجي في السسحن. وكان آنذاك عيد ميلاد زوجتي... وبشكل غير متوقع... أتى بوتين إلى الحفلسة. ثم التحظة بأن هذا هو عين الصواب]". يمكن النظر إلى تصرّف بوتين، عندما كالحظة بأن هذا هو عين الصواب]". يمكن النظر إلى تصرّف بوتين، عندما كان مصر بريماكوف غير مؤكد، من زاويتين، إما أنه دليل على لياقت الإنسسانية مساندته شخصاً كان يعرف بأنه يعاني من المشاكل - أو أنه دليل على براغماتيتها أن بوتين كان قادراً على الوقوف إلى حانب الأشخاص الذين يشاركونه نفسس أن بوتين كان قادراً على الوقوف إلى حانب الأشخاص الذين يشاركونه نفسس الخندق. إذاً، فقد حاء بوتين إلى حفلة يقيمها رجل يمكن أن ينتهي به الأمر في السحن، بعبارة أخرى، من الواضح أن الرجل لم يكن جباناً على الإطلاق. على أي حال، ثمة احتمال بأن يكون بوتين يعرف بأن أيام بريماكوف كانت معسلودة، الأمر الذي حعله يقوم بزيارته تلك دون أي خوف. ولكن، لو أنه فقلط كان

___<u>.</u>

أن لا يمتلك بوتين علاقات سياسية بالرغم من امتلاكه حذوراً قوية في أجهزة السلطة الرئيسة كان أمراً في غاية الأهمية بالنسبة للغريق الحاكم في روسيا. إذ كان ذلك الغريق يعتقد بأنه من الأفضل له أن يحظى بحماية الجيش أثناء الفترة القصيرة التي سيحري فيها تنحي يلتسين عن السلطة واستلام خلفه. في الواقع، إن مسالة عدم امتلاك بوتين روابط مع أية بحموعة سياسية كان عاملاً إيجابياً ومفيداً بالنسبة لروسيا الجديدة، لأن ذلك يمكن أن يمني بأنه لن تكون هنالك أية مجموعة سياسية لما حقوق عليه. إضافة إلى ذلك، فالمرشح النهائي الذي لم يكن يملك ماضياً سياسياً كان على الأقل يمثل وجهاً جديداً كلياً لم يمله الناس بعد. وأحوراً، فسإن غيساب الانزامات الإيديولوجية حمل من الممكن بالنسبة للفريق الحاكم أن يصيغ صسورة بوتين بالشكل الذي يريد؛ حيث كان باستطاعته تقديمه إما كشخص ليسبرالي، أو يونين بالشكل الذي يريد؛ حيث كان باستطاعته تقديمه إما كشخص ليسبرالي، أو

ولكن، كي يُنظَر إلى رئيس الوزراء الجديد - الذي لم يكن معروفاً إلا علم نطاق ضيق حداً خارج حدود الطريق السريع المحيط بموسكو - بشكل حدّي على أنه زعيم لروسيا، كان لا بد من وجود حاجة ملحوظة ضمن الشعب الروسي يقوم بوتين بتلبيتها. وكانت هذه الحاجة واضحة تماماً بعد الانحيار المالي للعام 1998 ومنذ اللحظة التي استلم فيها بريماكوف منصبه. كانت روسيا بالفعل بحاجه إلى دولة قوية وزعيم حازم مستعد لوضع حد للتدهور. ومن سخرية القدر أن انتشار أنباء فضيحة دولية في ذلك الوقت بالذات، في آب 1999، ساهم في تعزيز شعور الشعب الروسي بالحاجة الملحقة إلى حاكم قوي. كانت تلك الفضيحة عبارة عن تورط بنك نوبورك بفسيل 4.2 مليار دولار هربت من روسيا، وأشارت أصابع الاقمام إلى أن مسؤولين في الحكومة الروسية وأشخاصاً مقربين منهم لعبوا دوراً في عملية غسيل الأموال تلك (12). وبالعلم، تصدرت قصة الأموال الروسية والفساد الروسي صفحات الصحافة العالمية في ذلك الوقت.

لقد عززت العواطف والمخاوف التي حررة الفضيحة الشعور بالضعف بين النحبة السياسية في روسيا (13) فبعض أفراد هذه النحبة بمن تورطوا في أنشطة مشبوهة وعمليات تزوير مالية وصفقات غير قانونية أدركوا وقتفذ بأقم قد يفقلون الملاذات الآمنة التي أعدوها في البلدان الغربية، مع أن الكثيرين منهم كانوا قد أرسلوا مسبقاً عائلاقم إلى تلك البلدان. وبذلك أرغمت النحبة السياسسية على الصراع من أجل البقاء داخل روسيا. من هنا برزت الحاجة الماسة إلى زعيم قدوي يمكنهم الاعتماد عليه في الدفاع عنهم وعن مصالحهم.

وفي ذروة الاضطراب الذي ثار حول مسألة غسيل الأموال، انتشرت أنبساء

فضيحة حديدة حذبت اهتمام الناس، وكانت تتعلق ببطاقات الاعتماد التي قدمتها شركة ماييتكس السويسرية - كما قبل - لأفراد من عائلة بلتسين (14). عندها اتصل الرئيس الروسي، الذي كان قد إلتزم الصمت حتى تلك اللحظة، بسالرئيس الأميركي بيل كلينتون لكي ينكر الادعاءات التي تقول بوجود علاقة له ولعائلته مع الشركة السويسرية تلك. من الواضح أن يلتسين كان يهتم لسسمته في الغسرب. ولكن، لماذا يحتاج هو وعائلته إلى بطاقات اعتماد من مابيتكس ولديهم بلد مترامي

ي تلك الأثناء، لم يكن قلق العلبقة السياسية في روسيا كافياً لإحداث دعسم شعبي لنظام "اليد الحديدية" في روسيا، إذ كانت الجماهير بحاحة لأن تشعر بالحاحة لحكم حديد وقوي في آن معاً. وحاءت الفرصة بسرعة، وذلك من خلال الفسزو الذي قام به انفصاليون من الشيشان لجارقم جمهورية داغستان الروسسية في 2 آب من العياسية الروسية في عاولة منهم لتكوين دولة إسلامية في الشيشان والمنساطق المحاورة لها. ولكن، لماذا هاجموا داغستان في الوقت الذي كانت تستعد فيه موسكو لنقل السلطة؟ ولماذا لم تحاول موسكو إيقاف الغزو؟ لماذا راقبت الوزارات الروسية بمدوء عملية تجميع الانفصاليين المسلحين المكشوفة على المناطق الحدودية؟ والأهم من ذلك، لماذا سُحبت على وحه السرعة إحدى الفرق العسكرية التابعة لسوزارة من ذلك، لماذا شحبت على وحه السرعة إحدى الفرق العسكرية التابعة لسوزارة اللخاطة الن كانت تقوم بمماية الحدود بين داغستان والشيشان قبل الغزو تماماً؟

كتب بعض الصحفيين الروس بشكل علني أن بعض الأشخاص المقسر بين إلى الكرملين، وعلى الأعص منهم بيريزوفسكي، قد يكونوا هم الذين دفعوا المقساتلين الشيشانيين لمهاجمة داغستان من أحل زيادة الشعور بالضعف والعرضة للسهجوم لدى الشعب وتمهيد الطريق أمام تغيير الحكم (دا). وفي هذا الصدد أيضاً، تساعلت بحلة بروفيل في 30 آب، مشيرة إلى الانتخابات البرلمانية المرامع انعقادها في شهر كانون الأول: "لماذا تحركت الشيشان قبل إعادة انتخاب يلتسين؟ لماذا أصبح هناك الآن داغستان قبل هذه الانتخابات؟ من أمسر بإشسعال حسرب في داغستان، ولماذا؟" (16).

في أي بلد آخر، مثل هذه الأسئلة كانت ستؤدي إلى إحراء محاكمات علنية وإلى حدوث عملية طرد جماعية للمسؤولين. ولكن، في روسيا تم تجاهسل الأمسر ببساطة. هذا هو تأثير العيش مع الفضائح المستمرة والخوف المغروس في الأنفس من السلطات.

سين الشهر التالي، آب 1999، فُحرَّت عدة مبان سكنية في موسسكو ومدن وسية أخرى قُتل فيها 300 من المدنيين، الأمر الذي أثار موجه مسن الرعب احتاجت البلد بأكمله (17). وفي أيلول، بعد الفحيرات مباشرة، اعتبر المواطنسون الروس "السلامة الشخصية" أولوية ذات مرتبة أعلى من "الضمانات الاجتماعية" (40 بالمائة مقابل 28 بالمائة)، بالرغم من أن الضمانات الاجتماعية كانست قد أصبحت قضية أساسية بعد فقدان شبكة الضمان الاجتماعي السوفياتية التي شغلت بالحم في السابق. أما "الجريمة" و"عدم الاستقرار" فقد تصدرتا قائمة ما يسير قلسق الشعب الروسي (47 و46 بالمائة على التوالي). على أي حال، أعلن الكرملين حتى قبل فتح التحقيق - عن وجود "أثر شيشاني" في الجرائم، فبدأت الشرطة بجمع كل من بدأ أنه يشبه الشيشانيين، حتى لو كانت قرابته بالشيشانيين بعيدة. مسح ذلك، لم تتمكن السلطات من إيجاد الإرهابيين، عما أثار الشكوك حسول تسورًط أحبرة الخدمة السرية الروسية في التفحيرات.

ولكن نظرية الموامرة وحدها لا تفسر هذا التغيير الكبير في السرأي العام الروسي، لأن في ذلك تبسيط للمسألة أيما تبسيط. ففي حو الاضطراب الذي كان سائداً في روسيا، ومع التسرب الدائم للمعلومات من القمة، فحتى أجهزة الخدمة السرية لم يكن باستطاعتها تنفيذ مثل هذه العملية دون أن تترك الكثير من الدلائل والشهود خلفها. على أي حال، ليس هناك أسرار في روسيا اليوم، وكل ما هو عفى الآن سيُكشف عاجلاً أم آجلاً. ولكن، في نفس الوقت، علينا أن نعرف أنه لا توجد حتى الآن أجوبة معقولة على الأسئلة العديدة التي أثارها تلسك المرحلة. إضافة إلى أن المرء لا يشعر بوجود رغبة لدى الكرملين في إجراء تحقيق شامل في تعلى الأمالية وضم حددً لكل المائاهات (١٥).

لقد اغتنم رئيس الوزراء الجديد بوتين الفرصة السانحة ليظهر نفسه كسياسي قوي وصلب، حيث قال في سياقى حديثه أمام بحلس الدوما بعد التفحيرات، واصفاً التحديات التي تواجه روسيا: "بتفحير منازل مواطنينا، يفحر قطّاع الطرق الدولة، إلهم يقوضون السلطة". ثم صرَّح بأن هدفه الرئيس هو "حماية السكان من قطّاع الطرق". وبذلك، فهو قال بالضبط ما كان ينتظره المواطنون من زعيم. عندما كان بوتين يتكلم من منصة الدوما، وحد الشعب الروسي أخيراً ما كانوا يريدونه وجهاً صلباً وحازماً، ومثية رشيقة لرحل رياضي، و... عينين باردتين. بالفعسل، كسان معظم الشعب يريد رحاد قوياً في الكرملين، الأهم سعموا من مشاهدة يلتسين وهو يتداعي.

وعلى الرغم من أن بوتين لم يفعل شيئاً سوى التعبير عن تصميمه، إلا أنه حصل على دعم كبير من القوى الرئيسة في المجتمع الروسيي. وهذا ليس مستغرباً، فالمحاوف المتراكمة، والفوضى، والشعور بالخطر، و"متلازمة وبمار" الروسية الحقيقية ["نسبة إلى جمهورية وبمار، وهو الاسم الذي كان يُطلَق على الجمهورية الألمانيا التي دامت من عام 1919 إلى عام 1933 عندما اغتصب أدولف هتلر السلطة]، كلها حملت الشعب يتوق إلى النظام وإلى وجه حديد في الكرملين. وفي هذا الخصوص، كتب عالم الاجتماع يوري ليفادا في الطبعة الأخيرة من كتابه المحموض، كتب عالم الاجتماع يوري ليفادا في الطبعة الأخيرة من كتابه المحموض، كتب عالم الاجتماع يوري ليفادا في الطبعة والمستم الروسي في هذه الحالية... كمل المخاوف والمشاعر التي كانوا يكتوفا ويصيرون عليهما ظهمرت إلى السلطح فحاة وانكشفت الطبقة المحبًاة من وعينا"

وهكذا تدفقت كل المشاعر التي كانت مكبونة في صدور النساس خسلال سنوات إدارة يلتسين، وذلك بسبب تحررهم من الوهم وتوقهم إلى التغيير. لكسن ذلك التوق بحلى بشكل رئيس في البحث عن زعيم حديد، ولسيس في المطالبة بالتعلى عن نموذج الحكم الفردي. في الحقيقة، كان الشعب الروسي - من شدة تلهفه إلى الأمن والنظام - سيدعم أي وجه حديد طالما أنه يبدو واثقاً وقوياً. كانوا يريدون رئيساً شاباً ديناميكياً، وليس عجوزاً الهكته السنين وأرهقته، وذلك بحسة

-- --

على كل حال، أصبح الرد العسكري الانتقامي على التفحيرات التي حصلت في المدن الروسية أمراً محتوماً. وهكذا، دخلت القسوات الفدرالية الشيئسان في 30 أيلول عام 1999، مشعلة حرباً واسعة النطاق. كانت حرباً أهلية، النصر فيها أشبه بالمستحيل، حيث إن كل ما كان يُظنَّ أنه انتصار كان يمكن أن ينقلب بسهولة إلى هزيمة منكرة، ولكن، بما أن العمليات العسكرية انطلقت تحست اسم "مكافحة الإرهاب"، لم تكن الحكومة الروسية ملزمة بأحد الموافقة من المحلس الأعلى في البرلمان أو مجلس الاتحاد، ولم تكن عمة حاجة لإعلان حالة الطوارئ في الشيشان. إذاً، فالحرب أديرت تعارج إطار الشرعية، ولهذا السب، كان بالإمكان القيام بكل ما هو مطلوب في الشيشان دون أي إعاقة.

في بداية العام 1999، لم يكن أي شخص عاقل يُفكّر في إشعال حرب حديدة في القوقاز الشمالي، ولكن، بحلول فصل الخريف من نفس العام، ساعدت الحسرب الشيشانية الثانية على توحيد المجتمع الروسي وقدئة عقدة الشعور بالضعف والعجز عند الشعب الروسي. كانت العملية العسكرية ضد الشيشان قد أُعدَّت من قبل بريماكوف وستياشين، ولكن كعملية محدودة فقط ضد الإرهابيين الشيشسانيين والعناصر الإحرامية. وكانت الخطة تقضي بنقل الجيش إلى لهر تبويك (Terek) من أحل تشكيل منطقة فاصلة بين المنطقة المؤيدة لروسيا ومنطقة الانفصاليين، وكذلك أحل ترحمات استئصالية على قواعد الإرهابين.

لماذا إذن عبرت القوات الروسية نحر تويك ودخلت إلى العمق؟ لمساذا بسداً الجيش بعملية قصف واسعة على الشيشان أدّت إلى وقوع آلاف الضحايا بين قتلى وجرحى وعشرات الآلاف من اللاحتين؟ نحن نعلم بأن الجنرالات الروس كانوا يريدون الانتقام للإهانة التي ألحقت بهم على أيدي عدد قليل من المقاتلين، المسلحين بأسلحة بسيطة، في الحرب الشيشانية الأولى. ربما تمكن هؤلاء الجنرالات من إقناع

بوتين بالمضي في الحرب حتى لهايتها الألهم كانوا متيتين من النصر. ورعسا كسان بوتين نفسه يريد ذلك. على أي حال، من المعلوم أن رئيس الوزراء نفسه هو مسن اقترح البدء بعملية مكافحة الإرهاب تلك، فقد سأله أحد المراسسين الصسحفين ذات يوم: "إذاً، فالمسؤولية الكاملة (على الحرب الشيشانية) تقع علسى عاتقسك أنت؟" فأحاب بوتين: "هي كذلك إلى درجة كبيرة. قلت لنفسسي: لسدي مسدة عهودة من الزمن - شهران، ثلاثة، أربعة - لتشتيت قطاع الطرق أولئك. وبعدها، فليطردوني "(19). ولكن، هل كان يعلم إلى ماذا يمكن أن تتحول العملية العسكرية في الشيشان؟ فما إن بدأت، حتى أصبح تغيير قراره بحكم المستحيل، الأنه أصسبح رهينة الحرب الجديلة ورهينة طموحات الجنرالات.

نظر معظم الشعب الروسي إلى الحرب الشيشانية الأولى على ألها حسرب لا أحلاقية، لكن الحال انقلب في الحملة العسكرية الثانية في الشيشان، إذ اعتبروا عدم مساندةا هو اللاأخلاقي. ففي استطلاع أحري في كانون الثاني من العسام 1995، طالب 54 بالمائة من المشتركين في الاستطلاع بسحب القسوات الروسية مسن الشيشان (27 بالمائة كانوا يدعمون وجود القوات هناك، و19 بالمائة لم يكن لهسم رأي). بالمقابل، في تشرين الثاني وكانون الأول من العام 1999، وافق ما بسين 61 إلى 70 بالمائة من المشتركين على العملية العسكرية في الشيشان. وحسى عنسدما أصبحت الإصابات الفادحة معلومة لدى الجميع في تموز 2000 - آلاف من القتلى والجرحى بين صفوف القوات الروسية والمدنيين - كان 70 بالمائة مسن الشسعب الروسي يعتقدون بأنه لا ينبغي أن تكون هناك مفاوضات في الشيشان، وأن النظام يجب أن يُغرَض فرضاً على الجمهورية بمساعدة الجيش.

بعد بدء الهجوم العسكري على الشيشان، لم يعد بوتين بحاحة لمتابعة الصراع الصعب على السلطة، إذ إن كل ما كان ينبغي عليه فعله هو توجيه اهتمامه نحـــو العدو، أي الشيشانيين طبعاً. وهكذا رفعته الحرب إلى ذروة الهرم السياسي.

في الواقع، ثمة عوامل أخرى ساعدت على ضمان انتقال بوتين إلى السلطة الفعلية، وأول هذه العوامل تمثّل في اللعبة الفعالة التي لعبها الكرملين. لقد نجسح الأشخاص الذين كانوا يشكلون الدائرة القريبة المحيطة بيلتسين – بالرغم من ألهم لم يكونوا بالغي الذكاء - في إيجاد آلية مكتنهم من البقاء على الساحة السياسية. ومع أن هذه الآلية لم تكن معقدة على الإطلاق، إلا ألها نجحت، على الأقسل لسبعض الوقت. فقد ممكن الفريق الحاكم بفضل هذه الآلية من استرداد سيطرته على موارد السلطة وعلى مزاج المحتمم - حزئياً على الأقل - وذلك عن طريق التركيز علسى أشد مخاوف الناس سوءاً، وتعزيز رغبتهم بالاستقرار بأي فمن. وهكسذا تبسين أن الشيشان تصلح لأن تكون سبباً حيداً للتضامن، لألها لعبت معاً دور العدو الداخلي والخارجي في آن واحد.

بعد آب من العام 1999، أدّت الرغبة العارمة بالأمان لدى كافسة أوسساط المجتمع الروسي عملياً إلى حدوث تضامن فعلي، ولكن على الطراز السوفياتي. فقد ساعد التلاعب المقصود، والقذر في الرأي العام الروسي من قبل وسائل الإعلام الجماهرية التي تديرها الدولة على إعادة فرض السيطرة المركزية. ولكن، من الأهمية بمكان أن نعترف بأن الكثيرين من الشعب الروسي قد أذعنسوا بالفعل في تلك الفترة، ورعا كانوا مرتاحين للعودة إلى نموذج الحكم القديم والمالوف، فقد شهدوا تغيراً كبيراً - رعا كان يتطلب في ظروف أخرى حياة أكملها - خلال عشر سنين أو أكثر بقليل فقط. كان المجتمع الروسي، المنقطع عسن تقاليده، المتشبكك في مستقبله، التائه والعاجز، عالقاً بين طابقين في مصعد التاريخ؛ بسين الماضي والمستقبل، ولهذا السبب وحد مواطنو ما بعد الحقبة السوفياتية المرهقون والخائبون في العودة إلى القرارات القاطعة والنموذج السلطوي والبحث عن العدو بعسض السكينة والراحة، ولو بشكل مؤقت.

ولضمان ارتقاء بوتين على سلّم السلطة، كان الكرملين بحاجه إلى إحسلاء الساحة من منافسيه الأساسيين، لوحكوف وبريماكوف، اللذين شكَّلا حركتيهما السياسيتين الحناصين بهما، "أرض الأحداد" و"كل روسيا". (كان السرحلان قسد أحَّلا محاولتهما في إنجاح علاقتهما والوصول إلى قرار بشأن من سيكون المتحسدي الأساسي على الموقع في الكرملين). قام الكرملين بالقضاء سياسياً على لوحكوف وبريماكوف من خلال حملة قدرة في وسائل الإعلام الحكومية، والضغط على بعض أعضاء المعارضة، ورشوة أعضاء من حركتيهما السياسيتين بالذات. أما الطبقة

السياسية الفاسدة فقد أعادت توجيه نفسها من جديد، مركزة على اللاعسب الأقوى، وهو الكرملين، مرة أخرى. وعادت كذلك عادة إطاعة السلطة المركزية، وذلك حين قام أولئك الذي أقسموا بالأمس على الولاء إلى لوجكوف بالانحنساء اليوم أمام رجل الكرملين الجديد. كان أمراً عبطاً حقاً مراقبة الصحفين، والمحللين السياسين، والمستشارين، وحتى الطفيلين الصريحين الذين احتشدوا منذ فترة قريبة فقط حول بريماكوف وعافظ موسكو، وهم ينقلبون على أعقاهم. بعضهم اختفى من المشهد السياسي، بينما هرب البعض الآخر لبعض الوقت ثم بدأوا بالبحث عن طريقة تمكنهم من الوصول إلى بوتين.

_**__**__

لقد أدرك المسؤولون الروس في فترة متأخرة نسبياً مدى أهمه التلفزيه ن بالنسبة إلى السياسة. ففي الحملة الرئاسية لعام 1996 كان مسيوولو التلفزيب ن الروسي، ولأول مرة، يختبرون قدرقم على التأثير في الرأى العام، وذلـــك عنـــدما حاولوا إظهار يلتسين الضعيف والمتداعي بصورة الزعيم القوي والنشيط. أما الآن فقد أصبح التلفزيون الأداة الرئيسة لتدمير منافسي بوتين، وعلى الأخسص منسهم لوحكوف وبريماكوف. وقد أوكل إلى سيرحى دورينكو، وهو مقدم أخبار شهير في التلفزيون الحكومي، مهمة تشويه سمعتيهما - وكان يقف وراءه بيريز وفسكي، وهو أحد المساهمين في القناة الأولى في التلفزيون الحكومي. كان دورينكو، في كل ليلة سبت، يصب كمية حديدة من القاذورات على منافسي الكرملين. فقد الحسم لوحكوف، مثلاً، بأنه كان لصاً، وأن زوحته كانت تحوَّل الأمـــوال إلى خــــارج البلاد، وأنه كان شريكاً في جريمة قتل رجل أعمال أميركي. ولم يتمكن لوجكوف من غسل هذه السمعة السيئة بالسرعة الكافية. وما إن انتهى من لوحكوف، حسيق تحوُّل إلى بريماكوف مستخدماً كل وسيلة ممكنة لتصويره كرجل مسريض هسرم. والرسالة التي كان التلفزيون الحكومي يريد إيصالها هي أن الكرملين ليس المكسان الملائم ليريماكوف، بل دار العجزة.

لقد كانت المعركة بين الاتجاهات السياسية المتشابحة أشد عنفاً وضراوة منها

ين الإتجاهات المختلفة، فالكرملين الذي استخدم كل مصادره لتسلمير المعارضة تجاهل عامداً متعمداً الشيوعيين، بل ومنحهم معاملة أثيرة. لكن موقف الكرملين المتوازن هذا من الشيوعيين كان له هدف محده، حيث أن فريق يلتسين/بوتين بحاجة إلى عرض مقنع من قبل الشيوعيين في الانتخابات البرلمانية والرئاسية القريبة يهدو من خلاله غينادي زيوغانوف بأنه المنافس الأساسي لبوتين. بكلمات أخرى، كان الفريق الحاكم يريد استخدام نفس الاستراتيجية السيّ اتبعها بنحاح في انتخابات العام 1996، عندما ساعدت مسألة كون زيوغانوف المنافس السرئيس التعابات العام 1996، عندما ساعدت مسألة كون زيوغانوف المنافسي الشيوعي أو المستقبل غير الواضح مع زعيم مريض، اختارت الخيار الثاني. وعلسي هذا الأسلس، كان الكرملين مستعداً في الانتخابات الثانية لدعم زيوغانوف، مادياً وتنظيمياً، من أحل المحافظة عليه كمنافس وحيد. على أي حال، لم يكسن فريسق الكرملين بحاجة إلى الكثير من الإبداع في تلك الفترة في تعامله مع الناحيين الروس الذين يعيشون حالة من الاضطراب والتشويش.

خلال فترة قصيرة حداً من الزمن في خريف العام 1999، وعلى نحسو مسغير للدهشة، تغيرت الحياة السياسية الروسية بشكل دراماتيكي، ففي صيف ذلك العام، كانت الطبقة السياسية ستدعم بريماكوف كحلف ليلتسين، وكان المجتمع مستعداً في ذلك الحين للقبول بزعيم عجوز وشديد الحفر، ومستعداً أيضاً للمصادقة على التعديلات الدستورية التي كانت ستشكل حكومة قويسة وبرلمانساً متنفسذاً. وفي الحزيف، تحوّل المجتمع والطبقة السياسية - وكألهما نسيا وجود بريماكوف كلياً - إلى ذلك الشاب المجهول الذي يعطيك بجرد النظر إليه انطباعاً بأنك أمسام نمسوذج للنظام الصارم والحكم الفردي القاسي.

بكلمات أخرى، لقد أصبح واضحاً أن الذهنية الروسية كانت ما نزال ليَّنــة، وغير متشكلة، وقابلة للتحكم 14. و لم يكن للمؤسسات السياسية أي دور علم الإصلاق، فقد حدَّدت حفنة من الأشخاص في الكرملين - أولئك المتحكمون بكل الموارد الحكومية - مصير الرئاسة ومعه مقدرات بلد مترامي الأطراف. لقد ممكنوا، باستخدام الضغط والتلاعب الصريحين، من تغيير الشخصيات والمواقــع وفحــوى

اللعبة السياسية برمتها. وإضافة إلى ذلك، فإن الإضطرابات التي على منها المجتمسع الروسي عملال حقبة يلتسين حملته حاهزاً مسبقاً للموافقة على المشاركة في العرض الذي كان الكرملين ينوي القيام به.

راقب الشعب الروسي خدعة الكرملين بمدوء وإذعان، على الرغم من ألها المرض المهين وهو يتكتّف أمام كانت بسيطة ومكشوفة، فلماذا قبلت روسيا بمذا العرض المهين وهو يتكتّف أمام عينها؟ ربما ما هو إلا دليل آخر على القدرية الروسية؛ لا يمكنك فعل شيء، لأنك لا تستطيع عاربة صنّاع القرار. ولم يحتج على ذلك سوى بحموعة صسغيرة مسن المتقفين والصحفيين، ولكن، من يبالي؟ في الواقع، أن تقوم عصبة الرئيس بالعمل على احتيار حلّفه من دون أن تثير اهتمام أو صدمة إلا عدد قليل من الأشخاص بيل إن الفالية العظمى وحدت الأمر طبيعياً – فهذه دلالة على واحد من أمرين: إما أن تقليد الحكم الفردي كان ما يزال حياً في روسيا، أو أن الشعب الروسي لم يكن يهتم كثيراً بشأن النظام السياسي، بعد أن أصبح مقتنعاً بأنه سبحد وسائل تمكنه من البقاء على قيد الحياة في ظلَّ أي شكل من أشكال الحكم. أضسف إلى ذلسك أن الكثير من الناس كانوا قد بدأوا يجبون المرشح الجديد للمرش.

في تلك الفترة من نهاية العام 1999، يمكن تفسير الخطوات العسفيرة السي المحقوة السي المحقوة وريساً للوزراء على ألها عودة إلى الماضي السوفياتي؛ بدون شيوعية ولكن مع شيوعين. كان هنالك شعور بأنك ترى أو تعيش ظرفاً عشسته من قبل، بيد أن الوقت كان مبكراً حداً لاستخلاص استناحات نهائية بخصوص النظام الجديد، فحياة بوتين كانت تتضمن فترة سان بطرسبورغ مع الليوالي أناتولي صوبتشاك، الأمر الذي لم يكن بالإمكان - ولا يمكن - إغفاله. لكن الأمر السذي كان ما يزال بحاجة إلى نظر هو الكيفية التي زاوج من خلالها بوتين بين العسادات السوفياتية والخلفية الاستخباراتية، وبين المبادئ الليوالية التي اكتسسبها في سسان بطرسبورغ.

كان قبول رئيس الوزراء الجديد لدى أوساط الشعب الروسي إيجابياً في الأشهر الأخيرة من عام 1999، وكانت معدلاته تنزايد باضطراد. فبحسب المركز الروسي لأبحاث الرأي العام (VTsIOM)، وافق 65 بالمائة من الشعب

الروسي على سياسات بوتين في تشرين الأول، بالمقارنة مع 52 بالمائة في أبلول، و32 بالمائة في آب. كما وحد الاستطلاع الذي أحراه المركز المذكور في نحايسة شهر تشرين الثاني بأن 29 بالمائة من المشتركين سيصوتون لبوتين في الانتخابات الرئاسية، مقابل 17 بالمائة لزيوغانوف، و13 بالمائة لبريماكوف. وهكذا أصسبح واضحاً قبل موعد انتخابات بحلس الدوما التي ستُحرى في كانون الأول بسأن الطرف الثاني في السلطة، أي لوحكوف وبريماكوف، لم يكونا بملكان أي فرصة للنجاح.

أما بالنسبة للحرب الشيشانية، فقد آيد 48 بالمائة من الشسعب الروسسي في تشرين الثاني عام 1999 "عملية مكافحة الإرهاب" التي أطلقها بوتين (حتى أن 29 بالمائة طالبوا باتباع سياسات أكثر قسوة ضد الشيشان، في حين اعتقد 7 بالمائسة فقط بأن القوة المفرطة غير مبررة). وهكذا، رجع المختمع الروسي، لأول مرة منسذ سنوات طويلة – على الأقل منذ بجيء غورباتشوف إلى السلطة – إلى الفكرة المخلصة، فكرة الوطنية العسكرية، التي أصبحت ملاذاً لكل من كان يشعر بالخوف والضعف في روسيا.

إضافة إلى ذلك، انضم الليراليون إلى معسكر الحرب، فها هـ و أناتولي تشويايس، زعيم الليراليين في روسيا والمناصر الحديث للغرب يعسر في تشرين الثاني من عام 1999 قائلاً: "ما يحدث اليوم في الشيشان لا يتعلق بتقرير مصـيم مسألة الشيشان، بل بمسألة أكثر أهمية بما لا يقاس، ما يحدث اليوم في الشيشان هو إعادة بعث الجيش الروسي من حديد" وبعـدما انهـم الغـرب روسيا بانتهاكات حقوق الإنسان في الشيشان، ردّ عليهم تشوبايس باقام مماثل: "أنا أعتبر موقف الغرب برمته... فيما يتعلق بالشيشان بأنه غير أخلاقـي، أعتبر موقف الغرب بأنه موقف منافق" على هذا النحو ارتد أحد الليراليين الكبار، وأحد أصدقاء الغرب ليصبح معادياً للغرب. وهكذا، تبيّن أن السياسي الـذي وأحد أصدقاء الغرب ليصبح معادياً للغرب. وهكذا، تبيّن أن السياسي الـذي لطالما اعتبر شحاعاً وذا مبدأ ما هو إلا رحل ضعيف ومتحاذل. غير أننا ينبغـي أن نتحاهل احتمال أنه ربما كان يؤمن بما يقول فعلاً، فإن الكثيرين غيره كانوا لا يومون بذلك حقاً.

63

في 14 تشرين الثاني عام 1999، أعلن يلتسين احتضانه لبوتين، مؤكداً مسرة أخرى على أنه "الخيار الوحيد لروسيا" وعلى هذا الأساس، تبدّدت كل الشكوك المتعلقة بالسيناريو الذي ستبعه روسيا بعدئذ، إذ بات معلوماً تماماً أن الخلّف قد تمّ تعيينه مسبقاً. ولكن، مع ذلك، كان يتوجب على الزعيم الجديد أن يجتاز احتبار الانتحابات؛ الانتحابات البرلمانية ومن ثم الانتحابات الرئاسية.

وهكذا، بعد استهلاك كل المصادر القديمة لشرعية السلطة في روسيا - مسن خلال "الحزب القائد"، أو الإيديولوجيا الماركسية، أو حتى الإكسراه الصسريح - تحولت عصابة الكرملين إلى الانتخابات، التي أصبح دورها في ذلك الحين واضحاً كل الوضوح: كانت قد أصبحت بحرد آلية لدعم الملك المعين. بعبارة أخرى، لم يكن هنالك أي شيء - باستثناء ما هو غير متوقع بالطبع - يمكنه إيقاف مسرة بوتين نحو الكرملين.

الغدل الثانيي

نهاية عصر يلتسين حسح

الانتخابات البرلمانية لعام 1999. المصبير الصعب للبيراليي روسيا. الحزب الشيوعي كعنصبر ما يزال فعالًا. يلتسين يذهل الجميع ثم يرحل. ماذا ترك يلتسين لخلف.

حرت انتخابات مجلس الدوما، وهو المجلس الأدني في البرلمان الروسي (برلمان فعرالي مؤلف من مجلسين تشريعيين) في 19 كانون الأول عسام 1999⁽¹⁾. كانست هذه المنافسات البرلمانية أشبه بالانتخابات الأولية بالنسبة لبوتين والمرشحين الآخرين الذين سيتنافسون بعد ثلاثة أشهر في الانتخاب الرئاسي. للقضاء علسى منافسسيه الأساسيين ولتكوين قاعدة له في البرلمان الجديد، شكّل الكرملين، في ظرف أسابيع قليلة فقط، حركة دعاها "الوحدة" (أو Medved)، نسبة للدب الذي كان رمـزأ لها). وكان بيريزوفسكي - وهو ذو معين لا ينضب من الأفكار وأحد المهيمسنين على وسائل الأعلام - من أهم المنظمين لهذه الحركة المويدة للكرملين، فهو السذي سافر إلى مختلف الأقاليم وأقنع حكامها بمسائدة حركة الكرملين بدلاً من حسزب سافر إلى مختلف الأقاليم وأقنع حكامها بمسائدة حركة الكرملين بدلاً من حسزب OVR (أرض الأجداد وكل روسيا) الحاص بلوجكوف وبريماكوف.

كل عائلة يلتسين كانت منهمكة في الإعداد لانتصار وريثها، وذلسك مسن خلال الضغط على وسائل الإعلام، والحصول على دعم حكام الأقاليم المختلفة، وجمع المعلومات التي تكشف عيوب وأخطاء المنافسين المحتملين وتعريض سمعتسهم للخطر. وهذه الحملة المحمومة الداعمة لبوتين كانت توحي بألهم كانوا يتوقعسون معاملة مماثلة من جانب الزعيم المقبل للكرملين. فهل سيتمكن السزعيم المصطنع الجديد من الإفلات من قبضة أسياده، ومن ضمنهم ابنة الرئيس تاتيانا وأصدقاؤها؟ من الطبيعي أن نفترض أن بوتين، إذا ما أراد إضفاء الشرعية على حكمه، لن يصبر طويلاً على صانعيه أولئك – المسكين الفعليين بزمام الأمور – لكن ذلك كان يعتمد على ما كان يربطهم ببعضهم البعض وعلى درجة اعتماد بوتين على عائلة يلتمين، إضافة إلى مدى قوة، وتصميم، وإرادة الزعيم الجديد.

في البداية، قلة قليلة من الناس صدَّقوا مسألة تكوين حزب جديد للكسرملين. وهذا طبيعي، إذ كيف يمكن لهذه المهمة أن تكون حدَّية؛ تشكيل حركة حديدة، بدن برنامج، قبل بضعة أشهر فقط من الانتخابات؟ ولكن، شيئاً فشيئاً، اكتسبت الفكرة وجوداً مادياً حقيقياً. واحتير لزعامة حركة الوحدة هذه أشخاص يُفتسرَض بألهم كانوا يمثلون تجسيداً للقوة والحزم، وهم وزير الطوارئ مسيرجي شويغو؛ وبلطل العالم في المصارعة ألكسندر كاريلين؛ ووزير اللاخلية الجنسرال ألكسندر غوروف الذي حارب المافيا الروسية. إذا فهي لم تكن إلا لعبة علاقات عامة بسيطة حداً، تمثلت بالتلويح بالصور البطولية والرحولية للمنقذ، والمصارع، والشرطي الصالح. وقد تم احتيار هذه الصور بالطبع للتأثير في المواطن الروسي والشرطي الفائي أمن الحاحة للحماية والأمن، وخاصة في تلك الفترة المتقلبة، والاستقامة، والصلاح. كان يُراد منهم أن يلهبوا مشاعر الناس وأن يشيعوا حواً من والاستقامة، والصلاح. كان يُراد منهم أن يلهبوا مشاعر الناس وأن يشيعوا حواً من لتكون قاعدة لبوتين وحكمه.

من بين أوائل الذين انضموا إلى حركة الوحدة أولئك الحكام الذين لم يكونوا على علاقة حسنة مع القانون، مثل حاكم كيرسك الكسندر راتسكوي، وحاكم بريموري الكسندر نازدراتنكو، وحاكم كالينيغراد ليونيد غوربينكو. وحصلت الدبية أيضاً على الدعم من الأقاليم التي تعتمد اعتماداً كلياً على مساعدات الكرملين. باعتصار، لقد احتذبت الحركة الجديدة الأشخاص الاتكاليين وذوي السمعة السنة.

كانت حركة الوحدة عبارة عن بدعة افتراضية، فهي لم تكن تملك المديولوجيا أو نظاماً حتى عندما بدأت الانتخابات. كانت، ببساطة أكثر، حركة وهمية. مسا زلت أذكر الاجتماعات الأولى للدبية، ليس لشيء مميز فيها أبداً بل لأن افتقارها لكل ما هو مميز كان مثيراً للدهشة بحيث أن المرء يمكن أن يخرج بانطباع مفاده أن التقلبات السياسية السابقة لا بد ألها استهلكت الإمكانات الفكرية في السبلاد و لم تترك للدبية إلا الفتات. غير أن هذه النماذج الجديدة من السياسيين كانت تتشاطر عاصية مسلية، وهي الثقة بالنفس. على كل حال، إلهم لم يشعوا استلاك أفكار حكيمة أو حتى طموح، بل كانوا بريلون فقط أن يدعموا بوتين، وكانوا متأكدين من أن هذا سيضمن لهم النصر في الانتخابات المقبلة، ومن ثم دوراً ما في شسبكة الكرملين.

بالطبع، لم يكن صانعو حزب الكرمين يويدون أشخاصاً حيويين ومبدعين أو سياسين خبوين، بل كانوا بحاجة إلى جماهير طيعة. وأصبح بوتين نفسه هو البرنامج السياسي للحزب، معرضاً بذلك عن انعدام المقومات الأساسية الأخرى للحزب السياسي. وكان لدى الدبية أملاً مشرقاً واحداً، يتمشل بالصعود إلى المسرح السياسي متعلقين بأطراف معطف بوتين. كان حزهم الملاذ الأخير لنظام اللولة الذي كان حتى ذلك الحين قد تدبر أمره جيداً بالتكيف والبقاء في كل العهود السابقة، من ستألبن، وخروتشوف، وبريجينيف، وغورباتشوف وصولاً إلى ياسين. لقد أصبح الآن مستعداً لخدمة زعيم جديد حتى دون أن يعسرف الإنجساه الذي سيسلكه.

لكن "الحزب" الجديد يمكن أن يصبح قوة حقيقية إذا ما دعمه بوتين بشكل صريح. وهذا ما حصل في 24 تشرين الثاني عام 1999، بعد فترة تسردد قصيرة، عندما أعلن بوتين بأنه سيدعم "الوحدة" "كمواطن وكصديق لسيرجي شسويغو"، أحد زعماء الحركة. كان لهذا الكلام تأثير كبير على قبول الناس لهذا الحزب، الذي أصبح بنظرهم أشبه "بحزب بوتين"، ففي حين كانت نسبة قبسول "الوحدة" في أواخر تشرين الأول تبلغ 4 بالمائة فقط (وفقاً للمركز الروسي لأبحاث الرأي العام الذي يرأسه عالم احتماع شهير يُدعى يوري ليفادا)، ارتفعت هذه النسبة لتصل في

أواحر تشرين الثاني 19 بالمائة. يبدو أن هناك أناساً أحسوا بالفرصة السانحة أمامهم للوصول إلى السلطة.

وفي نفس الوقت، لمّح بوتين إلى قبوله - ولو أنه كان قبولاً مشروطاً - اتحاد قوى الحق (SPS) المشكل حديثاً - في آب (1999. ترأس هذا الاتحاد المديد من الليم اليين - ييفور غايدار، سيرجي كبرينكو، بوريس نيمتسوف وإيرينا محاكامادا - لكن أناتولي تشوبايس، "قيصر الخصيحصة"، كان السزعيم الحقيقسي والممسول الرئيسي. وكانت العلاقة بين تشوبايس وبوتين علاقة صعبة وذات طبيعة محلافيسة، فتشوبايس العدواني بطبيعته، المعتاد على التصرف كيفما يشاء، أصبح مضطراً الآن للحذر في تعامله مع بوتين، الذي لم يكن بدوره بحاجة إلى شخص قوي وطمسوح حوله.

على أي حال، إن مساندة بوتين لحركة الوحدة وتكرَّمه في إبسداء موقسف إيجابي من اتحاد قوى الحق كانت خطوة جريقة بحق. لأن هاتين الحسركتين إذا مسا حسرتا الانتخابات البرلمانية، فسيخرج بوتين من الساحة السياسية وسيتوجب على يلتسين حينتذ البحث عن وريث آخر. إذاً، فقد قرَّر بوتين المجازفة في كل شسيء؟ ولم لا، طالما أن الخطة بحد ذاقا المتعنلة بحلب رحل حديد بدون أي محوة سياسية إلى السلطة كان فيها قدر كبير من المجازفة.

دعمت إدارة الكرملين ترشيح بوتين دعماً كبيراً، حيث نظمت حملة نفسيطة ضد كل من حزب OVR (أرض الأجداد وكل روسيا) والحركة الديمقراطية "يابلوكو" بزعامة غريفوري يافلينسكي، الكتلة السياسية التي ترعمى مرشحين آعرين للرئاسة. وكان الهدف من هذه الحملة واضحاً عماماً، وهو تدمير هذه الكتلة من خلال برنامج عمل معتدل وديمقراطي في الانتخابات البرلمانية وبالنسالي شسل مرشحيها في الانتخاب الرئاسي. كان فريق يلتسين يريد ضمان فوز بوتين.

مارس الكرملين ضغطاً هائلاً على حكام الأقاليم المحتلفة من أحل التحلي عن لوحكوف وبريماكوف، المنافسين الأساسيين لبوتين، فرضحوا لمطلبه مفضلين عدم المقاومة. حتى أن بعض زعماء الأقاليم أظهروا قدرة عجيبة على المرونـــة، حيــــث شاركوا في كل الحركات الداعمة للكرملين، مثل حركة يلتسين وبيغور غايـــدار

"خيار روسيا"، التي أصبحت فيما بعد تحت اسم "خيسار رومسيا الديمقراطيسة"، و"روسيا هي وطننا" بزعامة فيكتور تشيرنوميردين. وبعد وقفتهم الموقتة مع OVR، تحوّلوا كلهم إلى حركة الوحدة وكأفم كانوا على موعد محدد.

على أي حال، لقد أثبتت الانتخابات البرلمانية التي حرت في كانون الأول من عام 1999 بأن الديمقراطية الروسية كانت قابلة للتحكم بها بشكل كلّي أو شبه كلّي. فنتيحة لموامرات الكرملين، حصلت حركة الوحدة على 23 بالمائه من نسبة التصويت واتحاد قوى الحق – التي قفزت إلى "قطار بوتين" في الوقت المناسب – على 9 بالمائة، وهي نتيجة جيدة. وبذلك فقد شكلت تلك الحركتان المناسب بي مجلس الدوما. وحصل الحزب الشيوعي على أقسل مسن المعتاد؛ 24 بالمائة من التصويت. بينما حصل حزب OVR على 13 بالمائه، الممائة حيرينوفسكي على 6 بالمائة ويابلوكو على 5 بالمائة. وتوزعت المقاصد البرلمانية في بحلس الدوما بتنيجة ذلك التصويت على النحو التسالي: حصل الميراعيون على 85 مقمداً، والمجموعة المتحالفة معهم – وهي الكتلة الصناعية النبوعيون على 45 مقمداً، الوحدة على 33، وحليفتها بحموعة نواب الشعب على 66، اتحاد قوى الحكومة "الأقاليم الروسية" على 70، السديمقراطيون على 15، ويابلوكو على 17 مقمداً.

أما بالنسبة للمقاعد الـ 12 المتبقية، فقد أخذها نواب مستقلون. (في بحلس اللموما في العام 1995، حصل الشيوعيون على 157 مقعداً وحصلت حليفتهم الكتلة الصناعية الزراعية على 20، والمحموعة المؤيدة للحكومة "روسيا هي وطننا"، صلف حركتي الوحدة وOVR على 55، المبتقراطيون الليراليون على 51، يابلوكو على 45، والحيار الديمقراطي لروسيا، سلف اتحاد قوى الحق على 9 مقاعد. فيسا محسّت بقية للقاعد بين زمر أصغر حجماً). وهكذا أظهر هذا الانتخاب الأولي الفريد بأن بوتين كان يملك فرصة حيدة للفوز في الانتخاب الرئاسي، فالأصوات التي حصلت عليها كل من الوحدة واتحاد قوى الحق كانت في واقع الأمر أصواتا الصاح الزعيم الجديد.

كان لحملة "مكافحة الإرهاب" في الشيشان، التي كانت قد بدأت في أيلسول والتي احتضنت من قبل غالبية الشعب الروسي، تأثير عميق على التصسويت، لأن حركي الوحدة واتحاد قوى الحق كاننا من أكبر الحركات المويدة لها مسن بسين الأحزاب المتنافسة. وفي هذا الحصوص، ذهبت مقالة تُشرت في مجلة ليوالية تُسدعي "إيتوجي" في 23 كانون الأول أبعد من ذلك: "لقد أغنت حملة انتخاب الدوما في العام 1999 العلم السياسي الروسي باكتشاف ثوري لا حدال عليه، وهو إمكانية استخدام عملية عسكرية واسعة النطاق بدم بارد كتفنية انتخابية".

بوحود أحزاب قوية مثل "الوحدة"، و"نواب الشعب"، و"الأقاليم الروسية"، و"اتحاد قوى الحق" في بحلس الدوما لأول مرة، امتلك زعيم الكرملين دعماً كبيراً في البرلمان الذي لم يتح ليلتسين في السابق أي وقت للراحة. وكان إضعاف OVR الذي وضع خططاً كبرى في الصيف، يعني في واقع الأمر هزيمة نحائية لبريماكوف، المنافس الأساسي لبوتين في الصراع على الكرملين. إذاً، فقصد حسست الطبقة السياسية الروسية خيارها في انتخاب اللوما، وكان لصالح بوتين. على أي حال، مرعان ما انضم حزب لوحكوف - برعاكوف في الدوما إلى معسكر الكرملين، فأحزاب الوسط في روسيا لم تكن مستعدة بعد لعيش حياة مستقلة، وقمذا السبب فهي كانت بحاجة إلى ظل من السلطة كي تبقى على قيد الحياة. وفي نحاية المطاف، بدأت هذه الأحزاب بالتنافس مع حزب الوحدة النابع لبوتين على دور الحزب بدأت هذه الأحزاب بالتنافس مع حزب الوحدة النابع لبوتين على دور الحزب

بعد قليل من التفكير، انسحب بريماكوف من السباق الرئاسي، لمعرفته بعسدم وجود أي أمل له في الفوز. وبعد ذلك، منح دعمه ليوتين وأصبح زائسراً دائماً للزعيم الجديد. ولماذا ينبغي عليه البقاء في المعارضة حينما بدأ بسوتين باستيعاب فلسفة السلطة التي كانت مشابحة بماماً لفلسفته بالذات؟ على أي حال، فبريماكوف هذا لم يبق في الساحة السياسية ويزدهر في السابق إلا لارتباطاته بزعمساء روسسيا المتعاقبين.

سنوات التطوير في عهد يلتسين، أصبح الحزب الشيوعي مكوِّناً ثابتاً في النظام الروسي ولعب دوراً مساعداً في الحفاظ على الاستقرار، وذلك بمنعه المعارضين من أنصاره من المبالغة في ردود أفعالهم والتوصّل إلى تسويات سياسية مع فريت الكرملين في الأوقات الحرحة. وبالمقابل، حصل الشيوعيون على بعض الأمور التي ساعدت في إرضاء المحموعات المؤينة لهم، إذ لطالما اهتم الكرملين بمصالح اللوبي الزراعي، ومصالح الجيش والصناعة العسكرية، ومصالح المناطق الداعمة للحـــزب الشيوعي.

وهكذا كسب خليفة يلتسين معارضة يسارية قوية أظهرت عدم رغبتسها في تقويض النظام الرئاسي. فقد قبل الحزب الشيوعي بالقواعد التي وضعها الفريسة الحاكم، مؤكداً على أنه لم يعد مهتماً بشكل جدي بالصراع على الكرملين وأنه سيستقر على لعب دور المعارض الدائم. ولهذا السبب، تأقلم الشيوعيون، اللذي كانوا في السابق جزءاً من نظام يلتسين، بسهولة مع نظام بوتين. صحيح أن وجود الحزب الشيوعي كجزء هام من نظام ما بعد الحقبة الشيوعية يعبِّر عـن تناقض واضح، إلا أنه ليس التناقض الوحيد في روسيا الجديدة.

لمة تناقض آخر، وهو نجاح الشيوعيين في توسيع قاعدهم الانتخابية بالرغم من فقدافهم بعضاً من دعمهم التنظيمي المحلي. فالمتقاعدون لم يكونوا هـــم الوحيـــدين الذين أعطوا أصواقم إلى حزب غينادي زيوغانوف - الباقي الرئيسي من الماضي السوفياتي وفي نفس الوقت الحزب الأكثر نفوذاً في روسيا ما بعد الشيوعية - بـــل كان هناك الأطباء والمعلمون والعسكريون الذين تحرروا من وهم إصلاحات السنوات العشر الماضية. وهؤلاء الناخبون لم يمنحوا أصواقم إلى الشيوعية بـــل إلى سياسة أكثر اهتماماً بالشأن الاجتماعي. وبما أن الضغوط الاجتماعية لم تكسن مرجَّحة للتناقص في المستقبل القريب، لم يكن الجناح اليساري من الطيف السياسي بدوره مرجحاً للانكماش.

كان من الممكن أن ينتقل الحزب الشيوعي، تحت ضغط قاعدت، الجديدة، للعب دور المعارض الحقيقي، لا المعارض الزائف، للكرملين. ولكن، مع وجود قادة شبيهين بقادة الاتحاد السوفياتي السابق، لم يكن باستطاعة الشيوعيين أن يصبحوا

قوة بناءة في روسيا، كما فعلت الأحزاب الشيوعية السابقة في أوروبسا الوسسطَى والشرقية.

إن وجود معارضة دائمة على شكل الحزب الشيوعي، الذي حافظ على درجة كبيرة من الصبغة السوفياتية اللا ليبرائية، قلّل من فرص ظهور قوة معارضة أحرى في روسيا، بما فيها البدائل النهقراطية. فبوجود الحزب الشيوعي كممسل رئيس للمعارضة، كان باستطاعة السلطات الادعاء بألها كانست تدير حكماً ديمقراطياً ليبرالياً، مع أن الحكومة، في واقع الأمر، لم تكن ليبرائية بمعسى الكلمة وبالكاد كانت ديمقراطية. بكلمات أحرى، لقسد ساعد الشسيوعيون الإدارة في المحافظة على الصورة الليبرائية. فبدون هذا الحزب، لم يكن باستطاعة تشوبايس أو غايدار، وبدرجة أقل منهما بوتين، التظاهر بشغل الموقع الليبرائي.

إن الليرالين الذين اجتمعوا ضمن إطار اتحاد قوى الحسق (SPS) وحسلوا أنفسهم في موقف صعب بعد انتخابات الدوما. كان SPS قد نجح في ضم حسزء كبير من الناخبين الإصلاحين (آخذاً قسماً من مؤيدي يابلوكو) آملاً في أن يصبح حليفاً جدياً لبوتين، إن لم يكن الحليف الأول⁽⁴⁾. غير أن بسوتين لم يكس يشسع بالالتزام نحو الليراليين، ومن الواضح أنه لم يكن يريد الاعتماد على أي شخص على الإطلاق. في هذا الأمر، البع بوتين تقليد يلتسين، ولكسن، بعسد انتخابات الدوما، تجاهل بوتين صراحة ليرالي SPS، في حين أنه عقد اتفاقاً مسع الحسزب الشيوعي تقاسما من خلاله مناصب بحلس الدوما فيما بينهما. كما دعم الشسيوعي غينادي سيليزنيف كي يصبح المتحدث باسم المجلس الأدن.

أظهر بوتين من خلال هذه الأفعال أن الإيديولوجيا لم تكن تشكل اعتباراً هاماً بانسبة إليه، فهو كان يفضل استخدام البراغماتية الصرفة. وكسان هسدف الرئيس من ذلك هو الحصول على ولاء البرلمان، حيث أغلب أعضائه كانوا مسن جماعة اليسار والوسط. و لم يكن بوتين قلقاً بشأن مشاعر SPS، لأنه كان متأكداً من ألهم لن يجرؤوا على تشكيل مقاومة، وألهم سيقبلون بالوضع في لهاية المطاف. وهذا ما حصل فعلاً، فقد ابتلع قادة SPS كبريايهم ودعموا الرئيس في الانتخابات البرانية، وكرروا ذلك مرة أحرى بعد ثلاثة أشهر، في الانتخاب الرئامي.

73

صادق قادة SPS، وخاصة تشوبايس ورئيس الوزراء السابق كيرينكو، بشكل غير مشروط على سياسة بوتين في الشيشان وعلى مبوله إلى المركزية. وفي هذا الخصوص، صاغ كيرينكو – محاولاً تبرير نفسه وساعياً، في الوقست نفسه، لإيجاد مكان له في التركيبات الحكومية الجديدة – إعلان المبادئ الجديسد للحسق الروسي، المليء بالعبارات العلنانة، في حريدة كوميرسانت ديلسي وذلسك في 14 نيسان عام 2000.

عرف كيرينكو الليرالية الجديدة بأغا "ليرالية غط العيش"، مؤكداً على أن النسخة القديمة منها، والتي دعاها "ليرالية الموقف"، قد أصبحت عتيقة وبالية. وقال كيرينكو بأن الليرالية الروسية "تليي مطالب الجيل الجديد"، والجيل الجديد هـو "جيل المومنين بمبدأ المركزية ومناصري القوة العظمى". أي أن الليراليين يجبب ألا يفكروا في الأفراد والحقوق والحريات بل في إنشاء دولة قوية وحسب. وفوق ذلك، فالليراليون لا يمكنهم معارضة سياسة بوتين، وفقاً لمؤيد الليرالية الجديدة. "أية معارضة، في وقت فاتنا فيه الوقت؟" تساءل كيرينكو بيساطة مفتعلة.

اعتبرت غالبية الليبراليين الروس المنضوين تحت راية SPS بأن هدفهم الأول هو التعاون مع الرئيس وتنفيذ سياسته. ومع ذلك، فهم لم ينسوا التأكيد على أن الأولويات الاقتصادية – السوق وليس الديمقراطية – كانت هامة بالنسسية لهم، حيث طالب علمة ليبراليين حسورين (بيتر آفين، على سبيل المثال) بوتين بأن يصبح "بينوشيه روسيا"، اعتقاداً منهم بأن الديكتاتورية وحدها هي التي يمكنسها متابعة إصلاحات السوق في البلد. ولكن، خلف تلك الفكرة البسيطة لمه فكرة أخسرى أكثر أهمية بالنسبة للكتبرين من مؤيدي السوق وكبار المتنفذين المرتبطين معهم، وهي ألهم كانوا يتصورون بأن الدكتاتورية هي الطريقة المثلى لحماية مواقعهم مسن منافسيهم ومن أي ردة فعل اجتماعية عنيفة قد تحصل.

ما زلت أذكر النقاش الذي دار في موسكو في تلك الفترة. ســـال المحللـــون السياسيون واحدهم الآخر عن الأشخاص الذين ذهبوا ليخدموا بوتين، والأشخاص الذين كانوا ينتظرون حتى تنحلي الأمور. الغالبية العظمى من الليبراليين المقربين من قيصر الخصخصة تشوبايس كانوا قد "انبطحوا" سلفاً تحت بوتين. وذلك مفهـــوم، لأن أياً من قادة الليراليين لم يكن يفكر في التضحية في سبيل الحرية والديمقراطيسة. وما أنقذهم هو حقيقة أن بوتين كان يؤمن في السوق، الأمر الذي أتاح لهم فقدان الحدّ الأدن من ماء الوجه عند انضمامهم إلى حركة الوحدة وحصولهم علمى الوظائف من الزعيم الجديد⁽⁵⁾.

تصرف أغلب الليراليين الروس المقريين من السلطة مشل التكنور واطيين في الأنظمة تصرف الاستبدادية البيروقراطية في أميركا اللاتينية، الذين كانوا مستعدين لخدمة حتى الأنظمة الديكتاتورية إذا ما قامت تلسك الأنظمة بعمليسة تحسديث اقتصادي. لكن المشكلة في روسيا، مع الدور التقليدي الهائل للدولسة والقواعسد المتبسة للعبة السياسية، كانت تكمن في إمكانية أن يصبح الليراليون واجهة لنظام فاسد. وكان أولئك الليراليين من الذكاء بحيث ألهم لم يلاحظوا ذلك.

قلة من قادة SPS - مثل بوريس نيمتسوف وإيرينا خاكامادا - بدوا غير مرتاحين بشكل واضح مع الوضع الجديد، حيث سمحوا الأنفسسهم بإبداء آراء متاحين بشكل واضح مع الوضع الجديد، حيث سمحوا الأنفسسهم بإبداء آراء نقدية، وإن كانت معتدلة، حول سياسة الكرملين. أما بالنسبة الي الإصلاحات في روسيا، يغور غايدار، فقد اختار البقاء صامتاً، وكانت تلك إشارة انتقادية أيضاً للإدارة لكنه فضًل عدم الإفصاح عنها علناً. إن استياء هولاء الليرالين المتميزين وانتقادهم للكرملين سمح لهم بالحفاظ على نفوذهم على حيزء مسن المحموعات المعارضة ضمن المحتمع، حتى ألهم حاولوا لعب دور "المعارضة البناءة" (لاحقاء المعارضة عدد SPS مصطلح "المعارضة الحاكمة" سعياً منهم لتبرير محاولتهم القيام بدورين منفصلين تماماً في نفس الوقت).

اعتقد بعض المراقبين الروس بأن قادة SPS تقاصوا الأدوار عن عمد - تشوبايس وكيرينكو كانا عادة بمدحان الحكومة والرئيس، فيما كان نيمتسوف وآخرون يتقدونهما - وهذه الطريقة كانوا يحاولون المحافظة على الأجزاء المتضاربة من الناخبين تحت سيطرة SPS. أما بالنسبة للسلطات، فإن السماح لأقلية مستاءة - لم تكن تشكل قديداً لها بأي شكل من الأشكال - بالتنفيس عن غضبها بشكل لطيف ساعد هذه السلطات لتحافظ على صورة متحضرة.

كان ليبراليو SPS، من شدة رغبتهم في أن يكونوا حزءاً من الحكومة بــاي

غن، مستعدين للاستمرار في دور المحافظ على الاستقرار الذي لعبوه خلال فترة إدارة يلتسين. وهنا، وقع SPS في نفس الفخ الذي وقعت فيه حركسة "روسسيا الدعقراطية" - أول حركة دعقراطية روسية تشكلت في عهد غورباتشوف -عندما ساعدت يلتسين في صراعاته على السلطة في بدايات التسعينيات. فقد سعت روسيا الديمقراطية لأن تصبح حليفة يلتسين، آملة في الحصول على حصيتها مسن الكعكة، لكنها، عندما تجاهلها يلتسين، قبلت يدور الحليف الذي لا يُكافأ علي مساندته، داعمة الرئيس بالرغم من ذلك.

ونتيحة ذلك، لم يعد ليبراليو الموحة الثانية، المتحدون حول حركــة غايــدار "خيار روسيا"، ثم فيما بعد حول حركة "خيار روسيا الديمقراطية"، يطالبون بلتسين بأي شيء، وذلك بعد أن أصبحوا جزءاً من الحكومة و بدون شروط مسبقة. لقد أصبحوا جزءاً مهماً من شبكة عنكبوت يلتسين الخفية، منجزين بعض الإصلاحات الخفيفة من وقت لآحر. وكان ليبراليو السلطة يبررون ذلك بقولهم: من سيقوم بهذا غيرنا؟ وفي قماية المطاف، أصبح الليبراليون، مثل الشيوعيين، عنصراً داعماً لاستقرار النظام. وهكذا نجح نظام يلتسين، الذي كان يمرّ في مرحلة انتقالـــه إلى الزعيم الجديد، في الاستناد إلى من كان يُفترض ألهم أعداء أبديين وغير قابلين للتسوية؛ أي ليم اليو SPS والشيوعيون.

لكن الدور الداعم للاستقرار الذي لعبه ليراليو SPS ضمن إطار الملكية المنتخبَّة حرَّد فكرة الديمقراطية الليبرالية من مضمونما. وعلاوة على ذلك، فقد أدَّت تجزئة الليرالية الاقتصادية والديمقراطية إلى حدوث نوع من الرأسمالية الاستبدادية غير الخاضعة لسلطة القانون، لم تكن فيها الحرية الاقتصادية مترافقة مسع حريسة سياسية وحكم القانون، بل كانت مقيدة بتلاعب الجهاز الحكومي.

أما بالنسبة للمعارضة النهقراطية (غير الشيوعية) الوحيدة لبوتين - أي يابلوكو - فقد فقدت ما يزيد عن 900.000 ناخب ما بين الانتخابات السابقة في العام 1995 وانتخابات العام 1999. وانخفض عدد مقاعدها في الدوما بما يزيد عن النصف، من 45 مقعداً في الدوما القدم إلى 17 فقط. في الواقم، كانت هزيمة حركة يابلوكو ناتجة عن حيبة أمل المحتمع من القيم الليبرالية الديمقراطية، دافعةً فيما يدو فمن دفاعها عن تلك القيم، ومن بينها موقف زعيمها، غريفوري يافلينسكي، الممارض للحرب، كان حزء من قاعدة يافلينسكي يؤيد الحسرب في الشيشان. والأنكى من ذلك أن حزءاً كبيراً من الناس ذوي التوجّه الليوالي كانوا يفضلون SPS على يابلوكو لأنه، حسب قولهم، "لا يمكنك الاستمرار في انتفاد الحكومة، إذ سيتوجب عليك في نماية المطاف مساعدة!". غير أن يافلينسكي ردّ علسى هله بقوله: "إذا بدأنا في التعاون مع إدارة ستستخلمنا كغطاء لها، فإننا بذلك سنعمل على تدمير أنفسنا"؛ وكان محقاً في قوله هذا. لكن المأساة بالنسبة ليابلوكو في تلك اللحظة التاريخية كانت تكمن في أن الحيّز المتوفر للمعارضة المهقراطية كان ضييقاً

لقد عكس إضعاف نفوذ يابلوكو حاجة روسيا إلى شكل جديد من المعارضة يضيف إلى حركات حقوق الإنسان أساليب أكثر تأثيراً في دعم الإدارة. يسدو أن حزب المثقفين الصغير، الذي يتواجد دائماً في المعارضة ولا يصل أبداً إلى السلطة، لم يكن يناسب الأشخاص الطموحين الذي كانوا يرون في الحزب السياسي وسيلة للتقلم فقط. كما أن تضامن الحكم حول فكرة النظام، الستي راقست للمحتمع والنخبة السياسية، لم يساعد بالطبع على تقوية التحالف الديمقراطي المعارض. أما بالنسبة لأولئك الذين كانوا يخشون من "قبضة حديدية" جديدة، فقد آثروا تحسب انتقاد الإدارة، ولهم العذر في هذا الحذر، فذكريات الماضي السوفياني كانست مسائل مائلة في الأذهان. دون أن ننسى، بالطبع، صلة بوتين الماضية بالكي حسى بي، الدي كانت تحسب مظهر الذي كانت الساحة السياسية الروسية تكسب مظهر الإدعان والإمتال.

بعد انتصار "الوحدة" في الانتخابات الأولية، أصبحت مسيرة بوتين نحسو السلطة غير قابلة للإيقاف. ولكن، مع الأمزجة المتقلبة للمحتمع والطبيعة غسير القابلة للتوقع بما للحرب الشيشانية، لم تكن هنالك ضمانة أكيدة بانتصار بوتين في انتخاب حزيران من العام 2000، عند لهاية فترة حكم يلتسين. من هسا كانست خشية مولفي "مشروع بوتين" – ابنته تاتيانا، ومستشاره فساليتين يوماشيف،

ورئيس موظفيه الكسندر فولوشين، وأصلقاؤهم من المتنفذين - من عدم ممكنسهم من الحفاظ على معدلات بوتين عالية حق حزيران، عوفاً من حدوث شسيء مسا يفسد خططهم. ولهذا السبب، كان ينبغي إيصال بوتين إلى السلطة فوراً.

وهنا، أذهل يلتسين العالم، عندما أعلن أول رئيس لروسسيا في 31 كسانون الأول من العام 1999، مع احتفالات البلد برأس السنة، بأنه سيمستقيل. وأنساء قرايته لتصريحه، الهمرت دمعة على خد يلتسين. قال يلتسين في بث مسجل للأمسة "لقد اتخذت قراراً، لقد فكرت ملياً وطويلاً. اليوم، في آخر يوم من القرن الأفسل، ها أنا أستقيل... أريد أن أطلب منكم كلكم أن تففروا لي، لأن الكثير من أحلامنا لم يُكتب لها أن تتحقق".

بدا يلتسين رصيناً وعاطفياً، وحزيناً أيضاً. كانت عشية رأس السنة والألفيسة الوشيكة مناسبة تماماً لوداع أول رئيس لروسيا ما بعد الشيوعية. وكسان السروس حول موالدهم المبتهجة بالعيد وأقداح الشمبانيا في أيسديهم مستعدين لمسسامحة زعيمهم على الكثير من الأشياء، بما فيها وعوده الفارغة التي كان كثيراً ما يحسب إعطاءها، فالمتعب الروسي ليس حقوداً. يبلو أن هذا الإعلان غير المتوقع لم يصدم البلاد أو يسبب اضطراباً كبيراً، بل يمكن ممثيل ردّة فعل معظم الشسعب الروسسي على هدية الكرملين في رأس السنة بعبارة: "أخيراً!"(6) كانت استقالة يلتسين تعسي بأن بوتين سوف يكون مسؤولاً عن الكرملين وعن روسيا وعن انتخاباته الرئاسية الحاصة به. ولكن، لم يكن قمة ما يدعو الكرملين للقلق، إذ ما من أحسد حساول إفساد السيناريو المخطط له، و لم يكن هنالك "غرباء" يطالبون بالعرش.

كانت التحضيرات لرحيل يلتسين أشبه بالتحضير لعملية عسسكرية سسرية، حيث لم يشترك فيها سوى قلة قليلة من الأشخاص الموثوقين والمختبرين؛ أولئسك الذين أفنعوا يلتسين بأن بجعل من بوتين خليفته، وأولهم تاتيانا بالطبع. حاول يلتسين في سيرته الذاتية "الماراثون الرئاسي" أن يجعل الأمر يبدو وكأنه هو نفسه من اتخذ القرار وأنه أخير حاشيته في اللحظة الأخيرة. وهذا ما أكدته تاتيانا إلى جريدة كوموسانت ديلي: "لم أعلم بأي شيء حتى اللحظة الأخيرة تقريباً". لكن يلتسين، في الواقع، لم يكن في وضع يؤهله لتخطيط وتنفيذ استقالته لوحده مسن دون مساعدة من أحد. إنه لم يكن المخرج، ولا المنتج، ولا كاتب السيناريو في هده المسرحية بل بجرد نجم عجوز دُعي للعب دوره الأخير.

بحسب كتاب يلتسين، أول عادثة أحراها مع بوتين حول استقالته وحسول انتقال بوتين لكي يصبح الرئيس المؤقت حدثت في 14 كانون الأول (أ). يقسول يلتسين أن بوتين كان متردداً بخصوص عرض يلتسين. إليكم فيما يلسي ردّة فعسل بوتين على اقتراح يلتسين بأن يكون خلفاً له، وفقاً لكتابه "المساراتون الرئاسسي": "أنت تعلم يا بوريس نيكولايفيتش، إذا أردت الحقيقة، بأني لست متأكداً عما إذا كنت أريده، لأها حياة صعبة إلى حدِّ ما مسن الواضح أن الكولونيل بوتين كان متردداً. وكانت تلك هي الإحابة الصحيحة المطلوبة. ببساطة، ردّة فعل بوتين هذه أقنعت يلتسين في أنه وجد الرجل المطلوب، الرجل الذي لم يكن مستعجلاً للوصول إلى العرش. دعونا لا ننكر علسي بسوتين الرجل الذي لم يكن واضحاً أن بوتين لم يكن واثقاً من نفسه في البداية وأنه كان يريد الزيد من الوقت لكي يستعد، لكنه وافق – على أي حال – على قبسول وظيفة الكرملين بعد حواره مع يلتسين.

هل كان بوتين يعلم بما سيقترحه عليه الرئيس في 14 كانون الأول؟ لا بد أنه كان يعلم، لأنه حتماً كان يدرك – منذ شهر آب – بأن إخلاصه وأداءه كانا تحت الاختبار. لقد عقد بعض أفراد "عائلة يلتسين" عدة احتماعات في بيوتهم الريفيسة ناقشوا خلالها تفاصيل انتقال السلطة. كانوا يحضرون بوتين لساعة العمفر، وكسان هو بدوره يحضر نفسه لها كذلك. وبصفته ضابط استخبارات سابق، لا بد أنه فهم ما كان يجري. علاوة على ذلك، فالعملية نفسها كانت تعتمسد علسى تعاونسه، وذكائه، وخيرته الاستخباراتية.

عندما تقابل يلتسين مع بوتين ثانية، في 29 كانون الأول، كان بوتين يطلم بأنه أصبح الزعيم الجديد لروسيا. كان الحديث بين الملك المفادر وخلفَه بحرد عملية شكلية، إحراء رمزي، مثل توقيع معاهدة، إذ كان بوتين وحاشية يلتسين قد اتفقوا مسبقاً على تفاصيل المشروع. كان واضحاً، مع ذلك، أن العائلة الحاكمة لم تستطع التخلي عن السلطة بهذه البساطة. وعلى هذا الأساس، وُزَّعبت الأدوار وتم التوافق على الإلتزامات المشتركة ما بين الأطراف. بعبارة أخرى، كانست عملية انتقال معقدة للسلطة الفردية، واستمرار للسلطة الحاكمة، وفي نفسس الوقت، مصادقة على الملكية المنتخبة المشكّلة من قبل يلتسين. لقد أخذت السلطة كل وقتها في اختيار وريثها، وبذلت جهداً هائلاً للقضاء على منافسيه الحقيقيين أو الافتراضيين، واستحدمت كل الوسائل المكنة للوصول إلى أهدافها، من حمسلات تشويه سمعة مناهضي الحرب الشيشانية إلى التسبّب في إحباط المحتمع. وإذا ما أردنا تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، فإننا سنقول بأن العملية ما هي إلا مؤامرة من قبل

تمولت الأطراف بعد ذلك إلى تجهيز المسرح وإضفاء شيء من الشرعية على حدث استقالة يلتسين. فتأكّدوا أولاً من أن الأخبار لم تتسسرب مسبقاً. لقسل الشريط المسحل لرسالة يلتسين إلى الأمة – والذي سُحِّل بأقصى ما يمكسن مسن السرية – إلى استوديوهات تلفزيون أوستانكينو في سيارة مصفحة برفقة هماية عسكرية. وطلب من كل المحطات التلفزيونية الوطنية أن تبتَّ الشسريط في تمسام منتصف ظهر 31 كانون الأول، مع دخول المنطقة الزمنية الشرقية القصوى مسن روسيا العام الجديد. وبذلك، فإن سكان تلك المنطقة وسكان سيريا وصلتهم أنباء تغيير المشهد السياسي في موسكو وهم جالسون حول موائدهم أثنساء احتفالهم بالعام الجديد.

الكرملين لتسليم السلطة إلى شخص معين، ومن ثم، ضمان نجاحه.

في تلك الأثناء، كان الكرملين منشغلاً في تنظيم الاجتماعات، السني بسدأت باللقاء الذي جمع يلتسين وبوتين مع البطريارك أليكسي الذي بارك باسم الكنيسة الأورثوذكسية الروسية عملية انتقال السلطة (لطالما لبّت الكنيسسة الأرثوذكسسية رغبات اللولة، تماماً كما كان يحدث أيام القياصرة). ومن ثم أتت عملية انتقسال الحقيبة النووية، رمز السلطة والبرهان على وضع روسيا كقوة عظمى، إلى بسوتين. وقد سُحُّل هذا أيضاً. وبعد ذلك حاء اللقاء الذي جمع الرئيس المستقيل وخلَفَه مع وزراء السلطة (السيلوفيكي)، وكان اللقاء الأكثر أهمية، لأن انتقال السلطة كان ينبغي أن يتم بموافقة وزيري الدفاع والداخلية وأحهزة الأمن. ثم حساءت الوليمسة الوداعية مع وزراء السلطة، وبعد ذلك شاهدت الأمة كلها برنامج يلتسين علسى التلفزيون.

حوالى الساعة الواحدة من بعد الظهر، بتوقيت موسكو، كان يلتسين يصسافع الجميع. ثم سُمح بالدخول للصحفيين وكاميراقم التي سحلت الدقائق الأخيرة ليلتين وي دوره كزعيم للبلاد. وبعد ذلك، راقبت روسيا يلتسين وهو يفادر الكرملين. كسان يبدو وكأنه يعاني من صعوبة في التكلم والتنقل. أظهرت الكاميرات يلتسين وهو يفادر المكتب الرئاسي للمرة الأخيرة؛ إذ توقف ليرهة وحال بنظره في الغرفة ثم استدار نحسو بوتين، وكأنه كان يترك المكتب له كهدية: الآن أنت سيد كل هذا. ثم خرج إلى سلم الكرملين بخطوات ثقيلة وقال شيئا آخر لبوتين، علمنا فيما بعد أنسه قسان: "اعستن بموسيا". كانت لحظة مسرحية، ومؤثرة إلى حدًّ ما. ولكن، لطالما كان يلتسين ممسئلاً بروسيا". كانت لحظة مسرحية، ومؤثرة إلى حدًّ ما. ولكن، لطالما كان يلتسين في دوره باحدًا، وخواصة في أفضل سنواته. فكرت في نفسي وأنا أنظسر إلى يلتمسين في دوره الجديد – دور السحين – وقلت: كل شيء له بداية، وله لهاية.

بدا بوتين متوتراً وشاحباً خلال الاحتفال الذي أعده الكرملين والذي راقبت روسيا كلها. كان وجهه بلا تعابير وكانت نظرته عميقة الغور. تلك هي الطريقة التي تعامل فيها مع الحدث الهام. شاب من سان بطرسبورغ، شخص عادي مسن أسرة عاملة، سياسي حديث العهد، كان يتسلم بلداً ضخماً ليحكمه، وذلك كان كافياً كي يُصاب رأسه بالدوار. لكنه، من الناحية الخارجية على الأقل، سيطر على مشاعره، إذا كانت هنالك أية مشاعر. وهكفا انتهت حقبة يلتسين، ودقت روسيا أحراسها احتفالاً بمحيء العام الجديد مع زعيم حديد.

أثناء توجّه يلتسين إلى منسزله الريفي - حيث توارى فيه لأكثر مسن مسنة وأصبح الآن مقره الرسمي - اتصل به بيل كلينتون. كان الرئيس الأميركي صادقاً في مشاعره الدافعة والمشوشة لأنه كان مضطراً لتوديع الرجل الذي وضعه القدر السياسي بجانبه على المسرح العالمي. من المؤكد أن كلينتون كان يحسب بسوريس المعجوز، الذي غمرته العاطفة والإرهاق إلى درجة أنه لم يستطع الستكلم فطلسب إرجاء المكالمة إلى المساء.

فيما يتعلق بضمان الخلف، يمكن اعتبار استقالة يلتسين المبكرة بأفسا عمليسة عططة بشكل حيد ومنفذة بشكل حيد أيضاً. وفي هذا الخصوص، أثبست فريسق يلتسين، الذي كان في البداية عدم الخبرة على نحو مثير للشفقة، بأنه يستطيع تعلم فن المكاند. ونجع هذا الفريق في نماية المطاف في "مشروع الخلف" هذا. على أيسة حال، من الموكد أن يلتسين - الذي كان في عزلة شبه كاملة، والذي لم يتعامل مع العالم المخارجي منذ عام على الأقل - لم يكن باستطاعته القيام بذلك لوحده.

إذاً، لضمان انتصار بوتين في الانتخاب الرئاسي، كان على يلتمين أن يفادر في وقت باكر. ولكن، لم يصدق كل الناس بأن يلتمين قادر على إخضاع طموحه وكبريائه إلى سلطان العقل، بالرغم من أن الإشاعات المتعلقة باستقالته كانست تلوكها الألسن منذ وقت طويل. من هنا، كانت مسألة عدم توقع تنحّبه عنصراً واسمأ في ضمان نتيجة العملية برمتها. في الحقيقة، يصعب معرفة ما الذي أقنسع يلتمين بالتنحي: الضغط من العائلة، أم تفهّمه للحقائق السياسية، أم رغبته بإبحاد خلف له قادر على المحافظة على إرثه وإحياء الإصلاحات المحتضرة؟ هسل كان يلتمين العليل يفكر في أي شيء غير مرضه الدائم؟ إلى أي درجة كان يفهم المشاكل التي يخلفها إلى وريثه؟ من الأرجح أن حاجته إلى ضمان أمنه وأمن عائلته المشاكل التي يخلفها إلى وريثه؟ من الأرجح أن حاجته إلى ضمان أمنه وأمن عائلته كانت تحل الأولوية العليا في حساباته، مهما تكن تلك الحسابات. وإلا، لمساذا اعتار رحلاً ليس له أي خيرة في السياسة العامة وإدارة شؤون الدولة العليا، رحلاً لم يكن معروفاً لدى المجتمع بشكل عام لكنه أثبت إخلاصه إلى معلميه؟

كان سلوك بوتين كرئيس لجهاز الأمن الفدرالي (FSB) عاملاً حاسماً بالنسبة ليلتسين والعائلة في اختيارهم له كوريث. كان بوتين حذراً وحريصاً و لم يظهر طموحاً مفرطاً. وكان دقيقاً ومنضبطاً، فهو لم يتورَّط في أي علاقة يمكن أن تشوّه سمعته. كان يعرف كيف ينتظر، ولا يستعجل أبداً، وبدا بأنه رحل عقلاني وبراغماني. لكن الأهم من ذلك كله هو إثباته بأنه قابل للوثوق به حتى في أحلك الأوقات. هذه هي الصفات التي حدّت مصير بوتين ومصير اللولة.

إضافة إلى ما سبق، ثمة أمران آخران. أولاً، كان بوتين شاباً نسبياً بالمقارنة مع يلتسين، فهو كان في عامه السابع والأربعين في ذلك الوقت. وكان يلتسين يحسب السياسيين الشباب، لأنه كان يشعر بألهم مستقبل روسيا. والأمر الشاني يتعلم م بماضي بوتين الليرالي في سان بطرسبورغ. بالطبع، أولئك الذين نقلوا بسوتين إلى القمة كانوا يعرفون بألهم لن يستطيعوا تنصيبه على العرش بدون قبول الشسعب، ولهذا السبب أصبحت مسألة فوز الحركات المؤيدة لبوتين في الانتخابات البرلمانيسة عاملاً حاسماً في الاختيار النهائي للوريث.

وهكذا، سلَّم يلتسين إلى بوتين هديته، التي كانت روسيا. ومنذ ذلك الحين، لم يكن ثمة شك في أن كل مقدرات الدولة ستُستعدَم لضمان رئاسة بوتين.



وبذلك أسدل الستار على حكم بوريس يلتسين، أول رئيس لروسيا⁽⁹⁾، الذي بدأ حكمه بنفة الملاين بمستقبل أفضل لروسيا، وانتهى بخية أمل وانعدام الأمان. في لهاية التسمينيات، تحوّل يلتسين، الذي كان رمسزاً للتحديد والقسوة في لهاية الثمانينيات، إلى عجوز عليل مهزوز اعتُير من قبل الشعب الروسي بأنه بريجينيف آخر، ولهذا السبب كانوا ينتظرون رحيله بفارغ الصبر لخشيتهم من أن يقوم بشيء غير متوقع، مثل عملية تغير جديدة أو التورط في صراع سياسسي أو عسكري جديد. لم يعد بإمكالهم الصبر أكثر من ذلك، ولم يعد عمة مكان للشفقة في قلسوهم فقد حلّ علها الاحتقار والسام.

كان بمقدور الناس تأييد أي شخص آخر من أجل التخلص من يلتسين. لقد تُضي عليه، ليس فقط لأنه لم يعد مقبولاً، بل لأن ذلك المنشق المستقل فقد ثقته المعهودة بنفسه. باختصار، كانت روسيا بحاحة إلى إلهاء فصل بلتسين. لكن بعض أولئك الذين تمنوا رحيل يلتسين، واعتبروه سبباً في الانحيار السياسي الحاصل – مما يثير السحرية – سيغيرون رأيهم في حكمه ويبدأون في تذكر أيامه والحنين إليهسا. وهذا طبيعي، لأن المقارنة وحدها تجعلك قادراً على الحكم بشكل صحيح علسى الأشخاص والتاريخ.

 رحيل القادة السوفيات في الوقت المناسب. فمن سبقه إلى سدّة الحكم إما حُملـــوا إلى خارج الكرملين حملاً على النعوش أو أحبروا على الخروج حـــبراً. ويلتســـين نفسه، الذي كان منذ عهد قريب قوياً ومتنفذاً، فخوراً وطموحاً، بقي في الســـلطة حتى أصبحت مجرد رؤيته تثير الألم في النفوس. فهل سيكون بوتين أول من يكسر هذا التقليد، وكيف؟

ترك يلتسين وراءه بنية سياسية معقدة مليئة بالمجموعات المتنفذة ذات المصسالح المخاصة. ويُظهر نموذج القيادة الذي أورثه يلتسين نقاط الضعف والقوة في شخصيته وفي مفهومه للرئاسة. فالنظام الذي أوجده محيّز بالشك والفردانية، وترافق مع رغية بامتلاك سلطة شاملة ومطلقة مع عدم الاستعداد لاستخدام هذه السلطة كديكتاتور. نظام يُعتبر امتداداً لشخصية يلتسين وفي نفس الوقت امتداداً للتقليد الروسي القديم المحكم الملكي المستبد. نظام أدام، على الأقل، بعض جوانب نموذج الحكم الروسي مثل رعايته الأبوية، واعتماده على بقاء "الحاكم - الحكم" فوق الصراع، ودبحه للدولة مع المجتمع، وللاقتصاد مع السياسة. وعلى هذا الأساس، يمكننا القول إنه مهما كان نوع القيادة التي سيحاول وريست يلتسين الإساسية، والعدادات المتحذرة في بني السلطة، وفلسفتها، والتعقيدات السياسية التي ساعدت على بقائه.

ستعود روسيا إلى شخصية يلتسين مرات ومرات في محاولتها لفههم إرثه وتحديد ما إذا كان هذا الإرث، في المحصلة، إنجابياً أم سلبياً. وسيفكر المجتمع مليساً في ماهية يلتسين بالنسبة لبلده المعذّب: أكان مصلحاً أم مؤمناً بالاستقرار، ليبرالياً أم ماهناً ، مؤمناً ، مركزية الدولة أم مدمراً للدولة؟ إلى أبن كان متحهاً؟ فإذا كان إلى المستقبل، فأي نوع من المستقبل؟ أو، هل حاول إبطاء الحركة التقدمية للمحتمع ليحافط على حزء من الماضي السوفيائي وما قبل السوفيائي، خوفاً من التغيير الزائد عن الحدّ في زمن قليل؟

يشير عدم وحود اتفاق في روسيا على تقيم يلتسين إلى أن دراسة دوره قسد تكون مرتبطة بتغييرات معينة، وأن هذا يعتمد كثيراً على ما سيصبح عليسه خلفَ وعلى الطريقة التي سيستخدم فيها إرثه. ربما سيُنظَر إلى يلتسين في المستقبل بطريقة ألطف بكثير مما كان يُنظَر إليه في لهاية حياته السياسية، وهذا ما تؤكسه الوقسائع اليوم، بعد عدة سنوات فقط من حكم بوتين، حيث بدأ حتى نقّاد السرئيس الأول ينظرون إليه بشكل أكثر تعاطفاً من ذي قبل.

على أية حال، ثمة شيء واحد واضح كل الوضوح، وهو أن يلتسين في بداية التسعينيات أصبح زعيم روسيا لسبب رئيس وهو أنه كان يجمع في شخصسيته وفي حكمه ما بين الارتباط بالماضي والرفض لذلك الماضي في آن معاً. وبطريقة مشاكمة إلى درجة تثير العجب، بدأ بوتين، هو الآخر، حكمه بالادعاء باستمرارية الخسط "الميلتسين" وفي نفس الوقت رفضه.

كان أسلوب يلتسين السياسي يشتمل على المبادئ الأولية للسياسي السوفياتي النموذجي إلى جانب رغبة بتدمير الخواص الشيوعية التي يمتلكها. فهو قد يتصرف كأحد النبلاء المتعجرفين من روسيا القليمة في احتقارهم للتابعين والمرؤوسين، ويفضل اتخاذ القرارات بشكل شخصي وخلف الكواليس، ملتجعاً إلى المكالد، وهي الخاصية التي كانت يميّز طبقة النحبة في العهود الشيوعية وحسى في أزمنسة الإقطاع. لم يكن يلتسين يستطيع أداء عمله بشكل حيد في نظام يفصل بسين السلطات، ولهذا السبب تجده يسعى بكل قوته من أحل احتكار تلك السلعة، أي السلطة، التي امتلكها في قبضته وأبعد عنها بالقوة كل من يمكن أن تسوّل له نفسه المطالبة بها.

وفي نفس الوقت، أظهر يلتسين ميلاً للنهقراطية، حيث فهم أهمية الحريسات المدنية الأساسية وقبلها. وهو كان يتحمَّل النقد، ولو بصعوبة، حتى عندما يكسون قاسياً وجارحاً. فعلى سبيل المثال، لم يمسّ يلتسين الصحفين بأي سسوء، حسى أولتك الذين جعلوا من انتقاده والتهجّم عليه شغلهم الشاغل. إضافة إلى ذلسك كان يلتسين يعرف كيف يلحاً إلى الناس في صراعه مع جهاز الملولة ومنافسسيه لأنه كان يدرك قوة الناس. والأهم من هذا كله هو أن يلتسسين لم يكسن ميالاً للانتقام، فهم لم يضطهد أياً من أعداله ومنافسيه، وهذا كان جديداً على روسسيا التي اعتادت في ميدان السياسة على الانتقام، وليس الغفران والصبر. وبذلك بسعاً يلتسين مسبقاً بتقويض نظام الحكم الروسي التقليدي.

في السنتين الأولتين من عمر إدراته - 1991 و1992 - كان لدى بلتسيين هدفين أساسين - رغم أنه ربما لم يفكر في كيفية تحقيقهما - هما دمج روسيا في أوروبا وحعلها دولة ديمقراطية قوية ومتمدنة. لكنه عندما شعر بالمقاومة، التي بدأت في بداية العام 1992، وأدرك أنه لم يكن يملك رؤية واضحة لما كان يريد تحقيق، تحوُّل إلى ما كان يعرفه مسبقاً، وهو عاربة منافسيه وتقوية نظام حكمه الفردي. في تلك اللحظة، بدأ التفكير في الإصلاحات، ولكن في سياق حماية موقعه فقسط. فإذا كانت تلك الإصلاحات غير متعارضة مع سلطته، استمر 14 أما إذا كانست تعمل على تعقيد حياته، فإنه كان يبطئ العمل بها أو حتى يوقفها أمالياً. ظاهريساً، كان يلتسين ما يزال الضامن الوحيد للتوحّه الجديد نحو الغرب والليرالية. لكنه، بدياً من العام 1993، توقف عن كونه القوة الدافعة وراء عملية الإصلاحات، التي کانت تا داد ، که دا شیاً فشیاً.

ولم يكن أسلوب أول رئيس لروسيا وحده هو الذي يتصف بالتناقض، بــــل معتقداته السياسية أيضاً. فعلى الرغم من أنه حعل من معاداة الشيوعية إيديولوجيته، ونحج في تدريب الطبقة السياسية على العمل في حوٌّ من التعددية، وأعطبي أول حكومة له إلى محموعة شابة من التكنوقراطيين الليبراليين غير المعسروفين - ناسمةً بذلك التقليد الروسي المتمثل بمكم الكهول الذي رفض دائما الاعتراف بسلطة الشباب باستثناء الفترة الثورية الوجيزة خلال عشرينيات القرن الماضي - إلا أنـــه ارتدُّ في لهاية المطاف وحوَّل حكمه إلى حكم أشبه بالملكي. وهكذا فشل يلتمسين في الحكم بطريقة مختلفة عن أسلافه، فمَلَكيته "المنتخبّة" لم تكن سوى نظام حكـــم فردي غير بحزأ وغير متغير، كما كان الحال في روسيا منذ وقت طويل. صحيح أن النظام الآن يتطلب شرعية انتخابية ديمقراطية، إلا أن الحكـــم الفـــردى يشـــوُّه الديمقراطية ويزيُّفها. وإضافة إلى ذلك، فهذه البنية السياسية المحينة، القديمة الجديدة، مقدَّر لها أن تكون من الداخل ممزقة وغير مستقرة ومتناقضة.

___**-_**__

الطبيعة المتناقضة لحياته السياسية، لأنه كان بجرد متمرد أتى من أحشاء النظام القليم، وكان ما يزال ينتمي إليه عندما بدأ بتفكيكه. من الصعب أن نتصور المنشق أندري ساخاروف زعيماً لروسيا. والأمر يصبح أكثر صعوبة مع فاشلاف هافل أو ليش فاليسا. إن صعودهما إلى سدّة الحكم في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا يمكس الحترة الكبيرة لهذه الأنظمة السابقة مع التحرر، الذي حصل حتى تحست الحكم الشيوعي. أما روسيا، فكان عليها اعتبار التحرر والديمقراطية في الوقت عينه، وهذا الشيوعي. أما روسيا، فكان عليها توحيد حزءي المجتمع، الجسزء السذي لم يكسن مستعداً للتخلي عن الماضي السوفياتي بل كان يريد فقط تجديد النظرية الاشتراكية، والجزء الذي كان يحاول التحرر من الماضي والتحلص من آثاره بشكل كامل وإلى الإبد. ولهذا السبب، كان يلتسين - كونه كان ما يزال يعيش في كلتا الحقبسين - السياسي المثالي القادر على الجمع، ولو بشكل مؤقت، بسين رغبستين وأحنسدتين متعارضتين كلياً.

يمكننا، من الناحية النظرية، أن نتخيًّل مساراً آخر للتفلب على الشيوعية: احتثاث حذري لكل عناصر السوفياتية، وتتضمن هذه العملية استبدال طبقة النعبة السياسية وبناء مؤسسات حديدة. لكن مثل هذا التحوّل الجذري كان سيتطلب زعيماً مستعداً لاستخدام العنف من أحل إبطال تأثير الفئسات الاجتماعية غير المستعدة لهذه التغيرات الحاسمة، والتي كانت تشكل الأغلبية في روسيا. وإضافة إلى ذلك، فمثل ذلك النوع من التحوّل كان سيتطلب وجود قوة ديمقراطيسة منظمة لمتلك خطة للعمل وزعيماً بملك إرادة سياسية لتوحيد المجموعات السياسية المهتمة عنا هذا التطور الحساس.

على أي حال، لم يكن هنالك مثل هولاء الزعماء أو القسوى السياسسية في روسيا أثناء الانفصال عن الشيوعية، ولا هم موجودون الآن. وحتى مع النحساح الظاهري لهذا التحول الجذري على مستوى القمة، كان يمكننا أن نتوقع أن نشهد، في لهاية المطاف، تشوّه هذه الصيغ والمؤسسات الجديدة بفعل تأثير تقاليد المجتمسع الروسي وبيئته الثقافية وخصائصه التاريخية. ولهذا السبب لم تستطع روسيا تطبيس نموذج بولونيا وتشيكوسلوفاكيا، الذي لمثل باتفاق القوى السياسية الأساسسية في

البلدين على تقسيم السلطة بين النحبتين القليمة والجديدة، وذلك لأن المعارضة المعادية للشيوعية في روسيا كانت ضعيفة حداً في حين أن طبقة النحبة الشسيوعية كانت قوية حداً على أساس من الإجماع. إن ماساة - كانت فوية جداً على أساس من الإجماع. إن ماساة وما يدعو للسخرية أيضاً - التحوّل ما بعد الشيوعي لروسيا تتمثل في أن المؤسسة السوفياتية المَوَّد، كانت ما تزال هي عرك وقاعدة هذا التحوّل. بعبارة أخرى، إن التغيير في روسيا الجديدة كان، في جوهره، بحرد استمرارية للماضى.

من أحل خووج تدريجي وغير دموي من الشيوعية، وخاصة مع عدم وحسود إجماع وطني على الماضي أو الحاضر أو المستقبل، كانت روسيا بحاحة إلى زعيم من طراز خاص، سياسي يمتلك شخصية كاريزماتية يمكنه أن يكون بديلاً عن غيساب النحب الجديدة، والأحددة المنظمة، ومستعلاً لبناء مؤسسات جديدة. ومثل هسذا الزعيم يمكن أن يمتلك في داخله تعقيدات الماضي وفي نفس الوقت رغبة بوضع لهاية لهذه التعقيدات، لكنه لا يمكن أن يكون ثابتاً وواضحاً ومحدداً من الناحية السياسية والإيديولوجية، لأنه قد يضطر للتذبذب، والانخراط في صسراعات، والتحسرك في اتجاهات متعاكسة. ولكن، قد تكون كلفة هذه القيادة تأخيراً، أو حسى رجوعاً عكسياً، في عملية النطور الديمقراطي الليبرالي.

لعل يلتسين كان أفضل من سيحكم روسيا في مرحلة التفلب على الشيوعية، والزعيم الجديد للمرحلة التالية، لأنه كان يستطيع توحيد الأمة على برنامج ديمقراطي بدلاً من برنامج معاد للشيوعية. ولكن، بعد العام 1996، كان ينبغي على يلتسين أن يتقاعد من الحياة العامة لسبين: أولاً لأنه كان مريضاً ولم يعد يصلح لها، وثانياً لأنه لم يكن يدرك ماذا ينبغي عليه فعله في المرحلة التالية أو كيف سيغير ؟ في الواقسع، إنسه لم يكن يعرف ما هي الأمداف التي ينبغي عليه وضعها باستثناء الإبقاء على وضعه هسو بالملات. كان ينبغي على يلتسين أن يترك منصبه كي تتمكن روسيا من المضي قسدماً بالملات. كان ينبغي على يلتسين أن يترك منصبه كي تتمكن روسيا من المضي قسدماً بالماء المزيد من التحرر والمزيد من المنهقراطية المنظمة، وكي يحافظ على كرامته ويقى في نظر التاريخ زعيماً "تغيرياً" لا غبار عليه.

غير أن يلتسين كان قد بدأ مسبقاً بالتركيز على بقائه في السلطة بأي ثمن بعد العام 1992، وذلك عندما أقال غايدار من رئاسة حكومته. كم كانت مدهشة

سرعة انحدار صحة يلتسين، بالنسبة لرحل كان ذات يوماً قوياً مسن الناحية الجسدية. لقد هرم بسرعة كبيرة بالقياس مع غورباتشوف المولود في نفس العام (10) يبدو أن حباته المحفوفة بالضغوطات، والإحهاد النفسي، والإفراط في شرب الخمر، والعادات الأخرى غير المعتدلة، كلها كانت لها ضربيتها الثقيلة على صحته. لكسن الإلهاك الجسدي، في الواقع، لم يكن هو السبب وراء فقدانه حدسه، وعدم قدرت على استبعاب المشاكل والتحديات الجديدة، واضطرابه، ومن ثم وقوعه في الكآبة وعلى استبعاب المشاكل والتحديات الجديدة، واضطرابه، ومن ثم وقوعه في الكآبة أو محاولته الرد بأساليبه القديمة، وهي طرد المسؤولين وتعيين آخرين غيرهم.

أدّى بقاء يلتسين في الكرملين بعد العام 1996 إلى إضعاف السلطة وإيقاعها في الفوضى. وكانت إمكانية الإنقاذ معدومة الأن الرئيس كان قد عمل لمسنوات على تدعير أي فرصة لظهور نخب وزعامات جديدة في روسيا. أضف إلى ذلك ما قامت به غالبية الليبراليين الروس من المراهنة على السزعيم ونسنهم للحاجمة إلى موسسات مستقلة، الأمر الذي أضعف ثقة المواطنين بفكرة الديمقراطيمة الليبراليمة نفسها. كانت روسيا واقعة بين طرفي كماشة. فمن جهة، أدت إعسادة انتحساب يلتسين لفترة رئاسية ثانية إلى إصابة الحكومة بالركود. ومن الجهة الأخرى، لم يكن يلتمين نفترة وهذا كان - جزئياً على الأقل - خطأ الليبراليين والمنهقراطيين. كان المسلطة الخيار البديل الوحيد ليلتسين في العام 1996 هو عودة الحزب الشيوعي إلى السلطة برئاسة زيوغانوف. ولهذا السبب، اضطر يلتسين للبقاء على المسسرح السياسسي، بالرغم من انتفاء الحاجة إلى موحد معاد للشيوعية، وبالرغم من أنه أصبح عقبة في وجه مرحلة جديدة من التحوّل.

خلال حكم يلتسين، كان المبدأ الديمقراطي الشعبي على تعارض دائم مع المبدأ الديكتاتوري الفردي. وهذا الصراع بين التوليفة غير المنسجمة للديمقراطيسة مسع القيادة من خلال السلطة الفردية أدى بالديمقراطية أن أصبحت واجهة تخفي ورايها مضموناً مختلفاً محاماً.

عاشت روسيا في ظل القيادة الديكتاتورية قروناً طويلة، مغيرة فقط من ألوانها الإيديولوجية وطرق شرعيتها. فخلال المرحلة الشيوعية، استمدت الديكتاتوريــــة شرعيتها من الحزب واختبأت وراء قناع القيادة الجماعية التي لم تستطع فعل الكثير لتغيير حوهرها. وبعد الهيار الشيوعية، أحيا ياتسين تقليداً لطالما ميّر روسيا عن بقية بلدان أوروبا، تقليداً حعل من السلطة الفردية - هذه المرة بدون غطاء "الملكية الجماعية" - نواة الحياة السياسية. وفي التسعينيات أيضاً، أصبحت سلطة السزعيم، وليس المحتمع، المادة الرئيسة في الحساق الروسية كانت تعمل في الفراغ الذي تخلقه لها السلطة المركزية، كما كان الحسال الروسية كانت تعمل في الفراغ الذي تخلقه لها السلطة المركزية، كما كان الحسال لفرون طويلة. صحيح أنه في عهد يلتسين، نال اللاعبون السياسيون في روسيا الحرية وأصبحت الفعاليات السياسية عفوية وغير قابلة للتوقع بها (نتيجة القواعد المتغيرة للعبة السياسية)، غير أن هذا لم يحصل بسبب خضوع السلطة لعملية تحوّل حوهري ولأن أولئك الموجودين في السلطة فهموا الأسسباب المنطقيسة للتعسدد السياسي والحرية بل لأن السلطة كانت ضعيفة ومضطربة.

لم تكن ملكية بلتسين المنتخبة، التي كانت تحكم في بجنمع طبقسي تسوده يووقراطية فاسدة وأحهزة سلطة رئيسة ضعيفة، أكثر من محاكاة رديئة للديكتاتورية الشمولية التي سادت في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. فقد لجأت هذه الملكية المنتخبة مضطرةً - بغية المحافظة على وضعها - إلى مشاركة سلطنها مع المحموعات المتنفذة في البلاد، وذلك من أحل مواجهة العوائق والقيود المتعددة، وأيضاً من أحل عقد الصفقات بصفة دائمة. أي أن الزعيم الديكتاتوري ظاهرياً، الذي يملك في يده كل السلطات، كان في حقيقة الأمر زعيماً شبه ديكتاتوري

هذا النمط من النظام كان يشبه النظام الذي أطلق عليه جويليرمو أودونيل مصطلح "المبمقراطية التحويلية"؛ نظام من السلطة يستند إلى مبدأ يقول بأنه "مهمسا كان الشخص الذي يُتنحَب رئيساً، فإنه يكون بحوجب ذلك مخولاً للحكم بحسا يسراه مناسباً "(11). بالنسبة لروسيا، كانت "المبمقراطية التحويلية" السبق اتبعها يلتسين في التسعينيات مُثل خطوة واضحة إلى الأمام من النموذج السابق للحكم السديكاتوري الشمولي. ولكن، بسبب التناقضات والأفخاخ الداخلية في روسيا، لم يكن باستطاعة المشمولي. ولكن يكون فعالاً أو قابلاً للاستمرار. والسؤال هو كيف ستتمكن روسيا من التخلص من فخ هذه السلطة الفردية المطلقة، الضعيفة، والمضطربة.

بدت الطبيعة الفردية لحكم يلتسين بأقسا ستساعد في قفسية الإصلاح الاقتصادي، لكن الدخول إلى السوق العملي والحضاري سرعان ما أثبت بأن ذلك كان بجرد وهم. صحيح أن إجراء الإصلاحات الاقتصادية وإبطال مقاومة الفقسات الاجتماعية غير المستعدة للتخلي عن رعاية الدولة كان أكثر سهولة تحست نمسط الرئاسة الفردية المطلقة، لكن العودة إلى السلطة الفردية، في نفس الوقت، جعلست من مسألة تطوير حياة سياسية تضم في إطارها مؤسسات مستقلة ومتعددة، كل واحدة منها تعمل في موضوع يهم أعضاعها، أمراً غير قابل للتحقيق. وعلى الرغم من أن إصلاح السوق استفاد من مركزية السلطة على المدى القصير، إلا أنه فشل على المدى البعيد بسبب التقدم البطيء في إحداث بحتمع ديمقراطي ليرائي. إضافة إلى ذلك، فإن رأسمائية السوق في غياب مؤسسات مستقلة، وأفسراد مستقلين، وقوانين واضحة للمبة السياسية (وأولها سيادة القانون) لا يمكنها أن تكون أكثر من

يمكننا أن نكون أقل انتقاداً لعمل يلتسين إذا ما سلّمنا بأن عدد التحديات التي كانت تواجه روسيا في العام 1991 كان كبيراً جداً، وأن سبل حلَّ تلك المشاكل على الطريق المؤدية إلى الديمقراطية الليبرالية كانت محدودة. ولكن، دعونا لا نسى أن يلتسين كان يمسك بالعديد من مفاصل السلطة في يديه وأنه – قبل أن يتخسف المجتمع والحياة السياسية في فترة ما بعد المرحلة السوفياتية شكلهما الواضح - كان يملك تأثيراً كبيراً على مسار الأحداث. ولهذا السبب، ليس لديه أي عذر في إخفاقه في دفع التحوّل الليبرائي بقوة أكبر، وهو مسؤول شخصياً عن الفرص الضائعة فيما يخص الإصلاحات الروسية.

لو واظب أي زعيم آخر واجهته نفس العقبات على المحاولة في التحرر من قيرد الديكتاتورية وأفخاخ سياسة القصور، وفَهِم بوضوح أكبر التحديات الروسية، لتمكن من مساعدة البلاد على القيام بخطوات كبيرة تجاه نظام حكم أكثر تمدناً، ومؤسسات مستقلة، ومجتمع مدني. ولكن، ثمة مشكلة هنا: كم عدد الزعماء الذين كانوا يمتلكون سلطة مطلقة ومع ذلك أقدموا بكل شسحاعة وبشكل طوعي على مشاركة سلطتهم مع قوى ومؤسسات أخرى؟ إن الانتقال

إلى نظام ديمقراطي ليبرالي يعني بالدرجة الأولى القدرة على مشاركة السلطة.

ومع ذلك، ينبغي علينا أن نوفي الرئيس بوريس يلتسين حقّه. فروسيا أنساء حكمه جنّبت نفسها والعالم الكثير من السيناريوهات المدمرة. على سبيل المشال، كان يلتسين المسؤول الرسمي عن مسألة التخفيض السلمي للقوة النووية العظمسي والمرحلة الأولى من تحوّلها، بالرغم من أنه لم يتعامل معها بالطريقة الحسسنة الستي يتصورها البعض. ومع أن الثمن الذي دفعه الملايين من الشسعب الروسسي كسان فادحاً، لكنه كان يمكن أن يكون أكثر فداحة من ذلك.

ولكن، في نفس الوقت، يجدر بنا ألا نلطف من تقييمنا لقيادة يلتسبن لمجرد أن روسيا نجت من الدمار أثناء حكمه والأنه لم يكن فحمة مرشحين أقوياء للرئاسة. فبالرغم من أنه ساعد المجتمع في الحصول على الحربات، لكنه أخفق في فهم دور حكم القانون والمحاسبة. وإذا ما نظرنا إلى الحاجة لإنجاز المشروع الديمقراطي، والفرص - وإن كانت عدودة - التي سنحت له، لقلنا بدون أدن شك بأن يلتسين كان زعيماً ضعيفاً وغير كفو. على أي حال، أن يرغب المجتمع بعد رحيل يلتسين "بيد قوية" وأن يكون متلهفاً للنظام هو بحد ذاته تقييم لحكمه.

كان يلتسين بمتلك سلطات رسمية واسعة، لكنه مع ذلك لم يكن قادراً علسى تنفيذ قراراته. كان، من الناحية الشخصية، يميل إلى الزعامة، لكنه ثرك بدون دعم شعيى، ولهذا السبب كان يجد نفسه مضطراً دائماً للسعي لكسبب رضا النساس والظهور بمظهر المدافع عن الجماهير. كان زعيماً مبدؤه نظام رئاسي واحد، لكنه أرغم على أداء دوره في مرحلة من النفكك. كان سياسياً يكره التسويات، فإذا به يضطر لعقد الكثير من الصفقات ومنع الكثير من التنازلات. كان رجلاً يسدّعي المسكك بالمبتراطية كهدف، ومع ذلك أشرف بنفسه علسى إحداث ملكية التمسك بالمبتراطية كهدف، ومع ذلك أشرف بنفسه علسى إحداث ملكية منتخبة. كان ذلك الرئيس الذي فاز بانتخابين ليصبح ستاراً تختيئ خلفه المافيسات. كان مثالاً للشخصية القوية الديناميكية فإذا به يصل إلى مرحلة يحارب فيها ضعفه وانعدام ثقته بنفسه.

الحكم. وكلما اشتدت قلة ثقته بنفسه، لجأ أكثر إلى القيام بتلك التغيرات المبالغ فيها. لقد أصبح التغير الشامل بالنسبة إليه وسيلة للحفاظ على الوضع السراهن، نموذج الحكم الذي اعتاد عليه؛ تناقض آخر من تناقضات المرحلة الانتقالية. كان هو من دمَّر الشيوعية، ومع ذلك أصبح الحزب الشيوعي بفضله عنصسراً هاماً في عمل نظامه. وذلك النظام، الذي تأسس في بداية التسعينيات مع الكثير من الأمال المريضة والنوايا الطيبة، انتهى به المطاف بمفع حزء هام من الأمسة إلى كره المنقراطية ومعادالها.

ومع ذلك، جعل يلتسين من العودة إلى الشيوعية في روسيا أمراً مستحيلاً. وعود كذلك الطبقة السياسية على أسلوب أكثر عمدناً في التعامل مع القضايا الدولية. فمنذ بداية رئاسته، أصبح من الصعب على روسيا - إن لم يكسن مستحيلاً - أن تعود إلى الحرب الباردة مع الغرب. وضمن، بطسرق عديدة، تفكيكاً سلمياً للاتحاد السوفياتي وظهور دول مستقلة على أراضيها. كما علم الطبقة السياسية على التواجد في حود من التعددية وحرية التعبير. (رغم أن مسار الأحداث في عهد بوتين سيُظهر أن إمكانية العودة إلى الوراء لم تستبعد كلياً). وأعيراً، هنالك شيء آخر جعله يلتسين مستحيلاً في عهده: إنه الاقتصاد المركزي المنظم.

له تنيحة أحرى لإدارته أعتقد بألها تستحق الاستحسان: لقد أرغمت قيادة يلتسين الضعيفة والمضطربة والعاجزة في معظم الأحيان جزءاً كبيراً من المجتمع على التفكير بنفسه، والاعتماد على قواه الخاصة، والخروج من ظلل الدولة. بعبارة أخرى، إن الإحباط الذي شعر به الناس تجاه زعيمهم جعلهم يتعلمون كيف يتحذون خطواقم بأنفسهم وعلى مسؤوليتهم الخاصة، وتلك الحقيقة قد تساعد روسيا على البقاء تحت حكم أي زعيم.

سيتوجّب على روسيا أن تدفع ثمناً باهظاً كي تخلص نفسها من نموذج الحكم الفردي العاحز الذي أحياه يلتسين. ولكن، علينا أولاً أن نترقب ما إذا كان بوتين سيحمل نظام حكم يلتسين شبه الديكتاتوري يعمل أم لا. فإذا تبيَّن بأنه لا يستطيع (وهو الأرجع)، فإن المحتمع سيضطر لتقع ثمن أخطاء "أي النظام" وأخطاء وريشه

أيضاً، الذي حاول الحفاظ على القسم المحين من داعل النظام على قيد الحياة. وعلى هذا الأساس، قد يتقرّر نجاح يلتسين كمغيّر بمدى سرعة تفكيــك ملكيتــه المنتَعَبة، وكذلك مدى قدرة العادات الديمقراطية والذهنية الجديدة التي اكتسبتها روسيا في عهده على البقاء.

ذلك هو الارث الذي تركه بوريس يلتسين إلى لفلانهم بوتين. كانت عملية تسليم السلطة إلى بوتين، كوصى ووريث، بحدّ ذاقا تأكيداً علم، مبدأ الملكيسة المنتخبة المتأصلة في النظام الذي أو حده يلتسين. أما استقالة يلتسين المبكرة، فلهم يكن لها أي شأن بالديمقراطية، بل على العكس من ذلك محاماً، إذ أثبتت عدم أصالة مفهوم الديمقراطية عند يلتسين، وذلك لأن رحيله كان ضرورياً مع الاضمحلال البطيء لصورته كسياسي، هذا من جهة، ومن جهة أبحرى لأن التطــور المزيــف للانتخابات - الطريقة التي ثمّ التلاعب بما - كان له هدف واحد هو ضمان حكم فريق سياسي واحد.

بعبارة أخرى، جاء استلام بوتين للسلطة - وكان ما يزال حينذاك في دور الرئيس المؤقت - تأكيداً على منطق نظام يلتسين. ولكن، مع فرصة لإظهار مدى مرونة وقدرة ذلك النظام على التطور وفي أي اتجاه. وفي هذا الخصوص، كان على الزعيم الروسي الجديد احتياز عدة اختبارات صعبة، أولها كان اختبار شكره وامتنانه للفريق الحاكم القديم.

قبل استقالة يلتسين في كانون الأول من العام 1999، لعب بوتين دور المعين المطيع بشكل مثالى، حيث قام بكل ما بوسعه لإثبات أنه لم يكسن لديه أيسة طموحات خاصة به، وهذا قد يكون صحيحاً بالفعل في تلك الفترة، لأنه بـــدا وكأنه كان يويد أن يكون بحرد موظف وليس شخصاً مميزاً أو زعيماً. لربما كان ما يزال خائفاً من تحمُّل المسؤولية أو من قلة خبرته. أو ربما كان يخشى أن يغير يلتسين رأيه في اللحظة الأعيرة ويعين وريثاً آحر.

ف الحقيقة، لم يكن ثمة أية ضمانة بأن هذا الوريث سيكون هو الخيار الأحير. ومن يمكنه أن يعرف بماذا يفكر الرجل المريض أو ابنته في الخطوة التاليـــة؟ ولحــــذا السبب، كان بوتين مرغماً على أن يكون مطيعاً وأن لا يجذب الانتباه إليــه وأن يصبر وينتظر فرصته. ربما كان هذا دوراً طبيعياً بالنسبة إليه، بصفته ضابطاً سابقاً في المخابرات، حيث لعب في تلك الفترة دور المساند والداعم مرات ومرات. وربما كان ما يزال يجد صعوبة في التأقلم مع الحياة العامة. أو يمكننا أن نكسون محللين نفسين سيئين ونقول بأننا لا نستطيع استبعاد فكرة أن بوتين ربما لم يكن يأبه كثيراً لما إذا كان سيصبح الملك التالي أم لا.

على أية حال، لم يكن ثمة شك في أن بوتين - بعد استقالة يلتسين - سيربح الانتخاب الرئاسي المزمع إحراؤه في آذار من العام 2000. لكن الأمسر الذي لم يكن معروفاً بعد هو ما إذا كان سيتبع منطق إرث يلتسين أم سيبدأ في تغييره. ولكن، بصرف النظر عن شعوره إزاء نظام يلتسين، فإنه سيضطر للعيش معه لوقت طويل، إما بشكل سلمي أو بشكل صدامي. وستقضى روسيا وقتاطويلاً في إيضاح موقفها من الرحل الذي ترك الساحة على نحو غير متوقعها عشية العام 2000.

بوتين، الزعيم الروسي الجديد

انتخابات وئاسية بدون خيار . أي مسار منيماك؟ شبكة عنكبوت الكرملين الجديدة. تشكيل العكومة. ترويض العكام. على من سيّعتمد؟ العثقفون فلقون.

بعد احتفالات العام الجديد 2000 مباشرة، أصدر بوتين، بصفته رئيساً موقتاً، أول مرسوم له منح بموجه الحصانة ليلتسين (أ). وفقاً لذلك المرسوم، لم يكن بالإمكان مقاضاة يلتسين لسوء التصرف الإداري أو الجرمي في أي من أفعاله كرئيس. وفوق ذلك، اعتسر مساعدو يلتسين (ابنته تاتيانا وبقية المقريين منه) بأغم مسؤولون أمامه فقط، أي أغسم بركوا من أية مسؤولية قضائية. بعبارة أحرى، أوجد مرسوم بوتين منطقة مسن الحصسانة حول الرئيس السابق يمكن أن تمتد، وفقاً لمشيئته، لتشمل أفراد حاشيته أيضاً.

علَّق أحد المراقبين الأجانب على مرسوم بوتين قائلاً بأنه "أعطى الأساس لكل التهم التي وُجهت إلى يلتسين من قبل أعدائه"²²⁾. على أي حال، لم يكن هذا هسو شعور ذلك المراقب الأجنبي فقط، فالكثير من المراقبين الروس كسانوا يشسار كونه نفس الشعور. ولكن، علينا أن نعترف بأن ضمانة الحصانة للزعيم الراحل في روسيا كانت الطريقة الوحيدة التي تكفل مغادرة الفريق الحاكم القديم المسسرح بسدون وقوع معركة شرسة.

في تلك الأثناء، إن شعبية رئيس الوزراء بوتين وما ورثه مسن أدوات إدارية جعلت نتيجة الانتخاب الرئاسي، الذي سيُحرَى في 26 آذار مسن العسام 2000، عتومة. وفقاً للدستور، كان يُفترَض إجراء الانتخاب الرئاسي في حزيران، لكسن استقالة يلتسين المبكرة جعلت من الممكن تحديد موعد أبكر لسذلك الانتخساب، وذلك لضمان فوز بوتين نظراً لشعبيته القوية التي كان يحظى بما آنفاك.

كان هنالك عشرة مرشحين آخرين إلى حانب بوتين، مسن بينسهم نفسس الأشخاص الذين كانوا يتنافسون مع يلتسين في الانتخابات السابقة، مثل السزعيم الشيوعي غينادي زيوغانوف، وزعيم حزب يسابلوكو السديمقراطي غريفسوري يافلينسكي، وزعيم "الحزب الديمقراطي الليمرالي" القومي الطابع، المهرج السياسسي فلانهر حيرينوفسكي. بينما دخل بقية المرشحين السباق الرئاسي بدون أدن فرصة ليس فقط في الغوز بل حتى في الحصول على دعم ذي أهمية. كل ما كانوا يريدونه هو الشهرة والتغطية التلفزيونية حتى يتمكنوا لاحقاً من تحقيق مآرب أخرى.

على أي حال، إن الاشتراك في الانتخاب الرئاسي لسيس لسه أي مسسؤولية قانونية. كونستنين تيتوف، وإيلا بامفيلوفا، وسسيرجي جوف وروخين، ويسوري سكوراتوف، وأليكسي بودبيريسكين، وعمر جيرائيلوف (حسب ترتيب الأصوات التي حصلوا عليها) كلهم ترشحوا للانتخابات لجحرد الترشح فقط ولسيس للفوز، وكأنحم كانوا يريلون إظهار أن الفاية ليست لها أي أهمية وأن الإجراء فقط هو المهم. والجميع كانوا يعرفون بأن ليس لأحد أية فرصة في الفوز باستناء بوتين، لأن كل قوى الدولة كانت مسخرة لصالحه.

لقد سمحت الحرب الشيشانية لبوتين بأن يلعب دور الزعيم القوي والحسازم، ولكن ثمة عوامل أخرى، ليست أقل أهمية، ضمنت نجاحه. فمن جهة، كان بسوتين الخليفة الرسمي ليلتسين، بمباركة من الرئيس الروسي الأول نفسه، الأمر الذي ضمن دعم الطبقة الإدارية وانتقالاً سلمياً للسلطة، ومن جهة أخرى، فإن صورته كزعيم صارم لا يزيح عن مبادئه كانت إيجابية بالمقارنة مع صورة يلتسين الضعيف الواهن. بعبارة أخرى، أمكن لهذا الوريث أن يكون مقبولاً من كل من الموالين والمعارضين على حداً سواء؛ من أولئك الذين كانوا يريدون انتقالاً منظماً وهادئاً وامتمرارية لما

سبق، وكذلك من أولئك الذين كانوا يطالبون بالتغيم على مستوى القمهة و بالقطيعة مع الماضي.

والأهم من ذلك هو أن بوتين كان قد أصبح الطريقة المثلي للستخلص مسن يلتسين - لصالح طبقة النحبة والمحتمع بصفة عامة - فالكل سئم من الزعيم المتقلب، غريب الأطوار. حتى إن أقرب مساعديه السابقين ومؤيديـــه المحلصـــين كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم بأن السيل قد بلغ الزبي.

شخص أن يكتب عليه أي شيء يريده. ربما كان الأمر غير شعوري بالنسبة لبوتين ف البداية، لكنه كان ف الواقع يحاول إرضاء الجميع، بحيث أمكن لكل الفصات السياسية والاجتماعية بأن تأمل في أنه - على المدى البعيد - سيدعم صيغتها الخاصة لتحقيق الاستقرار والنظام في روسيا. كان بوتين يجمع ما بين التصميم والوضوح، المرتبطين في أذهان الناس بالجيش عموماً، وبين نوع ما من الالتبـــاس يكتنف شخصيته. ذلك الغموض جعل هذا الرجل يروق لكل طبقـــات المحتمـــع ومكُّنه من تجنب الإحابات الدقيقة على الأسئلة التي كانت تؤرق روسيا. وتلـــك كانت استراتيحية حكيمة بالنسبة لشخص يستهل حياته السياسية ويحضر لخسوض انتخابات لأول مرة.

ساندت طبقة النحبة بوتين مساندة كاملة، أملة بأن يحافظ الزعيم الجديد على القواعد الحالية للَّعبة، فهي كانت تريد، عبر مساندةًا له، التأكيد علمي الوضيع الراهن الذي استفادت منه إلى حدٍّ كبير وأرادت استمراره(3). ثم كان هنالك أولئك الذين كانوا يريدون من بوتين، بصفته ممثلاً للأحهزة الأمنية، أن يعيد المحتمع إلى الطريقة التي عاشها أيام الاتحاد السوفياتي أو أن يقدم نظاماً ديكتاتورياً صـــرفاً. فيما أمل بعض الليراليين بأن يتابع بوتين، نظراً لماضيه في سمان بطرسمبورغ، الإصلاحات الاقتصادية المتوقفة منذ فترة طويلة. لكن الرغبة الساحقة لدى الطبقة السياسية والشعب الروسي عموماً كانت تكمن في أن يثبُّت بوتين نفسه كـزعيم الكو ملين.

قبل الانتحاب، وفض بوتين التفصيل في بيان مبادئه السياسي، محاولة منه للحفاظ على المصداقية عند مويديه المتنوعين. لكنه لن يتمكن من البقاء صامتاً إلى الأبد. في ذلك الوقت، كان قد تكلّم مرة واحدة فقط حول تطور روسيا في مقالة حلت عنواناً متكلفاً، "روسيا على حافة الألفية"، ظهر في 30 كانون الأول مسن العام 1999. في تلك المقالة، استند بوتين كثيراً إلى الماضي حيث دعا إلى مزج القيم الإنسانية العالمية مع العدالة الاجتماعية، والوطنية، والمركزية، والملكية الجماعية، والتقاليد الروسية(4). تلك المبادئ كانت رائحة فعلاً في العهود السوفياتية، عنسلما كانت الأمة تحاول شق "طريقها الخاص". ولكن، مع سقوط الشيوعية، أصبحت كانت الأمة غاول شق "طريقها الخاص". ولكن، مع سقوط الشيوعية، أصبحت كل تلك الادعاءات بالنفرد الروسي أو البديل الروسي باطلة ضربة واحدة. كان بوتين – عن إدراك أو عن غير إدراك – يحاول إعادة إحياء فكرة أثبست أن لا مستقبل لها. لربما كان يحاول التأثير في المحافظين من الشعب الروسي. لكنه ارتكب حواو مستشاروه – خطأ هنا.

حلب بوتين على نفسه من حراء ذلك انتقاد الليبراليين والمويدين للغرب. كان بإمكانه بالطبع تجاهل استيائهم، لأن هذه المجموعات كانت تشكّل أقلية في روسيا. ومن الواضح أيضاً أن كَسْبَ تفهّم ودعم مؤيدي السلطة المركزية كان أكثر أهمية بما لا يقاس بالنسبة إليه، فهؤلاء كانوا يمثلون بجموعة أكبر بكثير. ولكن، لأنه كان يعرف بأن الليبراليين كان لهم نفوذ في وسائل الإعلام الجماهيرية وبين المقاولين، سرعان ما عدًل من موقفه.

في رسالة مفتوحة إلى الناخيين في شباط عام 2000، أثبت بوتين ومساعدوه بألهم تعلموا درسهم: هذه المرة، حاولوا تحتّب أية أفكار يمكن أن تثير هجوماً أو حتى انتقاداً. حاول خليفة يلتسين إزالة كل الأفكار الإيديولوجية مركزاً فقط على القيم الإجماعية التي لا يمكن أن ترفضها حتى القوى المتنافسة – سواء أكانت ليبرالية أم يسارية أم تلك المؤيدة للسلطة المركزية. وخلصت الرسالة بمجملها إلى إعطاء دور متزايد للدولة (بدون تحديد موقع الزيادة) وإجراء المزيد من الإصلاحات على السوق وإعادة إحياء فكرة العدالة الاجتماعية.

وفي نفس الوقت، حرَّب بوتين توجيه موقف نقدي إلى إدارة يلتمسين. "أولى

99

مشاكلنا وأهمها على الإطلاق هي ضعف الإرادة. غياب إرادة ومثابرة الدولة في إكمال المشاريع التي بدأت ما. التردد، التلكو، عادة تأجيل المهام الصعبة إلى وقت لاحق"، كتب بوتين، محاولاً إبعاد نفسه عن اليلتسينية واجتذاب منتقدي سياســـة يلتسين(³).

رفض بوتين القيام بحملة من أجل انتخاب آذار، مركزاً على واحباته كرئيس للوزراء وكرئيس مؤقت، تلك الواحبات التي غُطيّت بشكل واسع من قبل عطات التافزة ووسائل الإعلام الأخرى، التي تتبعت كل خطوة قام بها رئيس السوزراء. ارتأى فريقه، بحكمة، أن يقدمه ليس كزعيم مميز بل كأي شخص آخر: "رحل الشارع"، حيث أصبح بإمكان أي روسي عادي ينظر إلى بوتين - بوجهه الخيالي من الوسامة، وثيابه السيئة التقصيل، وأسلوبه المياشر، والأخرق إلى حدَّ منا - أن يتخبل نفسه رئيساً. حتى استخدامه العرضي للهجة العامية (كوعده بأن "بمسيع" الإرهابين الشيشانين "في المرحاض")، الذي صدم المثقفين، أثار إعجساب بقية المواطنين ببساطة الزعيم الجديد.

كان العامل النفسي في غاية الأهمية بالنسبة لموقف الشعب الروسي في الأشهر القليلة التي سبقت الانتخاب، يتضمن الشعب الروسي "فئة متذبذة" كانت تدعم شخصاً حديداً في كل انتخاب، بحثاً عن بطل جديد. وقد دعمت هذه الفقدة، في انتخاب العام 1996، الجنرال ألكسندر ليبيد، إلا أقسا سيارعت إلى مساندة بريماكوف في بداية العام 1999. أما بطلهم الجديد الآن فهو بوتين، بالطبع، السذي عُزي ارتفاع معدلات شعبيته في تلك الفترة - في حزء كبير منه - إلى انخساض نصيب السياسيين الآخوين من المدعم؛ أولئك الذين تواحدوا على الساحة منذ عشر سنوات، وبعضهم أكثر من ذلك، لدرجة ألهم أصبحوا مزعجين. كان بوتين وجها حديداً والناس كانوا يتوقون إلى الجدة. في الواقع، كانوا سينجذبون إلى أي بسديل عن نظام يلتسين الفاسد. لكن المثير للسخرية في الأمر هو أهم دعموا بديلاً احستير من قبل حاشية يلتسين. يبدو أن المواطنين الروس لم يكونوا مستعدين لدعم شخص من المعارضة. أو ألهم لم يكونوا عبطين بما يكفي ولا غاضبين بما يكفسي لاتخساذ من المعارضة. أو ألهم لم يكونوا عبطين بما يكفي ولا غاضبين بما يكفسي لاتخساذ من المعارضة. أو ألهم لم يكونوا عبطين بما يكفي ولا غاضبين بما يكفسي لاتخساذ

آعر استطلاع أحراه المركز الروسي لأبحاث الرأي العام (VTsIOM) قبل التصويت أظهر بوتين بأنه الفائز المؤكد تقريباً، حيث أعرب 53 بالمائدة من المشتركين عن نيتهم بالتصويت للرئيس المؤقت (كانت النسبة 58 بالمائد قبل وقت قصر). كانت معدلات شعية بوتين قد بدأت بالانخفاض، ولكن ليس بنسب عطورة. أما بالنسبة لفينادي زيوغانوف، زعيم الحزب الشيوعي، فقد استقر على نسبة 21 بالمائة، بينما حصل يافلينسكي من يابلوكو الليرالي على 6 بالمائة فقط.

عندما سُئل المشتركون في الاستطلاع عما تحتاجه روسيا، أجاب 71 بالمائسة منهم "زعيم قوي" و59 "دولة قوية". أما "الموسسات الديمقراطية" فلم تكن تشكل أولوية بالنسبة للشعب الروسي على ما يبدو، حيث أتى على ذكرها 13 بالمائسة منهم فقط. كأن المحتمع الروسي كان يقول رأيه - بطريقة معاكسة - في حقب ليتسين، بربطها بزعيم ضعيف أو دولة ضعيفة. لكن المثير للقلق في الأمر هو محاولة روسيا، مرة أخرى، التحرر من أزمة اليلتسينية عبر البحث عن منقذ حديد ولسيس عبر إقامة موسسات قادرة على البقاء.

وما يتمر القلق أيضاً هو أن الشعب الروسي لم يكن يصدق أن بوتين سيأتي إلى السلطة بأسلوب نزيه، سواء من خلال مؤامرات الآخرين أم مسن خلال مؤامرات الآخرين أم مسن خلال مؤامراته هو، ومع ذلك فإن الكثيرين ممن فكروا على هذا النحو كانوا سيصوتون له في كل الأحوال. كان الناس يشعرون بالإحباط من الإنتخاب على الطريقة الروسية، الذي كان يُستخدم لإضفاء الشرعية على الخيارات التي أتنحسذت مسن خلال الصفقات غير الشرعية، ولكنهم، بالرغم من ذلك، كانوا يقبلسون المسفون الخيارات. غالبية الذين اشتركوا في هذا الاستطلاع - 54 بالمائة - كانوا يشعرون بحسوث بحدث عملية غش عند إحصاء الأصوات.

عشية الانتحاب، ذكرت وسائل الإعلام أن 63 بالمائة من الشعب الروسسي كانوا يثقون في بوتين ثقة كاملة، بعد أن كانت النسبة 76 بالمائة قبل أسبوعين فقط (بالرغم من أن 25 بالمائة فقط أبدوا انسزعاجهم من حقيقة عمله السابق في الكي حي بي وجهاز الأمن الفدرالي). وفقاً للمركز الروسي لأبحسات السرأي العسام، العاملان الأساسيان لانخفاض معدلات شعبية بوتين هما تأكيد روابطه مسع الفئة الحاكمة (58 بالمائة). بينما كان يشعر الحاكمة (58 بالمائة). بينما كان يشعر 55 بالمائة بالقلق إزاء افتقاره إلى برنامج محدد. ولكن، بالرغم من كل ذلك، لم يجد الشعب خياراً آخر.

أظهرت الصورة التي رسمها علماء الاجتماع عن "البوتيني" النموذجي استناداً إلى هذه الاستطلاعات بأن الدعم الأساسي الذي تلقاه الرئيس المؤقت حساء مسن الشباب ومن أولئك الذين تخطوا الستين من عمرهم، وأن نصيبه من دعم الإنساث كان أكبر من دعم الذكور. أما الدعم الأقوى فقد حصل عليه من ذوي التعلسيم المتوسط. بالمقابل، فأولئك الذين كانوا متشككين منه كانوا في أغلسب الأحيسان حاصلين على مستويات أعلى من التعليم، وكانوا بين 30 و50 مسن أعمسارهم، ويعيشون في مدن كبيرة. ولهذا السبب كان دعم بوتين ضعيقاً في موسكو، لأن هذا المدينة كانت دائماً أكثر ديناميكية وثقافة وتطوراً من بقية المدن في روسيا.

أظهر الاستطلاع الذي أحراه المركز الروسي لأبحاث الرأي العـــام في 9 آذار، أي قبل أسبوعين من الانتخاب، بأن نسبة كبيرة من الناخبين الذين يساندون بوتين – 56 بالمائة – كانوا يرفضون فكرة تمديد الفترة الرئاسية من أربع سنوات إلى سبع (24 بالمائة وافقوا على التمديد و 11 لم يدلوا بآرائهم). لقد أظهرت هذه النتيجة أن الشعب الروسي لم يعد يقبل بالحكم مدى الحياة وأوحت كـــذلك بـــأن تـــوق الروسين إلى الاستقرار المرتكز على زعيم واحد قد يكون مرحلياً فقط.

إن استقالة يلتسين المبكرة لم تعط منافسي بوتين الوقت الكافي للاستعداد للانتخاب المعدّ مسبقاً، ولم تعط الشعب الوقت الكافي ليسام مسن بوتين. أمسا المرشحون الآخرون في السباق الرئاسي فقد حعلوه يدو وكأنه سسباق حقيقسي، وذلك بمنحهم بوتين الفرصة لكي يجعل من تعيينه من قبل حاشية يلتسين شرعياً من خلال نعمر انتخابي. في هذا الوضع، كان بوتين يحتاج فقط إلى تحويسل سسلطاته الرئاسية الموقتة إلى سلطات شرعية. كان قدر فلاديمير فلاديميروفيتش أن يربح، لأنه لم يكن باستطاعته أن يخسر - لم يكن هنالك أحد ليخسر أمامه - حتى لسو أراد

نجع الفريق الحاكم ومرشحه في الحفاظ على صورته كزعيم قوي وفعال إلى أن جاء يوم الانتخاب، تلك الصورة التي يُنيت فقط على قدرته على تحمّل مشاق رحلاته المستمرة في أرجاء البلاد وعلى دلائل أحرى تشير إلى نشاطه البدني. أما بشأن خططه الحقيقية، فلم يُملَن عنها أبداً. عندما سأله أحد الصحفيين عن ماهية برنابحه، أجاب بوتين: "أن أفصح عنه". هذا الجملة المستفزة، في الواقع، كانت تمثّل حوهر حملة بوتين الانتخابية؛ لا تقل أي شيء ملموس، ولا تعسد باي شيء وبالنسبة لأولئك المعتادين على المعايير السياسية الغربية، فهذه الجملة كانت تحسدياً فظاً إضافة إلى كولها تعبير عن ازدراء بالرأي العام، وكأن لسان حاله يقول: "أنتم تعلمون بأنكم ستنخبونني حق بدون برنامج". وكان محقاً في ذلك.

في 26 آذار، فاز بوتين بالرئاسة في الجولة الأولى بتأييد حوالى 53 بالمائة مسن الناخبين. في حين حصل منافسه الرئيس زيوغانوف على 29.2 بالمائسة، وزعسيم المعارضة الديمقراطية يافلينسكي على 5.8 بالمائة. أما الحاكم أمان توليفيسف فقسد حصل على 2.9 بالمائة، والحاكم كونستنين تيتوف على 1.47 بالمائة. بينما حصل بقية المرشحين بجموعين على أقل من 1 بالمائة.

لعبت رعاية الفريق الحاكم لبوتين، من خلال توظيف "الموارد الإدارية" في إبعاد خطر منافسيه وتنظيم الدعم له، دوراً كبيراً في فوزه بالانتحاب الرئاسسي. حيث قامت السلطات المركزية والمحلية على مختلف المستويات بكل ما هو ممكن لتحقيق النصر له؛ "كل ما هو ممكن" يعني عدداً كبيراً من الأساليب والطرق، مسن ترغيب وترهيب الناعيين، إلى مضايقة المرشحين الآعرين، إلى ضحاء احساء اسجيح للأصوات.

أشار عالما الاجتماع ليف حودكوف وبوريس دوبين، في معرض تفسيرهما لانتصار بوتين، إلى رغبة الشعب الروسي بالانضمام إلى ومساندة معسكر المنتصر، الذي يمثله الآن بوتين. لم يُبد أحد اهتماماً – فيما يبدو – بأهداف الزعيم الجديسد وإيديولوجيته، فما يهم هو أنه كان يجلس مسبقاً على كرسي الرئيس وأنه كسان مدعوماً من أجهزة السلطة الرئيسسة، الجسيش ووزارة الداخليسة ووكسالات 103

الاستخبارات، المؤسسات الروسية الوحيدة (إضافة إلى الكنيسة الأورثوذوكسية) التي كانت تتمتع حتى ذلك الحين باحترام الناس وتُعتبَر في نظرهم خالية تقريباً من الفساد.

ولهذا السبب حصل بوتين في الانتخاب علمي أصدوات 12 بالمائه من الشيوعين، و40 بالمائة من مؤيدي يابلوكو، و40 بالمائة من حزب حيرينوفسكي المنهقراطي الليبرائي، وأكثر من ثلثي ليبرائي اتحاد قوى الحق (SPS)، و70 بالمائسة من أنصار حزب بريماكوف - لوحكوف، أرض الأحداد وكل روسيا. هدؤلاء الناخبون دعموا بوتين لأقم كانوا يعتقدون بأنه سيفوز، ولأنسه وفريقسه كانوا يكافحون من أجل تحقيق النظام، وأيضاً لأنه أظهر القوة. في روسيا الجديدة السي تعصف بها الاضطرابات، كان الناس متشوقين للنظام ويحترمون القوة (6).

كان انتخاب الرئيس الروسي الأول يلتسين، الذي حسرى في العسام 1991، التخاباً من أحل إنجاز تغيير حذري؛ في حين كانت انتخابات العام 1996، التي فاز هما يلتسين أيضاً، قدف إلى وضع غاية للماضي الشيوعي. أما الانتخاب الرئاسسي لعام 2000 فقد كان تصويتاً من أحل الاستقرار، حيث لم تعد غمة رغبسة واسسعة بالتغيير. كان المجتمع تعباً ويريد الأمن والسلام. غير أن الرغبة بالنظام لم تكسن مطلقة على أي حال، لأن الناس لم يكونوا راغبين بفقدان الحريات الستي مستحهم إياها غورباتشوف ويلتسين. ولهذا السبب، كان على الزعيم الجديد أن يجد علاقة تبادلية حديدة بين الحرية والنظام.

g.

قي 7 آذار، حرى حفل تنصيب الرئيس الثاني لروسيا. في هذا الحفل، تبدئت الطبيعة الانتقائية للقيادة الجديدة حين حاول الكرملين تقليم مظاهر مسن عهسود عتلفة إلى الجمهور: من الديكتاتورية القيصرية، ومن الحقبة السوفياتية، وكذلك من مرحلة ما بعد الشيوعية. يلتسين وبوتين يواقبان الاستمراض من المنصة التي كسان يقف عليها القياصرة لتحية شعبهم؛ قوائم الحضور أُعدَّت على الطريقة السسوفياتية التقليدية من أحل الضيوف، الذين قُسموا بحسب منسزلتهم وطُلب منهم البقاء في

القاعة المخصصة لهم؛ والزعيم الجديد يدلي بالقسم الرئاسي على دستور يلتمين. في الواقع، لقد عكس الاحتفال جوهر الفريق الحاكم الجديد وطرازه الهجين، السذي كان يتضمن حوانب تبدو ظاهرياً بألها غير متحانسة: ماضي زعيم الكرملين الجديد في الكي حي بي، ونشاطه الليرالي، وارتقاؤه شبه الملكي إلى السلطة بتخطيط وتنظيم من المعارضين للشيوعية والثوريين!

إن هذه الطريقة "ما بعد الحداثوية" في ارتقاء بسوتين إلى السلطة سستبدًى مظاهرها في إدارته كذلك، حيث ستحتوي هذه الإدارة على عناصر مختلفة مسن عهود مختلفة، مثل الحلافة والمكاثد على الطريقة القيصرية، والإخلاص والولاء على الطراز السوفياتي، وبراغماتية ونفعية العصر الجديد؛ كلها معاً ستصبح قوة محركة للنزعات المتعارضة والاحتمالات المختلفة. ما علينا إلا أن نراقب كيف سيعيش ويحكم هذا الرجل الذي ينبغي أن يكون واضحاً، وعاقد العزم، وخالياً مسن الشكوك، وينشد حلولاً قاطعة - في بيئة تعددية، بحراًة، ومتناقضة. غني عن البيان، بالطبع، القول بأن هذه الفترة "ما بعد الحداثوية" في روسيا لا تمثل في حقيقة الأمر انقطاعاً حقيقياً عن الماضي، ما قبل السوفياتي وما بعد السوفياتي كذلك. من هنا فإن أولئك الذي فهموا هذه الحقيقة وتمكنوا من التحوّل في جو مسن المؤشسرات المختلطة إلى مبادئ غير متحانسة ظاهرياً كانوا بملكون فرصة بالبقاء على القمة.



بدا بوتين عصبياً خلال حفل التولية. تطلّب السيناريو منه القيام بمشية طويلة عبر أروقة الكرملين حتى يصل إلى الغرفة التي سيُحرَى فيها الاحتفال. أثناء صعوده أدراج الكرملين التي لا تنتهي، أظهرت كاميرات التلفزيون وجهه الشاحب المتوتر، وحسده القوي، ولكن الصغير، الذي كان ضائعاً تقريباً وسط ضخامة الكرملين. وبدلته غير المناسبة، بدا غير منسجم إلى حدًّ بعيد مع الطقس الملكي. وهذا أمر طبيعي تماماً بالنسبة لشخص اعتاد على التواجد في الظل، وراء رئيس ما، ينفّذ المهمات - مساعد رئيس الكي حي بي، نائب عمدة سان بطرسبورغ، عضو غيم

ذي أهمية في إدارة رئاسية - فإذا به يجد نفسه فحأة سيداً للكرملين.

حُمع الضيوف في قاعات مختلفة، استناداً إلى مراكزهم في الهرمية السياسسية التي وضعها فريق يلتسين. وهكذا ضمّت القاعة الرئيسة حشداً شديد التنوع مسن النام: طبقة النخبة، أولاد طبقة النخبة، "كاردينالات متنفذون"، رؤسساء وزراء متقاعدون، وشابات حسناوات لم يكن لهن فيما يبدو علاقة مباشرة مع الحسدث. أما لوحكوف وبقية السياسين الهامين فلم يكونوا موجودين في تلك القاعة. غير أن غورباتشوف كان مدعواً، بمبادرة شخصية من بوتين (كأن بوتين كان يحساول إعادته إلى الحياة السياسية من جديد).

هذا كان آخر ظهور رسمي ليلتسين، ولهذا السبب كان محط أنظار الجميسع؛ كيف كان يبدو، هل بمكنه أن يتكلم، كيف يمشي، مسا هسو شسعوره في دوره الجديد؟ حاول يلتسين الإدلاء بخطاب يبقى للذكرى، لكنه كان خطاباً طويلاً وذا طابع تعليمي دفع ببوتين، الواقف إلى حانبه، إلى رمقه بنظرات توحي بنفاد صبره. أما خطاب بوتين، الذي كان قصيراً ونابضاً بالحيوية، فقد القاه دون أن يتوقف ولو لمرة واحدة. في الحقيقة، كان مظهر بوتين وحده يعكس الفارق بينه وبين السزعيم المسنّ الواقف بحانبه، وهذا الفارق كان يعث على الاطمئنان بالنسبة للكثيرين.

_ •

كان الزعيم الروسي الجديد في وضع استثنائي لرعا كان يلتسين يحسده عليه. فليس هنالك من منافسين يهددون سلطته. وطبقة النحبة بدت مخلصة، بل خاضعة، له. أما الشعب فقد كان ينظر إليه بأمل، مع أن آماله لم تكن مبالغ فيها. وهذا أمر حيد أيضاً بالنسبة لبوتين، لأنه لن تكون هناك حيبة أمل شعبية في حال لم تتحقسق هذه الآمال⁽⁷⁾.

كان الوضع الاقتصادي في بداية العام 2000 مستقراً إلى حسدً مسا، بسل إن روسيا كانت قد حققت بعض النمو أيضاً. ففي شهر شباط من ذلك العام كسان معدل التضخم الشهري يتراوح بين 0.7 و0.8 بالمائة فقط. فيما أظهر الإنتاج زيادة ملحوظة خلال العام الفائت بلغت 11.0 بالمائة، مما أذى إلى حسدوث فسائض في

الميزانية. أما سعر النقط فقد كان ثابتاً ومرتفعاً نسبياً، 21.50 دولاراً للبرميل الواحد، وذلك كان حيداً للحزء الأساسي من عوائد الاقتصاد.

وبالنسبة للحرب الشيشائية - بالرغم من حقيقة ألها كانت متوقفة - فهسي كانت ما تزال تحظى بدعم الشعب، الذي كان يريد المضي في القتال إلى أن يُسحَق الانفصاليون. كل هذا يعني أن بوتين كان يملك مساحة واسعة للمناورة فيما يتعلق بإرساء ما يريد إرساءه.

ولكن، في نفس الوقت، وبالرغم من امتلاكه حرية حركة غير اعتيادية، فسإن الرئيس الجديد كان مقيداً إلى حدّ بعيد بواسطة نظام الرئاسة المطلقة الذي ورثه عن يلتسين، ذلك النظام الذي يتوجب فيه على الرئيس أن يهتم بكل شسيء، حسى التفاصيل. لأنه إذا ما توقف عن كبس الأزرار، فإن النظام كله سينطلق في رحلة بدون ربان. إضافة إلى ذلك، إن إخفاقات الإدارة، حتى على المستوى المحلي، تضرّ بشرعية الرئيس، لأنه الشخص الوحيد - في نظر الناس - الذي يستحكّم بكسل أدوات السلطة، ولأنه مسؤول عن كل شيء.

غير أن هذا النظام، في الوقت نفسه، كان يرعى لامسؤولية الرئيس، لأنه حتى لو كانت هنالك أخطاء وإخفاقات، فمن الصعوبة بمكان – وربما من المستحيل – إقصاؤه عن منصبه. إضافة إلى ذلك، فإن الزعيم الجديد قد ورث، من جملسة ما ورث، بيروقراطية النظام السابق وأحهزة السلطة الرئيسة فيسه (وزارتي الداخليسة والدفاع والأجهزة الأمنية) التي أصبحت مدعومة من قبل الجماعات المتنفسذة ذات المصالح، التي كانت تمدف إلى الحفاظ على القواعد السابقة للعبة، والسي كانست تراقب وتنتظر، وهي على أثم الاستعداد إما لدعم بوتين أو لإعاقة سياساته. ولهله السبب، كان يتوجّب على الوافد الجديد أن يتعلم منطق النظام الذي، ورثسه وأن يقرر ما إذا كان سيتبعه أو سيحاربه.

- y -

له مشكلة خطيرة أخرى تواجه بوتين، إلها المزج الحاصل في روسيا بسين السلطة ورأس المال، بين السياسة والاقتصاد، وبين الخاص والعام؛ تقليد روسمي لم 107

يفشل يلتسين فقط في القضاء عليه بل قام بتعزيزه في بعض النواحي أيضاً. فإذا مسا غضّينا الطرف عن العاقبة الكارثية بحد ذاقا المتمثلة بإشاعة الفساد والتسبب بالهيار الدولة الروسية، فإن المزج ما بين السلطة ودنيا التحارة والأعمال قسد سساهم في المحافظة على، بل وتوسيع المنطقة الرمادية، تلك المنطقة المظلمة التي كان يتم فيها إنتاج وبيع كميات هائلة من البضائع والحدمات دون أن يدفع أي شخص كوبكاً واحداً كضرية. واليوم، إنك لا تجد هناك الموظفين الرسمين الفاسدين والسماسرة فقط، بل حزءاً كبيراً من السكان قد استقروا هناك أيضاً؛ الملايين من الناس كسانوا يعملون في المنطقة الرمادية. في تلك الأثناء، ما يزيد عن 30 بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي كان يُنتج في تلك المنطقة.

كانت المنطقة الرمادية قد أصبحت بمثابة شبكة الأمان بالنسبة للعاطلين عسن العمل، ولذوي الأجور المنخفضة، ولأولئك الذين لهم مستحقات متاخرة عنسد الدولة. بعبارة أخرى، لقد ساعدت هذه المنطقة المحتمسع علسى تخطسي المرحلسة الانتقالية. صحيح أن الدولة كانت تخسر مبالغ ضخمة من تلك الضرائب الضائمة، في حين كان الخارجون عن القانون يربحون، لكنها لو حاولت القضاء على هذه المنطقة، فإلها قد تعرض الاستقرار الاحتماعي إلى الانجيار، ما لم تنشسئ في الوقست نفسه أماكن قانونية لممارسة النشاط الاقتصادي. و لم تكن المناطق الرمادية حكراً على الاقتصاد وحده، فالسياسة أيضاً كانت قد انتقلت لتعيش في ظلالها، حبست كانت تُشُخذ الكثير من القرارات الهامة خلف الأبواب الموصدة، وتحت ضغط مسن قبل الجماعات المتنفذة. باختصار، لم يكن بالإمكان السيطرة على المنطقة الرمادية، وفوق ذلك فهي كانت تنظوي على خطر يتهدد سلطة الزعيم، ما لم يكن يريسد إطاعة قوانينها.

حتى الخلفية الاقتصادية الإبجابية التي تمتحت بما إدارة بوتين كانت في حقيقـــة الأمر غير مبنية على أساس صلب، لأن الأسعار المرتفعة للنفط كانت هي السسبب الرئيس وراء ذلك - تماماً كما في السابق - أيام الحقبة الشيوعية. من هنا، بــــدون إصلاحات بثيوية، واستثمار ضحم، وتطوير القطاعات الأحرى للاقتصاد، فإن هذه الحالة الاقتصادية الجيدة ظاهرياً يمكن أن تنهار إذا ما انخفضت أسعار النفط.

لم يكن صعباً على بوتين أن يدرك أن غالبية الطبقة السياسية كانت تخشى من استمرار عملية تحرير السوق. حتى حاشيته نفسها كانت محنل مشكلة بالنسبة للسياسة الاقتصادية، حيث كان أعضاؤها ينتمون إلى مدراس فكرية مختلفة، وكل واحد منهم كان يسمى منذ البداية لإقناعه بطريقته الخاصة في التفكور؛ يمعنى ألهم لم يكونوا يشكلون فريقاً عترفاً منسحماً مترابطاً بحيث يمكنهم دفعه باتحساه إنحساز إصلاحات حاسمة. أما طبقة النخبة الباقية من عهد يانسين، التي احتفظت بسالكثير من نفوذها، فقد كانت، في غالبيتها، ضد تغيير الوضع الراهن وضد الفصم و وهو الأهم و فيما يين السلطة والتحارة، وذلك واضع لأن أي تغيير سيحصل يمكن أن يخفض من أرباحها وربحا قد يزيل نفوذها بالكامل. في بداية العام 2000، أيسد 15 بالمائة فقط من الشعب إنشاء سوق حرة غير مقيدة، وهـ ولاء كانوا يشكلون بمبائلة من الشعب الروسي يؤيدون مبدأ مُلكية الدولة وأن تكون هي المسؤولة عن بالمائة من الشعب الروسي يؤيدون مبدأ مُلكية الدولة وأن تكون هي المسؤولة عن المنظيم الاقتصادي. أما الباقي فقد كانوا يمثلون "المستقع" المتشكك أبداً.

بعض المترددين من الشعب الروسي كانوا يتحوّلون إلى رفض السوق. ففسي العام 1993، كان 27 بالمائة من المواطنين يؤيدون الملكية المخاصة للمشاريع الأساسية، في حين أن هذه النسبة انخفضت إلى 20 بالمائة في العام 2000. وبالنسبة لتحديد الدولة لأسعار المؤسسات التحارية، فقد ازدادت نسبة المؤيدين لهذه المسألة من 45 بالمائة في العام 1993 (10 بالمائة فقط رفضوا أيّ تدخل للدولة في تحديد الأسعار). وفي العام 1993 كذلك، 13 بالمائدة مسن الشعب الروسي كانوا يعتقدون بوحوب السماح للأجانب بامتلاك أراض كسبرة، إلا أن هذه النسبة تناقصت لتصل إلى 5 بالمائة فقط بحلول العام 2000(⁶⁾. وهسذه، بالطبع، كانت مؤشرات مثيرة للقلق بالنسبة لأي زعيم إصلاحي التوجه.

لا بد أن بوتين كان يدرك بأن نافذة الفرصة لن تبقى مفتوحة إلى الأبد. فإذا كان يريد الدفع باتجاه القيام بأي إجراءات متعلقة بتحرير الســـوق، فقـــد كـــان يتوجب عليه الإسراع. الشعبية والثقة قيمتان لا يمكن الاعتماد عليهما أبداً، لأفحا مرجّحتان للتقلّص دائماً. من جهة أخرى، أشارت نتائج استطلاع آخر إلى بوتين بالاتجساه السياسي الذي ينبغي أن يسلكه. في ذلك الاستطلاع، 39 بالمائة من المشتركين لم يكونسوا يجبون علاقة بوتين بيلتسين وحاشيته. من الواضح أن بوتين كان مضطراً للتفكير في كيفية قطع حبال الفريق الحاكم القلم. بالمقابل، 12 بالمائة فقط انتقدوا افتقاره إلى خط سياسي واضح أو، ولأن هذه النسبة الأخيرة كانت ضئيلة، ولأن تجنبه تبسّى سياسات عددة قد أكسبه دعماً من قبل فئات اجتماعية متنوعة، فقد كان بإمكان بوتين الإبقاء على وضعه الحالي لبعض الوقت. بعبارة أخرى، كانت عمة إمكانية بأن تضمن له هذه العطالة السياسية تواحداً هادئاً طوال فترته الرئاسية الحالية، وحسى إعادة انتخابه في العام 2004 إذا ما صمد الاقتصاد.

كان باستطاعة بوتين، مدفوعاً بالدعم المعنوي الذي قدمته له معدلات القبول الابتدائية والظروف المساعدة، القيام بتغييرات طفيفة، ولكن واعدة، على الجبهتين الاقتصادية والسياسية. في الحقيقة، كان هنالك احتمال بأن يفقد بــوتين فرصـــة هامة، وقد يندم عليها، إذا لم يبدأ القيام بإصلاحات بنيوية وذلك للفوائد الجمة التي قد تجلبها على روسيا. ولكن، بالمقابل، عمة احتمال آخر بأن يؤدي القيام بتغييرات جذرية من دون تشكيل دعم سياسي إلى إسقاطه، كما حصل مع غورباتشــوف و"البريسترويكا" خاصته. من هنا، كانت المحافظة على الوضع الراهن والركود، في أغلب الأحوال، أكثر منفعة من التغيير فيما يخص الحفاظ على السلطة.

بدأ بوتين وظيفته الجديدة بالحدّ الأدنى من الخبرة السياسية وبعادات اكتسبها عمر سنوات في عمله القديم، قد تعمل في غير صالحه. لقد وقع أعلى منصب في البلد في حضنه بعد أربعة أشهر فقط من "التدريب" عندما كان رئيساً للسوزراء. كما أنه لم يكن يملك حساسية سأفه السياسية أو قدرت الإداريسة (و لم يكسن باستطاعته امتلاكهما من وظائفه السابقة). وإضافة إلى ذلك، فهو لم يكن شخصية شهيرة ممن يمتلكون القدرة على التأثير في الجماهير إذا ما دعت الضسرورة. ولهسذا السبب، كان عليه تعلم كل ما يتعلق بعمله الجديد، بدءاً من المبادئ الأولية الخاصة بإدارة حهاز سياسي قومي واتخاذ القرارات الرئاسية. من جهة أعرى، فإن عمله في الكي جي يقد علمه إطاعة الأوامر، علمه كيف يكون تابعاً؛ في حين أنه الآن

أصبح مضطراً لاستخدام السلطة وعمارسة القيادة. كان قراره الشخصي الوحيد الذي اتخذه في مرحلة مبكرة من إدارته هو بدء "عملية مكافحية الإرهاب" في الشيشان، ذلك القرار الذي يدل على استعداده لتطبيق معالجات بسيطة على مشاكل معقدة. وقد يكون هذا القرار ناتجاً عن عدم نضوحه السياسي، أو اتباعه مبادئ بعينها، أو محاولته استرضاء جماعة المحافظين الكبيرة في روسيا، أو قد يكون ناتجاً عما تعلّمه في الكي حيى في.

يُقال - وثمة سبب وجيه لذلك - بأن العمل في الأجهزة السرية، وخاصة الكي جي بي السوفياتية، ليس مهنة بل طريقة في التفكير. وثلك الطريقة في التفكير تتميز بكره الانشقاق من أي نوع كان، وبعدم القدرة على تحمل التنوع في المحيط، ورفض أي شيء غريب أو لا يمكن فهمه بسهولة، وإفراط في الشك، وميل إلى اتخاذ القرارات بسرية مطلقة. أولئك الذين يمتلكون مثل هذه الذهنية لا يشمرون بالاطمئنان إلا في دائرة جماعتهم الضيقة. أما إلى أي مدى كانت هنذه الطريقة الزمروية (نسبة إلى الزمرة) في التفكير ثمثل منهج بوتين في التفكير، فهذا ما كنان على الشعب الروسي أن ينتظر لكي يعرفه. ولكن، قد يستبشر المرء خيراً في حقيقة أنه عمل في سان بطرسبورغ مع عمدتها الليرالي أناتولي سوبتشاك، وأنسه تلمسس طريقه آنذاك في حوً من المخاطرة، والكفاح، وتحمل الآراء الأحرى.

في المحالات غير المألوفة بالنسبة إليه، أظهر بوتين حذراً ورويَّة، حيث كان ينتظر، ويتأمل، ويحاول جاهداً الوصول إلى جوهر المسألة. إن رغبته في فهسم التفاصيل، والتعامل مع كل شيء بنفسه، وإصفائه إلى محاوريه كانت من بسين صفاته الإيجابية بكل تأكيد. لقد استطاع بوتين توسيع رقعة جمهوره عن طريق دعوة أناس من كل الطبقات الاجتماعية إلى الكرملين، وطرح الأسئلة علسيهم بكل اهتمام، والاستماع إلى أحوبتهم بكل مودة. أعرف الكثير من الناس الذين كانوا حذرين من إن لم نقل متشككين كلياً – بوتين إلى أن قابلوه، ثم مسالبوا أن أصبحوا بعد ذلك من مناصريه الفاعلين. كان يعرف كيف يكسب الأصدقاء. لقد أوجد مصادر بديلة للمعلومات، ولم يكن معزولاً كمساكسان.

ولكن، في الحالات التي ينبغي فيها اتخاذ قرارات استراتيجية بسرعة، فيان اهتمام ومثابرة بوتين ورغبته بمعرفة كل التفاصيل قد محنص مسن رؤيسة النقساط الأساسية. إضافة إلى ذلك، فإن هذا الأسلوب في القيادة الذي يصرّ على تفحّص كل شيء بشكل يومي أسلوب مضن ومرهق، لذا، بالرغم مسن شسباب بسوتين وقدرته على التحمل، فمن غير المحتمل أن يقدر على مواكبة الأحداث لوقست طويل. لقد حاول يلتسين في البداية الإلمام بكل تفاصيل العملية الإداريسة، إلى أن أدرك بأن ذلك كان مستحيلاً. وعلى هذا الأسلى، فإن بوتين سيضطر، عاجلاً أم أحلاً، إلى اتخاذ واحد من قرارين، إما تقوية المؤسسات وإعسادة توزيسع بعسض المسؤولياته إلى أناس مقرين المسؤولياته إلى أناس مقرين مسؤولياته إلى أناس مقرين من مسؤولياته إلى أناس مقرين، نسحاً على منوال يلتسين.

في أشهره الأولى في منصبه، اعتمد بوتين الروية وعدم الاستعجال، الأمر الذي جعله يبدو متردداً. ولكن، إذا ما نظر المرء إلى ماضيه، فسيعرف بالتأكيد أن هذا الحذر كان طريقته الوحيدة لتأمين موقعه. في البداية، لم يكن بوتين بملك أي شخص يستند إليه باستثناء فريق يلتسين الذي كان بمسكه في قبضته. ولكن، لسبب ما اضطر بوتين إلى البدء بالعمل ينفسه، وإلى إظهار قدرته على الستحكم بعملية صنع القرارات. كان عليه تعلم فن الحكم. وذلك لم يكن بالأمر اليسير على أي حال. فبوتين، بعكس العديد من أسلافه، كان مضطراً لأن يصبح سياسياً بعد تسلمه منصبه. وفوق ذلك، لم يكن عمة ضمانات بأنه - حتى إذا أصبح سياسياً بعسد سيمضي قدماً ويصبح زعيماً.

الكثير من الناس يصغون بوتين بأنه عملي، وذكي، وسريع التعلم. فمنف البداية، أظهر بوتين قدرة على التفكير والتحدث بمنطقية ودقة. وعسرف كيسف يتواصل مع الجمهور العريض، حتى أنه أضاف سحراً خاصاً إلى شخصيته الودودة. كما تعلم كيف يتحدث إلى الصحافة ويعطي إحابات عميقة. كان مجتهداً ومثابراً في عمله إلى أقصى الحدود، الأمر الذي أكسبه، بعد مدة قصيرة فقط، كمية هائلة من المعلومات حول حوانب متعددة من أسلوب الحكم. وفوق ذلك، فإنسه كسان يملك ذاكرة رائعة، تماماً كما كان يلتسين في أفضل سنينه. وهكذا أثبت السرعيم

الجديد بأنه منهجي على نحو مذهل وشغوف بالمعرفة إلى أبعد الحسفود، ووظَّــف هاتين الميزتين في فهم حوهر طريقة عمل السلطة الروسية.

مما لا شك فيه أن الزعيم الجديد كان يملك طاقة إيجابية، وأن هذه الطاقة كان يمكن استخدامها من أحل المزيد من الخير، ولكن ضرورة البقاء – أو ربما تعقيدات بوتين الخاصة وأفكاره المسبقة – كانت قادرة، ربما، على دفن هذه الطاقة.

_ **y-**___

قسَّم بوتين الجميع، بدافع من قلقه الداخلي، إلى أصدقاء وأعداء. فمنح زملاء السلاح من حاشية يلتسين صك البراءة (مثل رئيس الإدارة السابق باقل بورودين، اللذي أثمهم مراراً بالفساد) (10). و لم يعط بوتين، بالطبع، نفس الحق إلى أولتك الذين كانوا يخالفون سياساته، أو أولتك الذين لم يُظهروا ما يكفي من الطاعة. وسرعان ما أكد هذا الأمر مع فلاديمير غوزينسكي وإميراطوريته الإعلامية ميدياموست، ومن ثم مع "عرابه" بويزوفسكي.

كان موقف بوتين من حرية الصحافة سبباً في إثارة القلق في المحتمع. حيست بدأ الزعيم الجديد، بشكل تدريجي، باعتبار أي انتقاد لسياساته بأنه تحسدً للدولــــة مستغلاً أي فرصة كانت تسنح له للردّ على المنتقدين. وكان أندريه بابيتــــــكي - مراسل صحفي يعمل لصالح راديو ليبرتي كان يتقد سياسة موسكو في الشيشان في تقاريره التي كان يرسلها من ميدان المعركة خدال عدامي 1999 و2000 - أوّل ضحايا امتعاض بوتين من استقلال وسائل الإعلام. وتحمَّل باليتسكي مسن حسراء ذلك الإحراءات القضائية الروسية التعسّفية، حيث أنَّهم بالتحسس لصالح المتمردين الشيشانيين، ووُضع في زنسزانة انفرادية، واستُحوب، ومن ثمَّ تم تبادله - كاي إرهابي - مقابل جنود روس وسُلم إلى مجموعة شيشانية مسلحة. من الواضع أن معتقليه كانوا يربدون إخفاءه دون أن يترك أي أثر.

يمكن تعريف حادثة بابيتسكي بألها "أعراض نظام توتاليتساري في مجتمع تعددي"؛ عودة إلى الطريقة السوفياتية النموذجية في التعامل مع الصحفيين المستقلين الذي يمتلكون الشحاعة لمواجهة السلطة بآراء مختلفة عن الخسط الرسمسي العام. من المؤكد أن الاضطهاد الذي تعرض له بابيتسكي على أيسدي أجهزة الأمسن قد تم عمرفة بوتين الشخصية، لأن حالة بابيتسكي أصبحت الموضوع الأبرز في وسائل الإعلام الروسية آنذاك. في رسالة احتجاج جماعية، كتب بعسض الصحافين:

منذ بدء البيريسترويكا، لم يحدث ولا لمرة واحدة أن سمحت السلطات لنفسها بالقيام بمثل هذا العمل المهين والمحالف للقانون ضد أحد ممثلي وسائل الإعلام الجماهيرية. فإذا كان الصحفي بابيتسكي قد ارتكب عملاً غير قانوني من وجهة نظر السلطات الرسمية، فإن مسألة البت في إدانته أو براءته ينبغي أن تُقرَّر في محاكمة قضائية علنية. وإذا كانست الأفعال التي ارتُكبت بحق بابيتسكي ردّة فعل على محتوى تقاريره مسن الشيشان، فإن ذلك انتهاك مباشر لمبدأ حرية الصحافة السذي كفلسه المبسور(11).

لم يجرؤ الكرملين على إبقاء بابيتسكي في السحن أو إعدامه، خوفاً مسن ردّة فعل المجتمع الدولي والمجتمع الروسي كذلك، فأطلق سراحه، وأسقطت جميع التهم الموحهة ضده. في الواقع، كان هذا التراجع الإحباري من قبل السلطات الأمنيسة مؤشراً إلى اعترافها بالواقع السياسي الجديد. على أي حال، ذهب بابيتسكي إلى الخارج، وتعلَّم باقي بمتمع وسائل الإعلام الدرس، وكانت روسيا في طريقها لتصبح مكاناً غير ودي بالنسبة للصحفيين المستقلين.

لله عامل فائق الأهمية في أي إدارة – وعندما تكون السلطة التنفيذيسة قويسة والموسسات ضعيفة تصبح أهمية هذا العامل أكبر بكتير – إلهم الأشخاص السذين يحيط الزعيم نفسه بحم ويستمع إلى نصائحهم في السياسة. وفي كسرملين بسوتين، استمرت الصلات التي كانت معقودة في عهد يلتسين كما هي، وحافظ المقربسون من الكرملين على بعض أو معظم نفوذهم.

بعد الانتحاب، لم يكن بوتين قادراً على تخليص فريقه من أعضاء حاشية يلتسين (مثل كبير المساعدين الرئاسيين، الكسندر فولوشين). ادعى الرئيس الجديد بأنه يقف على مسافة واحدة من كل العلقة الحاكمة، بيد أن ممثلي هذه الطبقة ظلوا جزءاً من دائرته الداخلية، فارضين قدراً كبيراً من النفوذ – رغم أنه لم يكن واضحاً وصريحاً كما في السابق – على القرارات الهامة. حيق أن بعضهم بدأ بالتسلق إلى السلطة، ومن بينهم سيرجي بوحاتشيف، الذي كان يعرف بوتين من سان بطرسبورغ. إن وحود بوحاتشيف في أروقة الكرملين كان يمثابة رسالة من الزعيم الجديد تفيد بأنه لم يكن مستعداً الاستعمال الطبقة الحاكمة بالكامل، بل كان بيساطة يقسمهم إلى مخلصين وغير مخلصين.

بدافع من الامتنان، أو لأسباب عملية بالأحرى، استمر بوتين بالعمل وفق أغرذج الإخلاص" هذا، وهو نظام من الإلتزامات المتبادلة ضمن دائرة معينة، تعتمد أحياناً على الصداقة والعلاقات السابقة ولكنها في أغلب الأحوال تعتمسد على الصفقات والخوف من إشاعة معلومات تثير الشبهات. لربما كان هذا هو النموذج الذي منعه من قطع صلاته القديمة، وهو ما يفسر عدم رغبته في - وربما عدم قلرته على - الانفصال عن الماضي في تلك المرحلة. عندما أصبح بوتين حزءاً من دالسرة مكونة من أصدقاء يقيدون يديه، أصبح من الصعب، أو من المستحيل بالنسبة لسه، أن يخلص نفسه من حاشية يلتسين والتابعين المربين الآخرين ما لم يؤسس قاعدته

الخاصة ويتعلم فنّ الحكم الروسي ذاته. في بداية العام 2000، كان ثمة انطباع بأنــــه لم يكن مستعدًا بعد للتحرر.

بشكل تدريجي، بدأ الرئيس الجديد بجلب زملاء قدامى لـــه إلى الكسرملين، أشخاص كان يعرفهم في سان بطرسبورغ ويمكنه الوثوق بمم. لكن معظم هـــولاء الأشخاص كان يعرفهم في سان بطرسبورغ ويمكنه الوثوق بمم. لكن معظم هـــولاء الأمنية. وكان من بينهم أشخاص اضطهدوا المعارضين من قبل، وهذا وحده كــان كافياً لإثارة قلق ذوي الترجهات الديمقراطية من الشعب الروسي وناشطي حقوق الإنسان. وكان قلقهم مهرراً بكل تأكيد، فبالاستناد إلى ضعف الآليات الديمقراطية وتنفق موظفين سابقين في الكي حي بي إلى أعلى المستويات في الإدارة، فإن العودة إلى السلوك الاستبدادي كانت تبدو عتومة.

حاول مجتمع موسكو، لبعض الوقت - حتى قبل أن يصبح رئيساً - معرفة من المقريين من بوتين. كان الرحل، فيما يدو، عاطاً بخليط متغير باستمرار من الأوجه الفلائة والجديدة، كلهم كانوا يحاولون إيجاد أقرب موقع محكن منه شخصيات معروفة ممتزجة مع أناس غير معروفين كلياً ببذلات سوداء وقمصان بيضاء بالتأكيد. ثم حاء الأمر بغربلة هذا الخليط، وبشكل تدريجي انتقل الكثير من الأشخاص من حقبة يلتسين إلى الأطراف وقد ارتسمت على وجوههم علامات الاستحداء والتوسل، أما في الوسط فقد تجمع أشخاص بدوا واتقين من أنفسهم، وتقتهم هذه كانت تزداد مع الوقت، إضافة إلى ازدياد مهارقم في إيجاد طريقهم عبر أروقة الكرملين. ثم هدأت الأمور، وكشفت عن تكون عدة دوالسر حول

تألفت الدائرة الأولى من أشخاص من الفريق السياسي القديم ليلتسين، وكسان الأبرز فيهم هو فولوشين (كبير موظفي الرئيس، مرة أخرى). كان واضحاً أن بسوتين لم يُتِي فولوشين بدافع من شعوره بالامتنان بل لأن فولوشين كان يعرف كيف تُسوَّى الأمور، ولأنه أصبح خبيراً في ذلك لم يكن بالإمكان الاستضاء عنه حينسذاك. كسان فولوشين وثيق الصلة بأفراد سابقين من حاشية يلتسين، وكان غالباً ما يُزار مسن قبسل تاتيانا داياشينكو وفاليتين يوماشيف، أكثر أفراد عائلة يلتسين نفوذاً.

والمجموعة الثانية في حاشية بوتين كانت تتألف من التقنيين اللي والين، معظمهم من سان بطرسبورغ. حومان غريف، وليونيد ربحان، وإيليا كليبانوف واليكسي كودرين كانوا أعضاء في الحكومة ويحتلون مواقع رئيسة في كادرها الاقتصادي. في موسكو، كانوا يُعتيرون بألهم تابعون لأناتولي تشبوبايس، أبسرز الليبراليين الروس وعضو دائم في فريق يلتمين. كان تشوبايس قد تسرك الساحة السياسية في وقت مبكر، ولكنه استمر في التأثير من وراء الكواليس. وبالنسبة للملاقة بين تشوبايس وبوتين فهي لم تكن خالية من النقاط السوداء والشبك المتبادل، فزعيم الكرملين الجديد لم يكن ليحتمل وجود مياسي بمثل قوة ونفسوذ تشوبايس في دائرته. علاوة على ذلك، فبوتين لا بد أنه كان يعلم بأن تشسوبايس كان أول من اعترض على تعينه رئيساً للوزراء، وبذلك، خليفة ليلتسين. كان أول من اعترض على تعينه رئيساً للوزراء، وبذلك، خليفة ليلتسين. وتشوبايس كان يعرف بأنه، مع رئيس قوي كبوتين، لن يكون مطلوباً لكي يلعب دور حارس البوابة ومدير الأزمات. أما بالنسبة للمحسوبين عليه فقد كانوا سعداء بالتحول إلى بوتين.

أما المجموعة الثالثة في حاشية بوتين فقد كانت تتألف مسن أولفك السذين أصبحوا أصدقاءه في سان بطرسبورغ أو كانوا زملاءه في الكي حسي بي. هسؤلاء "السيلوفيكي"، كما يُطلَق عليهم في روسيا، كانوا الأشخاص الوحيدين الذي يمكن لبوتين أن يتق بمم ويعتمد عليهم؛ وهم، أولاً، سيرجي إيفانوف، الذي كان آنذاك يشغل منصب رئيس المجلس الأمني القوي الذي كان ينسسق سياسسات وزارات السلطة؛ وفيكتور تشيركيسوف، زميل لبوتين من جهاز الأمن الفسدوالي (FSB)؛ ويكولاي باتروشيف، رئيس جهاز الأمن الفلدالي. وفي هذا الخصوص، كان جزء كبر من الشعب الروسي ينظر بشكل إيجابي لمسألة تعيين أشخاص مسن الأحهزة الخاصة في مناصب عليا، 44 بالمائة منهم اعتبروا الأمر إيجابياً (21 بالمائشة منسهم اعتبروه سلبياً (9 بالمائة فقط وحدوه سلبياً بالمطلق)، و35 بالمائة منهم اعتبروه سلبياً (9 بالمائة فقط وحدوه سلبياً بالمطلق). ربما كانت هذا الظاهرة نتيحة استياء الشعب الروسي من الجماعسات بالمطلق). وكنف يلتسين ورغبتهم بتنظيف الطبقسة الحاكمسة كلسها، لأن ترعرعت في كنف يلتسين ورغبتهم بتنظيف الطبقسة الحاكمسة كلسها، لأن

ولل حانب تلك المجموعات الثلاث كان هنالك مسؤولو الخدمة السرية، وهم شبان عملوا مع بوتين لصالح سويتشاك في سان بطرسبورغ، ومن بينهم دمتري كوزاك، وليغور سيتشين، ودممتري ميدفيديف. إن الصراع المناحلي بين ليبراليسي سان بطرسبورغ ورحال الخدمة السرية في سان بطرسبورغ سمح لحاشية يلتسسين القديمة - التي كانت قد حلبت بوتين إلى السلطة، والتي كانست تملسك أعضاء مساوين في عددهم لأعضاء حاشية بوتين من أحل المعارك الداخلية - بالحفاظ على نفوذها.

صحيح أن هذه المحموعات لم تكن منسحمة فيما بينها، لكن بسوتين كسان بحاجة إليها كلها في ذلك الوقت للقيام بوظائفها المحتلفة. ففي حين استمر أعضاء فرق يلتسين، الذين كانوا يلعبون دور مؤلفي سيناريو، بإدارة صراعات سياسية داخلية، كان الليماليون يديرون السياسة الاقتصادية. أما زملاء بوتين في الخدمة السرية فقد حاولوا إدارة - وإن لم يكونوا بارعين دائماً - المشاريع الأكسر حساسية، تلك المتعلقة بتعزيز سلطة بوتين، وفي نفس الوقت كانوا يراقبون مكائد الكرملين. وسرعان ما سنرى بأغم لم يكونوا بارعين في تعلم فن الصفقات السرية. لكنهم كانوا الأشخاص الوحيدين الذين يملكون اتصالاً مباشراً مع بوتين، اللي أشركهم في خططه لمساعدته في تحديد مكان ضربته التالية. كان واضحاً أن هسنه أشركهم في خططه لمساعدته في تحديد مكان ضربته التالية. كان واضحاً أن هسنه المحموعات ستمثلك آراء متباينة، وستسمى لتحقيق أهداف عتلفة، وأن الرابح منها أخرى - من بينها شركة بيتر آفين، وشركة ألفا التابعة لميخائيل فريدمان وشسركة أعرى - مع به الفيلة" السياسية هذه لتقوية أناسها، وإنجاد موقع مناسب لهيماشية بوتين.

ثم حاء الوقت كي يُظهر بوتين السمات المميزة لرئاسته. وتمشل الاختبسار الأساسي، الذي سيُظهر ليس فقط نوايا إدارته الجديدة بل محتواها أيضاً، في تشكيل الحكومة. كان أمام بوتين خياران: إما أن يختار حكومة مستقلة يرأسها سياسسي متنفذ يتحمل المسؤولية الكاملة عن السياسة الاقتصادية ويدع للرئيس مسسؤولية تعزيز الاستقرار الداخلي، والسياسة الخارجية، والعلاقات مع الأقاليم. وهذا الخيار

يمكن أن يكون مثالياً بالنسبة لروسيا لأنه يقسم السلطة التنفيذية، وينقسل البلسد تدريجياً نحو حكومة وبرلمان مستقلين. وإما أن يشكّل حكومة مستقلة كلياً برأسها رئيس وزراء مطيع وبذلك يستمر النهج الذي يصيغ وفقه الرئيس كل سياسسات الحكومة وفي نفس الوقت يكون بعيداً كل البعد عن المسؤولية.

وضع بوتين حداً لكل شكوكه، وقدّم مرشحه لرئاسة الحكومة إلى بحلس الدوما. وكان هذا المرشع ميخائيل كاسيانوف، الذي شغل في السسابق منصسب نائب وزير المالية. كان اللب رئيس الوزراء في حكومة يلتسين وقبل ذلك منصب نائب وزير المالية. كان من الممكن تفسير تعيين كاسيانوف على أنه قرار بوتين (ربحا أرغم علسى اتخساذه) بالحفاظ على نفوذ عائلة يلتسين السياسية، لأن كاسيانوف هذا كان معروفاً علسى نطاق واسع بأنه مقرّب من جماعة يلتسين.

سرت بضع شائعات حول كاسيانوف، زُعم فيها بأنه كان متهماً بعقد صفقات مشبوهة تتعلق بالديون السوفياتية والروسية، ومنها حاء لقبه "ميشا اثنان بالمائة"، حيث قبل بأنه كان يأخذ 2 بالمائة من كل صفقة ديون ساعد على تنظيمها. تجاهل كاسيانوف الاتحامات والإشاعات مفضلاً التظاهر بأنه لا يعلم أي شيء عما يتهامس به المجتمع السياسي في موسكو. بالطبع، علينا أن نعطي كاسيانوف حقّه، فهو أيضاً كان معروفاً بعبفته مفاوضاً خبيراً مع المؤسسات المالية الغربية. وفوق ذلك، فهو أثبت بعد فترة قصيرة فقط بأنه إداري حيد لأنه عرف كيف يجافظ على حياته في بركة الكرملين المليئة بأسماك القرش.

اختيار كاسيانوف كان بمثابة دلالة على نموذج السلطة الذي ينوي السرئيس الجديد إرساءه: حكومة مطبعة يرأسها رئيس وزراء مطبع. لقسد اختسار بسوتين لحكومته نموذج "الرسن" كنموذج للحكم، على غرار نموذج حكومة يلتسين السيق كانت تأخذ أوامرها من المساعدين الرئاسيين، وفي نفس الوقت كانت مسؤولة عن كل أخطاء الرئيس؛ "صبى للضرب"، كما يقولون في روسيا.

وعلى الفور صادق الدوما، الذي لا يقل طاعة عن الحكومة، علم تعمين كاسيانوف وشُكَّلت بذلك أول حكومة لبوتين(13). وضمَّت همذه الحكومـــة أشعاصاً مكروهين متهمين بالفساد، مثل وزير الصناعة الذرية، ييفغيني أدامـــوف، ووزير المواصلات، نيكولاي أكسيونينكو. حافظ بوتين على التقليد المتمثل بتأليف المحكومة من تحالف المجموعات المتنفذة المختلفة، حيث كان كاسيانوف يمثّل مصالح فريق الكرملين القديم، في حين كان نائبه كودرين يمثّل مصالح بحموعة تمسوبايس. حتى المجموعات الأخرى، وأهمها بحموعة يوري ماسليوكوف - ناشط بارز مسن الحزب الشيوعي وممثل موسسة الدفاع السوفياتية - كانت موجودة أيضاً. وضمّت الحزب الشيوعي وممثل موسسة الدفاع السوفياتية - كانت موجودة أيضاً. وضمّت الحكومة كذلك كتلة السلطة القديمة، باستثناء رئيس جهاز الاستخبارات الخارجية، وحتى تلك اللحظة، كان وزير الدفاع ووزير الشؤون الداخلية ورؤساء أجهسزة الأمن أشخاصاً معينين من قبل يلتسين. وكان ذلك نتيحة اتفاق بين يلتسين وبوتين تعبد فيه الأخير بعدم استبدالهم لمدة عام واحد.

أظهر تأليف الحكومة الجديدة بأن الرئيس الجديد لم يكن باستطاعته بعد تقديم الدعم للمقربين منه. ومثال ذلك حيرمان غريف، الذي كان يريسد لنفسسه دوراً مركزياً في الحكومة، لكنه حصل في لهاية المطاف على منصب ثانوي هسو مسدير وزارة التحارة والتنمية الاقتصادية. إذاً، فالرئيس الجديد، بالرغم من بعض الخطوات المستقلة التي اتخذها، كان ما يزال مرغماً على التنسيق مع فريق يلتمسين بشسأن تعييناته.

حكومة كهذه، شُكِّلت كي تعكس توازن السلطة في محيط الكرملين بدلاً من معالجة الأولويات السياسية والاقتصادية، لا يمكن التوقع بألها ستكون فعالة. كانت هذه الحكومة أشبه بلغم أرضي، لأن أعضاءها لا يهمهم تنفيذ سياسسات منظمة بقدر ما يهمهم السعي لتحقيق مصالح المجموعات التي ينتمون إليها واستراتيجيات تلك المجموعات.

وفي هذا السياق، أخذت الوكالتان المسؤولتان عن الإشراف والمراقبة - هيئة المساعدين الرئاسيين والمحلس الأمني - على عاتقهما القيام بدور حسوهري، تحسَّسل بكونهما أصبحنا هيئتين رئيستين في مجال صنع القرارات، أولاً في ميدان السياسة المحلية وثانياً في حقل السياسة الخارجية. والوكالة الأولى كانت ما تسزال برئاسة فولوشين أما الثانية فقد كانت برئاسة رحل بوتين وصديقه الشخصي إيفانوف. ونظراً لتركيبتهما وسلطتهما غير المحددتين بشكل واضع، فقد كان مقدَّراً على

هاتين الوكالتين الدخول في دوامة الصراع فيما بينهما. في تلك الأثناء، كان بوتين يعمل على قميئة المركز (مركز السلطة) الذي أعاد تكوين نظام توزيسع السلطة الشكلي الذي وُحد في عهد يلتسين. كان الوجود التوفيقي الدائم للرئيس ضرورياً لمنع المجموعات ذات المصالح من أن يأخذ شكلاً تلموياً. في الواقسع، كان الرئيس، مع برلمان ونظام قضائي ضعيفين ومع غيساب حكسم ذاتي محلسي، مضطراً للعب دور الحاكم والحكم في آن معاً.

وبينما كان أعضاء فريق الحكم الجديد يدخلون في أفلاكهم المائرة حولسه، إلتزم الرئيس حانب الصمت، الأمر الذي أعطى الانطباع بأنه لم يكن يعرف مسا سيفعله في الخطوة التالية. وهذا ما جعل وسائل الإعلام تصفه مستهزئة: "بوتين دمية" في الحقيقة، كان هنالك شعور يصعب تجنبه، وهو أن الرئيس قد سمح لفريقه بتحويله إلى مجرد سلعة في حملة علاقات عامة، ذلك أنه كان يقرأ خطابات معسدة سلفاً، ويستخدم إكاءات تدرّب عليها مسبقاً، عما أحفى شخصيته وجعسل مسن الصعوبة بمكان التمييز بين بوتين المصطنع وبوتين الحقيقي. وبدأ الأمر يبدو وكسأن "رجل المضلات"، كما صوره صانعوه، كان مشوشاً ومرتبكاً من حراء المنساكل والحالات الطارئة المتعاظمة.

في صيف العام 2000، تبددت كل الشكوك المتعلقة باستقلالية بوتين أو بالحاكم الفعلي لروسيا مع تعيين النائب العام. يُعتبر هذا المنصب منصباً حساساً في روسيا، والكثيرون كانوا يعتمدون على الشخص الذي يشغله، مثل حاشية يلتسين وبقية الحكام المتنفذين في البلاد. وكان من مصلحة عائلة يلتسين، بالطبع، أن يشغل منصب النائب العام رحلاً ممكنها التحكم به. وهذا السبب، عندما حاول بوتين اقتراح حليفه المقرب، كوزاك، فرضت العائلة ضغطاً غير مسبوق علسي الرئيس بغية تغيير رأيه. حتى أن الأب نفسه - يلتسين - تدخل في الأمر، وفقاً المؤسس بوتين في صحيفة أوبشتشايا غازيتا في 25-13 أيار. تقول القصة بأن يلتسين اتصل ببوتين في منتصف الملل وضغط عليه إلى أن أعاد كتابة مرسوم تعين كوزاك، مسمياً بدلاً منه النائب العام المؤقت، فلاديمر أوستيوف. وأرسل المرسوم إلى المحلس مسمياً بدلاً منه النائب العام المؤقت، فلاديمر أوستيوف. وأرسل المرسوم إلى المحلس.

جعلت هذه المسألة من بوتين رحلاً مثيراً للشفقة. انشغلت موسكو كلها همذه المرقفط القصة، حيث كان الناس يقولون بأن زعيم الكرملين الجديد حاول هذه المرة فقط أن يكون مستقلاً، ولكن لم يُسمَع له بذلك. كانت هذه الحادثة الضربة القاسمية الأولى التي تلقاها الرئيس الجديد.

ولم يتخل الرئيس عن اختياره للنائب العام فحسب بل إنه لم يستطع حتى أن يدعم مرشحته الخاصة لمنصب حاكم مدينة سان بطرسبورغ، التي كانت تشفل آذلك منصب نائب رئيس الوزراء، فالنتينا ماتفينكو. عندما رأى بوتين بأن الحاكم الحالي فلاديمير ياكوفليف – عدوه الشخصي، الذي انتزع السلطة من سوبتشاك متسبباً بذلك خسارته لعمله في سان بطرسبورغ – كان أقرب إلى الفوز بالمعركة على منصب الحاكم، توقف عن دعم ماتفينكو. بدا الأمر وكأنه كان ضعفاً؛ إذ لو أن يلتسين كان مكانه لكان زج نفسه في قلب المعركة، في حين أن بوتين – عندما يواجه عقبة ما – تراه يتراجع وينتظر. يبدو أن تدريه في الخدمة السرية أو غموضه المميز لشخصيته قد بدأا بالظهور بشكل جلي. في ذلك الوقت، لم يكن واضحاً ما إذ كانت هنالك خطوة ما تالية سيقوم بها. ولكن، سرعان ما تسبين أن السرئيس الحديد لم يكن يبحث عن قتال، وأنه كان يفضل تحتّب المواجهة. وهكذا فان المغهم المغهم المودي، الذي حاول بوتين حتى ذلك الحين رعايته وتكريسه، بدا مضللاً وخادعاً.

---- **9**-

في محاولة منه لتعويض شيء من هزيمته في تشكيل حكومته، ضاعف بوتين جهوده الرامية لتعزيز نظام حكمه الرئاسي المطلق، وذلك عن طريسق تقييد استقلالية الأقاليم الروسية. لا بد أنه كان يعتقد بأنه سيلقى مقاومة أقل حدة هناك. في الواقع، إن الفكرة المتعلقة بإنشاء روابط جديدة بين المركز والأقساليم وتقليص سلطة البارونات المحلين قد نوقشت مراراً في أوساط بوتين. لكن بوتين انتظر حتى تحين اللحظة المناسبة للقيام بحجومه على الحكّام المفسرطين في الثقه بأنفسهم.

في أيار من العام 2000، حان موعد تلك اللحظة. فيوتين الذي أقسام حفسل تنصيبه رئيساً في 7 أيار شعر بأنه حاهز الإظهار روح المبادرة لديه. من المؤكد أنسه سئم من اتحامه بالضعف والتردد، وكان يعتقد بأن الوقت قسد حسان للتعسرف، فأصدر مرسوماً (في 13 أيار 2000) يقضي بتشكيل سبعة أقاليم فدرالية حديدة فأصدر مرسوماً (في 13 أيار 2000) يقضي مع حسدود الأقساليم العسسكرية)، قُسنت فيما بينها جمهوريات وأقاليم روسيا الإتحادية البالغ بحموعها 89. وكسان تشكيل هذه الأقاليم يعني تعزيز سلطة المركز على أنشطة القادة المحلسين والطبقسة الحاكمة الحلية المشكلة حديثاً. وعُين ممثلو الرئيس زعماء على هذه الأقاليم، خمسة مكانوا من أحهزة السلطة الرئيسة – السيلوفيكي – وكانوا مقربين من بوتين أيضاً (14).

رد الشعب على مبادرة الرئيس بحالة من الفوضى، لكنها لم تصل إلى حد أن تكون مقاومة عارمة. بعدها أرسل بوتين ثلاثة مراسيم جديدة إلى اللوما للموافقة عليها، وهذه المراسيم كانت تضعف من الأدوار المناطة بكل من القسادة المحلسين، والمجلس الأعلى في البرلمان، ومجلس الاتحاد، والهيئة التشسريعية لحكام الأقساليم، ورؤساء الهيئات التشريعية الحلية (11). وكانت غاية بسوتين هسى التغلسب علسى النسزعات الفدرالية الواسعة وبناء نظام أشد صرامة تكون فيه الأقاليم تابعسة إلى المركز؛ وبذلك يعيد إلى موسكو السلطات التي تخلى عنها عهد يلتسسين لصسالح الأقاليم.

نجحت خطوات بوتين الأولية الرامية إلى إبطال تأثير الزعماء المحلين. وساعده في ذلك عدم تنسيق الحكام ورؤساء الجمهوريات فيما بينهم لعمد هجومه. حيق المحاولة التي قام كها بويزوفسكي - الذي كان قد ترك معسكر الكرملين في ذلسك الحين، وكان يحاول تشكيل معارضة لبوتين بين زعماء الأقاليم - والمتمثلة بسإعلام الأقاليم بعدم مصداقية المركز، فشلت أيضاً. كان الزعماء المحليون قد قرروا المقاومة بشكل منفصل؛ وهذا ما دمّرهم. وبالمقابل، لعب بوتين أوراقه بشكل حيد، فحرم بحلس الاتحاد من دوره كندً للرئيس، وحرم كذلك الحكام من حيزء كبير مسن سلطتهم. بطريقة ما، كان بوتين ينتقم لعدم السماح له بتشكيل حكومته بنفسه.

بشكل تدريجي استفاقت المؤسسة السياسية من الصدمة التي أحدثتها مسادرة بوتين، وأصبح واضحاً أن أعضاءها كانوا يعانون من مشاعر مشوشة. فقبل فتسرة قصيرة فقط، كان بوتين متهماً بردّة فعله المتأخرة، والآن أصبح متهماً بالتشهدد في ردّة الفعل أكثر من اللازم. لقد بدأ بوتين بتغيير آلية السلطة، وتغيير النظام نفسه. ويمكن لذلك أن يؤثر على مجموعات عديدة. لكن المراتبين لم يكونوا متأكدين من أن "ثورة" بوتين ستحقق هدفها - وهو تكوين نظام رئاسي مطلق، فعّال، ومستقر - فيلتسين حاول من قبله وفشل (16).

لم يكن عمة خلاف حول مسألة أن الأسياد الإقطاعيين في الأقاليم كانوا منسذ زمن طويل بحاجة لتقليص نفوذهم، أو أن القوانين المحلية كانت بحاجة لأن تتوافيق مع الدستور. فمن بين الجمهوريات الـ 21 لروسيا الاتحادية، ثمة جمهورية واحدة، هي أودمورتيا، يتوافق دستورها توافقاً تاماً مع الدستور القومي. ونحو 30 بالمائة من القوانين المحلية في الجمهوريات كانت مخالفة للمعايم المثبَّتة في الدستور، وفقـــاً لمـــا ذكرته صحيفة "فيدوموسق" في 16 أيار 2000. وكان يمكن حل المشكلة بطريقتين: إما عن طريق تعزيز السيطرة الإدارية، أو عن طريق تقويسة السسيطرة القضائية على عمل الإدارات الإقليمية واستحدام أدوات ضغط مالية واقتصادية علكها المركز. ولقد اختار بوتين الطريقة الأولى.

بالطبع ثمة أسباب أخرى وراء تبنّي الحل الإداري غير رغبة بوتين في زيادة سلطته، إذ إن بناء نظام قضائي وسيطرة مالية على المقاطعات كان يتطلب وقتـــاً، فيما كان بناء نظام يعتمد السيطرة الإدارية عبر كوادر موالية للرئيس أسرع بكثير. ولكن، لا بدأن بوتين قد نسى - أو أنه لم يكن يعرف أساساً - بسأن السيطرة البيروقراطية تخفى دائما في داخلها عناصر تسبب الفوضي والخسروج عسن السيطرة (17).

في الحقيقة، كثير من المراقبين كانوا يشكُّون في قدرة ممثلي الرئيس على فرض سيطرقم بشكل فعّال على الأقاليم الفدرالية في حال عدم استلاكهم الحق في استخدام التحويلات المالية كجزر أو كعصى، أو الحق في السيطرة علمي أجهمزة السلطة الرئيسة. ولكن، بالمقابل، إذا ما منح بوتين ممثليه في تلك الأقاليم سلطاقم، فإنه سيجازف بتحويلهم إلى أشخاص نافذين. فما هو الضمان بأن أحسدهم لسن يتحوّل إلى يلتسين جديد؟

علاوة على ذلك، كان هنالك أيضاً شعور بأن مبعوثي الرئيس كانوا يُعينون عد عمد كي يتحملوا مسوولية كل ما يحصل في الأقاليم. فقد كسان باستطاعة بوتين دائماً إلقاء المسؤولية على عاتق عمثله، قائلاً: "تكلم إليه (أي المبعوث)، إنه مسوول عن كل شيء". وكان ذلك، بالطيم، يحافظ على سمعة بوتين، ولكنه قطعاً لم يكن يساعد على جعل إدارة الحكم أكثر فعالية.

إن إمكانية أن يكون بوتين قادراً على طرد الحكام في أي وقت يشاء أمر بدا لنقاده بأنه منْح جزء كبير من السلطة إلى المركز. وفذا السبب، أشارت رغبة الكرملين في تشكيل بحلس الاتحاد عن طريق تعيين سياسيين ثانوين – العديد منهم لم يزر قط الأقاليم التي يُعترض بألهم كانوا سيمثلولها – ردّة فعل سلبية عامة. إلها تكاد تكون طريقة لتمكين المحلس الأعلى من القيام بمسؤوليات مسن نسوع منعقرارات اللوما، ولعب دور المصد الواقي بين الرئيس واللوما، واتخساذ القسرار في مسائل تتعلق بالحرب والسلم. ولم يكن الأمر يتطلب عارفاً في اللمستور كي يلوك بأن وجود بحلس أعلى في البرلمان يجتمع فيه ممثلو الهيسة التنفيذية ويلجبون دور السلطة التشريعية عنالف لمبدأ فصل السلطات. إلا أن بحلس الاتحساد، في نفسس الموقت، كان يشكّل العائق الوحيد في الطريق المؤدي إلى تعزيز استبدادية السزعيم. على أي حال، فالأمر الذي كرهه المنتقدون أكثر هو قرار الكرملين بالقضاء على المحكم الذالى الملي وجعله يعتمد على أمزجة الحكام.

يمكن عزو قبول زعماء الأقاليم بالقوانين الجديدة إلى عدم استعدادهم للدخول في معركة مع المركز، وإلى أملهم بالتفاوض على الاستسسلام بشكل منفصل. ولكن، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التقليد القدم المتمثّل بالقتال بشكل سسري، وفنون التبعية الخاصة بالزعماء الإقليميين، فإن القيام بمحاولة لإعاقة خطط الكرملين كان أمراً متوقعاً. أذكر محادثة في مع زعيم قوي لإقليم واهب غنى (إقلسيم كان أمراً متوقعاً. أذكر محادثة في مع زعيم قوي لإقليم واهب غنى (إقلسيم كان استملم أعضاء بساهم في الميزانية الفدرالية بأكثر عما يأخذ منها): عندما سألته لماذا استملم أعضاء بمحلس الاتحاد طوعاً لبوتين، أحاب مع ابتسامة ارتسمت على وحهه، "أفضل طريقة

للبقاء في روسيا هي عدم المقاومة، بل العرقلة". كان ذلك يمسيني بالنسسبة لي أن زعماء المقاطعات كانوا يأملون في الانتظار حتى انتهاء العاصفة، يتملقون السرئيس وفي الوقت عينه يستمرّون باتباع نفس سياساتهم السابقة في مناطقهم.

غير أن بوتين لم يتوقّف عند حد عاولة تقوية سلطة المركز على الأقاليم. فبعد أن شعر بقوته قليلاً، كان واضحاً أنه أصبح واثقاً من نفسه، ومستعداً لمحاربة أعدائه الحقيقيين، أو المتخليان بشكل مكشوف. في تشرين الأول 2000، أرغم الكرملين بويزوفسكي على التخلي عن سيطرته على القناة النلفزيونية الروسية الأولى، حيث باع بويزوفسكي أسهمه إلى الدولة. ثم وحد بوتين الضربة التالية إلى إمبراطورية إعلامية لواحد من أكثر أفراد الطبقة الحاكمة نفوذاً، إنه غوزينسكي الذي سساند منافسيه في الانتخابات (لوحكوف، وبريماكوف، ومن ثم يافلينسكي). لقد استولى الزعيم الجديد على كل ما أمكنه استيمابه من البرامج الشعبية التي كانت تُبثُ على القناة التلفزيونية NTV والحملة الإذاعية إيخو موسكفي، والصحيفة إيتوجي، والمحلة الفصلية سيحودنيا؟ كلها كانت تحت سيطرة غوزينسكي الطموح والمتحرف.

في 11 أيار، بعد أربعة أيام من حفل تولية بوتين، داهمت المشرطة المركز الرئيسي للشركة القابضة ميديا – موست التي تدير MTV والوسائل الإعلامية الأخرى التابعة لغوزينسكي. ثم استولت الدولة كذلك على مصرف غوزينسكي موسست – بانسك (الذي كان، على أية حال، يعاني من مشاكل منذ فترة طويلة). استتج أنصار بسوتين من كل ذلك بأن الرئيس بدأ هموماً على طبقة النحية، ولكن هسفه ليسست كسل الحقيقة، لأن الشرطة لم تقترب من بقية أفراد هذه الطبقسة، أولدسك للقسريين مسن الكرملين. في الحقيقة، كان واضحاً أن هموم الكرملين انتقائي في طبيعة.

لو أن غوزينسكي ساند بوتين في الانتخابات، ولو أن مؤسساته الإعلامية لم قاحم فريق الكرملين، ولو أنه لم يحاول المطالبة بمعاملة خاصة من بوتين، لما اقترب منه أي سوء. كانت قضية موست إشارة بأن الكرملين قد شرع في مواجهة نقّاده أو منافسيه المحتملين. بعبارة أخرى، كان مصير إميراطورية ميديا - موست اختباراً لدرجة الحرية السياسية التي سيسمح بما بوتين، وقدَّم لحدة عن القواعد التي سيفرضها بوتين على اللعبة مع المحموعات المتنفذة.

وبعد سنوات من انتهاء هذه الأمر كله، قام واحد من أبرز مقلمي السيرامج الإخبارية التلفزنونية في روسيا بإعطاء تفسيره الشخصي للسدوافع وراء حملة الكرملين ضد غوزينسكي، حيث قال: "أنا مقتنع بأن كل مشاكل NTV كانست ناتجة عن وجود عداوة شخصية بين غوزينسكي وبسوتين. حساول غوزينسسكي السيطرة على بوتين: إما أن تدعمني أو سأعرض مواد تسيء إلى سمعتك. مسحيح أني لا اعتقد بأن للرئيس الحق بالسمي للانتقام، لكنهم في لهاية الأمر ليسو إلا بشراً كغيرهم". من الجائز أن تكون العداوة الشخصية قد أثارت الصراع بين إمبراطورية غوزينسكي الإعلامية والكرملين، لكن السبب الجوهري كان أعمق مسن ذلسك بكثير، ويتصل بحقيقة أن الإعلام الحر" لم يكن يناسب الحكم الرئاسي الاستبدادي.



والاختبار الثاني تمثّل في المصير الذي لحق بالمحطة التلفزيونية "القناة 3" الستي

كان يسيطر عليها لوحكوف – أحد المنافسين الرئيسسين لبوتين في الانتخاب
الرئاسي – ويدعمها مالياً. حق فريق العمل في القناة 3 لم يسلم مسن ترهيسب
الكرملين، الأمر الذي أحدث الانطباع بأن الكرملين قد انحدر إلى مستوى اتباع
الأساليب الروسية القديمة، وهي قمع، أو على الأقل تخويف الأعداء وحق المنافسين المحتملين.

هذه المرة كان الهجوم موجّها نحو الجموعات الإعلامية التي يسيطر عليها منافسون سابقون لبوتين. وقد وجد الكرملين الدعم لهذه السياسة ليس فقط من "السيلوفيكي"، بل من جزء من الشعب الروسي الذي كان يرى في الوسسائل الإعلامية الحرّة قنوات لنفوذ طبقة النحبة؛ وهو اعتقاد صحيح إلى حدَّ ما. ففي تشرين الثاني من العام 2000، أظهر استطلاع أجراه المركز الروسسي لأبحسات الرأي العام بأن 7 بالمائة فقط من الشعب الروسي كانوا يعتقدون بأنما تابعة لأفراد مسن التلفزيونية الأساسية مستقلة، و79 بالمائة كانوا يعتقدون بأنما تابعة لأفراد مسن طبقة النحبة، و18 بالمائة كانوا يعتقدون بأنما تابعة للدولة. بعبارة أخرى، كان هنالك قطاع واسع من الشعب الروسي ينظر إلى الصراع ضد وسائل الإعسلام

المستقلة على أنه صراع ضد الرحال المتنفذين، غير المجبوبين، بل المكـــروهين في روسيا.

وهكذا بدأ خط بوتين السياسي، ومعه خطته لتوسيع سلطته الرئاسية، يزدادان وضوحاً شيئاً فشيئاً. على هذا الأساس، قد يكون صمته السسابق بحسرد تكتيسك استخدمه كي يتحنب المقاومة. لقد أظهرت مسالة إصسلاح بحلسس الاتحساد، والعلاقات المتمحورة حول المركز بأن بوتين كان ينوي بناء نظامه الخاص في إدارة الحكم. بعبارة أخرى، كان خليفة يلتسين يعمل بشكل تدريجي للقضاء على نظام يلتسين بالذات. ذلك أنه كان خليفة يلتسين، وهو آلية فرك الظهر المتبادل والتقبّل على الأساس الذي بُنيت عليه سلطة يلتسين، وهو آلية فرك الظهر المتبادل والتقبّل المشترك. لعل هذا الرجل، الديكاتوري في جوهره، كان يتظاهر بأنه رجل متسردد وشخص أليف تابع للحرس القديم، في حين أنه كان في واقع الأمر يعلم بالضبط ماذا يريد، ومنذ البداية. ولكن، يُرجّع أن بوتين كان شخصاً أكثر تعقيسداً مسن ذلك، شخصاً بحمع ما بين العناد والتردد، ما بين الإحساس بالغاية وانعدام الرؤية، ما بين الشك والارتياب في كل شيء والتوق إلى الاعتماد على الإخلاص. من هنا، هإن الرحلة التي ستقطعها روسيا معه كانت مغامرة لا يمكن توقع نمايتها.

بدأ الزعيم الجديد بناء صرح سلطته على أساس مبدأ آخر: التبعية. وفق هدا المبدأ، كان الرئيس يقبع على القمة، فوق كل شيء آخر، ومن تلك النقطة المشرفة كان يرسل أوامره إلى أتباعه، الذين كانوا يمررولها بدورهم إلى من هم أدى مرتب منهم. إن التبعية المباشرة والامتثال للأوامر كانا يضمنان علاقة خالية من العبوب بين طوابق الإدارة. وفوق ذلك، إن آلية التبعية هذه لم تكن تتطلب برلماناً، أو معارضة فعالين أو نظاماً متطوراً متعدد الأحزاب، أو وسائل إعلام حرة. لا بد أن الإدارة من خلال التبعية كانت تثير إعجاب بوتين، بصفته رجلاً قادماً من الخدمة السرية ومديراً تكنوقراطياً. فالسلطة التنفيذية كانت تسمح له بتنفيد القسرارات بسرعة، دون هدر للوقت على عمليات النسيق التي لا تنتهي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن هذا النموذج من الإدارة منحه موارد السلطة التي يحتاجها، وبذلك فهو لم يعد معتمداً على الجماعات القديمة.

في الواقع، إن الدولة التي حاول بوتين إعادة تكوينها من حديد همي نفسس الدولة التي لطالما وُحدت في روسيا، باستناء فترة الانقطاع الوجيزة لعهد يلتسين. فبواسطة تعزيزه لسلطته الشخصية وعاولته جمع كل السلطات في قبضسته، كسان بوتين يحاول إعادة إحياء "النظام الروسي" القلم، أي النظام الذي يرتكسز علسي سلطة الفرد. غير أن تلك الدولة المبنية على التبعية العامودية والتي كانت تفتقر إلى الاتصال من الأسفل إلى الأعلى كانت دولة ضعيفة وعاجزة إلى حسة بعيسد لأن طاقتها كانت تضيع في التوليد الدائم للخوف، والإرغام على الطاعة والامتئسال، وتعزيز السلطة الهرمية. النسخة الجديدة من "النظام الروسي" تحت وطأة تقلسها وعاحلة أو آجلاً ستنهار النسخة الجديدة من "النظام الروسي" تحت وطأة تقلسها بالذات، وخاصة إذا كانت تفتقر إلى آلية قمع قوية.

لم يكن باستطاعة فريق الكرملين الجديد، وخاصة الوافدين الجدد من سان بطرسبورغ، أن يفهموا أن الدولة الكفوءة تمتلك بنية مركبة تنضمن دواعم أفقية عديدة وشبكة من القوى الموازنة. وبالمناسبة، مثل هذه الدولة أكثر فائدة للسرئيس فيما يتعلق ببقائه، لأنه بوجودها لن يكون بحاجة للقلق بشأن الحفاظ على منعته، أو إيجاد وريث لن يرميه في غياهب السحن عندما يفقد السلطة. غير أن بوتين في تلك الفترة لم يكن يفكر في مثل هذه الأمور، بل آثر اتباع الطريق المألوف بالنسبة إليه، ربما بداعي عدم الإحساس بالأمن، أو لرغبته بحماية نفسه، أو لقصور الإرث الذي ورثه عن يلتسين. لعله لم يجد شركاء يمكنه الوثوق قسم ليسساعدونه في بنساء المؤسسات. أو لعله كان مفتوناً بفكرة تحويل روسيا إلى شركة ضحمة ترتكز على روابط عامودية متعددة المستوبات، يلعب فيها هو نفسه دور المدير التنفيذي الأول. بيد أن المختمع الروسي كان قد أصبح كياناً أكثر تعقيداً مسن قبل، و لم يعسد باستطاعته إطاعة القوانين التي تُفرض عليه من فوق بشكل آلي، وفوق ذلك فهو لم يستطاعته إطاعة القوانين التي تُفرض عليه من فوق بشكل آلي، وفوق ذلك فهو لم يكن يريد أن يتم تقسيمه إلى فتات من قبل مدراء ثانويين. وعاجلاً أو آجلاً، سيعي يكن يريد ذلك.

في تلك المرحلة – 1999 و2000 – كان واضحاً أن بوتين، مثل يلتسمين، لم يكن مهتماً بمزج السوق مع الديمقراطيمة، الحريسات السيامسية مسع الحريسات الاقتصادية. وهكذا بدأ بوتين - مثل سلّفه أيضاً - بتكوين نظام يرتكز على دوافعه الشخصية وما كان يبدو مريحاً بالنسبة إليه. غير أن يلتسين كان حكيماً وخسبواً وويرف روسيا حيداً، وأخبره حدسه بألها قد تغيرت. ولهذا السبب، بعسد بضم عاولة لتطويع روسيا، آثر يلتسين أن يحكم البلاد من خلال السماح لكافة القسوى في المجتمع الروسي بالتطور، وعدم الوقوف في وحه أي شخص لم يكسن يشكل قديداً مباشراً لسلطته.

سمح يلتسين، شأنه في ذلك شأن القادة الصينين، لألف زهرة بالتفتح. في حين أن بوتين كان يريد أن يزرع الحقل كله بنيتة واحدة. وهذا طبيعي في الواقسع لأن مواهبه التي صُقلت في أحهزة السلطة الرئيسة لم تقدم له سسوى إرشادات بسيطة: سيطر على كل شيء، لا تثق بأي شخص، كن قوياً فالقوة هي الشسيء الوحيد الذي يفهمه الناس. تلك هي الححارة السياسية التي بُنيت بما الأنظمة في روسيا منذ وقت طويل. ومع نسب القبول الشعبي المذهلة - أكثر من 60 بالمائلة من الشعب كانوا يساندونه - كأن الناس كانوا يقولون له: "نحن نريد ما ترسد. غن نريد أن نكون مطيعين، امض قدماً". مع ذلك، لم يكن واضحاً بعد إلى أي درجة كان أولئك الذين تعودوا على حرية يلتسين مستعدين للخضوع ثانية. أضف يلى ذلك أن نظام النبعية الذي بناه بوتين كان يناقض المدف الذي يتغيه وهو بناء القصاد سوق فعال، لأنه يتطلب حرية وروح المبادرة. إن إدارة الحكم عبارة عسن عملية موازنة صعبة بين أمور كثيرة، فما بالك بالسعي لتحقيق حالة توازن ما بسين الديكتاتورية والسوق.



في نفس الوقت، تحدَّى الزعيم الجديد المحاولات الرامية لوضعه في مجموعة الديولوجية محددة، مظهراً استعداده لاتباع خطة سياسية معقدة. ومسع ميلسه إلى "التقليدية" السياسية في سياق صياغته لحكمه، وضع بوتين علامة حديسة علسى السياسة الخارجية الروسية. فقد دعا بوتين - قبل الانتخاب الرئاسسي - اللسورد حورج روبرتسون، الأمين العام لحلف الناتو، إلى موسكو، معيداً بسفلك إحيساء

علاقات روسيا مع الحلف من حديد. وقد فعل هذا بالرغم من معارضة الجسيش الروسي. كما دعا رئيس الوزراء البريطاني توني بلير إلى سان بطرسبورغ وأقنصه بأنه كان يسعى لإحياء علاقات أكثر دفعاً بين روسيا والغرب.

كان بوتين يهدف إلى إعادة بناء الجسور مع الغرب بعد تدهور حالها حسلال السنوات الأحيرة من عمر إدارة يلتسين، وخاصة بعدما شهد ربيع العام 1999 توسيع حلف الناتر وقصفه لكوسوفو، الأمر الذي جمّد العلاقات الروسية مسع الغرب. وكان واضحاً أيضاً قلق بوتين من ردّة الفعل السلية في الغرب بحل الحرب الشيشانية. والأهم من ذلك أن بوتين كان يعي تماماً أهمية الغرب بالنسبة لحسل مشاكل روسيا الاقتصادية. لقد أظهر بأن غايته هي الانضمام إلى النادي العسالمي، وأنه يربد علاقات متمدّنة مم الغرب.

قد يفترض المرء بأن بوتين، بصفته عضواً سابقاً في الاستخبارات ومع خبرت في الكي جي بي، كان في أعماقه يخفي ربية وانعدام ثقة بالغرب. وهذا محتمل في الكي جي بي، كان في أعماقه يخفي ربية وانعدام ثقة بالغرب. وهذا محتمل في إضعاف روسيا، واستغلال ضعفها لمنفعته الخاصة واتباع معايير مزدوجة في سياسته تجاه روسيا. على أية حال، في الفترة القصيرة الأولى من عمر رئاسته، ظل بوتين يستخدم في خطبه فكرة تعدّد الأقطاب التي روَّج لها سلّفه بريماكوف ولو بحذر أكبر – مما يعني بأنه إما كان ما يزال يعتقد بوهم "الطريق الخاص" لروسيا، أو أنسه لم يكن متأكداً من هوية روسيا الجديدة وخطة تطويرها، أو أنه لم يكن مستعداً لم يكن متأكداً من هوية روسيا الجديدة وخطة تطويرها، أو أنه لم يكن مستعداً بعد لتحقيق تقدّم أعمق. ولكن، ما هي البلدان أو المجموعات التي يمكن أن بجتذبها روسيا الضعيفة لتكوين واحد من تلك الأقطاب؟ على أي حال، ربما كان بوتين في بداية الأمر متردداً بشأن وضع خطة عمل معينة، ولكن، مع سياسته الجديدة نجساه الناتو وأوروبا، أصبح واضحاً أنه كان يتحول باتجاه الغرب.

- - -

لقد واجه بوتين مهمة أكثر صعوبة من تلك، وهسي اختيــــار قاعدتــــه، أو المحموعات التي سيعتمد عليها. وكان مجال الاختيار في روسيا محدوداً: الشــــركات التحارية الكبرى، عن طريق ما يُدعى بطبقة النحبة؛ وحهاز الدولسة، بوزاراتسه المتعددة واللحان الحكومية، والمؤسسات الأخرى التي كانست تشكّل العمود الفقري لنظام الحكم؛ والنحب في الأقاليم؛ وأحهزة السلطة الرئيسية، أي وزارتي اللفاع والداخلية وأحهزة الاستحبارات؛ والشركات التحارية المتوسطة والصغيرة؛ والمجتمع.

لم يكن المحتيار تلك القاعدة بالأمر السهل أبداً. فمع الأخذ بعين الاعتبار ميل بوتين نحو المركزية، لم يكن باستطاعته الثقة بشكل مطلق بالشركات الكبرى، التي كانت تمثلك امتيازات ومصالح خاصة والتي أثبتت عدم قدر قما على كبح جشعها. مع ذلك، لم يكن باستطاعة الزعيم الجديد، أو لم يكن يريد، أن ينأى بنفسه عن المحموعات المتنفذة، على الأقل على المدى القصور. ولكنه لم يكن مستعداً أبداً ليتنارك السلطة مع تلك المجموعات.

بالنسبة لجهاز الدولة، فإنه كان يشترك مع بوتين في رغبته بتحقيق السلطة المركزية. علاوة على ذلك، فقد كان باستطاعة جهاز الدولة بسهولة تأسيس اتحاد مع أحهزة السلطة الرئيسة. لطالما شكّل مثل هذا الاتحاد أساس النظام الروسسي. لكن الاعتماد على هذا الاتحاد فقط كان أكثر خطورة بالنسبة لبوتين من التحالف مع الجماعات المتنفذة والشركات الكبرى، فهو كان يعلم بأن مثل هذا الدعم يمكن أن يؤدي إلى إبطاء حركة تطوّر السوق، وزيادة الانعزالية في السياسة الخارجية. يبد أن بوتين كان يفضل، ظاهريًا على الأقل، المحافظة على القواعد المتمدنة للعبة الدولية؛ وكما وحدنا من قبل، كانت هنالك إشارات على أنه كان يميل إلى تأسيس علاقات طبيعية مع الغرب. فإذا كان يريد الحفاظ على هذا المنهج، فقسد كان يتوجّب عليه قطم روابطه مع حهاز الدولة والسيلوفيكي.

ولم يكن المحتمع بدوره قد تطور بما يكفي لكي يؤمِّن قاعدة مسن الفئسات الاجتماعية التي يمكنها منح دعم ليوالي للإدارة. أما الشركات التجارية المتوسسطة والصغيرة في روسيا، التي كانت تملك المصلحة الأكبر في إرساء قسوانين متساوية وشروط منافسة عادلة وإقصاء المجموعات المتنفذة، فقد كانت ما تزال ضعيفة جداً كي تشكل دعامة للحكم الجديد. والمثقفون كانوا متعين ومجمطين بعد خيبة أملهم

من محاولة الإصلاح السابقة. أما بالنسبة للمحتمع للدني بشكل عام، فقد كان مسا يزال غير منظم وغير محمد الملامح بعد عقد من الهيار الشيوعية، وبسفلك فهسو لم يكن قادراً بعد على تشكيل مصدر ضغط قوي.

وهكذا انتهى الأمر إلى الاختيار بين القوتين السياسيتين الأساسيتين في روسيا: طبقة النحبة وجهاز الدولة. وهاتان القوتان كاننا متشابكتين ومتدا حلتين بشكل طبيعي. خلال عهد يلتسين، ساعد جهاز الدولة طبقة النحبة على الإثراء، ونسال مقابل تعاونه هذا حصة من المكاسب. إلا أن ما كسبه جهاز الدولة من التحسول كان أقل بكثير مما كسبته طبقة النحبة، ولهذا السبب كان الانتقام والهيمنة يشغلان أذهان أعضائه كتهاً.

اصطدم حهاز الدولة مع طبقة النحبة عدة مرات في الفترة التي تلست الهيار الشيوعية. وأول هذه الاصطدامات وقع بين زمرة تابعة الألكسندر كورحاكوف، مدير أمن يلتسين السابق، وأفراد من طبقة النحبة – بريزوفسكي، وغوزينسكي، وآخرون – أثناء انتحابات العام 1996. لم يتقاتل الطرفان فقط من أجل السيطرة على يلتسين، بل تقاتلوا أيضاً حول طرق مختلفة لتطوير روسيا. حاول البيروقراطيون والعسكريون في حاشية يلتسين إقناعه بإلغاء الانتحاب والاحتفاظ بالسلطة بالقوة، الأمر الذي كان يمكن أن يجمله رهينة في أيديهم. وبالمقابل، كانت بالسلطة بالقوة، الأمر الذي كان يمكن أن يجمله رهينة في أيديهم. وبالمقابل، كانت وبالتالي ستسمح لهم بالبقاء. في هذه الحالة، كانت مصالح طبقة النحبة متفقة مسع المهمة وفي النهاية، فازت طبقة النحبة والتكتوقراطيون الليماليون السابين وبحموعته).

وحصل التصادم التالي بين طبقة النحبة وجهاز الدولة في العسام 1997، في الحرب المصرفية". وفي مسار هذا التصادم، الذي تركّز حول خصصسة شسركة الاتصالات الروسسية العملاقسة "سفيازينفيسست"، انقلبست الأدوار، فأصسبح التكنوقراطيون الليبراليون (تشوبايس وزمرته) بيروقراطيين مركسزيين يسسعون إلى كبح جماح شهوات بمحموعة بيريزوفسكي وغوزينسكي(18). وأنساء فتسرة تسولي بريماكوف رئاسة الوزراء، وقع التصادم الثالث بين المصالح، بوقوف حهاز المولسة

وبريماكوف في طرف، وطبقة النعبة بقيادة بيريزوفسكي في الطرف الثاني.

ومع تولى بوتين منصبه، كانت هنالك إشارات على وقوع تصادم حديد. وكانت هذه الإشارات غير واضحة تماماً لأن بعضاً من الأفراد المتنفذين في طبقــة النحبة بقوا في معسكر بوتين، وهذه المرة كان الهجوم موجَّه إلى اثنين مسن ممثلسي الشركات التحارية الكبرى، غوزينكي وبيريزوفسكي، اللذين كانا يحاولان لعب دور مستقل في الحياة السياسية. لكن أنصار البيروقراطية وأجهزة السلطة الرئيسة في النظام كانوا أيضاً يطالبون بإخراج أشخاص آخرين في طبقة النخبسة مسن فلسك الكرملين. غير أن بوتين، في سياق تشكيله لقاعدته، اختار فيما يبدو الأشـــخاص الذين ينسحمون مع عقليته أكثر من غيرهم؛ أولئك الذين لا يراهنون بكل شسىء على ورقة واحدة، والذين يتحتبون المواجهة المباشرة وخاصة مسم الأقويساء مسن الخصوم، والذين يعملون على إضعاف الجميع بشكل تدريجي عن طريق تضييق مساحة مناورتهم شيئاً فشيئاً. وفي هذا الخصوص، ضغط الرئيس على السلطة البيروقراطية لكنه لم يمس أولئك الذين أقسموا على الولاء له من طبقة النحبة. مسن الواضح أن الرتيس كان يريد تأسيس نظام سلطة تجد كل المحموعات المتنفذة مكاناً لها فيه دون أن تتمكن أية مجموعة من الادعاء بامتلاك دور أو نفسوذ حساص في الكرملين لأنها، إن فعلت ذلك، ستفقد ذلك المكان المحصص لها.

كانت المشكلة تكمن في أن كل القوى الأساسية في حاشية الرئيس - جهاز المعولة، وطبقة النحبة، وأجهزة السلطة - لم تكن مهتمة بالقيام بإصلاح راسسخ وقابل للاستمرار. ولم يكن واضحاً ما إذا كان الرئيس سينجع في البقساء فسوق الخلاف، وبْحَنَّب الوقوع تحت سيطرة إحدى القوى السياسية. يلتسين نفسه الذي يفوقه خبرة وحنكة لم يتمكن من البقاء حكماً.

في ظلُّ الظروف الجديدة، أثار وضع التكنوقراطيين الليمراليين، عاصة أولفك انتقلت غالبية التكنوقراطيين الليبراليين إلى مواقع مناصرة للحكومة. من غير المحتمل ألهم كانوا يشعرون بالراحة هناك، حيث كان البيروقراطيون الموالون للدولية وأحهزة السلطة الرئيسة يشكلون الدعائم الأساسية للنظام لكسن التكنسوقراطيين

الليبراليين كانوا يأملون في التأثير على الكرملين من خلال إدارة بوتين. أما في عهد يلتسين، فقد كان ييغور غايدار - ولو لفترة وجيزة - هو من حدَّد مسار التنميسة الاقتصادية في روسيا. وفي هذا الخصوص، ستقدم لنا قصة "غايدار بسوتين" - أي جيرمان غريف، رئيس مركز التنمية الاستراتيجية - صورة أوضح عن هذه الصلة.

في العام 2000، اقترع غريف على الرئيس مفهوماً حديداً الإصلاح الليهالي. لكن بوتين لم يكن بوسعه إعطاء غريف حرية كاملة في التصوف كي يحوّل أفكاره إلى وقائع على الأرض، تماماً كما فعل يلتسين قبله مع غايدار. وهكذا نجد أن كلاً من نموذج الحكم الذي يستند إلى الطبقة المتنفذة الحاكمة والنموذج البيروقراطين الذي يستند إلى أحهزة السلطة الرئيسة لم يسمحا باستقلالية التكنوقراطين الليم الين. بدلاً من ذلك، أسند إليهم دور أنوي في كلنا الحالين. ولم يستمكن الليم اليون حتى الآن من أن يصبحوا مستقلين في روسيا. صحيح ألهم استطاعوا دفع بعض الإحراءات الإصلاحية بشكل تدريجي – مثل الضريبة الثابتة (flat tax) على المدخل التي بلغت نسبتها 13 بالمائة والتي نجحوا في تنفيذها في عهد بسوتين – إلا ألهم أرغموا، كولهم يشكلون أقلية في البلاد، على الدخول في معارك عديدة انتهت ألهم أرغموا، كولهم يشكلون أقلية في البلاد، على الدخول في معارك عديدة انتهت في أغلب الأحيان بالتوصل إلى تسسويات أذت في نحايسة المطاف إلى إضعاف الإصلاحات.

وبينما كان البروقراطيون وطبقة النخبة يتنافسون على الأسبقية، بدأ الكرملين بناء مرحلة سياسية حديدة. كانت هنالك إشارات تدلّ على أن ثمة بحث جارٍ عن أساليب لتفكيك الحزب الشيوعي وتكوين حركة يسارية معتدلة يمكن أن تكون موالية للكرملين. وفي الوقت عينه، كانت التحضيرات تجري على قدم وساق مسن أحل إعداد قانون أحزاب حديد يهدف إلى إنشاء نظام متعدد الأحزاب مسروض، أما بالنسبة لحزب الوحدة المناصر لبوتين - الذي كان قد أعلن عن نيت تحويسل نفسه من حركة إلى حزب أكثر تنظيماً ذي عضوية فردية بعد الانتخاب الرئامسي فينه بدأ يبدو أكثر شبها بالحزب الشيوعي الحاكم في الانحاد السوفياتي السابق. وبدأت عملية تحويل الفوضى السياسية التي سببها يلتسين إلى "ديمقراطية" يسسيطر وبدأت عملية تحويل الفوضى السياسية التي سببها يلتسين إلى "ديمقراطية" يسسيطر عليها المركز. لقد أطلق بوريس نهمتسوف، أحد زعماء ليبرالي SPS، على هذه

الديمقراطية لقب الديمقراطية "المعصية" وما أن تكيَّف زملاء بسوتين القسدامي - الذين حلبهم من الأحهزة الأمنية - مع الوضع حتى بدأوا يتصرفون بقسوة أكبر من قسوة وحدات يلتمين العسكرية القديمة. فهم لم يترددوا لحظة في ترهيب وسسائل الإعلام المستقلة في الأقاليم، واستحدموا علناً مكتب النائب العام والمحاكم من أحل قمم السياسيين والمجموعات التي عبَّرت عن استيائها من النظام الجديد.

وهكذا، بعد أسابيع فقط من حفل تنصيبه رئيساً للبلاد، تمكّن بوتين من قلب السمعة المبكرة التي أظهرته كسياسي متردد وبطىء الحركة. لا بد أنه قسرر بان الوقت قد حان لتأسيس نظامه الخاص. لكن بوتين كان ما يزال، شانه في ذلك شأن كل المبتدئين، غير قادر على قطع كل صلاته مع النظام القلم.

كان الهدوء والسكون الظاهريان اللذان يغلقان المشهد السياسي يتكشفان عن بعض البقع المستاءة - التي كانت ما تزال تلقائية وعفوية - من الوضع الجديد. وكانت وسائل الإعلام الجماهرية وناشطو حقوق الإنسان أول الغاضين. فبالنسبة إليهم، كان نظام بوتين يتّحذ صفات استبدادية تزداد وضوحاً أكثر فأكثر. وكانت المقالة الجماعية التي كتبها عررون وصحفيون في الصحيفة الليرالية "أوبشتشايا غازيتا" في 25 أيار أوّل من دعا النظام السذي كان بينيه بوتين بالنظام "الديكتاتوري" كتب الصحفيون في تلك المقالة: "لمة انطباع يتكون مفده أن بمميع المزيد من السلطة في يدي الرئيس ليس وسيلة لتنفيذ سياسة ما (لم يعلسن الرئيس عن أية أولويات سياسية واضحة غير متصلة بعملية تجميع السلطة هذه) بل الرئيس عن أية أولويات سياسية واضحة غير متصلة بعملية تجميع السلطة هذه) بل الناشط القلام في حقوق الإنسان سيرحي كافاليوف وأعضاء يابلوكو، صراحةً ضد الناشط القلام في حقوق الإنسان سيرحي كافاليوف وأعضاء يابلوكو، صراحةً ضد إعادة هيكلة السلطة التي يقوم بها بوتين، متهماً إياه بمحاولة بناء نظام رأسمالي خال من الضمير وإعطائه قوة دافعة ديكتاتورية.

و لم يكن باستطاعة بوتين تقديم حجة يدفع بها تلك الاقمامات – وبالرغم من كل ذلك، بعد تأسيسه نظام حكمه الهرمي، احتفظ بوتين بالجماعات ذات المصالح والامتيازات الخاصة التي نشأت في عهد يلتسين، ممثّلة بكل المتنفذين الذين كانوا ما يزالون يحتلون مواقع قوية في الكرملين. والآن، مع محاولته جمع مسوارد السلطة الأساسية في يده، أعطى بوتين الديمقراطيين سبباً للشك في أنه يتصرف بفسوة أكبر لصالح الطبقة المتنفذة الضيقة – القديمة والجديدة – التي كانت تحتل الكرملين. في تلك الأثناء، أثبت الرئيس الروسي شيئاً واحداً فقط، وهو أنه لم يكن ديمقراطيساً، لكنه لم يكن ديكتاتورياً أيضاً.

لم تكن هنالك مقاومة شعبية لمخططات بوتين، و لم يكن بالإمكان ظهور مثل هذه المقاومة. وقمة أسباب عدة لذلك: سيطرة السلطات المركزية علسى وسسائل الإعلام؛ عدم وجود معارضة قوية؛ سلبية المجتمع وقدريّته؛ الأمل بأن يسعى بوتين لاتباع سياسة شريفة؛ وعدم الاستعداد لاتنقاده. وهكذا اسستمر السرئيس فسوق الانتقاد في روسيا. كان الروس يتصرفون وكألهم كانوا يخشون من فقدان أملسهم في زعيمهم الجديد. ولهذا السبب، كان بمقدور الكرملين التفاضي عن بقع الاستياء المبعرة بين المتقدن والليراليين العنيدين.

هكذا تبع المجتمع الزعيم الجديد، لكن ولاءه ودعمه كانا مشروطين؛ كما هي الحال دائماً في روسيا.

الغطل الرابع

لحظة الحقيقة

بوتين يلغي تحريم قمع طبقة المنتفنين. المنتصر في حالة من الاتسـزعاج والسأم. آب قلس وشعور بالاختتاق. تعزيز النظام الرئاسي المطلق. ليسـلاح عسكري.

إنه صيف العام 2000. فشل الهجوم الأول الذي شتّه بوتين على الإمبراطورية الإعلامية الروسية الأكبر ميديا – موست. وكان الكرملين قد نجع قبل ذلك في الاستيلاء على مصرفها، لكن بقية أملاك فلاديمسير غوزينسكي نجست. عبّا غوزينسكي الرأي العام في روسيا والغرب من أحل مساندة شركته. تراجع رحال بوتين، ولكن فقط من أحل إعادة تنظيم صفوفهم، فالجميع كانوا يعلمسون بان الضربة الجديدة قادمة لا عالة. وشكلت وسائل الإعلام المكتوبة المستقلة عسن الدولة، وبالأخص الإلكترونية منها، عقبة حقيقية بالنسبة ليوتين في طريقت لبناء نظامه الديكتاتوري البراغمائي. والرئيس كان يدرك أهمية وسائل الإعلام الجماهيرية في الصراع السياسي، فحلال الفترة التي سبقت الانتخابات البرلمانية والرئاسية في المواعر السياسي، فحلال الفترة التي سبقت الانتخابات البرلمانية والرئاسية في المواعر السيد الرئيس، وفلاديم فلاديم وفيتش لم يكن يريد أن يكويل السيد المصدر إلى السيد الرئيس، وفلاديم فلاديم فلاديم وفيتش لم يكن يريد أن يكون هسذا المصدر السياسي الفقال بأيدي منافسيه، أو حتى ألطف منتقديه.

لعل العداوة الشخصية التي يكنُّها بوتين نحو غوزينسكي الطموح قد ساهمت في موقف الرئيس تجاه المؤسسات الإعلامية التي يملكها أشخاص متنفذون، وخاصة الشبكة التلفزيونية الأكثر شعبية NTV. وكان هذا الزعيم الإعلامي مفروراً بما يكفي كي يعتقد بأنه قادر على التأثير على بوتين وحتى على فرض قواعد اللعبة عليه. وهذا ما لم يكن باستطاعة الرئيس تحمّله. والأمر الآخر الذي أغضب بوتين هو قلة الاحترام التي أظهرت له في برامج NTV، مثل البرنامج الشمي "السلمي" الذي جعل من زعيم الكرملين أضحوكة تارة، ومثيراً للشفقة تارة أخرى، وحسى شريراً في بعض الأحيان. لقد فعل صحفيو NTV، ببساطة، نفس الشميء السذي اعتادوا على فعله في عهد يلتمين وهو قول كل ما يريدون دونما خوف من غضب الكرملين. إلهم لم يدركوا بأن الأزمنة قد تغيرت، وأن بوتين لم يكن ينوي تحمصل حربة النقد من قبل الجميع. لعل يلتمين لم يكن يشاهد البرامج التلفزيونية السي حربة النقد من قبل الجميع. لعل يلتمين لم يكن يشاهد البرامج التلفزيونية السي كانت تنتقده؛ أما بوتين، فمن الواضح أنه كان مهتماً كما أيما اهتمام.

في حزيران، اعتقل غوزينسكي. تلك الخطوة لم تكن حتى تخطر ببال أحد في عهد يلتسين، إذ عندها كان المتنفذون بعيدي المنال. ذلك كان فهسم يلتسسين للدهقراطية. صحيح أنه يمكن أن يكون قد انسزعج من شخص أو آخر من ممثلي الشركات الكبرى، ولكن، أن يعتقله؟ أعتقد بأنه كان ينظر إلى الاعتقالات علسي ألها وسيلة حكم شيوعية أساساً، ولهذا السبب كان يمقتها. فيما بعد، عندما ساعده المتنفذون على الاحتفاظ بالحكم في العام 1996، أصبح من المستحيل بالنسبة له أن يقوم بمثل هذا التصرف. كان يلتسين يعرف كيف يرد الجميل. وإضافة إلى ذلك، فهو لم يدمر أحداً أبداً، حتى ألد أعدائه.

آخر اعتقالات سياسية حصلت في روسيا تعود إلى العام 1993، عندما زجّ يلتسين منافسيه، نائب الرئيس الكسندر راتسكوي والمتحدث باسسم البرلسان روسلان خاسبولاتوف، في السحن. وكان هذان الرجلان قد نظما معارضة ضده تعلوّرت لتصل إلى عصيان مسلح بين الآلاف من أنصارهما وذلسك بعسدما حسل يلتسين البرلمان، وانتهت مع إعطاء الرئيس الأمر إلى الجيش بإطلاق النار على مبنى البرلمان. بيد أن يلتسين كان هو من أطلق سراح راتسكوي وخاسبولاتوف مسن السحن ورفض محاكمتهما لاحقاً. من الأرجع أن يلتسين كان رحيماً مع منافسيه لأنه لم يعتبرهما خطراً عليه. يُحتمل أن يكون سبب ردّ فعل يلتسين اللطيف تجاه الطبقة المتنفذة هسو اعتبارها بمثابة القاعدة الطبيعية لنظامه. ربما كان يلتسين يدرك مجاساً بسأن طبقسة النجبة هي التي جعلت السوق ووسائل الإعلام الحرة أمراً ممكناً في روسيا. كسان يلتسين يحترم حرية المعلومات العامة. صحيح أنه كان ينزعج أو يغضب أحياناً عندما كان الصحافيون أو السياسيون يعاملونه بشكل سسئ أو يجعلونه هدفاً لانتقادات لاذعة وقاسية، حتى أنه كان يستدعي رؤساء التحريس إلى الكرملين ويحاول إعطاعهم الأوامر، ولكن لم يحدث أبداً أن قمع أحداً لأنه وجمّه نقداً أو شن هموماً شخصياً ضده. كان الرئيس الأول لروسيا يتذكر حيداً بان ارتقاعه إلى السلطة قد نجح بفضل حرية الصحافة وحرية التعبير. كان يلتسين يتصرف وكان السلطة قد نجح بفضل حرية الصحافة وحرية التعبير. كان يلتسين يتصرف وكان في غاية البساطة أغلق النافذة وبذلك لن تراهم ولن تسمعهم. ومن الواضع أيضاً أنه كان يشعر بأن حرية التعبير في روسيا كانت خير دليل على تخلص البلاد مسن الشيوعية؛ وهذا كان مبتغي عمره.

غير أن بوتين كان عتلقاً قاماً، كما تبين بعد وقت قصير. فهو كان ينظر إلى التهديد بطريقة عتلقة، ويعتبر النقاد وغير المتضبطين أعداء اللولة، وبالتالي أعداء التهديد بطريقة عتلقة، ويعتبر النقاد وغير المتضبطين أعداء اللولة، وبالتالي أعداء شخصياً، لأنه كان يربط اللولة بالأوليس، أي هو نفسه. (كما قال لويس الرابع عشر: "أنا اللولة"). وهو لاء الأعداء – وفقاً لتصوره – يجب اقتلاعهم أو استصالهم من الحياة السياسية، لا أن يُعطّوا الحرية في قول ما في أذها لهم. في الواقع، فيما يتعلق بوجهة نظره في السياسة والسلطة، كان بوتين أقرب إلى أن يكون زعيماً شيوعياً من أن يكون زعيماً لفتسرة ما بعد الشيوعية، وكان سلوكه يدل على ذلك أكثر عندما يتعلق الأمر بمنتقديه. علاوة على ذلك، فهو كان يسعى إلى تعزيز سلطة اللولة، الأمر الدي كان يتطلسب اعتماداً أكبر على النبعة والانضباط. تُظهر قصة وسائل الإعلام المستقلة أن بسوتين حافظ على بعض مميزات النحبة السوفيائية التي كان يلتسين، فيما يسدو، يفتقسر إليها، ومن بين هذه الخصائص الشك، وعدم الثقة. أما بالنسبة لروح الانتقام، فهذه الحاصية كانت ذات طبيعة أكثر شهولية.

لاحظ أن الاقدامات التي وُجّهت إلى ميديا - موست لم تكن سياسية بسل اقتصادية: عدم دفع الديون إلى الدولة. في الحقيقة، كانت ميديا - موست مدينسة بالمعل (وديوهُما متاخرة) إلى غازبروم، شركة الغاز العليمي المملوكة مسن قبا الدولة، الأمر الذي يُظهر علاقاتما المشبوهة مع الدولة، فإمبراطورية غوزينسكي الإعلامية المستقلة، التي كانت تتضمن واحدة من أكثر الشبكات التلفزيونيسة الروسية شعبية (NTV)، لم تكن لتوجد بدون صلات وثيقة مع الدولة. وقد مُسنع غوزينسكي حقوق بث القناة 4 كمكافأة له على المشاركة الفعالة إلى حد كبير لكامل إمبراطوريته - محطات الراديو والتلفزيون، والصحف، والمحلات - في حملة إعادة انتخاب يلتسين التي حرت في العام 1996 (تلك المشاركة التي نسم عليها عصحفيو NTV لاحقاً). وبشكل تدريجي، أسس غوزينسكي برامج إخبارية محترفة في التلفزيون؛ كانت ظاهرة حديدة في روسيا. لكنه فعل ذلك بمساعدة قسروض في التلفزيون؛ كانت ظاهرة حديدة في روسيا. لكنه فعل ذلك بمساعدة قسروض يملايين الدولارات التي لم يكن بمستطاعه أعذها - مرة أعرى - بسدون تعاون عميقي من السلطات. لقد كفلت شركة غازبروم القروض له من مصارف الدولة ومن دائين غربين. وكانت فمة شكوك حول ما إذا كان غوزينسكي ينوي دفسع الملل أم لا - والأرجع أنه ما كان ليفعل.

على أي حال، إن تاريخ نشوء الإمبراطوريات الخاصة بالمتنف فين الآخرين كان غامضاً هو الآخر، إذ إن كل أفراد طبقة النخبة كانوا مدينين للدولة، ومعظم تلك الديون كانت مجزوحة بصفقات مشبوهة. لكن السلطات استمرت بالتعامل معهم بطريقة متساهلة، وسمحت لهم بارتكاب أعمال غير قانونية خطيرة من حين لآخر. والشركات التلفزيونية الأخرى كانت عليها ديون أكبر من ديون شسركة غوزينسكي - وخاصة ORT المملوكتين من الدولة - و لم تكسن تلسك الشركات تنوي تسديدها، لكن الضربة التي استهدفت غوزينسكي كانت فقسط الشركات انتهاكه نظام الولاء، ومحاولته بناء قوة سياسية خاصة به.

يُرجع أن بوتين نفسه هو من وافق على اعتقال غوزينسكي، أو أن ذلــك حصل بعلمه على أقل تقدير. لا بد أن بوتين كان ينظر إلى الاعتقال علـــى أنــه خطوة أساسية في سياق عملية إرساء النظام في روسيا، وبذلك أظهــر إلى كـــل المنتقدين المحتملين بأن هذا الرئيس لن يتهاون فيما يتعلق بالحفاظ على الاسستقرار السياسي، وفقاً لمنظوره. وهكذا ألفى بوتين واحداً من المحرَّمات الأساسية في نظام يلتسين، وهو حظر قمع كل من وسائل الإعلام المستقلة والطبقة المتنفذة.

لم يتوقع الكرملين أن يثير اعتقال غوزينسكي ردّة الفعل السلبية التي أثارها ين الليمقراطين الروس وعاصة في الغرب. من جهتهم، قام صحفيو مسديا - موست بتفنيد كل محاولات الكرملين لتبرير اعتقال غوزينسكي، فيما هب آخرون - السياسيون وأعضاء الطبقة المتنفذة - للدفاع عن غوزينسكي لسبب وجيه هسو ألهم رأوا في اعتقاله قديداً شخصياً لهم. ودخل الغرب على الخط مسرة أخسرى، حيث جعلت الصحافة الغربية من قصة قمع مؤسسة غوزينسكي الإعلامية قصتها الأولى، فيما أثار القادة الغربيون القضية مع المسؤولين في موسكو، الأمسر السذي أزعج بوتين أكثر من أي شيء آخر. وفي لهاية الأمر، أطلق سراح غوزينسكي، وأسقطت التهم التي ومجهت ضده، ولكن مؤقناً، كما تبين لاحقاً.

أوحت قضية غوزينسكي بأن السلطات ستستخدم مكتب النائب العسام لغايات سياسية. في الواقع، كان هذا المنصب في طور تحويله إلى كلب حراسة للنظام الجديد. وكان تحذير الرئيس واضحاً: ليس لأحد حصانة بعسد الآن، أسا النقاد فقد يجدون أنفسهم في موقف صعب للغاية. وهكذا وقفت المحاكم ومكتب النائب العام وراء بوتين، مستمدّان لإثبات أن معارضة النظام لا حسدوى يُرحسى منها.

وبالتدريج، بدأت ردّة الفعل داخل روسيا على الهجوم المستمر على مؤسسة غوزيسكي وعلى معظم العاملين في NTV بالتضاؤل. لقد قرّر الناس، الذين مسا زالوا يتذكرون الأزمنة السوفيتية غير البعيدة حداً، بأن لا يثيروا غضب السرئيس. "الله وحده يعلم ماذا يدور في ذهنه وإلى أي مدى يمكن أن يذهب إذا مسا شسعر بالتهديد – من الأفضل ألا نختير صوه"، ربما هذا ما كانوا يُفكرون به في أنفسهم. ورغم أن المراقبين في الغرب عبروا عن قلقهم نما يجري في روسسيا، إلا أن بسوتين كان يشعر، على ما يدو، بأن الحكومات الغربية ستتعامل معه تحت أية ظسروف. ربما كان محقاً في ذلك.

إذا كان بالإمكان اعتقال واحد من أغنى الرجال وأكثرهم نفوذاً في روسيا وإبقاؤه في السحن بمثل هذه السهولة، بدون محاكمة عادلة، فماذا بمكن أن يتوقسع الناس العاديون؟ تلك هي الرسالة الأعرى التي أرسلها بوتين. ولهذا السبب كان جمتمع حقوق الإنسان في روسيا يشعر بقلق حدّي إزاء ما يحدث. لكن هذه المحموعة الصغيرة في الواقع كان لها تأثير ضئيل في تلك الآونة، حيث كان يُنظَر إليها على ألها بحموعة من الرومانسيين والمثاليين ممن لا يمكن علاجهم. وبما أن الجزء الأعظم من تمويلهم كان يأتي من الغرب فقد كان ذلك سبباً لاعتبارهم مسن قبل الكثيرين من الشعب الروسي - كما كان يحدث أيام الاتحاد السوفياتي - أداة من أدوات النفوذ الغربي، الأمريكي بشكل خاص، الأمر الذي زاد من عزلتهم في روسيا.

على أي حال، سرعان ما كُشف عن السبب الحقيقي من وراء إطلاق سراح غوزينسكي: أرغم غوزينسكي على توقيع اتفاق مع ممثلين عن الدولة (شسكُلتهم موسسة تابعة لشركة غازبروم تتعامل مع قطاع الإعلام، غازبروم - ميديا) قايضوا موسسته مقابل حريته. وافق غوزينسكي على بيع ميديا - موسست، المكروهة مسن النظام الجديد، بشرط إسقاط التهم الموجهة ضده وإطلاق سسراحه. وقسد اتخسف الاتفاق شكل بروتوكول رسمي حيث وُقع من قبل ميخائيل ليسين، وزير الصحافة والتلفزيون والاتصالات العامة. بعبارة أخرى، لقد تصرفت اللولة كما يتعسرف أي مبنز دنيء. فلقد وضعت غوزينسكي في السحن، ثم أطلقت سسراحه بسدون عاكمة (إنما تحت غطاء موسسات قانونية) حالما وافق على التحلي عن موسسته المثيرة للمشاكل.

كل هذا لا علاقة له "بديكتاتورية القانون"، المبدأ الذي ابتكره الرئيس والذي قيل إنه يمثّل جوهر نظام حكمه، والذي كان يتطلّب، كما يُفترَض، طاعة صارمة للقانون. فقد جُرِّبت عمليات ابتزاز مشابحة باستخدام الوكالات الأمنية على عدة أشخاص متنفذين ونجح معظمها. تحذه الطريقة أرغم فلاديمير بوتانين – أحد الذين قدموا إلى روسيا مزادات "الأسهم مقابل القروض" (من خلالها حصل أفراد مسن طبقة النحبة، ممن ساعدوا على إعادة انتخاب يلتسين، على ممتلكات بنصف السعر) –

على دفع عدة ملايين من الدولارات كضرائب لنفادي التحقيق. كان بوتانين أول من شهد أساليب الترهيب التي اتبعتها الوكالات الأمنية. ومن ثم، سرعان ما تبعمه آخرون. كل طبقة النخبة في روسيا تلقّت أملاكاً بسبب علاقاقما مسع حاشمية يلتمين. والآن أصبح النظام الجديد يريد السيطرة عليها وعلى أنشطتها من حسلال ابتزاز الشركات الكبرى.

على أي حال، لم يكن غوزينسكي بالشخص الغي على الإطلاق، فلقد أطلع الشعب على شروط اتفاقه مع الكرملين، حالما أطلق سراحه. كما صرَّح بأنه وقَّع الاتفاق "تحت التهديد بالقتل" ولذلك فهو لم يكن ينوي الانصباع له. يمكننا أن نتخيّل، بالطبع، ردَّة الفعل في الكرملين على "غدر" غوزينسكي. بالرغم مسن أن كل ما كان يفعله، بساطة، ينسحم والقواعد التي وضعها الفريق الحاكم الجديسد. وهكذا دخل فريق بوتين وميديا حوست في معركة حديدة غير متكافئة، حيست أعلنت الدولة علناً، ممثلة بمكتب النائب العام والقضاة وأقسام الشرطة، حرباً على موسسة تلفزيونية خاصة. وكانت شبكة NTV الهدف الرئيس لهجوم الدولة (1).

في تلك الأثناء، بدأت المشاعر داخل المجتمع الروسي بالتغير، حيث أظهر هذه المرة قسم كبير من العالم السياسي الروسي وعدد قليل حداً من الصحفيين مساندةم للحكومة في مواجهة غوزينسكي، وكان لذلك عدة أسباب. فالكثيرون كانوا يجلون غوزينسكي مزعجاً من الناحية الشخصية، ويكرهون السدور السذي لعبته NTV خلال إدارة يلتسين، وخصوصاً تأثيرها الكبير علسي إعدادة انتحاب يلتسين في العام 1996. فيما شدد آخرون على الجانب المالي من المسراع بين ميديا - موست والحكومة، مصرين على ضرورة دفع الديون، ورافضين في الوقت نفسه رؤية الشق السياسي من الصراع.

وهناك آخرون حاولوا بكل ما استطاعوا من سبل إظهار ولائهم وإخلاصهم خوفاً من غضب السلطات. فعلى الرغم من أن الكثير من الصحفيين والسياسسيين كانوا يدركون أن قضية NTV كانت تتعلق بتدمير حرية الإعلام تحست غطاء الحديث حول دفع الديون، إلا أن القليل منهم كانوا يملكون الشجاعة للاعتسراف بذلك. ولكن، بالمقابل، كان بعض الناس منسزعجين فعلاً من المقاومة التي أبداها

فريق NTV. وهكذا نجد أن حادثة واحدة من الواقع السياسي الروسي أصبحت معياراً لمستوى فهم الناس في روسيا للقضايا السياسية، ولانستحامهم مع المسادئ الأخلاقية كذلك.



كان صيف العام 2000 صيف انتصار بالنسبة لبوتين. فهو نجح في كل شيء؛ ترويض الحكام، وإلهاء استقلالية بجلس الاتحاد، وأسكات الدوما، وإضعاف كسل الموسات السياسية الأخرى، وإرهاب الصحافة. صحيح أنسه لم يستجح مسع غوزينسكي - ليس بعد - ولكن، بعد انتصاراته في موسكو وفي الأقاليم، لم يعسد لله منافسين متنفذين له. فالمنتقدون التقليديون للسلطات مشل زعسيم يسابلوكو، غم منافسين متنفذين له. والمنتقلون التقليديون للسلطات مشل زعسيم يسابلوكو، غريغرري يافلينسكي، توقفوا عن إزعاج الكرملين، وذلك عندما رأوا بأن النساس كانوا سعداء تماماً ببوتين وألهم كانوا يستاؤون من أي انتقاد لتصرفاته. وهذا مساده عي يافلينسكي للإعلان عن قراره بتأجيل انتقاد بوتين إلى أن تتوضح سياسساته في قضايا أخرى.

لم يكن ثمة شيء على المسرح السياسي يهدَّد الرئيس. كان بسوتين القسوة الوحيدة الموجودة، المصدر الحقيقي الوحيد للسلطة والنفوذ. أما القوى والمجموعات والمؤسسات الأخرى فقد كانت تكتفي بالردِّ على ما يقوم به الرئيس بسدلاً مسن التصرف من تلقاء نفسها. وهكذا أصبح بوتين التحسيد الوحيد للحياة السيامسية والسلطة في روسيا، في غياب بقية الأطراف السياسية الهامشية، بل المثيرة للشفقة.

إنّ تبيان السبب هنا أمر مهم على أي حال، فبوتين لم يزد من سلطته إلى هذه الدرجة لأنه كان يجاهد لكي يبسط نفوذه على كل شيء - ربما كان يلتسبن بطبيعته أكثر ديكتاتورية منه - بل لأن المجتمع الروسي في تلك اللحظة كان تواقاً إلى البساطة والأمان. كان الناس متعبين إلى درجة أغسم لم يكونسوا يستطيعون التفكير، أو الاختيار من بين الخيارات التي كانت توفّرها لحم الديمقراطية والتعددية السياسيون لم وكانت قائمة السياسيون الموجودين قصيرة جداً، وهؤلاء السياسيون لم يكونوا أهلاً للنقة ولا لعقد الآمال عليهم. وفوق ذلك، ستمهم الناس أيضاً.

أولتك الذين - بالأمس فقط - كانوا يستحرون من بوتين، السياسي الذي لن يتمكن من الخروج من حيب يلتسين، باتوا الآن يعبرون عن قلقهم جما يمكسن أن تودي إليه سلطات الرئيس الواسعة. كان هنالك انطباع بدأ بالتشكل في الأذهان مفاده أن فلاديمير بوتين، بعد اكتسابه الثقة ومع معدلات القبول الشعبي العالية، كان يريد الإطاحة - بضربة واحدة - بكل المحموعات المتنفذة التي لم تكن تعتمد عليه، وتقوية مؤيدي سلطته الشخصية. ولو استمرت الأمور على هذا النحو، لما يقي منافس واحد في وحه بوتين خلال أربع سنوات، ولأصبحت مسالة إعسادة انتخابه مضمونة، ولما بقي أشخاص متنفذون آخرون في الساحة السياسية. وفي هذا الخصوص، قال أحد أفراد حاشية بوتين - اعتقد أنه الكسيندر فولوشين - كل ما نفعله ينجع. كم هو عمل...".

بالفعل، بالمقارنة مع سنوات يلتسين، كان عهد بوتين يصبح مملاً شيئاً فشيئاً. فالصراعات السياسية التي كانت تنشب على اللوام بين الأطراف المتنوعة على المسرح السياسين الروسي اختفت لهائياً، واحتفى معها تقريساً كلل اللاعبين المستقلين، تاركين مكافم للمتملقين والمتزلفين من حاشية السرئيس. وبذلك تغير أسلوب وعطاب السلطة، حيث أصبيحت الكلمات الآن إيجابية وموكّدة على الدوام، الأمر الذي يذكرنا بمرحلة ما قبل غورباتشوف. فإذا كانت الحياة السياسية تمني توليفة من الموسسات والمنظمات المستقلة، ووحسود قسوات المتأثير، وآليات لتنظيم الصراع، فإن هذا الوضع كان يمثل - إن لم نقل لهاية الحياة السياسية - انقراض العديد من محيزاقا، على أقل تقدير. و لم يختف الصراع على السياسية خسس، بل أصبح الصراع من أحل الحفاظ على السياطة أمسراً غسي ضروري. "لقد حاء لكي يقى فترة طويلة، وربما إلى الأبد"، وفقاً لتعبير بمسض طروري. "لقد حاء لكي يقى فترة طويلة، وربما إلى الأبد"، وفقاً لتعبير بمسض بالمناخ الجديد.

في تلك الأثناء، انصرف بوتين إلى الاهتمام بالشؤون الدولية، ذلك أن نشاطه على الساحة العالمية يمكن أن يعزّز من شرعيته، وعوامل الاعتراف بـــه، وكـــذلك قبوله كلاعب في النادي السياسي العالمي. وفي هذا الإطار، تحوّل لقـــاء بحموعــــة الدول الصناعية الثماني الذي انعقد في أوكيناوا صيف العام 2000 إلى حفلة ظهور له. لقد تحدّث بوتين في ذلك اللقاء بشكل حيد. وأعجب أعضاء النادي العسلمي علوته، وبساطته، وسلوكه العملي. على أي حال، لم يكن صعباً إرضاؤهم؛ فبعد يلتسين، أي رئيس روسي يمكنه الوقوف بدون مساعدة من أحد كسان سيعتبر ناحجاً. أجرى بوتين حواراً بنّاءً مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون حول مسالة انسحاب الأميركين المحتمل من معاهدة مكافحة الصواريخ البالستية التي وُقعت في العام 1972، مستشعراً عوافقة فرنسا وتفهم ألمانيا. لقد أظهر اللقساء ردّات فعسل بوتين السريعة ومقاربته التكنوفراطية الواقعية.

قبل ذلك الاجتماع كان بوتين قد ذهب إلى كوريا الشمالية، حيث سمع من قائدها، كيم حونغ إيل، اقتراحاً باستعداده لمقايضة البرنامج الكوري للصواريخ مقابل أموال غرية. وببراعة، عرض بوتين الفكرة في لقاء بحموعة الشمالي، لكن كيم غيَّر رأيه وسحب فكرته، عرجاً بذلك بوتين. كان على الزعيم الروسي الجديد أن يتعلّم بأن يكون حذراً ويتحنب أن يصبح ورقة في لعبة شخص آخر. إلا أن الإحراج مع كوريا الشمالية لم يغير الانطباع الإيجابي الذي أخذه قادة العالم عن الرئيس الروسي، حتى أن المستشار الألماني غيرهارد شرودر اقترح بأن لقساعات بحموعة الثماني القادمة ينبغي ألا تُعقد بدون بوتين. وهكذا، لم يستحح بوتين في الانضمام إلى النادي الدولي الأسمى وحسب، بل فعل ذلك بكرامة ووقار.

في الداخل، استمرّت استطلاعات الرأي في روسيا بإظهار شدهبية السزعيم الجديد غير المسبوقة. ففي تموز من العام 2000، وفقاً للمركز الروسسي الأبحسات الرأي العام VTsIOM، 73 بالمائة من الشعب الروسي كانوا راضين عسن بسوتين (17 بالمائة لم يكونوا راضين، و10 بالمائة فقط لم يعبّروا عن رأيهسم). وفي نفسس الوقت، وافق 60 بالمائة على تركيز كل السلطة في يد رجل واحد كطريقة لحسل مشاكل روسيا (27 بالمائة اليدوا استقلالية الموسسات المتفرعة عسن الحكومة، و13 بالمائة لم يدوا رأيهم). لقد ساند الشعب الروسي رئيسه الجديد، على أمل أن ينحم في التعامل مع الفوضى التي ورثها عن يلتسين، بالرغم من أن الشعب لم يكن على ثقة بأن أحداً سيتمكن من حلب النظام إلى بلده. وفي نفس الوقست، الفسق على ثقة بأن أحداً سيتمكن من حلب النظام إلى بلده. وفي نفس الوقست، الفسق

الناس على ألهم لم يكونوا يعرفون الزعيم الجديد، ولا برنامجه، بشكل جيد، حيث اعترف 59 بالمائة بأنحم يعرفون القليل عن بوتين، في حين أن 23 بالمائة فقط كانوا يشعرون بألهم يعرفون الكثير عنه، و10 بالماثة كانوا يحسّون بألهم يعرفون بالضبط أي نوع من القادة هو (2).

لكن الحياة السياسية الروسية لا تبقى عملة لوقت طويل. والشخص المسؤول عن إفساد مسيرة بوتين المظفرة كان شخصاً آخر من المنحكمين في وسائل الإعلام، وهو بوريس بويزوفسكي، سيد مكائد الكرملين لفترة طويلة من عهد يلتسين، وأحد أذكى السياسيين في روسيا. كان بيريزوفسكي في البداية بمثابة قسوة دافعة وراء مشروع ظهور بوتين، فلقد ساعد في تشكيله وتحضيره للمنصب الأعلى ف البلاد. لكنه أحسُّ بعد اعتقال غوزينسكي بأن صنيعه هذا سينقلب عليه وعلى بقية المتنفذين الذين لم يستطع بوتين السيطرة عليهم. كان بيريز وفسكي من أوالسل الذين أدركوا أن بوتين كان قد بدأ بالتصرف وفق خطة تقضى بتحرير نفسه مسن الجزء الكريه من حاشية يلتسين. ولمعرفته بأنه سيكون على رأس أولسك السذين سيُطرَدون من الكرملين، تحوَّل بيريزوفسكي إلى المعارضة حتى قبل أن يفتحوا لـــه الياب.

والمتنفذون الآخرون بدورهم شعروا بتغيّر بوتين، لكنهم استسلموا للأمر. غير أن الكاردينال القوى وسيد المدافعين عن الكرملين لم يكن ليقبل بأن يُرمسي بــه حارجاً دون كلمة شكر. لقد استنتج بيريزونسكي بأنه إذا لم يتمّ إيقساف عمليسة تحميع كل السلطات في يد بوتين وبسرعة، فلن يبقى أي مكان للأعبين السياسيين المكائد الأول في روسيا محاولة يائسة لإيقاف المحللة التي قد تودى إلى رمي البعض في سلة المهملات أو إلى الموت السياسي للبعض الآخر، وبالأخص هو نفسه. دون أن ننسى بالطبع أن يبريزوفسكي بملك إمبراطورية تحارية كان عليه إنقاذها⁽³⁾.

كان بيريزوفسكي أول من اعترض علناً على إصلاح بوتين لمجلس الاتحساد. وبعد ذلك بفترة قصيرة، بدأ بشنّ هجمات يومية على الرئيس باستخدام مصادره الإعلامية، وأولها الجرائد. وانتهى بذلك الصمت السياسي الذي كان سالداً. لقد بدأ شخص ما بانتقاد الزعيم الذي نجمع في تنويم الجميس مغناطيسساً، المؤيسدين والمنافسين على حد سواء. ومن ثم استقال بيريزوفسكي - من الرلمان في عموز اعتراضاً على سياسات بوتين. لربما بدت هذه الخطوة غبيسة في حينسها، لأن ممثلي البرلمان يتمتمون بحصانة من المقاضاة، إلا أن بيريزوفسكي لم يكن بالسياسسي الضبق الأفق أبداً.

بصفته منتقد بوتين الأول، أصبح بإمكان بويزوفسكي الآن الادعاء بأنه مدافع عن الديمقراطية (4). فإذا ما يسدأ بسوتين فحسأة بسالتحقيق في مسوامرات يويزوفسكي، فبإمكان هذا الأخير الإشارة إلى الاضطهاد الذي يعانيه مسن قبل النظام، فهذا سيضمن له مساندة بل وملحاً سياسياً في الفسرب إذا ما دعست النظام، فهذا سيحتاج إليه بأسرع مما يمكن أن يتوقع.

بالرغم من الأشياء الصحيحة التي قالها هذا الثري المتنفذ العنيد بخصوص الخطر الذي يتهدّد منحزات الديمقراطية، إلا أن أحداً في روسيا لم يكن يعتقد بأنه كان الذي يتهدّد منحزات الديمقراطية، إلا أن أحداً في روسيا لم يكن يعتقد بأنه كان عادوا يتذكّرون دوره في تطوّر نظام يلتسين، ولهذا السبب افترضوا بأن كل ما كان يريده هو إنقاذ نفسه وإميراطوريته. في الواقع، عندما تبيّن أن المنتقد الأساسي لبوتين هو بيريزوفسكي الذي يملك سحلاً مشبوهاً يفوق سحلات كل شخص آخر تقريباً، تعرّز موقع الرئيس عند الشعب. إذا كان بيريزوفسكي غير راض فهذا يعني أن بوتين يفعل الصواب، بمله البساطة فكر المواطنون الروس. يا للسخرية، عندما كان ثمة خطر حقيقي يهلد الحريات الديمقراطيسة في روسسيا، كان أشد المدافين عنها متنفذ ثري ماكر ذو سمعة مشبوهة.

على أي حال، لم يتوقف بويزوفسكي عند هذا الحدّ بــل حــاول إنشــاء "معارضة بنّاءة" لبوتين. وكان قد بدأ ينظر إلى معركته مع صديقه السابق بــوتين بصفتها معركة شخصية. لعله كان يريد إثبات أنه قادر على فعل المستحيل مــرة أحرى؛ كما في إعادة انتخاب يلتسين في العام 1996 وتنظيم ارتفاء بوتين نفسه إلى مــدة الحكم في العام 1999. غير أن حملته هذه بايت بالفشل رغم الدعاية الجيــدة التي رافقتها. في الموتمر الصحافي الذي دعا إليه من أحل الإعلان عن أهدافه، كــان بويزوفسكي عاطاً بأشخاص بدوا وكأتم قد احتروا بشــكل عشــوائي: ممشــل بويزوفسكي عاطاً بأشخاص بدوا وكأتم قد احتروا بشــكل عشــوائي: ممشــل

ثانوي، كاتب عمود في إحدى الصحف، مؤلف مسرحي، وكاتب يعيش في الحارج. كان أمراً يدعوا للشفقة فعلاً. يبدو أن مديّر المكاتد العظيم قد حانه الحظ هذه المرة، فلقد بدأ النائب العام التحقيق في صفقاته، عما دفعه إلى الهجسرة في النهاية(أ).

لقد أظهرت هزيمة بيريزوفسكي مدى تغير مزاج النخبة في روسيا. فلو حدث ما حدث قبل فترة قصيرة فقط، للبنى الجميع دعاء هذا الشرير. أما الآن فلم يعسد هنالك أحد يريد أن يصبح حليفاً لبوريس أبراموفيتش؛ رخم أن الجميع قد استمع له بكل تمذيب. ففي هذه الأيام، سيحصل المتنفلون على المسائدة والدعم فقط إذا كانوا يتصرفون وفقاً للأوامر الآتية من النظام. في روسيا بوتين، يبدو أنسه لسيس هنالك دور مستقل لطبقة النخبة أو المعارضة.

- ---

كان صراع عرَّاب الكرملين مع الرئيس بناية سلسلة مسن الأحسدات غسير السارة للكرملين الذي كان يبنو في ذلك الوقت بالذات بأنه غير قابل للهزيمة، وأن كل خططه قد أنجزت بنجاح. ففي 8 آب من العام 2000، وقع انفجار قسوي في العلويق السغلي الذي يمرّ من تحت ساحة بوشكين وسط موسكو مخلفاً العشرات من القتلى. تعذّب العديد منهم أياماً من جراء الحروق قبل موقم. أسب الانفحار إلى الانفصاليين الشيشانيين. ومرة أخرى، بدأت شرطة موسكو "عمليات خاصة" لا تنتهى لم تودً كالعادة إلى أية نتائج. وكتبت الصحف الروسية في هذا الشان: "علينا أن نعتاد على حقيقة أن أي شيء يمكن أن يحسدث في أي وقست وفي أي مكان". تلك كانت حالة المواطن الروسي العادي الذي كان يأسل بالاستقرار والحياة الهادئة مع جيء بوتين إلى السلطة، فإذا به يجد نفسه أمام حالات حديسة من انعدام الإحساس بالأمن.

كان الانفحار على الطريق الرئيسي في موسكو بحرد بداية مصائب روسسيا. ففي 12 آب غرقت النواصة النووية كورسسك ك – 141، مفخسرة الأسسطول الروسي، في بحر بارنتس خلال قيامها بتمارين بحرية، متحوّلة إلى قسير جمساعي لطاقمها البالغ عددهم 118. عُلم من ملاحظة كتبها أحد أفراد الطاقم، بعد انتشال حثته، بأن أفراد الطاقم عاشوا طوال فترة احتجازهم وهم يأملون بالمساعدة التي لم تصل. بعد وقوع الحادث، ظلّ أفراد الطاقم ينقرون إشارة المساعدة (SOS) عسدة ساعات إلى أن سمعها الغواصون الروس الذين تمكنوا في تحاية المطاف من اكتشاف مكان الغواصة. لكن المحاولات الروسية لإنقاذ الطاقم، التي بدأت متأخرة حسداً بعد الحادثة بستة أيام - وتُقدّت بطريقة غير محترفة إلى درجة بعيدة، باءت بالفشل. فالغواصون الروس لم يكونوا يمتلكون المعدات اللازمة لفتح بوابسات الغواصة. ياللسخرية، البلد الذي أطلق أقماراً صناعية، والذي امتلك صواريخ نووية يمكنسها تدمير العالم بأكمله لم يكن باستطاعته فتح بوابة إحدى غواصاته.

رعم أن الشعب الروسي كان قد بدأ يعتاد على خسارة الأرواح في الشيشان،
إلا أنه أحسرً بالصدمة من هول مأساة الغواصة كورسك. لعلنا جمعاً فكرنا في مسدى
فظاعة ذلك الموت البطيء الناتج عن الاختتاق، والنقر بإشسارة المساعدة، والإدراك
البطيء بأن النحدة لن تأتي. وصف أحد الأشخاص المأساة جيداً، مصوراً المشاعر السي
استحوذت على الأمة التي أصبحت في المهد القريب متحجرة القلب: "اليسوم كلنسا
نعيش في الكورسك، ونحن نعلم بأن ما من أحد سينقذنا". عندما كانت مسا تسزال
هنالك أخبار عن الغواصة، كان الناس يوققون كل ما كانوا يقومون به كسى يصفوا
بانباه إلى الراديو، أو يشاهدوا التلفاز محاولين إيجاد سبب يجعلهم يسأملون في أن هسلنا
البلد الذي كان ما يزال يعتبر نفسه عظهماً سيتمكن من إنقاذ بخارته.

كانت لحظة نادرة من الوحدة في لحظة وطنية من التحرّر النفسي والعاطفي. حتى أثناء الانقلاب العسكري الذي شهدته موسكو في آب من العسام 1991، لم يكن الشعب الروسي موحداً حقاً. صحيح أن الديمقراطيين وأبناء موسكو قسد ساندوا يلتسين، إلا أن بقية الشعب كان يراقب الأحداث بهدوء وكأن الأزمة التي كانت تعيشها بلادهم لا تعنيهم. أما الآن فالحزن جمع الشعب الروسي وصسهرهم في بوتقة واحدة. والمأساة لم توقظ فقط الإحساس بالتعاطف بل الإحساس بعجر السلطات الروسية أيضاً وبقلة أمان المواطن الروسي العادي في دولة لم تكترث يوماً بحياة الفرد فيها.

يمكن لبوتين أن يعتبر ذلك الأصبوع المأساوي أول إخفاق حدي له. فبينصا كان ما بقي من أفراد الطاقم ينقرون إشارة النحدة من الغواصة، كان السرئيس يمضي إجازته في منتجع سوتشي على شاطئ البحر الأسود. في ظروف كهذه، يتصرف الغادة الغربيون بطريقة مختلفة كلياً. ففي نفس الوقت تقريباً، قطع الرئيس كلينتون إجازته كي يلتقي مع رجال الإطفاء وهم يكافحون الحرائق الهائلة السي الدلعت في غرب الولايات المتحدة. وهذا ما فعله أيضاً المستشار الألماني شرودر حين قطع إجازته ليحضر مراسم تأيين الألمان الذي قضوا في حادثة تحطم طائرة كونكورد خارج باريس. أما بوتين فقد استمر في التمتع بعطلته. كان البلد بأكمله يراقب التلفاز ويشاهد رجالاً إداريين بوجوههم القلقة، إلى أن جاءت لقطات تطهر بوتين وهو يستقبل ضيوفه في سوتشي. كان يبدو هادئاً وواثقاً من نفسه في تقييمه (في شيرت) الأبيض وقد لوَّحت الشسمس بشرته. في تلك اللقطات قبيصه (لي شيرت) الأبيض وقد لوَّحت الشسمس بشرته. في تلك اللقطات الرسمت على عياه ابتسامة تنم عن الرضا سرعان ما حاول إخفاءها، إلا أن الكاموات كانت قد إلتقطنها لسوء حظه. كان بوتين محاطاً بمساعديه المتسسمين، وضيوف تبدو على وجوههم أمارات السعادة) لا بد أهم كانوا يتكلمون عن أمر مبعد وحبه لذيذة.

كانت تلك اللقطات التلفزيونية بمثابة الكارثة بالنسبة للرئيس. من المؤكد أنه لم يكن يعرف كيف يتصرّف، فهو لم يكن خبيراً بما يكفي لكي يمثل دوره علسي نحو مقنع. أو لعله لم يكن يشعر بخطورة الوضع، أو ربما لم يكن يهتم. لربما كسان يعتقد بأنه ينبغي أن يجافظ على هدوئه وثقته بنفسه، لا أن يبدو مشوشاً ومرتبكاً. في الحقيقة، لقد تبيّن فيما بعد بأن هذا بالضبط ما نصحه به مساعدوه.

في تلك الأتناء، قدَّم كبار الضباط المسكريين استقالتهم. واختفسى وزيسر الدفاع إيفور سيرجيف من الساحة. أما بقية المسؤولين فقد قسدُّموا جبسالاً مسن الأكاذيب في محاولة لتبرئة أنفسهم من مسؤوليتهم عن التأخير في تنظسيم عمليسة الإنقاذ وعن رفض المساعدة الأجنبية. كالعادة، كانوا ينتظرون أمراً من الأعلسى. ولكن الأمر لم يأت. كان الكرملين ما يزال يناقش مسألة ما إذا كان بإمكان القوة العظمى أن تطلب المساعدة الأجنبية. فالتقليد الروسي يقضى بأن يُسرَك النساس

يموتون ممدوء وأن يقى موقم سراً رسمياً. ولكن المشكلة في هذه الأيام أمسبحت تكمن في حقيقة أن الحفاظ على الأسرار في روسيا أصبح أمراً مستحيلاً.

كشف ألان هوسكينز، قائد بحموعة من الضباط في غواصة بريطانية، بأن القوات المسلحة الريطانية عرضت بأن تقلم المساعدة إلى الغواصة الروسية بعد الحادث مباشرة. لكن موسكو بقيت صامتة، ثم طلبت المساعدة عندما فات الأوان، وفي النهاية لجأت، لأسباب غير معلومة، إلى النرويجين. "من الواضح أن روسيا كانت تملك أسباباً سياسية معينة دفعتها إلى التردد بشأن إنقاذ طاقم الكورسك"، وفقاً لصحيفة أو بشتشايا غازينا نقلاً عن هو سكينز في 31 آب.

ثم اكتشف النرويجيون بأن الروس أخفوا حقيقة ظروف وتفاصيل العملية، مما أثار الشك بألهم لم يكونوا يريدون أن يبدو النرويجيون أكثر نجاحاً منهم. وفي إحدى المراحل، هدد نائب الأدميرال إينار سكورجين، الذي كان ينسس العملية لصالح الجانب النرويجي، بسحب غواصيه إذا ما استمر الروس بإعاقة جهودهم (استخدم هذه الكلمة بعينها) والتدخل بها. "كانست هنالسك فوضى تامية في المعلومات. كنا منسزعجين من ذلك الكمّ الكبير من المعلومات الخاطعة والحرقفة التي كانت تعرض سلامة غواصينا إلى الخطر"، كما نقلت صحيفة إينسوجي عسن الميانه في عددها الصادر في 29 آب. وفي اليوم التاسع بعسد الحادث، استطاع النرويجيون فتع بوابة الكورسك والولوج إلى داخلها، واكتشساف مقتسل جميسع طاقمها.

حين كانت السلطات الروسية تكذب، كانت عناوين الصحف - الروسية والغربية - تكشف بعض ملابسات المأساة. "إنَّ صمت بوتين في الأيسام الطويلسة الأولى يُظهر بأنه كان في حالة ارتباك، أو لعلها حيرة"، وفقساً لمقالسة تُشسرت في صحيفة التايمز اللندنية في 28 آب. من الواضع أن الرئيس الروسي فقد ثقته بنفسه، فقد تبيّن أن قضية الكورسك كانت أكثر مأساوية (بالنسبة إليه أيضاً) بمسا كسان يعتقد في البداية.

"لقد غرقت سمعة بوتين إلى القعر مع الغواصة كورســك"، كتــب أحـــد الصحفيين الروس. لقد بقي بوتين صامتاً لمدة أسبوع كامل بعد فقدان الغواصة. لا بد أنه لم يتوقع بأن البلد الذي اعتاد على خسارة الأرواح، والكسوارث الدائمة سيشعر بمثل هذا الألم على فقدان هذه الفواصة. علاوة على ذلك، فهو لم يكسن يعرف كيف يتصرّف مع هذا الألم. الرجل الذي كان منذ مدة قريبة بيدو شديد الثقة بنفسه، أصبح الآن لا يعرف ماذا يفعل، أي كلمسات سيسستخدم، كيسف سيخاطب أمّه.

ولكن، حالما تغلّب بوتين على ارتباكه، بدأ بالبحث عن أشسخاص ليضع المسؤولية عليهم. أثناء لقائه مع أقرباء الضحايا، أعلن بوتين بأن الطرفين اللذين تقع عليهما المسؤولية في المأساة هما طبقة النحبة والصحافة، الأخيرة دُفع لها مسن قبسل الأولى: "الصحف ووسائل أخرى دافعت عن مصالح أولئك الذين ساندوها (طبقة النحبة). إلهم يستفلون هذه المأساة بحماسة كي ينتقموا من السلطات... لماذا؟ لأننا انخعهم نحو الحائط، رداً على سرقة البلد، والجيش والبحرية"(6). كان واضحافة، السي الرئيس غاضب من الطريقة التي قُدم فيها سلوكه أثناء الكارثة في الصحافة، السي كان متأكداً من ألها ألعوبة بيد الأثرياء المتنفذين. وكان تصرفه هذا يشير إلى أنسه كان مهنم رؤية إخفاقات فريقه، وكأنه لم يشعر أبداً بأن الجيش والحكومة قسد تصرفا بطريقة تنم عن الاستخفاف والازدراء بحياة الناس. كان يركز على شسيء واحد: توئة السلطات.

البحث عن كبش فداء لم يقف عند ذلك الحدّ على أية حال. فقد أعلن نيكولاي باتروشيف، مدير جهاز الأمن الفدرالي وحليف مقرب من بوتين، عن وجود اثنين من الداغستان على متن الغواصة كورسك، ملمحاً إلى وجود خسيط يقود إلى إرهابيين من شمال القوقاز. ولاحقاً، كشفت السلطات عن أحد التفسيرات المحتملة للحادثة الذي يقول بإمكانية اصسطدام الكورسيك بغواصة أميركية أو بريطانية. ولكن، لم يقل أحد ماذا حصدل للغواصة الأخترى بعد الاصطدام؛ إذ لا بد ألها تضرّرت أيضاً.

لقد تفاجاً بوتين مرتين، أولاً بالكارثة بحدّ ذاقماً، ومن ثم بردّة فعل الصـــحافة والشعب الروسي. من الواضح أنه كان في حيرة من أمره. كل تصريحاته وتصرفاته أظهرت إخفاقه في إدراك أن روسيا قد أصبحت بلداً آخر، بلسداً اعتساد علسى الانفتاح، وأنه، بناءً على ذلك، كان يتوجّب عليه أن يقول الحقيقة. علاوة علسى ذلك، كان هنالك سبب آخر للحزن الشعبي على الكورسك: كانست الغواصة مفخرة الأسطول الروسي وطاقمها أفضل الطواقم، فإذا كانوا قد تعرّضوا لمثل تلك الكارثة و لم يستطع أحد إنقاذهم، فماذا يمكن للبقية في البلاد أن يتوقعوا؟ هذا ما كان يُفكّر به المواطن الروسي العادي. هذا هو سبب صدمتهم وقلقهم الشديدين. بالتأكيد لم يكن الرئيس مسؤولاً عن حادثة الفواصة. وهو لم يكن مسسؤولاً

بالتأكيد لم يكن الرئيس مسؤولاً عن حادثة الفواصة. وهو لم يكن مسسؤولاً عن حبن ونفاق مساعديه، إذ إن معظمهم عُيُّنوا من قبل سَلَفه. لكنه كان ملامسًا فقط لعدم قدرته على تخطي الطريقة السوفياتية في التعامل مع المآسي.

وقد ظهر بوتين أيضاً بأنه كان يفتقر إلى الحسّ بالمناسبة وفهسم العواطف، اللذين بدو فعال يتمكن أي قائد من الحكم بشكل ناجع؟ وعلى الأحسس في روسيا. فهو لم يكن يمتلك القدرة على الإحساس بالأسى مسن أحسل البحسارة المحتجزين أو الشعب الروسي المتالم، ولا الحنس السياسي لإدراك التغيرات - السيّ كانت بالكاد ملاحظة - في مزاج الشعب. أما يلتسين فقد كان يملك ذلك عليم، ولو كان مكان بوتين لعرف كيف يتصرف. لقد تصرّف بوتين كرحل عقلاني هادئ. ليس صحيحاً أنه كان رجلاً بلا قلب؛ فهو لم يستطع السيطرة على دموعه في حنازة صديقه وراعيه، محافظ سان بطرسبورغ أناتولي سوبتشاك. وتلك المموع، التي كانت دليلاً على إنسانيته، أكسبته تعاطف الملايين. لكنه هذه المرة لم يتمكن من الإحساس بمشاعر الشعب، أو ربما كان خاتفاً من أن يُنظر إلى إنسانيته على ألها ضعف. والأمر الآخر الذي ظهر أيضاً هو عدم خيرة وقلة حرفية فريقسه، على ألها ضعف. والأمر الآخر الذي ظهر أيضاً هو عدم خيرة وقلة حرفية فريقسه، الذي نصحه بعدم الردّ على أحداث آب والتنصل من تحمّل مسؤوليتها.

كان يمكن لهذه الفترة من آب من العام 2000 أن تكون نقطة تحوّل لبسوتين وروسيا، حيث كان يمقدورها أن تجمع بين النظام والشعب وقت الأزمة. التساريخ وحده سيخيرنا ماذا تعلَّم بوتين من آب. هل أيقظه ذلك الدوش البسارد وحملسه أكثر حساسية تجاه مشاكل بلده؟ أو أن هذه التحربة الماساوية مستحعله أقسسي وأكثر لامبالاة وازدراء بمشاعر الناس؟ في تشرين الثاني من العام 2000، بعد الوعد الذي قطعه بوتين برفع الغواصة، انتشل المزيد من الحثث. ووُجد بحوزة إحدى تلك الحثث المنتشلة رسالة تؤكد بأن الرحال ظلوا أحياء بعد الانفحار وأن موقم كان فظيماً وطويلاً، الأمر الذي تسبّب في صدمة البلاد مرة أخرى⁽⁷⁾.

رُفعت الغواصة في صيف العام 2001، بعد سنة من غرقها. كانست عمليسة الاستعادة مكلفة وخطرة لأبعد الحدود، إذ كانت الفواصة تحمل مفاعلاً ذريساً وطوريدات يمكن أن تنفجر في أية لحظة. ورغم أن الخيراء رأوا أن لا ضرورة لرفع الغواصة، إلا أن بوتين كان قد وعد شعبه برفعها مهما كلف الثمن. كان مسديناً بللك لعائلات الضحايا. على أي حال، لقد أدّى رفع الغواصة إلى التأكد مسن سبب الحادثة، وهو انفحار طوريد معطوب. والمثير للاستغراب في الأمر هسو أن قادة الأسطول كانوا يعلمون بنوع المشكلة التي كانت الطوريدات تعاني منها منذ وقت طويل ولكنهم مع ذلك أمروا باشتراك الكورسك في المناورات. يسدو أن أجهزة السلطة في روسيا ما بعد الشيوعية لم تكن قد تمكنت بعد من التخلص مسن أجهزة السلطة في روسيا ما بعد الشيوعية لم تكن قد تمكنت بعد من التخلص مسن

أحيراً، أقال بوتين قادة الأسطول البحري، لكنه، مرة أحرى، فعل ذلك على الطريقة السوفياتية، أي بدون إعلام الشعب بالسبب الحقيقي وراء الإقالات. على العريقة السوفياتية، أي بدون إعلام الشعب بالسبب الحقيقي وراء الإقالات. على أي حال، لم تغير هذه الحطوة من الوضع السيئ للأسطول الروسي، لأنسه بدوث إحراء عملية تحديث وإعادة هيكلة شاملة لن يكون هناك ضمان بعسدم حسوث كارثة جديدة. ولكن، قبل البدء بإعادة إصلاح أسطولها البحري، كان يتوجسب على روسيا أن تقرر ما إذا كانت بحاجة للمحافظة على مثل هذا الأسطول الضخم الذي يرمز إلى وضع روسيا كقوة عظمى وإلى طموحالها الإمبراطورية الواسسعة ما دامت لا تستطيع ضمان سلامة بحاراها.

أثار آب حفيظة الصحفيين والمتقفين فأطلقوا العنان لتعليقاقم اللاذعة. "مــن زاوية ما، تعني الكورسك فحاية عصر التصنيع الروسي. لقد استُهلكت روســـيا إلى درجة بعيدة، أخلاقياً ومادياً. فهي استنفدت كل الموارد السوفياتية و لم تبتكـــر أي شيء حديد"، وفقاً لمقالة تُشرت في صحيفة فيدوموستي في 28 آب. كما كتـــب

بوريس فاسيلييف، وهو كاتب كان في السابق سالق اختبار على إحدى الدبابات السوفياتية، في صحيفة أو بشتشايا غازيتا في عددها الصادر في 31 آب، قاللاً: "المعيب في هذه الحادثة [الكورسك] هي أكاذيب الرئيس وسلوكه اللاأخلاقسي. بوتين لا يعرف كيف يكون زعيماً. إنه بريجينيف الثاني. لكنه غاضب من الداخل، بعكس بريجينيف. ذلك هو الفرق الوحيد".

ولم تكن مشاعر الجيش أحسن من مشاعر الصحفيين والمثقفين. "إنني أخشى أن تكون السفينة أغلى ثمناً من أرواح البشر. وماذا يمكننا أن نفهم من حقيقة أن اللائع بحموعة الإنقاذ لم تصل إلا في اليوم السادس بعد الكارثة؟ لم أكن لأريد أن يتم إنقاذي بمذه الطريقة"، صرَّح الجنرال يافنيني بودكولزين، قائد مظلي سابق، في صحيفة كوميرسانت -فلاست. في الحقيقة، إن ما قاله بودكولزين علناً هو ما كان يجول في عاطر جميع الجنود والضباط في القوات المسلحة الروسية.

بعد كارثة الكورسك، ازدادت الشكوك المتعلقة بقدرة الحكومة على تحسين الوضع في البلد. فبحسب استطلاع للرأي أحرته VTSIOM في شهر أياسول، 29 بالمائة فقط من المشتركين عبَّروا عن تفاؤلهم بالمستقبل، في حين شسعر 34 بالمائسة منهم بأن الحياة لن تحسّن في روسيا. وهذا كان يمثابة حكم على النظام الجديد.

في آب من العام 2000، بدت العلاقة بين بوتين والمحتمع بأنما على وشك أن تصبح أقل حرارة. ففي تموز، قبل حادثة الغواصة، كان بوتين قد حصل على معدل قبول نسبته 73 بالمائة (17 بالمائة فقط لم يستحسنوا أداءه، و 10 بالمائة لم يكن لهم رأي). وفي آب، بعد الحادثة، أعلن 62 بالمائة من المشستركين استحسالهم لأداء بوتين (28 بالمائة لم يستحسنوا أداءه، و 10 بالمائة أيضاً بلا رأي). وبذلك حسسر الرئيس كمية مهمة من اللحم، وحصل في المقابل على عدد كبور مسن المنتقسدين. ثلاثة وأربعون بالمائة من المواطنين الروس شعروا بأن الرئيس تعسر ف "بشسر ف ومسوولية" أثناء حادثة الكورسك، في حين اعتقد 42 بالمائة منهم بالمكس. ومسع أن هذه المعدلات يمكن أن تدل على أن بوثين ليس لديه ما يقلقه، إلا أن هذا التغير كان مؤشراً على أن المحتمع بصغة عامة لم يكن واقعاً في حب زعيمه؛ على الأقسل في تلك المحتلة.

في آب نفسه، عندما كانت المشاعر ما تزال مضطرمة بسبب كارثة الفواصة، اندلع حريق في رمز آخر من رموز العظمة السوفياتية، أبسراج أوسستانكينو التلفزيونية، التي كانت تخدم كل القنوات التلفزيونية الوطنية. هذه الشاشسات التلفزيونية المعتمة أعطت الانطباع بأن روسيا كانت تدخل عصر الكوارث. كانت الموارد التقنية والبشرية تنفد، وكان ينبغي القيام بشيء ما على وجه السرعة.

لقد أظهر حريق أوستانكينو بشكل واضع العيوب في "حزام التحويسل" في نظام حكم بوتين. فطوال ثلاث ساعات، لم يتمكن رحال الإطفاء من البدء في إحماد الحريق لأنه لم يكن هنالك أحد - لا محافظ موسكو، ولا كبير المستشسارين الرئاسيين، ولا وزير الطاقة، ولا رئيس الوزراء - يريد أن يتحمل مسؤولية قطيع الكهرباء. وحده الرئيس بوتين يمكنه فعل ذلك. هذا بالضبط ما حصل أثناء عمليات إنقاذ الكورسك حيث لم يقم القادة المسكريون بأي شيء على الإطلاق، بم انتظروا حق بأتيهم الأمر من الأعلى. لقد أنتج تركيز السلطة في قمة الهرم نفوراً من أحذ المبادرة، ورغبة بالتنصل من المسؤولية في كل مستويات الإدارة.

النكات السياسية خير مؤشر على الحالة النفسية للمحتمع الروسسي. إلسيكم طُرفتان مجزئتان من العام 2000:

الطرفة الأولى: كان يجب على أوستانكينو أن تحترى. لأن حهاز الأمن الفدرالي أضاع نسخته من بحيرة البحمة. (لموسيقى تشايكوفسكي الحناصة بباليه بحيرة البحمة معان سخاصة للحمهور الروسي - أثناء الانقلاب على الديمقراطية الذي وقع في آب من العام 1991، كل المحلات الإذاعية والتلفزيونية أذاعتها).

الطرفة الثانية: أعلنت واشنطن رسمياً عدم وحود أية أبسراج أميركيسة قرب أوستانكينو. (كانت هذه النكتة رداً على البيانات الرسمية للجيش الروسي التي أفادت بأن الكورسك قد غرقت نتيجة اصطدام مسع غواصة غرية).

إن ظهور مثل هذه النكات يوحى بأن روسيا كانت تعود، حزلياً على الأقل،

إلى ما كانت عليه في العهود الشيوعية؛ فلقد كان هنالك عدد قليل حداً من الكات السياسية بين المتقفين خصوصاً الدكات السياسية بين المتقفين خصوصاً دلالة على استيائهم من الوضع، ومن السلطات، وعلى خوفهم من التعبير عن استيائهم هذا بشكل علني. لطالما كانت النكات السياسية باعتبارها شبكلاً من أشكال التفاعل مع الحياة السياسية والسلطة في روسيا عمل تعبيراً عن عقلية مزوجة: فهي من جهة امتعاض من السياسة، ومن جهة أخرى محاولة لتخطي الحواجز؛ ضرباً من غريزة البقاء.

كان بعض المراقبين يأملون بأن تقف روسيا بعد الكورسك، وتجفف دموعها، وتجعل الكرملين يدفع الثمن؛ الأمر الذي كان سيخفض معدلات قبول بوتين إلى درجة كبيرة. غير ألها لم تنخفض، في حقيقة الأمر. ففي تحايد المطاف، غفر الكثيرون لبوتين تعامله السيئ مع الأزمة، باستثناء أقارب الضحايا. كان المراقبون، الكثيرون لبوتين تعامله السيئ مع الأزمة، باستثناء أقارب الضحايا. كان المراقبون، عن فيهم المراقبين الروس، مندهشين لاستعداد الناس للتساهل مسع السلطات. "حسنا، هذه الأمور تحصل"، قال العديد من المواطنين، بنوع مسن القلرية "لا يمكنك إرجاع الموتى". وفي هذا الشأن، كتبت الصحافة بأن السلطات أعطيست ترخيصاً بارتكاب أخطاء حديدة. من الواضح أننا لم نعط الكثير من الأهميسة إلى عامل الإرهاق في المجتمع الروسي، الذي يؤدي بالمواطن إلى القبول السلبي بكل ما تحسرت عامل الإرهاق في المحتمع الروسي، الذي يؤدي بالمواطن إلى القبول السلبي بكل ما تحسرت الاستياء من الحكومة لتحل علها مشاعر أخرى، كان الغالب فيها شسعور مطبق بالحزن ناتج عن اليأس والقدرية. "ما علينا إلا أن نصير"، قال بعض المواطنين مطبق بالحزن ناتج عن اليأس والقدرية. "ما علينا إلا أن نصير"، قال بعض المواطنين

ولكن، ثمة استناحات معينة تم استخلاصها مما سبق، حيث رأت المجموعات المتنفذة التي كانت تراقب عن كثب ما يحصل بأن الرئيس لم يكن قوياً كما كان يريك لنفسه أن يظهر، وأنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الأزمات، وأنه يمكن أن يصبح ضعيفاً ومشوشاً. بعد مأساة الكورسك، شاعت نكتة في موسكو تقول بأن نظام المحديد السلطة القدم في عهد يلتمين كان يستند إلى رئيس غائب، في حين أن النظام الجديمة يستند إلى رئيس عائب، يكون الرئيس القوي غائباً.

لا بد أن زعيم الكرملين كان يعرف مشاكله، لأنه بدأ في أيلول بالعمل على تلميع صورته على نحو محموم. كان يقابل الناس، ويجول أطراف البلاد المترامية بلا كلل - كأنه كان يريد إرغام روسيا على نسيان لحظات ضعفه - ويقوم بأعسال معينة مستهدفاً بما الناس العاديين. ففي رحلة إلى مدينة سامارا الواقعة على لهسر الفولغا، زار بوتين أسرة محلية مدقعة الفقر (مع طاقم تصوير تلفزيوني) وأكل ببهسة واضحة الفطر المنقوع من المرطبان مباشرة. وهكذا استمتع المواطنون السروس بساطة الرئيس وثقته بالآخرين، حين حلَّ ضيفاً على امرأة غريبة وأكل مما توافر في بيها من طعام. ولكن، فقط أولئك المقربون من رجال الأمن الحسيطين بسالرئيس يعرفون العمل الذي يجب أن تقوم به الحدمة السرية قبل أن يحلَّ بوتين "ضيفاً" على أحد البيوت ويأكل هناك.

على أي حال، لقد قام العاملون على تحسين صورة الرئيس بعملهم على خير وحد. ففي أيلول وتشرين الأول من العام 2000، استعاد بوتين معدلات قبوله وبدأ من حديد بالظهور بمظهر الواثق من نفسه، ظاهرياً على الأقل. وسرعان ما توضّح القرار الأساسي الذي اتتحده بعد آب: عليه أن يسحق المتقدين الإعلاميين الذي أساؤوا إليه كثيراً في موضوع الكورسك. وذلك يعني بالطبع اتخاذ إحراءات صارمة ضد المجموعات الإعلامية الضخمة؛ وأولها مجموعة غوزينسكي.

بحلول نهاية العام 2000، كانت روسيا قد عادت إلى أساليبها القديمة في الحبساة، وكأن فترة الانقطاع التي دامت عشر سنوات خلال عهد يلتسسين لم تحسدث أبسلاً. خلال سنوات يلتسين، لم تكن صور الرئيس منتشرة على نطاق واسع. أما الآن فقسل تغير الوضع، حيث أمر وزير اللغاع كل القواعد العسكرية بشراء صور لفلاديمبر بوتين على الفور. وهذا ما فعله أيضاً جهاز الدولة حين حعل من صورة الرئيس ليس فقسط حزياً أساسياً من أثاث المكاتب بل رمزاً للولاء الشخصي والإيمان بالمركزية. في تلسك الفترة، وجد الفنانون ما بدا أنه عملاً بدوام كامل. في البداية لم يكونوا يعرفون كيسف يصورون الرئيس الجديد، لعدم وجود توجيهات عددة بخصوص هسذا الأمسر مسن الأعلى. ولكن، بعد ذلك، تحدّد حجم الصورة للاستخدام الرسمي بـــ 2×3 متراً؛ علماً أن حجم الصور المخصصة للمكاتب يكون أصغر إلى حدًّ ما.

وبشكل تدريجي أصبح الهوس ببوتين جزءاً من الحياة الروسية. قُدَّمت كتسب مدرسية حديدة في مدارس سان بطرسبورغ، مسقط رأس بوتين، تصف طفولـــة بوتين الريفي الصغير. كان ذلك يعني شيئاً للناس الذي تعلموا القراءة بواسطة كتب عن طفولة الريفي أوليانوف (لينين). وسرعان ما ستقوم المدن الأخسرى بسنفس الشيء ولكن بمبادرات خاصة كما. ففي بعض الأماكن، افتتح مطعم "بــوتين"، وفي أماكن أخرى، أصبح الكرسي والطاولة التي استخدمهما السرئيس في إحــدى المناسبات قطعتين قيمتين في المتحف المجلي. ربما لم يكسن بــوتين يعـرف كهــنه المبادرات، فهي قد تكون من بنات أفكار بعض التابعين المخلصين. لكسن بعــض الناس وإن كانوا قلة - سمعوا الدعوة وبدأوا العمل على استعادة الماضي.

وعلى المسرح السياسي، حاول الممثلون الجدد في الإنتاج الجديد الذي يخرجه الكرملين معرفة الدور أو الأدوار التي سيلعبوها. فعندما أصبح واضحاً أن المحلس الأعلى في الولمان، أي بحلس الاتحاد، لم يعد مؤسسة حدية، بسدأت المساورات بخصوص ما سيفعله بحلس الدولة الذي أسبه بوتين في أيلول 2000 كحائرة ترضية لزعماء الاقاليم، أو السيناتورات، كما كانوا يدعون أنفسهم. أولك الزعماء كانوا يأملون بأن يُمنّح بحلس الدولة نفس الوظائف الأساسية التي كان يتمتّع مما المحلسس الأعلى، بل وبأن يصبح دستورياً أيضاً.

حينما كان السيناتورات يعدون خططهم الطموحة، أصدر بوتين مرسومه المتعلق بمحلس الدولة، الذي أوضح ماذا يريده أن يكون: هيئة استشارية تجتمع بناء على طلب الرئيس وتناقش ما يعد فريق الرئيس. أما بالنسبة لآمالهم بأن يمسنح الرئيس مجلس الاتحاد الحق بتعيين النائب العام، وقضاة المحاكم العليا، ويرفسع مسن مكانته عموماً فقد خابت. وبعد أن جعمل بحلس الاتحاد لعبة بيد السرئيس، كسان المعير نفسه ينتظر بقية المؤسسات السياسية.

في جلسته الأولى التي انعقدت في تشرين الثاني من العام 2000، اقترح بسوتين على أعضاء مجلس الاتحاد أن يوافقوا على النشيد الوطني الروسي الجديسد. كسان واضحاً أن الكرملين يريد أن تنشغل الهيئة الغرَّة بأمر ما. لعلَّ مناقشة النشيد بسدا مهزلة بالنسبة لأولئك الزعماء، الذين كانوا يحظون بسلطة مطلقسة في أقساليمهم، لكنهم حافظوا على هدوئهم على أي حال. وبدلاً من مناقشة استراتيحية روسيا، بدأوا بتحرير بعض أبيات الشعر.

في الواقع، كان لديهم دافع قوي لفعل ذلك، فالجميع كانوا يعلمسون بأن الكرملين سيتخلّص من كل زعماء الأقاليم الذين لا يُظهرون ولاعهسم لبوتين. والعديد منهم كانوا يواجهون إعادة انتخاهم كحكام لأقاليمهم، أي أن يسوم الحساب كان يقترب. ولكن، حتى أولئك الذين حاولوا إرضاء الزعيم لم يكونسوا واثقين من حصوهم على مساندة الكرملين.

كان من المقرَّر إجراء انتخابات حكام الأقاليم إما في العام 2000 أو 2001 في أوابة نصف الجمهوريات والكيانات الإقليمية. في بعض الأقاليم، حثَّ الكرملين الحكام على الاستقالة "طرعاً"، باستخدام مكتب النائب العام، أو بتحميع بعسض المعلومات المسيئة لسمعتهم. يمكنك أن تجد دائماً شيئاً على الحكام. كما سرت إشاعة تقول بأن منافس بوتين الانتخابي يوري لوجكوف كان يفكر في الاسستقالة من منصبه كمحافظ لموسكو "لأسباب صحية"، مقابل ضمان عدم مقاضاته.

بعد المتنفذ الإعلامي غوزينسكي، حاء الدور على حاكم كورسك ألكسندر راتسكوي، الذي كان راتسكوي بملسك سيرة سياسية حافلة، فهو الذي قاد التمرد على يلتسين في العسام 1993، ودحسل السيحن من حراء ذلك أيضاً. وبعد ذلك ظهر من حديد كحساكم لكورسسك، الإقليم الذي سُميت باسمه الغواصة السيئة الحظ. لم يكن هنالك أحد يشسك في أن راتسكوي، الذي وضع أفراداً من عائلته في وظائف هينة وعاليسة الأحسر، كسان فاسداً. لكن الكرملين لم يكن يدري كيف يتخلص منه. ولهذا السبب اختار فريق بوتين الطريقة الأبسط: قدَّم الكرملين مرشحه الخاص لمنصب الحاكم (من الأجهزة الأبسط: قدَّم الكرملين مرشحه الخاص لمنصب الحاكم (من الأجهزة الأبسط: من واحسد مسن الخاكم (من الأجهزة الأبنعاب.

ورغم أن الشريحة المنهقراطية من المجتمع لم تكن تكنُّ شعوراً دافقاً جداً تحساه راتسكوي، إلا أن الطريقة التي أبعد بواسطتها من اللعبة أزعجست النساس. "في الجوهر، إنه الأمر الصائب، ولكن من حيث الشكل، إنه استهزاء بالمنهقراطيسة"، بحسب المراقبين. ومع ذلك، لم ينحز الكرملين المهمة على أكمل وحه. فعلى الرغم من استبعاد راتسكوي من الاقتراع، إلا أن مرشح الكرملين لم يتمكن من الفوز في كورسك، وفوق ذلك كان المنتصر شيوعياً، ومعادياً للسامية، وعلى الأغلب لصلاً أيضاً.

سرعان ما أصبح التحلّص من الأشعاص السذين لم يناسبوا الكرماين في الأقاليم الأعرى - باستعدام قوات الأمن والتهديد بالسعن - سياسة شائمة لدى الكرماين. ظاهرياً، كان بالإمكان تشبيه عملية تنظيف الحكومات الإقليمية بألها عودة إلى الشرعية لأن العديد من الحكام الذين استُهدفوا من قبل فريق بوتين كانوا التي أتبعها الكرملين في الأقاليم لم تكن لها صلة لا من قريب ولا من بعيد بحكم التي أتبعها الكرملين في الأقاليم لم تكن لها صلة لا من قريب ولا من بعيد بحكم القانون، إذ إن موسكو كانت تستخدم المحاكم والنواب العامين للمنفعة السياسية فقط، وذلك من أحل دعم المخلصين للكرملين، وإضعاف السياسيين المستقلين وخصوم الكرملين. حتى أن الكرملين كان يملك قائمة بالزعماء الذين سيتم تشويه سعتهم، والتفاصيل المتعلقة بالطريقة والتوقيت، وأصاء الذين سيصدرون الأحكم عميمهم، والتفاصيل المتعلقة بالطريقة والتوقيت، وأسماء الذين سيصدرون الأحكم عليهم في المحاكم. في بعض الحالات، قامت المحاكم بالفعل بالتحلص من سياسيين فاسدين، بيد ألها، في حالات أخرى، تحرّكت بضغط من موسكو ضسد خصوم الكرملين السياسين. وهكذا بدأ النظام القضائي بالتحوّل إلى ذيل للسلطة التنفيذية، كما كان في الحقبة السوفياتية.

غير أن الكرملين لم يكن في واقع الأمر يريد تطهير الأقاليم تطهيراً كاملاً؛ فهو ضمنياً كان مستعداً مسبقاً لاستثناف عادة عقد الصفقات، التي أرساها يلتسين من قبل. فبحسب القانون الروسي، لم يكن يُسمّع للرئيس والحكام بالبقاء على سسلة الحكم إلا لفترتين دستوريتين فقط. إلا أن الدوما، بموافقة بوتين وبضغط من الفريق الرئاسي، أقرّ تعديلاً بمنح 26 حاكماً ورؤساء جمهوريات الحق بفترة ثالثة. وشمسل هذا العدد متنفذين إقليميين مثل مينتيمير شايميف، رئيس جمهورية تاتارستان. لكن نسزول الكرملين بمرشح له في أحد الأقاليم كان يعني الدخول في منافسة يمكن أن يفوز بما الشخص الخطأ. والمنافسة، إضافة إلى ذلك، كانت تنطوي على توتر، وهو

ما لم يكن يحبّه بوتين. لهذا السبب، وافق الكرملين – طلباً لراحة البـــال – علــــى حكم غير محدود، ولو أنه غير شرعي، للعائلات الإقليمية. لاحقاً، صادقت المحكمة الدستورية على إعطاء الزعماء المحليين الحق بإعادة انتخاهم مرة ثالثة وحتى رابعــــة، الأمر الذي ضمن الحفاظ على أنظمة شبه إقطاعية في المقاطعات الروسية.

وتاتارستان مثال واضح على الطريقة التي كانت تحكم بما الأنظسة المحلية وكيفية تعاولها مع موسكو. خلال التسعينيات، نجح الشيوعي السوفياتي الخبير شايميف في القضاء على تحديد المحمومات القومية، وأصبح رئيساً لتاتارستان، وأسس حكماً مستقراً نسبياً في الجمهورية. كانست عائلت الحاكمة المطلقسة للحمهورية، حيث كانت تسطر على الموارد الأساسية فيها كالنفط والغاز، مسن يين أشياء أخرى. أما المعارضة فقد قُمعت بوحشية. وأما الفساد فحدث ولا حرج. لكن خان شايميف منح الحكومة المركزية أهم ما كانت تحتاجه، هدوءاً ظاهرياً ودعماً خلال الانتخابات.

في البداية، طلب بوتين من السادة الإقطاعين في الأقاليم، وخاصة شايميف ومرتضى رحيموف (رئيس جمهورية روسية أخرى، هي باشكورتوستان، أسسس حكماً شبيهاً بالحكم الذي أسسه شايميف)، بأن يخففوا من شهيتهم وأن يجعلوا دساتيرهم منسجمة مع الدستور الفدرائي. تنمّر اللوردات وقاوموا في البداية، حتى ألم وجهوا قديدات ناعمة إلى المركز، لكنهم استسلموا في نحاية المطاف. صحيع أن عليفة يلتسين قد تمكن من تحقيق قدر أكر مسن النظام في الأقساليم، إلا أن المؤودات الإقطاعين كانوا هم الحكام الفعلين هناك، وليس موسكو. من الواضح أن بوتين كان يخشى من التعدي على مصالح الزمر الإقطاعية التي تحكم معظم الأناليم، وخاصة لأنه كان يخطط للترشح ثانية في العام 2004، ولهذا السبب فهو كان بحاحة إلى دعم الجمهوريات الوطنية والأقاليم المسيطر عليها، السبي صسوئت بالضبط كما أراد لها الزعيم أن تصوّت. بعبارة أخرى، كان الرئيس الجديد، كمسا الفنيم، بحاحة إلى زعماء أقوياء يعرفون كيف يحصون الأصوات في مقاطعاتم.

عندما شرع بوتين في بناء نظام حكمه الرئاسي المطلق، توصّل إلى إدراك أنسه لن يتمكن من البقاء أبداً ما لم يحافظ على سياسة يلتسين المتمثلة في عقد الصفقات في الأقاليم. والثمن هو تحمُّل استبداد تلك الأقاليم وفسادها. في الواقع، لم تكن هنالك بدائل منظمة للزمر الإقليمية، فتحلال سنوات يلتسين، وبعد فترة قصيرة من الصراع السياسي، دانت السلطة في الأقاليم إلى زمر تحيمن عليها لُخب باقية مسن العهود السوفياتية ذات روابط إحرامية. وبالتدريج، بدا بوتين وكأنه كان يخشى من إثارة أي صراع مع المجموعات الحاكمة في الأقاليم(8).

بالنسبة لانتخابات الإقليمية التي حرت في العام 2000، كانت الأقاليم ما تزال ميادين للصراع بين الشيوعيين و"حزب السلطة" التابع للكرملين. فيما لم تكسن الحركات السياسية الأخرى تملك أية فرصة للفوز هناك. تلك كانت نتيحة واحدة لسنوات يلتسين العشر: كان الصراع على السلطة محلياً ينحصر بسين النحب السوفياتية القليمة والنحب الجديدة. وإذا ما ألقينا نظرة أكثر قرباً فإننا سنكتشف أن النحب الجديدة حرجت من رحم النحب السوفياتية القليمة. كانت الفوارق بين المحكام الشيوعيين والحكام المحلصين للكرملين ضئيلة جداً. اثنان من الأقاليم اختارا الحرب الشيشانية الثانية، وانتحب في أوليانوفسك مسقط رأس لينين، على المرب الفولفاء والأدميرال فلاديمير شامانوف، السذي قاتسل في الفولفاء والأدميرال فلاديمير ييفيروف الذي انتحب في كالينينفرد على بحر البلطيق. ولكن، كان ما يزال الوقت مبكراً ليووز اتجاه يدل على يحيء الجيش إلى السلطة، ولكن، كان ما فرال الوقت مبكراً ليووز اتجاه يدل على يحيء الجيش إلى السلطة، إذ سرعان ما أصبح واضحاً أن الحكام الذين يملكون خلفية عسكرية - مشل الجنرال الكسندر ليبيد في كرانويارسك، وشيقيةه الكولونوسل الكسي ليبيسد تشاخاسيا، وشامانوف في أوليانوفسك - كانوا أبعد من أن يكونوا مدراء أكفاء.

في تشوكوتكا - في شمال روسيا النائي قليل السكان - كان الحاكم الجديسة هو رومان أبراموفيتش، واحد من النحبة الحاكمة في عهد يلتسين، الذي فاز بأغلبية كبيرة من الأصوات، التي حصل عليها عن طريق رشوة الناحبين بالهدايا. مع ثروته التي تبلغ مليارات الدولارات، كان باستطاعة هذا الشاب أن يحسول تشسوكوتكا الغنية بالموارد إلى كلوندايك [منطقة في كندا اشتهرت بالتنقيب عسن السنهب] روسية. عندما سئل، قال أبراموفيتش: "أنا أشعر بالأسف حيسال السسيبريين". لم يكن يبدو على الإطلاق. لكنه مع ذلك

- مما يدعو للسخرية - قد يمثل تطوراً ملحوظاً إذا ما قسيس بالحساكم السسابق، الكسند نازاروف، وهو تابع سوفياتي سطحي وفاسد أوصل المنطقة إلى حالسة مزرية تماماً، والشعب إلى حافة الجوع. على الأقل كان أبراموفيتش يقوم بشيء ما لتشوكوتكا - على سبيل المثال، أرسل كل أطفال المنطقة في عطلة علسى شساطئ البحر في الجنوب على نفقته الخاصة. صحيح أن أبراموفيتش كان يستطيع إنفساق عدة ملايين من الدولارات من الأموال التي نجع في اقتراضها مسن الدولسة، إلا أن سكان تشوكوتكا، الذين تعبوا من فساد وعبث الإدارة السابقة، كانوا يشسعرون بالإمتنان له بالرغم من ذلك.

أن يبحث أحد العارفين ببواطن الأمور في الكرملين عن مكان له في أقاصي روسيا فلك أمر له دلالة هامة: إن أصحاب "مشروع بوتين" بالأمس لم يكونوا يشعرون بالراحة في الكرملين ولهذا السبب كانوا يبحثون عن "بقع ساحنة" أعرى. صحيح أن منصب الحاكم لا يمنح حصانة كاملة لصاحبه أمام القضاء، إلا أنه يضفى شرعية على سلطته وينفع كملحاً آمن إلى أن تنتهى العواصف السياسية.

في تشرين الأول من العام 2002، ربحت عائلة أخرى من الطبقة الحاكسة، بزعامة فلاديم بوتانين، الانتحابات الإقليمية في كرازنوبارسكي كراي وأضيف بخطها، الكسندر كلوبونين، إلى سلسة الحكام المتنفذين الطويلة. وما هذه إلا البداية، إذ سرعان ما حذا أفراد آعرون من طبقة النحبة حفو سابقيهم في عاولة الفوز بالانتحابات المحلية. وهكذا كانت عمة صفحة جديدة في التاريخ السياسسي الروسي تُفتَح حينذاك عندما بدأت المحموعات الصناعية المالية القويسة في شرعنة سلطتها في المقاطعات المحتلفة عبر الانتحابات على السلطة التنفيذية الإقليمية. هذه المرة، إن الاتحاد الشرعي والعلني - بعكس ما جرت عليه العادة، عندما كان يتم في الظل - بين السلطة ورأس المال على المستوى الإقليمي بملك فرصسة حقيقية في عدى الرئاسة، وتحدّى نيز عات موسكو السلطوية.

<u>____</u>

إلا القليل. والبنك المركزي، الذي يرأسه فكتور جيراشتشنكو، أو هرقل، كما كان يُدعى في موسكو، كان موجوداً على قائمة الضحايا. لم يكن الليبراليون السروس ورحال المال الغربيون يحبّون جيراشتشنكو، نظراً لسياسته التي كانت تسمىء إلى الليبرالية. وبدوره كان الكرملين بمقت مدير البنك المركزي القري، لأنسه كان مستقلاً أكثر من اللازم ويدير مملكته بدون طلب النصح من فريق الرئيس. علوة على ذلك، كانت هنالك مشكلة حقيقية مع شفافية البنك، إذ لا أحد في الحارج كان يعرف بالضبط ماذا يحدث في الداحل. وكان مدراء البنك يتمتعون برواتسب عالية توازي رواتب المدراء التنفيذيين في الشركات الغربية، وهذا كان باهطاً في أعين الوس.

تم إعداد مسودة مرسوم رئاسي يجرّد البنك المركزي من استقلاليته ويضعه تحت سلطة الحكومة. ومجلس الدوما، الموالي للرئيس، سوف يدعم، بالطبع، أي قرار يتخذه الرئيس. صحيح أن شيئاً ما كان ينبغي القيام به بخصوص مملكة البنك المركزي، لكن إخضاعه وإلحاقه بالحكومة كان سيمكّنها من طبع الأموال حسب مشيئتها، الأمر الذي كان يمثّل لهاية للإصلاح.

في تلك الفترة، لم يسع الكرملين لتحقيق مبادرته المتعلقة بتسرويض البنك المركزي، لأن ذلك من شأنه أن يسبب الكثير من المشاكل، لسيس فقسط بسين الليرالين الروس، وإنما في المجتمع التحاري الأحنبي، وهو الأهم. كان بوتين عازماً على احتذاب المستمرين الأحانب، ولهذا السبب فهو لم يكن بحاحة لأية فضسائح. لكن فكرة تجريد البنك الروسي الرئيس من استقلاليته ظلّت على أحددة حاشسية بوتين.

على أي حال، طُرد جوراشتشنكو في ربيع العام 2002، وحلَّ عله رجل مسن سان بطرسبورغ، سيرجي إيفناتييف، الكفوء، وذو الخلفية الليبرالية والمقرب مسن فريق غايدار. ولكن، كانت ثمة شكوك حول قدرة المدير الجديد للبنك المركسزي على الدفاع عن استقلالية مؤسسته وتحقيق الإصلاح الذي كان يعارضه المسدير السابق بشدة، أو حول خضوعه لضغط حاشية الرئيس. قلة من المراقبين في روسيا عبَّروا عن شكوكهم عندما شاهدوا التغييرات التي طرأت على البنسك؛ إذ كسانوا

يخشون من أن الكرملين سيتمكن، عن طريق وحود رجل تابع له في البنك، مسن استخدام البنك لأغراضه الخاصة، وهو ما كسان يصحب تحقيق تحست إدارة حيراشتشنكو. في الحقيقة، كان إيغناتيف رجلاً شريفاً، ولكنه لم يكن سياسياً من الوزن الثقيل بل مجرد شخصية اعتبارية. وهذه واحدة من سخريات الحياة السياسية الروسية حيث إن الأشخاص المستقلين نادراً ما يكونون إصسلاحيين في حسين أن الليبراليين نادراً ما يتمتعون محواقع مستقلة.

أما البند التالي في أجندة الكرملين فكان النظام المتعدد الأحسزاب الملسيء بالفوضى في روسيا، الذي كان يتعارض مع مفهوم بوتين عن السياسة، والسذي أنشأ الكثير من الأحزاب الصغيرة المزعجة وغير القابلة للسيطرة، التي قد تشكل يوماً ما مشكلة بالنسبة "لحزب السلطة". وعلى هذا الأساس، قامست اللجنة الانتخابية المركزية، بناء على أوامر من فريق بوتين، بإعداد قانون جديد للأحزاب. هذا المشروع كان يتطلب من كل حزب أن يضم ما لا يقل عن 100.000 عضو، مع فروع له في 45 إقليماً يملك كل واحد من هذه الفروع لا أقل من 100 عضو، كي يكون موهلاً للتسجيل. ويتوجّب على كل حزب أن يعاود التسجيل كسل سنتين. وإذا لم يشترك، خلال همس سنوات، في أحد الانتخابات، فلن يُسمَح لسه بالتسجيل مرة أخرى.

كان معتو مشروع القانون يأملون بتخفيض عدد الأحزاب في روسيا مسن 188 إلى أقل من 20. وكان هذا القانون يستهدف بشكل أساسسي الأحراب المنهقراطية - التي كانت صغيرة - وعلى رأسها يسابلوكو، بزعامة غريغسوري يافلينسكي. بحسب القانون الجديد، كان الحزب الشيوعي و "حزب السلطة" هسا الحزبان اللذان يملكان أفضل الفرص للبقاء، وهذا ما كانت تريده جماعة الكرملين حرفياً: أن يكون المنافس الرئيس لحزقم، أي "حزب السلطة"، هسو المعارضة اليسارية التي تفقد بريقها كل يوم، الأمر الذي سيدفع الناخيين للتصويت لصالح حزب الكرملين (9). وقد صادق الدوما على قانون الأحزاب هذا، مثل كل القوانين التي تقرحها بوتين (10).

إضافة إلى ذلك، بدأ الكرملين باستئصال المنظمات الأخرى التي كان يعتبرها

غير ضرورية أو مؤذية. وما كان يجري كان يتمّ بمساعنة قانون كُتب كي يناسب احتياجات فريق بوتين. ولكن، مع ذلك، لم يعد باستطاعة أحد القول بأن غيـــاب القانون كان سائداً في روسيا.

الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها إقامة نظام متعدد الأحزاب فعّال ومؤثر
تتمّ بواسطة أحزاب تعتمد على نتيحة الانتخابات، وتشترك في إنشاء الحكومة،
تتمّ بواسطة أحزاب تعتمد على نتيحة الانتخابات، وتشترك في إنشاء الحكومة،
الحكومة، بدون إشراك البرلمان في الاختيار، ودون أن يكون للأحراب أي تماثير
على السلطة التنفيذية، فلن تكون هنالك أية دوافع لدى المجتمع لإنشاء أحراب
قوية. أضف إلى ذلك محاولة السلطات الروسية تشكيل أحزاب من الأعلى وفرضها
على الشعب، وهو ما يصب في صالح الحركات المباركة من الكرملين بمالطبع.
ويدعم كذلك المبررات الواهية لوجود هذه الأحزاب وذلك لعلم وحرود بمدائل
قابلة للبقاء.

على أي حال، سرعان ما بدأ فريق الرئيس بإدراك هشاشة هذا النظام مسن حهة، وعدم حاذبيته بالنسبة للغرب من حهة أخرى. وكان رأي الغسرب هامساً بالنسبة لبوتين. كانت ثمة مؤشرات على أن الكرملين قد بدأ يفكر في طريقة لجعل النظام أكثر تمدناً، أو على الأقل لجعله "بيدو" أكثر تمدناً.

أخيراً وحد فريق الرئيس الوقت لمناقشة مواضيع أخرى، حيث بسدا بسوتين التفكير في إجراء إصلاح عسكري، وذلك بعد ملاحظته كل المؤشرات التي تسدل على انحطاط الجيش الروسي. في عهد يلتسين، تعرّضت السيطرة المدنية على الجيش لانحيار حاد. وخلال العام 2000، انتهك نظام التبعية بشكل علسني في الجسيش، وحصل ما لم يُسمَع عنه أبداً من قبل، حيث تجاوز رئيس هيئة الأركسان العامسة، أناتولي كفاشنين، رئيسه، وزير اللفاع إيغور سيرجيف، وأرسل إلى الرئيس خطته حول إصلاح الجيش. تصرّف كفاشنين وكأن وزير اللفاع لم يكسن موحسوداً. كانت فضيحة، انتهاكاً صريحاً لنظام تسلسل الرئب. فحاة، ما كان مختبساً تحست السطح أصبح معروفاً من قبل الجميع.

كانت القيادة العسكرية العليا مقسمة إلى معسكرين متعارضين لا يقسبلان

التسوية أو التعاون، والوضع لم يكن يحتمل احتواء صراعهما أكتسر مسن ذلك. بالطبع، كان يبغي على بوتين، بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة، أن يطرد كلاً من وزير اللفاع ورئيس هيئة الأركان العامة، لكنه لم يتفرّه ببنت شفة، مدعياً بأن كل شيء كان يسير على خير ما يرام. لقد تصرّف بنفس الطريقة التي تصرّف بما يرام العام 1999 عندما ابتز الجنرال فلاديمسير شسامانوف السسلطات، مهسدداً بالاستقالة إذا ما توقفت العمليات العسكرية في الشيشان. في ذلك الوقت، أظهسر صمت بوتين بأنه لم يكن يحب الصراعات المفتوحة ولا يحبد التخيير: كان يفضل تأجيل الغاز القرار، إذا ما طلب منه الاختيار. لعله لم يكن يشعر بأنه قوي إلى الحد تأجيل كي يسط سيطرته على الجيش. على أية حال، كان الرئيس يواجه مشكلة عويصة، لا تتعلق فقط باستعادة وحدة القيادة العسكرية وإنما بتعزيز سلطته على عويصة، لا تتعلق فقط باستعادة وحدة القيادة العسكرية وإنما بتعزيز سلطته على المقوات المي كانت تنصرف كما يحلو لها،

لكن المشكلة مع التراتية العسكرية لم تكن المشكلة الوحيدة في واقع الأصر. فروسيا لم يكن باستطاعتها إبقاء 3 ملايين شخص في القوات المسلحة لوقت أطول من ذلك، لأن هذا كان يشكل عبداً كبيراً على كاهسل البلسد. ولهسذا السبب خصّصت للحيش حصص غذائية فقيرة، ويرجع ذلك بالطبع إلى الفساد الذي تعاني منه المنظمة العسكرية من اللماحل وانعدام المعايير الاحترافية. وهنالك غياب الوحدة الذي أظهرته بوضوح الحرب الشيشانية، التي أظهرت أيضاً عدم قدرة الجيش على أداء وظيفته بالشكل المطلوب في البقع الساحنة. في العام 2000، اثنتان أو شهلات فقط من كل دزينة من الفرق العسكرية في روسيا كانت مستعدة لخوض المعارك، إن الجيش الذي شكل بناء على أهداف إمراطورية وعنيلة قوة عظمى أصبح الآن يحرد تأكيد آخر على الأزمة العميقة التي يعاني منها النظام. على أية حال، لم يكن الحجم وحده غير منسجم مع الموارد الاقتصادية لروسيا الجديدة، بل تنظيم الجيش الهيماً ألها.

أخيراً وجد بوتين القوة والعزم ليعلن عن الحاجة لإصلاح عسكري. وتضمَّن الاقتراح الذي قدّمه في خريف العام 2000 تخفيض 365,000 موظف عسسكري، و120,000 مستخدم مدني من الجيش والبحرية. وكان من المزمع إحسراء هـ فه التخفيضات قبل العام 2003، وبحلول العام 2005، انخفض تعداد الجيش بنحو 600,000 شخص، من بينهم مستخدمين مدنيين. وكان الفرض الجوهري مسن الإصلاح في هذه الخطة هو تشكيل قوات عسكرية قوية، ومستعدة لوضعها في المواقع الاستراتيجية الأساسية؛ مثل آسيا الوسطى وجنوب غرب آسيا. في ذلك الحزيف، استخدم الرئيس، الأول مرة، لهجة بالغة الشدة في أحد خطاباته الموجهة إلى قيادة القوات المسلحة، هاجم فيه الجنرالات "الخشبين" الذين كانوا لا يفعلون شيئاً سوى الجلوس في قواعدهم، وانتقد كذلك ضعف كبار الضباط. لقدد بدأ بوتين القيام بشيء لم يسبق لزعيم روسي أن تجرأ على القيام به من قبل. ولكن، هل سيمتلك الشجاعة ويمضي في طريقه إلى نحايته ويرسم الحصن الأخير من الدولة الإمبراطورية؟

ازدادت الميزانية العسكرية لعام 2001 بنسبة 40 بالمائة، وذلك بفضل ازدياد العوائد النفطية. مع ذلك، كانت هنالك شكوك حول قلرة هذه الزيادة في الميزانية على إنجاز إصلاح عسكرية حذري، لأن مثل هذا الإصلاح الجذري يتطلّب إنفاقاً هائلاً. وفي هذا الشأن، قال الجنرال أندريه نيكولايف، رئيس لجنة السنفاع في اللوما، في تشرين الثاني: "هذه ميزانية للحفاظ على الوضع الراهن. لا توجد أيسة أولويات واضحة، إلها ستحسن من الوضع قليلاً، ولكنها لا تستطيع أن تحلّ حسى مشكلة واحدة فقط". وهذا صحيح عماماً، إذ إن هذه الزيادة في الميزانية لم تكسن كافية حتى لحل مشكلة الضباط المتقاعدين، الذين يستحقون بحوجب القانون شبقة مكنية وعلاوة تقاعدية. وعلى هذا الأساس، استنتج ذوو الخيرة من المراقبين بسأن ميزانية العام 2001 لن تغير شبئاً من وضع الجيش (13)، إذ إن حصة الأسسد منسها ستذهب لترقيع الثقوب ودفع الديون. باختصار، لن يحصل إصلاح عسكري بلون ستذهب لترقيع الثقوب ودفع الديون. باختصار، لن يحصل إصلاح عسكري بلون

وهكذا فشلت القيادة العسكرية الروسية في مواجهة تحديات الظروف الأمنية الجديدة. فمن جهة، كان واضحاً أن هنالك حاجة لتعزيز الأمسن علسى الحسدود الجنوبية لروسيا مع آسيا الوسطى والصين. ومن جهة أخرى، كان الجيش الروسى ما يزال يعتبر حلف الناتو قديداً، ويستلزم بناءً على ذلك تقوية القواعد الغربية والاحتفاظ بقدرتها النووية. لكن روسيا الضعيفة لم يكن باستطاعتها مواجهة كل هذه التحديات محتمعة، فلقد كان عليها اعتماد مجموعة جديدة مسن الأولويسات الأمنية بدلاً من الاستمرار في بناء الجيش على الطريقة السوفياتية وتخفيض تعدداده فقط.

تسايل المراقبون الروس: ما هو الفرض من الاحتفاظ بالتوازن السووي مسع الولايات المتحدة? (14) بحسب بعض المختصين، لم تكن روسيا بحاجة لأكثسر مسن 500 رأس نووي لضمان أمنها. فالصين وفرنسا والمملكة المتحدة كانت قوى نووية بالرغم من امتلاكها عدداً أقل من الرؤوس النووية، وفوق ذلك فإن كلفة منزلتها النووية هذه كانت أقل بكثير عما كانت تدفعه روسيا، التي استنسزفتها الأزمسات المتعاقبة.

علاوة على ذلك، كان هنالك قرابة 10.000 سلاح نووي تكتيكي يكسوها الفبار في المستودعات الروسية على سبيل الاحتراز إذا ما وقعت حسرب نوويسة على عدودة مع الناتو. أما ضد من كان الجنرالات الروس ينوون استخدام هذه الأسلحة فذلك لم يكن واضحاً؛ حتى بالنسبة للجنرالات أنفسهم. ورغم ذلك، فالملايين من الدولارات كانت تُنفَى للحفاظ على حاهزية هذه الأسلحة مسن أحسل حسدت عسكري احتمال حدوثه نادو.

لا شك أن الرئيس كان يقدّر تماماً صعوبة إصلاح الجيش. في أواخسر العسام 2001، وافق بوتين على فكرة الجيش المحترف، ووعد بجعل الجيش الروسي محترفاً بحلول العام 2010. لقد صرّح بوتين "لا الحكومة ولا المحتمع بؤيدان نظام التحنيد الإحباري الموحود ((15). وعلى هذا الأساس، قرّر فريق بوتين أن يجعل عسام 2010 العام الذي يشهد تنفيذ الإصلاحات، وتحويل إحدى الفرق العسكرية الجويسة إلى فرقة يكون كامل أفرادها متعاقدين. ولكن، لم يكن واضحاً ما إذا كانت روسيا تملك ما يكفي من الأموال لإحراء هذه التحربة، التي قد تكلف 2.5 مليار روبسل، أو 70 مليون دولار، للفرقة الواحدة. في تلك الأثناء، كان الجيش بملك 132.000 قبل عندي متعاقد، بعد أن كان العدد 260.000 قبل عند سنوات. من هنا، كان على

في الحقيقة، لم تكن القيادة المسكرية الروسية مستعدة حتى لإحراء انتقال حزلي إلى حيث عترف. إن الخطط التي وُضعت تحت إشراف زميسل بسوتين في السلاح سيرجي إيفانوف كانت معدة لإضافة ما بين 40 و50 بالمائة من الجنسود المتعاقدين إلى القوات المسلحة الروسية في العام 2005 - 2006، ولتخفيض مسدة الخدمة الإلزامية إلى 6 أو 8 أشهر. لكن تلك الخطط بقيت في مكالها على طاولة التخطيط. وفي نفس الوقت، أثارت هيئة الأركان العامة قضية تخفيض فعسات المواطنين المعفين من الخدمة الإلزامية. على أي حال، عمة عامل آخر غير قلبة الأموال وقف عائقاً في وجه تحويل الجيش إلى حيث محترف؛ ألا وهو عدم استعداد الأموال وقف عائقاً في وجه تحويل الجيش إلى حيث عترف؛ ألا وهو عدم استعداد الجنرالات، وإعادة تجديد رتبهم.

إضافة إلى ذلك، فإن إنشاء نموذج حديد لجيش حديث كان يتطلسب مسن الطبقة السياسية ومن المجتمع الإحابة على السؤال النالي: هل ستصبح روسيا حزءًا من الحضارة الفريية، أم ستبقى متأرجحة ما بين آسيا وأوروبا، مدّعيسةً امستلاك "طريق حاص" للتطوير، ومحاولةً الدفاع عن نفسها من الفرب؟

الغطل الغامس

سلطة في قبضة واحدة

فعُ الشيشان، الحكومة تحت النار، النشيد الوطني السواواتي. بوتين يدخل إلى العالم، لماذا يورد الرئيس السلطة؟

بالمقارنة مع حكم يلتسين العاصف كرئيس، الذي عكرت صفوه في أغلسب الأحيان إخفاقات وكوارث وألاعيب سياسية خسر في محصلتها الجميع، بالإضافة إلى خطر تداعي صحة الرجل العجوز نفسه، فإن السنة الأولى من رئاسة بسوتين باستثناء شهر آب - كانت مستقرة إلى حدًّ ما. ولعلَّ الرئيس نفسه يعتبرها سنة ناجحة. الشيء الوحيد الذي كان باستطاعته إفساد مزاج السرئيس فعسلاً هسو الشيشان.

المهمة الوحيد التي اقترنت باسم بوتين وابتدأت بأمر منه - "عملية مكافحة الإرهاب" التي قامت بها روسيا في الجمهورية الانفصالية الشيئسان، السبي سببق ودُمَّرت في حرب سابقة (1994 -1996) - انتهت بفشل ذريع. لم يكن نمسة شخص واحد يشك في ذلك، حق في الكرملين. من آب 1999 إلى أيلول 2000، سقط 2.600 حندي روسي في الشيشان، بحسب المصادر الرسمية. وعدد القتلى بين المدنين في الشيشان كان يتنامى. لم يعرف أحد ما إذا كان بالآلاف أو بعشرات الآلاف. في الواقع، لم تكن السلطات تريد أن تعرف. ورغسم ضسراوة العمليسة الفدرائية، فإن قادة الحركة الانفصائية الشيشانية - أصلان ماسخادوف، شساميل باسيف، آربي بارايف، رسلان حيلايف، والمواطن الأردي خطاب، الذي اشتهر باسيف، آربي بارايف، رسلان حيلايف، والمواطن الأردي خطاب، الذي اشتهر

بياسه في الحرب الشيشانية الأولى – كانوا ما يزالون على قيد الحيداة (قيل إن باراييف وخطاب قُتلا بعد ذلك بكثير، في العام 2002). وهكذا لم تتمكن موسكو من تحقيق ما كانت تسعى إليه من الحرب في الشيشان، أي استعصال الإرهاب والإرهابيين(1).

علاوة على ذلك، فإن مقاومة المقاتلين الشيشانيين قد ازدادت ضراوة مع لهاية العام 2000، بعد مرحلة قصيرة من الهمود. كان تدفّق مقاتلين جدد، معظمهم من الشباب الشيشاني إلى القوات الموجودة على أرض المركة لا ينقطه. حيى الشيشانيون الذين كانوا يقفون على الحياد والذين ستموا من القادة العسكريين الشيشانيون الذي علقوا آمالهم بعيش حياة آمنة على القوات الفدرالية - كانوا يتحوّلون بشكل تدريجي إلى مساندة الانفصاليين بعدما أدى القصف الهائل على المدنين إلى مقتل عائلاتهم وأصفائهم.

في صيف العام 2000، بدأت موسكو تُظهر علامات على وجدود المسل بخصوص الشيشان، والشعب الروسي – المدنيون فيه والعسكريون – بدأ يشعر بالتوتر بعد نحو عام من القتال. كما أن المناصرين للحل العسكري لمشكلة الشيشان أرغموا على الاعتراف بأن الحكومة كانت قد أصبحت عاجزة في الشيشان. مع ذلك فالمشاعر المعادية للحرب، التي انتشرت على نطاق واسع بين الشعب الروسي خلال الحرب الشيشانية الأولى، لم تشكّل مشكلة بالنسبة للنظام في الحرب الثانية، لأن نسبة مهمة من السكان كانوا ما يزالون يميلون إلى بوتين. لكن حالدة مسن الإعياء من الحرب كانت قد بدأت بالتشكّل على أية حال.

في الأيام الأخيرة من آب، علنى 50 بالمائة من المشتركين في أحد الاستفتاءات، بشيء من الانسزعاج والإحباط، على الحرب الدائرة في الشيشان قاتلين بسألهم لا يرون لهاية قريبة لها، فيما أشار 41 بالمائة منهم إلى الحسائر الثقيلة للحيش الروسي، و26 بالمائة إلى الخسائر بين المدنيين الشيشانيين. مع ذلك قسإن نصسفهم كسانوا يشعرون بوحوب استمرار العمليات العسكرية هناك وبأن لا سبيل آخر غير ذلك (39 بالمائة فقط كانوا يريدون إجراء مفاوضات مع الشيشانيين، و11 بالمائة امتنعوا عن إبداء رأيهم)(2). تُظهر هذه المعطيات بأن جزءاً كبيراً من المجتمع الروسي كسان

ما يزال مستعداً لتحمّل الحرب في صيف العام 2000. لكنّ حالة مسن الإرهــــاف. والمشاعر السلبية، والسام من الحرب كانت تتنامى بالرغم من ذلك.

احتل الجيش الروسي كامل الأراضي الشيشانية تقريباً، ومع ذلك فإن مشكلة ماذا يجب فعله الآن كانت تصبح أكثر إلحاحاً بما لا يقاس. لقد اشتملت مقاوسة ضارية في الجمهورية المضطربة. و لم يكن الكرملين يعرف كيف بحارب المقاومين، إذ لم يكن الجيش الروسي قادراً على التمييز بين المقاتلين وبين المدنيين المسالمين. فعلال النهار، كان الشيشانيون يعيشون حياة عادية، ولكنهم في الليسل كانوا يستلون أسلحتهم ويطلقون النار على الجنود الفسدراليين ويزرعسون الألفام في الطرقات. حتى الأطفال أصبحوا مقاتلين في "حرب الألفام" هذه، ويعود ذلك في الغالب إلى أن الانفصاليين كانوا يدفعون مقابل كل لغم يُزرع وكل آلية عسكرية الوسية تُدمَّر، وكان الأطفال وعائلاتهم بجاحة إلى هذا المال.

وهكذا عادت روسيا إلى العام 1996، العام الذي ظهرت فيه مسألة المقاومسة المدنية لأول مرة. في تلك الفترة لم تجد القوات الروسية حلاً لهذه المسألة. وحلَّ ما فعله يلتسين قبل الانتخاب الرئاسي لعام 1996 هو قبول السلم مع الانفصساليين، والاعتراف باستقلال الشيشان. والسلم كان يعني هزيمة بالنسبة للروس.

والآن، أصبحت المشاكل التي تقف حائلاً دون إبجاد حل للحرب مع الشيشان أكثر حدة من ذي قبل. فمنذ الحرب الأولى لم يفعل الطرفان شيئاً سوى تعزيز انعدام الثقة بينهما، الأمر الذي قلّل من فرص بحاح المفاوضات السلمية. ولكن، مع ذلك، لم يكن باستطاعة موسكو مغادرة الشيشان، لأن الشعب الروسي لم يكن مستعداً لتقبّل إخفاق عسكري حديد؛ عما يمكس مقدار الضرر اللذي أصاب صورة روسيا في أعين شعبها. وكان هنالك أيضاً خوف من تمرّد الجيش قبل إرغامه على الانسحاب من الشيشان بطريقة عزية. إضافة إلى ذلك، فالشيشان لم يكن مستعداً لبناء استقلاله بعد، إذ إن القادة العسكرين المسدانين – أمسراء الحرب أنفسهم الذين أثروا من خلال الإتجار بالرهائن وتحريب المحدرات وبيسع الأسلحة – كانوا سيستولون على السلطة من جديد كما فعلوا بعد الحرب الأولى.

سيكونون متصلبين كباسييف وخطاب. وستستمر غــزوات العصــابات علــى الأراضي الروسية، وكذلك أعمال الخطف وانتقال الشيشان إلى الفوضى. ولكن، في الوقت نفسه، لم يكن بمقدور روسيا الفوز في الشيشان. بعبارة أخرى، في تلك المرحلة من التاريخ، كانت روسيا وجمهورية الشيشان الانفصالية عالقتين في وضع لا عرج منه.

في تلك الأثناء، كانت الحياة في الشيشان مستحيلة تقريباً مع المبايي المسلمرة والمحروقة بفعل القصف، والأعتدة العسكرية المتروكة على حوانب الطرق، والناس الذين يشقون طريقهم بصعوبة وسط الأوحال، وهم يحملون ممتلكاتم القليلة على ظهورهم. كان الأطفال حالمين ووسخين، والكبار نحيلين إلى درجة الهزال. الجميع كانوا في حالة سيئة من الناحية الجسدية، وبحاجة إلى رعابة نفسية. ذكرت المراسلة الصحفية آنا بوليتكوفسكايا من العاصمة الشيشانية غروزي بعد قصفها: "غروزي حميم حقيقي. إلها عالم آخر، عالم سفلي مروع لا يمكنك أن تبلغه إلا من خلال المرة الوحاجية (نسبة لقصة "مغامرات أليس في بلاد المحالب"). لا توحد أيسة حضارة حية بين الأنقاض؛ بهيلاً عن الناس أنفسهم"(ق.

أمنت معسكرات اللاجئين في الجمهورية المجاورة إنغوشيتيا الملحأ لعشرات الآلاف من العائلات التي لم يكن لها أي أمل في العودة إلى السوطن، لأن منازلها دُمَّرت. عاش هؤلاء الناس خلال حريين وقد لا تسنح لهم الفرصة لعسيش حيساة طبيعية مرة ثانية. في تلك الأثناء، كانت روسيا تفتقر إلى المال، وكانست بالكاد تستطيع حلَّ مشاكلها الخاصة، ولم تكن تشعر بالعطف، أو الصبر، على الشيشانيين الثارين. الشيئان الوحيدان اللذان تستطيع روسيا تقديمهما للشيشان في ذلك الوقت هما العزلة والنسيان، ولكن فقط تحت إشراف قواتما، التي ينظر إليها الشيشانيون على ألما قوات احتلال.

بدأ الشيشانيون (ولم يكونوا وحدهم) بالاعتقاد بأن السلطات الروسية، أو على الأقل السلطات المسكرية، لم تكن ببساطة تريد إفساء الحسرب. "أظهرت حوادث كثيرة بوضوح عدم رغبة الجيش بإكمال تسدمير الوحسدات العسسكرية الشيشانية تدميراً تاماً"، وفقاً لرسلان عاسبولاتوف، وهو شيشاني ومتحدث سابق

177

باسم البرلمان الروسي. "من الواضح أن شخصاً ما، في مكان ما في القيادة المسكرية، قرر بأن استمرار الحرب كان مفيداً". بحسب تفسير خاسبولاتوف، لقد منحت الحرب للحنرلات ترقيات دائمة على السلم المهني، وقدّمت التمويل اللازم للحيش والقوات الخاصة، والثروة الشخصية، وتنامي الدور السياسي لأجهزة السلطة الرئيسة في المجتمع⁽⁴⁾.

كان خاسبولاتوف عقاً فيما يبلو، فبعض كبار القادة المسكريين كانوا بالتأكيد حريمين على استمرار الحرب، التي جلبت لهم الرفاه المادي، وعززت من اهيتهم السياسية (ق. أما سقوط المجندين وصغار الضباط في ساحات القتال فلم يكن يثير أي نوع من القلق لدى القيادتين العسكرية والمدنية على حدَّ سواء. وهذا ما دفع الناس للتساؤل: بالرغم من استخدام أقصى ما يملكه الجيش المنشر هناك من طاقة ضد أمراء الحرب الانفصاليين، لماذا كانوا ما يزالون يتمتعون بكامل قوقم ويتحركون بحرية في أنحاء الشيشان؟ وأيضاً، من أين كانوا يحصلون على أسلحتهم الفائقة التطور؟ دعا الكثيرون هذه الحرب بالحرب "الصفقة" وذلك لاشتباههم بوجود صفقات سرية بين الجيش الروسي والانفصاليين.

ولكن، بالرغم من كل التساؤلات الواضحة، فإن المجتمع كان ما يزال يتقبّل و ولو باستياء متعاظم - تحول الشيشان إلى مسلخ يعمل على مدار السساعة. ولم لا، فللك كان يحدث على الحدود، بعيداً عن مركز روسيا، والنساس - المتعبون والمنهمكون في مشاكلهم الخاصة - اعتادوا على نسزيف الدم المستمر. على أيسة حال، تنبّهت السلطات الرسمية في موسكو للأمر، وتوقفت عن نشر معلومات عن القتلى والجرحى، وحاولت إعطاء الشيشان أهمية أقل. حاول الجيش تجنّب تحمّل مسؤولية الشيشان، ملقياً العبء كله على عاتق القوات الداخليسة، أي القسوات الاحتباطية، التي قالت بألها لا تستطيع القتال في الشيشان، وهي في الواقع لم تكسن مستعدة للعمليات العسكرية بالفعل. في غضون ذلك، كبر حيسل حديسد مسن الشيشانين، حيل لم يعرف شيئاً سوى الحرب، حيل دُرِّب فقط كي يقاتل، و لم يكسن يشغل فكره سوى الانتقام من الروس. وفوق ذلك، فأولئك الفتيان كانوا يزدادون يبلغل فكره سوى الانتقام من الروس. وفوق ذلك، فأولئك الفتيان كانوا يزدادون عاية حياقم.

رغم القيود القاسية التي وضعها الجيش على المعلومات الخارجة من الشيشان،
إلا أن العالم استمر بمعرفة ما كان يجري هناك. كانت حرباً مروّعة. المسات مسن
الجنود الروس والشيشانيين كانوا يموتون، وهم في الغالب فتية صسغار لم يسدأوا
حياقم بعد. كان عدد المدن والبلدات الروسية التي كانت تستقبل الجثث العائسدة
إليها من الشيشان ملفوفة بالأكفان القائمة في ازدياد مضطرد. والآلاف من النسوة
الشيشانيين كن يلسس السواد حداداً على أقارهم الموتى. وكانت الصحافة تنشسر
أيضاً قصصاً حول انتهاكات الجيش الروسي ضد المدنيين في الشيئسان، وحسول
اعتقالات الأشتحاص لم تُتبت إدانتهم ولكنهم مع ذلك احتُحروا في معسنكرات
خاصة، وحول ما دُعيت بأماكن التطهير؛ وهي عمليات قام في سياقها الجنسود
الروس بنهب الممتلكات الشيشانية، وإعسدام شيان فحرد الاشتباه بصلتهم
الانقصالين. بعبارة أخرى، لقد أصيب الجيش الروسي بفيروس الوحشية، ذلسك
الفيروس الذي يمكن أن يصبح معدياً. وهذا ما حصل فعاداً، إذ إن الاحتلال
الروسي للشيشان كان يثير الرغبة بالانتقام الوحشي والأعمى لدى الانفصاليين.

لم يكن بوتين يعرف ماذا سيفعل في الشيشان. حاول إبعاد نفسه عن الحرب بحيث ينسى الجميع أن "عملية مكافحة الإرهاب" هذه كانت هي التي أوصلته إلى السلطة. كان يبحث عن فرص تسمح له بإشسراك الشيشسانيين المسوالين لسه في المسؤولية عما كان يجري في الشيشان. ولكن، لم يكن هنالك الكثير منهم، فالقادة الشيشانيون الذين عينهم – مثل الرئيس الجديد للإدارة الشيشانية أحمد قاديروف – المستركوا في العملية العسكرية ضد القوات الفدرالية، أو ألهم كانوا منهمين الفساد، أي ألهم لم يكونوا عمل ثقة. مع ذلك، لم يكن أمامه خيار آخر. لقد رفض بوتين النفاوض مع الرئيس الشيشاني ماسخادوف – الذي فقد نفوذه السابق – لكنه بالمقارنة مع القادة الانفصاليين الآخرين، كان يملك ميزتين هامتين: أولاً، إنه رئيس منتخب من قبل الشيشانيين. وثانياً، لقد أكد الرئيس السسابق يلتسسين شسرعيته كرئيس عندما تفاوض معه.

أجرت صحيفة موسكوفسكي نوفوستي مقابلة مع ماسخادوف في 21 تشرين الثاني من العام 2000. لقد أقدم المحررون على مجازفة كبيرة عندما قدّموا صفحالهم 179

له، وذلك لأن الكرملين قد يفعل أكثر من بحرد توبيخهم على قسرارهم هسذا. في تلك المقابلة، أخير ماسخادوف الصحفي، "كرجل عسكري يمكني القول: الجيش لا يمكنه أن يقف بلا حراك. يتوجّب عليه إما أن يهاجم، أو يدافع عن نفسه، أو ينسحب. عندما يقف حيش بحجم هذا الجيش، فإنه سينهار". وقد كسان محقساً، فالجيش الروسي قد بدأ بالإلهيار فعلاً، بعد أن فقد هدفه في الشيشان، وذلك لعدم وجود عدو مرابي وواضح. اقترح ماسخادوف بأن يلهب يلتسين دور الوسسيط في مفاوضات السلام. لكن الوقت لم يكن قد حان بعد لإحراء المفاوضات، لأن فريق الكرملين كان ما يزال يتحدث عن النصر، وحتى لو كان بوتين يسدرك في ذلسك الحين عدم إمكانية النصر في الشيشان، فالدخول في مفاوضات مع ماستحادوف كان يعين العودة إلى المربع الأول، وذلك كان يشبه الاعتراف بالفريك. لم يكسن باستطاعة بوتين القيام بذلك تحت أي ظرف كان، على الأقسل لسيس في ذلسك الوقت، حتى مع الازدياد المضطرد في الخسائر، بل يسبب الازديساد المضطرد في الخسائر.

على أي حال، لقد حصل تقدّم هام في المواقف الروسية تجاه الشيشان منف بداية العام. ففي تشرين الأول من العام 2000، ولأول مرة منذ بداية الحرب الثانية، فأق عدد المعارضين للحرب عدد المناصرين لها. 25 بالمائة فقط من الشعب الروسي كانوا يشعرون بأن بوتين كان يتعامل مع المشكلة الشيشانية بنحاح، مقابل 36 بالمائة منهم كانوا يعتقدون بأن روسيا لم تكن تحرز أي نجاح في الشيشان (18 بالمائة كانوا يشعرون بأن موسكو لم تكن تعرف كيف تحقى النظام في الشيشان (6).

وعندما أصيب الجيش الروسي بخسائر كبيرة، بلغت نسبة المطالبين باسستمرار العمليات العسكرية في الشيشان 34 بالمائة فقط، مقابل 54 بالمائة طسالبوا بسياحراء مفاوضات. علاوة على ذلك، كان هنالك شعور متزايد لدى الشعب الروسي بأن الحرب كانت مفيدة لمصالح المقاتلين الشيشانيين والسلطات الروسية علمى حسدً سواء، حيث أعرب 50 بالمائة عن هذا الشعور صراحة، في حين أن 10 بالمائة منهم ذهبوا أبعد من ذلك بقولهم أن القادة الروس كانوا متورطين في مؤامرة مع القسادة

المتمردين. وهذا كان خطوراً للغاية، لأنه إذا ما أضيف الاستياء مما كان يجسري في الشيشان إلى المشاكل الاجتماعية الشيشان إلى المشاكل الاجتماعية ومشاعر الإحباط، فإن بوتين سيشهد أوقاتاً صعبة حداً. وذلك كان كافياً لإنسارة قلق الكرملين.



مقابل المشهد الخلفي للوضع الحزن في الشيشان، كان بوسع الرئيس والفريق الذي كان ما يزال حديداً في الكرملين إلتماس العزاء في الإقرار الهادئ للميزانية، وهو أول إجراء خال من المشاكل في تاريخ العلاقات بسين السلطتين التنفيذية والتشريعية في روسياً ما بعد الشيوعية. في عهد يلتسين، كانت مناقشة الميزانية معقدة وعسيرة على الدوام. في ذلك الحين، كان الدوما يحاول إثبات استقلاليته لأنه لم يكن بملك إلا القليل من الفرص لإبراز عضلاته. وكان الكرملين مرغساً على تقديم التنازلات وحق رشوة كل المحموعات في البرلمان من أحل ضمان إقرار مشروع قانون الميزانية. ونتيحة لفلك غالباً ما كانت الميزانية تخرج ضحمة وغسير واقعية. حق أن الحكومة لم تكن تفكر في العمل بمقتضاها. ولكرن، الآن، أصبح التلاعب والتحايل في حدودهما الدنيا. ولهذا السبب واقسق السلوما علمي كل المقترحات الحكومة تقريباً فيما يتعلق بالميزانية، لأن النسواب والمحموعات ذات المصالح التي تقف وراءهم لم يكونوا يجرؤون على بحث، أو التفاوض بشسأن، أي صفقة مع الرئيس الجديد.

قدّمت حكومة ميخاليل كاسبانوف ميزانية ثورية بحق للعسام 2001. لقسد خصّصت الميزانية الجديدة 60 بالمائة من عائدات الضرائب إلى المركز، و40 بالمائسة إلى الأقاليم. وانخفضت مخصصات الأقاليم الواهبة (كما ذكرنا من قبل، إلها المناطق التي تساهم في الميزانية الفدرائية بأكثر مما تأخذ منها) بمقدار الثلث تقريباً. بسالطيم، لم تكن هذه المناطق راضية عن ذلك، لكن مشاعرها لم يكن يُحسب لها حسساب كبير في موسكو. إضافة إلى ذلك، فإن هذه الأقاليم قد تعاني من مشكلة خطيرة في العام الجديد، إذ لم يكن هنالك أية ضمانات بأن تتمكن السلطات المحلية – بعد أن

أحذت الحكومة الفدرالية كل ما أمكنها أحذه من الميزانية – من امتلاك ما يكفي من أموال لتفطية الاحتياحات الاجتماعية والتعليم والرعاية الصحية، وهي كلها مسؤوليات نحلية. لا بد أن المسؤولين الفدراليين كانوا يأطون بسأهم سيحصلون على فرصة أفضل لحل كل مشاكل روسيا إذا ما وزعوا الأموال من المركز، كمساكان بحصل أيام الاتحاد السوفياتي.

لم يظهر على أحد أي قلق بشأن وجود عجز - "ثفرة" - في الميزانية بلغست نسبتها 8 بالماته، مما كان يعني بأن الحكومة كانت لديها آمال بعوائسد إضافية. ولكن، لم يكن واضحاً من أين يُتوقّع لتلك الأموال أن تأتي. كانت الحكومة تأمل بالحصول على 5.3 مليار دولار من صندوق النقد اللولي والبنك اللولي لتغطية هزء من تلك "المفرة". ولكن، لم يكن ثمة ضمانات بأن ذلك القرض سيمنح لها. وكان نادي باريس للدول الدائنة قد أبلغ بأن موسكو خصصت 5.3 مليار دولار فقط لدفع الفوائد المستحق عليها إلى النادي في العام 2001، بدلاً من الملغ الفعلي المستحق عليها وهو 14.5 مليار دولار. كان كاسيانوف يعيد تنظيم الدين الدي باريس بدون مشاورة الأعضاء الذين أقرضوها المسال (7) تقعل مياركة بوتين.

أقرّت الميزانية قبل تحاية العام بقليل. وللمرة الأولى، صوّتت حركة غريفوري يافلينكسي، يابلوكو – التي كانت دائماً تصوّت ضد مقترحات الحكومة بشأن الميزانية – بالموافقة على هذه الميزانية. يحقّ لبوتين أن يشعر بالنصر بعد أن بسدأت الحكومة والمدوما بالعمل بشكل متناغم، وكألهما جزء من منظومة ما. وفي المستقبل، لن تواجه السلطة التنفيذية أية مشاكل في الحصول على الميزانية من المجلس الأدنى، لأنه مسن الآن فصاعلاً، لن تكون هنالك أية أسباب للعلاف بين فرعي السلطة في روسيا بسوتين. على أي حال، كانت طاعة المدوما العمياء مفيلة بالفعل عندما كانت تستفل من قبسل المحكومة لإقرار إصلاحات معينة؛ حتى في هذه الحالة، كانت الحكومة بحاجة إلى برلمان مستقل من أجل تقييم القوانين. ولكن، لم تكن هنالك ضمانات بأن السلطة التنفيذية نصف الديكاتورية في روسيا ستقدم دائماً حلولاً إصلاحية.

تدريجياً، بدأت الأمور تمدأ على الساحة السياسية، على الأقل في موسكو، وكان الكرملين يأمل بإلهاء العام الأحير من القرن بسلام. إلا أن الأيام الأحيرة من تشرين الثاني شهدت موجة جديدة من السخط في موسكو. فقسد شسن أندريسه إيلاريونوف، المستشار الاقتصادي للرئيس، وعلى نحو مفاجئ، هجوساً على حكومة كاسيانوف - في مقابلاته وتصريحاته العلنية العديدة - متهماً الحكومسة بالفشل في الاستفادة من الفرصة الاقتصادية الغريدة في دفع عجلسة الإصلاحات قلماً.

في الواقع، كانت النتائج الاقتصادية للعام 2000 هي الأفضل في روسيا خلال ربع قرن (ق). ولكن، بدلاً من استخدام الاستقرار الاقتصادي كمنطلق لإجراء تحوّل بنيوي، ظلّت الحكومة قانعة وراضية، وبشكل يدعو للدهشة، بما هي عليه مسن حال. "إن الجو المسكر لهذا الرفاه المادي غير المتوقع الذي طرأ على روسيا لعسب دوراً مخادعاً كريها"، بحسب تفسير إيلاريونوف. "بسدأت السلطتان التنفيذيسة والتشريعية بتقاسم عوائد إضافية لم تكن لها أية صلة بفعالية الاقتصاد"

كانت تعليقات إيلاريونوف عنابة إشارة إلى المجتمع السياسي والثقافي الروسي بأن الحكومة لم تكن بقرة مقدسة لا يمكن المسلس بها أو انتقادها، الأمر الذي حمل الانتقادات تطير من كل حدب وصوب. فقد حذَّر بعض المحللين مسن أن روسسيا ستواجه صدمة محتملة في الاقتصاد، بينما تحدَّث آخرون عن حتمية تكرار الأزمسة المالية التي حدثت في العام 1998⁽⁹⁾.

إلى الوقع، إن غياب السياسة الاقتصادية الواضحة وتردد الحكومة كانا بادين للعيان منذ وقت أبكر من ذلك. فقد كان واضحاً أن رئيس السوزراء وفريق لم يكونا ينويان القيام بأية إجراءات حاسمة من أجل إصلاح الاقتصاد. خلال العام 2000، كمت الموافقة على قانون واحد هام فعلاً: الضرية الثابتة على الدخل، بنسبة 13 بالمائة. لكن تردد الحكومة لم يكن يرجع إلى ضعف كاسيانوف فقط، إذ إن الحكومة الروسية كانت حكومة الرئيس، ولهذا السبب فالرئيس وحده هـو مـن يمكن تحديد أسلوب نشاطها.

على أنه دليل على أن بوتين قد أدرك فحاة بأنه ضيَّع سنة سدىً، وأنه الآن بيحث حاهداً لإيجاد مسؤولين عن عطالة وجمود حكومته. ولكن، في خضم الجدل المحموم الذي نتج عن ذلك، لم يبادر أحد إلى طرح السؤالين التاليين: أبن كان السرئيس في كل ذلك الوقت، وبماذا كان يفكر؟

في تلك الأثناء، تسبب إيلاريونوف بحذب اهتمام الناس من حديد، وذلك عندما انتقد، في أواخر كانون الأول، أناتولي تشوبايس - كان يرأس حينئذ RAO الله وهي شركة الكهرباء العامة في روسيا - متهماً إياه بإعادة هيكلة شركة الكهرباء بشكل غير قانوني، مثلما حصل مع خطة الخصخصة، "الأسهم مقابسل القروض"، السيئة الصيت، التي حظيت بنقد واسع النطاق، والتي ظهرت عام 1996. ونتيحة لذلك توقف مؤقتاً الإصلاح الذي كان تشوبايس يقوم به. لاحقاً، في حريف العام 2002، وبعد كثير من التردّد، قرّر بوتين المضي قدماً في إصلاح للحقائدة سرعان ما توقف وعاد إلى التردّد ثانية.

لقد سلّط هذا الوضع - انتقاد الحكومة بصغة عامة، وانتقاد إصلاح تشوبايس بصغة خاصة - الضوء على أسلوب بوتين في الإدارة. سمح الرئيس لحاشيته بالتعبير عن مشاعرهم، وأعطى لكل مشترك في النقاش فرصة للكلام، دون أي يدافع عسن أي منهم، مكتفياً بمراقبة الجدال والمشاعر من الأعلى. ظاهرياً، قسد يسدو هسذا الأسلوب فعالاً، لأنه أوجد فرصة للنقاش وتبادل الآراء. ولكن، ثمة شيء في هسذا الأسلوب يوحي بأن هذا الرئيس سمح بالتنفيس عن المشاعر فقط لأنسه لم يكسن يعرف أي جانب سيختار. بكلمات أخرى، إن الانفتاح وتعدّدية الآراء الظاهريسة هلم كانت تخفى ورايها تردداً وقلة حيلة.

علاوة على ذلك، كان واضحاً أن بوتين سمح - في أغلب الأحيان - لهـــذه الجدالات الفارغة بأن تحدث في غيابه، الأمر الذي مكّنه من النأي بنفســه عـــن المشاكل الموذية عندما كانت تُكشَف. وفي سياق المناقشات، وعد الرئيس بتقــــلم دعمه لكل المتنافسين، مما جعل كل واحد منهم يعتقد جازماً بأنه يحظى بمــــاندته وتأييده. وذلك كان دليلاً إضافياً على حيرة الرئيس، وتردّده، وعدم قدرته علـــى اتخاذ قرار واضح، والسير بمقتضاه.

وهكذا، بدا أن الكرملين، في قاية العام 2000، لم يكن قد توصّل بعد إلى قرار بشأن ما إذا كان يتوجّب عليه أن يتبنى إصلاحات اقتصادية إضافية، وفي حال توصل إلى هذا بالقرار، ما هي نوعية تلك الإصلاحات. ونتيجة لذلك بدأ بعسض الإصلاحيين فيما بين إيلاريونوف وتشوبايس بالتململ والإحساس بالقلق. وإذا لم يتفق الليراليون في فريق الرئيس فيما بينهم، فكيف يمكن أن نتوقسع حمسول أي اتفاق بين الجماعات ذات المصالح المتنافسة في حاشيته؟ ولأن فريق الرئيس كسان منقسماً على نفسه على نحو أوسع من هذا، فإن حصول إجماع فيما يخص تنميسة المحتمم في المستقبل كان غير ممكن إلى حدًّ كبور.

بعد السيطرة السريعة لإدارة بوتين على وسائل السلطة الأساسية، أوحست الصراعات داخل حاشية بوتين بأن الإدارة كانت تخفف من سرعتها لألها لم تكسن تعرف ماذا ستفعل تالياً، الأمر الذي أشعل فتيل الصراع على المناصب ومسادين النفوذ من حديد.

في تلك الأتناء، كانت هنالك قضايا اقتصادية هامة بحاجة للحلّ. ففي كانون الأول من العام 2000، اعترف جيرمان غريف، وهو أحد أقرب حلفاء بوتين، بأن روسيا لن تكون قادرة على دفع ديوها الخارجية في العام 2003، وصرَّح بأن إعادة هيكلة دين نادي باريس كان أمراً بالغ الضرورة. وكان دين روسيا إلى نادي باريس كان أمراً بالغ الضرورة. وكان دين روسيا إلى نادي باريس يلغ في ذلك الوقت 48 مليار دولار، وكانت الدفعات ستصل إلى 17.5 مليار دولار في العام 2003، أي ما يساوي نصف الميزانية تقريباً. والمثير للاستغراب في الأمر هو أن هذه المشكلة كانت بادية للميان منذ منة طويلة، لكن الحكومة لم تدركها إلا في لهاية العام 2002 أكثر تفاؤلاً من ذي قبل بخصوص قدرة روسيا على دفع دينها إلى نادي بساريس. ولكن، كالعادة، كان كل شيء يعتمد على أسعار النفط العالميسة، الأن الموالسد النفطية كانت ما تزال المصدر الرئيس للميزانية الروسية.

لعل البحبوحة النسبية التي عميّز 14 العام 2000 كان لها تأثير مُطَمَّن على فريق الكرملين، حيث جعلتهم يعتقدون بأنهم يستطيعون الاستمرار لمدة طويلسة بسمون القيام بأي شيء عدا استهلاك احتياطات الذهب والعملة الصعبة. ولكن، عنسما أدركوا أخيراً التحديات القادمة، لملكتهم الحيرة وبدأوا بإلقاء اللوم على بعضــهم البعض، أو تحوّلوا إلى متشائسين.

كان سلوك الحكومة مفهوماً على أي حال، فهي كانت تنتظر الأوامر مسن الرئيس. تلك هي طريقة عمل السلطة في روسيا: اتبع من هو أعلى منك. لقد سمح يلتسين بدرجة ما من الاستقلالية، وتحمَّل وجود المحموعات المتنفذة المتنوعة. لكسن بوتين أوضح منذ البداية بأنه لن يقبل أية حركة خارج حدود النظام، وأنه كسان يريد تبعية كاملة من مساعديه. بيد أنه لم يكن سريعاً إلى الحدّ الكافي في رسم تلك الحدود، وفي بعض الأحيان لم يكن يعرف أين ينبغي رسمها لأنه لم يكن قد حسدًد مواقعه بعد. وهذا يفسر عطالة وجمود جهاز الدولة.

بدلاً من التحدث عن التوقعات الاقتصادية الإشكالية وتكوين وجهة نظره المناصة بشأغا، إلتفت بوتين إلى أمور أكثر بساطة، آملاً، فيما يبدو، بأغا لن تشير صراعات عاطفية ضمن المجتمع. فقد طلب بوتين من مجلس الدوما تمديد حلسته المنعقدة إلى أن يوافق النواب على مجموعة من الرموز الجديدة للدولة. يسدو أن الريس كان قد قرر بأن البلد يمكنه أن يستمر بدون استراتيحية واضحة فيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية ولكنه قطعاً لم يكن ليدخل إلى الألفية الجديدة بدون ختم وطني حديد، وغلم حديد، بالنسبة لحتم روسيا الجديسة، اقتسرح بوتين النسر ذا الرأسين من الحقبة القيصرية، الأمر الذي يمكن أن يرمز إلى الاستفاء من الإمراطورية القيصرية، أما النشيد السوفياتي – الذي صادق عليه في الأصسل من الإمراطورية القيصرية، أما النشيد السوفياتي – الذي صادق عليه في الأصسل منالين – فقد يرمز إلى الروابط مع الحقبة الشيوعية.

أما الرمز الثالث فقد احتير ليمثل الحقبة غير الشيوعية، إنه العلم ذو الألسوان الثلاثة الذي أعاد إحياءه يلتسين. ظهر العلم الثلائي الألوان أول مسرة في روسسيا القيصرية، وقد رفعه "الحراس البيض" عندما حاربوا البلشفيين في الحرب الأهليسة 1918-1920. وخلال الحرب العالمية الثانية، استُعمل العلم الثلاثي الألوان من قبل الحنوال أندريه فالسوف، الذي كان حليفًا لألمانيا النازية ضد الاتحاد السوفياتي. ولم ينس بوتين بدوره العلم الأحمر الذي كان رمزاً للاتحاد السوفياتي، حيست اقتسرح اتخذه علماً للحيش الروسي. بحذه التوليفة من الرموز التي تمثل كل مراحل التاريخ

نظر العديد من المراقبين إلى مزج رموز الانشقاق والكره المتبادل مسع رمسز الإمبراطورية السوفياتية على أنه إما استهزاء بالتاريخ أو نتيحة لعسدم فهسم هسلما التاريخ. حتى أن البعض اعتبرها محاولة استفزازية، لتوحيد الأمة على أسساس مسن الأمور المهيمة.

كانت وجهة نظر الرئيس بخصوص هذه المسألة أكثر صراحة. حدسي يقول لي بأن الرموز كانت من بنات أفكار بوتين بالذات، وهي بالتالي تعكس وجهة نظره المخاصة. بالنسبة لبوتين، لا يمكن أن توجد دولة قوية بدون رمروز تحظى عوافقة الجميع. كان من الأهمية بمكان أن يقف الشعب كل صباح احتراماً لنشيد يهر حماستهم وتفاؤهم، وأن ترفع المباني الحكومية علم روسيا بفخر واعتسزاز. لا شك أن بوتين كان صادقاً في رغبته بتعزيز تضامن المجتمع، وأنه كان يحلسم بسأن يصبح زعيماً لوحدة روسيا. لا بد أنه كان يؤمن حقاً بسأن العسودة إلى رمسوز القيصرية والشيوعية ستضع حداً للمحدل الحاد الذي كان يمرق البلد: ما هي روسيا المجديدة؟ ماذا ستأخذ روسيا من ماضيها وماذا ينبغي عليها أن ترفض؟ كان بوتين يربد أن يجلب إلى التيار السائد الجديد الناس الذين يحتون إلى المهود المسوفياتية؟ يربال هنالك الكثير منهم.

لا بد أن بوتين نفسه كان بملك على الأقل شيئاً من هذا الحنين، إذ كان واضحاً حبّه للنشيد السوفياتي. ولكن، لم يأخذ الرئيس في حسبانه أن هنالك أناساً في روسيا يعتبرون العودة إلى الماضي أمراً غير وارد على الإطلاق لأن هذا الماضي لم يكن يحسل في طياته الفرح والبهجة بل المعاناة والمأساة. وهكذا أعاد الرئيس، بما أظهره مسن قلسة حساسية وبلادة الذهن، الحياة إلى العواطف القديمة الباعثة على التفرقة بسين النساس، ونكا الجراح القديمة. لقد سرَّع في حدوث صدام آخر بين الناس الذين كانوا يريسدون عو ذكرى الحقبة السوفياتية، وموت الملايين في السحون السوفياتية (الغولاغ)، وبسين أولئك الذين كانوا ما يزالوا يشعرون بالفحر بتلك المرحلة.

عمَّ الجدل روسيا من حديد. لقد أظهرت المنقاشات العاطفية الدائمة والمتكررة بين الأصدقاء، وحتى بين الفراء، حول تلك الرموز كم همو صعب توحيد بلد يعاني من الاضطراب منذ سنوات وما زال يعيش تجربة تغيير حذري، وكم هي متضاربة ومتنافرة مصالح المحموعات المحتلفة - الليبراليون، القرميون، الساريون - وكيف رفضت هذه المحموعات الإصغاء لبعضها البعض.

الأمر الأساسي الذي كان يثير حنق الفتات الليوالية في المجتمع هسو النشسيد السوفياتي، حيث كانوا ينظرون إلى موسيقاه البطولية المولفة من قبسل ألكسندر الكسندروف على ألها رمز للشيوعية والإمراطورية السوفياتية. لم يتوقع بسوتين أن إعادة إقرار النشيد السوفياتي سيسبب مثل هذه العاصفة. ولهذا السسبب، عنسدما بدأت الاحتجاجات، ذهب الرئيس إلى تبرير نفسه، ولسو بطريقة تسنم عسن الانسزعاج: "دعونا لا ننسى بأننا في هذه الحالة نتكلم عن غالبة الناس"، مشسراً إلى نتائج الاستفتاءات على الرموز. لكن هذه الحجحة ذكرت الكشيرين بالحقيبة السوفياتية، عندما كان القادة يبررون أفعالهم بالإشارة إلى الأغلبية (10). بيد أن بوتين الصاف بتواضع، ولكن مع سحرية مبطنة، "أعترف بأن الناس وأنسا قسد نكسون" عطين."

في تلك الأثناء، خرج يلتسين من صمته الطويل. صرَّح السرئيس السسابق في مقابلة خاصة قائلاً: "أنا أعارض تماماً إعادة إقرار نشيد الإنحاد السسوفياتي نشيداً للدولة"(11). لكن بوتين – عن وعي تام – كان يناشد ذلك الجزء من الشعب الذي يتوق إلى نوع ما من إعادة إحياء عظمة وبحد روسيا أيام الاتحاد السوفياتي. كسان هولاء الناس يشكلون – على الأقل في تلك اللحظة – قاعدته الأساسية، بعكسس المثقفين المناصرين للغرب، وناشطي حقوق الإنسان، والمعادين للشيوعية كيلتسين. ولهذا السبب، لم يكن باستطاعة بوتين أن يخذل أتباعه المخلصين ويبدي ضعفاً أمام منافسيه المديرالين عن طريق النصال من الرموز.

في تصويت حرى في الدوما في 8 كانون الأول، وافق 381 من أصل 450 ناباً على التحول إلى النشيد السوفياتي. في ذلك التصويت، حصل العلم الأبيض والأزرق والأحمر على 342 صوتاً، والنسر ذو الرأسين على 341 صوتاً. كان ذلك أمراً متوقعاً على أية حال. وهكذا استمر اللوما في إخلاصه للرئيس الجديد، حيث أعطى مصادقته على كل اقتراحات الرئيس، ورغم أن الزمر الليمرالية كانت ضدر رموز الرئيس إلا ألها مُنعت من التحدث في الموضوع في البرلمان. تضمَّن القانون الذي جعل من تلك الرموز رموزاً رسمية فقرة تتطلب من الناس الوقوف خدلال النبيد. واستمر إطلاق النكات: "إذا لم تقف في "الوقت المناسب، فإنك ستمضي بعض "الوقت في السجن".



بعد بضعة أيام، وافق بحلس الاتحاد بدوره على الرموز التي اعتارها بسوتين لروسيا. وطلب السيناتورات أن يُعرَف النشيد، الذي الفوه لزمن طويل، وسيصبح مألوفاً من حديد. وعندما بدأت الموسيقى التي وافق عليها ستالين، هسب الجيسع على أرحلهم طائعين، باستثناء نيكولاي فيدوروف، رئيس تشوفاشيا، الذي ظل في مقعده متسمَّراً. وهذا كان إيذاناً بما سيحصل لاحقاً: في كل مناسبة رسمية، سيقف البعض فيما سيبقى البعض الآخر في مقاعدهم، أو سيتظاهرون بعقد شسرائط أحذيتهم، الأمر الذي سيكون - في المستقبل المنظور على الأقل - بمثابة تذكير دائم بالإنشقاق الحاصل في المجتمع الروسي وبحقيقة أن الرئيس الجديد هو من شجع على هذا الإنشقاق.

وتواصلت سنعرية الصحفيين من الرموز التي اقترحها الرئيس قالوا متهكمين: "إنه رئيس أمهاتنا وآبائنا"، لأن اعتياره لرموز الدولة أظهره وكأنه كان يهستم بالماضي أكثر من اهتمامه بالمستقبل. كان رئيس روسيا يعطى أجوبة الأمس علسى أسئلة اليوم. في الحقيقة، إن دخول روسيا الألفية الجديدة علسى ألحسان النشسيد السوفياتي أحدث في أخمان بعض الناس إحساساً داهماً بالخطر.

من ناحية أخرى، إن اختيار بوتين للنشيد السوفياتي، وخاصة مع احتجاحات يلتسين، أظهر أيضاً أن الرئيس كان يتعد عن تأثير يلتسين ودائرته السياسية، إذ إن مخالفته الصريحة والعلنية مع سلَفَه حول هذا الموضوع كان يمثّل تحسدياً للشسركة الحاكمة القديمة. ولكن، من السابق لأوانه الاستنتاج بأن بوتين قد أصبح الآن حراً 189

من كل الإلتزامات التي تربطه مع أولئك الذين أوصلوه إلى ما هو عليه.

ففي نفس الوقت تقريباً، في كانون الأول من العام 2000، وقع حدث آخر أظهر بأن بوتين كان ما يزال يقبع على الأقل تحت وطأة شيء من الإلتزام تجاه حاشية يلتمين. فقد قرّر مكتب الملعي العام في روسيا، رغم حصوله على كمية كبيرة من المعلومات من قبل بعض المدعين العامين السويسريين، إسقاط المدعوى التي تتهم المكتب الرئاسي ليلتمين بالاختلاس، وكانت عائلة يلتمين متورطة في هذه القضية وفقاً لمزاعمهم. وبعد عدة سنوات من القصص التي غطّت الصفحات الأولى للصحف الروسية، أعلن إقفال فضيحة "كرملين غيت" بسبب "عدم كفاية

طار الرئيس الروسي عابراً المحيطات وزار عدة بلدان في كل رحلة. وانتقل في رحلاته هذه من مناحات حارة إلى أخرى باردة وبالعكس. كانت قوته الجمسدية منده لذ كانت كانت قوته الجمسدية منده لله كان شاباً وماضيه الرياضي يساعده، إذ كانت لديم قلدة تحمّل كبيرة، ولياقة بدنية ممتازة (بعكس يلتمين). وإضافة إلى ذلك، تعلّم فلاديمروفيتش اللغة السرية للدبلوماسية، وأحسّ بالارتياح في القمم العالمية السي حضرها، وأحسّ كذلك بأنه على قدر المساواة مع بقية القادة. لقد تكلم بشكل منطقي وأثار الإعجاب بذاكرته. وهكذا أصبح بوتين، مع سرعة تعلمه، شريكاً عتم ما لقادة العالم.

تضخّت قائمة حزئية من رحلات بوتين في العام 2000 بيلاروسيا، بروناي، كندا، الصين، كوبا، فرنسا، ألمانيا، الهند، اليابان، ليبيا، منغوليا، كوريا الشسمالية، تركيا، وأوكرانيا. وقد استهلك الرئيس في تنقلاته تلسك ميزانيت المخصصة للرحلات الدولية، وتوجّب عليه الحصول على ميزانية إضافية.

إلى السنة ذاقما، قدَّمت وزارة الشؤون الخارجية، أحيراً، ورقة أفكار حسول السياسة الخارجية لروسيا. من بين الأمور المعقولة القليلة التي ذكر قما الوثيقة ما قيل عن أن اللولة ينبغي أن تتخلى عن "الفكرة الثابتة" المتعلقة بالتواجد العالمي، وأن تفكر بدلاً من ذلك بتعزيز مصالحها الاقتصادية. إضافة إلى تأكيدها على ضرورة تحمين العلاقات مع حاراتها في مجموعة الجمهوريات المستقلة ومع أوروبا. ولكن،

في الوقت نفسه، ضمَّت المسودة أفكاراً بدت بألها آتية من وثائق الحرب الباردة؛ مثل، إن روسيا محاطة بقوىً معادية ينبغي محاربتها.

أحدثت ورقة الأفكار هذه انطباعاً بأغا كانت ناتجـة عـن صـراع بـين جموعتين، الأولى مهتمة بالصورة الجديدة لروسيا، والثانية تسعى للعودة إلى أيـام المواجهة مع الغرب. وهذه الازدواجية يمكن ملاحظتها في بوتين نفسه علـى أيـة حال. فمن جهة، نجد بوتين يُصرّح قائلاً: "علينا أن نخلّص أنفسنا من طموحاتنا الإمبراطورية". ومن جهة أخرى، تشير ردة الفعل المولة للكرملين على السياسات المستقلة لأذربيحان وجورجيا وأوكرانيا على أن الطبع الإمبراطوري - رغم أنسه أصبح أضعف وأقل وضوحاً - كان ما يزال حياً في أذهان الغريق الحاكم الروسي الذي كان ما يزال يؤكد على حقوق روسيا كقوة عظمى.

إن طبيعة وتكرار اتصالات بوتين بالأوروبيين أظهرت بوضوح رغبة موسكو في جعل علاقاتها مع أوروبا الغربية العنصر الأكثر أهمية في سياستها الخارجية. في الحقيقة، كان واضحاً أن موسكو بحاجة لتفعيل علاقاتها مع الدول الغربية، وخاصة بعد يلتسين، الذي لم تسانده أي دولة أخرى، إضافة إلى الولايات المتحدة. وكانت روسيا مهتمة بشكل خاص بتعزيز روابطها الاقتصادية مع أوروبا لأن التحارة بين روسيا والاتحاد الأوروبي شكلت 48 بالمائة من تبادلاقا التحارية الإجمالية في حين أن التحارة مع الولايات المتحدة شكلت 5.5 إلى 6 بالمائلة فقط. ولكن، يشعر المرء بأن التوجّة الأوروبي لبوتين كان يعود، حزئياً، إلى البوودة المتنامية في العلاقات الروسية الأميركية.

غير أن دفء العلاقات الشخصية التي كانت تتطور بين بوتين وعدد مسن القادة الأوروبيين - وخاصة توتي بلير من المملكة المتحدة وغيرهارد شرودر مسن المانيا - لم تخفف من حدة مشاكل روسيا مع المحلس الأوروبي بسبب طريقة إدارتها "لعملية فقدت روسيا حقها في التصويت في المحلس الأوروبي بسبب طريقة إدارتها "لعملية مكافحة الإرهاب" في الشيشان (أعيد إليها هذا الحق في العام 2001 بعد أن قام وفد من المحلس الأوروبي بزيارة الشيشان واستنتج بأن السياسة الروسية هناك أصبحت أكثر عمدناً. ولم تكن موسكو كذلك على علاقة حسنة مسع منظمة

التعاون والأمن في أوروبا (OCSE)، حيث كانت روسيا تأمــل في تحويلــها إلى عنصر أساسي في الأمن الأوروبي رداً على تقوية الناتو. ونتيحة لذلك، رفض وزير الحارجية الروسي – الذي لم يتمكن من الوصول إلى تسوية مع البلـــدان الغربيـــة حول قضايا تتعلق بحقوق الإنسان – توقيع إعلان OCSE في نحاية العام.

إضافة إلى المحور الأوروبي، حاول بوتين استعادة صلات روسيا مع حلفاتها أيسام الحقبة السوفياتية. وهذه هي الفاية من زياراته إلى كوبا، ومنفوليا، وكوريا الشمالية. في الحقيقة، لم تكن روسيا - في استعادة الروابطها المقطوعة مع اللول السيق كانست في السابق تابعة لها - تسعى لاستعادة حزئية للورها العالمي وحسب، فاللوافع الاقتصادية كانت بنداً أساسياً على أجندها: كانت موسكو تريد البدء بمفاوضات تتعلق بسلفع الديون القديمة. وبما أن استرجاع الأموال كان مستحيلاً، تكلم بوتين عسن تعويضها بمواد خام وبتعاون اقتصادي مفيد لروسيا. كان الرئيس الروسي، بعبارة أخرى، يحاول وضع التجارة على سلم أولويات السياسة الخارجية الروسية، وهذا تحسول واعسد لا صابق له على الساحة الدولية، حيث كانت روسيا قتم دائماً بإظهار قوقها أكثر من أي ماية تحر، حتى عندما كان ذلك يعني خسارة المنافع الاقتصادية.

هذا الاهتمام بالحلفاء السابقين من المرحلة السسوفياتية أأسار قلسق الليسبرالين الروسين، وأسعد قوميها الذين أعلنوا لهاية السياسات ذات التوجهات المناصرة للغرب وبدء التحول نحو آسيا (1.2). لكن بوتين، في الواقع، لم يكن يخطّط للقطيمة مع الغسرب، حيث طبَّق في سياسته الحارجية نفس المنهج الذي اتبعه في السياسة الداخلية – مبدياً الاهتمام بكل شريك عتمل على حدة، دون أن يربط نفسه بأي أحد بصفة دائمسة. كان واضحاً أنه كان يريد - بنشاطه الدبلوماسي – أن يذكر العالم بروسيا بعد حقيق طويلة من الخمول على مستوى السياسة الخارجية. وإلى جانب ذلك، من الموكد أيضاً أن الرئيس الروسي كانت لديه بعض الأولويات المناخلية، وعلسى رأسها الأجنسة الاقتصادية. ولكن، في نفس الوقت، إن رغبة بوتين في التحسرك المتسزامن في جميسع الاقتصادية. وحدت الانطباع بأنه ما يزال غير قادر عن الإحابة على السؤال التالي: إلى جمية تندى روسيا؟ أو لعله أرحاً إحابته لبعض الوقت.

على أي حال، لقد أفلح نشاط بوتين على جميع الجبهات الدولية في تأكيد أمــر

واحد فقط هو زيادة برودة العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة. في الواقسع، لقسد بدأت هذه العلاقات بالتحمد خلال فترة كليتون - يلتسين، لكن المثير للسسخرية في الأمر هو أن ذلك حصل بالرغم من أن بيل كليتون هو السرئيس الأميركسي الأول، والزعيم الأميركي الوحيد الذي حعل روسيا من مهام سياسته الخارجية، والذي دعسا "لتحالف استراتيجي مع الإصلاح الروسي". وفي هذا الشأن، قدم ستروب تسالبوت، نائب وزير الخارجية في عهد كليتون، تقييماً موضحاً للعلاقة الروسسية الأميركيسة في التصدينات في مذكراته "يد روسيا"، كاشفاً النقاب عن التضارب الخفي والدراماتيكي للمصالح والأمال والأساطير عندما أحدث هذه العلاقة الجديدة بالتشكل (33).

في منتصف العام 1999، تعرضت العلاقة الروسية الأميركية إلى توثر شديد. ظاهرياً، لقد تسببت الحرب في كوسوفو وتوسيع الناتو في إحداث فحوة كبرة في تلك العلاقات، غير أن حذور الاستياء الثنائي كانت أعمق من ذلك بكير. في الواقع، أساء كلا الجانبين تقدير المصاعب والعوائق التي تقف في وجه تحوّل روسيا وبناء روابط طبيعية في وقت وصلت فيه إحدى الملولتين إلى ذروة غير مسبوقة بينما كانت الأخرى تمرّ في مرحلة سقوط مذلّ، وخاصة في ظلّ حقيقة ألهما كانت لمدة طويلة من الزمن ندّين لمودين وكانتا كذلك رمزين لحضارتين متناقضتين. لقد كانت الأمر كية الروسية، والقدرات غير المتوازنة أسباباً حدية للإحباط المتنامي في العلاقات الأمركية الروسية. مع أن الولايات المتحدة كان لها علاقات غير متوازنة مع دول أخرى و لم تودّ إلى مثل ذلك القلق المبادل.

كان ثمة اعتقاد قوى في أوساط الطبقات السياسية الروسية في أن دور القسوة العظمى هو عامل موحّد وحاسم في روسيا، والطريقة الوحيدة لبقاء روسيا ككيسان، وفي نفس الوقت كان السبب الرئيس لاتساع الفحوة بين الولايات المتحدة وروسيا. وهذا الاعتقاد كان وراء عناد النجة الروسية ورغبتهم السيّ لا تتزحسزح في السسعي لتحقيق الطموحات العالمية لروسيا، وسبباً في سخطهم من الهيمنة الأميركيسة وعسلم استعدادهم لتقبّل هذه الخطط. بعبارة أعرى، لم تكن الطبقة السياسية الروسية مستعدة لإعادة تعريف دور روسيا في العالم. كانت موسكو ما تزال ترغب بالحفساظ علسي النظام العالمي الثنائي الأقطاب، وبحوزةا حجة واحدة تدعم مزاعمها: ترسانتها النووية.

في ميدان الأمن، اتبعت إدارة كليتون سياسة وصفها توماس غراهام وأرنولد هوريليك "عقايضة الرمزية بالمادة" (14). قلمت هنده السياسة لموسكو بعنض الامتيازات، مثل ضمّها إلى مجموعة السبعة مقابل انسحاب قواقسا من أوروبسا الشرقية ومنطقة بحر البلطيق، وساهمت في حدوث تجنّب ردّ روسي مسدمر علسي توسيع الناتو. ولم تساعد هذه السياسة الولايات المتحدة في تحقيق أجندها فقط بل سهلت عملية انتقال روسيا للعب دور دولي أكثر واقعية. ولكنها على أي حال لم عنم العلاقة الأميركية الروسية من التلهور والتأزَّم في نمايسة المطاف. بكلمات أعرى، لم تفلح الرمزية والشراكة الزائفة، التي اعتبرها النجبة الروسية بحوَّفة، إلا في تعميق قلة ثقة موسكو في واشنطن.

في الواقع، لقد ساعدت إدارة كليتون روسيا في التعامل مع تداعي القسوة العظمى عن طريق المساعدة في حلَّ القضايا الأمنية الناجمة عسن الهيار الاتحساد السوفياتي. لكن "التعامل مع تداعي القوة العظمى" لم يحصل إلا على النذر اليسم من الدعم أو حتى التقدير من النجبة الروسية، التي اعتبرت وضع روسسيا كقسوة عظمى شرطاً لازماً وضرورياً لمكانة روسيا. إضافة إلى ذلك، فالولايات المتحدة لم تكن عملك الصبر والوقت على الدوام، وافتقرت إلى تفهم الهسواجس الروسية، كالذي أطهرته مسألة توسيع الناتو، الأمر الذي أحدث رفضاً عاطفياً في روسيا.

من الناحية النظرية، كان باستطاعة موسكو وواشنطن حلَّ الموضوع بشــرط واحد: أن تتخلى روسيا عن المطالبة بدور القوة العظمى، وتوافق على أن تصـبح دولة "طبيعية" وحزءاً من الحضارة الغربية؛ أي أن تصبح فرنــــا حديـــدة. وقـــد تتضمن الصفقة قبول روسيا الطوعي بميمنة الولايات المتحدة على العالم. بيـــد أن ذلك كان يبدو غير ممكن الحدوث في تلك الآونة.

لأن الإيديولوحيا الديمقراطية الليبرالية لم تكن قد أصبحت محميّة بعد، بقيت لفسة القوة العظمى – في أعين الكثيرين من ممثلي الطبقة السياسية في روسيا – عاملاً موحَّداً قوياً طوال التسعينيات، و لم يكن بإمكان أي زعيم روسي الحفاظ على سلطته إذا لم يعرك ذلك. يلتسين نفسه – رغم أنه كان في أعماقه غربي التوجه – كان يعتقسد في أغلب الأحيان أنه من الأسلم له أن يلعب دور المناصر لمبدأ القوة العظمى، الأمر السذي

يفسر تذبذبه في السياسة الخارجية. ولهذا السبب، كان الإبقاء على السياسة الخارجية ومحطاب القوة العظمى عاملاً أساسياً في انعدام استقرار العلاقات مع الولايات المتحدة. وعليه، فإن برودة علاقة موسكو بواشنطن كانت حتمية.

--- y

كان الأشخاص الذين حلبهم بوتين إلى الكرملين يكرهون ضعف بلسدهم. كيف لا وقد تربَّوا منذ نعومة أطفارهم على الإيمان باستثنائية وعظمة روسيا. كانوا يريدون أن يُعامَلوا باحترام، ويريدون كذلك لبلادهم أن تُحترر و وُلوخسذ بالحسبان من حديد. وربما، إذا لم تكن مهابة كما في السابق، أن يُنظَر إليها بحسفر على أقل تقدير. والدولة الأجنبية الوحيدة التي كانوا يريدون أن يثبتوا شيئاً ما لهسا هي الولايات المتحدة، لأن روسيا لم تكن تستطيع أن تشعر بألها قوة عظمى إلا عبر وجود علاقة متكافئة معها. إن أسلوب حق تقرير المصير الذي انتهجه الفريسق الحاكم الجديد في روسيا في بداية العام 2000 كان أقسرب إلى أسسلوب الاتحساد السوفياني الذي يقوم على إظهار نوع من الاستقلالية العدائية، والبحث عن مناطق نفوذ خاصة، والتأكيد على ما يفرق بدلاً من التأكيد على ما يقسرُّب، ومحاولة الابتزاز عن طريق التهديد بالتقارب مع الصين.

اتخذ الفريق الحاكم الجديد في الكرماين سلسلة من الخطوات لإبداء بسرودة مشاعره تجاه واشنطن. فقد أشار بوتين إلى عدم اهتمامه بتطوير العلاقة مسح السرئيس الأميركي المنتهية ولايته، أي كلينتون، لكنه سيتنظر حتى يتعامل مع خليفته. وعنسدما تقابل بوتين مع كلينتون في موسكو في حزيران من العسام 2000، لم يلجساً السزعيم الروسي حتى إلى النظاهر بالاهتمام بتقوية علاقة شخصية، أو مناقشة قضايا هامة، معه. وفي هذا الخصوص، كتب تالبوت: "لم تكن لعبة بوتين خافية على أحد: كان ينتظسر انتخاب خليفة كليتون بعد خمسة أشهر قبل أن يقرَّر كيف سيتعامل مسع الولايسات المتحدة وكل قوتها، ومطالبها، وتوبيخها. بعبارة أخرى، لقد وضع بسوتين، بطريقت المتحدة وكل قوتها، العلاقات الأميركية الروسية في وضعية الانتظار (15).

أولى الإشارات إلى اتباع الكرملين سياسة أكثر خشونة تجاه الولايات المتحدة

المثلت في عاكمة رحل الأعمال الأميركي إدموند بوب، الذي أنهسم بالتحسس وعاولة شراء مخططات التوربيد السري الروسي "شكفال" ثم تلتها المزيد مسن الإشارات. ففي 3 تشرين الثاني، قبل الانتخاب الرئاسي في الولايات المتحسدة، في واحد من أشد الأوقات توتراً، أبلغ وزيرالخارجية الروسي إيغور إيفسانوف وزارة الحارجية الأميركية بأن روسيا لن تلتزم بعد ذلك باتفاق غسور -تشسيرنومهدين المتعلق بالحدّ من إرسال شحنات الأسلحة الروسية إلى إيران. كانت هذه هدية غير سارة إلى الديمقراطيين وخاصة لأن المرشح الرئاسي آل غور كان يدافع في تلسك سارة إلى الديمقراطيين وخاصة لأن المرشح الرئاسي آل غور كان يدافع في تلسك الأونة عن نفسه ضد قم تعلق بإبرام صفقات سرية مع الروس وإذعسان ضسمني للفساد الروسي (16). أما المثال الأوضح على النهج الجديد تجاه واشنطن فقد تمثل في عاولة الجيش الروسي تحميل الولايات المتحدة المسؤولية علسي فقسدان الغواصة كورسك.

وقمة مثال آخر على التغيّر في العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة ممثّل في تحليق الطائرات الروسية فوق حاملة الطائرات الأميركية "كيتي هوك" في تشسرين الثاني من العام 2000. مثل هذه التحليقات لم تحدث منذ نهاية الحرب الباردة. من الواضح أن فريق بوتين في الكرملين كان يربد من الجيش الروسي أن يرسل رسالة إلى الولايات المتحدة: "احذروا، إننا ما نسزال أقوياء ويمكنسا أن نسسبب لكسم المشاكل!" وفوق ذلك، كُوفئ الطيارون على تحليقهم فوق الحاملة الأميركية.

إن إظهار الثقة الزائدة بالنفس وتذكير الجماهير بأن الحب والعناق قد وليا إلى غير رجعة كانا لعبة تستهدف المواطن الروسي في الشارع والنجبة المعادية للغرب، التي عابت على يلتسين إفراطه في إبداء الود إلى القادة الأميركسين. صحيح أن معاداة النعب السياسية الروسية لأميركا كانت موجودة من قبل، إلا ألها كانست مقنعة في عهد يلتسين، في حين ألها أصبحت الآن إلزامية إذا ما أردت اكتساب الحق بالانضمام إلى الطبقة السياسية. ومع أن الرئيس الروسي الجديد - مثل سلقة - حظي بفرصة الدخول إلى دائرة "مجموعة الثماني" ومصافحة الرئيس الأميركسي، إلا أن الصحافة - حتى الصحف الليم اليه الح منية مرصة في كتابة ملاحظات حارجة بحق الأميركيين عوافقة ضمنية من بعض قاطني الكرملين.

سلّط المراقب الروسي النديه بيوتنكوفسكي الضوء على هذا الأمر عندما كتسب في 7 كانون الأول من العام 2000 في صحيفة أوبشتشايا غازيتا عن مرض "الاكتساب الهوسي" لدى النعبة الروسية الذي يظهر حلياً من علال علاقات روسيا مع واشنطن. يمكن ملاحظة هذا المرض من علال تذلّل بعض عملي الطبقة السياسية الروسية أمسام واشنطن. فعندما طار هولاء إلى العاصمة الأموكية لمقابلة مسؤولين أموكين، تحسنتوا بلباقة، ووزعوا ابتسامات عربضة، وربّوا على اكتافهم على الطريقة الأموكية. لكنهم ما لبنوا أن انقلوا على الولايات المتحلة عندما عادوا إلى موسكو. كان يتوجّب عليهم الحفاظ على صورقم كمويدين لمركزية اللولة، وكمناصرين للقوة العظمسي، الألهساكات الموضة في ذلك الحين. وهذا النفاق كان يخفي فيما يدو مشساعر متاقضة: الإذلال والوقاحة، الرغبة بالانتقام والتوق إلى قبولهم كأنداد.

لا يمكن القول بأن هذه الموحة من العداء لأميركا قد أثيرت من قبل السرئيس المروسي، فهو تصرّف بطريقة متحفظة للغاية وبحذر شديد. لكنه، بالمقابل، لم يفعل أي شيء لإيقاف هذه المزاج. بدا الأمر وكأن بوتين كان ما يزال في طور فهم هوية روسيا، والأهداف الروسية في حقل السياسة الخارجية، وتقييم الفرب والولايات المتحدة وتواياهما تجاه روسيا، من الواضح أنه قام بصياغة اتجاهه العام أثناء وجوده في سان بطرسبورغ، عندما أقام العديد من الصلات التجارية الناجحة مع الغرب. لكنه كان مضطراً بعد ارتقائه المفاجئ إلى الرئاسة وإلى التأكد من أن اتجاهه هذا لن يشكل قديداً لسلطته، ولهذا السبب فضًل الانتظار. فهمست الطبقة السياسية حذر بوتين على أنه استحسان منه لإبداء موقف أكثر فعالية في معاداة أميركا. على أكم نعالم لك دائماً أن تلعب على المشاعر المعادية تجاهه.

لكن واشنطن لم تكن مهتمة بروسيا في خريف العام 2000، فالمشكلة التي كانت تعانيها في انتخاب رئيسها كانت شغلها الشاغل في تلك الفترة. وقد أثارت المرحلسة الحتامية من تلك الانتخابات استهزاء وسخرية المؤسسة السياسية الروسية، التي خرجت منها بتنيحة واحدة: ينبغي على المرء أن يتحكّم بتنيحة الانتخاب. حتى أن بوتين علّستى بسخرية على المنقراطية الأميركية غير القادرة على إعطاء الشعب الأميركي رئيسسه

الجديد بسرعة. بعبارة أخرى، لقد عززت الإحراءات للمدّبة للانتخابات الأميركية من اقتناع الفريق الحاكم في روسيا بأن الآلية الروسية للتعلقة بتعيين السرئيس واسستخدام للوارد الإدارية من أحل ضمان انتخابه كانت أكثر ملايمة وفقالية.

—**-**

عندما أصبح واضحاً أن الولايات المتحدة قد انتخبت الجمهسوري حسورج دبليو بوش، تنفست طبقة النخبة الروسية الصعداء، إذ اعتقدت بأن الجمهسورين ميكونون أفضل لروسيا من الديمقراطيين. وقد استندوا في اسستنتاحهم هسذا إلى ثلاث ركائز: أولاً، لقد خاب ظن موسكو في كلينتون الذي فعل الفليل - بالرغم من نواياه الجيدة تجاه روسيا - لمساعدة قضية الإصلاح الروسسي، حسسب رأي السياسيين الروس. كانت الطبقة الحاكمة الروسية تتوقع "خطة مارشال" حديدة - مثل الخطة التي نقدقا الولايات المتحدة في أوروبا بعد الحرب العالميسة الثانية - كعربون شكر لروسيا لقضائها على الشيوعية والاتحاد السسوفياتي. إلا أن تلسك كعربون شكر لروسيا لقضائها على الشيوعية والاتحاد السسوفياتي. إلا أن تلسك

ثانياً، خلال رئاسة كلينتون، استمر الوزن والنفوذ السدوليان لروسيا بالتناقص، الأمر الذي عزَّز من شدة انعدام التوازن بين الولايسات المتحدة وروسيا. كانت طبقة النخبة في روسيا - لعدم استعدادها لتقبّل انعدام التوازن ذاك، أو لإعادة النظر في طموحات القوة العظمى ومقاربة العالم بطريقة أكثر واقعية - تنظر إلى واشنطن بمزيد من الشك والغيظ، متهمة إياها بالسمعي للهيمنة على العالم وعاولة إضعاف روسيا، وأي عاولة مسن قبل الولايسات المتحدة للسعي وراء مصالحها كان يُنظر إليها على ألها موحّهة ضد روسيا، استمرار للعبة التي يفوز فيها طرف واحد فقط.

أما السبب الثالث لتفضيل إمساك الجمهوريين لزمام السلطة في الولايات المتحدة فهو يرجع إلى أن المراقبين في موسكو كانوا يعتقدون بأن العلاقات بين البلدين في عهد الديمقراطيين حون ف. كينيدي وحيمي كارتر كانت رديقة، بعكسس الجمهسوريين ريتشارد نيكسون ورونالد ريفان وحورج بوش الأب الذين نجحوا في إقامة علاهسات ودّية مع القادة السوفيات والروس. من الواضح أن الفاكرة البشرية ذات طبيعة انتقالية، فقد نسي المعادون الروس للذيمقراطيين الأميركيين قمساوة نيكمسون تجساه الاتحساد السوفيالي وعداء ريغان في بداية رئاسته "لإمبراطورية الشرّ".

في الحقيقة، أكثر ما كانت تكرهه النعبة الروسية في الديمقراطيين هو رغبتهم في نشر الديمقراطية واهتمامهم بالحقوق والحريات. إن الفريق الحاكم الجديد في الكرملين لم يكن يريد أن يستمع إلى محاضرات من أحد، وخاصة حول موضوع الديمقراطية. كان الجمهوريون، من منظور موسكو، أقل ميلاً للتدخل في الشوون الداخلية للبلدان الأخرى، وأكثر استعداداً لممارسة لعبة توازن القوى التي كانست روسيا ما تزال مشتركة فيها.

رأت موسكو في انتخاب جورج دبليو بوش بداية حقبة جديدة من العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا. الكثيرون في روسيا نظروا إلى بوش على أنه بــوتين الأمركي. ولهذا السبب اعتبر المولعون بالتشبيه بأن بوش وبوتين سيحبان بعضهما البعض بكل تأكيد. كلاهما كانا ينطلقان من المربع رقم واحد، في السياســـة وفي علاقتهما الخاصة.

اعتقد المراقبون الروس أن البلدين سيلعبان على الأمور الجيوسياسية، وسيدخلان في حوار حول القضايا النووية التي تجيدها طبقة النجبة الروسية كيثيراً لألها كانست مختجه شعوراً بالأهمية. كانوا يعتقدون بأنه سيُنظَر إلى روسيا مرة أخرى على ألها شريك للولايات المتحدة، وبذلك ستستعيد مكانتها كقوة عظمى. لم يكن المحططون الاستراتيجيون الروس يأملون في أن يتوقف الجمهوريون والديمقراطيون على حدَّ سواء عن وضع روسيا على سلم أولويالهم، وأن تسأم واضعلن من موسكو ومسن مزاجها المتقلب دائماً، بل كانوا يرغبون في أن تُذلل موسكو وتُتملَّق. لكن القاطنين الجدد الاكتر قسوة وبراغماتية في البيت الأبيض - بعكس ما كان عليه الحال أيام كليتون عيد كان هناك دائماً استعداد لاسترضاء السياسيين في موسكو والتسوية معهم - لم يكونوا رقيقين أبداً حين كان الأمر يتعلق بالكرملين. وهكذا كان على موسكو أن تتسعد لمواجهة موقف أكثر تقيداً وحتى برودة من حانب البيت الأبيض، الأمر السذي يمكن أن يشير على الدوام إلى القرق بين إمكانيات البلدين.

لله شيء آخر يقف بين الرئيسين الجديدين: إلها خطط الولايسات المتحدة الحسلة بالدفاع الصاروخي القومي (NMD)، الذي كان يعني إلغاء معاهدة الحسلة من الصواريخ البالستية التي ينظر إليها الروس على ألها "حجر الزاوية في الاستقرار النووي". كل السياسين الروس تقريباً، بمن فيهم الليراليون، كانوا يشعرون بسأن المخططات الأميركية المتعلقة بـ (NMD) ستقوض النظام الأمني العسالمي السذي تأسس على مدار السنين - هذا النظام الذي كانت روسيا إحدى مكوناته الهامة - ولهذا السبب كانت غير مقبولة إطلاقاً بالنسبة لروسيا.

هذا الموقف المتمثّل بالرفض التام للدفاع الصاروحي القومي، ورفض البحث عن تسوية مع واشنطن كان يهدّد بإحراج موسكو إذا ما مضت الولايات المتحدة قدماً في بسط مظلتها النووية. كانت دوائر السياسة الخارجية الروسسية تأسل في حشد أوروبا والصين ضد الخطة الأميركية. إن رفض كلينتون للاستمرار بالسفاع الصاروحي في فترة حكمه نظر إليه في موسكو على أنه نتيجة للضغط الروسي على البيت الأبيض. وهذه الفكرة كانت أساس اعتقاد الكرملين بسأن خطسة السدفاع الصاروحي القومي يمكن أن تتوقف عن طريق أحد موقف متشدد من الولايسات المتحدة. ذلك كان الانطباع السائد في روسيا.

على أي حال، يستحقّ بوتين الثناء لتمييزه بين الانخناء للتعقيدات الروسية – وهو ما قام به فعلاً، وفي أكثر من مناسبة – وبين الفهم العملي للوضع الدولي الجديد ودور روسيا فيه، وهو ما أظهره من خلال سياسته الحذرة في نحاية العام 2000. لعلم بأن الولايات المتحدة لم تعد تشكل التهديد الأساسي لأمن روسيا. ولكن، كان من الصعب عليه القفز فوق طموحات ووسوسات طبقة النحبة الروسسية، وفي تلك للرحلة كان بوتين مضطراً للتآسي بهم، ولو مع قيود متزايدة.

- 49-

عموماً، لم تكن سنة 2000 بالسنة السهلة، لروسيا ولرئيسسها معساً. فقسد شهدت هذه السنة غرق الكورسك، واستمرار الحرب في الشيشان، تلك الحسرب التي كانت تحصد الأرواح في كل أسبوع. مع ذلك، ورغم كل تلك المآسي، كان التفاؤل الشعبي عالياً بطريقة مثيرة للدهشة. بالنسبة للكثيرين من الشعب الروسي، كان العام 2000 العام الأقل صعوبة في السنوات الأخيرة، وخاصة بالنسبة لسكان المقاطعات، وكبار السن، والفقراء؛ أوثمك الذين كانوا يعيشون حياة بسسيطة. فهؤلاء الناس كانوا قد بدأوا يحصلون على أجورهم ورواتبهم التقاعدية بانتظام في عهد بوتين، وذلك كان كافياً لجعلهم يعتبرون السنة ناجحة.

أما المتقفون وسكان المدن الكبيرة والشريحة السياسية من المجتمع، فقد كانت سنة 2000 بالنسبة إليهم أشد قسوة من سابقتها. بعض هؤلاء الناس كانوا أكشر استياء مما فعله الرئيس الجديد في المشهد السياسي، لأغم كانوا يتوقعون منه أكسر من رواتبهم المنتظمة؛ كانوا يتوقعون منه رؤية وإحساساً أقوى بالمسؤولية. فيمساكان آخرون فاقدي الأمل منذ البداية وذلك لارتياهم في بسوتين، والآن، لسدى مشاهدهم غرابة سلوك الرئيس، شعروا بأن شكوكهم كانت في محلها.

من بين المشتركين الروس في استطلاع جرى في العام 2000، كان 95 بالمات منهم بملكون آمالاً أكبر من العام السابق (كان الرقم 29 بالماته)، و30 بالمائكة منسهم كانوا يشعرون بخبية الأمل (كما في العام 1999)، و16 بالمائة كانوا يشعرون بالحوف (أقل بشكل طفيف من 18 بالمائة في العام 1999). بينما كان 13 بالمائكة في العام 1999)، و20 بالمائة بالفضب (مقارنة مسع 23 بالمائة في 1999). إذاً، فالعام 2000 كان العلف بالنسبة لروسسيا، ويتميّز، بحسب كلمات عالم الاجتماع يوري ليفادا، "بخوف أقل بقليل وأمل أكثر بقليل "8اأ.

ولكن، لا يمكننا أن نعتبر العام 2000 عاماً خالياً من المشاكل بالنسبة لبوتين، أولاً كرئيس للوزراء ورئيس مؤقت، ومن ثم كرئيس منتخب. ففي نهايسة تلسك السنة، كان واضحاً أن الشعب الروسي يعتبر الحرب في الشيشان حرباً فاشلة، حيث وصف 49 بالمائة منهم العمليات العسكرية هناك بالفاشلة، مقارنة مسع 24 بالمائة في بداية السنة. ولكن، مع ذلك، لم يكن ثمة مظاهرات معارضة للحسرب أو أية أنشطة أخرى في روسيا. بدا المجتمع بعيداً عن الحرب، منتظراً نمايتها. وتظاهر الناس بأن لا علاقة لهم بالأحداث في الشيشان والخسائر المستمرة.

وبشكل تدريجي بدأ رأي الشعب الروسي في رئاسة بوتين يصبح أكثر قسوة.

ففي نحاية العام 2000، كان 45 بالمائة منهم يشعرون بأنه يتمامل مسع مسوولياته بطريقة حسنة، و48 بالمائة كانوا يشعرون بأنه غير ناجح. كما اعتسبر 65 بالمائه منهم أنشطة الرئيس في الميدان الاقتصادي بأنها فاشلة، وكسذلك مهمسة حمايسة المنهقراطية، حيث بلغت نسبة من اعتبروها فاشلة 53 بالمائة. المجال الوحيد السذي كانت الأغلبية تعتبر الرئيس ناجحاً فيه هو الشؤون الدولية (63 بالمائة مقابسل 28 بالمائة). في الحقيقة، لم يكن لدى المشتركين فهم واضح لماهية فعاليسات السياسسة الحارجية، كل ما في الأمر هو ألهم كانوا عندوعين برحلاته الدولية المستمرة.

ورغم أن الغالبية لم تكن تعتبر أنشطة الرئيس ناحجة، إلا أن إدارته عموماً كسبت قبول 68 بالمائة من المشتركين في الاستطلاع، و40 بالمائة منهم كانوا مستعدين للتصويت له كرئيس مرة أخرى. غير أن تلك المعطيات لم تكن لتحسل الرئيس يشعر بالتفاؤل كثيراً. صحيح أنه كان ما يزال يحظى بالدعم والمساندة، إلا أن الغالبية لم تتوقع شيئاً إيجابياً من رئاسته. كان الدافع الرئيس لدعم الناس له هو عدم وجود بديل له في الساحة السياسية الروسية.

القد استطاع إبطال تأثير كل المحموعات المتنفذة التي كانت قوية في عهد يلتسبين. لقد استطاع إبطال تأثير كل المحموعات المتنفذة التي كانت قوية في عهد يلتسبية. ووجّه ضربة إلى أفراد الطبقة الحاكمة وحعلهم يتعلّون عن طموحاقم السياسسية. لكن المسؤولة عن إضعاف الطبقة الحاكمة، إذا أردنا أن نكون موضوعيين، هسي الأزمة المالية التي حدثت في العام 1998، فبعد تلك الضربة لم تستعد الطبقة عافيتها كقوة سياسية أبداً. وهذا ما حصل للنحبة الإقليمية أيضاً، حيث أثبت الكسرملين بأنه يستطيع التحلّص من الزعماء الإقليميين الذين يكرههم بسهولة تامة. وأخيراً، بانه يستطيع التحلّص من الزعماء الإقليميين الذين يكرههم الدوما كان تابعا المحتفت المعارضة السياسية بشكل يكاد يكون فائياً، إذ إن محلس الدوما كان تابعا بشكل كلّي إلى الكرملين. كان المشهد الذي رأيناه هادئاً ورائقاً إلى حدّ بعيد. لقد تقير توزيع السلطة بشكل حذري، و لم يعد السياسيون ينقسمون إلى فتقسراطين وشيوعيين. من مع بوتين ومن ضده أصبح هو الخط الفاصل. وكان هناك القليسل من القسم الثاني، أو أهم كانوا على المامش.

كيف تمكّن زعيم الكرملين الجديد في هذه الفترة القصيرة، وبـــدون صـــراع

مرئي من تدمير "الأزهار السياسية" المتعددة التي تفتّحت في عهد يلتسين وأفسدت عليه حياته؟ الجواب بسيط إلى حدّ ما: المجتمع كان ما يزال يختزن في داخله خوفاً من السلطات. أما يلتسين فلم يكن مهاباً، وخاصة في نهاية حكمه. وفوق ذلك، فالناس لم يكونوا يعتبرونه حقوداً أو محباً للانتقام. كان يُعامَل كدب مريض عحوز يمكن إغاظته قليلاً ولا يُحمَل على محمل الجد.

غير أن الرئيس الروسي الثاني كان يثير مشاعر مختلفة. فهو لم يكن معروفاً بشكل حيد، والناس لم يكونوا يعلمون أين هي الخطوط التي رسمها، أو ما إذا كانت هنالك أية حدود في استخدام السلطة؛ بما فيها الإكراه. ولهذا السبب، أي نقد من السلطات - أو أية نظرة أو إيماءة من الرئيس - كان كافياً لجعمل النساس يندفعون إلى التزلّف والتملق.

لقد تبيّن أن السلطات الرئيسة في روسيا، وأوها الرئيس، كانت ما تـزال تتمتع بسلطة هائلة. كان بوتين زعيماً يمتلك موارد إدارية وقمعية ويحظى بدعم الطبقة السياسية، وإلى جانب ذلك، لم يكن لهة بديل له في ذلك الوقت. كانت السلطة بحسَّدة بشخصه. والموجودون في المعارضة لم يكونوا يمتلكون أية ضمانة للبقاء أو الوجود أو حتى لرفع أصواقم، وكان خيارهم الوحيد هو العيش على هوامش الحياة السياسية. قد يعترض المرء ويقول بأن يلتسين أيضاً كان بملسك أيضاً موارد إدارية. هذا صحيح، لكن السرئيس الروسسي الأول لم يكسن باستطاعته أبداً الحصول على دعم مطلق وخضوع تام. كان دائماً بجد نفسه مضطراً لخوض صراعات مع الدوما وبجلس الاتحاد والمعارضة، وتحمل المحمات الصحف وسخرية المنافسين. وفي النهاية، تجاهله الجميم وعاملوه بازدراء.

ولكن، لماذا نجمح بوتين النكرة الذي يبدو سطحياً في إعضاع المشهد السياسي في روسيا لمشيئته في حين أن يلتسين القوي ذا الشخصية الجذابة فشل؟ والجواب هسو - إضافة إلى الخوف من السلطة والحضوع التقليسدي للطبقسة السياسسية - الإحهاد والإرهاق. حكم يلتسين في فترة من الهيجان الاحتماعي، وعنسلما انتسهت الموجسة الصاعدة، عاد الناس إلى العيش في القوضي. كان هذا وقست السلوامات السياسسية والصراع السياسي، وقت التشظي والتعدية، وقت الحريات والعفوية. ويلتسين نفسسه

زاد من ثوران هذه الفورة ووسَّع دائرة التغيير، دون أن يعرف كيف يعيد الوضـــع إلى الاستقرار. بالنسبة ليلتسين، كان اتساع أنق التغيير وسيلة لبقائه الشخصي.

وعند بحيء بوتين، بدا واضحاً تماماً كم أصبح المجتمع مرهقاً وغير مبال. كان بوتين ممكناً لأن الناس لم يكونوا يريدون شيئاً إلا السلام والاستقرار. نجسح بوتين بمكناً لأن الناس لم يكونوا يريدون شيئاً إلا السلام والاستقرار. نجسح بسوتين السعولة في التعامل مع الاضطراب الذي تنامى في عهد يلتسين لأن غالبية الشسعب الروسي كانت تريد منه ذلك. والمؤيدون الرئيسيون للنظام كانوا الفقراء الذين راهنسوا على بوتين وفهموا بأن النظام كان يعني الطاعة لمازعيم. إن انتقال المجتمع مسن طسور المفوضى والتحرر إلى طور الهدوء وانتشار القيم المحافظة قدَّم مساعلة كبيرة إلى بوتين.

حالما تجمعت كل السلطة في يدي بوتين، توقف عند ذلك الحدّ. الانتصاران الواضحان الوحيدان اللذان حققهما بوتين في العام 2000، إضافة إلى تأسيس نظامه الرئاسي المطلق، أو "هرمية السلطة" كما سُمَّي في روسيا، هما موافقة بجلس الدوما على معاهدة تخفيض الصواريخ 2- START وقانون ضريبة الدخل الجديدة. عملياً، كان هذا بحمل ما أنجزه بوتين في تلك السنة، بالرغم من كل الظروف المناسبة التي أحاطت به، هذه الظروف التي لم يحظ ياتسين عمثلها أبداً.

في البداية، سبب نشاط بوتين المحموم - رحلاته المدائمة في جميع أنحاء البلسد، ولقاءاته مع أنهى متنوعين، وظهوره المتواصل على التلفزيون - الانطباع بوحسود قيادة نشيطة وديناميكية وحتى هجومية، ولكن، بشكل تدريجي، بدأ الكشير مسن الناس ينظرون إلى كل ذلك النشاط على أنه بحرد حركة يُقصد منها الإيجاء بوحود السلطة. في تلك الفترة بدا الرئيس وكأنه كان يتبع المبدأ القاتل: "الهدف لا يهسم، الحركة"

لم يفعل بوتين شيئاً تقريباً من أحل الإصلاح الليبرالي. علاوة على ذلك، فقد أظهر العام 2000 غياب الدافع في رئاسته وتضاؤل طاقة القيادة. من هنا، تسردد السوال التالي بصوت كان يزداد علواً باضطراد: "لماذا كان بوتين يريد السلطة، من أحل التقدم أم من أحل الإصلاح؟ قلة قليلة من المراقبين استنتحت بسأن السلطة كانت محملًا هدفاً بحد ذاتها بالنسبة إلى الزعيم الروسي الشاب.

إضافة إلى ذلك، بذأت أمور أحرى بالانكشاف بشكل تدريجي. فقد تبيّن أن

أياً من أنشطة رئيس الكرملين لم تصل إلى نتيحتها المنطقية. صحيح أنه أفزع الطبقة الحاكمة وأصائما بالرعب، إلا أن أولئك الذين وافقوا على الإخلاص للنظام مُنحوا حرية كاملة في التصرف وجمع الثروات. ولم يُقمّع إلا من رفض الطاعبة منسهم. وهكذا توقّفت ثورة بوتين على الطبقة الحاكمة في منتصف الطريق. وتم الحفساط على الاندماج بين السلطة وعالم المال.

لظم الحكام في صف واحد، كالجنود، ورُوَّضوا. غير أن الكرملين لم يتمكن من تحقيق كل أهدافه في الأقاليم والحصول على طاعة تامة فيها. وهكذا، سسرعان ما وجد الكرملين نفسه مضطراً للقيام بما فعله يلتسين دائماً: عسرض المسفقات والتسويات على حكام المناطق.

ورغم كل الضغط الذي مارسه الكرملين على وسائل الإعلام، فقد استمرت بالتواجد على الساحة. فمع لهاية العام 2000، كانت قناة NTV ما تـزال تنتقـد بوتين. وكل المحاولات الرامية لزج غوزينسكي، مالك ميديا - موست، في السحن وانتزاع السيطرة على وسائل الإعلام منه باءت بالفشل.

بكلمات أعرى، لقد نجع فلاجمير فلاديميروفيتش في تحقيق نسائج مشهرة للإعجاب في ترويض الحياة السياسية الروسية، ولكن، تبين فيما بعد بأنه كان بعيداً حداً من تقييدها بشكل كامل. فالمجتمع الروسي، الذي كان يعطي الانطباع بأنسه أصبح مروّضاً، استمر في السير على طريقته الخاصة. كان فريق بسوتين يستخدم سلاح الحوف: لقد "أظهر الهراوة" فقط، بحسب تعبير بوتين نفسه. بالنسسبة لمسن يخاف بسهولة، كان ذلك كافياً، ولكن، ثمة آخرون غير هولاء في المجتمع أولسك الذين قرروا الانتظار، أو مراقبة النظام، أو عدم الاستسلام. صحيح ألهم لم يكونوا كثراً، إلا ألهم كانوا موجودين. ومع فقدان همجوميته السابقة ومواحهته مقاومة صامتة وغير مرئية، أصبح بوتين يبدو متردداً بشكل متكرر.

كان ليلتسين رقصته الخاصة؛ خطوة واحدة إلى الأمام، وخطوتان إلى الوراء. أما بوتين فكان يأخذ خطوة إلى الأمام، ثم يتوقّف، وأحياناً يتراجع؛ كانت رقصة متقطعة و وغير متنظمة. لكن ذلك لا يعني بأنه كان يفتقر إلى الحزم في تحطيم العناصر المستاءة في المجتمع واستكمال بناء "ديمقراطيته القابلة للتحكم 18". لعلم كان يتنظر الوقت المناسب ويستحمع قواه. لكن احتمال أنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل تالياً لا يقل إمكانية أيضاً. لربما كان العام 2000 بجرد تحمية قبل القفز. ولكن، بأي اتجاه؟

أصبحت مصادر سلطة بوتين واضحة. أولها أسمار النفط المرتفعة، التي أنتحت استقراراً اقتصادياً وجعلت من الممكن دفع الأجور والرواتب التقاعدية. وهذا ما دفع الصحفين إلى تشبيه بوتين "بالقيصر ليونيد" - نسبة لليونيد بريجينيف - لأن الاتحاد السوفياتي في عهده عاش على أسعار النفط العالية. ولكسن، حالما أغفضت الأسعار، الهار الاقتصاد السوفياتي كبيت من ورق اللعب.

المصدر الثاني لسلطة بوتين عمن في معدلات قبوله العالبة إلى حسد يستر الاستغراب، والتي استمرت عالية بالرغم من ظهور خيبة الأمل لسدى بعسض الفتات الاجتماعية. لكن أسعار النفط ومعدلات القبول كانت غسر مستقرة بطبيعتها، ولهذا السبب فهي لا تصلح لأن تكون مرتكزات لأي نظام رئاسي. ففي لهاية العام 2000، بدأت أسعار النفط بالانخفاض بسبطء. أما بالنسسبة لمعدلات القبول، فقد أصبح بوتين أسواً لها. وقد انعكس ذلك في سياساته، إذ إن الرئيس كان يضطر أحياناً إلى رفض أو تأحيل القيام بأعمال ضرورية، مثل الإسكان وإصلاح المؤسسات التي تعنى بالمنفعة العامة، لمجرد ألها كانست قمدة.

بدا الأمر وكأن الكرملين كان يبدأ يومه بتحليل معدلات الرئيس. فسإذا كان التأييد يتراجع في إحدى الفعات الاجتماعية، كان الكرملين يوجّبه حسل اهتمامه إليها. وهذا السبب، بدأ الرئيس فحاة بإلقاء خطابات تنسم مسع تعللهات الجمهور الموجّه إليه. فإذا كان بحاجة لإطراء اليسار، شرع بسوتين في مهاجمة الطبقة الحاكمة. وإذا كان الليراليون مستائين، تحوّل إليهم، متحدثاً عن إصلاحات السوق. كان واضحاً عماماً أن كل طاقات الرئيس وفريقسه كانست ثهدر في تتبع تذهذب معدلاته. ونتيحة لذلك، لم يبق وقت أو طاقة لوضع خطة عمل عامة.

 الاحتفاظ بخبراء الانتخابات في الكرملين حوَّل إدارة الرئيس إلى حملة انتخابيسة متواصلة.

وهكذا، بعد سنة في السلطة، لم يجب بوتين على السؤال المتعلق بماهيت كشخص. وهذا السؤال، الذي طرحه الصحافيون في القمة العالمية للنُخسب الرأسمالية في دافوس في شتاء العام 2000 -"من هو السيد بوتين؟" - كان ما يزال حاضراً في ذلك الحين. فبوتين كان ما يزال زعيماً غير واضح المعالم لأنه كان يفيّر من ملاعه باستمرار كي يكون مقبولاً من كل القسوى وبشكل متزامن. وهذا ما عبر عنه الفنانون الذين رسموا صوراً له، حيث اشتكوا من عدم قدرهم على "التقاطه"؛ كان ينسزلق منهم، وكان يسدو غسير واضح، ولم يستطيعوا تحديد الملامح المعيزة التي كان الزعماء السابقون بمتلكولها. في الحقيقة، غالباً ما كان الرئيس الجديد يهدو وكانه يتصرف كضابط استخبارات عيرف، وذلك من خلال تمويه مساراته وإخفاء نياته الحقيقية. ونتيحة لهذلك، غامضة.

ولهذا السبب، استمرت القوى المعتلفة على رجائها بأن يصف بوتين في لهاية المطاف إلى جانبها. فالليراليون كانوا يأملون بأن ينضم بوتين إليهم، واليساريون والمركزيون كانوا يشعرون بأنه أقرب إليهم. "من هو السيد بوتين وكيف يتصور مستقبل روسيا أمران ما زالا غير معلومين"، كتب أحد الصحفيين في صحيفة كوميرسانت -فلاست في 26 كانون الأول 2000. "ما هو معروف الأن لا يختلف عما هو معروف منذ سنة. وسواء أكان عن وعي منه أم عن غير وعي، فبوتين صا زال لا يمكن الناس من معرفته ((19). بعبارة أعرى، حتى وهو رئيس للبلاد، كان الله يتوين يتصرف كعميل في أرض العدو، فلا يدع أحداً يعلم بنواياه الحقيقية أبداً إذا كانت لديه أية نوايا أساساً. وبسبب صورته غير المكتملة هذه وتفاوضه السياسسي مع القوى السياسية الأساسية والساسية على مواقعه في السلطة، وعلى الاستقرار الاحتماعي. في نحو تدافر على الأقل.

الغطل الماحس

روسيا تجنح إلى الهدوء

لعودة إلى العطبخ. العجتمع بيحث عن الهنوء. النيفولية الروسية. من يحب روسيا أكثر؟ بزنامج على NTV. نعى من الشمع.

انتهت السنة الأولى من رئاسة بوتين في ربيع العام 2001. في هسذه السسنة، شهدنا مناخاً سياسياً وثقافياً كتيباً، بدلاً من النشاط والاضطراب الذي تميزت بمما فترة يلتسين. الآن، لم يعد هنالك أية قوة سياسية مستقلة عن الكسرملين، أو أيسة مجموعة شعبية ذات صوت مستقل. كل الذين بقوا على الساحة تقريباً أصسبحوا يلعبون - طواعية منهم أو رغماً عنهم - وفقاً للقوانين التي أرسستها السلطات الرسية. أما أولئك الذين كانوا ما يزالون يجاولون قول ما يفكرون به، وخاصة إذا كان ما يفكرون به هو مهاجمة الكرملين، فإن بقاءهم السياسي أصبح بسلا أيسة ضمانة، ليس لألهم كانوا مهددين بل لأن أحداً لم يعد يستمع إليهم؛ إذ لم يعد لهم

لقد فقد اللاعبون السياسيون أهيتهم وأصبح من الصعب تذكّرهم. فالمثقفون والسياسيون الذين كانوا منذ وقت قريب حداً بلهبون المختمع حماسة وحيوية - الليراليون، الطبقة الحاكمة، الصحفيون اللامعون، المنشقون السابقون الذين كان الناس يترقبون ظهورهم بفارغ الصبر - إما أهم اختفوا من المشهد السياسسي، أو أهم كانوا يتكلمون بصوت خافت. على سبيل المثال، عندما ظهر المنشق السوفياتي الشهر، الكاتب ألكسندر سولجنيتسين - كان يعيش في عزلة خارج موسكو -

في العاصمة، تُظر إليه وكأنه قطعة أثرية في المتحف. كان الحوار الشعبي والسياسي قد أصبح ضحلاً وثانوياً، حيث انحدر إلى مستوى حديث المطبخ. لم يكن ممة أحد في الأفق يستطيع، أو يتحرأ على التفكير في الأمور الهامة.

كانت الحياة في عهد يلتسين، حتى في المرحلة الأخيرة من عمر إدارته ورغسم الهياره الشخصي، تسير في سرعتها القصوى، ولو لم يكن تأثيرها مركزاً دائماً على السياسة العامة والنظام. أما الآن، حتى الصخب الظاهري ولّى إلى غسير رجعة. أصبح الروس أقل اهتماماً بالسياسة والمستقبل في آن معاً. وبدلاً من ذلك سسيطر السام واللامبالاة. وفي أغلب الأحيان، كان هذا القلق الخارجي يخفي وراءه خسواء أو افتقار إلى الطموح، إذ لم تكن غاية الشعب تنعدى البقاء على قيد الحياة لا أكثر.

في المختمعات الأخرى، ينشأ التراخي أو الاسترخاء عادة من الإشباع أو الأسان المادي، أما في روسيا، فإن اللامبالاة والتحلي عن الآمال والانــزلاق إلى العيش يومــاً يوم كان ناتجاً عن خيبة الأمل والشعور بالإرهاق والسام. لقد أصبح الشعب الروسي ينظر إلى المزيد من الإصلاحات على ألها قد لا تكون نافعة بالضــرورة، بـــل كــانوا يخشون من أن تودي هذه الإصلاحات إلى تفاقم الأوضاع أكثر.

على أي حال، إن التحوّل من الصراع والكفاح اللذين ميّزا عهد يلتسين إلى الهمود والتراخي لم يحصل مع بداية الرئاسة الجديدة مباشرة. فبسوتين لم يكن المنتخب في فترة من النشاط والتوق إلى تجديد الحياة. وهو لم يكن ليظهر كشخصية شعبية عندما كانت الحياة السياسية الروسية تتطلب شخصيات كاريزماتية، فسادة حبويين ذوي قدرات استثنائية؛ عندما كان البحث عن هدف ما زال قائماً. كان بوتين يمثل انعكاساً لاستنسزاف المشاعر التغييرية، وبالنسبة للكشيرين، انعكاساً لفقدان الشحاعة وربما للشعور بالعيش في مأزق لا مخرج منه. بدت روسيا وكألها لم تكن تريد أكثر من السلام والهدوء، وبوتين كان يبدو بأنه الرحل القادر علسي تحقيق ذلك. وهكذا أصبح الرئيس الجديد تجسيداً للتشوش والخلط بين الأشياء. أو بالأحرى، إنه أرغم على تقبّل هذا الدور، الذي لم يكن يجبه، لأنه كان فيما يبدو، يمتلك طموحات أكبر لنفسه ولروسيا.

لقد تغيّرت لغة السلطة وعطاب طبقة النعبة كذلك. فقبل عسدة سسنوات فقط، كان الجميع يتكلمون عن الإصلاح والتحديد والتحديث والديمقراطية. كان من المستحيل التكلم بأية طريقة أخرى. تلك الكلمات - التي ترمز إلى نمط حديد من الحياة - كانت قد أصبحت شعبية في عهد غورباتشوف. وفي عهد يلتمسين، أصبحت المدخل إلى أوساط النعبة وجواز المرور إلى السلطة. أما الآن، فقسد استبلت تلك الكلمات بكلمات حديدة عتلفة عنها كلياً؛ أي الاستقرار، المركزية، النظام، السيادة، السلطة، الوطنية. وهذا التغير في الكلمات الرمزية والخطاب بشكل عام كان يشير إلى المنطق الجديد للسياسة الروسية.

صحيح أن السياسيين الذي ينتمون إلى الماضي كانوا بمارون الساحة السياسية، إلا أهم كانوا في معظمهم مجرد أشباح. بعضهم كانوا خاتفين من تأنيب الكرملين. والبعض الآخر حاولوا الظهور بمظهر المستقلين، لكنهم في حقيقة الأمر لم يكونوا يعرفون أي قضايا سيأخلون موققاً منها، أو أي موقع مسيعتارون، أو كيف سيحمون استقلاليتهم وحريتهم في التعبير والتصرف. لم يكونوا يقررون مساهي القضايا التي يمكن أن لا يوافقوا عليها، أو التي يُسمَح لهم بأن يختلفوا عليها مع الكرملين.

والمفارقة في الأمر هي أن الفريق الحاكم لم يكن يمتلك الشجاعة لفرض أمنياته على الروس. فالرئيس، بعكس التوقعات، سرعان ما تبيّن بأنه لم يكن ذلك الرجل فو القبضة الحديدية المستعد لإرغام الناس على قبول سياسته. لكن المجتمع والطبقة السياسية، المستعدين لطاعة السلطات، أراحا هذه السلطات مسن عسب، فسرض رغباتما عليهما، وقابلاها في منتصف الطريق. وهكذا اصعلف السياسيون بانتظام حتى دون أن يُعلَب منهم ذلك. وأحاط أعضاء حزب الوحدة - فريق السرئيس بيوتين ولسان حالهم يقول: "أخبرنا بما نفعل وسنفعله يا سسيدي" بينما بدأ الأشخاص الجريئون والحازمون والمفكرون بمفادرة الساحة السياسية. أمسا السذين أصروا على البقاء، واستمروا بالمعارضة - مثل الناشط في حقوق الإنسان سيرجي كافاليوف - فقد كان يُنظر إليهم على ألهم بحرد حالمين وغريبو الأطوار، وله السبب لم يعرهم أحد انتباهاً. لقد سقطوا على حوانب الحياة الجديدة التي كانست

تحد في النبعية والإذعان دلالة على البواغماتية والعقلانية. وكل ما عدا ذلك فهـــو ليس إلا مثالية وغباء.

و الحقيقة، ما كان يجري ما هو إلا تجميع للصف الأخور من النظام السوفياتي القديم. فبعد أن عمل الزمن والصراعات على إزالة العسفوف الأولى مسن ذلك النظام، ها هي السلطة الآن تؤول إلى الأعضاء الجسد مسن الطبقة الحاكمة السوفياتية. كان أفراد هذه الطبقة في الأربعينيات من أعمارهم. أثناء فترة تسلويب الجليد في عهد غورباتشوف وفترة الاضطراب في عهد يلتسين، لم يكن لدى هؤلاء الجرأة ولا القدرة على الوصول إلى القمة، ولعلهم لم يكونوا يمتلكون الموهبة أيضاً. كانت أعمارهم ما تزال صغيرة وخبرقم قليلة، ولهذا السبب لم يستطيعوا إلا أن يكزنوا بموار السلطة، يلعبون أدواراً ثانوية في الصف الثالث منها. كانوا ينتظرون فرصتهم، فخدموا وعملوا كما الصبية المراسلون إلى أن حانت ساعتهم. بعسض حاشية بوتين لم يكونوا يمتلكون أي طموح ولكنهم وصلوا إلى القمسة بالصدفة. حتى فلاديمر فلاديمروفيتش ومعظم رفاقه في أعلى المستويات، أعتقد أن استلامهم حتى فلاديمر فنادغروفيتش ومعظم رفاقه في أعلى المستويات، أعتقد أن استلامهم كلسلطة كان يمثابة مفاجأة.

معظم فريق بوتين جاء من سان بطرسبورغ، الأمر الذي يمثل استمراراً للتقليد السوفياتي والروسي المحترم الذي يجلب بموجبه الزعيم أشخاصاً من موطنه بالذات. وكانت هنالك بمحوعة من النكات الطريفة حول هذه المسألة في موسكو، علسي سبيل المثال: عند وصول القطار الآتي من سان بطرسبورغ إلى موسكو، يقتسرب أشخاص عليهم سمات المسوولين الرسميين من جميع المترجّلين منه ويسألولهم، "هل تحب أن تعمل في الكرملين؟" كان معروفاً أن كل الزملاء السابقين المقسرين إلى بوتين في سان بطرسبورغ، وحتى بعض معارفه فقط، قسد انتقلسوا إلى موسكو ليستلموا مناصب هامة فيها. وذلك أظهر أن الرئيس الجديد كان لا يثق إلا بمساعدة يعرفهم. صحيح أن ضح دماء حديدة في الكرملين كان ضرورياً جسداً لمساعدة الرئيس الجديد على الخروج من سيطرة الدائرة التي كانت تحكم في عهد يلتسين، الرئيس الجديد على الخروج من سيطرة الدائرة التي كانت تحكم في عهد يلتسين، الرئيس المحديد على الخروج من سيطرة الدائرة التي كانت تحكم في عهد يلتسين، الرئيس المحديد من وي الخبرات المحلية.

في عهد يلتسين، كان بإمكانك أن تجد جميع الأطباف في الكسرملين، مسن اللمقراطيين وفوي التوجهات الغربية إلى القوميين ومؤيدي الديكتاتورية. كسان طاقماً متنوع المشارب، نتاجاً للارتقاء المفاجئ لأشخاص غير متوقمين بتاتاً. أمسا فريق بوتين -رغم أنه صعد إلى القمة بشكل مفاجئ أيضاً - فإن أعضاءه كلسهم كانوا متشاهين، ويختلفون كلباً عن بمموعة يلتسين. كانوا أشخاصاً ذوي أوجسه غير مميزة، ولا يحبون الكلام، ولا يهتمون بالمزاح أبداً. معظمهم كانوا من المومنين بالمركزية، وكانوا يشعرون بالحنين للعظمة المتلاشية لروسيا. لا بد ألهسم كرهسوا المهوض والانحلال اللذين عميزت بمما فتسرة يلتسسين. لكسن هسؤلاء التسابعين البيوقر اطين الذي قَدموا إلى السلطة مع بوتين حعلوا أولتك المقربين من يلتسسين البيون ديناميكيين بل استثنائيين أيضاً. في الحقيقة، تتطلّب الأزمنة التي تسسعى إلى الاستقرار أشخاصاً من النمط العادي، أشخاصاً لا يمتلكون أي نوع مسن النفسرد والرغية في الروز.

كان أعضاء فريق بوتين يتتمون إلى جيل واحد وكسانوا كلسهم يرتبطون بنموذج سلوكي متشابه. العديد منهم كانت لهم صلات مسع أحهزة السسلطة (السيلوفيكي) أو على الأقل كانوا يتشاركون في نظرهم العامة إلى الجيش والقوات الأمنية. لقد سمحوا لأشخاص ذوي عقليات عتلفة – مثل الليبراليين حيرمان غريف وأليكسي كودرين – بالدخول إلى وسطهم من أحل تحقيق أغراض معينة، لكنسهم لم يمنحوهم حرية الحركة. لم يكن باستطاعتهم الوئسوق في الليسبراليين، لأهسم أشخاص من دم مختلف.

معظم الأشخاص الجدد الذين اعتلوا القمة كانوا يمتلكون مباديهم الخاصة وفهمهم الخاص للاستقامة. كانوا براغماتين، واقعين، حذرين، ولهذا السبب، لم يضعوا لأنفسهم أهدافاً غير واقعية. ولكن، كان هناك شيء في براغماتيهم أدى إلى تقويضها. كان أغلب مساعدي بوتين كانوا ما يزالون يعيشون مشال القسوة العظمى؛ لم يكن يمقدورهم على الأرجح أن يتصوروا روسيا كبلد تفكر في أبنائها، وليس في قوقا وعظمتها. لم يكن واضحاً بعد ما إذا كان باستطاعة الفريق الجديد التخلص من هذا المثال والتعامل مع الدولة على أساس ألها وسيلة لحدمة النساس.

وإذا ما حصل ذلك، عندها فقط يمكننا أن نستنج أن روسيا تغلبت على ماضيها. في ذلك الوقت، على أي حال، كان فريق بوتين يعمل وفقاً للنموذج الذي يعرف.

ي تعد الرحاء على الله هو ما جلبه القادمون الجلد إلى الكرملين من ضيق الأفق وبساطة التفكير، إذ مضى وقت طويل منذ أن أصبحت سان بطرسبورغ مدينة عادية؛ سياسيا وثقافياً. ومع أن هذه البساطة كانت مفيدة إلى الكرملين، لأفحا جعلته أكثر قرباً من الشريحة الأوسع من المجتمع الروسي، إلا أقحا جعلت مسن الصعوبة بمكان بالنسبة للفريق الجديد أن يفهم المشاكل الاستراتيجية المعقدة، وأن يمارس فن الحكم في مجتمع ضخم وإشكالي إلى درجة كبيرة، مجتمع كان مجاحة إلى رؤيا جريئة وخيرة ومعرفة.

في الحقيقة، ليست السمة الأبرز في هذا الفريق الجديد هي أنه كان عافظاً وعدم الحيرة، بل إلها تتصل بحقيقة ليست حديدة تماماً: إن الإصلاحات التي قام ها يلتسين في عهده لم تنتج نحية بديلة وغير شيوعية في روسيا. بكلمات أحرى، إن الأشخاص الذين استلموا السلطة حليهم النظام القدم نفسه وامتلكوا الروابط القديمة ذاتها. صحيح ألهم تنفسوا هواء حديداً وطوروا عادات حديدة، ولكن، لم يكن واضحاً إلى أي درجة كانوا يتطلعون إلى المستقبل وما إذا كان بوسعهم تقدم استراتيحية حديدة إلى روسيا. ونحن نعرف بأن المختمع لا يمكن أن يتقدم إلا بعسد ظهور تُخب حديدة، كما في كل التحولات الناجحة.

العديد من النقاد السياسيين كانوا يقولون، على سبيل المواساة، بأن المرحلة التغييرية أعقبتها فترة من الاستقرار. وفي هذا الخصوص، ما على المرء إلا أن ينظر إلى البلدان الشبوعية السابقة في أوروبا الشسرقية بعد اضطراباتها الاجتماعية والسياسية. غير أن الاستقرار في بولندا وهنغاريسا، على سبيل المثال. فهناك وقع الاختيار على غط جديد من الحياة، والنساس كسانوا موافقين في المبدأ على هذا الاختيار. أما في روسيا، فالاستقرار كان يعني أن الناس سعموا من السعى لتحقيق أحندة جديدة، ومن البحث عن مستقبل جديد، واتفقوا سعموا من السعى لتحقيق أحندة جديدة، ومن البحث عن مستقبل جديد، واتفقوا

على إيقاف ذلك البحث. على الأقل في الوقت الحاضر.

خلال سنوات الاضطراب التي شهدها عهد يلتسين، كان الشعار المرفوع هو "علينا أن نتغير كي نبقى على قبد الحياة" أما الآن فإن الكشيرين مسن الشعب الروسي - الذين يبحثون عن الحدوء - أصبحوا يناصرون مبدءاً آخر: "التغيير خطر وينطوي على محازفة" في الواقع، بعد أن استفادت الأقلية فقط مسن إصلاحات يلتسين، سعمت غالبية الشعب الروسي المزيد من التحارب. إضافة إلى ذلك، بسدا الأمر وكأن الأقلية الفائزة لم تكن مهتمة كثيراً بالتغييرات، وخائفة من إعادة توزيع السلطة والملكية. ولهذا السب، اختار الكثيرون الاستمرار بما يمتلكون.

جاء الاستقرار في وقت لم تكن قد حُلَّت فيه المشاكل المتعلقة بتحديد وإعادة هيكلة المجتمع بشكل كامل، بعد عشر سنوات من محاولة التحوّل. كان المجتمع ما يزال مجتمعاً هجيناً مكوَّناً من عناصر متناقضة: ضغط بيروقراطي ومعارضة غير منظمة، اقتصاد سوق مع رغبة الحكومة في التحكم بكل شيء، اعتياد على الحربة الشخصية واستعداد للحدّ من الحريات الشخصية، خضوع للسلطات وانعدام الثقة والشك 14. كان الروس يريدون أن يكونوا أحراراً وفي نفس الوقت كانوا خائفين من الحربة، لأغم لم يكونوا يعرفون كيف يتعاملون معها.

بيد أن المظاهر الخارجية للديمقراطية في روسيا لم تتدخل في نسسج شبكة العنكبوت البيروقراطية التي خنقت البلد من حديد. فالمجتمع، رغبة منسه بالمحافظة على بقائه ووضع الأمور في نصابها، اضطر إلى الانسحاب ثانيةً إلى دائرة علاقسات الظل، حيث تقوم فيها العلاقات والمال والسلطة والتلاعب - بدلاً مسن الحكسم العادل والشفاف للقانون - بتقرير كل شيء. حتى الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ليبرالين شعروا بالارتياح في ربوع المنطقة الرمادية هذه.

هل يمكن لهذا المجتمع الهجين المرتكز على مبادئ متعارضة أن يستمر وإذا كان بإمكانه ذلك، فإلى منى وإذا كان الجواب سلبياً، هل كانت روسيا مستعدة لمتابعة إصلاحاتها في حوَّ من الإرهاق والإحباط ؟ كانت هنالك حاجة إلى فترة من الراحة. لكن ذلك كان يعني خسارة المزيد من الوقت، والتاريخ لا يصبر علمى فترات الراحة. وهل بإمكان روسيا أن تمنح نفسها فترة من الراحة في وقت كانت فيه البنية التحتية التي بُنيت في العهود السوفياتية تنهار – مسع تحطّسم الطالرات المتكرر، والهيار الأبنية، وسوء حالة الطرقات، وتداعي النظامين التعليمي والصحي؟ كانت روسيا تبدو وكألها عالمة وسط أزمة لا تملك حلولاً لها. كان النقاد يلفّسون ويدورن لمرفة ما إذا كان بوتين ما يزال يفكر ويتأمّل، أو إذا كان ينتظر، أو إذا كان يمخر لاختراق حديد. على أي حال، لم تكن ثمة إشارات واضحة على التفكير والبحث في الكرملين، لكن عميل الاستحبارات السابق كان يعرف كيف يكون غامضاً وعصياً على الفهم، وكيف يقوم بالتفاقات غير متوقعة. ولكرن، في غضون ذلك، كان الوقت الثمين ينقضى مسرعاً.

9.

كان موقف روسيا من الغرب مؤشراً مهماً من أحل تقييم التغيرات الحاصلة في البلد، وتقييم آراء الناس حول اعتلاء بوتين سنة الحكم. خلال حكم يلتسين، أراد العديد من الناس التشبه بالمواطنين الغربين وكافحوا كي يصبحوا جزءاً مسن أوروبا. غير أن الكثيرين منهم خاب ظنهم في الغسرب في أهاية التسعينات، وأصبحوا لا يثقون في نواياه تجاه روسيا. فمعظم آمالهم في إدخال استثمارات مالية حدية إلى الاقتصاد الروسي لم تتحقق. والنماذج المؤسساتية التي استثمارات مالية الغرب لم تنجع في روسيا، أو ألها - إذا شئنا اللقة - نجحت، ولكن فقط في تحقيق مصالح الاقلية. والديمقراطية تحوكت إلى فوضى، والخصخصة أفضت إلى إثراء القله، الاثرياء أصلاً.

وهكذا وصل الكتيرون من الشعب الروسي إلى الاستنتاج أن النموذج الغربي في التمدن لم يكن يناسب النظام الروسي في التطور. فوفقاً لاستفتاءات أحراها VTSIOM في وقت مبكر من العام 2001، كان 58 بالمائة من الشعب الروسية والمربية متعارضتان. ولم يكن هذا الأمسر يمكس نوعاً من العداء تجماه الغرب، بل فقدان الأمل في أن تتمكن روسيا يوماً من اللحاق بالمجتمع الغربي.

النجبة أكثر الفتات الاجتماعية اتباعاً لذلك النمط. وكلما اتبعت الطبقة الحاكمة المعايير الغربية بنجاح أكبر، كلما تحوّلت إلى دعم وضع روسيا كقوة عظمى، كألها كانت تبحث عن غطاء لأساليبها الغربية. كان من المسلّي الاستماع إلى أشخاص كانوا يقودون سيارات باهظة الثمن، ويمتلكون فيلات علمى شاطئ السريفييرا الفرنسية ويرسلون أولادهم إلى مدارس في سويسرا وإنكلترا، ويحتفظون بأموالهم في بنوك غربية وهم يقدمون آراء سوفياتية تموذجية حول انحمدار الفسرب والحاجسة لمقاومته.

فحاة، بدأت الرغبة - لدى الطبقة الحاكمة وبقية المحتمع معاً - بسالعودة إلى القيم الروسية التقليدية والبحث عن الهدوء والسكينة فيها تظهر بحلاء. حيث بدأت أعداد منزايدة من المواطنين الروس المحيطين الاعتقاد بأن روسيا مقدَّر لها أن تسلك "طريقها الخاص" في التطور(1). ويتميز هذا الطريق الخاص بحكومة قوية مركزية، وسلطة مركزة في يدي الزعيم، وإيديولوجيا القوة العظمى.

شهدت بداية رئاسة بوتين زيادة عدد الأشخاص الذين يؤمنون بأن بلسدهم كان مختلفاً عن الدول الأخرى وأن الشعب الروسي كان مختلفاً عن الشعوب الأخرى. ففي حين ذكر 54 بالمائة من المشتركين في أحد استطلاعات السرأي في روسيا في العام 1994 بأن الشعب الروسي كان قد أصبح مختلفاً عن شعوب البلدان الفرية، أصبحت نسبة من يشعرون بذات الشيء في العام 2000 فمانية وستين بالمائة. سبعون بالمائة من الشعب الروسي كانوا يعتقدون بأن روسيا "كانت تتميز بثقافة روحية فريدة ونحط فريد في الحياة"، و71 بالمائة قالوا بأن روسيا "بلد عظيم الاعتقادات كانت بمثابة الترياق للإحساس بهشاشة روسيا ومشاعر الإحباط السي الاعتقادات كانت بمثابة الترياق للإحساس بهشاشة روسيا ومشاعر الإحباط السي تسكن نفوس مواطنيها. وهي تساعدنا أيضاً على تفسير محاولة الروس التعويض عن المشاكل المحلية بالظهور بمظهر القوى في الساحة الدولية.

تعكس هذه المعطيات خيية الأمل من الأفكار المتعلقة بالاندماج السهل مسع الغرب، تلك الأفكار التي حاءت مع العلاقات الدافقة التي جمعت روسيا والغرب في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن الماضي. فبحلول لهاية التسعينيات، عمّ اليأس، واشتكى الكثير من الشعب الروسي من قدرة بلدهم على أن يصبح "طبيعياً" في أي يوم من الأيام. والعلاج الوحيد لمعجز روسيا يتمشّل في الإعمان بمصيرها المرسوم لها خصيصاً؛ فالشعب الروسي ليس كبقية الشعوب ويجب الا يحاول أن يصبح مثلهم، لأن القدر رسم له مصيراً أعظم من مصائر الأخسرين، والهدف نفسه يتطلب معاناة وألماً وتأقلماً مع الصعوبات. لم يجلب طريق روسيا الخاص لها حياة طبيعية أبداً، لكن الإيمان لها منع تبريراً لليأس ووهماً بالقوة.

ينبغي دائماً التعامل مع نتائج الاستطلاعات بحذر. فعلى سبيل المثال، لو سُئل الروس، حتى في تلك الفترة من القدرية البائسة، "هل تحبون الاستمرار في طريقكم الحاص، إذا كان ذلك يعني استمرار الفقر وسلطة البيروقراطية والفساد والسرقة في روسيا؟" فإن الغالبية العظمى من الروس سيؤيدون بهلا أدنى شك الشيء الطبيعسي، ألا وهو الانضمام إلى الحضارة الغربية. وإذا سُئل الروس، "ما هو التهديد الأكسير للمحتمع، الغرب، أم الإرهاب الإسلامي، أم الصين، أم المشاكل المحليسة؟" فسإن غالبيتهم على الأرجح سيقولون بأن التحديات الأعظم التي تواجه روسيا تكمن في روسيا نفسها.

وفي الوقت نفسه، من المنصف الاستنتاج بأن الطبقة السياسية وبعض الفعات الاحتماعية في روسيا خلال السنوات الأولى من رئاسة بوتين بدأوا يفقدون الأمل في قدرة روسيا على اللحاق بركب الغرب والاندماج بالمجتمع الفسريي. وارتقاء بوتين نفسه إلى السلطة ما هو إلا انعكاس، ونتيحة، لهذا التحوّل. لقد افترض الناس الذين كانوا ينظرون إلى رئيس له ماض في الكي حي بي بأنه وطسي بالفسرورة ومؤيد لمكانة روسيا كقوة عظمى، كما هي حال غالبية "السيلوفيكي" الروسسية. كانوا مستعدين - بخضوعهم الذي يمثل سمة أساسية فسيهم - ليكونسوا "أكشر كاتوليكية من البابا"، وغم أن بوتين كان ما يزال غامضاً فيما يتعلق بحيوله ورغباته الحقيقية. ولكن، سرعان ما سيتين أن التوق إلى الفسرادة في روسسيا لم يكسن - والشكر لله - نسزعة ثابتة ومهيمنة في نفوس الروس، والرئيس فلاديمير بوتين نفسه سيثبت أن المظاهر كانت خادعة.

إن الموقف من الزعيم كان عنصراً حوهرياً من هذه العقلية الماضوية الجديدة.

فقد ساعه الشعب على نقاط ضعفه وإخفاقاته كلها، انطلاقاً من الشعور بالحفاظ على الذات، لأن أحداً لم يكن يرى أي فائدة في انتقاد السلطة، فالانتقاد لن يؤدي إلى أي شيء إيجابي في القريب العاجل. كان الإيمان بالزعيم أمراً عاطفياً أكثر منسه عقلانياً، لأن الشعب لم يكن يعرف حتى تلك اللحظة أي شيء عن برنامج وخطط بوتين. كانت الثقة بالزعيم والعودة إلى الحكم التقليدي بالنسبة للكشيرين تحسيلان الضمانة القصوى لسيادة الاستقرار. ولهذا السبب وحد 79 بالمائة من المواطنين في العام 2001 بأن "الروس لا يمكنهم النحاح بدون يد قوية".

إن الرغبة بامتلاك شخص يثير الأمل في نفوس الناس قادهم إلى إلقاء مسؤولية الفشل على أي شخص آخر غير الرئيس؛ أي الحكومة، الطبقة الحاكمة، السدوما، المخرام، الغرب. وهذا تناقض آخر في النظام الروسي، لأن المؤسسات الأحسرى كانت بحرد امتداد للرئاسة. كل ذلك ضمن بقاء معدلات قبول بوتين عالية مقابل انخفاض معدلات المؤسسات الأخرى (الحكومة، البرلمان، المحاكم) ابتداء من العسام 2001. كان بوتين عمياً ومصاناً كرمز للإيمان. كان الناس مستعدين لكي يغفسروا له العديد من الأشياء خوفاً من سقوطه.

بكلمات اخرى، أصبحت المحافظة مصانة في روسيا بــوتين. لقــد وضع المحافظون الروس تبعية الفرد إلى الدولة والنظام، المحسدين في شخصية الــرئيس، في قمة هرمهم. وكان المعنى الضمني السيكولوجي للمحافظة الروسية يكمــن في الحوف الذي تراكم خلال سنوات "الاضطرابات" الخمس عشرة السابقة، بدءاً من "بريسترويكا" غورباتشوف. كان خوفاً من المجهول ومما هو غير متوقع؛ أي خوفاً من الهمهول ومما هو غير متوقع؛ أي خوفاً من الهمهول ومن الدخول في عالم حديــد لمن المحتمع في غالبته مستعداً له.

تقول إحدى النكات الجديدة بأن المحافظ هو ليبرالي مذعور إلى حدٍّ كبير. في الواقع، قلة قليلة من المحافظين الناشطين كانوا قد عبّروا قبل فتسرة قصيرة عسن سعادتهم لزوال الشيوعية والإميراطورية السوفياتية، ودعموا الإصلاحات الليبرالية، وشاركوا فيها. لكنهم بعد ذلك أصبحوا خاتفين مما صنعته الإصلاحات. باتوا يريدون بقاء الوضع الراهن، الذي يمكن دعمه من خلال تعزيز دور الأجهزة السرية

والوكالات الأمنية. لقد رحّبوا برقاسة رحل كان، فيما يبدو، يشمَّن السلطة أكتـــر من أي شيء آخر، وكان باستطاعته أن يضمن لهم الأمن. بعبارة أخـــرى، كـــان بوتين صنيع مخاوف المجتمع، وخاصة النخبة فيه، لأنه لم يكن ليــــأتي إلى الـــــلطة بدولهم، وفي الوقت نفسه قدَّم نفسه كحل لهذه المخاوف.

قارن بعض المحافظين الروس أنفسهم - في محاولة لإيجاد حالات منساهة في التاريخ - بالديغوليين الفرنسيين وقارنوا بوتين بالجنرال شارل ديغول. كان هنساك بعض التشابه على أية حال. فقد استحدمت كل من فرنسا ديغول وروسيا بسوتين الخطاب المعادي لأميركا وحاولتا الحفاظ على العظمة الإميراطورية لكلتا الأمستين. وكلتاهما شهدتا حالة من الاستقرار عبر تعزيز السلطة الرئاسية. وكسلا الرئيسسين أولي أهمية خاصة للكوادر الموالية لهما واستحدما الضغط الإداري لتحقيق غاياتهما. ونتيحة لأسلوب حكمه، عُرف الجنرال الفرنسي لسبب وحيه "بالملك الجمهوري". وكذلك الأمر، أظهر الكولوئيل الروسي، الذي أصبح زعيماً، طموحاً ببناء نظام رئاسي قوي.

وهنا تنتهي نقاط التشابه بين المحافظة الروسية الحالية والمحافظة الفرنسية. فقد أسس ديغول واقعاً سياسياً مختلفاً كلياً، تضمن بجتمعاً منظماً وقوى متوازنسة. ولم يتوقف عند الاستقرار بل دفع باتجاه عملية تحوّل طموحة، مشكلاً الجمهوريسة الحنامسة. وديغول كان لديه رئيس وزراء قوياً، ولم يكن بوسعه أداء وظيفته بدون نظام متعدد الأحزاب متين الأركان وبرلمان فعال. وأخيراً، لم يقم ديغول - كمسافعل بوتين - بإنشاء نظامه عن طريق استبدال المؤسسات بمحموعة من الموالين له. من هنا، لم تكن روسيا بحاحة فقط إلى ديغول كي تصبح ديغولية، بل كانت بحاحة إلى تقاليد - كالتقاليد الفرنسية - من النضال من أحل الحرية وكرامة الشعب.

على أي حال، سيكون من الخطأ النظر إلى بروز المحافظة في روسيا في عسامي 2000-2000 على ألها نتاج لسياسات بوتين ونفوذه على المحتم. فبوتين لم يكسن من ذلك النوع من السياسيين الذين يستخدمون القوة من أحل تشسكيل أمزجه الشعب. صحيح أنه، في البداية، ظهر بمظهر الديكتاتوري الذي يريسد إخضاع روسيا بالإكراه. ولكن، سرعان ما تبيّن أنه لم يفعل شيئاً سوى أنسه اتبسع سسر

الأحداث. من المؤكد أنه لم يكن يريد حدوث انقسامات وحاول تحتب حسدوث صراعات مكشوفة قدر الإمكان. في الواقع، لقد سقط بوتين في نهر من التوقعسات وسبح مع التيار. وهذا لا يعني بالطبع بأنه لم يكن يفكر في مساره المستقبلي. إلا أنه كان ينتظر، أو بالأحرى ينحرف. وعندما كان يواجه مقاومة فإنسه كسان يستسلم، في أغلب الأحوال.

إذا ما أردنا الحكم عليه من خلال أفعاله - أو لا أفعاله - فإنسا سنحد أن رؤية بوتين للمستقبل في تلك اللحظة كانت تنسجم مع النموذج المحافظ. لكنه، في الواقع، كان يتبع نموذج منتخبه الذين طالبوه بحكم قوي. ومع أنه كان، بالقطع، يفهم حقائق العالم ما بعد الصناعي، إلا أنه كان في داخل البلد لا يستخدم إلا اللغة التي يفهمها الجميع، لفة القوة العظمى. وعلى هذا الأساس، عزز السرئيس، مسن خلال صلوكه وخطابه، الجو المشحون، المعكّر بالإحباط والذكريات الثابتة لأمجساد الماضي، وأصبح أسور المذاب الذي ساعد على تشكيله.



لم تتلقَّ عملية إعادة إحياء المحافظة الروسية النَّعم من النخبة السياسية المقرسة من الكرملين والطبقة البيروقراطية فقط، بل تلقتها أيضاً من الشريحة المثقفة السيق وقفت إلى حانب بوتين. ففي حين كان بوتين يفكر في الأجندة السيق سسيختارها لروسيا، محاولاً الحفاظ على مركزية اللولة في الوقت الذي شرع فيه بمد الجسسور مع الغرب، بدأت الموسسة الثقافية الروسية مناقشات حول من يحب وسيا أكشرومن هو أفضل الوطنين فيها.

بلغت حملة "أحبوا روسيا" ذروها في ربيع العام 2001. لا أعتقد بأن مثل هذا النقاش كان سيجري في روسيا لو كان المجتمع والنخبة فيه قد توصلا إلى اتفاق حول نموذج التطوير الذي يريدان اتباعه، ولو أن كليهما وجدا أن هذا النموذج كان سيؤدي إلى اندماج روسيا مع المجتمع الغربي. إن النقاش الحاد حول الوطنيسة وفرادة روسيا، المليء بالاقامات المتبادلة، أكد بأن روسيا لم تحل بعد قضيتها الأساسية المتعلقة بمستقبلها وألها لم تستقر بعد على رؤية محددة للعالم.

إن انقسام الروس إلى غربيين ومناصرين للقوة العظمى لم يكن انقساماً حديداً في الحياة السياسية الروسية، بل كان استمراراً للحدل الذي بدأ في القرن التاسع عشر بين مويدي الغرب والمؤمنين بتفوق الثقافة السلافية. في الحقيقة، إن تجدّد هذا الجدل بعد الإصلاحات التي قام لها يلتسين أثبت مرة أخرى بأن الطبقة الحاكمسة والمتففين في روسيا لم يكونا يعرفان بعد يقيناً كيف يقاربا احتياجات وتعلمسات روسيا، وكيف يفهما هويتها الجديدة، وكيف يحدّدا مستقبلها، ولهذا السبب لجساً إلى الماضى.

أولتك الذين اعتبروا أنفسهم "وطني روسيا" هاجوا "وطنيي النساتو" أو "وطنيي الولايات المتحدة". كان وطنيو روسيا يريدون لروسيا أن تكون أهة عظيمة، وأيدوا الحلول العسكرية لمشكلة الشيشان، وعارضوا بشدة انتقاد سياسات الكرملين فيما يتعلق بحرية الصحافة والحرب الشيشانية. وطالب الوطنيون برح انتقامي مواز على الولايات المتحدة والغرب في حال حدوث توسيع حديد لحلف الناتو أو في حال أقدمت الولايات المتحدة على إلغاء معاهدة الحد من العسواريخ البالستية، التي كانت تعتبرها روسيا حجر الزاوية بالنسبة لأمنها الخساص ولأمسن العالم ككل. لقد رفضوا كل الانتقادات الموجهة إلى بوتين وسياساته على أسساس العالم ككل. لقد رفضوا كل الانتقادات الموجهة إلى بوتين وسياساته على أسساس الما كانت تنطلق من الرغبة "بتشويه سمعة رئيس روسي غير ملائسم للولايسات المتحدة يريد استعادة مكانة البلد روسيا كقوة عظمي" (3).

أما المثقفون الذين عارضوا طموحات روسيا في أن تصبح قوة عظمى فقسد صُنَّفوا كوطنيين غربيين. كان من الممتع مراقبة انضمام الموالين الجديد إلى معسكر الوطنيين الروس؛ فأن تكون داخل معسكر النظام أكثر أماناً من أن تكون خارجه. كل الوطنيين الجدد كانوا مقتنعين بأن بوتين كان قد حسم خيارات، وأن كان مناهضاً للغرب.

إن انقسام المسرح السياسي إلى وطنيين روس ووطنيين غربيين كان يمثّل عودة إلى الأيام السوفياتية، حين كان أعداء الوطن يُلاحقون وحين كانت هذه الملاحقة ضرورية لتعزيز الحكم الاستبدادي. حاول الاختصاصيون في الوطنيسة "الحقيقيسة" إنكار حق الآخرين في صياغة تصوراقهم الخاصة حول ما هو مناسسب لروسسيا. تجاهل الوطنيون الأسئلة التي لم يكونوا بمتلكون إحابة عليها، مثل، وبشكل خاص، أين ستحد روسيا الوسائل المالية لمواجهة الناتو والولايات المتحدة المساذا كانت روسيا بحاجة إلى ترسانة نووية قوية في الوقت الذي يعيش فيه مواطنوها على أحور زهيدة الماذا كانت روسيا تحتاج إلى قوة عسكرية عاتية ونفسوذ علسى اللول المحاورة في الوقت الذي تعجز فيه عن حلّ مشاكلها اللاعليه الم يكسن باستطاعة الوطنيين الروس الإحابة على هذه الأسئلة لأنفسم لم يفكروا في هذه الأسئلة أصلاً.

من كان هؤلاء "الوطنيون" الجديد؟ كانوا، في الغالب، بجموعة مسن "السروس الجدد" الناجحين الذين يقودون سيارات مرسيدس، ويلسسون ثياباً مسن تصسميم فيرساتشي. بالنسبة لهم، كان الموقف للعادي للغرب بحرّد عمويه، وخاصسة إذا كانست ثرواقم آنية من صفقات غير شريفة. لا أحد منهم كان يعسرف كيسف مستحوّل السلطات. ماذا لو بدأ بوتين البحث عن مصسدر ثرواقم لا لذا، من الأفضل لهم أن يصبحوا أكثر وطنية (إلحا لا تضر، على أية حال).

بالنسبة للآخرين، كانت المعاداة للغرب ناشئة من بحسرد إحسساس عسادي بالحسد والإدراك بأن روسيا لن تتمكن، في حياقم، من تحقيق مستويات الرفاهيسة المادية التي يتمتع بما المواطن الغربي. إن اليأس، وظروف الحياة الصعبة، والفشهل، وعدم الاكتفاء كلها حعلت بعض الناس يرون في الإصرار علسى فسرادة روسسيا ورفض الانضمام إلى أوروبا شيئاً يمكن أن يهدئ من إحساسهم بسالنقص ويعيسد إليهم تقديرهم الذابي.

لقد لعب بوتين في بعض الأحيان على هذه المشاعر، محتفظاً بذلك بإعجاب مؤيديه، الذين كانوا يتضمنون الكثير من مناصري القوة العظمى التقليدية. حتى أنه قال ذات مرة: "إما أن تكون روسيا عظيمة أو لا تكون أبداً". وهو بذلك وضع المجتمع أمام معضلة حقيقية: إما أن تبقى روسيا قوة عظمى أو تزول من الوجود

لهائياً. في تلك الفترة، كانت بعض المحموعات تفهم العظمة على ألها قوة عسكرية بالدرجة الأولى، وليس على ألها ثروة وقوة اقتصادية. لقد أبعد تشكُّل هذه القضية روسيا عن التطور باتجاه الاهتمام باحتياحات مواطنيها.

كبراغماني، لم يشجع بوتين هذه المسألة كثيراً. وليقوم بما هو معاكس لها تكلّم عن حاجة روسيا للتحرك باتجاه الغرب. لا بد أنه لم يكن يريد - وربما كان يخشى - العودة إلى الماضي. لكنه لم يكن مستعداً أيضاً، على الأقل في بداية العام 2001، للتحرك بتصميم أكبر نحو المستقبل. كل تحولاته وتذبذ باته حالست دون توصّل الناس إلى استنتاحات مؤكدة حول آرائه الحقيقية، أو معتقداته علسى أقسل تقدير. وهكذا بقي بوتين على غموضه، إذ كان من الصعوبة بمكان قراءة أي شيء من ملاعمه العصية على الفهم، كان من الصعوبة بمكان معرفة أي من أفعاله كان استراتيحياً. لعله، بساطة، كان يغير من مواقعه وفقاً لمقتضيات الظروف.

على أي حال، لم تجد المناشدات المعادية للغرب والبحث عن عدو لروسيا في الغرب دعماً جماهيرياً بين المواطنين العاديين. فعلى الرغم من الحفظاب القومي لطبقة النحبة، 8 بالمائة من المشتركين في أحد الاستطلاعات التي حرت في نحايه العسام 2000 كانوا يكتون مشاعر طبية جداً تجاه الولايات المتحدة، و 62 بالمائه كانت مشاعرهم يكتون مشاعر طبية، و 16 بالمائة كانت مشاعرهم سيئة، و 6 بالمائة كانت مشاعرهم سيئة حداً (8 بالمائة امتنعوا عن الإدلاء بآرائهم) (4). لم يتمكنوا من حث الناس على البحث عن عدو خارجي. كان المواطنون الروس العاديون أكثر تساعاً وبراغماتية، وأقل هيستبرية أيضاً، من المتقنين والسياسيين. وهكذا لم تستمر طريلاً عاولة التحريض التي قامت بما بعض القوى المقربة من الكرملين للعسودة إلى "الفسرادة" لكن المزاج المتأرجع لبعض القتات الاحتماعية والسياسية في روسيا أظهسر كسم لكن المزاج المتأرجع لبعض القتات الاحتماعية والسياسية في روسيا أظهسر كسم كانت مشاعر الناس ما تزال غير مستقرة وكم كان التلاعب بما سهلاً.

« هذا هو المناخ الذي دارت فيه الجولة الأخيرة من الصراع علمى NTV المحطة التلفزيونية الشهيرة والمحترمة التي يمتلكها فلاديمير غوزينمسكي. سميطرت

الشركة الاحتكارية غازبروم المملوكة من قبل الدولة على هذه المحطة في 3 نيسان من العام 2001، وكانت قد حصلت قبل ذلك على 46 بالمائة من أسهمها. لا بسد أن بوتين كان قد قرّر وضع حدّ لهذه المشكلة. في تلك المرحلة، أعتسرف بأنسه لم يكن بوسعه إيقاف اضطهاده للمحطة وغوزينسكي لأن ذلك كان سيمتر ضعفاً. ومصير القادة الضعفاء في روسيا غير مشحم.

الحزب السياسي الوحيد الذي ساند NTV هو يابلوكو، الذي عقد تجمّه من حاشدين في موسكو، بمساعدة اتحاد الصحفيين المستقلين، احتحاجاً على الاستيلاء على المحطفية، وقد شكّل الشباب غالبية من حضروا هذين التحمّين⁽⁵⁾. لقد انبشت حيل حديد في روسيا بملك آراء مستقلة ولا يخشى النظام. بيد أن محطة NTV انتقلت إلى أيدي غازبروم، بالرغم من هذين التحمّين، وبسذلك انسهى تساريخ التلفزيون المستقل في روسيا⁽⁶⁾.

إن التدمير المقصود لواحدة من أفضل المحطات التلفزيونية في روسيا والطريقة البشعة التي تم بما ذلك أثار ردّة فعل حادة في الغرب. فقد طالبت الواشنطن بوست في 1 نيسان، على لسان رئيس تحريرها، الغرب بالردّ بقدوة على تحمّ بوتين على حرية الصحافة. "تواجه إدارة بوش، وحكومة الاتحداد الأوروبي، وكندا، واليابان اليوم تحدياً هاماً: ينبغي عليهم أن بضمنوا للسديد بوتين تحمّل عاقبة سلوكه المعادي للديمقراطية. إن السكوت عما حسرى بعد الإنذارات الكثيرة حداً لروسيا سيشكل ضربة قاسية لمصداقية الغرب" وطالبت الصحيفة أيضاً بطرد روسيا من بحموعة الثماني، لكن استنكار الغرب لم يعد له الصحيفة أيضاً بطرد روسيا من بحموعة الثماني، لكن استنكار الغرب لم يعد له تأثير على موسكو في واقع الأمر.

لقد أظهر الصراع بين السلطات، وNTV بأن النظام بمكن التحسول إلى الأساليب الديكتاتورية من أحل تحقيق غاياته. ولكنه أظهر شيئاً آخر أيضاً: كانت مسائدة المجتمع للسلطات في تلك الفترة محدودة. فأولتك الذين وقفوا إلى حانسب محطة NTV أثبتوا بأن هنالك معارضة في روسيا، ولو ألها كانت منقسسمة وغسير منظمة. إذ للمرة الأولى بعد فترة طويلة من الانقطاع احتشد الناس من أجل قضية ما، مما يمثل إشارة إلى أن روسيا نجت من موجة المحافظة التي احتاحتها.

على أي حال، لقصة NTV تعة. فقد كمست تعسفية بقية إمبراطورية غوزينسكي الإعلامية – جملة إيتوجي وصحيفة سيفودنيا – وفي حزيران، حاولت غازبروم أيضاً الاستيلاء على المحطة الإذاعية الرائعة إيخو موسكني. وأثبع في تنفيذ ذلك نفس الأسلوب: قام أحد المالكين في كلتا الموسستين بإقفاهما وتطهيرهما من الصحفيين غير المقبولين. والصحفيون الذين رفضوا الانصياع للقواعد الجديدة وحدوا أنفسهم في الشارع (7). وكما حصل مع NTV، أعيد استخدام حزء مسن الفريق السابق، الذي بدأ بإصدار نسخة حديدة من إيتوجي، ولكنها لا تتضمن أي انتقاد للرئيس. ظاهرياً، كان كل شيء حسناً، حيث سادت حقوق الملكية وعوقب المتنفذ السيع الصيت. ولكن، في الواقع، كانت هذه العملية عثابة تصفية لهائية لهموعة تجرّات على مقاومة الكرملين.

قد يعتقد القارئ أو المشاهد العادي بأنه لم يحصل أي شيء، فمحطــة NTV استمرت بالوحود، ولو بدون نجومها السابقين. وإيتوجي استمرت بالعســدور، ولكن بدون كتاها وعرريها القدامي. قد يتساءل السدَّج من الناس "لماذا كل هذه الحلبة؟" من الواضح أن السلطات كانت تعتمد على هذه السذاحة؛ أي أن النساس سيفترضون بأن المحتوى هو نفسه طالما أن اللافتة ما تزال معلقــة علــى البــاب. وهكذا، تسارعت وترة بناء الدمى الشمعية. ولروسيا تــاريخ طويــل في بنــاء الواجهات السياسية بالطبع.

. **y**-.

وبينما كان بوتين يقوم بتدمير المزعجين من خصومه، استمر ببنساء نظامه الرئاسي المطلق. فقي العام 2001، قرّر بوتين تجديد جبهة السلطة. وعَيِّن سسكرتير المجلس الأمني سيرجي إيفانوف، أقرب حلفاء بوتين، وزيراً للمفاع. وأصبح بوريس غريزلوف، زعيم حزب الوحدة وصديق بوتين أيضاً، وزير الداخلية الجديد.

هذه التعيينات حاول بوتين تأسيس قاعدته الخاصة في وزارات السلطة وبذلك
 خطا خطوة هامة على طريق تحرير نفسه من طوق عائلة يلتسين السياسية. واستمر
 الرئيس الجديد في تدعيم موقعه عن طريق حلب المزيد من الموائين له. لكنه لم يكن

قادراً على إيجاد أشخاص موثوقين ليضعهم كمفوضين سياسيين على رأس الوكالات الأعرى. ولم تكن المشكلة تتمثّل في علم وجود موارد بشرية جيدة في روسيا، بل كل ما في الأمر هو أنه لم يكن هناك ما يكفي من الأشخاص الذين يثق فيهم الرئيس. ولكن، حتى في هذه الجولة من التبديلات، لم يستطع بوتين تخليص نفسه بشكل كامل من الفريق الحاكم القلم. فقد أرغم بوتين على نقسل وزيسر الداعلية السابق بيتر روشايلو – كانت لديه صلات وثيقة مع حاشية يلتسين وادعى بأنه خليفة الرئيس – إلى منصب سكرتير المجلس الأمني. بكلمات أعرى، لم يتمكن بوتين، الذي ما زال يتميز بالحذر، من قطع صلاته بالكامل مسع الماضي، وهو ما كان يريد فعله بكل وضوح.

عندما أقيم المسرح السياسي المربح للرئيس، بدا الأمر وكأنه لم يعد هنالك شيء يلهي الكرملين عن استناف الإصلاحات. لكن فريق بوتين، بدلاً من ذلك، لجاً إلى المؤامرات. فقد قرّر أحد أعضاء حاشيته بوجوب حلّ الدوما، بالرغم مسن ولائه، حتى يصبح بالإمكان تشكيل برلمان خاضع كلياً، مع أغلبية دمتورية مخلصة للكرملين. ومع هذه الأغلبية سيصبح بالإمكان أيضاً تعديل الدستور، بشكل خاص من أحل تمديد الفترة الرئاسية إلى سبع سنوات. ومع حلّ الدوما، عسلاوة علسى ذلك، سيتمكن الكرملين من التخلص من الأحزاب التي لا يحتاجها، بما فيها "يابلوكو" و"الأرض الأم" التابع ليربماكوف ولوحكوف، وإضعاف الشيوعيين.

لتنفيذ الخطة، أرغم الكرملين حزبه في البرلمان، الوحدة، على الفيام بفعل مناف للعقل: دعم مبادرة الشيوعيين بطرح عدم الثقة في حكومتهم بالذات. بيد أن المتعطط لم يُنقَد. حتى الأعضاء المطواعين في الحركة الرئاسية، "الوحدة"، لم يكونوا مستعدين للتحلي طواعية عن مواقعهم الاعتبارية ومتاع الحياة في موسكو والعودة إلى منازهم في المقاطعات. كما أن إجراء الانتحابات المبكرة مسن أحسل استبدالهم قد يؤدي إلى الإساءة إلى صورة بوتين لأنه كان مرتبطاً في أذهان النساس بالاستقرار. وهكذا سبب فريق الكرملين أزمة وفقد ماء وجهه لدى محاولته تخليص نفسه منها.

غير أن التهديد بحلَّ الدوما يمكن استخدامه في أية لحظة. فقد هُـــدُّد النـــواب

بمقاضاتهم في المحاكم إذا ما بدأ الدوما بإثارة المشاكل. صحيح أن قصة شبيهة بمذه القصة كانت قد حرت في الاضطرابات التي شهدها عهد يلتسين، إلا أن الموامرات في ذلك العهد، عندما كان بويزوفسكي يقوم بالتخطيط لها، كانت محبوكة بذكاء أكو بكثير.

- -

ولم يتوقّف "التقنيون" السياسيون في الكرملين عند فكرة حلَّ الدوما، لأفسم كانوا قد بدأوا يستمتعون بالتخطيط السياسي. في الواقع، إن نجاحهم في تكوين رئاسة بوتين، وتكوين كادر سياسي مخلص دفعهم نحو المزيد من المخططات الطموحة، دون أن يسمحوا للإخفاقات القليلة التي عانوا منها بتبسيط همهسم. حيث قرّر الفريق الحاكم إنشاء كل ما هو موجود في المجتمع الغربي من موقعه في القمة؛ الأحزاب، النقابات العمالية، الحركات الشبابية، الصحافة، ونوادي المثقفين. المهم بالنسبة إليه ألا يتم أي شيء بشكل عفوي دون معرفة الكرملين أو إذن منه. أي شيء بشكل عفوي دون معرفة الكرملين أو إذن منه. أي شيء بداحة، ولو من بعيد، بالحياة السياسية كان ينبغي أن يحصل على موافقة الكرملين. وأي شيء لم ينجح في الاختبار كان يُلقَى به خارجاً.

تمثلت بدعة الفريق الجديد في أن عملية الإغلاق كانت تتم غالباً من خسلال المحاكم وليس عبر القوّة أو الضغط. فقد استمر القضاء الروسي على مرونته وتفهمه المذهلين؛ أي أنه كان يفهم تماماً ماذا تريد السلطة التنفيذية. كان القضاة بحصلون على رواتبهم وشققهم من السلطات؛ الأمر الذي جعلهم يتحوّلون إلى أدوات لتطهير السياسيين ورحال الأعمال الذين لم يكونوا يروقون لتلك السلطات. إن استمرار القوانين دون تعريف أو تحديد في روسيا حعل من الممكن تحويل أي شخص تقريباً إلى متهم ومن ثم إلى شخص مطواع وخالٍ من الطحسوح الزائسة والرغبة في النقد.

بكلمات أخرى، كانت روسيا تخضع لعملية تشكيل نظام إداري شامل ينبغي فيه على كل الفئات الاحتماعية، والقوى السياسية أن تلتزم بالمكان الذي يختــــاره الكرملين لها. من الواضع أن مخططي الكرملين كانوا يتعاملون مع روسيا كشركة ضعمة مولفة من أقسام مدارة بشكل حيد ويرأسها "مدير - رئيس". لكن السوال هو، هل يمكن ترويض هذا المجتمع اللّين العريكة ظاهرياً، العنيد وحتى الفوضوي في حقيقته الجوهرية، دون استخدام القوة المفرطة؟ هل كانت روسسيا مسستعدة لأن تصبح شركة طبَّعة؟ وحتى لو أمكن تحقيق هذه الفكرة، هل يمكن لشركة مدارة من الأعلى أن تنفذ إلى المستقبل، الأمر الذي يتطلب حرية عامة، وحريسة شخصسية، وروح المغامرة؟

في تلك الأثناء انطلقت عملية بناء النظام الجديد بأقصى سرعة، ومع نجاح ملحوظ على المدى القصير، شغل اللاعبون السياسيون الباقون في هذا النظام المواقع الني خُصّصت لهم، وانضمت الطبقة الحاكمة في روسيا إلى الاتحاد الروسي للمقاولين (RUEI) تحت ضغط من الكرملين. وترأس الاتحاد أركادي فولسكي، وهو شيوعي سابق تمكن من البقاء في ظل كل الأنظمة التي عايشها. كان التحارية للمكل محموعة ضغط بالنسبة لفئة عقائدية من المدراء السوفيات للشركات التحارية المملوكة من قبل الدولة الذين لم يتعلموا كيف يتأقلمون مع السوق، بال كانوا يالماني محمول راسمالية حكومية أو رأسمالية "منظمة". كان انضمام الطبقة الحاكمة إلى الاتحاد خطوة غير متوقعة؛ فلقد كان اندماج المدراء "الحمر" السابقين مسع الطبقة الحاكمة أشبه بتزاوج سمك الأنكليس مع القنافذ. لكن الكرملين نجسح في الطبقة المحكمة أشبه بتزاوج سمك الأنكليس مع القنافذ. لكن الكرملين نجسح في علية الدمج، حيث حلس أركادي فولسكي وتشوبايس وفلانك م وسوههم أمارات وميخائيل خودوركوفسكي معاً في جمع كل الصناعيين والمتنفذين في مكان السعادة. ومحكذا حقق النظام هدفه في جمع كل الصناعيين والمتنفذين في مكان وحد، وتحت سلطته.

أصرَّ مؤيدو بوتين على أن القضاء على إمراطوريـــة غوزينــــكي وطــرد بويزوفسكي من روسيا كان يعني تطهير النظام من الطبقة الحاكمة. لكن الـــزمن اظهر بأن أفراد هذه الطبقة لم "يمدوا كلهم بشكل متساو" كما رُوَّج في الإعلام، فالمجموعات المتنفذة الجديدة المطبعة للكرملين كانت تزداد قوة في تلــك الأنشاء. وهكذا تشكّلت إمراطوريات حديدة، مثل تلك التابعة لأوليغ ديريباسكا، الشاب والحيوي الذي أسّس في البداية شركة احتكارية لإنتاج الألنيوم، ومن ثم بــدا في

الاستيلاء على شركات منتجه للطاقة ولمعادن أخرى، بجمراً المتنفذين الآخرين على الحنووج منها. وقد تمتّع ديربياسكا بمخلوة خاصة لدى بوتين، حتى أن الأخير قـــام بزيارة ممتلكاته بنفسه، في إشارة منه إلى مدى قرب العلاقة بينهما.

القت ظاهرة ديرياسكا الفنوء على نـــزعة جديدة في تطور روسيا الاقتصادي. إذ قبل وقت قريب فقط، كل المجموعات الصناعية - المالية الكـــرى كانت مبنية على مبدأ العامودية نفسه. لكن المجموعات الآن أصبحت متكامله أفقياً، وامتدت إلى بحالات اقتصادية عتلفة، وأنشأت نسخاً روسية من الشــركات المختلطة الكورية الجنوبية "chaeboles" العملاقة. ولكن، عمة عنصر إيجابي هنسا، ففي حين كانت الطبقة الحاكمة القديمة تنقل أموالها عارج البلد، نجد أن الطبقــة الجديمة بدأت استمار أموالها في الانتاج.

بيد أن الدمج الجديد للنظام ورأس المال أطلق صفارات الإنذار. كل المتنفذين كانوا مضطرين لتقدم الولاء إلى الرئيس - إن تشديد السرئيس علمي "الإبعاد المتساوي" لكل المتنفذين عن السلطة لم يكن أكثر من أسطورة. وهكذا استمر الكرملين في عقد صفقاته مع الشركات التجارية الكيرى. ولعب ممثلو الأجهزة الخاصة - السيلوفيكي - دوراً هاماً في بعض المجموعات الاقتصادية المتنفذة الكيرى. ولكن، كما تبيّن التجربة الكورية الجنوبية، عاجلاً أم آجلاً سيؤدي وحود شركات عملاقة خاضعة لرعاية الدولة إلى احتكار الاقتصاد من قبل مجموعات قليلة وإلى اغدار الدولة نفسها، مع خضوع النظام لمصالح النجبة المهيمنة.

9-

المنكلت الخطوة التالية في عظطات النظام في بناء نظام حزبي حديد. حيث أعلن عن تشكيل تحالف حاكم مؤلف من خصوم الأمس؛ أي حزب الوحسلة التسابع لبوتين (Edinstvo) من حانب، وحزب الأرض الأم التابع لبريماكوف ولوحكوف (Otechestvo) من الجانب الآخر. وقد أطلقت تعابير ساخرة كثيرة علمي هلذا التحالف، من بينها واحدة تقول بأن احتماع الأحرف الأولى من كلتا الكلمستين يؤلف كلمة حديدة (Ediot) وتعني بالإنكليزية "غيي". وقد سخرت الصحافة من

في عهده، حاول يلتسين وفريقه إقامة نظام حزبي مدجَّن. لكنهم فشسلوا في تحقيق ذلك لألهم لم يكونوا مثابرين، ولأن الحياة في روسيا كانت تغلي في ذلسك الوقت، وفوق ذلك لم يكن الجميع مهتمين في مسألة أن يكونوا تابعين للمركسز. كانت الأحزاب المطيعة في عهد يلتسين كثيراً ما تخسر الانتخابات، لكن أحسزاب الكرملين في عهد بوتين كانت تملك كل الفرص للفوز. وهذا بحد ذاته كان مؤشراً إلى مدى تغير الوضع في روسيا.

و لم يُعف المسؤولون عن اندماج الأحزاب حقيقة ألهم فعلوا ذلك بأمر مسن الكرملين. كان جهاز الدولة الروسي يريد أن يضع حداً للانشقاق في صفوفه. علاوة على ذلك، لم يكن لوحكوف ولا بريماكوف ولا أنصارهما يريدون أن يُنظر إليهم كمعارضة. في الحقيقة، لم تكن البيروقراطية الروسية في أي يوم من الأيام في موقف المعارضة لمركز السلطة. أضف إلى هذا وذلك أن الكثير من الروس لم يكونوا حتى يتعيلون أن تنقسم الطبقة الحاكمة إلى جزئين يتناوبان على السلطة بشكل دري. لقد اعتاد المواطن الروسي العادي، وكللك الطبقة البيروقراطية، علسي العيش في مجتمع لا تفوز فيه المعارضة بالسلطة ويكون النظام فيه ثابتاً لا يتغير.

إن تخلى لوجكوف عن استقلاليته وانضمامه إلى التحالف الرئاسي كان يعني أن آخر المنافسين للمركز الفدرائي أدرك بأنه من غير المجدي محاربة بوتين والبقاء حارج جماعة الكرملين. "لقد بدأ العصر الجديد. من الأفضل إيقاف النزاع مسع الكرملين"، هكذا كان يفكر الكثير من الناس في روسيا، وهم يراقبون المسلطات من بعيد.

مع دمج الأحزاب الموالية للحكومة، حصل بوتين على أغلبية مستقرة وقويسة في الدوما يمكنها تمرير أي تشريع يريده. وهذا بالطبع يسهّل إدارة الحياة السياسية. فبدلاً من إضطراره إلى دعم والتفاوض مع أحزاب عديدة، أصبح بإمكان بــوتين الآن إعطاء أوامره إلى هيكلية واحدة فقط. في البداية، لم يبدُ على حزي الوحــــدة والأرض الأم الحماس للاندماج. وهذا ليس مستغرباً لأن العديد مـــن المســـوولين

فيهما فقدوا مواقعهم نتيحة لذلك الاندماج. لكن الكرملين ربح في لهاية المطاف -بعد مفاوضات طويلة - وتشكّلت حركة روسيا المتحدة (Edinaya Russia). ومع ذلك، لم يوسِّع هذا الاندماج قاعدة الكرملين الانتخابية، لأن بعض الأعضاء المعارضين في حزب الأرض الأم بقوا خارج الحركة الجديدة.

في الوقت نفسه، تشكّلت الحركة التي يسيطر عليها الكرملين في مجلس الاتحساد، واندفع السيناتورات للاتضمام إليها. في الحقيقة، قد لا يكون أمامهم سبيلاً غير ذلسك، لأنهم بدون العضوية في كتلة الكرملين، لن يكون لديهم الحقّ بالسدخول إلى السسلطة التنفيذية. وبدون هذا الحقّ، ستبقى المشاكل التي تعانى منها الأقاليم بلا حلّ.

وهكذا، مع الأغلبية المريمة في الدوما وبحلس الاتحاد، حصل الكرملين على البرلمان المطبع الذي لم يوجد إلا في أحلام يلتسين. والمفارقة هنا تكمن في أن البلد وجد نفسه، بعد خمسة عشر عاماً من الصراع البرلماني، يعود أدارجه إلى مرحلة تاريخية سابقة، عندما كانت السلطة التنفيذية تعتبر البرلمان امتداداً فعلياً لها. بعسارة أخرى، لقد تحت استعادة الإجماع السوفياتي التقليدي من جديد.

غير أن بوتين وكاسيانوف والأعضاء الآخرين في الحكومة لم ينضموا إلى حــزب الكرملين الجديد. ولماذا يفعلون ذلك، طالما أن هذه الأغلبية الحزيبة الجديسة لم تكــن موذية، لألها كانت تفتقر إلى التمثيل في السلطة التنفيذية. ولهذا السبب، كان باستطاعة الكرملين دائماً أن يحلّ هذه الأغلبية ويستبدلها بواحدة أخرى.

ومع ذلك، أصر أولفك الذين كانوا يقفون وراء الكلة الحاكمة المروَّضة على أن روسيا كانت تسير على نفس الطريق الذي سارت عليه اليابان مع حزها "السديمقراطي الليبرالي"، الذي بقي عشرات السنين في السلطة. غير أن ذلك لسيس صحيحاً، لأن الديمقراطين الليبرالين اليابانين كانوا يشكلون الحكومسات، في حسين أن "أحسزاب السلطة" في روسيا لم يُطلَب منها يوماً حتى النصح في هذه المسألة(8).

قرّر اتحاد قوى الحق (SPS)، الذي كان يتألف من عدة أحسزاب ومجموعسات صغيرة، تحويل نفسه إلى حزب ذي عضوية واحدة. وكان هذا التحوّل إلزاميسًا، وفقسًا لقانون الأحزاب الجديد، إذا كانت هذه المحموعة المتنوعة تريد المنافسة في الانتخابات القادمة. وقد أنتحت عملية تشكيل حزب ليوالي حديد مشاعر متناقضة. بالنسبة لتشوبايس، كان الضغط من حانبه شديد الوضوح، لأنه كان يحاول السيطرة علمي القوة الدافعة الأساسية وتأسيس منظمة لا تنزلق إلى مهاوي معارضة الكرملين. في حين أن ترشيح نيمتسوف لزعامة الحزب الجديد حصل على موافقة الفريق الرئاسسي، عما يعين تقييد يديه عملياً. بكلمات أخرى، كانت السلطات تدعم أحد عناص النظام الحزى المستقبلي، لأنه - كما هو مفترض - سيدعمها فيما بعد. أما أوائسك السذين كانوا يتبنون آراء معارضة متشددة فلم ينضموا إلى الحزب الجديد المؤلف من ليم الين مختارين ومدعومين من قبل السلطات (9). وقد كان للمراقبين تفسيرهم الفلسفي للأمر: "الليوالي الروسي يحبّ السلطة، يحبّ أن يكون قريباً من السلطة. إن السلوك المعارض، الذي يعزلك عن الكرملين ويرغمك على وكوب الحافلة من أحسل وؤيسة ناحبيسك طبيعي بالنسبة لليسار وناشطي حقوق الإنسان، لكنه ليس كسفلك علسم الاطسلاق بالنسبة لليمين، الذي يعتبر الفقر خطيئة أفدح بكثير من التعاون مـــع الكــرملين ((10). إضافة إلى ذلك، فكلا الجانبين كانا بحاحة إلى التعاون: الليبراليون كانوا بحاحــة إلى الكرملين لحمايتهم من الأغلبية الشعبية العدائية، والكرملين بحاحة إلى الليمبراليين مرن أجل منحه صورة الإصلاحي.

واستمرت عملية بناء "الديمقراطية المتحكّم بها" بنفس الزخم الذي ابتدأت به. ورغم أن صراع الكرملين من أجل السيطرة على التلفزيون كان قد واجه بعسض المعارضات والصراعات من هنا وهناك، إلا أن ترويض الصحافة تمّ دون أي حلسة تُذكّر. حيث أقسمت كل المنشورات الكبرى ذات الاهتمام العام - بكامل إرادها تقريباً - على الولاء للفريق الحاكم الجديد ولم تسبّب في أي مشكلة له.

مع المشاركة الفعالة من وزير الصحافة وبمساعدة شخصية من الوزير ميحائيل ليسين، السيئ السمعة لمشاركته في الهجوم على NTV، شُكِّل اتحاد الإعلام، بقيادة أشخاص مقربين من الكرملين. وهكذا أصبح بالإمكان القول بأن اتحاد الصحفيين المستقلين، الذي سمح لنفسه بإبداء ملاحظات نقدية حول السلطات وحتى تنظيم تظاهرات حاشدة، لم يعد يملك الحق في تمثيل الصحفيين الروس.

وبعد ذلك حاء دور شريحة الخبراء والمحللين السياسيين. كان مستشارو الكرملين يريدون إحداث تغير في النحب المتقفة. ولها السبب، لم يُسمَع للمحللين السياسيين، المعروفين بموقفهم الناقد للنظام والذين لم يُظهروا الاحتسرام المناسب لشخص الرئيس، بالظهور على هواء عطات النلفزة ونادراً ما تُشرت مقالاتهم. ولم يكونوا يُذعون إلى المولمات وحفلات الاستقبال الرسمية، ولم يُمنحوا الحق بالوصول إلى المعلومات. وهكذا كان على الثائرين أن يختاروا بين أمرين، إما أن يغيروا من نبرقم أو يغيروا مهنتهم.

و لم ينس عملوا إدارة الكرماين النفكير في الجيل الجديد، فخرجوا بفكرة إنشاء حركة شبابية سمّوها "السير معاً". و لم يكن فذه الحركة برنامج غير دعم السرئيس. كان المنتسبون إلى الحركة يُمنحون تذاكر إلى النسوادي والمسارح والأحسات الرياضية، يكافأون برحلات إلى العاصمة. في الحقيقة، لم تكن هذه الحركة تتعدى كوفا حركة شبابية مستأخرة غير مطالبة بأي شيء سوى الطاعمة والتواحسد في الأحداث الهامة. في 7 أيار من العام 2001، أليس البوتينيون الشباب قمصاناً (في شيرت) رسم عليها صورة بوتين من الأمام، وحُلبوا إلى تجمع حاشد في موسكو. حدى سكان موسكو ببلاهة في أولئك الآلاف من الشبان الذين يمالأون ساحة فاسيليفسكي سباسك المحاورة للكرماين. في ذلك اليوم صفّق أعضاء "السير معاً"، ومقتوا مرحين عندما طلب منهم المنظمون أن يديروا موحراقم إلى الغرب. لكن

كان تشكيل منظمات سياسية وشعبية مدحنة واحدة من هويات الحكومة الروسية المفضلة. حتى أن الأمر بلغ مستويات لا يقبلها العقل. ففي صسيف العام 2001، حاولت شركة غازبروم - التي كانت من أشد المتحمسين للقضاء على وسائل الإعلام الحرة، بما فيها NTV - تنظيم موتمر عن الحرية في وسائل الإعلام. وفي عاولة للتمويه، دُعي إلى المؤتمر شخصيات ليبرالية بسارزة، وبشسكل خساص في عاولة للتمويه، دُعي إلى المؤتمر فشلت، وهو ما شكّل موشراً هاماً أنسنر النظام بأن مثل هذه الألاعيب المزيقة يمكن أن تواجه بمقاومة في الغرب وفي روسيا أيضاً، إلا أن فريق مساعدي الرئيس كان سعيداً إلى درجة كبيرة. في الحقيقة، كان

لديه ما يرر هذه السعادة الغامرة: لقد المكنوا من تأسيس آليتهم الخاصة في السلطة.
بعد ذلك، انقل الكرملين، المنتشى برسم ملامح المشهد السياسي وفقاً لأهوائه،
إلى مهمة أكثر تعقيداً: قرر بوتين تأسيس مجتمع مدني خاص به بكل ما يستازمه مسن
هيكليات مرافقة. والمثير للسخرية في الأمر هو أن فكرة تأسيس مجتمع مدني لم تخطر
ببال سياسي الكرملين إلا بعد أن بدأ بوريس بيريزوفسكي - الذي أصبح في ذلسك
بال سياسي الكرملين إلا بعد أن بدأ بوريس بيريزوفسكي - الذي أصبح في ذلسك
الحين العدو الرئيس لبوتين - في المويل ودعم تشكيل منظمات مستقلة في روسيا.

وهكذا أصبح بإمكان السلطات، إذا ما انتقد أحدهم النظام لعدم اهتمامه بالناس، أن تردّ بالقول: بالطبع نحن لهتم، لأننا منهمكون في حوار مع المجتمع الذي شكلناه بأنفسنا. في 12 حزيران من العام 2001، دُعي ممثلون عن بعض المنظمات الشعبية إلى الكرملين. بعضهم كانوا بمهولين تماماً قبل تلك اللحظة. وكان من بين الحاضرين جمعيات للمحاسبين، وأخرى لرواد الفضاء وعمال الحدائق والمستوطنين، وأعادات رياضية، ومخططون سياسيون في الكرملين، وأعضاء شبان في حركة "السير معاً" بالطبع، لم يكن هناك أي ضيف يعكر صفو السرئيس بأسبطة عن الشيشان وحقوق الإنسان وحرية الصحافة. بالطبع، تحدّث بوتين مطولاً في ذلك الاحتماع، الذي لم يكن يشبه شيئاً أكثر من احتماعات القادة السوفيات السابقين مم المنظمات المدحنة المحتارة.

قررت السلطات تشكيل بحلس مدني خاضع لبوتين بمثل المجتمع المدني الجديد. وللتمهيد لهذا المجلس خُطَّط لإقامة ملتقى رئيسياً للمنظمات الاجتماعية والشسعبية المتدى المدني. شرح منظرو "المجتمع المدني" الجديد، الذي يحظى بسدعم بسوتين، فكرته الأساسية على النحو التالي: كي "قدخل روسيا إلى التنظيمات العالميسة"، ينبغي تشكيل المجتمع على الطريقة التي يزرع فيها البريطانيون المروج الخضراء؛ أي "ماء وجز"، جز" وماء". بالطبع، الكرملين هو الذي سيقوم بالسقاية وجز" العشسب. حتى أن مستشاري الرئيس ابتكروا شعارا لهذا المجتمع المدني: "من أجل بلد عظيم، مجتمع عظيم". غير أن القليل من السياسيين أيدوا تشكيل هذا المجتمع الخاضع بحتم عظيم"، وحاصة لأن الكرملين هو الذي يدفع التكاليف.

الآن أصبح بالإمكان القول، على الأقل من الناحيـــة الظاهريــــة، أن الواقـــع

السياسي الروسي الجديد يختلف عن روسيا يلتسين. ففي ذلك الوقت كان هناك كل أنواع الأحزاب، والنوادي، والحركات. وأي شخص كان يستطيع تسحيل أي شيء دون موافقة من فوق. بالفعل، في وقت ما، توقّف النظام عن الردّ على كل تلك الحركات العفوية. أما الآن، فالنظام كان منهمكاً باقتلاع النباتات البريسة، واستبدالها بنباتات مزروعة بأيدي حدائقين رسميين في دفيتات خاصة.

وهكذا أصبح من الصعوبة بمكان الهام الكرماين بأية عظطات ديكتاتوريدة، فالرئيس كان يجتمع مع عمثلي المجتمع المدني. والذين لم يكونوا يعرفون الواقع الروسسي استحسنوا ذلك. لكنهم لم يسألوا أنفسهم الأسفلة التالية: لماذا كان الكرماين يتحسب الحوار مع ناشطي حقوق الإنسان والمنظمات التي اكتسبت سمعتها في المجتمع? وعلسى أي أساس كانت تُحدُّد الموافقة للدحول إلى "المجتمع المدني" المدعوم من قبل الكرملين؟ ولماذا سارع الناس والمنظمات في الانضمام إلى هذا الاتحاد المصطنع؟

نفس الأسئلة تنطبق على اتحاد الإعلام الجديد، الذي سارعت كل الصحف الروسية والقنوات التلفزيونية إلى الانضمام إليه. لكن الأجوبة هنا كانت بسميطة: أولئك الذين انضموا إلى مجموعة الصحافة تلقوا أموالاً وعوائد من الدولة. لكنهم لم يعودوا يستطيعون انتقاد النظام بحرية. بكلمات أخرى، لقد دفعوا حريتهم لمناً لبعض الفوائد.

وهكذا، بشكل تدريجي، بدأت "الحداثة" الروسية تحسوز علسى الاهتسام. ظاهرياً، الشخصيات نفسها كانت تشغل الساحة السياسية: ضباط الكي حي بي، الطبقة الحاكمة، الليراليون، الشيوعيون، مناصرو القوة العظمى، والمثقفون. ولكن، في واقع الأمر، كان هذا الحشد يتحرّك بامتنال على طول عيط دائسرة مرسسومة بعناية بالفة. بالطبع، كان بوسعهم عكس حركتهم في أية لحظة. وهذا يمكسن أن يحصل إذا أحس اللاعبون الدائرون بضعف في القوة النابذة الصادرة من المركسز. بعبارة أخرى، لم تكن هذه التعددية تعتمد على القناعات والمبادئ بل على الغرائز والمحاوف، ولألها كانت ضبابية وغير عددة الشكل، فهي بالتسائي كانست غسير مستقرة وغير قابلة للتوقع بها.

الغدل المابع

التقدم الذي طال انتظاره

بوتين پچند ايسلاحات السوق. محاربة المتلفذين تحت البساط. موسكو وواشنطن تسويان الأمر. الرئيس الروسي پختار الغرب. مؤشرات مثيرة للقلق

احوراً حاءت اللحظة التي أحس فيها فلاديمير بوتين بالثقة بالنفس. كان ذلك واضحاً من خلال أسلوبه ومشيته ونظرته، لم يعد الرئيس متصلباً ومتحفظاً كما كان في السابق - بدأ يتحدث دون أي تحضير مسبق - وأصبح لا يهاب الظهرور العلني. لقد آن الأوان بالنسبة للزعيم الروسي كي يبيّن لماذا كان يريد تركيز السلطة في يديه. لقد أصبح مستعداً للردّ على الاتحامات السيق وصفته بالتردّد والتذبذب.

في 3 نيسان من العام 2001، خاطب الرئيس البرلمان الفدرالي. كان المحتم ينتظر هذا الخطاب، على أمل أنه سيحمل في طياته توضيحاً لسياسات الرئيس. و لم يتكلم بوتين في تلك الجلسة كحاكم مطلق بل تكلم كمدير دينامي. وهو، على أي حال، سيخاطب البرلمان مرات عديدة في المستقبل، وسيصبح خطابه السنوي روتيناً مألوفاً، كما كان مع يلتسين. لكن خطاب العام 2001 سيبقى محفوراً في الأفهان، لأنه تحدّث فيه وكأنه مدير حقيقي مناصر للسوق، ولأنه أعلس عسن تصميمه على تجديد الإصلاحات الاقتصادية التي توقّفت في عهد يلتسين. فقد وعد بوتين للمرة الأولى بأنه سيضع حداً "لمنافع المناصب" – الرشاوى السيق بأحسنها

المسؤولون مقابل تقديم الخدمات - وإصلاح حهاز الدولة. وبذلك أمكن للبيراليين أن يتنفسوا الصعداء، فأخيراً أدار بوتين وجهه إليهم. أما الأمر المقلق الوحيد فهو أنه لم يذكر أي شيء حول الحقوق والحريات، وكأن روسيا لم تكن تعاني من أية مشكلة في هذا الخصوص.

لكن خطاب بوتين، المزلزل، كان بحاجة للفعل كي يعيش. وهنا أذهل الزعيم المروسي المشككين، بمن فيهم أنا شخصياً. حيث قدَّم بوتين إلى الدوما بحموعة من مشاريع القوانين التي تضمنت إصلاحاً قضائياً، وقانوناً زراعياً، وإصلاحاً للنظام التقاعدي، وتفييرات في التشريع الضريي، وتنظيم التحارة وقانون عمل حديد. في الحقيقة، إن ما فعله بوتين في ربيع العام 2001 باد وكأنه شورة. حيى إن المبتقراطيين شعروا بأن سنَّ القانون الليرالي يمكن أن يزيل الانطباع السلبي الدي سبه سعى بوتين المحموم لبناء نظامه الديكتاتوري البراغمالي.

وإضافة إلى ذلك، فقد سحّل الرئيس تقدماً آخر، حيث طرد رئيس الشركة الاحتكارية الأولى في روسيا، غازبروم، ووضع رَحُله الخاص مكانه. كانت الشركة العملاقة المملوكة من قبل الدولة تحافظ على البلد بعيدة عن المشاكل المالية عسن طريق صادراتها من الغاز الطبيعي، التي كانت تُكسبها حوالى ربع عوائد الميزانية. وكان رئيس بحلس إدارتها، رم فياخويف (الذي حل محل فيكور تشيرنوموردين في العام 1992 عندما أصبح الأخير رئيساً للوزراء)، رجلاً واسع النفوذ إلى درحة أنسه كان يستطيع أن يركل بقدمه فاتماً أي باب من أبواب مكاتب الحكومة، وليس في روسيا فقط. لكنه، مع ذلك، أرغم على التشجى بدون مقاومة. لقد أعلمه الكرملين بأنه إذا فعل، فإن الفائدة ستشمل ابنه وأقاربه وأصدقاءه، الذين كانوا يزدادون ثراء في الشركات الفرعية التابعة لغازبروم.

وضع بُوتِين رَجُّلاً له من سان بطرسبورغ في غازبروم، وهو أليكسي ميلسر. كان الرئيس بحاجة إلى رجل عملص على رأس إمبراطورية الغاز كي يمكنسه مسن السيطرة على أرباحها الهاتلة. بدون غازبروم كانت سلطة بوتين ناقصة. ولم يكن واضحاً في تلك اللحظة ما إذا كان الرئيس سيقتصر في تدخله على تعسيين المسدير الأعلى الجديد أم أنه سيبداً إصلاحاً في الشركة الاحتكاريسة وأعمالها التحاريسة السرية المشبوهة. لكنه سيعي، عاحلاً أم آجلاً، بأن الطريقة الوحيدة لرفسع قيمسة أسهم غازبروم، واحتذاب الرساميل الغربية، ودفع الدين الأحنبي للشسركة البسالغ قيمته 10 مليار دولار تكمن في إعادة هيكلة إمبراطورية الغاز وضمان شفافيتها.

وفي ربيع العام 2001 أيضاً، قرّر الرئيس إعادة إصلاح شركة الكهرباء الرئوسية، RAO UES، وهي "شركة احتكارية" أخرى يرأسها أحد الليسراليين البارزين، أناتولي تشوبايس. ولكن، كانت هنالك عناوف من أن يقوم تشوبايس، لما عُرف عنه من حيوية وتصميم، بخصخصة الأجزاء المربحة من نظام الطاقة وإعادة الباقي إلى اللولة؛ محاماً كما فعل زملاؤه، أكثر من مرة، أثناء فورة الخصخصة التي حرت في عهد يلتسين في التسعينيات. بالفعل، إذ حالما أعلن تشوبايس وفريقه عن خطتهم الإصلاحية، سرعان ما أثارت انتقاداً حاداً من قبل عدة أشسخاص، مسن عنهم المستشار الاقتصادي ليوتين، أندريه إيلاريونوف، وزعيم حزب يسابلوكو، غريغوري يافلينسكي.

غير أن تشوبايس كان معتاداً على الصراعات، ولهذا السبب لم يزده الأمر إلا أثارة وتصميماً، فلقد كان تشوبايس محارباً صلباً ومتمرساً. لقد أظهم المسراع الذي كان قد بدأ ينشب حول إعادة هيكلة شركة RAO UES بسأن الليسرالين الروس - حتى هم - كانوا بملكون آراء متضاربة حول المرحلة الجديدة من إصلاح السوق، وكان واضحاً أن الرئيس لم يكن يحبّد الفكرة - بسبب ولعه بالإجماع - لكنه كان مضطراً لمسائدة أحد الأطراف في هذا الصراع.

أما الخبر الهام فهو إعلان الفريق الحاكم لهلفه، وتصميم بوتين على الاستفادة من سلطته الشاملة: قرّر بوتين تحديث الاقتصاد. وهكذا، بعد التارجح بمنة ويساراً، عقد الرئيس العزم في ربيع العام 2001. كان بعض المقرين إلى الكرملين يتحدثون عن توليفة من الديكاتورية الحقيقة وليبرائية السوق كعلاج للمشاكل التي تعسائي منها روسيا. ومع أن يلتسين لم ينجح في هذه التوليفة، إلا أن بوتين يعيد التحريسة مرة أخرى. ونحن سنكتشف أين أخطأ يلتسين: هل أن الديكاتورية تحوّلت إلى حكم فوضوي، أم أن توليفة الديكاتورية والسوق لم تعسد ناجعة في روسسيا؟ وروسيا ستضطر لدفع الثمن ثانية إذا ما فشلت التحربة الجديدة.

عندما بدأ النواب بدارسة مشاريع القوانين التي قستمها السرئيس الروسسي، تضاءل تفاؤل الليرالين والديمقراطيين. والإصلاح القضائي هو الذي كشف جوهر بحموعة القوانين برمتها. صحيح أنه أضعف دور مكتب النائب العام ووزَّع بعضاً من سلطاته على المحاكم، لكنه بالمقابل زاد من اعتماد الحاكم على السلطة التنفيذية، الأمر الذي ينسجم مع ميول السياسة الروسية: تعزير الرئاسة الاستبدادية (1).

نفس الشيء يمكن قوله عن الإجراءات التي كانت تنوي تسهيل حياة رجال الأعمال الروس، ألا وهي القوانين التي تتعلق "بإلغاء القبود على الاقتصاد". فقد خفضت هذه القوانين، إلى درجة كبيرة، عدد التراخيص التي كان ينبغني على رجال الأعمال أن يحصلوا عليها، وبالتالي قللت من فرص البيروقراطيين في أخد الرشاوى والتدخل في السوق. غير أن القانون المقترح كان، فيما يبدو، يعالج الفساد بين صغار الموظفين فقط؛ فقد وُضعت الرشوة، بحسب المسراقين، تحست سيطرة كبار الإدارين. مثل هذه الإجراءات زادت من اعتماد المستويات الدنيا من طبقة البيروقراطين على المستويات العليا. وأعطت القمة سلطة لا تُحدد.

كانت روسيا تحتلك 400.000 بيروقراطي فدرالي وأكثر من مليون بيروقراطي القليمي. وكلهم كانوا، بطريقة ما، يشغلون أنفسهم بالقيام إما بعمل نافع، أو عمل تافه، أو عمل إجرامي صريح. من هنا، فإن تخفيض عدد التراخيص لم يكن ليغيسر من سيطرة البيروقراطية. ما كانت روسيا بحاجة إليه فعلاً هو إصلاح واسع النطاق لجهاز الدولة، يشتمل على تخفيض عدد المسوطفين، وتقسدم تعريف دقيسق للمسووليات الجديدة، وزيادة طال انتظارها للأجور من أحل كبح الرغبة بالرشوة، وطرح أفكار تتعلق بتغيير دوافع البيروقراطيين، وعماولة احتذاب موظفين أفضل. لكن الكرملين لم يكن مستعداً للفعاب إلى هذا الحدة، لأن ذلك النوع من الإصلاح الإداري يمكن أن يقرض الدولة الروسية التقليدية و"النظام الروسي" التقليدي الذي منحه بوتين الأولوية العليا. بوتين لم يكن ليقص ساق الكرسي الذي يجلس عليه.

بعد قراءة التشريع الإصلاحي المقترّح من قبل الرئيس، يمكنك أن تشعر بأنه لم يكن معدًا فقط للحفاظ على الوزن السياسي للمستوى الأعلى في حهـاز الدولــة وإنما لمساعدة الشركات الكبرى أيضاً. وليس كلها، بل بشكل أساسي تلك المتعلقة بالموارد الطبيعية، وأولها النفط والغاز والألميوم. أما الشركات التحارية الصحفيرة فهي لم تشعر بأي اهتمام خاص بوضعها الصعب من حانب الكرملين. وهذا ما أدى - بحسب اعتراف بوتين نفسه - إلى انخفاض عدد الشركات التحارية الصغيرة والمتوسطة انخفاضاً كبيراً، فواحدة من أربع شركات كانت على حافة الإفلاس أو المتوقية. الكثير من أصحاب تلسك الشسركات لم يستطيعوا تحمل ضغط البيروقراطيين، والرشاوى، والمتطلبات غير المعقولة، ومضايقات الشسرطة وقسوات المروقراطيين، والرشاوى، والمتطلبات غير المعقولة، ومضايقات الشسرطة وقسوات الأمن أو حتى العالم السغلي الإحرامي، ولهذا السبب اختاروا إلهاء أعمالهم التحارية والعمل بالأجرة (2).

ولكن، بالرغم من مبادرات بوتين الناقصة، إلا ألها كانت على الأقل تبقى نوعاً من الحركة والنشاط، بعد عدة سنوات من الركود. وعلاوة على ذلك، فليس لله ضمانة بأن الرئيس كان سينجح إذا ما أجرى إصلاحات حذرية، إذ إن العقبة الأولى كانت سنوضع في طريقه من قبل قاعدته بالذات: البيروقراطيون، وأولفك الذين ينتمون إلى أجهزة السلطة، الذين كان ما يزال يعتمد عليهم، بالإضافة إلى الأثرياء المتنفذين، المصممين على المحافظة على المعاملة الخاصة لممتلكاتهم وتجنب المنافسة. وفي تلك الفترة، لم يكن بوتين مستعداً للتسبب بأي مشكلة.

بدت سياسة بوتين بأنها كانت تسير على خير ما يرام. ففي صديف العسام 2001، كانت السلطة الرئاسية ما نزال تكتسب المزيد من القوة والنفوذ، إلى درجة أن تلك السنة بدت وكأنها ستكون سنة الانتصار بالنسبة للزعيم وفريقه. لقد تمكن بوتين من التحرك باتجاهين في وقت واحد: تعزيز موقعه وتقوية دعمه الاحتمساعي من جهة، واستناف الإصلاح الاقتصادي من الجهة الأخرى. وقد سمح لسه دوره كعامل استقرار في البلد على الإبقاء على المجموعات المحافظة والمعتدلسة دائسرةً في فلكه. كما منحه نشاطه الإصلاحي الفرصة لإعادة اكتساب النقة المتذبذبة للشريحة ذات التوجّه الليرالي في المجتمع.

 حال: عندما كانت مسألة استقلال روسيا وانفصالها عن غورباتشوف قيد البحث في العام 1991، وعندما أصبح يلتسين رمز القطيعة مع الماضي الشيوعي في العام 1996. أما بوتين نقد تمكن من الحفاظ على نفوذه وشعبيته لمدة سنتين كاملتين، وهو رقم قياسي بالنسبة لروسيا الزئبقية. ففي تشرين الأول من العام 2001، أيسد 75 بالمائة من المشتركين في أحد الاستطلاعات الرئيس الروسي؛ ولكن، في نفسس الوقت، 19 بالمائة فقط كانوا يثقون به. بعبارة أخرى، كان النساس ما يزالسون يدعمون الرئيس الأهم بمساطة لم يجدوا زعيماً آخر جديراً وكفوءاً في الساحة.



ولكن، وبشكل مفاجئ، قطع المسار السلس للأحسدات مسرة أحسرى. في الحقيقة، ذلك كان هو واقع الحال في روسيا ما بعد الشيوعية - بعكس ما كانست عليه الأمور أيام الاتحاد السوفياتي، المعروف بطبيعته الثابتة والمفلقة وغير الشفافة - حيث كان الاستقرار فيها دائماً ما يتعرض إلى التعطل بواسطة صراعات المصالح التي كانت تتفحر من خلال فضائح علنية، أو معارك سياسية عنيفة. لقد دُعي وزير المواصلات فيكتور أكسيونينكو - وهو أحد أرفع المسؤولين في المولة، والرحسل الذي كانت لديه مطامح بخلافة عرش يلتسين - للمثول أمام مكتب النائب العام، وذلك في تشرين الأول عام 2001.

وفي نفس الوقت، بدأ مكتب النائب العسام النحقيق في وزارة الأوضاع الطارئة، التي يرأسها صديق بوتين سيرجي شويغو. هذه الأحداث، بالطبع، صدمت طبقة النخبة، فالنائب العام كان يستهدف الأبقار المقدسة. لكنّ النواب العامين لم يكونوا يستطيعون المجازفة في القيام بذلك بدون موافقة الكرملين. ولهذا السبب أنظر إلى هذه الخطوة على ألها إشارة إلى أن الرئيس نفسه كان يبحسث عسن طريقة للتخلص من الأعضاء الأكثر فساداً في الفريق الحاكم القديم وفي نفس الوقت إظهار موقف غير متحيّر وغير شخصي.

 وهذا الصراع لم يكن من أجل السيطرة على بوتين فقط، بل من أحل الهيمنة على الحياة الاقتصادية والسياسية كذلك. وعلى الرغم من اشتراك العديد من المجموعات ذات المصالح في ذلك النسزاع، إلا أن الصراع بين البوتينيين (دُعيوا بسالبريتوريين (Praetorians)(3) وعائلة 4) يلتسين القديمة كان قد بدأ يطفى على الصسراعات الأحرى بشكل تدريجي. في الحقيقة، لقد انتظر الطرفان طسويلاً قبسل أن يقسررا الدحول في صراع على ومفتوح.

صنّف البوتينيون تحت شعار تطهير روسيا وحياقا السياسسية مسن الطبقسة الحاكمة والفساد وتقوية الدولة. وقد وجدت رسالتهم تأييداً من قبل الملايين مسن المحاكمة والفساد وتقوية الدولة. وقد وجدت رسالتهم تأييداً من قبل الملايين السغيرة الشعب الروسي الحائر والمغلول من شدة المقرء والمقلق بشأن مستقبله، والأهم من أصحاب الملايين الروس. هذه المشاعر كانت هي نفس المشاعر التي دفعت ذات مرة روسيا الفقيرة لاتباع البلشفيين. بالطبع، الكثير من الروس لم يشعروا بالقلق من حقيقة ألهم – بدعرى الحملة ضد الطبقة المتنفذة – كانوا أيضاً يُحرَّدون تسدريجياً من حرياتهم التي اكتسبوهم في عهد يلتسين وألهم كانوا يُومَرون بما يغطون وما لا يفعلون. والكثير منهم أيضاً لم يكونوا حتى يعلمون بأن رحال بوتين في الأحهـزة السرية، ووزارات السلطة الأخرى باتوا – بعد تذوقهم طعم السلطة – يريـدون سيطرة كاملة على الكرملين، ليس من أحل محاربة الشر والفساد بل مسن أحسل السلطة المطلقة وحدها.

أما بالنسبة للمحموعة الأخرى – البلتسينيون – فقد سبق وحققت كل مسا كانت تحلم به، بل أكثر مما كانت تحلم به. فخلال عهد يلتسين، كسان هــولاء يقبعون فوق القانون، ولم تكن ثمة أية قيود عليهم. لقد خصخصوا الدولة ومعهـا الرئيس نفسه. وفعلوا الكثير لتشويه المنمقراطية ومفهوم الليبرائية. وهم الذين أثاروا النقمة والرغبة بالانتقام في نفوس الشعب الروسي.

لكنهم - نخبة عهد يلتسين - أصبحوا الآن يرفعون شعار الحرية والدفاع عن الديمقراطية في صراعهم مع وزارات السلطة والأجهزة السرية. في الواقسع، لقسد حاولوا بالفعل الحفاظ على شيء من التعدية، ولكن فقط لإدراكهم بأن أجهسزة

السيلوفيكي إذا ما قضت على حرية الصحافة والأحزاب السياسية والبرلمان، فسإن الدور سيأتي على الأثرياء المتنفذين في تحاية المطاف، سواء أكانوا مخلصين للرئيس أم لا. أو لعل البريتوريين كانوا سيأتون إليهم بأسرع من ذلك. وبسدورها، كانست حاشية يلتسين مرغمة على القتال من أحل الليمقراطية، وليس فقسط مسن أحسل ملايينها المدخرة، أو المسروقة. من المؤكد أن الطرفين لم يكونا ملائكة. كسل مسالح هنالك هو أنه تصادف في تلك اللحظة التاريخية من حياة روسيا أن تلتقي المسالح السياسية لكل من الحاشية السياسية ليلتسين والطبقة الحاكمة القديمة مسع مصالح المعتمد اطبن.

في غضون ذلك، كان البريتوريون يحاولون وضع أشخاص تسابعين لهسم في منصبي رئيس المستشارين الرئاسيين ورئيس السوزراء. كانست الهجمسات علسى اكسيونينكو وشويفو مجرد احتبارات لمعرفة مدى ضراوة مقاومة حاشية يلتسين.

تابع بوتين هدوء استعناف النسزاع القضائي لكنه حاول تحتب التدخل بشكل على. لم يكن بوتين مستعجلاً لرمي اليلتسينيين إلى قضاته كي يقطّعوا أوصالهم. لكنه في نحاية الأمر، أرغم أكسيونيكو على الاستقالة؛ وكان هنالك الكشير مسن المعلومات الفاضحة عنه. كان بوتين بحاجة للقبض على بعض الأشخاص السيئين من أجل إظهار أنه كان يقوم بمل المشاكل، وأولها عاربة الفساد، وكان مضطراً كذلك لتقديم بعض الرؤوس لشعبه. لكنه، مع ذلك، ترك اليلتسينيين الآحسرين في مناصبهم، ومنهم رئيس المستشارين الرئاسيين ألكسندر فولوشين، بالرغم من ألهم كانوا أشبه بأحسام غرية بين المخلصين لبوتين. من غير المرجّع بالطبع أن يكون كانوا أشبه بأحسام غرية بين المخلصين لبوتين. من غير المرجّع بالطبع أن يكون تدهور روسيا، معجباً بأشخاص من حاشية يلتسين. ومن يحبّ أن يحسيط نفسه بأشخاص صنعوا شخصيته السياسية، ويتوقعون مقابلاً لصنيعهم هذا، وما زالسوا يريدون لأنفسهم النفوذ؟

سمح الرئيس للصراع بين المجموعتين القويتين بالاستمرار لأنه لم يكن يريد أن يصبح رهينة للمنتصرة منهما، التي كانت ستدفع بالآخرين إلى خسارج السماحة. كان يدرك بأن وحود عدة مجموعات في الكرملين هو الذي سيسمح لسه بالبقساء فوق الصراع. إضافة إلى ذلك فهو كان يعرف بأن فريقه، مهما كان ولاؤه لـــه، كان ما يزال يفتقر إلى الخبرة. "ومن سيقوم بالعمل؟" لعله هكذا كان يجيب كلما أبدى أحد البريتوريين تعنتاً بخصوص تحريره من الفئة الحاكمة القديمة.

قد يكون هناك تفسير آخر لصبر الرئيس على الحسرس القسيم، وهسو أن اليتسينيين كانوا يمثلون الليرالية الاقتصادية، التي كانت إيديولوجية بوتين أيضاً. وهكذا نجد أن بوتين قد أخذ عن سلّفة نفس التكتيكات التي كان يستخدمها مسن أحل بقائه. وكلاهما أدارا نظاماً بدأ يفرض قوانينه الحاصة، ومن بين هذه القوانين: إن بقاء القيادة الديكتاتورية يعتمد على الصراع المستمر بين الجماعات المتنفسذة، الأمر الذي كان يسمح للزعيم بلعب دور الحكم.

ஒ

وفي وقت مناسب، حدث انعطاف جديد في صراع الكرملين: بدأ مكتسب النائب العام تحقيقاً في الشركات الفرعية التابعة لشركة غازبروم، وعلى الأخسص منها شركة سيبور – زُجَّ مدراؤها في السحن لاحقاً. وذلك الانعطاف صدم كلاً من البيروقراطيين الناجحين من عهد يلتسين والطبقة المتنفذة. وبذلك أرسل الرئيس رسالة تقول بأنه سيتابع هجومه على الفائزين في العهد السابق، حتى لسو كسانوا حيادين سياسياً. من الواضح أن المبادرة لم تكن نابعة منه – فهو كسان أشيل إلى الانتظار والمراقبة بمدوء – لكنه، فيما يبدو، استسلم إلى حاشيته التي كانت تعسس على إعطاء درس أو درسين لرجال الأعمال المتغطرسين.

وهكذا، مرة أخرى، لعب مكتب النائب العام دوراً حوهرياً، وكان أشبه علم علق النار على كل شيء يقع في طريقه. لكن الاستقلالية الظاهرية للنائب العام فلادعير أوستينوف، الذي أصبع بطلاً في وسائل الإعلام الروسية، كانست استقلالية عنادعة، إذ إن دافعه من وراء إطلاق تحقيقاته بشأن المتنفذين الكبار كان سياسياً بشكل واضع. لقد حقّق مكتب أوستينوف مع أشخاص كانوا إما غير موالين للكرملين أو غير مستعدين للتعاون مع الفريق الحاكم الجديد. بكلمات أعرى، كانوا إما غير منسجمين مع بنية نظام بوتين، أو نسوا مشاطرة الدولة

أرباحهم. في تلك الأثناء، كان المتنفذون الذين أنوا إلى موسكو مع البريتوريين فوقى الشكوك – على سبيل المثال، المصرفي سيرحي أوبوحاتشيف من سان بطرسبورغ، الذي برز إلى الوحود من العدم، والذي كانت مصادر ثروته كلها مشبوهة.

كانت المرحلة الجديدة من "قتال المتنفذين تحت البساط" محتومة استناداً إلى طبيعة "النظام الروسي"؛ رغم المنطق الذي منحه إياه بوتين. ففي غياب الموسسات المستفلة، كان الفراغ يُملاً من قبل المجموعات المتنفذة، والصراع بينها على النفسوذ السياسية في روسيا. وانتصار أحسد الأطراف في هذا الصراع ما هو إلا فترة فاصلة وحيزة، لأن الجولة التالية ستبدأ مع ولادة مجموعة متنفذة جديدة. صحيح أن صراع المجموعات ذات المصالح ليس أمراً غير عادي – فهو يحدث في كل المجتمعات – إلا أن المشكلة في روسيا تكمسن في علم قدرة حكم القانون أو المؤسسات المستقلة على تحجيمه ولجمه.

الحدث الآخر الذي زاد من التوتر في روسيا عُثَل في هجوم الكرملين - في خريف العام 2001 - على المحطة التلفزيونية غير الحكومية 6-TV، حيست وحد صحفيو NTV فيها ملحاً لهم بعد إغلاق شركتهم في الربيم، والتي كانت قد بدأت تكسب الأرباح. كان هناك إحساس بمشاهلة أمر يتكرر للمرة الثانية، حيست استُخلمت، مرة أخرى، ذريعة قانونية لملاحقة الشركة (أبطلت بعد عدة أشهر). وبذلك أثبت التهجم على 6-TV، مرة أخرى، افتقاد النظام القضائي الروسي للاستقلالية، إذ كانت السلطة التنفيذية تتلاعب بكل بسهولة بالمحاكم، وعلى نطاق أوسم مما كان عليه الحال في عهد يلتسين.

وأصبح خضوع النظام القعنائي واضحاً للعيان بشكل أكبر في الانتعباب الرئاسي في ياكوتيا في خريف العام 2001، حيث كان التلاعب فيه فاضحاً. كان الكرملين يريد التعلص من رئيس ياكوتيا المشبوه ميخائيل نيكولاييف، وتنصبيب رجل تابع له (أي للكرملين) كرئيس للجمهورية الغنية بالماس. بالطبع، كان مسن الصعب تحقيق ذلك دعقراطياً، لأن نيكولاييف كان قد أنشأ نظاماً قوياً، عن طريق امتصاص ورشوة كل القوى الأساسية في الجمهورية. ولمواجهة ذلك، استحدم الكرملين أسلوب الضغط المثبت فعاليته، مع المحاكم كعنصر مكمًل.

وكان يمكن للتخلص من نيكولاييف أن يسير بسهولة ويسر لولا أن القضاة في
ياكوتيا لم يفهموا، من شدة حيرقم وارتباكهم، إلى أي حانب يُفترَض بمم أن يكونوا؛
إلى حانب رئيس جمهوريتهم أم إلى حانب الكرملين. وهكفا تحوالت الإحسرايات
القانونية إلى مسرحية هزلية غيَّر فيها القضاة قراراقم عسدة مسرات، مساعين تسارة
لنيكولاييف بالترشح، ومحظرين ترشحه تارة أخرى. بعبارة أخرى، كانت انتخابسات
ياكوئيا مشهداً مؤسفاً كشف عن مأساة البيروقراطية المصانة التي لم تحاول، كمسا في
الماضى، حتى أن تنتج بجرد مظهر خارجى للشرعية وطاعة القانون.

لقد انحدرت الانتخابات الإقليمية في روسيا بوتين إلى مستوى عقد الصفقات العلنية ولي الأذرع دون أي تمويه دعقراطي. وبذلك أصبح من الصسعب إطلاق تسمية "دعقراطية منتخبة" على أي نظام حديد، مع تحوّل العديد من الانتخابات الإقليمية إلى تعيينات سيئة التمويه من الأعلى. والمأساة في الأمر هي أن الانتخابات الحرة - كما في ياكوتيا - كانت ستومِّن الحكم الإقطاعي إما للنُعَب الإقليمية أو المالات النبلاء الإقليميين. إذا فالخيار كان ينحصر إما بين الديكتاتوريين الإقليمين أو البيروقراطيسون الفدراليون، أكثر تمدناً وبراغماتية من أولئك الأمراء الصغار. من هنا، علينا أن نعترف بأن اتباع القواعد الديموائية في بعض الحالات كان سيكرِّس الإدارات نعترف بأن اتباع القواعد الديمون التقليدية المقاومة لأي تغيير أو جهد إصلاحي. لكن التخاص منهم عن طريق الاحتيال والتلاعب لم يكن ليساعد علمي تعزيسز المهادئ اللهدي المهادئ المبد.

لقد أثبتت أحداث العام 2001، مع التوازن المهزوز للقوى ضمن الكرماين، بأن الواقع الجديد في روسيا لم يكن مستقراً، بل استمر بالاهتزاز والتحول من حالة إلى اعرى. وذلك كان جيداً على كل حال، لأنه لو توحد النظام مسع قاعدت توحداً تاماً، لما كانت هنالك فرصة للتغيير في المستقبل القريب. كان التقلب يعسني تطوراً، إما باتجاه تقوية النظام أو إضعافه، إما باتجاه ديكتاتورية أكثر وضوحاً أو باتجاه المنقراطية. وعلى أي حال، تبقى الحركة أفضل من الركود والتعفّن.

كانت التذهذبات في الحياة السياسية الهلية مصحوبة بتحولات في السياسة الحارجية. ففي بداية العام 2001، ساءت علاقة روسيا مع الدول الدائنة – وخاصة المانيا، الدائنة الأكبر – بعد إعلان موسكو بأن روسيا لن تلفع ديونها إلى نسادي باريس. وقد قوبل هذا التصريح على الفور بتحذير من النائب الأول لوزير المالية الألماني كايو كوتشويسر طالب فيه بطرد روسيا من مجموعة الثماني الاعتبارية.

وكان لنبرة ألمانيا الحادة أثرها الفوري على موسكو، التي وعدت بدفع ديولها. في الحقيقة، إن المشكلة التي أثيرت حول دفع الدين كشفت ليس فقط عن انعسدام خبرة فريق بوتين، وإنما عن اللامسؤولية من حانب رئسيس السوزراء والليسبراليين المسؤولين عن السياسة الاقتصادية. ورئيس روسيا أيضاً كان عليه أن يتعلم كيسف يتعامل مع القضايا الخارجية، وخاصة مع مسألة الدين الروسي.

بعدئذ، سرعان ما برزت مشاكل خطيرة حيداً في العلاقات الأموكية الروسية (5). فقد خابت آمال الكرملين في أن تكون إدارة بوش شريكاً مناسباً أكثر لروسيا من إدارة كلينتون، وتبيّن بأن تلك الآمال كانست تفتقر إلى أي أسساس واقعي. وأكثر من مرة، شعرت موسكو بالحنين إلى عهد كلينتون ونائسب وزيسر الحنارجية السابق ستروب تالبوت، مهندس السياسة الأميركية تجاه روسيا خسلال المتعينات، الذي كان يعتبر روسيا أولوية في السياسة الخارجية، ويعتبر تحسول روسيا هدفاً رئيساً فيها. لقد تفيّر مسار واشنطن في عهد بسوش تفيسراً حدرياً. وبدون صياغة كاملة لمبادئ سياستها الخارجية، حعلت الإدارة الجمهورية الجديدة موسكو تفهم بأن روسيا لم تعد عُمّل قضية أساسية بالنسبة للولايات المتحدة، وأن واشنطن ستحافظ على سياسة ذات "إلتزام انتقائي" معها. وهكذا أبعدت الإدارة الجديدة نفسها عمداً، وكأنها تريد أن تقول، "لا تتصلوا بنا، نحن سنتصل بكم إذا احتجنا إليكم".

باختصار، أظهر بوش لموسكو وجهاً بارداً عن طريق تجاهله له... لم يكسن الفريق الجمهوري يسعى للفوز بإعجاب الكرملين، أو التساهل بخصوص الأحسلام الإمبراطورية الروسية. ومن الواضع أن واشتطن لم تكن تملك الوقست للأعسال الحيرية السياسية و لم يكن بوسعها أن تفهم كيف يمكن لروسيا أن تكون مهمسة

دون أن تمتلك شيئاً مادياً لتقدّمه. وعلى هذا الأساس، خلال الأشهر الأولى مــن عمر الإدارة الجديدة، أمر البيت الأبيض بمراجعة برامج المساعدة السابقة لروســيا وكل الجوانب الأخرى للسياسة الروسية. بدا الأمر وكأن المســاعدة الأمركيــة لروسيا والتعاون الأميركي مع روسيا سيتراجعان بشكل كبير.

أخذت موسكو على حين غرّة بسياسة واشنطن التي اعتمدت أسلوب المعالجة بالصدمة. وهذا النحوّل الحاد من الإلتزام إلى عدم الإلتسزام تسسبّب أول الأمسر بالذهول، ثم الفزع، وخاصة بين النعب الروسية التي ربطست نجمها بالإدارة الأميركبة. كان واضحاً أن الطبقة السياسية الروسية كانت بحاحة لدراسسة أكسر واقعية لوضع البلد في العالم وأحندته بالنسبة للعلاقات مع الولايات المتحدة، وهذا ما أحدثه الدش البارد الذي فتحته واشنطن على موسكو. وقوق ذلك، لقد أنسار الموقف المتعالي من قبل بعض أعضاء الإدارة الأميركية، وتجاهلهم الواضع لموسكو، مشاعر النقمة بين الطبقة السياسية الروسية. وهذا ما أدّى إلى تجميد العلاقة الشائية بين روسيا والولايات المتحدة.

لكن كلام بوش كان منطقياً. فالحرب البادرة قد انتهت، والنظام الأمسين المستند إلى النظرة ثنائية القطبية إلى العالم – أي إلى انعدام الثقة، وإلى فكرة الدمار المؤكد من قبل الطرفين – كان بالقطع بحاجة إلى إعادة نظر. وأحد قطسي هسذا النظام رأي الاتحاد السوفياتي) لم يعد موجوداً، والمتنافستان السابقتان (الولايسات المتحدة وروسيا) لم تعودا رهيني ذلك التنافس العدائي السابق. أضف إلى ذلسك ظهور تحديدات من نوع جديد لم يعد نظام الردع السابق الذي كان قائماً أيسام الحرب البادرة كافياً للتعامل معها. كان الرئيس الأميركي على حق: محة حاجة لبناء

نظام أمني حديد لمواجهة تحدّيات العالم الجديد. وعلى هذا الأسلس، اقترح بسوش بأن تعمل الولايات المتحدة وروسيا سوية على "تطوير أساس حديد للسلم والأمن العالمين". بعبارة أخرى، كان الأميركيون يريدون الانتهاء من الماضمي بشكل كامل، ويريدون كذلك تجاوز قيود النظام الأمني القديم.

غير أن الطريقة التي كانت تتعامل فيها واشنطن مع المسألة الأمنية لم تكسن مطمئنة للروس. أولاً، لم تكن روسيا مستعدة لمثل هذا الرفض الحاد للنظام الأمسني القديم. ثانياً، كانت لدى موسكو شكوك حول حقيقة اعتبار واشسنطن لروسيا كشريك حقيقي بالنسبة للنظام الأمني الجديد. كان البيست الأبسيض يخطيط للانسحاب من الهيكلية الأمنية العالمية القديمة دون انتظار بناء نظام أمسني تعاوي جديد. والأهم من ذلك هو أن الولايات المتحدة - من وجهة نظر روسيا - كانت تقوض الأسس التي بنت عليها روسيا دورها العالمي. و لم تكن الطبقة السياسسية الروسية مستعدة في ذلك الوقت لتلك العملية الجراحية. حتى الليم اليسون السروس والقوى السياسية المأمنية الأمير بدت وكألها تنظر إلى الأجندة الأمنية الأموكية بعين من الشلك والرية.

على أي حال، لم يكن منطق واشنطن حالياً من العيوب والشوائب. فهاذا كانت الحرب الباردة قد انتهت - بحسب المنطق الروسي - فلماذا الاحتفاظ برموزها الأحرى، مثل الناتو، وتعديل حاكسون-فانيك، الذي حعل التحارة بين روسيا والولايات المتحدة تعتمد على مستويات الهجرة اليهودية؟

مما لا شك فيه أن الحلفاء الأوروبيين للولايات المتحددة مسيقبلون، ولسو مكرّهين، في لهاية المطاف الطريقة الأمركية في حلّ المشكلة، لكن الأمركان أكثر صعوبة بالنسبة لروسيا. فموسكو لم تكن مستعدة بعد للتخلي عسن الاتفاقسات النووية التي محتّل الدليل والبرهان الأخيرين على مكانتها كدولة عظمى. وإضافة إلى الكبرياء والعواطف الأخرى التي يُحسّب حسابها في السياسة، فإن الروس كسانوا يشكّون في أن انسحاب الولايات المتحدة من اتفاقيات ABM قد يشسعل فتيسل سباق تسلّع نووي جديد لم يكونوا يملكون أي فرصة للفوز فيه.

بدأ الكرملين بحثاً محموماً عن ردٍّ مناسب. و لم تكن المسألة تتعلـــق بضـــمان

المصالح الاستراتيجية لروسيا (قلة قليلة في موسكو كانت تعتقد بأن اللفاع الصاروخي الأمركي المقترّح كان يمثل تحديداً حقيقياً لأمن بلدهم) حفظاً لماء الوجه. كان القيام برد قوي على الولايات المتحدة مسألة غير واردة أبداً، فبوتين لم يكن يريد أن يزيد من حدة الصدع الحاصل بين البلدين. وهذه الحقيقة كانت ظاهرة جديدة على موقف الكرملين. فلو كان يلتسين محله، لغضب غضباً شديداً وأيقظ الصين وبحاً إلى استخدام لغة متشددة وحتى إلى إظهار القوة الروسية. أما بوتين فقد حافظ على هدوئه. لكنه أحس بأنه حُشر في الزاوية عندما بدأت واشنطن بصياغة قوانين جديدة دون أن تعير اهتماماً لتعقيدات ومخاوف روسسيا؛ كان يعرف نماماً مشاعر العلبقة السياسية في بلده، وهو لم يكسن يريد أن يُستَهم بالضعف.

لله مفارقة تدعو للسخرية هنا، فقد تبيَّن أن روسيا لا تكون مهمة بالنسبة للولايات المتحدة إلا إذا كانت خطرة. ومن هذا المنطلق، صعَّد بعض السياسين الروس من خطاهم العسكري المثير للحوف، في محاولة منهم، إن لم يكن لترهيسب واشنطن، فعلى الأقل لإثارة انتباهها وإرغامها على العودة إلى تعاملها الحذر مسع روسيا. أما بالنسبة للأميركيين، فقد قرّروا المضي قدماً دون الانتباه إلى المخساوف والهواجس السياسية للنجبة الروسية.

W-

في محاولة للحفاظ على مكانته الدولية، لعب الكرملين على كسل المبادين الممكنة بشكل متزامن. فقد حاولت الدبلوماسية الروسية بداية إطلاق صرعة اسراتيحية أوروبية جديدة. ثم إلتفتت إلى الصين وأعادت تفعيسل صلاقا مسع حلفائها السابقين مثل كوبا وفيتنام. وأعيراً، اكتشف الكرملين حيرانه، وهم الدول المستقلة الجديدة التي تأسست بعد تفكّك الاتحاد السوفياتي، ودول أوروبا الوسطى والشرقية.

قد يعتقد المرء بأن بوتين أطلق حملة دبلوماسية محمومة من أحل استعادة نفوذ روسيا العالمي لموازنة الهيمنة الأموركية. على الأقل، معظم أعضاء الفريق الروســـــي الحاكم فهموا أن حملة بوتين كانت تعني تحجيم التفوّق الأميركي. في الحقيقة، لا شك أن ذلك كان في البداية أحد أهداف الرئيس الروسي؛ لكنه لم يكن الهـــدف الوحيد.

سرعان ما اكتسب قرار موسكو بتوسيع أجندة سياستها الخارجية وإعسادة إحياء علاقاتها وروابطها السابقة بُعداً جديداً وبناءً. لقد أدرك فريق الكرملين بسأن المصالح المباشرة لروسيا تكمن في جوراتها وفي أوروبا. إن ازدياد فعاليات وأنشسطة روسيا في العالم كان إلى حد كبير نتيحة تنامي نسزعتها البراغماتيسة واسستفلال السياسة الخارجية من أجل أغراض تجارية ربحية. أو بعبارة أحرى، عن طريق محاولة بناء سياستها الخارجية على أساس المصالح الاقتصادية بدلاً من الحنين لإمبراطوريتها الضائعة أو الرغبة بموازنة الهيمنة الأميركية.

وفي الإطار نفسه، دعا بوتين الرئيس الإيراني محسد خسائمي إلى موسكو. ووقعت روسيا اتفاقية واسعة النطاق مع إيران حول بيع الأسلحة، وإكمال بنساء مفاعل للطاقة النووية في بوشهر. الكثيرون قرأوا المعاهدة على ألها رسالة مفتوحة إلى واشنطن: إذا تجاهلتم روسيا، فسنكون أصدقاء لإيران ودول مارقة أحسرى. كانت إيران واحدة من دول قليلة ما تزال تشتري الأسلحة والتكنولوجيا النوويسة الروسية، الأمر الذي ساعد في الحفاظ على المجمع الصناعي العسكري الروسسي وقسم الطاقة الذرية على قيد الحياة، وأوجد الوظائف لآلاف المسواطنين السروس. لكن توقيت زيارة خاتمي وطبيعة الصفقة بين إيران وموسكو أعطى الأسساس لكن توقيت زيارة خاتمي وطبعة نظر الكرملين على الأقل، تمثل ردّة فعل انتقاميسة على قرار واشنطن بإلغاء اتفاقيات ABM وازدياد تجاهل الولايات المتحدة لروسيا.

بالطبع، اعتبرت واشنطن الاتفاقيات الجديدة بين إيران وموسكو بمثابة قمديك لها، الأمر الذي دفع وزير الخارجية الأميركي كولن باول إلى التصريح: "من غير الحكمة الاستثمار في أنظمة لا تتبع المعابير الدولية في السلوك"6، غير أن تسوييخ واشنطن لم يكن بالردّ المناسب والصحيح على السياسة الروسسية. فمسن خسلال التصرف كمعلم صارم، لم تقم الولايات المتحدة إلا بزيادة الاستياء وحتى العسداء ضمن الموسسة السياسية الروسية، التي لم تكن تقبل بأن تُعطَى دروساً في السلوك،

وتُلقَّن أبن تقع مصالحها الحقيقية. كان من الأحدى بالنسبة للولايات المتحدة، بحسب بعض الحكماء الأمركيين، أن تمنح روسيا حوافز اقتصادية للتعويض عن الحسائر الاقتصادية التي ستعاني منها من جراء قطع تعاولها العسكري مع إيران. على أي حال، كان واضحاً، حتى بعد تحوّل بوتين نحو الغرب، أنه لم يكن بالإمكان حعل أجندة السياسة الخارجية الروسية منسجمة مع الخطط والتطلعات الأمركية.

ونتيحة لذلك، خلص أغلب المحللين السياسيين الروس إلى أن موسكو كانت تفعل الصواب بتعزيز علاقاقا مع إيران. فقد نصح العديد من الأشسخاص السذين عطون مدارس سياسية مختلفة، مثل أندرانيك ميغرانيان في صسحيفة نيزافيسسيمايا غازيتا في عددها الصادر في 5 آذار، بوتين بالردّ بحدّة على واشنطن والحفاظ علسى سياسة مستقلة. وكانت ححتهم في ذلك تقول بأنه طالما أن الولايات المتحسدة لا تحترم إلا القوة، فإن روسيا إذا انحنت إلى ضغوط البيت الأبيض، وقبلت بقواعسد بوش للعبة، فلن يحسب أحد حساباً لها بعد ذلك.

ولكن، هل يمكن لروسيا فعلا أن تقاوم الضغط الأميركسي؟ وإلى أي حسة كانت موسكو حكيمة في دعمها للدول ذات السمعة المشبوهة، وإنشساء حسزام مليء بالأسلحة حول روسيا؟ وما هي الضمانات بأن لا تُدرُ إيران، وأيه دولة أحرى باعتها روسيا أسلحة، بما فيها الصين، ظهرها لروسيا؟ وألا يمكن لطهران أو بكين أن تستخدما التعاون مع روسيا كورقة في لعبة معقدة مع الولايات المتحدة؟ بالطبع، لقد يُحنّبت الطبقة السياسية الروسية - التي اعتادت على العيش يوماً بيسوم والتي ما زالت تفكر بطريقة عاطفية - هذه الأسئلة. ولكن، بالمقابل، لم يساعد الفريق الجديد في واشنطن، عبر ممارسة الضفط وتجاهل موسكو، روسيا في البحث عن أجوبة جديدة، وهذه السياسة لم تعمل إلا على تقوية موقع الصقور الروس.

لقد شك القليل من السياسيين والمراقبين الروس في أن يكسون الجمهوريسون يحاولون تبريد العلاقات مع روسيا عن قصد من أجل فتح مساحة لهسم للمنساورة على مسألتي الدفاع الصاروخي القومي وتوسيع الناتو، ولكسب المزيد من حريسة الحركة فيما يتعلق بأهدافهم العالمية. كانت الأمزجة المتشددة في موسكو الذريعسة المثلى للمضيّ منفردين. كان الروس يعتقدون بأن بوش قرّر الانسحاب من كـــل المعاهدات مع روسيا وبناء نظام عالمي حديد لوحده دون تضـــيع الوقـــت علـــى المعاهدات والصفقات. وقد أثارت بعض الإشارات المهينة أو اللامبالية مـــن قبـــل بعض أفراد إدارة بوش، مثل وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، حفيظة القوميين الروس أكثر من ذي قبل، وشكّلت سبباً للقائل من المجموعات المويدة للغرب في روسها.

في تلك الأثناء، بدا الرئيس بوتين بأنه أكثر هدوءاً واتزاناً من غالبية النخسب الروسية. فأقنع نفسه بدور جديد لروسيا، بالرغم من أنه لم يكن مرتاحاً لقسرار الولايات المتحدة بتغيير النظام الأمني لعالم ما بعد الحرب الباردة بشسكل مستقل دون الإصفاء لاعتراضات موسكو. ورغم أنه لم يكن متأكداً من ذلك في البداية عندما كان يلعب على أهداف مختلفة في سياسته الخارجية - إلا أنه أصبح بعد ذلك أكثر تصميماً على صياغة أولويات السياسة الخارجية على أسساس مسوارد روسيا المحدودة.

في الحقيقة، كان بوتين الزعيم الروسي الوحيد الذي فكر في طموحات روسيا من خلال إمكانيا في وقدرا قمال الكنه، في الوقت عينه، كان يعمل مع نفسس الأشخاص المسؤولين عن السياسة الخارجية؛ أي معي العقلية التقليدية والإفاق التقليدية. علاوة على ذلك، من الواضح أنه كان يستغل الدفاعات الغضب عند طبقته السياسية عندما كان يريد شراء الوقت أو إذا كان المفاعات الغضب عند طبقته السياسية عندما كان يريد شراء الوقت أو إذا كان متركائه الأميركيين. لكنه لم يسمح لنفسه أبداً بالنسزول إلى مستوى إظهار مزاج عدائي، فلقد كان على الدوام هادئاً ومتزناً ينتظر بصبر وأناة الفرصة المناسسة عدائي، فلقد كان المحسور مع الأميركيين.

___**__**__

على أي حال، لم يتوقّف الكرملين عن محاولة عقد احتماع بين الــزعيمين. وفي ربيع العام 2001، كان الفريق الحاكم في روسيا يبحث بشكل فعال عن طرق لإذابة الجليد الذي يقطع الحوار مع البيت الأبيض. لكن العلاقات مـــع واشـــنطن كانت أشبه بمشكلة نفسية بالنسبة لموسكو. فمن حهة، كانت العلاقة الأمركية الروسية الشيء الوحيد الذي يعطي روسيا إحساساً بأهميتها. ومن حهة أحرى، إن هذه العلاقة حعلت الكرملين يشعر بشكل أكثر حدة بأن روسيا لم يعد باستطاعتها المطالبة بمكانة الشريك المساوي.

على ما يبلو، كان بوش، الذي التقى زعماء دول أصغر حمماً بكيثير مسن روسيا، يتحنّب الالتقاء مع بوتين. بدا الأمر وكأن واشنطن لم تكن تنوي العسودة إلى سياسة القمم الثنائية. لكن الزعيم الأميركي كان يملك سسبباً وجيهساً لعسدم الاندفاع للقاء بوتين. ففي 18 شباط من العام 2001، انكشفت فضيحة تحسّس تورط فيها عميل رفيع المستوى في الإف بي آي، روبرت هانسن، كان قد مضى على عمله لصالح روسيا، ومن قبلها الاتحاد السوفياتي، خمسة عشر عاماً (وسيعترف في عموزة قضية تحسّس وتآمر).

وعلى سبيل الانتقام، طسردت وزارة الخارجية الأمركية في 22 آذار 50 دبلوماسياً روسياً مشتبهاً بتحسّهم. وبالمقابل، أعلنت روسيا طسرداً "موازيساً" لحسين دبلوماسياً أمركياً. وهبّت رياح باردة على العاصمتين من حديد. وبسداً مسوولون كبار في كلا الجانبين بتبادل لفة عدائية لم تعسد تسسمع منسذ بداية الثمانينيات. "بحسّى؟" تساعل روبرت كايزر، وهو صحفى بارز له عمود ثابت في صحيفة واشنطن بوست، معلقاً على فضيحة التحسّس في عددها الصادر في 24 آذار. "لقد أمسكنا بعميل الإف بي آي الذي يعمل لصالحهم لأن عمسيلاً روسياً يعمل لصالحهم لأن عمسيلاً روسياً يعمل لصالحهم التنفو هسذه تتطلسب المساول عن هذه البلاهة؟ أو لعله سوال تافه عبثي. فرقصة التانفو هسذه تتطلسب عداً ميناً من الراقصين". وهكذا استمرت حفلة التانفو.

غير أن زعيم الكرملين لم يُظهر أي عاطفة حتى أثناء فضيحة التحسّس، وكأن الأمر لم يكن له أي علاقة بروسيا. كان يتحسّب أي شيء يمكن أن يجعل من تطبيع العلاقات مع واشنطن أمراً مستحيلاً؛ فلم يقترب يوماً من نقطة اللاعودة. وفي لهاية المطاف، أدركت واشنطن (من الواضح أن ذلك حدث بضفط من حلفائها الأوروبين) بأن الوقت قد حان للتوقف عن تجاهل موسكو. وهكذا، وافق بسوش

على لقاء بوتين في ليوبليانا في 16 حزيران من العام 2001، خلال رحلة أوروبيـــة. فتنفّس فريق الكرملين الصعداء.

كان لقاء الزعيمين دافقاً على نحو غير متوقع، رغم البرودة التي كانت تفلسف العلاقة بين البلدين. وقد ذهب بوش في التعبو عن ودّه نحو بوتين أبعد بكتير ممسا توقّعه الأميركيون والروس على حدَّ سواء. قال بوش في مؤتمر صحفي بعد لقاء مع الرئيس الروسي "لقد نظرت في عيني ذلك الرحل ورأيت أنه صريح وحدير بالثقة. لقد تبادلنا حديثاً ودياً للفاية. لقد لمست روحه". حتى إن بوش دعا بوتين لريسارة مزرعته في تكساس.

إذاً، فقد شكّلت ليوبليانا نقطة تموّل. إن مقاربة الرئيس الروسي للعلاقسة مع الولايات المتحدة كانت مختلفة عماماً عن تلك الخاصة بالكثير من السياسيين الأوروبيين. فبدلاً من الانتقاد، كان بوتين يقلّل دائماً من أهميه الاحتلافات والقضايا الحساسة، واضعاً نصب عينه باستمرار هدفه الأساس وهدو تطبيع العلاقات مع واشنطن، الذي كان يعتبره حوهرياً بالنسبة لروسيا وحوارها مع الغرب. وكان واضعاً أن بوش كان يقتره ذلك حق تقديره. وهكذا، كان المقاء بين الزعيمين بداية صداقتهما الشخصية. وقد ساعدت كوندوليزا رايس، مستشارة بوش للأمن القومي وواحدة من أكثر مستشاريه موثوقية، على بناء المنعة بين الرحلين، وقد أصبحت الدافع الأساسي وراء صباغة سياسة جمهورية حديدة تجاه موسكو.

يحلول صيف العام 2001، كانت الإدارة الجمهورية قد بدأت بتعزيز نفس النوع من العلاقات الشخصية والروابط الوثيقة مع الرئيس الروسي. ذلك النحوّل أثبت بأنه بدون العلاقات الشخصية والتفاهم بين الزعيمين سيكون من الاستحالة تقريباً بناء علاقة بنّاءة بين البلدين، وخاصة عنهما يجمسع أحسد الزعيمين في يديه كل السلطات في بلده ولا يوجد أحد غيره للتحسد معسه. على أي حال، لقد ساعدت الكيمياء بين بوش وبوتين بلديهما على الخروج من عمد العد الحرب الباردة.

ق تلك الأثناء، استمرت موسكو في سياستها المتعثلة في اللّعب في كل الميادين، فوقعت في تموز اتفاقية صداقة مع الصين. كان بوتين يريد أن بحيل الشك المبادل بين روسيا والصين إلى الماضي. كان بحاجة إلى علاقات جيدة مسع أقسوى جيران روسيا. غير أن الكثير من المراقيين رأوا في معاهدة موسكو مسع بكين ردًا آخر على الهيمنة الأميركية. "الآن بيدو أن روسيا والصين تحاولان... تقليص النفوذ الأميركي"، بحسب مقالة تُشرت في صحيفة إيكونوسست في 16 تحسوز. وهسو كذلك إلى حدًّ كبير، إذ إن كلناهما كانتا تحاولان استغلال تقارفهما كورقة إضافية في مشكلتهما مع الغرب والولايات المتحدة. لكن بوتين لم يعتبر حواره مع بكين أداة لترويج فكرة تعدّدية الأقطاب، كما فعل برعاكوف منذ سنتين. كان حسوار بوتين مع الصين موحّهاً براغماتياً نحو أولويات اقتصادية وأهداف قابلة للتحقيس فالصين بالنسبة لبوتين لم تكن شريكاً أساسياً، ولا حليفاً ممكناً في لعبة معارضة الغرب.

في شهر آب، تلقّت روسيا زيارة من الديكتاتور الكوري الشمالي كيم جونغ إلى، الذي عبر البلاد في قطار مصفّح وعانقه بوتين بحرارة ورحّب بمه أفضل ترحيب في الكرملين (رحلات القطار هذه ستصبح تقليداً، إذ إن كيم سيأتي إلى روسيا ثانية في عام 2002). ظاهرياً، بدت روسيا وكألها تعبود إلى حلفائها السابقين، الأمر الذي أثار قلق الليراليين الروس. لكن المفاوضات مسع كسيم، في الواقع، كان لها هدف آخر: كان بوتين يريد استعادة نفوذ روسيا علمى كوريا الشمالية وأن يصبح الوسيط بينها وبين بقية العالم.

كان هذا تحولاً بالغ الأهمية، فروسيا - بعيداً عن محاولتها تشكيل حبسهات معارضة للغرب - كانت تحاول تشكيل قاعدة لحوار أكثر فائدة لها مع الفسرب، ساعية بكل جهدها كي تكون شريكاً يملك شيئاً مادياً ليقدّمه. كان بوتين يقسده دوراً جديداً لروسيا في العالم: المارد الإمويائي سيصبح وسيطاً بين الغرب والسدول التي كانت تسبب المشاكل للغرب. وهكذا فإن الدبلوماسية الروسية كانست تمسرً بمرحلة تطور حدّي في ظلّ زعيمها الجديد. ففي بداية حكسم بسوتين، كانست الدبلوماسية الروسية تحدف إلى تقليص هيمنة الغرب وعلى الأخسص الولايسات

المتحدة، لكنها أصبحت بشكل تدريجي أداة لبناء شراكة بناءة أكثر مع الفسرب. فإلى متى سيستمر هذا التحوّل.

في 11 أيلول من العام 2001، حصلت تجربة مؤلمة بالنسبة للفرب وأصبحت اختباراً لقدرة روسيا على تحديد هويتها اللولية الجديدة. كانت ردّة فعسل بوتين على الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة واضحة تماماً، إذ إنه كان السزعيم الأجني الأول الذي يتصل ببوش ليعلمه بتعاطفه ودعمه. وهكذا تبيّن أن الخسط الساحن الذي وصل بين العاصمتين خلال الحرب الباردة مفيدٌ حداً في وقت كانت فيه كل الاتصالات الهاتفية مع واشنطن مقطوعة.

للمرة الأولى لم يتردّد بوتين. وأخذ خطوة صحيحة تماماً من الزاوية الإنسانية والسياسية. ولا يهم ما الذي دفعه للقيام بذلك، أكسان الحسيس أم الحسساب أم المطلقة، فعبارته التي أصبحت شهيرة الآن، "أيها الأميركيون، نحسن معكم!" الصادرة عن رجل يدو من الخارج بارداً، كسرت الحاجز الذي بناه بنفسه بينه وبين أصحاب التوجهات الليرالية من الروس. باتصاله الهاتفي هذا، أخد موقفاً صريحاً كزعيم مناصر للغرب.

بتلك الكلمات ومع استعداده لأن يصبح حليف الولايات المتحدة بدون أية قبود، بدأ بوتين طوراً جديداً في العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا. وعلاوة على ذلك، قام بوتين في تلك اللحظة باتخاذ خياره الوجودي لصالح الغرب. صحيح أن روسيا (والاتحاد السوفياتي) كانا قد أخذا خياراً محاثلاً مناصراً للغرب خلال الحرب العالمية الثانية، لكن ذلك لم يمنعهما من دخسول عصر الحرب الباردة. أما في العام 2001، فقد اعترفت روسيا للمسرة الأولى في تاريخها، من خلال انضمامها إلى حلف ضد الإرهاب شكل من قبل الولايات المتحدة، عميمة دولة أخرى واختارت طواعية أن تلعب دور الشريك الصفير. ولكن، لم يكن باستطاعة أحد، حتى بوتين نفسه، القول بأن هذا النفير في دور روسيا لهائي وأن الطبقة الحاكمة الروسية ستقبل به؛ ما كان يحدث كان

استثنائياً إلى درجة بعيدة، ومن الغرابة بحيث إنه لا يُصدُّق!

والأمر الذي لا يقل أهية هو أن بوتين لم يطلب أي تعويض. فبعكس الحكام الروس والسوفيات السابقين، الذين دخلوا في مفاوضات قاسية في كسل تسسوية عقدوها مع الغرب، لم تكن هنالك مطالب بأي مقابل. لم تساوم روسيا هذه المرة، لأن بوتين أدرك بأن وجوده مع الغرب في ساعة الحقيقة تلك كان يصب في صالح المصالح القومية لروسيا. وبصرف النظر عما سيحدث في المستقبل، فإن هذا التحوّل الغربي سيكسب منطقاً خاصاً به وقوة دافعة خاصة به.

إن تحوّل بوتين نحو الغرب لم يكن لعبة أو مناورة تكتيكية، بل كسان تحسولاً واعباً ومحسوباً بدقة. وسلوكه المحسوب والمدروس خلال تمدئـــة العلاقـــات مــــع واشنطن خير دليل على ذلك. لا بد أنه أدرك بأن التردد، أو تكتيـــك الانتظـــار والترقب، كان سيعزز انعدام الثقة بين الغرب وروسيا أو حق سيضع روســـيا في معــكر الدول المنبوذة.

إضافة إلى ذلك، كانت ردة فعل بوتين على هجمات الحادي عشر من ألمول نتيجة تغيرات في الذهنية الروسية. كانت روسيا - بصرف النظر عن الخطاب المتعجرف للطبقة الحاكمة، واستياثها من دور موسكو الجديد خلال التسعينيات - قد بدأت تفهم الواقع العالمي الجديد، ولم تقم بأية محاولة جديسة لعكس حركة رقاص الساعة. المفارقة في الأمر هي أن يعترف ضابط سسابق في الكي جي بي بما عرفه المجتمع الروسي والنجبة الروسية لفترة من الزمن لكنهما لم يعترفا به حتى لنفسيهما، وهو أن التطلعات إلى الهيمنة والمطامح العالمية كانت حلماً واهياً.

غير أن مزاج الطبقة السياسية الروسية - عندما يتعلق الأمر بالأفعال - كان ما يزال متأرجحاً، حيث لم تظهر حاشية بوتين المقرَّبة رغبة واضحة بالانضمام إلى حلمة مكافحة الإرهاب والحرب في أفغانستان. ولم يكن مستشاروه أيضاً مستعدين للموافقة على الوجود الأميركي في آسيا الوسطى تحضيراً للعمليات العسكرية ضد طالبان. كان ردّ فعل رفاق بوتين بعد 11 أيلول مباشرة فظاً: "إن أراضي [اتحاد الحمهوريات المستقلة] لن تصبح أبداً ميداناً للعمليات العسكرية الغربية، ولن يطا

حندي واحد من الناتو بقدمه على تراب آسيا الوسطى". هذا ما قاله وزير الدفاع سيرجى إيفانوف، أحد أقرب أصدقاء بوتين.

حق إن بعض السياسيين الروس ألقوا باللوم على الولايات المتحدة وهيمنتها في ذلك الانتقام الإرهابي، كأن لسان حالهم كان يقول "هـــذا مـــا تــــتحقونه!" صحيح أن المجتمع صُدم بفعل تلك الهجمات الإرهابيــة، إلا أن غالبيــة الشــعب الروسي لم تكن تحب أن تشارك روسيا في العمليات الروسية في أفغانستان، لأهـــم لم يكونوا مستعدين للتورّط في معركة أخرى. لقد عرف الروس هزيمة عسكرية في أفغانستان في السبعينيات من القرن الماضي وكانوا ما يزالون يقاتلون دون نجاح في الشيشان(").

كان بوتين يعاتي من صعوبات حقيقية في النفلب على الاختلافات التي كانت تعصف بالطبقة السياسية الروسية، وكانت هذه هي المسرة الأولى الستي يخالف نصبحتهم ويتخذ موقفاً مستقلاً. وكان اتخاذ القرار بمشاركة روسيا في التحالف لمحاربة الإرهاب قد تم في احتماع لوزراء السلطة دعا إليه بسوتين في 22 أبلسول. دامت الحلسة ست ساعات، ولم يقطعها شيء إلا اتصال هاتفي من بوش. في ذلك الاحتماع، كسر بوتين مقاومة حنرالاته. في الحقيقة، كان الأمر يتطلب الكثير من الشحاعة والإرادة. وهكذا، في ظهور تلفزيوني له في 24 أبلول، أوضح بسوتين، بوجه صارم، موقف روسيا وأعلن استعدادها – مرقّماً كلماته – "للمشاركة في الحرب على الإرهاب".

هذه المرة، لم يكن التعاون الروسي بحرد كلام. فقد بدأت روسيا بمشاركة الولايات المتحدة في معلوماقها الاستخباراتية، وساعدت في مدّ الجسور بين الجيش الأميركي والتحالف الشمالي - المعارضة الأساسية لطالبان في أفغانستان التي كانت تدعمها موسكو لفترة طويلة - ووافقت على أن تستخدم الولايات المتحدة المطارات والقواعد العسكرية في البلدان الحليفة لروسيا، كيرغيستان وطاحكستان وأوزبكستان. كما استمرت في إرسال شحنات ضخمة من الأسلحة إلى التحالف الشمالي، وقدمت الجسال الجسوي الروسي الروسي لرحلات النحدة الإنسانية.

الاختيار الجدي للعلاقات الأميركية الروسية جاء عنسلما بسداً الأميركيدون التحرك إلى آسيا الوسطى استعداداً للهجوم على أفغانستان. للمرة الأولى في التاريخ الحديث تتواجد قوة عظمى أخرى في الباحة الخلفية لروسيا. كان ردّ بوتين علسى التحدي الجديد هادئاً. من المؤكد أن واشنطن أبلفت الكرملين مسبقاً وحصلت على الضوء الأعضر. ظاهرياً، حتى الجيش الروسي كان منضبطاً في ردّة فعله، فقد على تالب رئيس هيئة الأركان الروسية، يوري بالويفسكي، قائلاً: " لم نكن أعداء لأميركا منذ زمن طويل، لكننا لسنا شركاء محاماً حتى الآن". كما أضاف بسأن وجود الأميركين في آميا الوسطى كان يحل المشاكل الخاصة بأمن الحدود الجنوبية لروسيا. إما أن الجيش الروسي قرر عدم معارضة الرئيس أو أنه كان يشعر فعلاً بأن القوات الأميركية ستساعد روسيا في تأمين خاصرةا الجنوبية.

وقد أنن وزير الخارجية الأميركي كولن باول على المساهمة الروسية في العملية العسكرية في أفغانستان ثناء كبيراً، مُصرحاً بأن روسيا كانست "عضواً رئيساً" في التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب، ولعبست "دوراً حاسماً" في نجاح التحالف "من خلال تقديم المعلومات الاستخبارية، ودعهم التحالف الشهالي، وتسهيل دخولنا إلى آسيا الوسطى". في الواقع، لم يكن ذلك المديح بجرد لباقة أو تمديب لأن حجم المساعدة الروسية أذهل حتى أشد المشككين.

چ

له أوقات يصنع فيها القادة التاريخ. وله أوقات يصنع فيها التاريخ القدادة. وهذا ما حصل في خريف العام 2001 في روسيا، عندما أرغمت الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الرئيس الروسي على اتخاذ قرار حوّل سياسيًا عاديًا للى زعيم أذهل العالم بتقديمه دوراً جديداً كلياً لروسيا. كان فلاديمير فلاديمير وفيتش يسمى لملتقرب من الغرب منذ مدة من الزمن، لكنه كان بحاجة إلى ما يحفزه لاتخاذ موقف واضح.

لنعد للخطاب الذي ألقاه بوتين في 24 أيلول، إذ كان فيه جزء آخر، يتعلّـــق بالشيشان. ربط بوتين في ذلك الخطاب موقف العالم بالوضع في الشيشان وقـــدّم دعوة أخيرة إلى كل أفراد المحموعات المتمردة الشيشانية أعطاهم فيهما مهلة 27 ساعة لإلقاء سلاحهم. ولكن، إذا كان الثوار يقاومون منذ سنين، فلماذا سيتعلون عن الكفاح طوعاً الآن؟ أبدى بوتين في خطابه استعداداً ضمنياً للنفساوض مسع الانفصاليين المعتلين. كما اعترف بأن الحرب كانت لها "ظروفاً سابقة سماعدت على نشوها"، الأمر الذي يعني بأنه بدأ بمراجعة فهمه السابق للمأساة الشيشسانية. ولكن، حتى لو بدأ الزعيم الروسي بالتردد وحاول إيجاد حلَّ سلمي للشيشان، إلا أنه لن ينفّذ ذلك الخيار، لأنه لم يكن مستعداً لتحقيق تقدم آخر.

في تلك الأثناء، تابع الرئيس الروسي تحركه باتجاه الغرب. عندما وصل إلى المانيا في 25 أيلول، ألقى خطاباً دام ساعة كاملة في اليوندستاغ، بلغة ألمانية خالية من الأخطاء، نال عليها تصفيق واستحسان النواب. اقترح بوتين في ذلك الخطاب عاربة مشتركة لبقايا الحرب الباردة في التفكير والسياسة. قال بوتين "ما زلنا نعيش مع نظام القيم القدم؛ نحن نتكلم عن الشراكة، لكننا لم نتعلم في الواقع حسى الآن نش بعضنا البعض. بالرغم من الكلمات اللعثة الكثيرة، إلا أننا نسستمر سسراً يعمارضة بعضنا البعض". تكلم بوتين كأوروبي بمصعلحات يمكن أن يفهمها الغرب، وقال الأشياء الصحيحة. كما رد بشكل غير مباشر على دعسوة بسوش لتحاوز تدابير الحرب الباردة، ملمّحاً إلى أن الغرب كان بحاحة للقيام بحسرة مسن العمل أيضاً.

كان بوتين محقاً، فبعد عشر سنوات على الهيار الاتحاد السوفياتي والنهاية الرسمية للحرب الباردة، ما زال قادة العالم يستخدمون مفاهيم الماضي ذاقاً. ووحدود حلف الناتو نفسه حير دليل على ذلك. لقد أوضح المراقبون الروس بأنب إذا كان القادة الغربيون صادقين بخصوص إلهاء فصل الحرب الباردة، فإن عليهم ألا يتوقفوا عند إيطال التدابير الأمنية القنهة بل أن يتحاوزوها ويقوموا بتصفية الناتو نفسه، أو أن يدعوا روسيا للانضمام إليه. وإلا فإن الشكوك الروسية المتعلقة بالتوجهات المعادية لروسيا، وللمؤسسات الأمنية الغربية تصبح ميررة. غير أن المراقبين الروس كانوا يتحاهلون حقيقة أن النحبة الروسية وسلوكها – وليس فقط الآراء المسبقة الغربية حالت في أغلب الأوقات تعطى الميرر للغرب كي يحتفظ بنظامه الأمني القديم.

كانت هنالك صلات متعددة قائمة مسبقاً بين روسيا وأوروبا. والتعاون في بحال الطاقة كان الأكثر انتاجية فيها، فالاتحاد الأوروبي كان ما يسزال الوجهة الأساسية لمصادرات الطاقة الروسية، حيث كانت بلدانه تشتري 53 بالمائسة مسن صادرات النفط و62 بالمائة من صادرات الغاز الطبيعي. وكان حجم التحارة مسع الاتحاد الأوروبي يشكل 48 بالمائة من إجمالي التحارة الروسية. كما أن الاهتمام المتنامي للأوروبيين بأجنفقم الأمنية الحاصة حعل من روسيا شريكاً رئيساً لحسم في هذا المجال. في الواقع، كانت العلاقات بين روسيا وأوروبا محتلك قاعدة أوسع بكثير من العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة. أكثر من ذلك، لعل بروكسل كانست من العلاقات بين روسيا ويقانون، وحقوق الإنسان. من أحل تنفيذ المعايير الأوروبية في الديمقراطية، وحكم القانون، وحقوق الإنسان. فيروكسل هي التي أرغمت الجيش الروسي على أن (على الأقل) يحاول التصسرف بأسلوب أكثر تمدناً في الشيشان.

غير أن التعاون بين الاتحاد الأوروبي وروسيا لم يكن سهلاً وسلساً. كسان السياسيون الروس يستاؤون دائماً من بطء وبيروقراطية إجراءات صنع القرار في بروكسل. وروسيا نفسها كانت بطيئة جداً في جعل تشريعاتها منسجمة مسع معايير الاتحاد الأوروبي، وما زال يتوجب عليها أن تعي تحاساً أهمية وآفساق اتفاقية الشراكة والتعاون مع الاتحاد الأوروبي، التي وقعت في العسام 1997. ها النسبة لقادة الاتحاد الأوروبي، كان لديهم الكثير من الأمور التي ينبغي الاهتمام ها، مع انضمام دول أوروبا الشرقية والوسطى إلى الاتحاد، واستعداد تركيسا لنفس الأمر، من خلال إصلاح مؤسساتها وبناء عطة تحدف لتحقيق وحدة متكاملة. كان لدى الأوروبين خوف مير من إبواء روسيا بمقدراتها الهائلة ومشاكلها التي لا تقل عنها حجماً. لكن القيادة الأوروبية كانت مضطرة لإيجاد حل لمشكلة روسيا، فإذا كانت روسيا ستصبح عضواً كاملاً في أوروبا، فعلسي الاتحاد الأوروبي النظر في كيفية التعامل مع هذه الأحجية. كان الوقت قد حان للتفكيل مناطق للتحارة الحرة والتوجه نحو إنشاء اتحاد جمركي. وبوتين كان يضغط في ذلك الاتجاه.

اعتبر المراقبون بأن التعاون المتنامي بين روسيا وأوروبا يمكن أن يسودي إلى حدوث تحالف بينهما حول مجموعة من القضايا الدولية التي تختلف مواقفهما بشألها عن موقف الولايات المتحدة، مثل موضوع الدفاع المساروخي. لكسن أحسلام القوميين الروس بأن يكتسب هذا التقارب المحتمل نكهة معادية لأميركا لم يكن لها أي أساس واقعي، مع ألها قد تقلق واشنطن. فعلى الرغم من خيبة أمل أوروب في واشنطن، إلا ألها لم تكن مستعدة لتحميد علاقاتها مسع الولايات المتحسدة. وفي الوقت نفسه، لم يُظهر بوتين اهتماماً باستغلال الاختلافات بين الحلفاء الفسريين. والمفارقة في الأمر هي أن موسكو في بعض القضايا الدولية، بما فيها الإرهاب،

وكان على موسكو في خطوقا التالية أن تستعيد التعاون مع الناتو، النه بأن القطع خلال أزمة كوسوفو في العام 1999. حتى إن بوتين حازف في التنويه بأن الحلف إذا كان سيتوسع كحلف سياسي بدلاً من اتحاد عسكري، فإن روسيا لسن تعارض توسعه الجديد. كما ألمح إلى وجود اهتمام روسي محتمل في الانضمام إلى الناتو. في الحقيقة، لم يكن بوتين يؤمن قملاً الخيار، لكنه كان يريد معرفة ما إذا كان الحلف مستعداً للتعلق مع روسيا وإذا كانت النحبة الروسية مستعدة للتحلي عن موقفها القديم من الناتو.

على كل حال، روسيا لم تكن مستعدة للانضمام للناتو والتخلّسي بموحب ذلك عن سيادقا. في الحقيقة، إن دخول روسيا إلى الناتو كان سيعني نحاية الحلسف نفسه - لأنه سيفقد طبيعته التي تشكّل بما منذ نصف قرن. والكثيرون في الغسرب، وخاصة في أوروبا الشرقية، لم يكونوا مستعدين لذلك أيضاً. بالنسبة لهسم، كسان الناتو ما يزال وسيلة "لإبقاء روسيا خارجاً". لكن محاولة بسوتين، علسى الأقسل، أظهرت مدى تغير المشاعر في الكرملين.

كان الناتو، من وجهة نظر الروس، قد بدأ يفقد لُحمته السابقة، وخاصـة بعدما أثبت عدم ترابطه الشديد أثناء الحرب في أفغانستان. في الواقع، إن العلاقات المستقبلية بين روسيا والناتو لم تكن تعتمد على التفكير الأمني الجديــــد الروســــي وحسب، بل على قدرة الحلف على تغيير نفسه. كان الناتو يواجه أزمـــة تتعلّــــق هويته، ويبحث عن مهمة حديدة. وروسيا كانت في طريقها لصبياغة دورها الجيوسياسي الجديد أيضاً. وعلى هذا الأساس، فإن قدرقما على إيجاد أشكال حديدة للتمامل مع بعضهما البعض قد تكون إحدى الطرق التي مستمكنهما مساطحة مشاكلهما المتعلقة بالهوية.

كانت هنالك أسئلة كثيرة بحاجة لأجوبة: هل نثق ببعضنا كفاية؟ هل نحسن متفقان على التهديدات التي تواجه العالم اليوم؟ هل يمكن إعلام روسما مباشرة بأنشطة الناتو، وهل تريد روسيا ذلك؟ أحد المطلعين على بواطن الأمور في النساتو صاغ المعضلة على النحو التالي: "قملك روسيا باباً مشرعاً إلى الناتو، لكن القطار بتحرك!"

ما يثير الاستغراب هو أن يُطْهِر فريق الكرملين، الذي كان بالأمس القريب فقط أخرقاً وعديم الحترق، وكثير الارتباب في كل ما يفعله الغرب، بشكل مفاحئ استعداداً كبيراً للتعاون وأيضاً الطاقة اللازمة لإنجاز ذلك التعاون. وما لا يقل إثارة للاستغراب أيضاً هو ذلك التغير الذي طراً على مزاج الطبقة السياسية الروسية. ففي العسام 2001 وبداية العام 2002، كان معظم أفراد طبقة النخبة الروسية يحاولون التفوق على بعضهم المبعض في إظهار إيماغم بالقوة العظمى لروسيا، والمعاداة لأميركا بشكل خاص. كسان الأمر يبلو وكأن روسيا الطموحة والشكوكة كانت ترجع إلى "طريقها الخاص" ثانية، فإذا التحرّل غير المتوقع يحدث، وفي ظرف أشهر قليلة فقط!

والآن، ها هي روسيا تعلن بأغا تريد أن تكون ليس فقط حزءاً من أوروبا والغرب، بل طالبت بشراكة مع الولايات المتحدة أيضاً وقبلت بدور الشريك الصغير. لكن هذا التحوّل الغريب في المزاج سبب مشاعر متضاربة: إذا كسان باستطاعة هذا البلد وغنته التحوّل في اتجاه ما هذه السرعة، فإن باستطاعتهما أيضاً التحوّل باتجاه معاكس بنفس السهولة. كان يتوجب على روسيا أن تعي عواقسب إظهار عواطف مثل الخوف، والذل، والشعور بالمهانة، والرغبة بالانتقام – حتى لو اقتصرت على دوائر النجية – وعليها أن تعلم كيف تضبط تلك العواطف.

سارع علماء الاجتماع لاختبار مشاعر الأمة فاكتشفوا بأن جزءاً كبيراً من الناس العادين، بالرغم من إحساسهم بالإحباط، كان في جوهره يؤيد الفسرب. فبحسب استطلاعات للرأي أحريت من قبل إيغور كليامكين وتاتيانا كوتكوفيتس في فاية العام 2001، كانت الغالبية الساحقة من الروس (87 بالماتة) تعتقد بأن على روسيا أن تتحسه غو البلدان الغربية، فيما كان 8 بالماتة منهم (معظمهم مسلمين) يفضلون التوجّه نحسو البلدان الإسلامية. أما التوق للحفاظ على "الفرادة" فقد نُسي على ما يبدو؛ وهو ما لم يتوقعه المراقبون. وعندما سُعلوا "مع أي البلدان تكون الشراكة منسحمة مسع مصالح أشخاص مثلك؟" الغالبية (63 بالماتة) ذكرت بلدان أوروبا الغربية، و45 بالماتة ذكروا الولايات المتحدة، و40 بالماتة أوكرانيا. بينما اعتبر 6 بالمائة فقط التعاون مع العراق وإيران ودول أخرى مفيداً. أما التعاون مع الصين فقسد اعتبر مرغوباً من قبل 22 بالمائة من المشتركين. (8).

كان هنالك بعض الفئات الاحتماعية التي ما زالت تحتفظ بطموحات مبالغ فيها: 34 بالمائة من الشعب الروسي كانوا ما يزالون يعتبرون روسيا قوة عظمى ولا تقل في عظمتها عن الولايات المتحدة. ولكن، ثمة بحموعة أخرى أبدت تحرراً مسن عقدة القوة العظمى تلك، حيث عبر 34 بالمائة من الروس عن رغبتهم بأن تكسون روسيا مثل فرنسا أو ألمانيا أو اليابان. أما الغالبية العظمى فلم تكن تريد بلداً بمشل قوة عسكرية بل كانت تريد "بلداً مريحاً، وملائماً للعيش، تُعطَى فيه الأولويه لمصالح الناس ورفاههم وفرصهم" (9). إذن، يبدو أن التحوّل نحو الغرب وقيمه في روسيا كان أكثر انشاراً مما كان يعتقد الكثير من المراقبين. كان السروس أكشر

استعداداً مما كانوا هم أنفسهم يعتقدون لعيش حياة طبيعية في بلد طبيعي. وهكذا بدا أن عامل القوة العظمي لم يعد العامل الموحّد الوحيد في روسيا.

كما تبيَّن أن الانطباع المأخوذ عن روسيا بكونما قلعة المعاداة لأميركا خاطئ أيضاً. فبحسب الاستطلاع الذي أجرته موسسة الرأي العام في تشرين الأول عسام 2001 ، 35 بالمائة من الشعب الروسي كان لديهم انطباع حيد عسن الأميركسين، و4 لله بلمائة لم يكونوا يكترثون لهم، فيما كان انطباع 15 بالمائة منهم سيئ، و5 بالمائة لم يكونوا يكترثون لهم، فيما كان انطباع 15 بالمائة منهم تشرين الثاني بالمائة لم يلوا بآرائهم من نفس العام، أبدى 65 بالمائة لم يكونوا يكترثون للأمر، و12 بالمائة كانوا ضد الفكرة، و10 بالمائة لم يدلوا بآرائهم.

لكن الشكوك حيال نوايا أمركا بقيت كما هي. ففي تشرين الثاني، كان 37 بالمائة من أولئك الذين اشتركوا في الاستطلاع يعتقلون بأن الولايسات المتحسدة صديقة بروسيا، و44 بالمائة كانوا يعتقلون بأنها ليست صديقة، و19 بالمائة لم يدلوا بآرائهم. مع ذلك، عندما كانت الأسئلة تُطرَح حول أمور محددة، يتبيّن أن الروس لم يكونوا ينظرون إلى الأميركيين كأعداء. فعلى سبيل المثال، حواباً على المسؤال الثالي: "هل تعطى دمك لأميركيين حُرحوا في عمل إرهابي؟" أجاب 63 بالمائة بنعم و10 بالمائة فقط قالوا لا (25 بالمائة قالوا بألهم لا يمكنهم أن يكونوا واهسبين، و3 بالمائة لم يدلوا بأرائهم).

غير أن هنالك أموراً تحمل للرء يعيد التفكير قليلاً. فغالبية الذين اعتبروا الولايسات المتحدة حليفاً ممكناً ارتكزوا في موقفهم هذا بشكل أساسي على وجود عدو مشترك للبلدين. وهذا في الواقع موقف روسي سوفياتي نموذجي: ضد من سنتصادق? فسإذا اختفى ذلك العدو المشترك، أي شيء مشترك سيبقى للبلدين؟ عندها ستحد روسسيا والولايات المتحدة نفسيهما مرة أخرى بعيدتين عن بعضهما البعض – إن لم نقسل في معسكرين مختلفين – الأمر الذي قد يعيد تفجير الشكوك المتبادلة بينهما من حديسد. وهذا ما جدث بالفعل وبأسرع مما قد يتوقعه أي شخص (10).

في 13 تشرين الثاني من العام 2001، طار بوتين إلى واشنطن من أجل لقاء قمة. وبينما كان يتم استقباله في واشنطن، كانت كابول في طريقها للسقوط وكانت حركة طالبان قد بدأت بالتفكك. لم يدرك أفسراد البعشة الدبلوماسية الروسية، إلا قلة منهم، بأن الانجيار السريع لنظام طالبان سيقوض الشسراكة بسين روسيا والولايات المتحدة؛ فقد أصبع بإمكان واشسنطن الآن التصسرف بشسكل أحادي. إن سقوط طالبان وضع ورقة رابحة في أيدي أشخاص في الإدارة الأميركية أصروا على ألا تضيم وقتها بعد الآن في تأليف الأحلاف وغلق الحلفاء.

في البداية، كانت معنويات بوتين مرتفعة. "أنا متفائل حسداً"، قسال بسوتين مبتسماً قبل رحلته. "إن كان هناك من يظن بأن روسيا يمكن أن تصبيح عسدوة للولايات المتحدة ثانية، فإنني أعتقد بأهم لم يفهموا ما حصل في العالم وما حصل في روسيا". من الواضح أنه كان يأمل بأن تعمل الكيمياء بينهما عملها على بوش وتقعه بالمحافظة على النظام الأمني القليم الذي كان يريد الزعيم الروسي الحفاظ على اتفاقيات الحد عليه بأي عمن. بدا بوتين بأنه كان يصدق بأن نجاحه في الحفاظ على اتفاقيات الحد من الصواريخ البالستية (ABM) سيكون دليلاً على قوة قيادته بالنسبة للمؤسسة الروسية، والفشل في القيام بذلك سيُعتبر ضربة لسه شخصياً. غير أن واشنطن أوضحت على نحو ليس فيه أي لبس بأن انسحابها من الإطار الأمني القليم أمر حتمي، وأن الأميركيين، في ذلك الحين على الأقل، لا ينوون توقيسع معاهدة أمر حتمي، وأن الأميركيين، في ذلك الحين على الأقل، لا ينوون توقيسع معاهدة لتخفيض الأسلحة الهجومية، كما كانت موسكو تصرّ. كان البيت الأبيض يريسد قطع كل ما يربطه بالماضي بشكل كامل دون انتظار الكرملين حتى يصبح حساهزاً قطع كل ما يربطه بالماضي بشكل كامل دون انتظار الكرملين حتى يصبح حساهزاً للانضمام إليه في القيام بذلك.

بدا على بوتين الإحباط وعيبة الأمل بشكل واضح - رغم صعوبة الوصول إلى ما وراء ذلك القناع الذي يرتديه دائماً - ولكن، ليس لأنه شعر بان الأمسن الروسي كان مهدداً بل لأنه كان مجراً على تقلع تفسير لطبقته السياسسية حسول سبب فشله في إقناع الأميركيين بالحفاظ على القواعد القديمة للّعبة في مجال الأمن. في الحقيقة، لقد أخطأت موسكو في الأساس بإعطاء هذه الأهمية لاتفاقيات ABM، وبجعل العلاقات الأميركية الروسية معتمد عليها. لم يكن من الحكمة من حانسب الدبلوماسية الروسية تضييع كل ذلك الوقت والطاقة على غاية لا يمكن تحقيقها، ووضع الرئيس في مثل ذلك الموقف المحرج. لكن بوتين سرعان ما بيَّن بأنه كسان يتعلم من أعطائه.

أحس توني بلير بأن صديقه فلاديمير كان بحاجة ماسة للسدعم، فأرسسل في 16 تشرين الثاني من العام 2001 رسالة من أربع صفحات إلى اللورد جورج روبرتسون، الأمين العام الناتو، اقترح فيها تشكيل لجنة مشتركة من الناتو وروسيا. وكسان الهدف من ذلك توسيع نفوذ روسيا على دائرة صنع القرار في الناتو، ولو في بحسالات يتم التفاوض عليها بصرامة. بدا المقترح وكأنه تمويض معنوي على تصفية النظام الأمني القديم. لكن فكرة رفع مستوى تعاون روسيا مسع الناتو و وإن في بحموصة على وجهورية التشياء - أثارت مقاومة من أعضاء الناتو الجسد، بولنسة، وهنفاريا، وجهورية التشيك. وذلك كان مفهوماً على أي حال، لأن تلك الدول كانت تبحث عن ملحاً لما تحت سقف الناتو من أي عدوان روسي محتمل، فإذا بكسا تجسد نفسها على نفس الطاولة بهدداً.

والأهم من ذلك هو أن دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الأميركي، رفسض صراحة تطوير العلاقات بين الناتو وروسيا. فيحسب صحيفة نيويورك تايمز: "قام السيد رامسفيلد في تشرين الثاني بمحاولة اللحظة الأخيرة لإزالة فقرة "الناتو في 20" من مسودة البيان الذي سيصدره الوزير كولن باول ووزراء خارجية دول النساتو التسعة عشر في بروكسل". إن تدخل بوش وحده هو الذي ساعد على الإبقاء على فكرة "الناتو في عشرين" 111. من الواضح أن سياسة باول ورايس الهادفة لتحقيق ارتباط أكثر فعالية مع روسيا هي الى ربحت؛ في الوقت الحاضر على الأقل.

ق 13 كانون الأول، أعلنت الولايات المتحدة انسحالها من معاهدة ABM. كانت ردّة فعل بوتين على ذلك الإعلان هادئة دون التخلي عن موقفه، ووصــف القرار بأنه "خاطئ" (121. لكنه في نفس الوقت اعترف بأن الانســحاب لا يهــدد الأمن الروسي. لم يكن بوتين يريد أن تبقى العلاقات الروسية الأميركية تحت رحمة المتعنين آكثر من ذلك. كانت السنة الثانية لبوتين في السلطة تقترب من تحايتها. أخيراً أصبح فلاديمير فلاديمير وفيتش – بعد كثير من التردّد والنظر إلى الحنلف، والتودّد إلى المحسافظين – واثقاً من نفسه كمي يعمل على إنجاز برناجه للتحديث. لقد اثبت بأنه لم يحسسل على سلطته ويقوّيها من أجل المحافظة عليها فقط، بل لأن لديه مهمة يريد تحقيقها. في الحقيقة، كان بوسع بوتين التفاخر بأنه لم يضيع وقته على الأقل في بحالين اثنين: الاقتصاد، والسياسة الخارجية.

بدياً من العام 1999، شهدت روسيا معدلات نمو اقتصادي عالية، إذ بلغ معدل نمو الاقتصاد الروسي 8.3 بالمائة في العام 2000، و5.8 بالمائة في العام 2001، و5.8 بالمائة في العام 2000، و5.8 بالمائة في العام 2000، أما النمو المتوح للعام 2000، أي أكثر بحوالي 72 بالمائة من المستوى الذي بلغه في العام 1990. خلال تلك السنوات، كل المشاكل المتعلقة بعدم دفع الأجور، والرواتب التقاعدية، والمقايضة كانت قد حُلت بشكل كامل تقريباً. فبعد أن فرضبت المحكومة ضرية ثابتة على الدخل الشخصي بنسبة 13 بالمائة في العام 2000، قفزت العوالد بنسبة 50 بالمائة. وبذلك حافظ بوتين على الميزانية متوازنة وأبقى التضحّم تحت السيطرة.

وللمرة الأولى منذ الثروة البلشفية، سمح قانون الزراعة الجديسد للمسواطين بشراء وبيع أراض غير زراعية. وتتيحة لللك، أصبح سوق الأسهم الروسية الأول في العالم، بربح بلغ 77 بالمائة، واستمر في الصعود. "منذ أن حاء بوتين إلى السلطة تحسن كل شيء تقريباً بالنسبة للمستثمرين"، على حدّ قول المستمرين الأحانسب. وقد حلب الصندوق الشرقي التابع لبنك بارينفس، المسحّل في دبان، للمستثمرين ربحاً وصل إلى 34 بالمائة في العام 2001، و50 بالمائة على مدى شهرت سنوات. كما ارتفعت أسهم بنك "The Credit Suisse First Boston" 36 بالمائة في العام 2001، و45 بالمائة في النصف الأول من العام 2002. بدا الأمر وكأن فورة البحث عن الذهب قد عادت إلى روسيا، وفقاً لباتريك كولينسون في مقالسة تُشسرت في صحيفة الغارديان في 4 نيسان عام 2002.

في منتصف العام 2001، انخفضت معدلات النموّ إلى حـــدٌّ مـــا، والســـب

الرئيس في ذلك يعود للركود الاقتصادي العالمي. لكن المراقبين توقعوا بأن روسيا متبقى مستقرة حتى لو انخفضت أسعار النفط إلى 15 دولاراً للبرميل الواحد، ولن تفقد إلا احتياطياتها المالية. وفي تلك الحالة، سيتوجّب عليها العودة إلى صسندوق النقد الدولي في العام 2003 لمساعدتها على دفع ديونها.

مع ذلك، فقد كانت هنالك موشرات أخرى مثيرة للقلق. مسل الاستئمار الأجنبي الذي بلغ 2.5 مليار دولار في العام 2001 - وهو رقم عادي جداً - وأقل من ذلك بقليل في العام الذي سبقه. وهذا يعني بأن ما احتذبته روسيا من رأسمال أحنبي كان أقل مما احتذبته بولندة، وجمهورية التشيك. شركات السنفط الروسسية نفسها لم تكن تستثمر في قطاعات أخرى من الاقتصاد، لأن الأسواق كانت ما الثرية المتنفذة في روسيا التي لم تكن مستعدة للتنافس أو للسماح بوحود لاعسبين الحانب. ولم يكن ثمة نظام مصرفي مناسب كي يساعد على تطوير اقتصاد متنوع أحانب. ولم يكن ثمة نظام مصرفي مناسب كي يساعد على تطوير اقتصاد متنوع حيب الأثرياء المتنفذين. "كي تصبح "طبيعية"، كانت روسيا بحاجة لوحود حيب الأثرياء المتنفذين. "كي تصبح "طبيعية"، كانت روسيا بحاجة لوحود مقالية شرت في صحيفة نيوزويك في 13 أيار.

وما كان يدعو للقلق أكتر من ذلك كله هو التخلفات عن دفسع الأحسور والرواتب التقاعدية. ففي بداية العام 2002، بلغت التحلفات 2.7 مليار روبل (90 مليون دولار). وكان معدل التأخير في دفع الأحور، في عشرة أقاليم، يبلغ عشرة أيام. إذاً، في تلك الأيام، كان بالإمكان المحافظة على الاستقرار الاحتماعي فقط من خلال دفع الأحور والرواتب التقاعدية في وقتها.

مع ذلك، كان الاقتصاد الروسي ما يزال معرَّضاً للخطر. كانت هنالك ثلاثة عوامل للاستقرار الاقتصادي في روسيا: قطاع الطاقة والمسواد الخسام، وأنشسطة المجموعات الصناعية المالية الكبرى، والتحديث "من فوق" باسستخدام الأسساليب الديكتاتورية. لكن هذه العوامل كانت تتسبّب بعض المشاكل بدورها. فالاتجساه نحو المواد الخام أنتج اقتصاداً غير متوازن يعتمد بشكل كبير على تصدير السنفط

والفاز. والشركات الروسية الكبرى ذات الفروع العديدة - الشبيهة بالشركات الكورية الجنوبية المملاقة "chaeboles" - التي كانت تسيطر على الاقتصاد لم تكن تسمح بظهور شركات تجارية صغيرة ومتوسطة الححم. أما بالنسبة للتحديث مسن فوق فقد كان يولد ضغطاً بروقراطياً هائلاً، الأمر الذي كان يشكل عائقاً أمام ظهور المبادرات الخاصة والمشاريع التحارية الحرة، التي بدولها يصبح وجود سسوق فعال ضرباً من المستحيل.

كان عالم الاقتصاد الروسي بيففيني ياسين محقاً في المطالبة بإعدادة هبكلة حذرية للاقتصاد الروسي، إذ إن الخطوات التي اتخذها الرئيس الروسي حتى ذلك الوقت لم تكن كافية. اقترح ياسين عدة أشياء، من بينها الإصلاح المصرف، وتأسيس أسواق للسندات المالية، وإعادة تنظيم "احتكار الموارد الطبيعية"، وتخفيض قيود اللولة، وتعزيز المبادرات الحاصة. لكن المهم هو أن يشعر الكرملين بضرورة اللغع باتجاه إنجاز الخطوة التالية من الإصلاحات. أو كما قسال بيفور غايدار لمصحيفة بيحينديلني حورنال في 7 أيار مسن العام 2001: "في العدادة، تُنفَذ للصلاحات عندما يصبح من المستحيل تأخيرها أكثر من ذلك، أو عندما تكون ضرورية". لكن الشعور العام في موسكو، في لهاية العام 2001 وبداية العام 2002، كان يشير إلى أن مستوى الاستقرار الاقتصادي الذي تحقق كان كافياً، وأن روسيالم تكن مستعدة للعزيد من إعادة الهيكلة الجاذرية.

وبعيداً عن العقبات الاقتصادية التي استمرّت في إعاقة تحقيسق المزيد مسن الإصلاح الاقتصادي، كانت هنالك موانع أساسية أعرى تقف أمام إنشاء سسوق عصري. وهذه الموانع نشأت من الافتقار إلى وجود فصل عسدد بسين المياسية الاقتصادية، والحناصة والعامة؛ الأمر الذي أفضى إلى الدّمج بين التحسارة والسلطة، ما أدى بدوره إلى انعدام الشفافية، والفسساد، وانحسراف السلوك الاقتصادي، والتأثير الإداري على الاقتصاد. في الحقيقة، إن العنصر الجسوهري في تحقيق المزيد من الإصلاحات الاقتصادية عمد ذاقا الم بإحداث تغير في انظام السياسي نفسه.

مع ذلك، لم يكن واضحاً بعد ما إذا كان الرئيس وفريقه مستعدين للانتقـــال

من سياسة الاستقرار إلى سياسة الإصلاح البنيوي التي ستقوم بتحويل العلاقات بين الدولة والمجتمع، بين البيروقراطية والتحارة، بشكل حذري. لكن بسوتين - بعسد إعادة إطلاق الإصلاح الاقتصادي - عاد إلى التسرد مسن حديسد. وفي هسذا الحصوص، قال أحد أشد المتفاتلين من المراقبين الأجانب لإصلاح السوق الروسي، أندرز أسلاند، في بداية العام 2002 بعد زيارته روسيا: "البيروقراطيسة السسوفياتية تعود ببطء، موسعة من تشريعاتها المتعددة... إن المحاولة الرائعة لإنجاز إصلاح بنيوي قد وصلت إلى تحاية.

وهكذا، بعد إعطائه المزيد من الأكسجين للمشاريع التجاريسة والمبادرات المخاصة، ضغط الكرملين على دواسة أخرى زادت من السيطرة البيروقراطية، السيق وقفت عائفاً في وجه قوى الحرية الاقتصادية والتنافس، وأعسادت الاقتصادية كان عاولة التحكم الاستبدادي. غير أن هذا التأرجع في الاستراتيجية الاقتصادية كان عاولية من روسيا لتسريع الانضمام لمنظمة التجارة العالمية، من جهة، وتحولاً من جانبها إلى إجراءات الحماية الاقتصادية، من جهة أخرى. وتلك السياسة حافظت علمي نوع من التوازن المهزوز. ورداً على هذه التحديات الجديدة التي كانست تواجمه روسيا، كان يتوجّب على الكرملين أن يدعم فنات اجتماعية جديدة مهتمة بالمزيد من التحوّل الدينامي وتقدع رؤية واضحة للمستقبل.

الميدان الوحيد الذي حققت فيه روسيا تقدماً ملحوظاً هدو العلاقسات الدولية. في أواخر العام 2001، أطلق الرئيس تسورة في السياسسة الخارجيسة الروسية، متحاوزاً الدور الجيوسياسي التقليدي لروسيا. فقد جعل بوتين روسيا حليفة للدول الغربية في التحالف لمكافحة الإرهاب، راضياً بعدم توازن الحلف، ووافق على الوجود الأميركي في حديقتها الخلفية التي كانت تابعسة للاتحساد السوفيائي، وأبدى استعداده لتخطي السياسة التقليدية في العلاقات مع الغرب. وهذا كان يوازي التحلي عن مطامح القوة العظمى لروسيا، الأمر الذي صدم حتى أقرب رفاقه.

هل كان هذا التحوّل ناتجاً عن ارتباك الكرملين وافتقاره للخيارات - أي، براغماتية مرغَمة - أو كان نتيحة حسابات معينة في الأحندة الجديدة؟ إذا كانست أفعال بوتين مرغمة، فقد كان باستطاعة الكرملين العودة إلى تذبذبه في أية لحظة، ورعا حتى القيام بدورة عكسية.

الانطباع الذي حصل عليه المراقبون هو أن الرئيس الروسي كان واقعاً تحست تأثير بحموعة من الظروف المتناقضة إلى حدّ بعيد. وهذه التناقضات كانت تتضمّن إدراكه لضعف روسيا وعدم قدرهًا على مقاومة الضغط من الغرب وخاصة مسن واشنطن، ورغبته في التعاون مع الغرب واستغلال الموارد الغربية، وفي الوقت نفسه عدم معرفته لكيفية تنمية المصالح الروسية من خلال التعاون مع البلدان الغربية، أي عدم معرفته لما يمكن التغاوض عليه، وكيف ومتى وأين يمكن لروسيا أن تكون شريكة مع الغرب، ومتى يمكن أن تكون حليقة فقط؟ ودعونا نضيف إلى ما سبق، شريكة مع الغرب، ومتى يمكن أن تكون حليقة فقط؟ ودعونا نضيف إلى ما سبق، ربا، ارتباك بوتين. في الحقيقة، كانت الأحداث تتكشف بسرعة، وكسان لسدى بوتين الكثير من الأشياء على الطاولة، وهو ما كان أي سياسي يملك خيرة أكبر منه سيحد صعوبة في التعامل معها. أغلب الظن أنه سار مع التيار، دون مقاومة.

غير أن الرئيس الروسي، مع كل ظنونه وشكوكه ودواعي قلقه، كان يسدوك بأن هدفه المتمثل في بناء روسيا القوية يمكن تحقيقه فقط من خلال ارتباط أوسع مع الغرب. كان باستطاعة بوتين التصرف بطريقة عتلفة في الكثير من المناسبات، مثل منع وصول الجيش الأميركي إلى آسيا الوسطى وخاصة جورجبا، لكنه لم يفعسل. وكان باستطاعته كذلك أن يراقب عن بعد كيف تسير الحرب على الإرهاب في أفغانستان، لكنه اشترك فيها بفعالية أكبر حتى من بعض حلفاء أميركا. وبشكل عام، كان باستطاعته أن يتصرف مثل القادة الصينيين، السذين كانوا يراقبون عام، كان باستطاعته أن يتصرف مثل القادة الصينيين، السذين كانوا يراقبون التطورات برود مصطنع، لكنه قابل الأميركيين في منتصف الطريق. حتى إنه مضى بتقليص طموحات روسيا قبل 11 أيلول، حيث قرّر - رغم معارضة الجسيش - التحلّي عن قاعدتين عسكريتين روسيتين في الخارج، هما قاعدة لوردس في كوبسا التحلّي عن قاعدتين عسكريتين روسيتين في الخارج، هما قاعدة لوردس في كوبسا وقاعدة كامران في فينام، اللتان كانتا المثلان ومزين للمكانة الجيوسياسية لروسيا.

لكن سياسة بوتين الخارجية، في الوقت عينه، كانت ما تزال بدون أحسدة ملموسة توضَّح كيف خططت موسكو للتعاون مع الغرب، ومن بين حاشيته مَسنُ سيكون مسؤولاً عن أحندته الجديدة هذه. لقد بدأ بدوتين ثورته في السياسة الخارجية بشكل فردي تقريباً، بدون دعم من فريقه. كانست مبادرته الخاصة، مشروعه الخاص. كان بوتين يشبه "الحارس الوحيد" (نسبة لمسلسل أميركي قسدم عن بطل من أبطال رعاة البقر) الذي يسمى لتحقيق مشروعه بينما كانت حاشيته واقفة حانباً تراقبه وهي تتحزّر؛ هل سينحح أم سيفشل؟ في هذه الحالسة، لقسد سمحت له ديكتاتوريته بتقريب روسيا إلى الغرب أكثر.

ولكن، ما لم يحصل بوتين على دعم الطبقة السياسية من أحل إنجاز هذا التقسلم، وما لم يشكّل فريقاً حديداً يتضمّن أناساً متحررين من العقلية القليمة وأساليب الحرب الباردة البائدة، فإن سياسته الجديد، على الأرجح، لن تعمّر طويلاً ولن تكون قابلة للتحقيق. علاوة على ذلك، فهو كان بحاجة إلى دعم الشعب أيضاً في هسفا النقسم، فلقد كان بوتين يسعى لتحقيق ذلك دون شرح أهدافه للشعب الروسي، ودون عاولة تشكيل إجماع وطني. حتى الليبراليون والنهتراطيون هزّوا أكتسافهم استغراباً وهسم يراقبون سياسته الخارجية التي كانت أشبه بلعبة شطرنج، متسائلين عما كسان يفعله الرئيس: هل هذه تكتيكات أم استراتيحية، غاية أم وسيلة؟

لقد فاحاً الرئيس الروسي المجتمع الأوروبي أيضاً بإلتفافته المباغنة نحسوهم. كانت أوروبا مهتمة فعلاً بإنجاز شراكة كاملة مع روسيا، لكن حمولها وعادقسا في النظار الولايات المتحدة كي محهد لها الطريق ضبَّع عليها الفرصة. في تلك الأنساء، كانت أميركا منشغلة باهتماماتها وهواحسها. والغرب المشغول بمشاكله، بدا بأنسه لم يكن يملك القوة ولا الرغبة في التفكير بضم روسيا إلى فلكه. كان النساس قسد سئموا من المشاحنات الدائمة مع روسيا، والقلة القليلة السيّ هللست للإصلاح الروسي في البداية بدأت بالتفكير بشكل مختلف آنذاك: "لعل هؤلاء الروس حقساً عتلفون. إلهم لن يتطوروا أبداً إلى الحد الذي يمكنهم من التكيّف مع القيم الغربية. دعوهم يعيشون في أوروبا الآسيوية الخاصة بهم. على الأقسل حينشة سيكونون مفيدين من خلال حماية الغرب من الصين". كتب السفير البريطاني السابق في موسكو رودريك برايثويت في كتابه عبر موسكو: "عندما أحبط التفاؤل السطحي، تلاشت السعادة الفامرة الفربية، فعر موسكو: "عندما أحبط التفاؤل السطحي، تلاشت السعادة الفامرة الفربية، وعاد الرهاب من روسيا... و لم يتم التعبير عن هذا الرهاب الجديد من حسلال الحكومة، بل من خلال تصريحات سياسيين تركوا مناصبهم، ومنشورات الخبراء الأكاديميين، وكتابات الصحفيين التفصيلية، ومنتجات المسناعة الترفيهية. والمسؤولون عن إثارة وتحفيز هذا الرهاب هم الذين كانوا يعتقدون بأن المحضارة الأورثوذوكسية الروسية مقدَّر عليها أن تبقى بعيدة عن الفرب الفرية الانتقادات الطبقة السياسية الروسية بفعل الكثير لتغذية الانتقادات الغربية لروسيا والظنون الغربية ها.



كانت سنة بوتين الثانية في السلطة تقترب من نهايتها. كانت معدلات قبول العالمية تبدو وكأنها قد تجمّدت، كتعويذة ضد الهزيمة. في كانون الثاني عام 2001، عبر 73 بالمائة من الشعب الروسي عن قبولهم للرئيس؛ نسبة يحسده عليها يلتسين وغورباتشوف. وكان 42 بالمائة من الروس يشعرون بأن عام 2001 سار بنحاح بالنسبة لروسيا، بينما كان 38 بالمائة منهم يعتقدون العكس، و20 بالمائة لم يسدلوا بآرائهم، وكان المجتمع مقسَّماً في رأيه بالأحداث المتعلقة بتطور روسيا، حيث كان 45 بالمائة منهم يعتقدون بأن كل شيء يسير في الإنجاه الصحيح، بينما كان سائلاً، بالمائة يرون الأمور تسير في الإنجاه السيئ". مع ذلك، فالتفساؤل كان سائلاً، بشكل عام. كان الروس ينظرون إلى المستقبل في ضوء ساطع (14). ولكن، أياً منهم لم يكن واثقاً من مدى ديمومة ذلك التفاؤل.

الغمل الثامن

ارتباك الكرملين

طبيعة الاستفرار . الاستياء يستمر . خطاب جديد إلى الأمّة يعكس ارتباك الكرملين. بوتين يتّحوّل إلى الغرب مخلَّفاً النخبة وراءه. يُلتسين غير رامض عن خليفته. شكوك جديدة. الشيشان تنكّر بنفسها ثانية. الغيار الروسي التقايدي: العرية كم النظام؟

كان من المفترض أن تكون سنة 2002 آخر سنة هادئة قبل وصدول حمسى الانتخابات الجديدة (الانتخابات البرلمانية ومن ثم الانتخابات الرئاسية) التي كانت ستجري في العامين 2003-2004. قبل الإصابة بحسّى الانتخابات، كانت ما تزال أمام روسيا فرصة للتفكير في الاتجاهات والخيارات الرئيسة، وأمام رئيسها فرصة لمتابعة سياسته في التحديث. ولكن، لطالما خالف هذا البلد كل الخطط وكل التوقعات. إن روسيا قابلة للتورط في منافسة جديدة ونسزاعات سياسية عنيفة حتى قبل أن تدرك ذلك.

جاءت بداية العام 2002 لتوكد على عط فلادعمر بوتين السياسي وطبيعة حكمه. بعد نقلته المويدة للغرب في الساحة الخارجية، استمر بسوتين في الساحة الخارجية، استمر بسوتين في الساحة الماعلية على سياسته المبنية على مبادئ متناقضة (كان ليبرالياً، ومركزياً، وشعبياً في الوقت نفسه). كان بوتين رجل إجماع وسياسياً استبدادياً، وطنياً روسيا ومناصراً للغرب في نفس الوقت. ولحف السبب ستحد أن نصف الشعب الروسي لم يكسن يعرف ما هي حقيقة زعهمه بالضبط. لكن الجميع كانوا ما يزالون يرون ما يريدون

آن يروه ويتصورون الوحه الذي يجبونه. من المدهش بالفعل نجاح بوتين في لعسب دور رحل الجميع لمدة طويلة؛ فهذا الدور يحتاج إلى براعة وحظً بكل تأكيد.

أعلن بوتين، بعكس الرأي السائد، أن عقوبة الإعدام سستُحظّر في روسيا؛ خطوة باتجاه النموذج الغربي. كما منح المواطن الروسي الحق بسامتلاك حسساب مصرفي في الخارج، وآيد بحموعة جديدة من القوانين الليرالية التي قدمتها الفئسة الإصلاحية من حكومته، واستمر في توجهه نحو الغرب، قاطعاً أشواطاً إضسافية في مأسّسة علاقات روسيا مم الغرب وبناء الثقة مم الشركاء الغربيين.

لكنه في الوقت نفسه اتخذ قرارات تحدف إلى عملَّ التقليديين مسن الشسعب الروسي والنخبة الروسية. حيث صادق على قانون يتعلق "بمكافحة التطسرف"، الذي أعطى، من خلال تعريفه الواسع للتطرف، الفرصة لقوى الأمن باعتبار أيسة معارضة أو أي انشقاق على أنه شكل من أشكال التطرف. كما أيسد مشسروع قانون الحدمة العسكرية البديلة للقدَّم من قبل هيئة الأركان التي كانت تعتبر الحدمة العسكرية البديلة عقوبة، وأيد كذلك قانون الهجرة الذي صعَّب شروط الحصسول على المواطنة الروسية.

واستمرت في روسيا محاكمات الأشخاص المتهمين بالتحسّس - من الواضح ألها حصلت بمعرفة الرئيس - لتمريرهم المزعـوم معلومـات سرية لوكـالات استخباراتية غربية. ومن بين تلك المحاكمات، اشتهرت بشـكل خـاص قضية الصحفي غريفوري باسكو، الذي قدَّم للصحافة اليابانية معلومات عـن التلـوث النووي الناتج عن الفواصات الفرية الروسية في بحر اليابان. أثهم الصحفي بكشف أسرار اللولة وحُكم عليه بالسحن أربع سنوات في معسكرات الأشفال الشـاقة. ورغم الاحتجاج على الحكم في روسيا والخارج، إلا أن السلطات رفضت إعـادة النظر فيه.

وبالنسبة للإصلاح الاقتصادي، لم يكن بوتين، على ما يبدو، قد قرّر بعد إلى أي حدّ سيسير في التقدم الذي أحدثه في السوق، فهو لم يجرؤ حتى تلك اللحظة على مهاجمة مؤسسات الرأسمالية البيروقراطية التابعة للطبقة الحاكمة في روسيا. وتحت الطاولة، استمرت الصفقات بالتحكّم في ساحة اللّهب. واستمرت الحكومة

في إنفاق الكثير من وقتها وطاقتها على تسوية مصالح العائلات الثرية والأشمحاص المتنفذين. وكان مصير القوانين والمؤسسات الاقتصادية يُحدُّد من قبـــل الـــرئيس شخصياً. حتى إن التشريعات الجديدة المتعلقة بالسوق صيغت بحيث تعطى الرئيس الفرصة لاتخاذ القرارات الاقتصادية دون الرجوع للبرلمان.

ومع أن الكرملين، في بعض الحالات فقط، قام بتـــريم عجلــة الإصـــلاح الاقتصادي، إلا أن الاعتماد الحصري للسوق على السلطة التنفيذية قلَّص مسن الحريات الاقتصادية، وحافظ على الدور المهيمن للبيروقراطية في إدارة الاقتصاد. في الواقع، لقد زادت الشريحة العليا من السلطة التنفيذية من سيطرتها على السوق إلى درجة مساوية لسيطرها أثناء حكم يلتسين.



على الجبهة السياسية، لم يعد حكم بوتين ذلك الحكم الرئاسسي الصارم والمطلق، الذي كان ينبغي أن يه دى - وفقاً لخطة الكرملين - وظيفة حزام ناقـــل مشحم بشكل مثالى. لقد أدركت السلطات مسبقاً بأن مثل هذا النظام بمستحيل تطبيقه في روسيا بدون إكراه وقمع. والكرملين لم يكسن مستعداً للعسودة إلى الأساليب القمعية والديكاتورية. لقد بدت روسيا بأنها لم تعد تحتمل ذلك أكثر.

وهكذا أصبح حكم الرئيس الروسي الثاني بعد الهبار الشيوعية يشب أكثسر فأكثر مَلَكية يلتمين المنتخبة، بصرف النظر عن مدى اختلافه الشخصي عن سلُّفه. كان نظام بوتين، مثل سابقه، يتضمّن خليطاً من عناصر غير منسحمة: تأكيد على الخضوع وعدم القدرة على التأقلم مع المقاومة الداخلية؛ محاولات لتقويسة دولسة مركزية وإذعان للأنظمة الإقليمية الإقطاعية؛ رغبة بإيقاف المساومة واستمرار عقد الصفقات. صحيح أن كرملين بوتين كان قد نجع حتى ذلك الوقـت في تطبيــق قوانين أشد صرامة وتحقيق درجة أكبر من الامتثال، إلا أن التلقائية القديمة كانـــت تغلى تحت السطح. كل ذلك كان يثبت بأن الزعيم إذا لم يكن مستعداً لرفض السلطة الفردية، فإنه سيرغَم في أهاية المطاف دون أن يدرى، وحتى بشكل يخالف ما كان يخطط له، على الرجوع إلى أساليب يلتسين في الحكـــــــ، أي إلى المقايضــــــة

السياسية مع المحموعات ذات المصالح في المحتمع وإلى بناء استقرار غير حقيقي.

إن وحود نظام سياسي هجين – يربط بين الماضي والحاضر، بين المحافظين ومناصري الحداثة – كان الضامن للهدوء في روسيا. كسان وسيلة لإيقساف الصراعات، مسكّن للآلام الناتجة عن الآثار المؤلمة لتحوّل روسيا. ولكن، مع ذلك، كانت هنالك شكوك حقيقية حول قدرة هذا النظام الهجين على تحقيستي التقسدم والنفاذ إلى المستقبل.

في ذلك الوقت، بدا الرئيس وكأنه كان يترك صورته السياسية دون إكمال. وفي هذا الخصوص، كتب الصحفيون، لدى محاولتهم تحديد ملامح قيادته، عسن "رحلة النسر الذي يمتلك رأسين"، وعن أن "مزلاجي بوتين كانا يسيران في اتجاهين عتلفين". كانت هذه طريقة بحازية لإظهار أن الرئيس، بينما كان يطبق سياسات غربية التوجه ويقوم بإصلاحات اقتصادية ليبرائية، بقي مناصراً لنمسوذج نصف ديكتاتوري في السلطة، الأمر الذي كان يعني بلا شسك موقفاً متشككاً مسن المؤسسات التي بنتها الحضارة الغربية(1).

في الحقيقة، لقد كان موقف بوتين مفهوماً، فهو كان خالفاً من القضاء على التوازن الهش. لم يكن بوتين مستعداً لاتخاذ قرار لهائي والمراهنة على ايديولوجية واحدة و نظام واحد من المبادئ، الأمر الذي قد يعني إن لم يكن حصول صراع في المجتمع فعلى الأقل خرق الاستقرار الذي تم بناؤه. وعلاوة على ذلك، في العسام (2002، كان الرئيس في وضع خطر سلفاً. فسياسته الخارجية لم تكن تحظى باي دعم، حتى من أقرب أفراد حاشيته، فصحيح أن الجميسع قبلوا بالأمر، حتى المعارضين لتوجّهه نحو الغرب، إلا أنه كان يهي عماماً بأهم يمكن أن يسادروا إلى المحتوم في أية لحظة يلمسون فيها نقطة ضسعف مسا. وبالنسبة للإصلاحات المحتمع الروسي. وهذا ما حصل في ربيع العمام 2002، عنسدما إلى استياء علني في المحتمع الروسي. وهذا ما حصل في ربيع العمام 2002، عنسدما النزل سكان فورونيج إلى الشوارع احتجاجاً على الإصلاحات الخاصة بالإسكان نيزل سكان فورونيج إلى الشوارع احتجاجاً على الإصلاحات الخاصة بالإسكان التي أدّت إلى زيادة كبيرة في الإعبارات. كانت تلك المظاهرة الشسعية الأولى في عهد بوتين. وهي التي دفعته إلى التفكير ملياً.

وعلى الرغم من الاستقرار الظاهري، فلم تكن هنائك ضمانات بأن الموسسة السياسية ستستمر بالمصادقة على كل ما يفعله الكرملين. ومع أن النخبة استمرت في خضوعها، إلا أن الطبقة البيروقراطية – بعادتما في التخريب التي اكتسبتها منسذ قرون – كان باستطاعتها إعاقة إصلاحات بوتين إذا ما اقتربست مسن مصالحها العميقة.

في الحقيقة، لقد شعر بوتين مسبقاً بقوة المقاومة. في بداية العام 2001، حاول الرئيس التخلص من حاكم بريموري الفاسد، يفغيني نازدراتينكو، الذي لم تنفسع معه كل محاولات يلتسين السابقة للتخلص منه، حيث باءت كلها بالفشل. ولكن، بعد انقضاء شناء من النقص الحاد في الطاقة في بريموري، أصبحت هنالك أسباب وجبهة لإزالته. فدعا بوتين الحاكم وأقنعه بالاستقالة. ويمكنني أن أتخيل الحوار الذي دار بينهما: قال بوتين "عليك أن تغادر يا يفغيها أن فينانونيتش، وإلا فسنضطر لاعتقالك. ونحن لا نريد أن نتسبب بفضيحة". وافق نازدراتينكو على هذا المنطسق فعلاً، لكنه وضعه في حكومته. يبدو أن هنالك عقد لم يكن باستطاعة بوتين حلها. فعلاً، لكنه وضعه في حكومته. يبدو أن هنالك عقد لم يكن باستطاعة بوتين حلها. وحق بعد رحيله عنها، ظل نازدراتينكو حاكم بريموري الفعلي، الأن كل محاولات موسكو لدعم مرشحها لمنصب الحاكم هناك فشلت، حيث فاز في الانتحاب رجل من عائلة نازدراتينكو (سيرجي داركين)، وفوق ذلك له علاقات إجرامية. هدذه من عائلة نازدراتينكو (سيرجي داركين)، وفوق ذلك له علاقات إجرامية. هدذه المرحة أظهرت بأن سلطة بوتين لم تكن مطلقة، فعلى الرغم من امتلاكه كل موارد السلطة، إلا أنه لم يكن قادراً على دفع الأحداث في الإنجاه الذي يريد.

هزيمة أخرى مُني بما الكرملين في قلعة الإصلاح الديمقراطي، نيجني نوفغورود، حيث فاز شيوعي بمنصب الحاكم هناك، بالرغم من اشتراك موسكو المباشر.

فيما بعد، في العام 2002، نجحت موسكو – عن طريق التلاعب العلني والضغط قوي – في إيصال مرشحها إلى منصب عملة نسيجني نوفغسورود. لكسن النساخيين الغاضبين انتقموا لذلك، حيث قام ثلث المصوتين بالتصويت "ضد الجميسع". وكسان ذلك دليلاً على أن تكتيكات بوتين في الضغط وعقد الصفقات لم تكن ناجحة دائماً، وأن الناس كانوا يزدادون استياء من هذه "الديمقراطية المقلّدة" أكثر فأكثر.

وفي العام 2002 أيضاً، بدأ الحكام بالتذمر علناً. كانوا مستائين مسن تقييد أيديهم ومن مطالبتهم بتقديم التقارير إلى مراقبيهم، المعينين من قبل الرئيس. ولكن، رخم العداء الظاهر للكرملين، إلا أن الحكام كانوا يعرفون بأن عليهم الانتظار. فالانتخابات الرئاسية باتت قرية، والرئيس سيضطر لمساومتهم لأنحسم كانوا يسيطرون على الأقاليم والناخبين. كان بوسعهم أن يساعدوا على فوزه أو هزيمته. صحيح ألهم فقدوا الكثير من امتيازاتهم، إلا ألهم كانوا ما يزالسون عطوريسن و لم يعودوا يخافون من الكرملين.

والأجهزة الأمنية ومكتب النائب العام - دعامة أخرى من دعائم نظام بوتين له يكونا، على الأرجح، راضيين عن الرئيس كذلك. فبوتين لم يصبح أبال المرجعهم بكل ما في الكلمة من معنى. وزملاؤه السابقون في الأجهزة الأمنية لم يتهجوا كثيراً لأنه جعلهم يتشاركون في النفوذ مسع الجماعات الأخرى ذات المصالح. ولم يكن بوتين، بدوره، يملك سبباً يجعله سعيداً بزملائه السابقين الفين حليهم معه إلى الكرملين، بعد أن تبين ألهم إداريون سيتون.

كذلك الأمر، حاب أمل الجيش بالرئيس. فأفراده لم يكونو واثقين مسن المستقبل، ولم يتمكنوا من فهم موقف الرئيس من سياسة اللغاع. والمسافطون في سلك الضباط كانوا مستائين من "غورباتشينية" بوتين في السياسة الخارجية وتقهقره الدائم أمام الأميركيين. في البداية، أيقوا تذمّرهم في دواحلهم، لكن البعض منهم أصبحوا، بشكل تدريجي، أكثر جهاراً في تذمّرهم، كما فعل نائسب رئيس هيئة الأركان السابق، الجنرال ليونيد إيفاشوف، بشأن "الانتحار السياسي" لروسيا. ثم بدأ الجنرالات المتقاعدون، من بينهم وزير اللغاع السابق إيفسور روديونوف، بنشر رسائل علنية في الصحف والتحدث إلى وسائل الإعلام، متهمين بوتين بخيانة مصالح الأمن القومي لروسيا.

والطبقة المتنفذة بدورها لم تكن تشعر بألها آمنة تماماً، لأن مكتب النائب العام كان باستطاعته إرسال أشخاص للتدقيق في سجلاتهم في أية لحظة. بعض الأثرياء المتنفذين الذين كانوا يجاولون، في العادة، التكتم وإبقاء امتعاضهم داخلهم، خرجوا فجأة من مخابهم، وأبدوا انتقادهم للكرملين جهاراً. أما كبار رجال الأعسال في روسيا فقد كانوا يراقبون الرئيس عن كتب، لألهم كانوا لا يثقون في الفريق الحاكم وغير متأكدين من نوايا بوتين.

وبالنسبة لليسار، فهؤلاء كانوا بملكون كل الأسباب التي تجعلهم غير راضين عن الرئيس وسياساته. ولهذا السبب، بدأ اليساريون يتحدثون عن نظام بسوتين "المعادي للشعب" بنفس الروح التي هاجموا بها نظام يلتسين مسن قبلل. أما الشيوعيون، فلا ينبغي التقليل من شاتهم أبداً؛ فهم ما زالوا يؤثّرون في ثلث عدد الناجبين الروس، ولأن القوى السياسية الأخرى كانت ضعيفة حداً، فقد كان باستطاعة الحزب الشيوعي أن يصبح ملحاً للمحموعات المعارضة الأخرى.

أما حزب الوسط الذي كان بوتين يعتمد عليه - روسيا المتحدة - فقد ظلل غير عمد الشكل واستقرّ على مبدأ واحد: الخضوع للزعيم. لكن هذا الحزب، إذا حلّ أزمة في البلاد - بظهور شخصية قوية حديدة - يمكن أن يتحوّل إلى الزعيم الجديد بنفس السهولة التي تحوّل فيها حزب لوحكوف وبريماكوف "الأرض الأم" أو بالأحرى، يمكن أن يصبح عباً ثقيلاً حول رقبة بوتين. بيد أن رجال الإدارة في الكرملين كانوا يدركون هذا الأمر، ولهذا السبب بدأوا لعبة التسرويج لأحسزاب مويدة أخرى (من بينها "حزب الحياة" الذي يتزعمه الناطق باسم بحلسس الاتحساد سبوجي ميرونوف، والحزب الديمقراطي الاجتماعي اليساري الذي أسسه الناطق باسم الدوما غينادي سيليزنيف)، في انتظار لحظة التخلص مسن حسزب روسسيا المتحدة.

بقي الديمقراطيون يتعاملون مع بوتين بحذر، بالرغم من توجّهه الغربي، إلى أن أعلن تشوبايس – الذي كان متحفظاً من قبل – فحاة بأن النظام قد يسلك اتجاهاً خطراً. في مقابلة مع روبرت كوتريل من صحيفة فايننشال تايمز في 16 شباط عام 2002، أحاب تشوبايس على عبارة الصحفي، "إن روسيا تتحسول إلى دولية بوليسية"، يما يلي: "الخوف ليس فقط في الغرب، إنه موجود هنا أيضاً. لا يمكننا أن نفض الطرف عن الأمر ونقول بأنه غباء. لا، إنه أمر خطور. ثمة قوى سياسية غسير بعيدة عن بوتين ستدعم بالضبط ذلك النوع من التطور في روسيا"

في الحقيقة، كان لدى تشوبايس سبب وجيه لتوجيه تحذيره هذا. ففي كانون

الثاني عام 2002، أغلقت آخر محطة تلفزيونية وطنية خاصة (TV-6) بملكها الثري المتنفذ المنفي بوريس بيريزونسكي (2). كانت هذه المحطة ضحية أخرى من ضحايا قرار الكرملين بتنظيف الساحة من أدوات المعارضة القوية قبل بحيء الانتخابات البرلمانية في العام 2003. لقد أدرك البريتوريون في دائرة الكرملين قسوة التلفزيسون ولهذا السبب لم يكونوا يريدون لأكثر المحطات التلفزيونية شعبية في البلد أن تكون بأيدي عدوهم. في الواقع، كانت وسائل الإعلام الحرة، منذ بداية إقامة فريق بوتين في الكرملين، بمثابة الشوكة في الحلق.

إدراكاً منه لما يمكن أن يتسبّب به الانتصار الشسامل لوزارات السلطة (السيلوفيكي)، هب تشوبايس لمساعدة الصحفيين الذين كانوا يفقدون محطتهم للمرة الثانية، فساعد على تنظيم صندوق مشترك يضمّ بحموعة من الأثرياء المتنفذين من أجل جمع الأموال لشراء أسهم محطة تلفزيونية محاصة يقوم بإنشسائها يففسيني كيسيليف، المدير السابق لمحطة 6-TV، وفريقه. وكان من بين مسالكي الأسهم أشخاص من حاشية بوتين نفسها: رومان أبر اموفيتش، الكسندر ماموت، أولين ديبياسكا، وحتى ألفرد كوخ الذي شارك في تدمير NTV، إن الدور الذي لعب كوخ في حملة إنقاذ 6-TV خير دليل على مدى سرعة الأسمحاص في روسيا في تغيير المعسكرات والولايات. إن هذه الخطوة التي قام كما رحال أعمال مقربون من أجل إنقاذ عملة تلفزيونية مستقلة كانت تمثل تحدياً لأحهسزة السلطة النابعة لبوتين، ودليلاً على أن جماعة يلتسين لم تكن تنوي الاستسلام بدون قتسال. وهذا كان صداماً عنيفاً اخر بين عصرين – عصر يلتسين وعصر بوتين – صدراع بين الفتات المتنافسة من طبقة النحية في فترة ما بعد الشيوعية.

على أي حال، بعد تخمين الفوائد والمضار، صادق بوتين على شركة البستُ
الجديد التي كان يساهم فيها عدة أشخاص متنفذين. من الواضح أنه لم يكن يريسد
أي عصيان من حانب بحموعة يلتسين القديمة، التي كانت تقف وراء الأحسداث،
رغم أن ذلك يعني فشل بريتوريه الذين كانوا يحاولون السيطرة علسى المحطه
التلفزيونية الشعبية. لكن الكرملين، كي يكون متأكداً مسن أن المحطه الجديسة،
ستتصرف "بعقلانية"، اقترح أن ينضم رئيس الوزراء السابق، يهفيني بربمساكوف،

ورئيس اتحاد الصناعيين والمقاولين، أركادي فولسكي، إلى بحلس إدارة الشسركة. يُظهر ردّ بوتين هذا أنه تعلَّم كيف ينشئ نظاماً غير رسمي لتوزيع السلطة ويبطل تأثير الأعداء المحتملين. كان يتبع خطى سلفه يلتسين.

في شباط من العام 2002، تكلّم بلتسين بعد صمت طويل. صرّح العسرًاب السياسي لبوتين، متحدثاً عن سياسات خلّفه الشخصية، قائلاً: "من الضروري أن يحيط المرء نفسه بالمخاص محترفين أكثر مما يحيط نفسه بالموالين". وكان يلتسسين أكثر قساوة بخصوص حرية الصحافة، حيث قال: "لقد تحمّلت كل الانتقادات، أما اليوم فمن الصعوبة بمكان حتى التعبير عن انتقاد ميرًر". يبغو أن السدب العجسوز، رغم العزلة، ما زال يحتفظ بحدسه ومنطقه السليم. كان يشعر بأن خليفته يسير في الانجاه الخاطع.

حتى المجتمع لم يكن باستطاعة بوتين الاعتماد عليه بشكل كامسل. فأسلوبه البونابارتي الخفيف في الحكم كان يمكنه أن يضمن له السلطة فقط إذا تمكّنت إدارته من توفير بعض الظروف الطبيعية للشعب، أما إذا كانت هنالك مشاكل اجتماعية، وإذا استمر الفساد وانحلال الدولة، فقد يبحث الناعبون السروس المتقلّبون عسن شخص آخر يهبونه عواطفهم. إضافة إلى ذلك، كي يحظى الزعيم بدعم ثابت من الناس، عليه أن يخاطبهم، أن يتحدث إليهم، أن يشرح لهم سياسته ويطلب منهم أن يساندوه. لكن بوتين كان يفصل أسلوباً بارداً وبعيداً. صحيح أنه أظهسر بعسض الأساليب الشعبية، مثل التحدث إلى جماهير عتارة، لكنه أبداً لم يفتح حواراً مسع أمّته. لربما كان يشعر بأنه ليس بارعاً بما يكني، أو أنه لم يكن قادراً على التحدث إلى المجتمع، أو كان خاوري أصلاً.

إن الصراع المتحدّد بين الجماعات ذات المصالح، والاستياء المكبوت ضممن المفات الاحتماعية، والفساد المستمر، وإخفاق الكرملين في السيطرة علمى الأقاليم، كل ذلك أثبت بأن هدوء روسيا لم يكن سوى وهم. بل أكثر من ذلك، في بعض الأوقات من العام 2002، لم يكن واضحاً محاماً من الذي يمسك بالسلطة، أو من كان مسؤولاً عن اتخاذ بعض القرارات، أو ما هي خطة عمل الكرملين. كان هنالك انطباع بأن بعض القتات كانت تأخذ زمام السلطة من النظام الرئاسي

وتستغله بدون علم بوتين. قــال المشــككون في موســكو "الســلطة تــروّج الإشاعات" (ن). حتى ذلك الحين، كانت روسيا تدعم صورة "بوتين العملي" الــذي يعقد الصفقات مع كل طبقات المجتمع. لكن الانطباع الذي ساد بعد ذلك هو أن الاناباس في الساحة الداخلية كان ناتجاً عن ضعف الكرملين وتخبطه.

كان الباحث بيتر ريداواي من بين أوائل الأشخاص الذين نوهوا إلى أن تجميع موارد السلطة في يدي بوتين لا يعني بالضرورة تقوية السلطة فعلياً. كتب ريداواي في صحيفة بوست سوفيات أفيرز في عددها الصادر في كانون الثاني عسام 2002:
"من الناحية الشكلية"، قام بوتين بتقوية السلطة إلى درحة كبيرة حداً. لكنه، مسن الناحية الحوهرية، لم يفعل. وإذا شئنا تسليط الضوء على أحد الأسباب السي أدّت إلى هذا الوضع... فمن المرجح أنه سيكون التخريب المالي الذي تقوم به الشركات الثرية، أو المتنفذون،... أو كبار البيروقراطيين على كل المستويات في الحكومـــة". على أي حال، هنالك أسباب أخرى لتفكّك السلطة: طبيعة المجتمع الروسي العنيد، وانقال الثروة الاقتصادية من المركز، ووجود علاقات الحامي والزبون.

وهكذا، مرة أخرى، كشف جوهر نظام روسيا ما بعد الشيوعية عن حقيقة. فمع افتقاره إلى المؤسسات المستقلة والمبادئ المحلدة، لم يكن باستطاعة هذا النظام البقاء دون وجود صراع بين مراكز نفوذ غير رسمية وبين السلطة الشاملة للسزعيم، ودون إحداث إلتباس مقصود، ونسزاعات دائمة، وصفقات مشبوهة. في الحقيقة، إن توحيد هذا النظام أمر غير ممكن على الإطلاق؛ وهذا هو سسبب قولنسا بسأن الاستقرار الظاهري ما هو إلا استقرار مخادع، لأنه يخفي تحته نسزعات متضاربة ونسزاعات مستمرة. وفوق ذلك، فهذا الوضع كان يرغم الزعيم على مراقبة المشهد السياسي بصفة دائمة، بحيث لم يكن يدع له أي وقت للتفكير بشكل أكثر شحولية، كلما ازداد انشغاله في الضغط على الأزرار، كلما ضافت رؤيته العامة.

****-

إلى الأمّد. ولكن هذه المرقب السنوي إلى الأمّد. ولكن هذه المرة، السنوت إلى الأمّد النــوع".
 المرة، السمت ردّة فعل المراقبين باللامبالاة: "الأسلوب العادي"، "أزمـــة النـــوع".

البعض بدأ بمقارنة بوتين مع بريجينيف، ملمَّحين إلى عناصر الركود التي عسادت إلى الحياة الروسية من حديد. لكن هذه المقارنات كانت تثير غيظ الرئيس، لأن شعاره كان على الدوام الدينامية والنشاط.

أدرك بوتين، فيما يبدو، أن آلة اللولة قد بدأت تتعطل ثانية. فزادت عصبيته، وزادت معها وتوة الإفصاح عن استيائه من حكومته. كما طالب الحكومة بوضع "أهدف أكثر طموحاً"؛ فبدلاً من 4 بالمائة هي نسبة النمو الاقتصادي للعام 2003، طلب بوتين من رئيس الوزراء كاسيانوف زيادة النسبة من 9 إلى 11 بالمائة. كان واضحاً بأنه كان على عملة من أمره، فهو كان يريد الخروج من المستنقع بأسرع طريقة ممكنة. ولكن، هل كانت توقعات النمو هذه واقعية، في الوقت الذي كانت روسيا فيه ما تزال تعتمد على موارد النمو السابقة، التي يحتل فيها السنفط والفاز

رد كاسيانوف بعناد قاتلاً بأن روسيا لم تكن بحاحة إلى "قفزات كسبيرة". في الحقيقة، لربما كان رئيس الوزراء على حق، إذ لا يمكنك تسريع عجلة الاقتصاد من خلال مرسوم أو أمر رسمي، كما في الأيام السابقة. فلم يعد بوتين لمطالبة الحكومة بأي قفزات، على الأقل في تلك الفترة.

على نحو غير متوقع، بدأ الناس بالتحدث عن كاسيانوف كمنافس محتمل في الانتحاب الرئاسي المقبل. وهكذا تحوّل كاسيانوف تدريجياً من "رئيس حكومة تقني" إلى شخصية رمزية. لقد أصبحت لديه الآن آراؤه الخاصة، حتى إنه بدأ يجادل الرئيس. وعلى هذا الأساس، أصبح من الصعوبة بمكان إقالته بدون سبب وحيه بالطبع، وقفت مجموعة يلتسين كلها خلف كاسيانوف، وكأف كانت تقول ليوتين: "إذا أسأت التصرف، فهناك مرشحون آخرين للرئاسة". لكن طبيعة النظام في روسيا، في واقع الأمر، تفرض بأن يكون رئيس الحكومة معتمداً بشكل كامسل على الرئيس، الذي يمكنه إلهاء حياته السياسية بشحطة قلم. هكذا كسان بمكسن التعامل مع كاسيانوف ومع أي رئيس وزراء آخر في روسيا. لكن حقيقة شروع بعض مجموعات النحبة بالبحث حولها عن قادة آعرين أثبتت بأن المؤسسة لم تعسد بعض معناطيسياً من قبل بوتين.

في تلك الأثناء، استمر فريق بوتين - بطرفيه، اليلتسينين والبريت ورين - في موامراته، وكأنه كان يحاول الظهور بمظهر المشغول على السدوام أمام زعيم. وكانت الموامرة التي حيكت ضد الحزب الشيوعي واحدة من أكثر المسوامرات تشويقاً في تلك الفترة. في بداية حكم بوتين، عقد الكرملين صفقة مع الشيوعيين وتشارك معهم معظم المناصب في الدوما، وذلك كان جزءاً من سياسة التقرّب من كل القوى السياسية. وفي ربيع العام 2002، قرّر الكرملين إجبار الشيوعيين على الحزوج من البرلمان، الأمر الذي أدّى إلى خسارة الشيوعيين قيادهم للحان الموثرة في الدوما. وفي نفس الوقت، حاول الكرملين انتسبب بانقسام في الحزب الشيوعي والبدء بتأسيس حزب يساري موال برئاسة الناطق باسم الدوما سيليزنيف.

من الناحية الظاهرية، كان هذا يمثّل نصراً لليرالية. لكن السدوما، في واقسع الأمر، ظلّ خاضعاً ومطيعاً للكرملين، إذ إن الرئيس كان يسدفع بسسهولة كسل القرارات التي كان يحتاجها. والشيوعيون لم يكونوا يشكلون عقبة على الإطلاق. إذاً، لماذا يريد الكرملين الدخول في صراع مع الشيوعين؟ في البداية، قد يعتقد المرء بأن متآمري الكرملين كانوا يحاولون التعلق من المعارضة اليسارية كسى يجعلوا العملية السياسية بالكامل تحت السيطرة. لكن الحقيقة كانست مختلفة تماماً، فالكرملين كان يحاول دفع الزعيم الشيوعي غينادي زيوغانوف إلى تبنّي مواقسف معارضة أشد تصلباً وعناداً، في سعي منه لإعادة إنتاج نفس الظروف التي حسرت فها الانتخابات الرئاسية السابقة، عندما انتصر فيها يلتسين ومن بعده بوتين فقسط فيها الانتخابات الرئاسية السابقة، عندما انتصر فيها للسرملين الإعسداد للمعركة أعين الناحيين المترددين. وعلى هذا الأساس، بدأ الكسرملين الإعسداد للمعركة أعين الناحين المترددين. وعلى هذا الأساس، بدأ الكسرملين الإعسداد للمعركة الانتخابية الي كانت ستحري في العام 2004، مع استراتيحية انتخابة رئيسة تتمثّل الانتخابية التي كانت ستحري في العام 2004، مع استراتيحية انتخابة رئيسة تتمثّل الإنتخابية الي كانت ستحري في العام 2004، مع استراتيحية انتخابة رئيسة تتمثّل الإنتخابية الي كانت ستحري في العام 2004، مع استراتيحية انتخابة رئيسة تتمثّل الإنتخابية الي كانت ستحري في العام 2004، مع استراتيحية انتخابة رئيسة تتمثّل الإنتخابية الي كانت المحروب الخدول المحاكة في الانتخاب السابق.

وماذا حدث نتيحة لذلك؟ صحيح أن الحزب الشيوعي أصبح أشد راديكالية بالفعل، ومعارضته أصبحت أشد قوة، لكنه كحزب لم يضعف أبداً. ففي روسيا، يصبح الحزب الشيوعي ضعيفاً فقط إذا تعاون مع النظام، وليس إذا عارضه. كانت روسيا ما تزال تحتفظ بقاعدتما الانتخابية اليسارية والقومية التي لا تؤيسد النظام، والحزب الشيوعي كان منفذها الوحيد. ومع تنامي الشعور بالاستياء لـــدي هـــذه القاعدة، كان تصلّب الحزب الشيوعي في معارضته يزيد مسن مواقعها. ولهمذا السبب، في غاية آب، ذكر 34 بالمائة من المشتركين في أحد الاستطلاعات بالهم سيصوّتون للشيوعيين إذا ما أُجريت انتخابات الدوما في ذلك الوقت (29 بالمائـــة كانوا سيصوتون "لحزب السلطة"، روسيا المتحدة). أما بالنسبة للانشيقاق في الحزب الشيوعي، فلم ينتج أي شيء مؤثر عسن ذلك الحرب المذي أسسه الانفصاليون الموالون للكرملين.

لكن متلاعي الكرملين لم يتوقفوا عند هذا الحدّ، فقهد استمروا في إثسارة النزاعات والصراعات التافهة، لإعطاء الانطباع بألهم كانوا نشطين وضروريين. وهم بذلك كانوا يرغمون الرئيس، عن طريق إنتاج حوٌّ من النــزاع حوله، علـــي لعب دور الحكم والمصلح بشكل متواصل. بكلمات أعرى، كانوا منهمكين في "آلية السلطة" اليومية، كما كانت تُسمى في روسيا. وهكـــذا، عَلـــق بـــوتين في تفاصيل الأشياء النافهة والسطحية. في الواقع، إن الأمر لا يتعلق فقط بانشغال فريق بوتين الدائم في النـــزاعات، بل إنه منطق السلطة الفردية نفسه؛ المنطق الذي يرغم الزعيم على الاهتمام بالتفاصيل في سياق إدارته للحكم. ومع أن الرئيس بدا بأنه يدرك - لم يكن بإمكانه التغاضي عن هذا - بأن النـزاعات الداخلية في الكرملين كانت تعيق قدرته على أخذ زمام المبادرة وتجعله رهينة توافه الأمور، إلا أنه لم يكن يستطيع التحلُّص من فخ النظام، أو لم يكن يرغب بذلك. وعلى أي حال، لـيس قبل انتهاء الانتخابات الرئاسية. وذلك مفهوم، إذ ما هو الداعي لهزَّ القارب، طالما أن الوضع الحالي سيضمن له الحفاظ على السلطة والاستمرار في التحديث الحذر؟

كانت سياسة بوتين الخارجية في النصف الأول من العام 2002 مختلفة تمامـــــأ عن الحياة السياسية الداخلية، التي كانت تزداد ركوداً بسبب الانشغال بمهام ات الزعيم الروسي بإظهار رغبة قوية بجعل روسيا عنصراً حوهرياً في المحتمع الفسري. ولاعتقاده بعدم إمكانية تحقيق الكثير في الداخل قبل الانتخابات، ضاعف السرئيس من جهوده من أحل تحقيق أهدافه الدولية. لقد أصبح اتجاهب الغسري الآن غسير مشكوك فيه. بكلمات أخرى، كان الكوملين ينيَّر من طبيعة السياسية الخارجيسة الروسية نفسها، جاعلاً منها انعكاساً ليس للمطامح العسكرية للبلد بل لمصالحها الاقتصادية.

كما أظهر بوتين بأن العلاقات مع الولايات المتحدة كانت جوهرية بالنسبة لأجندته. بالفعل، كانت هذه العلاقة تشهد تطوراً منهلاً، بعد بدايسة متعشرة في بداية العام 2001. فبعد عام واحد فقط، بدأ العالم يشهد مستوى مسن التقسارب الشخصي بين بوش وبوتين لم يكن ليخطر على بال أي مسن القسادة المسابقين للدولتين المتنافستين السابقتين.

وهكذا، على نحو لم يكن يتوقّعه الكثيرون، بسدت العلاقة بسبن روسيا والولايات المتحدة في ربيع وصيف العام 2002 أفضل بكثير من العلاقات بسين والمنطن وأوروبا، أو بين روسيا وأية دولة أخرى، بما فيها الحلفاء السابقين لروسيا. ولم يكن السبب في ذلك هو التقارب الشخصي بين بوش وبوتين فقط بل لألهما كانا يملكان فهماً واحداً للتحدي الرئيس الذي يواجه العالم، ألا وهدو الإرهاب الله في وكلاهما كانا ينظران إلى الأمر من منظار السياسة الواقعية البراغماتية.

في مقابلة مع صحيفة وول ستريت حورنال في 11 شباط عام 2002، أكد بوتين بأنه وبوش كانا يسيران باتجاه واحد. "في ما قاله الرئيس بوش وما قلته أنساء له شيء مشترك، وهو التالي: كلانا ندرك بأن الإرهاب أصبح بملك صفة دولية" وعلى ما يبدو، لقد أثارت فكرة بوش عن "محور الشر" اهتمام الرئيس الروسسي، حتى إنه ذكر بأنه كان أول من تحدّث - قبل بوش - عن "قسوس الاضسطراب"، قاصداً بذلك البقع الساحنة للإرهاب العالمي. إلا أن حسفور إجماعهما كانست مختلفة، فالقوس الذي ذكره بوتين ما هو إلا تبريره للقرار العسكري الذي اتتحذه في الشيشان، التي كان يعتقد حازماً بألها حلقة هامة من سلسلة الإرهاب الدولي.

لله أمران لم يكن يحبهما الرئيس الروسي في مفهوم القادة الأميركيين حـــول المشكلة؛ إن "محور الشر" كان يتضمّن حلفاء ســـابقين للاتحـــاد الـــــوفياتي، وأن الولايات المتحدة كانت تحاول حلّ مشكلة المحور بشكل منفردة، لكن الانطباع الذي ساد في تلك الفترة هو أن بوتين كان موافقاً على فكرة المحور الإرهابي.

كانت ردّة الفعل الروسية مختلفة قماماً عن الانتقاد الأوروبي لأحددة السياسسة الحارجية الأمريكية. حتى إن رئيس الوزراء الفرنسي لم يستطع إخفاء عواطفه: "لا يمكن تحجيم مشاكل العالم وحصرها في الصراع ضد الإرهاب، مهما كان هسلما الصراع ضرورياً "(4). وكانت بقية أوروبا تبنى نفس السياسة. في قضية الإرهاب، كانت الولايات المتحدة وأوروبا تبعدان عن بعضهما. وهذا ما ساعد على تعزيسز الاتفاق الأميركي الروسي أكثر من ذي قبل.

عندما سأل صحفيون أميركيون بوتين ما إذا كانت روسيا ستدعم الولايات المتحدة في حال بدأت واشنطن عملية عسكرية في العراق، عبر في البداية عن أمله بحل المشكلة في إطار الأمم المتحدة، ثم أضاف: "لكن هذا لا يعني بأن روسيا في المستقبل، تحت ظروف معينة، لن تعمل سوية مع الولايات المتحدة لحل مشكلة الإرهاب في إطار من التحالف". بعبارة أعرى، كان بوتين يريد تجتسب تكسرار مشكلة يوغوسلافيا، عندما دعمت روسيا سلوبودان ميلوسيفيتش حسى لحظه استقالته تقريباً، وبعد الهزيمة قفزت إلى العربة الغربية في لحظة انطلاقها. موسكو لم تكن تريد أن تعانى من هزيمة مذلة أعرى.

في بداية العام 2002، بدا الزعيم الروسي بأنه يقدّم رسالة تقول بأن موسكو كانت مستعدة للمضيّ إلى حانب الولايات المتحدة؛ وخاصة إذا ما أحدث المصالح الاقتصادية الروسية بعين الاعتبار. كان ذلك تحولاً مدهشاً في العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة. لكن المراقبين كانوا يدركون بأن بوتين يمكن أن يغيّسر رأيسه بسهولة إذا ما شعر بأنه مضى أبعد من اللزوم في ذلك الإتجاه، أو أن موقفه هذا لم توافق عليه النخبة الروسية، أو أنه لم يحصل مقابل موقفه على ما كان يأمل به.

على أي حال، إن الإلتباس في موقف الكرملين – الذي يمكن أن يسؤدي إلى نتائج غير متوقعة على الإطلاق – سيتوضّح فيما بعد. ولكن، في ربيع العام 2002، كان بوش وبوتين الزعيمين الوحيدين في العالم اللذين وافقا علناً وبدون تردّد على كون الحرب على الإرهاب أولوية عليا في بحال العلاقات الدولية. هكذا إذن، يجد زعيما هاتين الدولتين المحتلفتين احتلافاً تاماً، هذان السياسيان اللذان بملكان مبادئ عتلفه و حلفيات متباينة، يجدان نفسيهما فحاة يفكران بشكل متشابه. كان أمسراً مدهشاً، ومذهلاً... ومثيراً للقلق. إن التعاون المبنى على وجود عدو مشسترك لا يُعقى على حياة العدو أبداً. فهل سيكون الأمر مختلفاً هذه المسرة؟ وهسل سستجد الولايات المتحدة وروسيا مجالات أخرى للتعاون؟

استمرت العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا بالتطوّر والتحسسن. فقسد حافظت إدارة بوش، بعكس ميولها الأولية، على كل برامج المساعدات الاقتصادية والأمنية التي كانت سارية في عهد كلينتون، بل زادت عليها بعسض السبرامج الأعرى. وقد دعت إلى حوار بين الولايات المتحدة وروسيا من أحسل تشسعيع الاستثمار الخاص في الاقتصاد الروسي. كما طلبت من الكونفرس أن يُخرج روسيا لهاباً من تعديل حاكسون – فانيك، وبذلك يزيل عقبة الحرب الباردة ويؤسسس لعلاقات تجارية طبيعية.

- y-

في بداية العام 2002، كان المسؤولون ينظرون إلى العلاقات بسين الولايسات المتحدة وروسيا على ألها الأفضل في التاريخ. واستمر البيت الأبيض باعتبار روسيا "عضواً رئيساً" في التحالف الدولي لمكافحة الإرهاب. وعلاوة على ذلسك، فقسد تنازلت واشنطن، في عملها على الأحندة الأمنية مع روسيا، واعتبرت روسيا قسوة عظمى؛ الأمر الذي عزَّر من عُقد المؤسسة الروسية.

غير أن السعادة الغامرة الأولية بالتقارب بين البلدين بدأت بالتضاؤل بشكل تدريجي في روسيا، وعلت أصوات الاستياء. حتى القوى المناصرة للغرب في روسيا كانت تندّم من موافقة روسيا على كل التنازلات إلى الولايات المتحدة، تلك التنازلات التي كانت تعتبرها منذ بضع سنوات فقط غير قابلة حسى للمناقشسة. الموافقة على الوجود الأميركي في آسيا الوسطى، ثمّ الموافقة لاحقاً علمى الوجود الأميركي في حورجيا، والرضوخ إلى توسيع الناتو، وإلغاء معاهدة مكافحة المواريخ البالستية، والمساهمة في حملة مكافحة الإرهاب التي لم تنلقً مقابلسها أي

شيء مادي. وتتيحة لذلك، حدث ما لم يكن بالحسبان: انتقد بوتين علناً في روسيا وأثهم بالتصرف مثل غورباتشوف؛ معطياً الكثير مقابل القليل، أو مقابل لا شسيء على الإطلاق. لكن حقيقة أن النحبة الروسية كانت تنتظسر شسيعاً ماديساً مسن الأميركيين يثبت بألها كانت ما تزال تنظر إلى موافقتها على السياسسة الأميركيسة وشراكتها مع الولايات المتحدة كنوع من الانجراف أو الإذعان للولايات المتحدة، وليس كخطة استراتيحية لروسيا.

مقابل إذعافا للإجراءات الأمنية الأمركية، كانت موسكو تأمل بالتعويض في الميدان الاقتصادي وتطوير التعاون في محال الأمن؛ وخاصة التعاون في محال الدفاع المشترك والعلاقات مع الناتو. بعكس يلتسين، الذي كان سيرضى بمحرد إشارات رمزية، أراد بوتين المزيد من الأمور الملموسة في العلاقات مع الفرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة⁶². غير أن مثل هذا التعويض، كما تبين لاحقاً، كان صعب المنال. حتى إبطال تعديل حاكسون – فانيك السيّع الصيت تبين أنه عملية صعبة أيضاً. وفوق ذلك، شهد العام 2002 حرب الدواجن – الفولاذ، التي ألقست ببظلها على العلاقات الروسية الأمركية⁶³.

"إن الارتباط الطويل الأمد بين موسكو وواشنطن مستحيل"، كان هذا هو رأي المحللين السياسيين الروس. وما كان يسميّه البت الأييض تحالفاً، كان معظم المسراقين الروس يسمّونه "مجرد اهتمام عابر" (أن الشك المغال فيه بخصوص الحوار الأميركيي الروسي كان معفوعاً من أمرين اثنين: الشك في النوايا الأميركية تجاه روسيا والشسك بخصوص إعادة الانتعاش السريعة لروسيا. وبالمقابل، كان بعض المسراقين الأميركسين بدورهم - وخاصة في الحزب النبكة راطي - متشاكمين إلى حدً ما، حيست أبسدوا انتقادهم لمقاربة بوش للعلاقات مع روسيا. "أردنا تعاوناً روسياً كاملاً في الحرب علسي الإرهاب وحصلنا عليه"، كتب ليون فويرث، مستشار سسابق لآل غسور. ولكن، بالمقابل، "أردنا تنفيذ هذه التخفيضات النووية لأنحا كانت تناسسبنا، وقسلمنا نسسخة مكررة عما كان موجوداً سلفاً (بحلس روسيا والناتو)، وفرضنا تعرفات جمركية علسي مكررة عما كان موجوداً سلفاً (بحلس روسيا والناتو)، وفرضنا تعرفات جمركية علسي بالمقابذ الروسي". وخطص فويرث إلى أن "الشراكة المتينة لا تُبني على قاعدة من يسربح يأخذ كل شيء، بل إلها تتطلب بحثاً عن عصلة يربح فيها الطرفان "(8).

أما الأميركيون الذين أرادوا تبرير الارتباط المحدود، فقد احتموا بأن روسيا لا علمك القدرة في تلك اللحظة على الارتباط في علاقة حقيقية مربحة للطرفين مسع الولايات المتحدة. وكانت هنالك عدة ردود على هذا الرأي. على سبيل المسال، كانت علاقات الولايات المتحدة حتى مع أقرب حلفاتها غير متوازنة، لألها الدولسة العظمى الوحيدة الباقية، يمعنى أن العلاقة التبادلية مستحيلة عنسدما بملسك أحسد الأطراف مثل هذا الوزن الهائل. وإضافة إلى ذلك، فقد أثبتت روسيا حتى الآن بألها قادرة على تحمّل ما يقع عليها من وزر في صفقة الحملة على الإرهاب. وفي تلسك اللحظة، كان هناك انطباع مفاده أن روسيا كانت تتعلّم شيئاً جديداً، ولو مكرهة، وهو أن تكون شريكاً مسؤولاً.

غير أن القلق بشأن طبيعة ودعومة العلاقة الروسية الأمركية كان له ما يوره:
تلك العلاقة لم تكن مقيدة فقط بسبب آثار الماضي وانعدام التوازن بين الإمكانيات
الأمركية والروسية، فباستناء الحرب على الإرهاب، لم يكن هنالك أي شسيء
مادي على الطاولة. والنعبة في كلا البلدين كانت لا تزال غير قادرة على تخطّي
النقاش في ما يثير حفيظة الطرفين، أي تخفيض الأسلحة، إيران والعسراق، تزايد
الأسلحة النووية. وما أعاق العلاقات بين الطرفين أكثر هو افتقارها إلى مفهوم
حديد ومشترك للعلاقات الدولية، وما أفسدها هو بقايا انعدام الثقة بسين كلنسا
النجبين. كانت القوى المتنفذة ضمن إدارة بوش تنظر إلى روسيا على ألها شسيء
مزعج بنغى التنعلقس منه.

كتب روبرت ليغفولد، في معرض تحليله للسياسة الأميركية تجاه روسيا، في لهايسة العام 2001: "لا شيء يوحي بأن واشنطن أو الشعب الأميركي مستعدين تبتي سياسة طموحة تجاه روسيا. وعلى هذا الأسلام، فإن الجمود الذي أدّى بالولايات المتحلة إلى الانسحاب من المشكلة الروسية في السنوات الأخيرة من إدارة كلينسون يسلو بأنسه مرجح للاستمرار. لقد ورثت إدارة بوش سياسة التحاهل اللطيف: روسيا معترف لها، وخطوط النواصل مفتوحة، ومشاريع تعاونية مختلفة عُرضت كسليل علسى النوايسا الحسنة، لكن القليل من الجهد بُذل من أجل التصدّي للمشاكل الصعبة التي تكمسن في صلب العلاقات "(6). وهذا الاستتاج ينطبق على العام 2002 أيضاً.

أما بالنسبة للسياسيين الروس، فقد كانوا ما يزالون ينظرون إلى واشنطن بعين من الشك والارتياب وغالباً بعداء أيضاً، متوقعين منها دائماً معايير مزدوجة ومزيناً من الأحادية. كان المحتمع السياسي في موسكو ما يزال يعاني من مشاكل في تحويل التقارب إلى أجندة عملية، وذلك لأن معظم السياسيين الروس كانوا يحساولون توجيه العلاقة الأميركية الروسية لتأخذ منحيًّ واحداً يتمثّل في إحسراء محادثات متواصلة حول الحدّ من الأسلحة النووية، يحيث عمكًن موسكو من تقليد دور القوة العظمي، وتأمين موقع لسياستها الخارجية، ولمؤسستها الأمنية التي كانت غير قادرة بتاتاً على أداء وظيفتها في تلك الظروف الجديلة.

كان يتوجّب على القمة التي جمعت بين بوش وبوئين في 24 أبار عام 2002، أن تثبت إلى أي حدّ كان الطرفان مستعدين لتحويل حلفهما التكتيكي إلى شراكة حقيقية أكثر. في تلك الفترة، كان بوتين قد قدَّم كل ما باستطاعت، لـ فا فـالكرة كانت في الملعب الأميركي حيتك. كان بوتين بحاجة ماسة إلى معاهـ قغفـ يض الأسلحة من بوش، لأن موسكو كانت تعتبر تلك المعاهدة بمثابة تعويض على إلغاء معاهدة مكافحة الصواريخ البالستية. كما توقع بوتين من واشنطن أن تلغي تعديل جاكسون - فانيك، وتمنح اقتصاد السوق الروسي مكانة قانونية. ففي هذه الحالة، يمكن لموتين أن يثبت للطبقة السياسية الروسية بأنه لم يكن غورباتشـوف الشابي بمكن لا يفعل شيئاً سوى إضعاف مواقم روسيا وبدون أي مقابل.

لقد كان على بوش التغلّب على بغضه الشديد للمعاهدات، وعلمى إلتزامه بالتوقف عن إبداء إشارات رمزية، ومساعدة صديقه الجديد بوتين. لقد أثبت الأميركيون بأنه فهموا مصاعب بوتين في الوطن، فلاقوه في منتصف الطريسة. وهكذا وافق بوش على توقيع وثيقة ملزمة قانونياً حول تخفيض الأسلحة النووية الهجومية. وفي الجدل الذي ثار في واشنطن بين أولئك الذين كانوا يعتبرون روسيا أضعف من أن توثر، وأولئك الذين كانوا يفضلون التعاون، فاز الأخيرون - آنذاك على الأقل.

 طالبت بأن تقوم الدولتان بتخفيض ترسانتيهما الاستراتيحيتين من 6.000 إلى مسا بين 1.700 و2.200 رأس نووي بحلول كانون الأول من العسام 12012 أي أكسير غفيض نووي حتى الآن. وكانت "معاهدة موسكو"، كما سُمِّيت، مبنية على الثقة – لم تكن هنالك أية إجراءات فعلية للتحقّق، ولا آلية تنفيذ قانونية، ولا آلية للأداء – وكان عليها القيام بأمرين: أن تتمكن من إنجاح العلاقات الأميركية الروسية قبل إنتاج الولايات المتحدة للدفاعات الصاروخية البالستية، وأن تمنع تكاثر الأسسلحة النووية. وللمصادقة على المعاهدة، كان يلزم موافقة كل من الكونفرس الأميركسي والدوما الروسي. بالنسبة للدوما، الخاضع كلياً للكرملين، فهو لم يكسن يمشل أي مشكلة، أما بالنسبة الكونفرس فالوضع كان مختلفاً.

والمثير للسحرية في الأمر هو أن كلَّ طرف منهما كان ينظر إلى المعاهدة بطريقة مختلفة. فالأميركيون اعتبروها بمثابة التأكيد على انتهاء حقبة الحرب الباردة المرتكزة على معادلة القطبين، في حين أن الروس استمروا في النظر إليهما كدليل على أن التكافو النووي كان ما يزال هاماً. وهذا الاختلاف في المقاربتين يمكن أن يصبح مصدراً للعقبات في المستقبل بالطبع.

لم تكن معاهدة موسكو، على أي حال، النتيجة الوحيدة لقمة أيار، إذ وقّع الزعيمان بياناً مشتركاً حول العلاقات الاستراتيجية الجديدة يضع أساساً للتعامل المشترك مع التحديات الجديدة، وينظّم إطاراً للتعاون الجديد حول مسألة الأمسن. كانت محاولة لبناء مفهوم حديد للعلاقة، ينظّم المصالح المشتركة بين الدولتين.

لكن موسكو كانت تفكّر بشكل عملي، ومن وجهة النظر هذه فإن قسة بوش - بوتين لم تكن على مستوى الآمال الروسية. فبوش لم يقدد أي قرار بخصوص إلغاء تعديل جاكسون - فانيك، ولا اعترافاً بالوضع القانوني لاقتصاد السوق الروسي. كان بوتين خائب الأمل، بل غاضباً، وكان ذلك واضحاً من تصرفاته، لكنه حافظ على هدوئه و لم يُظهر استهاءه من الأموكيين. قال بوتين عرضاً في 26 أبار "لسنا منهشين من عدم حصول ذلك"

ورغم عدم تحقّق كل الآمال الروسية من قمة موسكو، إلا أن موقف المواطن الروسي العادي من واشنطن كان ودياً بطريقة تدعو للاستغراب. ففي أيــــار مــــن

العام 2002، وفقاً استطلاع أحراه مركز VTsIOM، تحديث 69 بالمائسة من المعتمل المشتركين عن أهمية قمة بوتين – بوش (24 بالمائة كانوا غير متأكدين من أهميتها). و35 بالمائة منهم كان يعتقدون بأن على روسيا أن تحاول الانضمام إلى الناتو (47 بالمائة كانوا يعتقدون العكس).

كانت العلاقة الشعصية بين بوش وبوتين - ظاهرياً على الأقل - ودية حداً إلى درجة أن بعض المراقبين بدأوا يتحدّثون عن "محور بوش - بسوتين". حيست كتبت صحيفة لوموند في 18 أيار: "كانت أوروبا عالقة بين نسارين في الحسرب الباردة، ألا ينبغي علينا إذن أن نكون سعداء للمناخ الجديد بين الولايات المتحسدة وروسيا؟ ولكن، علينا أن نسأل أنفسنا أيضاً: هل سيُعطَى لنا دور الطرف الثانوي نظراً لما نراه من محور بوش - بوتين؟"

لكن العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة كانت تبدو حيدة وراقيسة إلى هذه الدرجة فقط بالمقارنة مع البرودة الملحوظة التي كانت تشهدها العلاقات بسين أوروبا والولايات المتحدة. حتى تلك اللحظة، كانت العلاقة بين الطرفين علاقسة حليفين في مواجهة عدو مشترك، وليست شراكة مستندة إلى الاعتسراف بقسيم واحدة. وهذا كان يعني بأن حدوث افتراق، وحتى جمود، حديد بسين موسكو وواشنطن كان أمراً وارداً حداً. والسؤال هو ما إذا كانت هذه السيرودة الجديدة ستحدث بسبب اختلاف الرؤى تجاه المصالح القومية للدولتين ضمن استراتيحية واحدة - كما هو حاصل بين أوروبا والولايات المتحدة - أم بسبب الاحتفاظ وجهات نظر متضاربة حول المجتمع والنظام العالمي.

كان هناك شعور عند الأوساط الواقعية في كلا الجانبين بأن قمة أيار التي حصلت عام 2002 - بل نموذج العلاقة التي كانت تجمع بين واشنطن وموسكو نفسها - كانت "شكلاً من أشكال العلاج النفسي أكثر منها شكلاً من العلاقات السياسية المرتكزة إلى القوة"، على حد تعبير تشارلز كراوثامر في الواشنطن بوست في 31 أيار. لكن حلسات العلاج النفسي، في بعض الأحيان، تكون مفيدة وخاصة قبل أن تكتسب السياسة العالمية شكلاً وجوهراً حديدين، والأهم من ذلك، قبل أن تجد المنجاب السياسية أدواراً حديدة لدولها.

في معرض تحليلهما للسياسة الأموكية الجديدة تجاه روسيا، كتب جيمس غولدغير ومايكل ماكفول في مقالة تُشرت في صحيفة كرنست هيستوري في تشرين الأول عام 2002: "قشل سياسة بوش استمراراً لاستراتيحية كلينتون... لكن الاختلاف الهام الوحيد بين مقاربتي بيل كلينتون وجورج بسوش هو أن الأخير لا يعتقد بأن التحوّل الداخلي لروسيا ينبغي أن يسبق اندماجها الخارحي الكامل في الدول الغربية "100، دعا غولدغير وماكفول السياسة الجديسةة "اندماجاً بدون تحوّل" في الحقيقة، إن عدم محاولة [دارة بوش - ظاهرياً علسي الأقل - تعليم المنكفراطية لموسكو يمكن أن يكون تفسيراً حيداً لاندفاع بسوتين في إقامة علاقة شخصية مع بوش. وبالمقابل، فقد كان الرئيس الأموكي، عسر رفضه "الرومانسية" السابقة - محاولة ترويج الديمقراطية في روسيا - ناجحاً قاماً في تحقيق أهدافه الأمنية الأساسية. ولكن، ما يزال السؤال قائساً: إلى أي حدّ كانت هذه العوائد الأمنية قابلة للاستمرار بدون حدوث تحسول أكسير في روسيا؟

على أي حال، بصرف النظر عن التطوّر المستقبلي في العلاقات الروسية الأميركية، ثمة حانب إيجابي لا شك فيه، وهو أن كلا الجانبين اختسرا خسلال العقد السابق تجربة مشتركة من التوقعات غير الواقعية والإحباطات المبالغ فيها أجبر قما هذه المرة على أن يكونا أكثر واقعية من ذي قبل. "في تنافر حاد مسع الفترة السابقة، كان هناك شيء ما من الشعور الفامر بالسعادة. لقد تعرز الإحساس بوحود فرص للنحاح الآن بسبب الإدراك المشترك لفشل الآمال التي وضعت في بداية التسعينيات، وبسبب العلريق الشائك الذي سلكه كل من البلدين لاحقاً خلال ذلك العقد، وبسبب التحديات التي تنظرها"، كما كتب توماس غراهام في كتابه "تدهور روسيا والشفاء غير الأكبد"، واصفاً المراحل الجديدة للعلاقة الروسية الأميركية (ألك التحربة يمكن أن تساعد كلاً من موسكو وواشنطن على تجنب المطبات السابقة الموجودة في الطريدي، وعلى التعامل مع المطبات الجديدة.

ثم تتالت الأحداث بسرعة فاتقد. في 29 أيار من ألعام 2002، وصلت البعشة الأوروبية برئاسة رومانو برودي إلى روسيا حالبة معها إلى بسوتين هديسة طال انتظارها: اعتراف الاتحاد الأوروبي بالوضع القانوبي لاقتصاد السوق الروسي. وقد شخّعت هذه الخطوة واشنطن على اتخاذ قرار مماثل. وكان بوش هو مسن اتصل بيوتين في الكرملين لينقل له الخير السعيد بنفسه. لقد أوجد هذا الاعتراف بروسيا كاقتصاد صوق مناحاً أفضل للتحارة الروسية، حيث كانت روسيا تخسر حوالي 1.5 مليار دولار سنوباً بسبب القيود المفروضة على منتحاقاً في الأسواق اللوليسة. وهكذا أصبحت الشركات الروسية عملك إمكانيات دخول أوسسع إلى الأسسواق الغرية.

لقد ساعد اعتراف الإتحاد الأوروبي والأميركي بالوضع القسانوني لاقتصساد السوق الروسي على تحسين فرص روسيا في الانضمام إلى منظمة التحارة العالميسة، وهو ما كان يريده الكرملين بشدة. وفي هذا الخصوص، قال المدير العام للمنظمة، مايك موور: "أعتقد بأن لدى مسؤولي واشنطن وبروكسل وموسكو ما يكفي من القوة والعزم والإرادة لجعل هذا الدحول ممكناً". وهذا ما دفع بوتين إلى التحسدت عن تشكيل "منطقة اقتصادية واحدة" مع الاتحاد الأوروبي. غير أن السرة الأوروبي على مبادرة الرئيس الروسي كان متحفظاً. لقد وضع الاتحاد الأوروبي عدة شروط: أولاً، أن تجعل روسيا التشريعات الروسية منسحمة مع المعايير الدولية. وثانباً، رفع التعرفات الجمركية على الطاقة لتناسب مع الأسعار العالمية (كانت الأسعار المحلية المنتخفضة بمثابة إعانة سنوية للشركات الروسية، وكانت تُقسلر بخصص ملايسين دولان. وكان يتوجب على روسيا أن تفتح أسواقها أيضاً.

غير أن تحقيق الطلين الأخيرين كان صعباً بالنسبة لموسكو. فقد حلَّر الخبراء الاقتصاديين الروس والغربيين من أن الصناعة اللاتنافسية في روسيا قد لا تتحمَّسل حلوث انفتاح واسع في السوق، ومن أن الهيارها يمكن أن يسؤدي إلى عواقسب احتماعية غير قابلة للسيطرة. حدَّر الخبير الاقتصادي بادما ديسساي في صسحيفة الفاينانشال تايمز في 11 تموز "قد تودي زيادة سرعة التغيير في تحايسة المطساف إلى نتاج عكسية". كان الكرملين أمام معضلة حقيقية: عليه أن يفتح الأسواق بشكل

على أي حال، ما زال هناك عائق كبير أمام العلاقات الروسية الأوروبية: إلها مشكلة كاليننفراد، المدينة الروسية الواقعة على بحر البلطيق، والعاصمة السابقة ليروسيا الشرقية. كانت كاليننفراد ستُقتطّع من روسيا عن طريق الدخول الوشيك لبولندا وليتوانيا في الاتحاد الأوروبي، وتُحوَّل إلى منطقة روسية "معزولة" عن الوطن كاليننفراد وروسيا، لكن الاتحاد الأوروبي لم يكن مستعداً لتغير قواعد معاهدة كاليننفراد وروسيا، لكن الاتحاد الأوروبي لم يكن مستعداً لتغير قواعد معاهدة الشيخود وروسيا، لكن الاتحاد الأوروبي لم يكن مستعداً لتغير قواعد معاهدة الاتحاد الأوروبي – خوفاً من المهاجرين الروس غير الشرعيين إلى ليتوانيا، ومنها إلى التحاد الأوروبية في العلاقات بينهما، إلا أن الكرملين لم يكن بوسعه تعريض سياسته الأوروبيد في العلاقات بينهما، إلا أن الكرملين لم يكن بوسعه تعريض سياسته الأوروبيد حول مسألة كالينغراد.

والتطور الثاني حدث في 28 أيار، عندما انعقدت أول قمة للناتو بمشاركة روسيا في الثكنات العسكرية خارج روما، حيث شكّل بحلس روسيا والناتو. في تلك القمة، حلس بوتين بين رئيسي إسبانيا والبرتغال، حسب الترتيب الأبحدي. قال الأمين العام للناتو، اللورد حسورج روبرتسون، في ملاحظات الأولية في الاحتماع الاقتاحي للمحلس: "لقد اجتمع قادة عشرين من أكثر الدول قسوة في العالم، ليس لتقسيم العالم، بل لتوحيده". وبوتين بدوره كان إيجابياً، حيث قال: "لقد قطعنا شوطاً كبيراً من المواجهة إلى الخوار، من المواجهة إلى النعاون". لكن بوتين أوضح، في الوقت نفسه، بأن تعاون روسيا لا يمثّل دعماً غير مشسروط لأي عمل عسكري قد يقوم به الناتو.

وفّر المحلس الجديد فرصاً للتشاور بين روسيا والناتو، والاشــــتراك في صــــنع القرار، وحتى العمل العـــكري المشترك. وتتضمن قائمة القضايا الموضوعة للتعاون تقييم النهديد الإرهابي، والحدّ من الأسلحة، وعلم تكاثرها، والدفاع الصاروعي الميداني، والتعاون العسكري-العسكري، والظروف المدنية الطارئة. لم تحصل روسيا على حقّ الفيتو على عمليات الناتو العسكرية. كما أن مسؤوليتها ضمن المحلس كانت غير عددة بدقة. لكن المجلس، على أي حال، كان يمثّل خطوة إلى الأسام بالنسبة للاتفاق السابق ("المجلس المشترك الدائم"، حيث كان دور روسيا فيه أصغر بكثير). كان بإمكان المجلس أن يعبح منطلقاً للحوار بين العدوين السابقين، لكن الأمر كان يعتمد على الإرادة السياسية لكلا الطرفين. كان الناتو وروسيا يحاولان للمرة الثانية تأسيس شراكة بينهما، لذا فإن أي إخفاق حديد قد يطرح السوال النالي: إلى أي حدّ كان الإحفاق نائماً عن عدّ الانسحام البنيوي بين الناتو وروسيا؟

ثم جاء اجتماع مجموعة الثماني في كاناناسكيس، في كندا. في هذا الاجتماع، كان بوتين واثقاً من نفسه تماماً. كان يشعر بأنه ندّ حقيقي. هذه المسرة، كانست روسيا تحتل موقعاً امامياً، ولم تأت لتطلب مساعدة من أحد. ورداً على إبداء رغبة الكرملين بأن تصبح روسيا عضواً في المجتمع الغربي، قرّرت المجموعة أن تجعل روسيا عضواً كامل الأهلية، بالرغم من أن الاقتصاد الروسي لم يكن يضمن هذه المكاند. كان الأمر مجرد تعبير عن تقدير المجموعة لسياسة بوتين المتمثلة بالتوجّه نحو الغرب. وإضافة إلى ذلك، وعدت الدول المساعية موسكو بتقليم 20 مليار دولار من أجل حماية وتفكيك أسلحة الدمار الشامل الروسية؛ وهذه المساعدة كانت تتعلق بتنفيذ روسيا لإلتزامها بعدم زيادة أسلحتها النووية. وتأكيداً من المجموعة على السدور المديد لروسيا، أثفق قادقا على استلام روسيا رئاسة المجموعة واستضافة قمتسها السنوية في العام 2006.

بوش وتشكيل مجلس روسيا والناتو - إلى المدين لطمأنة بكين بأن تحوّل روسيا إلى الغرب لم يكن موحها ضد العدين. في الحقيقة، كانت لروسيا مصلحة مادية - إضافة إلى الاعتبارات الأمنية - في امتلاك علاقات جيدة مع العدين. ففسي العقد الماضي وحده، بلغ حجم التعامل التحاري مع العدين 10 مليار دولار. اشترت العين علاله من روسيا طائرات حديثة إضافة إلى المحسّع العساروحي 2000-S الشهير. وفي العام 2001 ازداد حجم التبادل التحاري بين البلدين بمقدار مليار دولار. من هنا كان اهتمام موسكو بالحوار مع العين.

كل هذه الخطوات أظهرت بوضوح "مبناً بوتين" في السياسة الخارجية، والذي يتألف بشكل حوهري من الانفتاح نحو الغرب، وإعطاء الأولوية للمصالح الاقتصادية في السياسة الخارجية، وتطبيع العلاقات بين موسكو وجيرالها، وخاصة الحلفاء السابقين للاتحاد السوفيائي. إن تعلّد الاتجاهات في مقاربة بسوتين تختلف اختلافاً كبيراً عن تعدّد القطبية في مقاربة بريماكوف، حيث أظهر بوتين أن الغرب يحتل المرتبة العليا في حدول أولوياته.

لكن هذه الأمور ما هي إلا الطبيعة العامة للمبدأ. كانست سياسسة بسوتين المخارجية ما تزال غير محددة بشكل كاف وهشة أيضاً. والخطير في الأمر هسو أن بحموعة هامة من النحبة الروسية استمرت في مقاومتها لتوجهات الرئيس الغربسة، مثل وزير الشؤون الخارجية ووزير اللفاع اللذين كانا ما يزالان مناصرين عنيسدين للسياسة المحافظة. كما أن التحديد المستمر للفسوارق بسين هساتين المؤسستين والموسسات الأخرى التي تلعب دوراً في السياسة الخارجية - إضافة إلى افتقارها لوجود مناطق واضحة لمسؤولياقا - لم يجعل مهمة تنفيذ المبدأ الخسارجي الجديسد للكرملين أكثر سهولة. كان ما يزال غير واضح من كان المسؤول عن اتخاذ قرارات

معينة في السياسة الخارجية، وكم كانت هذه القرارات تحظى بالدعم السياسسي، وكيف يمكن للرئيس أن يضمن عدم إلغائها. وفي نفس الإطار، تسايل المراقبسون الغربيون: إذا كانت الطبقة السياسية الروسية غير متأكدة أساساً من ضرورة التوحّه القاطع نحو الغرب، فهل يمكن أن يتحوّل عليفة بوتين إلى الاتجاه المماكس؟ وقلقهم كان له ما يوره في الواقع.

إن تحويل مبدأ بوتين إلى واقع ملموس كان يتطلّب فهمساً للسدور الجديسد لروسيا، وتحديد هوية جديدة لها في العالم من قبل النحبة والمجتمع ككل. كانست هنالك حاجة ماسة لفلسفة جديدة في السياسة الخارجية، وحاجة أكسير الأنساس أكفاء جدد من أجل تنفيذها. "إن العلاقات بين روسيا والغرب لم تكن أفضل بمساهي عليه الآن إلا في حالات نادرة، ولكن، ماذا يعني ذلك من الناحيسة العملية؟ وهل يمكنها أن تدوم؟" تساءلت صحيفة إيكونوميست في 16 أبار عسام 2002، ثم أحابت بنفسها، "إن الخطر الحقيقي لا يكمن في انقلاب مسيرة روسسيا بانجساه الغرب، بل في تعثرها لانعدام الأفكار والأشخاص".

ق تلك الأثناء، لم يقم الكرملين بأية عاولات لإثبات صحة سياسته لمحتمعه.
و لم تكن المشكلة في ضعف الحملات الدعائية، بل في قلة الديمقراطية. بدا الكرملين
و كأنه يقول إلى الشعب: "إننا منعتمد أية سياسة نعتبرها ضرورية. وليس لدينا أي
نية لشرح أهدافنا لكم"

لم يكن محزناً فقط، بل مدتراً أيضاً، أن تقوم روسيا بتوجّهها الجديد نحسو الغرب بنفس الطريقة اللاديمقراطية السابقة؛ أي دون أي اهتمام بسالجتمع، ودون بذل أي محاولة للتفسير. يهدو أن السلطات لم تكن تعتقد بأن الشسعب سسيفهم أسباب السياسة الجديدة. إن غياب الحوار البنّاء بين النظام والأمة حول القضايا الحارجية أوحد مكاناً لمنتقدي السياسة الجديدة في الطبقة الحاكمة. وإلى أن يحسل مبدأ بوتين على دعم الشعب، فلن يكون بالإمكان اعتباره بمثابة التوجهات النهائية للكرملين في السياسة الخارجية.

بالمقارنة مع السياسة الخارجية والتطورات الدولية الجديدة، فإن السطحية التي ثميّزت بها السياسة الداخلية لروسيا كانت مثيرة للعجب. كانت الأحداث الكبرى قد وصلت إلى نمايتها، ولم تعد هنالك مواجهات مفتوحة، ولا أحداث سياسسية مثيرة. صحيح أن الصراع ظلَّ مستمراً، لكنه اقتصر على شدَّ الحبــل بسين بضسع محموعات وفتات ذات مصالح.

غة حدث وحيد هزّ الحياة السياسية الروسية في منتصف العام 2002، إنسه الظهور الجديد لبوريس يلتسين. فقد بدأ يلتسين بإيداء مؤشرات تدلّ على أنه كان ما يزال موجوداً، حيث اجتمع مع بعض السياسيين، ونقل تعليقاته مسن خسلال وسطاء. في عبد الاستقلال الروسي، الذي يصادف في 12 حزيران، ظهر يلتسين على الهواء مباشرة، في مقابلة مطوّلة مع التلفزيون الروسي. وما أثار الاستغراب في تلك المقابلة هو أنه بدا حيوياً، وأكثر قوة من الناحية الجسسدية، وأكتسر نحافة، وحاضر الذهن. اعترف القيصر بوريس بأنه على من همس نوبات قلبية خسلال وحاضر الذهن. اعترف القيصر بوريس بأنه على من همس نوبات قلبية خسلال والمستد، "نعم، همسة"، قال مؤكداً مع نظرة ماكرة. "ولكني ما أزال نشيطاً، ذهنياً وحسدياً وعاطفياً". وقال يلتسين أيضاً بأنه فقد 20 كليوغراماً في الأشهر الأحيرة. ولم يفقد وزنه وحسب، بل فقد عشر سنوات من عمره أيضاً (عمني استعادها). كما ذكر بأنه بدأ بدراسة اللفة الإنكليزية. "للمحافظة على نشاط العقسل"، قساراً.

بعد ذلك، توجّه يلتسين إلى مينسك للاستحمام، لم يتوقّف في رحلت عن إعطاء المقابلات للصحفيين والإدلاء بتعليقاته على الحياة السياسية الروسية. "أنا أتقابل يومياً مع الوزراء، ورئيس الحكومة كاسيانوف، وبوتين – طوال الوقست. وكاني ألعب دور ضامن الاستقرار"، قال يلتسين بنظرة نصف مغمضة. لقد انتب الجميع إلى أنه لم يذكر بوتين إلا عرضاً. والأنكى من ذلك أنه انتقده بصراحة، رغم امتداحه له منذ وقت قريب، وحتى في مذكراته. وهكذا، بدأ الروس بإطلاق النكات: كان ضامن الاستقرار، كما دعا نفسه، يحاول إعطاء محاضرة لفسامن الدستور، أي بوتين. وكان يلتسين أيضاً يروّج لكاسيانوف صراحة كمرشسع رئاسي محتمل، وذلك كان تحدياً واضحاً لبوتين. باختصار، كانت عودة يلتسين

مُمَّل شبعًا واحداً، وهو أن عائلته السياسية لم تكن تنوي الاستمسلام. وبإظهـــار أسلحتها الثقيلة – الجدّ نفــه – قررت العائلة إثبات ألها ما تزال تملك نفوذاً.

كان ردَّ بوتين على عرَّابه وسلّقه مختصراً ولكن قاسياً. ففي مسوعم صحفي عقده في 24 حزيران، كان يُفترَض بأنه مخصص لتقدم إيجاز عن سنتيه المنصرمتين كرئيس، صرَّح بوتين: "يلتسين شخص حرَّ يمكنه التحرك كما يشاء، ويلتقي عمسن يشاء، ويعبِّر عن رأيه. ونحن نحترم رأيه. ولكن، لديّ رأي أنا أيضاً، وسأقوم بمسا أعتقد أنه الأفضل لروسيا، الآن وفي المستقبل" كانت كلمات بوتين تعسين، "لسن يفزعن أحد، ولم أعد بحاجة إلى مستشارين ومرشدين".

لقد كشف هذا الحوار العلي بأن العلاقة بين القيصر بوريس و حليفت لم تكن على خير ما يرام. كان بوتين يخرج بشكل تدريجي من ظلّ حاشية يلتسين، ومن الطبيعي أن ذلك لم يعجب الفريسق الحساكم القسمي. كسان فلاديمسو فلاديمسوفيتش ينحرف عن خط يلتسين في بعض القضايا السياسية الرئيسة، فقد ذهب بوتين أبعد من يلتسين في توجّهه نحو الفرب، وبدأ بمراحمة نحسوذج العلاقات التي أرساها يلتسين مع الجمهوريات السوفياتية السابقة، رافضاً الأسلوب الرعوي السابق. وفي نفس الوقت، رفض موقف يلتسين من الصحافة والحريات. لكن ما يهم جماعة يلتسين أكثر هو شيء آخر، وهو شروع بوتين المباء نظامه السياسي الخاص، الأمر الذي يعني أنه لم يعد هنساك عرابسون وأن العرفان بالجميل للسلف قد انتهى. بدا الأمر وكأن بوتين أصبح مستعداً لقطع كل الحبال التي كانت تربطه مع يلتسين.

غير أن المثير للاستغراب في الأمر هو أن سيد الكرملين الجديد، بالرغم مسن وقوفه على عتبة حرب كلامية علنية مع الرحل الذي أعطاه السلطة، كان ما يزال مرغماً على تحمّل عدد من الموظفين المعينين وأعضاء من حاشية يلتسين. من الناحية الظاهرية، كان الأمر يبدو عصباً على الفهم وغير منطقي تماماً، لكن النفسير كسان في غاية البساطة: كان الأشخاص الذين حلبهم معه من سان بطرسبورغ ضعفاء بشكل واضح. وهو لم يتمكّن من تكوين فريق جديد محلال السنتين المنصرمتين من عمر إدارته.

حتى الآن، كان بوتين يفضّل عدم إحراق أية حسور، متحنباً السدخول في صراع مع القوى السياسية القوية والعائلة الحاكمة القديمسة. لم يكسن بسوتين بالمصارع السياسي المفتوح وحتى الجدال الكلامي. ولكن، هل كان مقاتلاً هل كان مستعداً للقتال من أحسل سلطته ومبادئه؟ وما هي مبادؤه؟ لن نعرف الأجوبة على هذه الأسسئلة إلا إذا واجسه لهديداً حقيقياً. والنظام الجديد لم يواجه حتى الآن مثل هسذا التهديسد. لعسل النسزاع مع يلتسين كان خطوة أخرى بالنسبة لبوتين باتجساه تحقيس قيسادة مستقلة، واختباراً لقدرته على الثبات على مواقفه. لكن هذا النسزاع لا يُنبسئ كيف سيتصرف في اللحظات الحاسمة.



باستثناء تنقية الأجواء بين الزعيمين الجديد والقديم لروسيا، وباستثناء النسوتر بين عدة جماعات متنفذة من ضمن حاشية بوتين، كان صيف العام 2002 هادئساً عماماً. حاولت روسيا الحصول على فترة من الاستراحة بعيداً عن السياسة. وإلى مئ يمكنك العيش في دولة لا تتوقّف فيها النسزاعات والصراعات؟ فهذا البلد يعيش في توتر منذ بيريسترويكا غورباتشوف، أي منذ منتصف الثمانينيات. وطوال السنوات السبع عشرة الماضية، بحث الروس عن أحوبة لأسئلة مصيرية: إلى أيسن ستمضي روسيا؟ كيف ينبغي عليها أن تحدّد هويتها؟ أي نظام يجب بناؤه؟

في العام 2002، انخفض النقاش حتى كاد أن يتوقف، ليس لأن كسل شسيء أصبح واضحاً، بل لأن الخمول واللامبالاة أصابا البلد برمته؛ فلقد ذهبت الرغبة في تحقيق الغاية الأسمى وتحديد أهداف الحياة. ونظام بوتين، بإيديولوجيته البراغماتية تركيزه على النفاصيل - لم يهتم بالمشكلات الاستراتيحية لروسيا وبالبحث المستمر عن روحها. إن السياسة البراغماتية نفسها بسدت وكألهسا كانست تسرفض أي استراتيحية بعيدة المدى.

كان صيف العام 2002 عصصاً فقط للحياة الخاصة. فـــالحرارة العاليـــة الأسوأ منذ سنوات - أضعفت البلد وأصابت المدن الكبيرة، وخاصـــة موســـكو،

بالشلل، مبطئة من حركة المرور والبشر على حدَّ سواء. غادر بوتين موسكو وانتقل إلى نظام عمل صيفي، حيث أقام في مقره في سوتشي، بجانسب البحسر. والتقى هناك بمستشاريه ومعاونيه واستقبل الضيوف الدوليين، مثل الرئيس الفرنسي حاك شيراك. بدون بوتين في موسكو، لا توجد حياة سياسية، لأن الرئيس وحسده هو الحدث السياسي الأبرز.

مع ذلك، ففياب الحركة السياسية والافتقار إلى أجندة واضحة كان مسثيراً للقلق، لأن فترات الهدوء في روسيا كانت دائماً تتبعها موجة جديدة من المكائسة السياسية وسلسلة من الاضطرابات الأخرى، ولأن الهدوء الظاهري كان يخفى غموض المستقبل، ولأن هذا كان آخر صيف هادئ قبال الانتخابات القادمة والصراعات الجديدة، وأخيراً، لأن الهدوء السياسي في روسيا يمكن أن يكون دائماً هدوءً وهياً.

سرعان ما أثبتت الأحداث - مع ألما لم تكن تتعلّق بالسياسة على الإطلاق - بأن روسيا لا يمكن اعتبارها حتى ذلك الحين بلداً هادئاً ومتوازناً. أولاً، غُسرت الأقاليم الجنوبية بالفيضانات، التي حرفت معها عشرات البلدات بكل ما للكلمة من معنى، وقتلت العشرات من الأشخاص وأوقعت خسائر مالية باهظة. ولكسن، في حين أن الفيضانات المماثلة التي حدثت في أوروبا احتلست العسفحات الأولى في صحف العالم وحلبت الدعم للضحايا، نجد أن الكارثة الروسية لم تكن تُسذكر إلا في المواجيز الإخبارية اليومية. في الحقيقة، لقد اعتاد المختمع الروسي على الكوارث إلى درجة أنه بدا محصناً منها فلم يعد يبدي أية ردّة فعل عليها. لكسن المفارقة في الأمر هي أن التلفزيون الروسي قام بتغطية شوارع ألمانيا المفمورة بالمياء أكثر مسن تغطيته لمعاناة مواطنيه باللهات، الذين تُركوا دون أي ملحاً.

ثم جاء شهر آب، الذي تعلم الروس أن يخشوه كيراً. فالعديد من الحسوادث الكارثية في العقد المنصرم وقعت في آب: الانقلاب العسكري الذي حصل في العام 1991 تفحير المباني السكنية وغزو الانفصالين لداغستان في العسام 1999 السذي أشعل فتيل الحرب الشيشانية الثانية؛ كارثة الغواصة "كورسك" في العسام 2000. ومرة أحرى، حلب شهر آب معه كوارث جديدة، ففي التاسع عشر منه، تحطّمت

مروحية عسكرية في الشيشان وعلى متنها 140 راكباً. وفي اليوم التالي، انفحر مبنى سكنياً في موسكو راح ضحيته عدة أشخاص، وخلَّف عشرات الجرحي.

وفي الأيام القليلة التالية، وقع المزيد من تحطّم المروحيات والطائرات تلاها انفحار مبني سكني آخر، وكألها حاءت كي تعزّز من شعور الروس بالتشاؤم مسن هذا الشهر. لم يعد الروس يصدقون الأسباب التكنولوجية والحوادث غير المقصودة، إذ كانوا يرون موامرة أو قصداً إجرامياً وراء كل كارثة. ولكن، حسي الأعطاء الكارثية، والإنتفاقات التكنولوجية، والمصير الأسود، والمصادفة المأساوية كانست دليلاً على مدى هشاشة الاستقرار الروسي ومدى قلة الحماية التي يعساني منسها الشعب الروسي. لأن سلطة بوتين، مثل سلطة يلتسين، لم يكن باستطاعتها أبساً إيقاف التدفق المستمر للكوارث التي كانت ناتجة – جزئياً – عن الهيار الإمبراطورية السوفياتية، والتدهور المستمر لحالة البني التحتية البالية، أما السبب الأهم فهو يعود إلى فوضى النظام الجديد وعحزه، والبيروقراطية اللامسؤولة(12).

- **9**-

أما خريف العام 2002، فقد حلب معه مؤشرات تدلّ على أن النـــزاعات الحفية، والصراعات التي لم تُحَل بعد – رغم الهدوء السياسي وغياب التهديــدات السياسية الواضحة لاستقرار روسيا – يمكن أن تشكلا تحديًا للكرملين. لقد أظهــر التاريخ الروسي لفترة ما بعد الشيوعية بأن تحوّلها ما زال يحمل في طباتــه بضــعة تقلبات غير متوقعة. واستمر تقلّب الآراء الكثيرة حول ما كان يحدث، بينما تابعت المواقف السياسية في روسيا تطورها.

في مبدان السياسة الخارجية، تبين أن المشككين كانوا عقين عندما تحوالت قصة الفرام الطويلة لموسكو مع الغرب إلى جليد. فقد بدأ انتقاد المحتمسع الأوروبي المتواصل للحرب في الشيشان بإغاظة موسكو من جديد. وبعد ذلك بفترة قصسيرة دخلت روسيا في صدام حاد مع الداغارك، بعد أن رفضت كوبنهاغن تسليم أحمد زاكاييف – أحد رفاق الرئيس الشيشاني أصلان ماسخادوف – في تشسرين الأول من العام 2002، وغضبت من المملكة المتحدة لفعلها الشيء ذاته.

وألقت المحادثات العاطفية حول جعل كاليننغراد منطقة معفية من تأشهرات الدخول بظلالها على العلاقات الدافئة مع الاتحاد الأوروبي. لكن الاتحساد، بعسد نسزاع طال أمده مع روسيا، عرض في لهاية المطاف تدابير انتقال خاصة لسمكان كالبنغراد؛ "وثيقة مرور كالبنغراد"، وهي وثيقة مرور مبسَّطة بمكن استصدارها بحاناً أو مقابل مبلغ زهيد من قبل قنصلي ليتوانيا وبولندة عندما تنضم الدولتان إلى الاتحاد. كما وعدت بروكسل بالنظر ف إمكانية فتح قطارات سريعة، لا تتوقسف، بين كاليننغراد وروسيا. وهذا وضع لهاية للنسزاع، لكنه أثبت بأن الاتحاد لم يكن مستعداً لتسوية كل مطالب روسيا. وبذلك، توجّب على موسكو أن تحاول صياغة سياسة أوروبية تتحنّب حدوث نــزاعات في المستقبل يمكن أن تتسبب بما رغبتها في الحصول على معاملة خاصة من الاتحاد.

إن العلاقات الروسية الأميركية بدورها أصابها التوتر. فقد أثار الكرملين غضب القادة الأمر كين باستثنافه المفاوضات التحارية مع بغداد، والإعلان عن نيته توسيع مساعدته النووية لإيران. كما اتَّخذ بوتين قراراً بدفع مشروع يهدف لوصل الخط الحديدي الذي يعبر سيبريا مع الخطوط الحديدية لكوريا الشمالية. وإضافة إلى ذلك، وقَع رئيس الوزراء كاسيانوف، حلال زيارته الخريفية إلى بكين، اتفاقات حديدة لبع الأسلحة إلى الصين بقيمة مليارات اللولارات. ولم تبع روسيا الصين فقط طائرات مقاتلة نفاثة من طراز سوخوي وغواصات من طراز "كيلو"، بــل ساعلها على بناء معمل لتصنيع المروحيات، وسلَّمتها مجموعة من التقنيات النووية كذلك.

لم تستطع الولايات المتحدة إخفاء قلقها مما كان يجري. "لم تكتف روسيا موخراً باستتناف عادمًا في التحاور مع النول المارقة في العالم، بل إنحال في الواقسم تقوم بتعزيز علاقاتها مع بعض هذه الدول"، كتبت صحيفة نيوزويك ف 2 أيلـول، متّهمة موسكو بتأليف "محور الصداقة" الخاص بما مع إيسران والعسراق وكوريسا الشمالية. ودافع الروس عن ذلك بقولهم إلهم لم يحصلوا إلا على القليل من توجّههم نحو الغرب، وألهم كانوا ببساطة يسعون وراء مصالحهم الاقتصادية؛ كما تفعل الولايات المتحدة. وفي أيلول أيضاً ازداد التوتر حلة بين روسيا وجورجيا، وكأن ذلك حاء ليضيف المزيد من الوقود إلى الجو الملتهب أصلاً. الهم بوتين الزيد من الوقود إلى الجو الملتهب أصلاً. الهم بوتين الزعيم الجورجي إدوارد شيفرنادزه بافتقاده إلى الإرادة السياسية لاستعمال المتمردين الشيشان من منطقة بانكيسي حورج في حورجيا. وفي 11 أيلول، الذكرى السنوية الثانية للهحمات الإرهابية على الولايات المتحدة، وحَّه بوتين إنذاراً أخيراً إلى تبليسي، "إننا نستعد للهجوم على القواعد الإرهابية الشيشانية الموجودة على أراضيكم صواء أعجبكم ذلك أم لم يعجبكم". وفي معرض تبريره لموقفه هذا، اقتبس بوتين عن بوش كلماته حول الحاحة الشرعية "لإحراءات وقائية" ضد الدول التي تحتضن الإرهابيين. وقسد أعلنت الولايات المتحدة والمجلس الأوروبي صراحة رفضهما لرغبة روسيا القيام بمذا العدواني. وهكذا، للمرة الأولى خلال شهر عسلهما، بدا أن الغرب وروسيا كانا في طريقهما إلى الصدام.

وهذه ليست نحاية القصة على أي حال. فغي أواخر أيلول، فرضت واشنطن عقوبات اقتصادية على ثلاث شركات روسية لبيعها - كما تـزعم - معـدات عسكرية إلى دول تعتقد بأنحا ترعى الإرهاب. توقّع الخبراء حصول شرخ حديد بين روسيا والغرب، إضافة إلى عودة موسكو إلى عدائها القرمي الطابع لأموكا. غـير أن هذا التحليل كان متسرعاً ولا أساس واقعي له، إذ إن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً من ذلك بكثير. لم يكن بوتين، في واقع الأمر، يريد حدوث أي تصدّع لعلاقته مع الغرب، وكان واضحاً أنه ما يزال يعتبر علاقة موسكو مع واشنطن أولوية عليا، الغرب، وكان واضحاً أنه ما يزال يعتبر علاقة موسكو مع واشنطن أولوية عليا، واحبهت حركته المناصرة للغرب ليس فقط عقبات سياسية ظرفية، يـل معساعب حوهرية. أضف إلى ذلك أن بعض الأحداث العالمية لم تساعد روسيا على تعزيرة توحيها نحو الغرب.

أصبحت المخططات الأميركية المتعلقة بالعمليات العسكرية، وتغيير النظام في العراق في غاية العام 2002 اختباراً جديداً للتحالف الأميركي الروسسي الجديد. للمرة الأولى منذ 11 أيلول 2001، اختلفت أحندات السياسة الخارجية والمصسالح الاقتصادية للولايات المتحدة وروسيا بشكل واضح. كان الكرملين يخشى مسن أن

تودي الحرب في العراق إلى زعزعة الوضع المتقلّب سلفاً في المنطقة القريسة مسن الحدود الروسية. في الحقيقة، استناداً إلى القصة التي لم تنته في أفغانسسنان، يمكنسا اعتباره قلقاً ميراً. كما أن المؤسسة السياسية الروسية ورجال الأعصال الأثريساء كان لديهم ما ينغمهم للقلق أكثر من ذلك، وهو ألا ينفع النظام اللاحق ما يسدين به العراق إلى روسيا (8 مليار دولار)، وأن تعرّض الحرب الاستثمارات الروسية في المبلغ إلى الخطر، من بينها عقود بمليارات الدولارات. وإضافة إلى ذلسك، كانست موسكو تخشى من أن يعمل النفط العراقي المستقبلي على تخفيض أسسعار السنفط العالمية، ونحن نعرف بأن العوائد النفطية كانت ما تزال المصدر الأساسي للتنميسة الاقصادية الروسية.

في البداية، لم تؤيّد روسيا (ومعها العين وفرنسا) القسرار الأميركسي الأولي بالاستخدام التلقائي للقوة ضد العراق، وعارضت العمليات العسكرية ضد مسدام حسين. وهناك دول أوروبية أخرى أعربت عن قلقها البالغ من السياسة الأمريكية تجاه العراق. وهذا الاختلاف الأوروبي مع واشنطن سمح لروسيا بالتعبر عن استيائها مسن السياسة الأميركية بشدة أكبر. صحيح أن الرئيس بوتين قال، بطريقت المتحفظة للمتادة، بأنه لن يحول للفاوضات إلى "بازار شرقي" - كان ما يسزال غسير راغسب بالدخول في مفاوضات قاسية مع واشنطن - إلا أن المؤسسة السياسية الروسية كانت عاول الحصول على ضمانات من الولايات المتحدة بأن قستم بالمسالح الاقتصادية الروسية، مقابل عدم عرفلة السياسة الأميركية. وفي حالة العسراق، كانست المصالح الاقتصادية لروسيا أكثر أهمية بالنسبة لها من تعلقائها الجيوسياسية.

في نحاية المطاف، ساندت موسكو - رغم "بعض مشاعر القلت" - قراراً جديداً حول العراق يطالب بغداد بالتصريح عن كل أسلحة الدمار الشسامل السيق المتلكها، والسماح بالتفتيش على الأسلحة. هذه المرة، توقّفت روسيا عن عاولة إنقاذ نظام صدام واختارت أن تقف إلى جانب المجتمع الغربي، وفي الوقت نفسه حاولت الاستفادة من الاختلافات بين الحلفاء الغربيين.

 أن حدوث صراعات مصالح جديدة بين روسيا والولايات المتحدة أمر ممكن، وأن هذه الصراعات يمكن أن تصبح شديدة إذا ما أخفقت موسكو في حـــل المشــــاكل البنوية للتنمية الاقتصادية في روسيا.

على ما يبدو، كانت روسيا تعاني من مشاكل في التوفيق بين مصالحها الاقتصادية والتوجّه الجديد لسياستها الخارجية. كان ما يزال على روسيا أن تفعسل فيمسا بسين الاجتلافات التي يمكن المغاع عنها وتلك التي لا يمكن المغاع عنها مع القوى الغريسة، كانت النسيزاعات حول السياسة. فالمعايير كانت غير عددة. فيما بين القوى الغربية، كانت النسيزاعات الثانوية طبيعية ولم تتسبّب يوماً بإحداث فحوات خطيرة ضمن المختمع الغربي. أما مسع الدوافع والمصالح المالية القصيرة المدى كان على العلقة السياسية الروسية أن تفهم بأن المعوافع والمصالح المالية القصيرة المدى في بعض الأحيان تحجب عن النظر المخصاطر السياسية البعيدة المدى. على سبيل المثال، إن بيع كميات كيرة من الأسلحة والتغيسة الروسية ويُنتج أوضاعاً لن تقدر موسكو على معالجتها. هذا دون أن نذكر أن إقامة علاقات دافقة مع هذه المدول يمكن أن يهلد الشراكة مع الخفرب. ولكسن، ينخسي أن نكر حجة محتلفة أيضاً: إن الحفاظ على حالة الصفاقة مع الحلفاء التقليدين يمكسن أن نفر حجة عتلفة أيضاً: إن الحفاظ على حالة الصفاقة مع الحلفاء التقليدين يمكسن أن نفر وسيا على أن تصبح ذات يوم وسيطاً يمكن أن يساعد مؤلاء المرتسة عطاً فاصلاً ما الانضمام إلى الأمم المتحضرة، ولكن السؤال هو، كيف يمكن أن نرسم خطاً فاصلاً ما ين المراضاتية والإتصاق بالماضي؟

إن الفرق الواضع بين سياسة عارجية غربية التوجّه، ونظام غسير ديمقراطسي على رأس السلطة في روسيا كان قد بدأ يكتسب أهمية متزايسدة. كسان بسوتين، المعتمد على دعم الأوساط المحافظة التي كانت تشكل قاعدة نظامه، يدرك بأنسه لا يستطيع تحمّل تبعات تجاهل مصالحها بالكامل. ولهذا السبب، حمل بسوتين بشسدة على حورجيا في خريف العام 2002 في عاولة لاسترضاء الجيش والمجتمع الأمسين. ولكن المفارقة في الأمر هي أن صقور الكرملين اقتبسوا ببراعة عن بوش استراتيجيته "الوقائية" لتبرير الهجوم العسكري على حورجيا. على أي حال، إن الحجمة السي تقول بأنه إذا كان الأميركيون يستطيعون مهاجمة الإرهابيين المزعومين في العسراق،

فيإمكان روسيا فعل الأمر ذاته في حورجيا، أصبحت شعبية حتى بــين صـــفوف الليمراليين الروس.

كان بوتين يواجه معضلة لا مفر منها: إما أن يتراجع عن وجهتمه الغربيمة ويعزّز الطبيعة الاستبدادية في حكمه، أو أن يعزّز من زخم التوجّه الغربي، الأمسر الذي سيتطلب تبنّي المزيد من القواعد الديمقراطية للّعبة في الوطن، والذي سيثير إعجاب وتقدير جمهور مختلف مماماً وديمقراطي أيضاً. لا يمكن لروسيا أن تبقى إلى الأبد حالسة منفرجة الساقين على حصانين ينطلقان في اتجاهين متعاكسين. فعسن طريق العمل على مبدأين متعارضين، لن تتمكن روسيا أبداً من أن تكون عضواً حقيقياً في المجموعة الأوروبية، وهذه غاية بوتين القصوى. وفي ذلك الوضع، كلل سياسة مناوئة تتبناها روسيا ضد الغرب قد تُعتبر علماً أحمر، يمناية تحذير من وجود مشاع حقية معادية للغرب عند صنّاع القرار في روسيا.



في تلك الأثناء، كانت روسيا في طريقها نحو الانتخابات البرلمانية والرئاسية. وذلك كان يعني بأن العطلة السياسية كانت على وشك الانتهاء، وأن الشعب قـــد شرع بالتفكير في نجاحات وإخفاقات فترة بوتين الرئاسية الأولى وفي ما هـــو آت. إذاً، ثمة فترة جديدة من الحركة والصراع السياسي بانتظار البلد.

أولئك الذين كانوا يحاولون مسبقاً أحد لقطات عمّا كان يجري في رئاسة بوتين حصلوا على صورة مشوشة ومتناقضة، فيها من الصراعات والظلال النصفية ما لا يقل عن تلك التي حفلت بما رئاسة يلتسين. فإذا بفلادتمير بوتين الواضيح، المنظم، والمنطقي، كما كان يبدو، يصبح أسيراً للحماعات ذات المصالح، وإرث يلتين، وتاريخ روسيا، والروتين اليومي، وأفكاره المسبقة وعناوفه الخاصة. خلال السنين المنصرمتين من عمر إدارته حاول بوتين حاهداً إيقاف تقلم التسدهور في روسيا. ولهد نجح في تحقيق قدر كبير من الاستقرار، حيث بدأت الدولية باداء وظيفتها، وأصبحت الطبقة البيروقراطية تعمل – وإن بحماس قليل – وبدأ النساس يتغلبون على عجزهم.

غير أن بوتين فشل في عدة أشياء أيضاً. وكانت المشكلة الشيشانية هي الأكثر مأساوية بالنسبة لروسيا ورئيسها. صحيح أن الوضع كان يبدو وكأنه قد بدأ يتحه نحو الاستقرار، مع انتهاء العمليات العسكرية الواسعة النطاق، وتشكيل إدارة مسن الشيشانيين الموالين للكرملين برئاسة أحمد قاديروف، وتدفّق الأموال إلى المنطقة، والشروع في إعادة البناء، إلا أن حرب المصابات كانت مسا تسزال مستمرة في الشيشان، وعدد الإصابات من كلا الطرفين كان ما يزال في تصاعد.

أعلن وزير الداخلية أناتولي كوليكوف، الذي يعرف الوضع حيداً، بأن روسيا خسرت، خلال حربي الشيشان الأولى والثانية، من الرحال بمقدار ما خسسرته في حرب أفغانستان (1979-1989)، أي 15.000 حندي. وفقاً للمصادر الرسمية في موسكو، قُتل في الحرب الشيشانية الثانية – مسن العسام 1999 إلى آب 2002 – 4.249 روسياً، وحُرح 12.285 (وبلغ عدد الانفصاليين الذين قُتلوا، وفقاً لبيانسات الحيش، 13.000). بيد أن ناشطي حقوق الإنسان يقولون بأن الخسائر من الجانب الروسي كانت أفدح بكثير. "إن عدد القتلى من الجيش ينبغي أن يُضاعف مرتين أو الروسي كانت أفدح بكثير. "إن عدد القتلى من الجيش ينبغي أن يُضاعف مرتين أو شارع أو أربع"، وفقاً لمثل "لجنة أمهات الجنود"، الذي كان يقوم بحملة لعسالح حقوق أفراد الجيش. حتى إن موسكو لم تحاول إحصاء عدد الإصابات المدنيسة في القوقاز الشمالي.

في خريف العام 2002، بدا أن الشعب الروسي لم يعد يصدق بأن القدة العسكرية يمكن أن تحلّ المشكلة الشيشانية. فقد أعرب 17 بالمائة فقط من الذي المسكرية يمكن أن تحلّ المشكلة الشيشانية. فقد أعرب 17 بالمائة فقط من السخري المتركوا في الاستطلاع الذي أحراه VTSIOM عن دعمهم للحلّ العسكري للشيشان، بينما دعم أكثر من ثلثي المشتركين الحلّ السلمي. بالعليم، بالنسبة للرئيس، الذي دخل إلى الكرملين على إخفاق مذل. من هنا، توجّب على الكرملين القوقاز الشمالي، كان ذلك دليلاً على إخفاق مذل. من هنا، توجّب على الكرملين آنذاك أن يفكر ليس فقط فيما ميفعله مع الشيشان بل في كيفية المحافظة على العمليات العسكرية شرعية الغريق الذي وصل إلى السلطة من خلال المصادقة على العمليات العسكرية للكافحة الإرهاب. بعبارة أحرى، كان الكرملين في وضع تحولّت فيه مشكلة للكافحة الإرهاب. بعبارة أعرى، كان الكرملين في وضع تحولّت فيه مشكلة الحفاظ على ماء الوجه إلى مسألة بقاء.

ما هي الطريقة للحروج من هذا المأزق الصعب؟ بحلول تشرين الأول من العام 2002، توصّل الكثير من السياسيين والخبراء في روسيا - من بينهم رئيس الوزراء السابق، الحذر على الدوام، بريماكوف - إلى استنتاج مفاده أن الطريقة الوحيدة تتمثّل في المفاوضات مع قددة المعارضة الشيشانية، وخاصة ماسحادوف، من أجل إنماء العمليات العسكرية والتوصّل إلى حلّ سلمي. إن رفض التفاوض مع ماسعادوف يعنى أن موسكو قد تخسر فرصة للتوصل إلى اتفاق مع حيل من القادة الشيشانيين ما زالوا يُبدون استعدادهم للتحدث مسم موسكو. أما الجيل الجديد من الانفصالين، الذين كبروا خلال الحسرب مسم روسيا والذين لا يفكرون إلا في الجهاد المقلس ضد الروس، فهؤلاء لا يريدون إلا الانتقام الدامي. وهاتان الفكرتان بدأتا تفرضان نفسيهما، بشكل تدريجي، على كل المناقشات العامة في روسيا.

طالبت الخيارات السلمية المكنة من أجل الشيشان، التي نوقشت في ذلك الخريف في روسيا، باعتراف الكرملين إما بحكم ذاتي شيشاني واسم أو بتقسيم الشيشان إلى قسمين، قسم موال لروسيا سيكون حزياً من الاتحاد الروسي كواحد من مكوناته؛ والقسم الآخر هو الشيشان المستقل. في هذه الحالة، ستكون هنالسك حاجة إلى عون دولي هائل من أجل مساعدة الشيشانيين على تحقيسق مقاطعتهم الخاصة هم. هل كانت هذه المقاطعة عمكنة من حيث المبدأ؟ إن المحاولات السابقة للقيام بذلك في الأعوام 1991-1994 و1994-1999 انتهت بكارثة - بظهـور مناطق غير خاضعة للقانون على أرض الشيشان يحكمها أمراء حرب كانوا متورطين في أنشطة إحرامية، وتجارة المحدرات، والخطف. فكيف نحسول دون حصول ذلك مرة ثانية. في الحقيقة، إن استعادة السلم في تلك المنطقة لم تكن واحبة على الروس وحدهم بل على المحتمع الدولي كذلك.

كان الرئيس الروسي بحاجة إلى كل شجاعته للاعتراف بأن حربه في الشيشان خسرت، وأن هدفه الآن لم يعد الانتصار بل تحقيق السلام. كان الحسل السلم، للشيشان يعني أن هنالك مقاربة جديدة من الكرملين، ورؤية جديدة للنواسة الروسية والسلطة. إن اتباع سياسة جديدة في الشيشان قد تصبح أخيراً خطوة على طريق التغلب على "النظام الروسي" القلع. لكن الكرملين لم يكن مستعداً بعسد لاتخاذ تلك الخطوة. وسرعان ما سيتيين أن إمكانية الحسل السسلمي للمشكلة الشيشانية غير ممكنة.



في 23 تشرين الأول من العام 2002، اسستولت مجموعة مسن المقساتلين الشيشانيين على مسرح في وسط مدينة موسكو وأخلوا ما يزيد عن 800 شخص كرهائن. وضع المقاتلون متفحرات في كل أنحاء المبنى واعدين بستفحر أنفسهم والرهائن معهم. وكان لهم مطلب واحد: إنهاء الحرب الدائرة في القوقاز الشمالي. وبذلك امتدت الحرب الوحشية لتصل إلى قلب موسكو.

رفض الرئيس بوتين إحراء أية مفاوضات مع الإرهابيين، لأن الكرملين إذا ما بدأ المفاوضات، فذلك سيعني أن روسيا قد خسرت الحرب مع الشيشان، وهسذه الحرب بالغة الأهمية بالنسبة لشرعية ارتقاء بوتين إلى السلطة. وفلاديمير بسوتين لم يكن مستعداً للهزيمة، وخاصة مع اقتراب الانتخابات. وبدلاً من ذلك، أمر القوات الحاصة باقتحام مبنى المسرح. أدّت عملية الإنقاذ الوحشية هذه، التي استُحدم فيها غاز غير معروف، إلى مقتل نحو 120 رهينة. فيما وحد حوالي 600 رهينة أحسرى أنفسهم في المستشفيات للعلاج من آثار ذلك الغاز الغامض.

إن الشعور الأولي بالراحة من جراء نجاح عملية الإنقاذ سرعان ما أعقب مع شعور بالإحباط والقلق. من المؤكد أن الرئيس والحكومة كانا مضطرين لاتخاذ قرار صعب، وأنه لم يكن أمامهما خيار واسع. لكن عملية الإنقساذ أله شدت بأسلوب سوفيتي نموذجي، أعاد إلى الأذهان صورة الماضى غير البعيد. لقد أطلقت العملية دون التأكد من وجود ما يكفي من المصل المضاد لمعالجة الرهائن من التسمم بالغاز. وأثناء احتضار الرهائن من جراء التسمم، كانت الحكومة ترفض الإعلان عن نوع الغاز المستخدم (باستثناء شخصين قُتلوا بالرصاص، كل الرهائن ماتوا بالتسمم). كما لم يُسمع للأقارب بالوصول الفسوري إلى الضحايا، المحتخزين عملياً.

"هذا عار، ارتداد إلى أسوأ أنواع السرية العسكرية السوفياتية، وعدم الاكتراث بالحياة الإنسانية. والفشل الأكبر يتمثّل في العدو اللدود والقديم لروسيا: الفشل في أن يكونوا صادقين"، كتبت صحيفة التابخ اللندنية في 28 تشهرين الأول عام 2002. في تلك الأثناء، كانت السلطات - كما حصل في انفحسار مصيع الطاقة النووية في تشيرنوبل وكارثة الغواصة كورسك - تكذب وتحاول إخفاء الحقيقة عمداً والتملُّص من المسؤولية.

لقد أظهرت هذه المعابلة المأساوية الأزمة الرهائن - وكسأن الحكومسة لم تتعلم شيئاً من مآسيها العديدة السابقة - بأن السلطات كانت مهتمة بميتسها وصورها أكثر من اهتمامها بحياة المواطنين الروس العاديين. إن حماية سمعة الرئيس وإظهار قوة الدولة كانا حاجتين ضرورتين لا غنى عنهما، وكأن الدولة إذا لم تضمن أمن الناس يمكن أن تُعتبر ضعيفة وهشة. ورغم أن الرئيس بوتين، الأرواح، إلا أنه لم يستطع إلا أن يؤكد في نفس الخطاب على الجوانب الأكثر أهمية بالنسبة إليه وللسلطات: "لقد أثبتنا بأنكم لا تستطيعون إركاع روسيا". ذلك ما كان يقلق الكر ملين فعلاً.

لم يكن الكرملين مستعداً للتفكير في الجذور المحلية للمشكلة الإرهابية. بـــل إنه، بدلاً من ذلك، ساوى الصراع مع الانفصاليين الشيشانيين بالصراع الأميركي ضد أسامة بن لادن، وفسر أزمة الرهائن بألها واحدة من أنشطة شبكة الارهاب الدولية. لم يكن لمة أحد يريد الاعتراف بأن مشكلة الشيشان لم تُحَلَّ بعد. وعلاوة على ذلك، قال الرئيس بوتين في خطابه - من الواضح أنه كان يتبع استراتيحية بوش الوقائية نفسها - بأنه سيمنح الجيش سلطة أكبر للتعامل مسع مسن سمساهم "الانفصالين المشتبه بمم، وسيتخذ إجراءات مناسبة ضد هؤلاء الإرهابين في أي مكان يتواجدون فيه"

بعد التردُّد لبعض الوقت بخصوص ما سيفعلونه بشأن الشيشان، حاول صقور الكرملين، فيما يبدو، إقناع بوتين بالبدء بمحوم قوي. وكسأن سسنوات الحسرب السابقة لم تكن كافية لإظهار عدم جدوى الإجراءات العسكرية. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن تفعله هذه الخطوة هو استفزاز الإرهسابيين وزيسادة تطرف الشعب الشيشاني، الأمر الذي سيعني بأن روسيا كانت ستحد نفسها مضطرة مرة أخرى للاستعداد للمزيد من عمليات احتجاز الرهائن، والمزيد من معاناة المواطنين العادين.

وهكذا أصبحت المفاوضات مع الشيشانيين مستحيلة تقريباً لأن أزمة الرهائن أساءت إلى سمعة الشريك الوحيد الممكن لروسيا في هسف المفاوضات، وهسو ماسخادوف الذي فشل في إبعاد نفسه عن الإرهابيين. لقد أصبحت شرعيته مشسار حدل بالنسبة للروس والغرب على حد سواء. وحتى أنّ السنيمقراطيين أصسبحوا متشككين في إمكانية إحراء محادثات سلام مع الرئيس الشيشاني. وبذلك تبسدت الآمال الهشة في حدوث تلك المحادثات.

أظهرت الاستطلاعات التي أجراها مركز VTSIOM بسدءاً مسن 25 إلى 28 تشرين الأول عام 2002 بأن المزاج الشعبي قد تغيّر بالنسبة للشهشان. حيث أصبح 46 بالمائة من المشتركين مؤيدين "للحل العسكري"، مقابل 44 بالمائة آيدوا فكرة المفاوضات (في عموزه كانت نسبة مؤيدي المفاوضات 16 بالمائة). وبالنسبة لسلوك الريس الروسي خلال أزمة الرهائن فقد تلقّى تأبيد 58 بالمائة مسن المشستركين في الاستطلاع. ونصف الذين لا يؤيدون تصرفاته في العادة أعربوا عن تأبيدهم لسه في هذه الحالة. يبدو أن الأزمة وحصيلة القتلى المرتفعة لم تؤثّرا على شعبيته مطلقاً: يا له من سياسي محظوظ. لقد نفخت المأساة حياة جديدة في أسطورة رئاسته القويسة والفعالة.

وبعد أزمة الرهائن، أعلنت موسكو عن نبتها في تشديد سياستها تجساه القوقاز الشمالي. غير أنه من الصعوبة بمكان تشديدها أكثر من ذلك، فقسد تم استخدام كل أنواع الأسلحة وكل تكتيكات "الأرض المحروقة" مسبقاً هنساك دون الحصول على نتيجة مرضية. فكيف يمكن تقسية هذه السياسة أكثر مسن ذلك؟

كان واضحاً تماماً أن البريتوريين المحيطين بيوتين قرّروا استفلال الأزمة مـــن أحل حمل النظام أكثر ديكتاتورية. لقد أوجدت الهـــتيريا التي أصــــابت الجـــيش والخوف من الفرباء - تمّ تسخيرهما بيراعة من قبل الدولة - الدافع المناسب لزيادة دور الأجهزة الأمنية وتشديد قسوة الحكم. وعلى الفور، صادق نسواب السدوما المذعورون على فرض قيود تتعلّق بأنشطة وسائل الإعلام، وكان واضحاً ألهم كانوا مستعدين للمصادقة على أي شيء لإرضاء الرئيس.

سمح الرئيس لصقوره بالظهور إلى العلن، واستخدام لغة قاسية، وعاولة وضع وسائل الإعلام تحت سيطرقم الكاملة؛ الأمر الذي كان ينسحم مع طريقة تفكره بالتأكيد، لكنه لم يكن مستعداً - حتى ذلك الحين - للسماح لرفاقه بتغيير توازن القوى القائم. على أي حال، كان المجتمع - الذي دعم السرئيس علال الاحتبار الأخير الذي تعرضت له قيادته - يتوقّع أكثر من بحرد لغة قامية.

غير أن بوتين قرّر في قاية المطاف، بعد قليل من التردد وكثور من التفكير المتروي ولكن الصعب، رفض فكرة القيام بحملة قاسية في الشيشان. لم يكسن يريد حمّام دم حديد، لأنه لم يكن مستعداً لتقبّل المزيد من الانتقاد مسن قبال المنهقراطيين، والأهم من ذلك أنه كان يريد الحفاظ على علاقات حيدة مسع الغرب. إضافة إلى ذلك، لا بد أنه أصبح يدرك في ذلك الحين بأن القيام بحجوم حديد قد يقوده إلى أزمة حديدة. ولهذا السبب، قرّر اللحوء إلى حال آخر: الحراث "ششننة" الصراع، بمعنى، إشراك الشيشانيين الموالين للكرملين في تحمّل مسؤولية كل التطورات اللاحقة، وسيحصلون مقابل ذلك ليس فقط على مصادقة مسن كل التطورات اللاحقة، وسيحصلون مقابل ذلك ليس فقط على مصادقة مسن الأولى عام 2002، الذي يصادف الذكرى السنوية للدستور الروسي، مرسوماً يدءو لإجراء استفتاء حول وضع دستور للشيشان وإجراء انتخابات برلمانية ورفاسية فيها. لم يحدّد الرئيس إطاراً زمنياً، لكن موسكو افترضت بأن الاستفتاء ميحري في آذار من العام 2003، وستعقبه الانتخابات في كانون الأول مسن العام 2003، أي مع الانتخابات البرلمانية الروسية. هذه الخطة كان ينبغي لها أن العام 2003، ألحل السياسي لمشكلة الشيشان.

احتجّ منتقدو الخطة قائلين بأن الاستفتاء والانتخابات لن يكون لهما أي مصى

في ظل الوضع الحالي؛ مع استمرار القتال وهرب نصف مسكان الشيشسان مسن الجمهورية. إضافة إلى عدم قدرة هذه الخطوات على إنحاء العمليات العدائية، وعلى أي حال، كان الجميع يعرفون بأن نتائج الانتخابات يمكن تزويرها. خلال الحرب الشيشانية الأولى (1994-1996)، أثبع نفس الأسلوب لتهدلة الشيشسان، دون الكثير من النحاح. لكن الكرملين لم يكن مستعداً في ذلك الوقت لأي خيار آخر. وهكذا استمرت معضلة الشيشان على حالها دون حلّ.

واجهت موسكو الكثير من المشاكل المحلية في الفترة التي سبقت انتخابسات 2004-2008. كانت هنالك ضرورة لتنظيم واستيعاب القوانين الستي أقسرت في الفترة الرئاسية الأولى والبدء يتنفيذها. وكان الفريق الحاكم بحاجة لإبجاد الوقست والوسيلة المناسبين لتأمين الحدمات الاجتماعية التي تُركت دون اهتمام من أحسد. فالصحة، والتعليم، والثقافة، والعلم، والمتقاعدون، والمرضى العاجزون، والمشردون والمبدات الصغيرة المهملة؛ كل هذه المسائل كانت تنتظر اهتمام الكرملين بصبر نافد. حتى عشرة فترات رئاسية لن تكون كافية لبوتين كي يحل كسل هسنه المشاكل، وخاصة إذا استمر بالتصرف وفق الأسلوب الذي انتهجه في الفترة الأولى من رئاسته؛ أي من خلال إدارة التفاصيل والضغط المدائم على الأزرار، والقيادة البدوية. على سبيل المثال، بعد حادثة انفجار المبني في موسكو في آب مسن العسام المدوية. على سبيل المثال، بعد حادثة انفجار المبني في موسكو في آب مسن العسام يصل وزير الظروف الطارئة سيرحي شويغو كي يبدأوا في العسل علسي إزالسة يصل وزير الظروف الطارئة سيرحي شويغو كي يبدأوا في العسل علسي إزالسة الأنقاض والبحث عن الضحايا. كان انتظار الأوامر من الأعلى المبدأ التنظيمسي في نظام بوتين.

قد لا يكون الرئيس وفريقه يجبون القيادة البدوية كثيراً - إنهسا الطريقسة الأكيدة للإصابة بنوبة قلبية - ولكنها أسلوب الإدارة الوحيد الذي يمليه منطق الرئاسة الفردية المطلقة، حيث يكون الزعيم هو اللاعسب السياسسي المؤهسل الوحيد. في حين أن كل ما عداه بجرد جزء من حشد من العناصر الإضسافية.

وعلى هذا الأساس، كان وزراء بوتين وعملوه ومسؤولوه، وهو نفسه، يجوبون الطرقات بشكل متواصل في كل أنحاء البلاد، يطفعون الحرائق، ويعيدون وصل الكهرباء، ويدفعون الرواتب، وينظمون انتخاب الأشخاص المطلوبين، ويسؤون النسزاعات المحلية. كانوا يرهقون أنفسهم، ومع ذلك فإن عدد المشاكل كان في ازدياد مستمر. أما السلطات المحلية، المحرومة من السلطة والمسال، الخاضعة والحذرة، فقد كانت تجملس منتظرة الأوامر من المركز، رغسم ألهسا لم تكسن بالضرورة تنوي إطاعتها.

كانت السلطات أمام معضلة حقيقية: هل يجب عليها أن تسستمر في العمسل كفرقة من الإطفاليين ورحال الإسعاف الأولي، تخمد النزاعات الساخنة وتعسالج الانهيارات الخطيرة على الاستقرار العام، تاركة كل ما عدا ذلك إلى وقت لاحسق؟ أم تعطي المجتمع الثقة والإمكانات كي يقرر مستقبله الخاص به؟ وهذا القرار، في الوقع، كان يتطلّب من السلطات إعادة دراسة رؤية الكرملين الثابتة "للحريسة والاستقرار"

منحت مرحلة يلتسين عدداً قليلاً من الحريات. صحيح أن روسيا، في عهده، عاشت حرية لم تعهدها أبداً من قبل، لكن الحرية في غياب سلوك منتظم، مع ثقافة قانونية ضعيفة ونخبة أنانية ومغرورة، أدت إلى شيوع الفوضى وفقدان القدانون والاستهتار بكل المحرَّمات والممنوعات والقيود. ولهذا السبب، أعادت روسيا - الخائفة من الحريات غير المألوفة والجاهلة بكيفية التعامل معها - عقدرب الساعة باتجاه الاستقرار الذي ساد في العام 1999. وهذه الفكرة، المدعومة من كل المجتمع، حاء بوتين إلى السلطة.

لكن الاستقرار يمكن أن يكون قانونياً، ويمكن أن يكون إدارياً (((1) وروسيا بوتين اختارت طريق الاستقرار الإداري، ولو بالاعتماد على أسساليب الإدارة البيروقراطية السوفياتية، والتبعية، والإخلاص، والأوامر من الأعلى. بيد أن هذا الاستقرار يمكن أن يكون وهما آخر؛ فعلى الرغم من أن كل شيء كان يبسدو بأنه يؤدي وظيفته، والأوامر تأتي، والأتباع يكتبون التقارير، إلا أن المشساكل كانت تصبح قابلة للانفحار. كسان الباحسث

الروسي إيغور كليامكين محقاً عندما قال بأن "مشكلة انتقال الدولة والمجتمع إلى حكم القانون (بالتغلب على هيمنة النظام الحاكم على القانون) هي مشكلة جوهرية"(14). إن الانتقال إلى حكم القانون كان يعني أن النظام يش في المجتمع، فيعطيه الفرصة للمشاركة في الحكم بشكل فعلسي، ويعتمد علسى القانون والمؤسسات المستقلة، وليس على الخوف والقوة والاتفاقات السني تستم وراء الكواليس. بدون استراتيحية تحدف إلى مشاركة المجتمع في الحكم، لن يستمكن ملايين الناس من المساهمة في إعادة بناء روسيا، ولن يكون بالإمكان إنجاز التحديث الذي يتحدث عنه بوتين.

بوتين يفكّر في مساره. لماذا تختار روسيا "أوروبا القديمة" وتخيّب أمل أميركا؟ تورة الكرملين ضد الطبقة العاكمة. انتخابات الدوما – نتائج مؤكدة في ظروف غير مؤكدة. تفاؤل الشباب.

إذا نظرنا إلى الوراء وحاولنا تلخيص ميول روسيا في تلك السنة، فسنرى أنه بعد بداية قوية نسبياً في عامي 2000-2001 (عندما أظهر بوتين استعداده لتحديد انجاهاته في السياسة من خلال مركزة سلطته، وإعادة تفعيل الإصلاحات الاقتصادية، واختيار منحى غربياً في السياسة الخارجية) بدأ السرئيس الروسسى - كلول العام 2002 - بإظهار إشارات تنبئ بارتباكه، وكأنه فقد إحساسه بالإنجاهات. من الواضح أنه كان يحاول الوصول إلى قرار بشأن الأمور التالية: على من سيعتمد، وأية أولوية سيسعى لتحقيقها، وماذا سيفعل في السياسة الاقتصادية، وما هي طبيعة حواره مع الغرب؟ بيدو أنه كان يرزح تحت ضغط القيود المتزايدة على قيادته، تلك القيود التي لم يحسر كما في بداية حكمه. في الحقيقة، كان يجسب على قيادته، تلك القيود المقاص من عهد يلتسين في مواقع حيوية: ميخائيسل كاسيانوف كان رئيساً للحكومة، وألكسندر فولوشين بقسي على رأس الإدارة الرئاسية. وأناتولي تشوبايس، عراب الراسمالية الروسية، الذي عارض فكرة أن

يكون بوتين خليفة يلتسين، كان مسؤولاً عن شبكة الطاقة الروسية وبقي شخصية متنفذة، ويستطيع القيام بأفعال خطرة من الناحية السياسية(1).

ذلك الوضع كان يعني بأن فريق يلتسين استمر بالعمل وفق مصالحه الشخصية والمشتركة، وبوتين كان مضطراً للقبول بذلك. ولم يعرف أحد ما إذا كان السدب المعجوز والمريض بوريس نيكولاييفيتش يلتسين ما يزال يعطبي نصائحه لرفاقه السابقين من مكمنه في أحد البيوت الريفية خارج موسكو. من المعلوم أن يلتسين كان يتصل بن الحين والآخر ببوتين للتعبير عن عدم موافقته على أفعسال خلفه ولتذكير زعيم الكرملين الجديد بأصول سلطته. وفي نفس الوقت، كان ميحائيسل كاسيانوف - المثير للإعجاب، والوسيم، والواثق من نفسه - قسد بسدأ يصبح شخصية سياسية دائمة الظهور. والكثير من الناس كانوا ينظرون إليه ويقولون، "ولم لا يكون الرئيس التالي لروسيا؟" بعبارة أخرة، كان رئيس وزراء بوتين، مسن خلف ظهره، يتحوّل إلى منافس عتمل له (2).

لم يكن باستطاعة الرئيس أن يشعر بالثقة والهدوء طالما أن المواقع الرئيسة في إدارته كانت مشغولة من قبل أشخاص تابعين للفريق الحساكم القسلم السذين لا يدينون في مناصبهم وثرواقم له. بل على العكس من ذلك، هو الذي كان مسديناً لهم. لكنه تحمّلهم، فلماذا? لأن فريقه الخاص لم يتعلم كيف يدير شوون السبلاد بثقة، ولأنه قطعاً كان يخشى الصراع: ماذا لو قرّر اليلتسينيون مقاومته إذا ما حاول طردهم من الكرملين؟ لهذا السبب، كان بوتين يفصّل توحيد المحموصات مسدوء وبشكل تدريجي. ويُحتمل أيضاً أنه حافظ على عدة بجموعات متنفذة حوله لأنه لم يكن مستعداً لرفع أجهزة السلطة التابعة له (السيلوفيكي)، والتكنوقراطيين السذي يكن مستعداً لرفع أجهزة السلطة التابعة له (السيلوفيكي)، والتكنوقراطيين السذي كان يعرف ضعفهم، وقلة خبرقم، وعدوديتهم، وافتقارهم للرؤية. ومن المؤكسد كان يعرف أيضاً أنه كان بحاحة إلى مدراء محترفين وإلى خبراء في التلاعب وكيسد المكالسد. ولكن، تصادف أن كل هؤلاء كانوا ينتمون إلى فريق يلتسين. ويلتسين كان يعرف كيف يختار الأشخاص الذين يستطيعون العيش في مياه مليئة بأسماك القرش. لكسن كيف يختار الأشخاص الذين يستطيعون العيش في مياه مليئة بأسماك القرش. لكسن الوقت الذي سيضطر فيه بوتين لقطع اتكاله على الماضي وعلى الأشخاص الذين الموقي لقطع اتكاله على الماضي وعلى الأشخاص الذين الموقي لقطع اتكاله على الماضي وعلى الأشخاص الذين الموقية المها القرش والمؤية المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة ويتون لقطع اتكاله على الماضي وعلى الأشخاص المؤلفة المؤلفة المؤلفة ويتون لقطع اتكاله على الماضي وعلى الأشخاص المؤلفة ويتون لقطع اتكاله على الماضي وعلى الأشخاص المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة ويتون لقطع الكاله على المؤلفة ويقون المؤلفة ويتون لقطع الكاله على المؤلفة ويقون المؤلفة ويتون لقطع المؤلفة المؤلفة المؤلفة ويتون المؤلفة ويتون لقطع المؤلفة ويقون المؤلفة ويتون المؤلفة المؤلفة ويتون المؤلفة ويتون المؤلفة المؤلفة ويتون المؤلفة ويتون المؤلفة المؤلفة ويتون المؤلفة ويتون المؤلفة ويتون المؤلفة ويتون المؤلفة المؤلفة ويتون المؤلفة

ينتمون إلى ذلك الماضي كان يقترب بسرعة.

لم يكن بوسع الرئيس تأجيل البدء في تنفيذ مجموعة قـوانين الإصـــلاحات الجديدة أكثر من ذلك؛ لقد أحمَّل حلال السنتين الأوليتين من عمر رئاسته (2000-2002) القوانين الأكثر صعوبة فيها، وخاصة إصلاح شركة غازبروم، وإصــلاح القطاع المصرفي، والقيام بمرحلة حديدة من الإصلاح الضربي، وإصــلاح حهـاز الدولة، الذي ناقشه طويلاً لكنه كان يخشى الشروع بتحقيقه. لم يقترب الــرئيس البدأ من البين التحتية، الي لم كانت حالتها تسوء باضطراد نتيحة للنقص للزمن في التمويل. ومن بين هذه البي التحتية، الرعاية الصحية والتعليم ونظام الإسكان البالي. قبل الانتحابات، كان بوتين يحاول بحنّــــــ المسحية والتعليم ونظام الإسكان البالي. قبل الانتحابات، كان بوتين يحاول بحنّــــــ إثارة المشاكل في المحتمع وفي الطيقة البيروقراطية، لكنه اضطر في نحاية المطاف لوضع أولوياته، لنفسه على الأقل. لا بد أنه أدرك بأنـــه إذا أراد لعمليـــة التحـــديث أن حسمر، فسيتوجّب عليه البدء بإعادة البناء الأخرى في روسيا.

وأخيراً، كان يتوجّب على بوتين أن يقرّر الاتجاه الذي ستسلكه روسيا في الفضاء الدولي. لم يكن بوتين يريد إبعاد روسيا عن الغرب، و لم يكن بويد بشكل عاص أن تكون معادية له، لأنه كان ما يزال يعتبر المجتمع الغربي المصدر الأكشر أهمية بالنسبة لتحديث روسيا، والحليف فيما يخصّ ضمان الأمن الاستراتيجي للبلد. ولكن، في الوقت نفسه، لا بوتين ولا الطبقة السياسية الروسية كانا ينويان التعلي عن مبادئهم وآرائهم المتعلقة بالنظام السياسي الروسي والطريقة التي تُحكّم بحساروسيا. والغرب بالمقابل لم يكن مستعداً لدمج روسيا في فضائه وفست الشسروط الروسية. ونهجة لذلك، كان عليه أن يفكر في صيغة حديدة للتفاعل مع الغرب.

في تلك الأثناء، بدأ الرئيس الروسي – بعد خيبة أمله في الشراكة مع أوروبسا والولايات المتحدة – يولي اهتماماً أكبر للمحيط الروسي ما بعد الاتحاد السوفيائي. وقد لعبت الحاحة الماسة للتحارة الروسية – التي كانت تشعر بأفسا محشسورة في روسيا – لضمانات في المحيط الاقتصادي لروسيا ما بعد الاتحاد السوفيائي، دوراً في دفعه للمضى في هذا الاتجاه، وليس فقط الرغبة الأبدية لأي زعيم روسي بتوسسيم

نفوذ روسيا في أوروبا وآسيا. حتى إن التكنوقراطيين الليسبراليين مشل أنساتولي تشوبايس طالبوا الكرملين ببناء إميراطورية – ولكن ليبرالية – تعمل فيها الحكومة على إحداث ظروف مناسبة لتوسيع التحارة الروسية على أراضي الاتحاد السوفيائي السابق. والمصالح الأمنية الروسية بدورها أرغمت الكرملين على التفكير في إعسادة تفعيل علاقاته مع الجمهوريات السوفياتية السابقة، وخاصة على طول الحسدود الجنوبية بين روسيا، وآسيا الوسطى، والقوقاز.

كان دعاة السلطة المركزية في الكرملين يعتقلون بأن إعادة تفعيل الوحود الروسي على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق يمكن أن تشكّل حاجزاً أمام النفوذ الأميركي والأوروبي وتساعد روسيا على تقوية دور سلطتها الإقليمية. وذلك كان طبيعياً وغير مستغرب على أي حال، فكل الإمبراطوريات السابقة كانست تنظر بعين الفيرة إلى مناطق نفوذها السابق. لكن هذا الامتداد الروسي، والدوافع السيق تقف وراءه، كان ينبغي أن يثير قلق الغرب، الذي لم يكن قد قرر حتى ذلك الوقت تقف وراءه، كان ينبغي اعتبارها شريكاً أم منافساً وعصماً. في الحقيقة، رغم أن الغرب بدا مستعداً للإذعان للأساليب الديكتاتورية الروسية داخل روسيا نفسها، إلا أنه وحد إعادة إحياء نفوذ موسكو في أوروبا الآسيوية أمراً غير مقبول بالمرتب.

استمر بوتين في التفكير والتردد طوال العام 2003. كان واضحاً أنه لم يكن مستعداً لتوضيح سياساته، لأن ذلك كان سيعني اتخاذ قرارات صعبة، الأمر السذي سيؤدي إلى إنتاج رابحين وخاسرين. كان يريد الحفاظ على صورته "كرئيس لكل الشعب الروسي". ولهذا السبب، حافظ الرئيس الروسي على اتباع التكتيك الذي كان يستخدمه يلتسين من قبله، وهو الحصول على الدعم من كلل الأطراف، واستأنف رقصة يلتسين القديمة "خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء، خطسوة إلى اليسار وخطوة إلى اليمين". ولكنه، في الوقت نفسه، ظل عامل استقرار، وحامياً اليسار وخطوة إلى الدولة، ومصلحاً أيضاً. كان مناصراً للمركزية وغربي التوجه في أن معاً. كان معا إعجاب كل شرائح المجتمع، لكنه، مع ذلك، لم يأخذ موقع أحد أبداً. أما بالنسبة لأسلوب القيادة، فلم يلتزم بوتين بأسلوب واحد في الحكم، بسل

كان يعتمد عدة أساليب، الأمر الذي أحدث انطباعاً بأنه لم يكن يعسرف، هسو وفريقه، أي منعطف سيسلك أو أي أمر سيباشر. لكن هذا لم يكن ليستمر إلى ما لا لهاية، فالانتحابات كانت آتية، والرئيس كان مضطراً لتحديد أحندته الجديدة واختيار سياسة أكثر وضوحاً: إما أن يعيد دفع مسيرة الإصلاحات الاقتصادية المتوقّفة، أو يثبّت الوضع الراهن؛ إما أن يقطع صلته كلياً مع ماضي يلتسين ويخلّص حاشيته من رحال يلتسين، أو أن يقي في ظلّ سلّقه؛ إما أن يقتح أفق النعاون مسع الغرب، أو أن يقتصر على إلتزام انتقائي محدود؛ إما أن يتجه نحو سلطة ديكتاتورية أكثر صرامة، أو أن يفتح الساحة للصراع السياسي.

لقد أصبح مألوفاً في روسيا أن يكشف الرئيس في عطابه السنوي أمام المحلس الفدرالي عن عطط الكرملين. في 16 أيار عام 2003، أدل بوتين بخطابه السنوي بهد تأجيله عدة مرات (يبدو أنه كان ما يزال يحاول التوصّل إلى قسرار بشأن أولوياته) - وأعلن فيه: "إننا نواجه لهديدات خطيرة" (ق. وقصد السرئيس المسلم التهديدات، الاقتصاد الضعيف، والنظام السياسي غير المتطور، والإدارة غير الفعالة، والوضع الدولي المعقد. ثم خلص بوتين إلى استنتاج مفاده أن روسيا كانت بحاجة للتضامن. وذلك ما كان ليعني إلا أمراً واحداً: التضامن حول الرئيس. لقد بسات واضحاً أن الكرملين قرر صياغة برنامج انتحابي لا يخاطر بالتوصية بالإصلاح، مكتفياً فقط بتوحيد البلد حول الزعيم على قاعدة التهديدات والبحث عن أكباش فداء. ولكن، غمة سؤال واحد لا يمكن للمرء أن يتحتّب: ماذا كان يفعل بسوتين في الكرملين طوال السنوات الثلاث السابقة إذا كانت روسيا ما نزال تواجعه نفسس التهديدات القديمة؟

قلَّم بوتين ثلاثة أهداف رئيسة لسياسته المقبلة: مضاعفة الناتج المحلي الإجمالي، والنغلَّب على الفقر، وتحديث الجيش. ولمعرفته بأن هذه المشاكل لا يمكن حلَّها قبل لهاية مدته الرئاسية، افترح تحقيقها في عام 2010، أي بعد فترته الرئاسية الثانيسة المرجّحة. أظهر اختيار الأهداف أن الكرملين لم يكن قادراً على وضع أهسداف

واقعية لبرنامج بوتين الانتخابي مما اضطره إلى وضع أهداف طوباوية بـــدلاً منـــها. على أي حال، ممة فكرة أخرى في خطاب بوتين للعـــام 2003: إصـــلاح الإدارة الروسية. لكنه تكلم عن هذا الأمر في العام 2002 أيضاً و لم يتغير شيء. وأنا أشك في أن يكون بوتين قبل الانتخابات مستعداً للشروع في عملية إعادة هيكلة يمكن أن توجد أعداء له في الطبقة البيروقراطية.

9---

في الأشهر الأولى من العام 2003، كان بوتين مضطراً للتركيز على السياسة الخارجية، والتفاعل مع الأحداث التي كانت قمد بتفير الوضع السياسي السلولي برمته. كان النقاش العنيف حول العراق والبحث عن أسلحة السدمار الشامل وضمان تفكيكها يحتلان الأهمية الأولى على الساحة الدولية. قرّرت واشنطن أن صدام حسين لم يُدمّر الأسلحة، وأنه كان على صلة بالإرهابين، وأنه كان يشكل الخطر الأكبر. كانت حرب القوة العظمى الوحيدة في العالم ضد النظام العراقي عتومة، والتيحة العسكرية واضحة. لقد اعتقد معظم المراقبين بأن حورج دبليو بوش كان سيحعل من العراق، عاحلاً أم تحلاً – حتى لو لم تقع مأساة 11 أيلول

بعد مفاوضات طويلة وضغط من طرف الولايات المتحدة، رفضت فرنسا وألمانيا، الحليفتان الرئيستان لأميركا، دعم مخططات واشنطن. وأعلنست فرنسا وروسيا في بحلس الأمن اللولي بألهما متستخدمان حق الفيتو على القسرار الثان حول العراق، الذي كان سيمنع واشنطن الضوء الأحضر للقيسام بعمليتها العسكرية. كان بوتين متردداً بخصوص موقفه من العراق، وفي إحدى اللحظات بدا بأنه يمكن أن يدعم صديقه بوش. فقد أعلن خلال زيارته إلى كيسف، في بدايسة شباط، بأن العراق إذا استمر في عدم الامتثال لقرارات مجلس الأمن، فإنه قد يفكر شباط، أكثر شدة من الطرق الدبلوماسية. كان واضحاً أن الرئيس الروسي لم يكن متعاطفاً مع صدام، فهو لا يثق به، إضافة إلى أنه لم يكن ملتزماً بالعراق كمساكان حال زعماء الكرملين السابقين.

فكر بوتين طويلاً عاولاً تقييم كلّ العناصر؛ أي طبيعة الصراع السياسي في روسيا قبل الانتخابات، ودرجة واقعية الأهداف الأمركية في العسراق والشسرق الأوسط، وموقع روسيا في المنلث الذي يجمعها مع الولايات المتحسدة وأوروب، وطموحات روسيا الجيوسياسية. ربما كانت هذه هي المرة الأولى، منذ زمن طويل، التي لم تتبع فيها روسيا سير الأحداث بشكل أعمى، به المنتسارت، ومحمنت، ولعبت لعبة البوكر الدبلوماسية. كان أمام بوتين خيارات عسدة: أولاً، كان بإمكانه أن يقدّم طريقته الحاصة لحلّ الأزمة العراقية؛ ثانياً، كان بإمكانه دعم الاشتراك والاكتفاء بحراقية تكشف الأحداث، نسجاً على منوال العبن. كانت روسيا تملك مساحة واسعة للمناورة، إذ للمرة الأولى كانت هنالك حاحة ماسة لدعمها وتأييدها؛ سواء أكانت واشنطن أم حلف "برلين-باريس" الحديد. على أي حال، كانت إمكانية أن تخرج روسيا بحلّ توفيقي للأزمة العراقية مشيلة حداً، فذلك كان يتطلب ليس فقط دبلوماسية معقدة لإيجاد عزج بمكن أن يرضي جميع الأطراف على اختلاف رغباقيم، بل يتطلب – وهذا هسو الأهسم – امتلاك بوتين وزناً سياسياً غير قابل للتشكيك في القضايا الدولية.

في الواقع، لم تكن موسكو مستمدة لذلك التحوّل في الأحداث. وعلاوة على ذلك، كان إيقاف بوش، الذي بدا مصمماً على تدمير صدام، في غاية الصمحوبة. من هنا، كان على روسيا الاختيار من ضمن المسارات الثلاثة الباقية. وبعد تسرد طويل وضغط متواصل من باريس وبرلين، اختار بوتين الموقصف الأوروبي، معلناً رفضه لحلّ عنيف ضد صدام. لقد دعم بوتين الحملة الأميركية في أفغانستان بشكل واضح لأنه اعتبر الحرب ضد طالبان، التي كانت تحدّد بشكل دائم حدود روسيا مع آسيا الوسطى، منسجمة مع مصالح روسيا - كان النساس في موسسكو أيسام الحرب الأفغانية يعتقدون بأن الولايات المتحدة كانت تدافع عن المصالح الوطنيسة لروسيا في أفغانستان! - لكن الوضع كان مختلفاً في حالة العراق، فهسو لم يكن لروسيا في أفغانستان! - لكن الوضع كان مختلفاً في حالة العراق، فهسو لم يكن

اعتقد بأن موسكو – وليس باريس، كما شعر الكثيرون – لعبت دوراً حاسماً

في تعميق الانشقاق في الناتو عن طريق الخيار الذي اتحدته في العسام 2003. أنسا مقتنعة بأن بوتين لو تعمر ف كما تعمر ف القادة العمينيون في مسألة العراق - أي، بالاكتفاء بالمراقبة والانتظار - لما كان حاك شيراك نشطاً إلى تلسك الدرجة في معارضته. ولو لم تحث باريس غيرهارد شرودر، لبقي محايسةاً. وذلسك يعسيني أن الولايات المتحدة كانت ستحصل على موافقة بحلس الأمن على حراما على العراق، أو على الأقل لم تكن ستلقى انتقاداً كاملاً على عملياتها العسكرية، وهذا أمر هام. وربما لو صادق مجلس الأمن على العملية العسكرية في العراق، لتراجع صدام حسين وقبل بقرارات الأمم المتحدة، وبذلك لما كان هناك داع للحرب أساساً.

إن موقف بوتين من العملية العسكرية في العراق هو الذي أدّى إلى تشكيل "تحالف الدول الرافضة"، مما زاد من التناقضات ضمن المجموعة الأطلسية؛ الأمسر الذي دفع الأحداث في غاية المطاف بالطريقة التي شهدناها. كانت باريس وبرلين تدركان الدور الممكن لروسيا، وهذا ما دفعهما إلى تخصيص كل ذلك الوقست لإقناع وإرضاء وزير الخارجية الروسي أيغور إيفانوف وبوتين نفسه. مازلت أذكر لقاء شيراك مع بوتين في باريس في 10 شباط عام 2003 (وباقة الزهور الفسحمة) واندهاش الزعيم الروسي من الترحيب الحار الذي لقيه من الرئيس الفرنسي، مع أن الأحير كان يعامله ببرودة في السابق. وبمكننا هنا تحيل مناشدات شيراك لبوتين كي ينضم إلى المعارضة. وبالتأكيد، لم تكن المناقشات أقل إقناعاً في بسرلين. علمي أي حال، بصرف النظر عن الحجج التي قلمها زعيما "أوروبا القليمة"، فسإن حاشسية بوتين، وبشكل عاص إيغور إيفانوف، كانت ترى فائدة في الانضمام إلى الحسور الفرنسي الألماني، ليس لألها كانت تحره أميركا.

في تلك الأثناء، كان بوش مقتعاً بأن علاقاته الدافتة مع بوتين تعني بأن روسيا لن تجرؤ على معارضة الولايات المتحدة، بل ستساندها أيضاً. هكذا كان البيست الأبيض يفهم الشراكة الإستراتيحية بين البلدين، الشراكة التي صادق عليها كسلا الرئيسين. وهكذا كان الرئيس بوش، على ما يبدو، يفهم طبيعة العلاقة الشخصية مع بوتين. لعل الرئيس الأميركي شعر بأن موقف بوتين الشديد بخصوص الشيشان كان كفيلاً بأن يجعله يشبه الوضع هناك بالعراق ويدفعه إلى تأييد الحل العسكري

في المسألة العراقبة، أو البقاء محايداً على أقل تقدير. وفوق ذلك، قبل العراق، وافق بوتن صديقه حورج على كل القضايا الهامة، ولو مكرَهـــاً. باختصـــار، كانـــت معارضة روسيا للسيناريو العسكري في العراق صدمة فعلية لواشنطن. هذه المــرة، أظهر بوتين بأن روسيا لا يمكن اعتبارها بحرد شريك صامت ومطيع. كان بإمكالها انتقاء الطرق المناسبة لها بين الحين والآخو.

مما سبق، يبرز السؤال التالي: لماذا لم يساند بوتين أميركا في حين أنه كان يريد الحفاظ على شراكته معها؟ هل كانت وجهة نظر أوروبا فيما يتعلق بالنظام العالمي، ومقاربتها الناعمة والتوفيقية للمشاكل الدولية مقبولة أكثر بالنسبة لموسسكو مسن الاستحدام الأميركي للقوة؟ في الحقيقة، لطلمًا كانست روسيا تفضل المقدرة العسكرية والتلويع بالقوة. بعبارة أخرى، لم يكن محة شك بأن الطبقسة السياسسية الروسية، بعقليتها في السياسة الخارجية وبمقاربتها في حل المشاكل الدولية، كانست تتفهم إدارة بوش - حق في موضوع العراق - أكتسر بكشو مسن الأوروبسين "الناعمين" ودعواقم المستمرة للحوار والتفاوض.

في هذه الحالة بالذات، لم يكن باستطاعة بوتين مساندة التحالف الأموكسي البريطاني. كان الرئيس الروسي مرغماً على التحلّي عن أولويات أمّسه في حمايسة المفاهيم التقليدية للدور الجيوسياسي لروسيا. لكنه قارب المسألة بطريقة أحسرى: لقد قرّر بوتين دعم التدابور التي تحجّم النفوذ الأموكي، ليحمي بذلك دور روسيا كقوة عظمى، ولو أن الأسلوب الأموكي في حلّ المشاكل كان يروق له.

لله عوامل عديدة لعبت دورها في تحديد موقف بوتين في الفترة التي وقست فيها أحداث العراق، والأهم فيها هو القلق من أن يعمل الدعم الصريح لأميركا ليس فقط على إنتاج حزام عدائي من الدول المسلمة حول روسيا، بل على إغاظة السكان المسلمين في روسيا بالذات. أضف إلى ذلك أن الرئيس الروسسي كان مرغماً على أن يأخذ بالحسبان الاستياء المتنامي للمؤسسة السياسية الروسسية بما اعتبرته "وقت ردّ الدين" في العلاقات الأميركية الروسية، يمعني أن الطبقة السياسية

الروسية كانت تتوقع - رداً على إذعالها للسياسة الأميركية - "مقابلاً مادياً" من واستطن، إما على شكل استثمارات أو امتيازات أخرى - وهو ما لم يأت وفقاً لتوقعالها. وأخيراً، كانت النخبة الروسية ما تزال ترفض الهيمنة الأميركية التي كانت تعتبرها تحديداً للمصالح الجوهرية لروسيا. وهذا العامل الأخير كان الأكثسر أهمية فهها، إذ من الصعوبة بمكان أن نتوقع من الطبقة السياسية الروسية، التي كانت ما تزال تألم من فقدان مكانتها الدولية، أن تقدّم بروح إيثارية دعماً غير مشروط إلى عدوها السابق. إضافة إلى ذلك، لقد شعر بوتين على ما يبدو، بأنه لم يكن تحسة أسلحة دمار شامل في العراق، استناداً إلى معلومات من وكالاته الاستخبارية، أو أساك كمية صغيرة حداً لم تكن تشكل تحديداً الاستقرار المنطقة. من الواضح أن نا الكرملين كان يخشى من أية عواقب غير متوقعة في منطقته يمكن أن تنستج عن الحرب في العراق. أو كما أظهرت الحوادث لاحقاً، فإن شكوك بوتين فيما يتعلق بعواقب الحرب الأميركية في العراق كانت ميرة.

كما أن الرئيس الروسي كان مرغماً على أخذ رأي البلد بعين الاعتبار، وخاصة قبل الانتخابات بفترة قصيرة. كان الشعب الروسي غير راغب بدعم حرب أميركا في العراق، لأنه كان يعرف من تجربته الشخصية (في أفغانستان والشيشان) بأن لا طائل يُرجى من هذه الحروب، وأيضاً لأنه لم يكن يريد مسائلة الولايات المتحدة في لعب دور قوة الشرطة العالمية. في الواقع، لم يكسن الشعب الروسي مستمداً لمسائدة أي شخص يلعب هذا المدور. وهذا ما أظهره استطلاع للرأي أجري في كانون الثاني من العام 2003، حيث أعرب 52 بالمائة من الشعب الروسي عن معارضتهم للحرب الأميركية البريطانية في العسراق (3 بالمائسة فقسط أيدوها)⁽⁵⁾.

له حقيقة لعبت دوراً مهماً للغاية – مع ألها كانت تبدو غير هامة من الناحية الطاهرية – في موقف روسيا كثيراً مسن الطاهرية – في موقف روسيا كثيراً مسن الأهمية. ففي حين كان شيراك وشرودر يُظهران بشكل دائسم وعلسني اهتماساً واحتراماً كبيرين لموسكو، كانت واشنطن تكتفي بالصمت، وكألها كانت تقول: أنت مازمة بدعمنا بدون مجاملة أو مناشدة. وفي هذا الخصوص، أنا متأكمة إلى حدًّ

كبير من أن موقف بوتين كان يمكن أن يتغيّر، أو على الأقل، كان يمكن أن تتغيّر الصيغة التي قدّم موقفه وفقها، فيما لو قام كولن باول أو كوندوليزا رايس بزيارة موسكو في الوقت المناسب. صحيح أنه قد لا ينضح إلى التحالف الأميركي البريطاني، ولكنه لم يكن ليلعب مثل ذلك الدور النشيط في الحملة المعادية لأميركا التي قامت بها "أوروبا القديمة" لكن البيت الأبيض لم يرسل سفراءه إلى موسكو عندما كانت ما تزال هناك إمكانية للتأثير على الموقف الروسي قبل مناقشة القسرار الثابي لجلس الأمن بخصوص العراق.

استناداً إلى المصالح الروسية، كان بوتين محقاً بعدم مساندته الهجوم العسكري على بغداد. لكنه كان يستطيع التعبير عن عدم موافقته ويبعد نفسه عن الخوض في مزيد من المناقشات، وبذلك كان سيحتّب تعريض علاقات روسيا مع الولايات المتحدة إلى الخطر. هذا ما فعلته القيادة الصينية الحكيمة، حين صرَّحت لمرة واحدة بعدم موافقتها على استخدام الولايات المتحدة للقوة العسكرية في العسراق دون أن قدّد أبداً باستخدام الفيتو في بحلس الأمن ضد الولايات المتحدة. هذا هو الموقسف المثالي الذي كان يجب على بوتين اتخاذه، لأنه كان سيساعد موسكو في الحفساظ على علاقات حيدة مع أوروبا والولايات المتحدة معاً. لقد حانه حدسه، فسسمع لنفسه بالإنجرار إلى "تحالف الدول الرافضة"، وهذا كان خطاً، مسن النساحيتين الدبلوماسية والسياسية.

بالطبع، كانت مساندة روسيا لأوروبا القديمة ضربة لشراكتها مع الولايسات المتحدة. لكن المشكلة العراقية أثبتت أن هذه الشراكة كانت مبنية على أسس هشة حداً إذا كان الشريكان يملكان مثل هذا الغهم المختلف للتحسدي الاسستراتيحي الأساسي الذي يقلق الولايات المتحدة. صحيح أن الشراكة الأعمق والأكثر بنيوية التي تجمع ما بين حلفاء الأطلسي قد وُضعت تحت الاختبار هي الأخرى، ووُجدت بأغا لم تكن على قدر الأمال، إلا ألها كانت الملك فرصة للتفلب عليها عساحلاً أم آحلاً، لأن الأزمة التي حصلت بين أوروبا وأميركا كانت أزمة بين دول تتشسارك نفس البنية السياسية ونفس القيم. بينما يرى الكثير من المحللين أن العلاقات الباردة بين روسيا وأميركا ستكون لها انعكاسات يصعب التغلب عليها بسبب احستلاف

منظوماقما القيَمية. وهذا ما أثار قلق الواقعيين من المحللين الروس، الذين عارضوا الإنجرار بعيداً في المحور الفرنسي الألماني والذين كانوا يعتقدون بأن أميركا كانست أكثر استعداداً لمساعدة روسيا في معالجة هواجسها الأمنية، علسى الأقسل، مسن أوروبا(6).

وفي تلك الأثناء، اعتبرت العلقة السياسية الروسية خسلاف موسكو مسع واشنطن بمثابة تفويض بالعودة لهستريا العداء لأميركا، فعادت إلى تسليتها المفضلة: الهجوم على الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال، دعا "منشد" الحسرب الباردة القدع، الجنرال ليونيد إيفاشوف، الذي كان نائب رئيس هيئة الأركسان في عهسد المياسات العنيقة للأميركين" وأذكر كذلك البرنامج الحواري التلفزيوني الشجيي الذي كانت تقلمه سفيتلانا سوروكينا علسي القناة الأولى المملوكة من قبل الحكومة، ففي ذلك البرنامج تكلمت الغالبية العظمى من المشاركين، بعواطف ملتهبة، عن العدوان الأميركي على العراق وعن كيفية يقتلهم بالرغم من ألهم لم يُظهروا أي شفقة على الشيشانيين الذين كانوا يقصفون السياسية الروسية فهو، فيما يهدوا أي شفقة على الشيشانيين الذين كانوا يقصفون السياسية الروسية فهو، فيما يهدو، مزروع في عقلها الباطن؛ لكن الموقف السلبي السياسية الروسية فهو، فيما يهدو، مزروع في عقلها الباطن؛ لكن الموقف السلبي المنامي من أميركا كان هذه المرة عالمي الطابع - كل أوروبا كانت تشعر بسنفس الشعور. حتى أنَّ المراقبين الحبين للولايات المتحدة لم يتمكنوا من فهم كيف أمكن الأميركا أن تبدأ غزوها للعراق دون أن تفكر في كل العواقب المختملة.

أما المحللون الروس المؤيدون لفكرة القوة العظمى فقد رفعوا الصوت أكثر من ذي قبل وهم ينشدون أغنيتهم القديمة المتعلقة بعدم حدوى التعاون مع الولايسات المتحدة. فقد أكد المقدم التلفزيوني لبرنامج "Postscriptum"، أليكسى بوشكوف، بأن "الولايات المتحدة... ما زالت تبيعنا الهواء، ومن الواضح ألها تعتقد بأن علينا شراء ذلك الهواء وأن علينا أن ندفع مقابله دعماً حقيقياً وملموساً لأميركا". مسن الواضح تماماً، تابع بوشكوف، أن "العراق ساحة اختبار لأميركا كي تختبر قوقسا على فرض الحلول العنيقة، وقلب الأنظمة التي لا تناسبها في البلسدان الأحسرى".

وخلص بوشكوف إلى القول بأن الانتصار السريع لأميركا في العراق خطسير لأن "الصقور الأميركين، ملفوعين بهذا الانتصار، سيستولون علسى مسوريا وإيسران والبلدان الأخرى في المنطقة، دون إعارة أي انتباه للأمم المتحدة أو لنا"⁸⁰. و لم يكن بوشكوف وحده الذي يفكّر على هذا النحو، بل الكثير من المخلسين الأوروبسيين كانوا يشاركونه نفس الرأي. من المؤسف حقاً أن تجعل ممارسات الإدارة الأميركية خلال العام 2003 الناس يستنتحون بأن أميركا قد تستأنف محاولاتما للتغيير الوقائي للأنظمة، ناسية أن كل محاولاتما السابقة لدمَقْرَطة الإنظمة قد باعت بالفشل.

إن موحة العداء لأميركا التي غمرت نخبة موسكو قسادت بعسض المسراقبين الأوروبين إلى الاستنتاج بأن مرحلة التعاون بين الولايات المتحدة وروسيا قد ولت إلى غير رحمة. "إن الشراكة الأميركية الروسية، التي ظهرت تحت شسمار محارسة الإرهاب، لم تعد موجودة. لقد ماتت ودُفنت. فبعد أن مدّت يدها إلى واشسنطن دون أن تتلقى أي شيء في المقابل، ها هي موسكو تنأى بنفسها عسن واشسنطن، دون أي قلق روحي"، كتبت صحيفة لوفيغارو الفرنسية (9). بيد أن هذا الاستنتاج كان متسرعاً بعض الشيء، فالعلاقات الأميركية الروسية مرّت بمثل هذه السيرودة من قبل لكن درجة الحرارة ما لبثت أن عادت إلى الارتفاع من حديد.

بعد قليل من الارتباك، خرج فريق بوش بمقاربة مختلفة لكل عضو من أعضاء الهور المعادي لأميركا: "عاقب فرنسا، تجاهل ألمانيا، اغفسر لروسسيا". قيسل إن كندوليزا رايس هي التي صاغت هذا المبدأ. على أي حال، لقد قرّر بوش بالفعسل عدم إبعاد روسيا. وهذا ما أكده ستيفين سيستانوفيتش، حيث قال بأنه بعد النحاح الأولي للحملة المعادية لأميركا، قرّرت واشنطن أن "تغفر لروسسيا وتعيسد بنساء العلاقات" (10). كيف يمكن تفسير لطافة واشنطن المدهشة مسع شسريكتها غير المعلصة؟ من الواضح أن أميركا كانت تحتاج إلى روسيا في حرها على الإرهساب، وذلك لموقعها الجيوسياسي بالقرب من مصادر التوتر في العالم، وتأثيرها الأكيسد على العالم العربي، وقدرتما على اللعب ضد الغرب. أعتقد بأن كسلاً مسن بسوش

وبوتين كوَّنا بعض المشاعر الدافقة فيما بينهما وهذا ما ساعدهما على بناء الجمسمور بين البلدين، في حين أن ما يكّنه بوش من مشاعر العداء تجاه شيراك وشرودر كان أصعب من أن يتغلب عليه.

لقد أدركت موسكو بدورها أن عليها تمدتة العلاقات مع واضطن قبل أن تصبح البرودة غير قابلة للحل. وهذا ما دفعها إلى تأييد قرار الأمم المتحدة السذي أعطى الشرعية لوجود التحالف الأميركي البريطاني في العراق، وقرّرت عدم المطالبة بلغطاء الامتياز لشركات السنفط الروسية في عراق ما بعد صدام. وقد أثارت خطوات بوتين تجاه واشنطن في صيف وخريف العام 2003 غضب ليس فقط شركات النفط الروسية، التي كانت تأمسل بالحفاظ على مواقعها في العراق الجديد، بل حتى الموالين له أيضاً. وهكذا ذهسب الريس في علاقاته مع الغرب، مرة أخرى، ضد رغبات النخبة الروسية، التي كانت تطالب الرئيس بإظهار مزيد من الشدة والعداء.

في 20 أيار من العام 2003، جاء بوش للاشتراك في احتفالات العيد السنوي السنوي السنوي المدينة سان بطرسبورغ، مبدياً ثقته التي لم تتزحرح في بسوتين، رغسم اختلافهما حول موضوع العراق. فيما بدا التحفظ، بل السيرود - في المناسبات الجماعية التي جمعت كل قادة العالم - بين بوش وشيراك وشرودر واضحاً محاماً للعبان. لقد تجاهل الرئيس الأميركي عامداً حلفاءه الأطلسين وأظهر وده وصدافته للوتين. لكن المشاعر ليس لها مكان في السياسة، بالطبع، أو بالأحرى إفسا دائماً تعكس وجود مصالح محسوبة، وهذه المرة كانت مصالح واشنطن تتمثّل في التقرب من بوتين، وتفكيك "تحالف الدول الرافضة من خلال الحوار مع موسكو". الآن، من بوتين، وتفكيك "تحالف الدول الرافضة من خلال الحوار مع موسكو". الآن، بدا أن دور بوتين في الحفاظ على وحدة المحور المناهض الأمركا أصبح مفهوماً من قبل واشنطن.

دعوي أقدّم استطراداً موجزاً في موضوع قمة سان بطرسبورغ. كانت هـــذه القمة التي انعقدت في أيار وحزيران من العام 2003، ثناية هدية لبوتين، إذ لم يــات كل قادة العالم الغربي إلى سان بطرسبورغ للسياحة، بل بدافع الاحترام لشــخص بوتين، الذي نجمح في أن يصبح نداً حقيقياً في نادي زعماء العالم. وهو إنجاز هــام

لشخص عادي ينحدر من عائلة بسيطة كان منذ وقت قريب فقط رحلاً متواضعاً، وغير معروف، ولا يلعب إلا دور المساند. ولم تكن المعاملة المحترمة من بوش وبلير وشيراك وشرودر للاستعراض فقط بل كانت صادقة كل الصدق. لا بد ألهم قارنوا بوتين بياتسين، فربح بوتين في تلك المقارنة. لقد ظهر أن هذا الزعيم الروسي – مع أنه لا يملك تلك الشخصية الساحرة – أكثر تنظيماً وعزماً على تحقيق أهدافه، وأكثر نجاحاً على تحقيق أهدافه، وأكثر نجاحاً على تحقيق مد رحل لا يملك خيرة سياسية أو حسى طموحسات سياسية. إنه هو الذي نجح في تثبيت استقرار هذا البلد الضخم المترامي الأطسراف، اللهي ما يزال خطراً في عيني المجتمع الغربي، وهو الذي وقف إلى جانب الغسرب في الحرب ضد التهديد العالمي الجديد.

صحيح أن سان بطرسبورغ بدت عدّتة ومطوّرة، إلا أن واجهات القصور لم تستطع إخفاء المباني السكنية المتداعية والساحات المتهدمة. لقد أنفقت الحكومة عشرات الملايين من الدولارات على إعادة بناء الصروح المعمارية، ورسمت مظهراً خارجياً رائعاً، لكن الفقر المدقع كان ما يزال يقبع خلف تلك الواجهات الرّاقة، والناس العاديون كانوا بالكاد يجدون ما يسدّون به رمقهم. يبدو أن الحاجمة للحفاظ على عظمة الدولة، كما هو الحال في هذه الدولة مند مسات السنين، كانت أكثر أهمية بالنسبة للطبقة الحاكمة في روسيا من تلبية الحاجات الأساسسية للمواطنين الروس العادين. بالطبع، كان بوتين يفهم هذه الحاجات، فهو جاء مسن للمواطنين الروس العادين. بالطبع، كان بوتين يفهم هذه الحاجات، فهو جاء مسن المحراطين، حتى أصبح موظفاً ورمزاً للدولة، والتقليد كان يتطلب منه الستفكير في الكرملين، حتى أصبح موظفاً ورمزاً للدولة، والتقليد كان يتطلب منه الستفكير في الكرملين، حتى أصبح موظفاً ورمزاً للدولة، والتقليد كان يتطلب منه الستفكير في

مرة أخرى أثبتت الحرب العراقية الجديدة طبيعة الشراكة الأميركية الروسية السطحية، التي اهترت من أول تحدَّ حدي. لكن الأحداث العراقية، في الوقست نفسه، أظهرت بأن بوتين وبوش لم يكونا يريدان تعميق التناقضات فيما بينهما. وفي هذا الحصوص، كتبت أنجيلا ستينت بيصيرة نافذة: "لقسد عسادت العلاقسة

الأمركية الروسية إلى توازلها الذي كان قائماً قبل الحسرب منسة قمستي سسان بطرسبورغ وبحموعة الثماني... على أي حال، فالعلاقة تفتقر إلى القيمة العمليسة، بالرغم من قولها الخطابية والمصادقة الحماسية من قبل كلا السرعيمين (١١١). كمسا استنتج ليون أرون بأن الممارضة الروسية للعملية العسكرية الأميركيسة في العسراق "تجملنا نطرح أسئلة جدية تتعلق بحوهر ومستقبل الشراكة الروسية الأمريكية بعسد 11 أيلول (١٤). أما المحللون الروس فقد كانوا أشد تشكيكاً في العلاقسة الأمركيسة الروسية (١١).

في الواقع، لقد أظهرت العلاقة بين روسيا وأميركا خلال العام 2003 بأن كلا البلدين كانا يعانيان من صعوبات في إيجاد المسائل التي تقرَّب بينهما بـــدلاً مــن المسائل التي تبعد بينهما. وعلى الرغم من أن كلا العاصمتين كانتا تشعران بالحاجة المزيد من الجهد من أحل تحويل هذه الحاجة إلى أحندة ملموسة مرتبطة بالمسالح المحلية للبلدين. والحوار حول مسألة الطاقة، وهو من أهم الأفكار المثمرة للشـــراكة الروسية الأميركية، كان في واقع الأمر المثال الأوضح على مدى الإرباك الله يواجه العلاقات الأميركية الروسية. كانت روسيا تتوقع استثمارات ماليـــة مـــن الولايات المتحدة في البنية التحتية من أجل تصدير النفط إلى أميركا، فيما كانست الشركات التجارية الأميركية تنتظر من الكرملين توفير مناخ استثماري أكتسر موثوقية وإعطاءها ترخيصاً من أجل بناء خطوط أنابيب نفطية خاصة، لكن الشركات الاحتكارية الحكومية الروسية عرقلت مدّ هذه الأنابيسب. ثم حساءت مؤشرات مقلقة أخرى دعت الشركات التجارية الأميركية لصرف النظمر عسن خططها في الاستثمار المباشر في الاقتصاد الروسى: قضية خودوركوفسكى (سنلقى المزيد من الضوء عليها لاحقاً) والتعقيدات المتعلقة بــ ساخالين - 3، التي كانـــت تضم شركتي إكسون موبل، وتشيفرون تكساكو⁽¹⁴⁾.

 الدبلوماسية والسياسية القوية والفعالة في كلا البلدين، لكن أياً من الطرفين لم يكن ليعترف بألهما كانا يدُّعيان بألهما شريكان. ولكن، ثمة بحال واحد كان يتطلب بالفعل فهماً مشتركاً، وتعاوناً وثيقاً ولا يقبل التزييف: إنه الأمن. لقد أنتج الحسوار الأمني الروسي الأميركي، الذي أصبح تقليداً منذ وقت طويل، مجموعات مسن المحترفين في كلتا العاصمتين كان باستطاعتها معالجة الأحندة الأمنية والحدة مسن الأضرار بدون الكثير من التدخل السياسي. كان هؤلاء الناس يعرفون بعضهم المعضر، وفي معظم الحالات كانوا يثقون بيعضهم، ويدركون المعاطر التي ينبغي عليهم معالجتها والحدة من أثرها. لكنهم كانوا يستطيعون إدارة النمسوذج القسلم عليها تناسب والاحتياحات الجديدة، لأن ذلك كان يتطلب ليس فقط إرادة اكثر فعالية تناسب والاحتياحات الجديدة، لأن ذلك كان يتطلب ليس فقط إرادة سياسية من زعمائهم بل قيماً مشتركة، وهي الأهم.

كان من الصعب تحتب الشعور بأن بوتين بدأ يتبع نفس الفناعات السائدة ضمن الطبقة السياسية الروسية، التي كانت تشك في أن الشراكة مع أميركا يمكن أن تساعد في تحديث روسيا، ولعله بدأ يشك في صدق اهتمام المؤسسة السياسسية الأميركية بإعادة استرداد روسيا لدورها الجيوسياسي القوي. ومن الواضح أن بوش أيضاً وحد بأنه من غير المرجع أن تكون روسيا حليفاً يُموَّل عليه في الأهداف الاستراتيجية الأميركية. وقد وصفت أنجيلا ستينت بشكل ملفت الأمزجة السائدة في كلا البلدين في تلك الفترة: "لقد تساعل الكثير من الروس ما إذا كانست إدارة بوتين قد استفادت بشكل فعلي من دعمها للحرب على الإرهاب. والروس كانوا معذورين إلى حدًّ ما في الاستشهاد بالافتقار إلى الدعم الاقتصادي الأولي بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وتوسيع الناتو كسبب للاستياء أو الغضب من عدم الوفاء سقوط الاتحاد السوفياتي وتوسيع الناتو كسبب للاستياء أو الغضب من عدم الوفاء بالوعود. لكن روسيا نفسها لم تف بالوعود التي قطعتها للولايات المتحدة، وعاصة فيما يتعلق ببيع أسلحة الدمار الشامل إلى الدول ألمارقة وصحب القسوات مسن مولدافيا وحورجيا، كما نصت عليه [تفاقية التعاون والأمن في أوروبا]". وإضافة إلى ذلك، وفقاً لستين، فالمسؤولون الأموركيون "كانوا لا يميلون إلى الاعتقاد بأن روسيا ينبغي أن تُعامل المناط كفرة المنار روسيا ينبغي أن تُعامل كقوة المنار روسيا ينبغي أن تُعامل كقوة المناط كفوة المناط كقوة المناط كقوة المناط كفوة المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كفوة المناط كفوة المناط كلاستان المناط كالمناط كلاستان المناط كفوة المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلاستان الناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلوب المناط كلاستان الناط كلاسة المناط كلاستان المناط كلاسة المناط كلاستان المناط كلاستان المناط كلاسة المناط كلاسة

عظمى، وذلك نظراً لوضعها الضعيف "(دا). وهكذا استمرت قائمة التوقعات والآمال الخالبة من كلا الطرفين، الأمر الذي كان يمكس في بعض الأحيان محاولة لتبرير عدم رغبتهما في المضيّ في لهج الشراكة، أو محاولة لتبرير الأخطاء السياسية، أو الافتقار إلى الرؤية.

وفي هذا الشأن، كتب سيستانوفيتش: "إن المطالب الأميركية بالمزيد مسن

السياسات الداعمة تنزايد، لكن الثقة في تقديم روسيا لهذا الدعم معدومة "(16). أما المراقبون الروس فكانوا يرون أن بوتين أعطى بوش أكثر مما ينبغي من الدعم وبدون مقابل. على أي حال، لا يمكننا هنا إغفال حقيقة أن بوتين كان قلقاً من أن يودي المزيد من التقارب بين موسكو وواشنطن إلى تعقيد وضعه مع النحبة الروسية، التي كانت تشك ف نوايا أميركا. وبعد رفض روسيا تقديم الدعم لبوش في موضوع العراق، حافظ الأخير على علاقاته الودية مع الرئيس الروسي، ولكن، يرجّع أنه لم يعد يشعر بتلك النوايا الطبية السابقة تجاهه. بكلمات أخرى، كلا الطرفين كانا مستاءين من بعضهما البعض، وكلاهما كانا علكان أسباباً للشعور على هذا النحو. كيف كان الشعب الروسي يفكّر في أميركا في تلك الأيام؟ وفقـــاً لبيانـــات "موسسة الرأى العام" في أواخر العام 2002، اعتقد 30 بالمائة من الشعب الروسي بأن الولايات المتحدة كانت ودّية تجاه روسيا، في حين اعتقد 51 بالمائدة بأنها عدائية، و18 بالمائة لم يكن لهم رأى. في الحقيقة، إن الحسرب العراقية ووضع الكرملين أثَّرا على موقف الشعب الروسي من أميركا، في حين أن دفء العلاقات بين الزعيمين كان له تأثير مباشر على الرأي العام. ففي آب من العام 2003، كان 37 بالمائة من الشعب الروسي يعتبرون أميركا ودية، و48 بالمائة عدائية، و19 بالمائة لم يدلوا برأيهم. وقد وصف 29 بالمائة من المشتركين الشراكة بسين البلسدين "بالشراكة المغمة"، بينما اعتبر 17 بالمائة بأن روسيا وأميركا كانتسا شريكتين متكافئتين، و16 بالمائة كانوا يعتقدون بألهما كانتما خصمين أكثم منهما شريكتين(17). ولكن المهم في الأمر هو أن 46 بالمائة منهم تحدّثوا عن الشراكة مسع الولايات الأميركية، وهذا يُظهر أن معاداة أميركا لم تكن سائلة في أوساط الشعب الروسي؛ رغم الجهود الدائمة من الإيديولوجيين والسياسيين من دعـــاة المركزيـــة

339

والقومية الروسية لتعزيز الشعور بالعداء لأميركا في المحتمع الروسي.

لقد أعطت الأحداث الجارية في العراق صورة أكثر وضوحاً عن مدى تطور سياسة روسيا الخارجية. أولاً، هذه المرة، توقَّفت روسيا عن محاولة إنقاذ صدام حسين، كما فعلت في الحرب الأولى في العام 1991(18). ثانياً، حاولـــت روســـيا بحنب تعميق الخلاف مع واشنطن، حتى عندما عارضت السياسة الأمر كية في العراق. كان الموقف النقدى لروسيا أكثر لطافة ورقة من موقف حساك شهراك، المنتقد الأكثر صراحة لواشنطن ثالثاً، أظهرت الكارثة العراقية حسدود الشراكة الأمريكية الروسية. فعلى الرغم من عدم قدرة روسيا على أن تكون شريكاً مكافئاً، إلا ألهالم تكن مستعدة لتقبل بدور الشريك الصغير لأميركا، مع ألها لعبتـــه عــــدة مرات. أي أن التناقضات واللااستقرار كانتا عيرباً خلُّقية في بنية هذه الشراكة. رابعاً، لجأت روسيا، لعدم قدرةا على تطبيق موقفها بشكل مستقل، إلى المؤسسات الدولية، وعلى نحو خاص الأمم المتحدة وبحلس الأمن، حيث كانــت عضــويتها فيهما واحدة من الضمانات القليلة الباقية لمكانتها كقوة عظمي. خامسياً، لقيد أكُّدت أحداث العراق خشية روسيا من زيادة قوة أميركا ومسن تعزيم دورهما كحكّم عالمي، وأظهرت أيضاً محاولات موسكو تحجيم ذلك الدور، دون أن تصل إلى حدّ المواجهة مع الولايات المتحدة بالطبع. وهذا القلق من الهيمنـــة والأحاديـــة الأميركية لم يكن روسياً صرفاً بل اشترك فيه أيضاً حلفاء أطلسيون الأميركا، حسمتي إلهم حاولوا أكثر منها كبح جماح الهيمنة الأميركية.

إن الانشقاق الذي وقع في الناتو حول العراق والقضايا المتعلقة بالنظام العالمي المحديد، الذي كشف عن الفوارق في الفكر السياسي والعقلية السياسية وحسى في الأجندة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وأوروبا، وسع نظرياً من مساحة نشاط الدبلوماسية الروسية، ورفع من شأن دور روسيا في الساحة العالمية، لأن تعاولها كان مطلوباً من أوروبا وأميركا معاً. بيد أن هذا الانقسام في الغرب، في الوقست نفسه، أربك المؤسسة السياسية الروسية والشعب الروسي فيما يتعلسق باختيسار الشركاء الممكنين وإطار الدور الدولي الذي ينبغي أن تلعبه روسيا. كانت النخسة الروسية تقول، بتكرار متزايد: "الغرب لا يعرف إلى أين هو ماض. دعوهم يعرفون الروسية تقول، بتكرار متزايد: "الغرب لا يعرف إلى أين هو ماض. دعوهم يعرفون

وجهتهم أولاً، أما نحن نسنكتفي بالانتظار. وإلا فسنأخذ طريقنــــا الحنـــاس مـــرة أخرى". بعبارة أخرى، إن التوتر والإرباك اللذين أصابا المجتمع الغربي صعّبا حركة روسيا باتجاه الغرب.

على أي حال، ثمة حدث آخر أسر اهتمام روسيا والعالم. في حزيسران مسن العام 2003، اعتقل ألكسي بيشوجين، رئيس الأمن في الشركة النفطية الأكسير في الوسيا، يوكوس، بتهمة القتل. في تلك اللحظة، قلة من الناس توقعوا بسأن هسذه ليست سوى البداية. ولكن، في 3 تموز، اعتقل بلاتون ليبيسديف، أحسد أكسير المساهمين والمدراء في يوكوس، بتهمة اختلاس أسهم من شركة تُسدعي أباتيست. حينقذ أدرك العارفون في بواطن أمور السياسة الروسية بأن العاصفة باتت وشيكة. في اليوم التالي، استدعى المدتعي العام كلاً من ميخائيل خودور كوفسكي، رئسيس شركة يوكوس، وصديقه ليونيد نيفزلين، المساهم الأكبر فيها، للاستحواب.

الآن أصبح واضحاً أن الكرملين فتح باب التفتيش على يوكوس. ولكن، كان هناك سؤال واحد فقط: لماذا يوكوس؟ بالطبع، لم يكن غمة ملائكة بسين الطبقسة المتنفذة في روسيا، وكلهم كانوا يخبئون هياكل عظمية في عزالنهم. ولماذا هوجمت يوكوس فقط عندما حاولت الخروج من اقتصاد الظلّ ونيسل القبسول كشسركة متحضرة وشفافة وملتزمة بالقانون في روسيا والغرب على حدَّ سواء؟ هذه الشركة كانت تُعمنف كرابع أكبر شركة منتحة للنفط في العالم، وكانت تعتمد عليها عدة ميزانيات علية، بل حالة السوق الروسي ككل. قبل فترة قصيرة من بسده هسفه القصة، اتمفقت شركتا يوكوس وسينيفت على الاندماج (بموافقة الكرملين)، وهو ما كان سيودي إلى إنتاج شركة عملاقة على مستوى العالم يمكنها بسهولة منافسة أكبر الشركات الغربية. وفحأة، انتهى كل هذا!

في تلك الفترة، قلة من الناس، بما فيهم خودور كوفسكي نفسه، توقعوا أن تعسل الأمور إلى تلك الدرجة. بيد أن خودور كوفسكي اعتقل في 25 تشرين الأول مسن العام 2003. بدا الاعتقال وكأنه مأخوذ من فيلم "آكشسن" رديء: قسام حسود مقنعون من القوات الخاصة بإعاقة طائرة خودور كوفسكي في مطار نوفوسيبرسك عن طريق وضع الشاحنات في طريقها، ثم اقتحموا المقصورة وهسم يعسيحون "انطبحوا على الأرض!" واقتيد رئيس شركة يوكوس تحت الحراسة إلى مكسب الملتعي العام في موسكو للتحقيق، وكأنه سحين خطور فسوق العادة. أنهسم خودور كوفسكي بإخفاء أرباحه والتهرّب من دفع الفيرائب والاخستلاس، وقسم حديدة كان يتم تمضيرها. كان واضحاً أن السلطات كانت تريد إيصال رسالة ما، وقد وصلت بالفعل، فقد ارتعدت النجبة الروسية وهي ترى رجل الأعمال الأكثر وقد و روسيا مقيداً في الأغلال؛ كان مشهداً غير عادي في روسيا.

قبل لخودور كوفسكي أكثر من مرة بأن الكرملين لم يكن راضياً عنه، وأنب يمكن أن يواجه بعض المشاكل. ولكن، لا بد أنه كان واثقاً من حظه وأنب كان يعتقد بأن حماية الكسندر فولوشين وجماعة يلتسين وعلاقاته الجيدة مسع الفسرب كانت كافية. لقد أثبت اعتقال رئيس شركة يوكوس بأن ليس هناك من لا يمكسن المساس به بالنسبة للكرملين. وبعد فترة قصيرة من اعتقال خودور كوفسكي، استقال فولوشين، رئيس الإدارة الرئاسية. كان فولوشين الكاردينال المتنفذ الخفسي في الكرملين، الذي يمسك في يده كل الخيوط ويرمز إلى خلافة السلطة. وهكذا، بدأ أحد فصول التطور الروسي يقترب من نمايته، إنه تاريخ الطبقة الحاكمة الروسية وتاريخ عائلة يلتسين السياسية.

على أي حال، لم تكن قصة يوكوس مفاحاة بالنسبة للمراقب المنتبه للمشهد السياسي الروسي. كان المتنفذون ذوو الطموحات السياسية وأصدقاء يلتمسين المقربون الذين يشغلون مناصب رئيسة في البلد لا يناسبون البنية الجديسدة لنظام بوتين السياسي. تخيَّل ماذا كان يشعر بوتين وهو يعلم بأنه مضطر للتعامل كل يوم مع فولوشين، الذي كان ينظر إلى الرئيس كشخص ينتمي إلى موقع آخر وطبقة أخرى. لاشك أن يوتين بدوره - بسبب تنشئته - لم يكسن باستطاعته تحسل

الأثرياء المتنفذين، ويتهمهم بارتكاب الجرائم الاقتصادية، ويشك في طموحاتهم السياسية. وعلى هذا الأساس، كان مقدّرٌ على الرئيس، عاجلاً أم آجلاً، أن ينف صبره ويشرع بالتخلص من آخر رموز الحقية الماضية (19).



ولكن، لماذا خودوركوفسكي هو الذي سقط ضحية هجوم الكرملين علسى الطبقة المتنفذة? تساءل الصحفيون. لماذا لم يكن رومان أبراموفيتش، "حقية نقود" عائلة يلتسين، الذي نقل أمواله علناً إلى الخارج، وأثار غضب الشسعب الروسسي بشراءاته الباهظة، وأهمها شراؤه لنادي تشيلسي الإنكليزي لكرة القلم؟ هل كانت سمعتهم أفضل من سمعة خودوركوفسكي؟

ما لاشك فيه أن خودور كوفسكي صنع لنفسه أعداء أكثر من غيره، لأنسه كان من أشد رجال الأعمال الروس عزماً وتصميماً. ولعل أعداؤه الشخصيين كان من أشد رجال الأعمال الروس عزماً وتصميماً. ولعل أعداؤه الشخصيين كانوا أكثر بكثير من أعداء زملاته في العلقة الحاكمة، وذلك لأنه ببساطة كان أكثرهم نجاحاً لأنه كان، إضافة إلى ذكائه، عدم الرحمة في سعيه لتحقيق أهدافه. ولهذا السبب، كانت الشركات المنافسة له، شركتا النفط الحكوميتان "روزنيفت" و "ترانسنيفت" والشركة الخاصة "لوك أويال"، مهتمة بتدميره. وكان هناك أيضاً بضعة أشخاص، قريون من أوساط فريسق سان بطرسبورغ، متلهفين لانتزاع قطعة من أملاك شركة يوكوس القوية، لألهم حاؤوا بطرسبورغ، متلهفين لانتزاع قطعة من أملاك شركة يوكوس القوية، لألهم حاؤوا من متأخرين حداً إلى وليمة المنصخصة التي أقيمت في المهد السابق و لم يتمكنوا مسن الفوز بأي من القطع الدسمة التي اختطفها أعضاء بحموعة يلتسين المخطوظون. لكن الفوز بأي من القطع الدسمة التي اختطفها أعضاء بحموعة يلتسين المخطوظون. لكن هنودور كوفسكي كان يفعل تماماً ما كان يفعله كل رجال الأعمال في روسيا؛ أي فنحودور كوفسكي كان يفعل تماماً ما كان يفعله كل رجال الأعمال في روسيا؛ أي استخدام شسركات أحنبية أنه حاول تخفيض ضرائية إلى الحدة الأدنى عن طريق استخدام شسركات أحنبية واستغلال الثغرات في القانون.

كانت أسباب الهجوم على يوكوس سياسية في معظمها، وكانت ستساهم في هذه المكيدة مهما كانت مشاعر بوتين الشخصية تجاه خودوركوفسكي وشـــركة يوكوس. صحيح أن بوتين بالكاد استطاع إخفاء كراهيته لرئيس يوكــوس، إلا أن ذلك لم يكن ليؤثّر على حتمية ما حصل(20). كانت التطورات المنظمة والمنهجيسة أكثر أهمية من العواطف والمشاعر. والنظام الجديد الذي شكَّله بوتين كان ينبذ كل اللاعبين السياسيين المستقلين الذين يستطيعون انتهاك منطق الحكم المطلق. لم يكن الأمر إذن يتعلق بثراء خودوركوفسكي، بل كان يتعلق بحقيقة أنه عندما بدأ التفكير بشكل سياسي أصبح عندان يشكل تمديدا للنظام؛ فلقد كان خودور كوفسكى يقوم باتصالات مستقلة مع الحكومات الغربية، وخاصــة الإدارة الأميركيــة، دون التنسيق مع الكرملين، ويقلُّص اعتماد شركته على الدولة. كان عودوركوفسكى يمثّل تمديداً ليس على المستوى الشخصي بل لأنه كان يجسّد نــــزعة حديـــدة في علاقة الشركات التحارية بالحكومة، بمعنى أن الطبقة المتنفذة تحدَّت علناً ليس فقط الرئيس بل الطريقة التي كانت تُحكّم فيها روسيا. وعلمي ما يسدو، كان خودوركوفسكي يفكّر في استراتيجية بديلة - في نظام آخر ومبادئ أخسرى - أو أنه أوجد انطباعاً بأنه كان يفكر في هذا الاتجاه. وفوق ذلك، ناقش مالكو يوكوس علنًا تحويل الجمهورية الرئاسية إلى جمهورية برلمانية وناقشوا كذلك طسرق زيسادة نفوذهم على الدوما والحكومة(21). ومما لاشك فيه أن الكرملين أحيط علماً بكـــل هذه النقاشات.

اما الأمر الذي سرَّع وتيرة الأحداث فهو ما كانت تقوم به يوكوس - بأكثر الأساليب عدائية ودناية - من إفشال لقرارات الحكومة في البرلمان إذا كانت تلك القرارات تقلَّص من مصالحها. كان رجال خودوركوفسكي يقومون بشراء نواب البرلمان، بالجملة، من أجل منع تبنّي قرارات الحكومة. ولم يُخف مدراء الشركة سعيهم لتشكيل قوة ضغط (لوبي) قوي في الدوما الجديد عن طريق حلب أشخاص تابعين لهم عبر قوائم من أحزاب متنوعة، بمن فيهم الشيوعيون والليبراليون. وقسد اعتر بوتين هذا النشاط السياسي تحديداً لسلطته، وهو كان بالفعل تحديداً لقدرته في السيطرة على المحلس التشريعي.

إذاً، حاء الهجوم على خودوركوفسكي لسببين، أولاً لأنسه كسان يحساول التحلّص من سيطرة الدولة؛ وثانياً، لأنه كان المؤسس المحتمل لنسسزعة سياسسية

جديدة يمكن - فيما لو سيطرت - أن تمدّد النظام الموجود. بصفته رحل أعسال يجاول اللّعب حسب القوانين المعروفة، كان رئيس يوكوس بمثّل اتجاهاً إيجابياً إلى حدّ كبير، ولكن، ما لم يكن واضحاً هو كيف كان سيستغلّ نفسوذه السياسسي؛ لتعزيز مصالحه التحارية أم للصالح العام؟ حق ذلك الوقت، أظهر خودور كوفسكي - من خلال نشاطه - بأنه يمكن أن يتحرك في أي اتجاه. صحيح أننا لن نعرف أبداً أي طريق كان سيسلك فيما لو تمكّن من تأسيس قاعدته السياسية، لكسن تطسور خودور كوفسكي في عامي 2002-2003 يسمح لنا أن نفترض بأنه كان سيشسرع بالتفكير في صيغة جديدة للملاقات بين التحارة والسلطة والمجتمع، ومن المرجّع أنه صينحج في ذلك لو لم يُسحَن.

أي رابط يجمع بين سقوط ذلك الثري ورحيل فولوشين، لاعب يلتسين الأساسي؟ كان فولوشين بيساطة عمّل الدرع الأخير للطبقة الحاكمة الباقية في معسكر بوتين. من الواضح أنه حاول مساعدة عودوركوفسكي، لكنه فشل. لقد أدرك فولوشين، السياسي الذكي، أن الوقت قد انتهى بالنسبة لليلتسينين وأن مكوثه طال في ضيافة الكرملين. لقد قام عما كان مطلوباً منه وحان وقت رحيلة قبل أن يُطرَد خارجاً 225. بعبارة أخرى، كانت السلطات عسم الستخلص مسن خودوركوفسكي تحل مشكلتين في وقت واحد؛ أي توجيه ضربة قاصمة إلى الطبقة من خلال قطع حبال شركة يلتسين الحاكمة، وتدمير اللاعبين السياسيين المستقلين من خلال قطع حبال شركة يلتسين الحاكمة، وتدمير اللاعبين السياسيين المستقلين النية. على أي حال، من الممكن فهم تحوله إلى الأساليب التقليدية في الحفاظ علسي النية. على أي حال، من الممكن فهم تحوله إلى الأساليب التقليدية في الحفاظ علسي البية. إن إعادة بناء النظام السياسي كان سيأخذ بعض الوقت وعواقبه لم يكسن البامكان التوقع هما، وهو كان مضطراً لمعالجة المقبة الى تواجه سلطته الآن.

——••• ·--

لماذا بدأت الثورة ضد الطبقة الحاكمة في صيف العام 2003؟ وهذا أيضاً يمكن فهمه، فالانتخابات التي يُفترَض بأنها كانت ستمنع الشرعية لنظام بسوتين باتست وشيكة، وفريق بوتين لم يكن باستطاعته تحمَّل أية معارضة للسيناريو الذي وضمه بنفسه. إن محاولة محودوركوفسكي إبعاد البرلمان عن سيطرة الدولة كانت تقف في طريق خطة الكرملين وتشكّل أمنولة سيئة لمجتمع التحارة والأعمال.

بالطبع، إضافة إلى الأهداف السياسية للحملة على شركة يوكسوس، كسان بعض المسؤولين في الإدارة بملكون أهدافاً اقتصادية؛ الرغبة بإعادة توزيع مقسدرات الشركة النفطية العملاقة بما يتناسب مع مصالحهم، أو تغيير إدارةا كي يسسيطروا هم عليها. وقد أظهرت أحداث العام 2004 بأن هذا الهدف كان أيضاً جزءاً مسن الحملة على يوكوس وخودوركوفسكي. وبعد انتهاء يوكوس سياسياً، أصسحت العالمة الإقتصادية هي الغاية الأساسية في التعامل معها.

بانسبة للنبقراطيين والليرالين، كانت قصة يوكوس عمّل تحذيراً آسر من الاتجاه الذي بدأت السلطات تسير فيه. بالطبع، لم يكن خودوركوفسكي، بالنسبة للكثيرين، شخصية حدابة حداً، شأنه في ذلك شأن المتنفذين الآخرين، لأفرم أساؤوا ليس فقط إلى عملية الخصخصة بل إلى الحريات السياسية أيضاً، التي كانوا يستغلونها من أجل تعزيز مصالحهم الخاصة. لكن الهجوم على خودوركوفسكي وعلى شركته كان مؤشراً على أن السلطة التنفيذية قد بدأت بوضع حدود للقطاع الأكثر نفوذاً في روسيا، القطاع الذي يمكنه أن يكون نداً حقيقياً لها. وحالما يتمكن الفريق الحاكم من القضاء على الطموحات السياسية للشركات العملاقدة، حسى يصبع بإمكانه بسهولة السيطرة على الساحة السياسية الروسية، مع ألها كانت أشبه يمنظر صحراوي. ويمكننا هنا أن نتخيل أن منطق مركزة السلطة سيرغم الكرملين على الاستعرار في قطع كل الأعشاب السياسية إلى أن تنفي كل علائم الطموح على الاستعرار في قطع كل الأعشاب السياسية إلى أن تنفي كل علائم الطموح السياسي غير الخاضع للسيطرة. وفي تلك الفترة، كان ما يزال هناك بعض البقسع التقائية، إن لم نقل المقاومة: النخب الإقليمية المتذمرة، ورجال الإعلام، وبسالطبع المتقون الذين كان التعامل معهم صعباً على الدوام.

 الفدية، كما يفعل الخاطفون المحترفون. هذا لا يليق بالدولة. القانون يفرض عدة أساليب متمدنة في مثل هذه الحالات"، كتب الصحفي أوتو لاتسيس (23). كما قال ييفنيني ياسين، عرَّاب الإصلاحيين الروس، بأن الهجوم علمي يحودور كوفسكي سيودي حتماً إلى إضعاف الشركات التجارية الكبرى وزيادة ولائها إلى الدولسة، بالإضافة إلى تقوية وكالات الأمن والحفاظ على النظام. لكن هذه الفوائض، كما القانون، وانغراس قواعد الظل للعبة في الأذهان، وفقدان النظام لسمعته، وانخفاض الاستثمار في روسيا. حذَّر ياسين "انسوا النمو الاقتصادي والتطور! انسوا الحقوق والمريات! إن البلد يرجع إلى الوراء، إلى بدايات الثمانينيات (24). لكن هذه الأصوات الوحيدة المبرَّة عن النقصة والسخط، إذ إن الليم اليين والمنتقراطين فضًاوا إما السكوت أو الموافقة على تصرَّف السلطات. حين إن ممثلي حزب يابلوكو، الذي كان يتلقى دعماً مالياً من يوكوس، حساولوا إمادا النتية المنتفذين كانوا مكروهين حتى ضمن الأوساط الديمقراطية، بل لأن أتباع يابلوكو كانوا ناقمين على يوكسوس ضمن الأوساط الديمقراطية، بل لأن أتباع يابلوكو كانوا ناقمين على يوكسوس خاولوا عليها جعلهم أدوات في جهودها للضغط على الدوما.

- **&** --

ما هي ردّة فعل الشعب على قضية يوكوس؟ 47 بالمائة آيدوا "ثورة الكرملين على الطبقة المتنفذة"، وذلك كان متوقعاً لأن المتنفذين ونمط حياقم والامسؤوليتهم أصبحوا منذ وقت طويل مصدراً للفيظ والغضب. أما الطبقة السياسسية، فقسد أحجمت، باستثناء بعض أصوات الاحتجاج الضعيفة القليلة، عن التعليق علسى الأمر. لقد بلغ الكرملين من القوة درجة أن أحداً لم يكن يرغب الدخول في صراع معه من أجل خودور كوفسكي. ومع ذلك، ظهرت في البداية بعض الآراء المعارضة من أعلى مراتب السلطة حول طريقة التعامل مع يوكوس. على الأقسل، لم يخسش رئيس الوزراء ميخاليل كاسيانوف أن يقول في 24 مموز عام 2003 بأن الأسساليب العيفة في التعامل مع الشركة مؤذية للاقتصاد. وبالنسبة للشركات التحارية، حاول

بعض المتنفذين في البداية إرسال رسائل إلى بوتين يطلبون فيها لقاءه، مسن أحسل مساعدة يوكوس، لكن بوتين لم يجب⁽²⁵⁾. ثم فهمت الشركات الكبرى الرسسالة، وأذعنت للأمر رغبة منها في الحفاظ على بقائها الفردي⁽²⁶⁾.

رغم أن غالبية الشعب الروسي آيدت هجوم الحكومة على يوكسوس، إلا أن ربعه فقط (26 بالمائة) كان يشعر بأن ذلك حدث بسبب الأخطاء المالية للشركة ولا علاقة له أبداً بالسياسة؛ 18 بالمائة من الشعب اعتقدت بان الأسر يتعلس بالصراع على السلطة؛ و9 بالمائة اعتقدت بأن الهجوم يتعلق بالانتخابات القادمسة؛ واعتقدت 10 بالمائة بأن ذلك كان بداية لحرب على الطبقة المتنفذة؛ و لم يسد 3 بالمائة رأيهم. ومما يثير الغضول هو أن 54 بالمائة كانوا يشعرون بأن المدعى العامم كان ينفذ أوامر بوتين (27). من الواضح أن المواطنين العاديين كان يملكون فهما جيداً لما كان يجرى و لاحظوا الأساس السياسي.

إن هجوم الحكومة على يوكوس، والردّ الشعبي الإنجابي كانا يشيران إلى أكثر من مجرد أن الصراع على السلطة والموارد كان مستمراً في روسيا، فما حرى كان يعني أن الكرملين لم يستطع بعد التخلي عن سيطرته المباشرة علسى القطاع التحاري، وأن الدولة الروسية لم تقبل بالكامل نتائج الخصخصة. والقصة برمّنها وانطباع الشعب الروسي عنها كانا يعنيان أيضاً أن الشركات التحارية الروسسية فشلت في إنتاج شعور بالمسؤولية الاحتماعية، وتأسيس حوار مع المجتمع الذي مسازل ينظر إلى التحارة على ألها سرقة.

إذا قبل المحتمع قمدوء القضاء على واحدة من أكثر الشركات تأثيراً، فهذا يعني أن الخصخصة كانت ما تزال تُعتبر غير شرعية في روسيا. وهذا مفهوم لأن الاستيلاء غير الأخلاقي على أملاك الدولة من قبل مجموعة من المقاولين كان واضحاً وضوح الشمس، ولأن الشركات الكيرى كانت تحتقر الناس ولا تحترمهم ولأن الشركات الكيرى كانت تحتقر الناس ولا تحترمهم ولأن المشركات الكيرى كانت تحتقر الناس ولا تحترمهم ولانا يشعرون بالإحباط والسخط لرؤية حفنة من المبتدئين وقد أصبحوا أثرياء بشكل فاحش فقط لألهم كانوا موجودين في المكان المناسب لانتزاع أملاك الدولة بشمن زهيد.

غير أن نظرة الشعب إلى الفساد كانت مبسّطة إلى درجة كبيرة. قلة من الناس

ف روسيا كانوا يفهمون بأن مشكلة الفساد كانت أكثر أهمية من الخصخصة، وأن الفساد لم يكن ناتجاً عن وحود الشركات الكيرى بل لأن النولة كانت عاله علمي الاقتصاد ولأن المسؤولين البيروقر اطيين كانوا يطبقون قبضاقم على التحارة. لم يلاحظ الناس أن المتنفذين عُيِّنوا من قبل الطبقة البيراقراطية من أجل انتزاع أمسلاك الدولة من سيطرة الدولة، وألهم عمدوا إلى الخصحصة لصالح الطبقة البيرواقراطيسة بشكل أساسي. وفي هذا الشأن، قال إيغور كليامكين: "لن يكون مسن السهل تفسير أن إعادة دراسة نتائج الخصخصة لا تغيّر الأشياء بشـــكل حـــوهري. وأن الشركات الواقعة تحت الهجوم هي نفس الشركات التي كانت تحاول الخروج مسن الوضع الذي سببته الخصحصة القذرة، وتحاول التعلُّب على نتائحها السلبية "(29). بعبارة أخرى، كانت الدولة تماجم شركة تحاول أن تصبح شفافة، الأمر الذي كان سيودي في نحاية الأمر إلى تقليص حجم الفساد. إذاً، فالدوافع وراء الهجوم علسي سيطرقم عليها. غير أن هذه الدوافع لم تكن مفهومة دائماً من قبل المحتمع الروسي، ويعود جزء من السبب في ذلك إلى أن رجال خودوركوفسكي ساهموا بشكل فاعل في فساد الدولة والسلطة، وكذلك لأن القليل من الناس في روسميا كسانوا يصدّقون بأن المتنفذين يمكنهم تغيير أساليبهم هكذا فحأة.

إن الأحداث المحيطة بمشكلة يوكوس، والنقاش حول شرعية الخصيحمة عززا من الوهم لدى بعض الفقات الاجتماعية بأن توزيع جزء من شروات المتنفسذين بشكل مختلف بمكن أن يمل مشاكل روسيا ويساعد على عاربة الفقر. من هناه أصبحت فكرة أبحذ جزء من أرباح الشركات الكبرى والعصة في روسيا (30). في الوقع، كانت هنالك حاجة لجمع المزيد من الضرائب، وخاصة مسن شسركات النقط، لأن النظام الضربي الخاص بالشركات الكبرى لم يكسن فعالاً إلى تلسك الدرجة. لكن جمع الضرائب الدائم وغياب قوانين مستقرة للعبة كانا يهلدان بقتل الدجاجة التي تبيض ذهباً. إن تنامي فكرة إعادة توزيع الأرباح ضمن بعض شرائح المجتمع الروسي كان يهدد إلى إيقاف توسع السوق الروسي (ولفترة طويلة).

ليحلّ مشكلة الفقر. بل على العكس، يمكن أن يزيد الفساد. وتاريخ إعادة التوزيع، يما فيها الثورة البولشيفية التي حدثت في العام 1917، يخبرنا أن مصادرة الثروات لا تذهب إلى الناس بل إلى بجموعات قرية من النظام(31).



ازدادت حدة الجو، المشحون سلفاً، حول الشركات التحارية الكبرى بصدور طبعة خاصة من مجلة "فوربس روسيا" في أيار عام 2004، مع قائمة لأغسنى 100 رحل في روسيا. تضمّت تلك القائمة أسماء شخصيات مشهورة، مثسل المسدراء الحاليين لشركات حكومية، ربم فياخيريف من غازبروم، ونائبة فياتشبسلاف شيريجت، وإيلينا باتورينا، زوجة عمدة موسكو يوري لوحكوف. وعلى الفور، بدأ الأثرياء الموحودون في القائمة حملة هيستيرية أنكروا فيها أغم كانوا يمثل ذلك الثراء الذي حسبه مراسلو فوربس. كانوا يعلمون بأن قائمة مثل هذه، في البيشة المديدة، لا بد أن تُدرَس من قبل مكتب المدّعي العام. على أي حال، من المكومات المتعلقة بالملياديرات الروس بشكل حيد، إذ إن الكرملين بدأ بعد نشر المجلة – العمل على إضعاف موقع لوجكوف ومجموعته، الذي كانت دائماً مصدر إزعاج للسلطات. يبدو أن زوجة لوجكوف الملسارديرة تميّد في تعقيد صراعه من أحل البقاء(32).



كان الحدث الممهد للانتخابات الروسية هو إجراء الانتخابات الرئاسية في الشيشان في 5 تشرين الأول عام 2003، التي اظهرت قدرة الكرملين في الحصسول على النتائج التي يريدها. أدارت موسكو عمليتها بذكاء كي يُنتخب مرشحها أحمد قاديروف، الذي أثبت على مدى عدة سنوات إخلاصه لبسوتين وقدرتسه علسى الإمساك بالسلطة بيد من حديد. قام لاعبو الكرملين، بسرعة وبلون أي لباقة أو تقدم أي ذريعة، بحمل كل المرشحين الآخرين لرئاسة الشيشان على الانسسحاب. عُرض على أحدهم، وهو أصلان بيك أصلاحانوف، منصب مستشسار بسوتين

(عرض لم يستطع رفضه). فيما أبعد آخر، مالك سيدولاييف، لفترة طويلة بواسطة المحاكم من أحل أخطاء تقنية في ترشيحه. ثم عملت موسكو على التخلص من كل شخص لم ينسحب من تلقاء نفسه. لم يكن الكرملين يريد أية معارضة لقاديروف. كانت موسكو تحتاج لنصر ساحق، وهذا ما حصل، حيث انتخبست الشيشان قاديروف وأعطته نسبة 82.55 بالمائة من الناخيين؛ الأمر الذي أذهل المراقين.

كانت نتيحة الانتخاب الشيشاني عمثل عودة إلى أسلوب الاتحساد السوفياتي القديم الذي يقول بأن عدد الناخبين لبس مهماً بل المهم هو الأصوات المحسية. كانت موسكو تريد قاديروف لأنه كان ديكتاتورياً إلى أقصى الحدود. لعل بعسض الشيشانيين أعطوه أصواقم لألهم ستموا من الحرب وكسانوا يربسلون السسلام والاستقرار. وقاديروف كان الخيار الوحيد المطروح أمامهم. على الأقل، كان هذا الحيار شيشانياً، وحزء من الشيشانيين قبلوا به؛ ولو مكرهين. لكسن مشل هسذه الخيار شيشانياً، وحزء من الشيشانين قبلوا به؛ ولو مكرهين. لكسن مشل هسذه الأغلبية التي حصل عليها قاديروف تثبت أن الانتخاب قد تم التلاعب به.

وهكذا بدأ تنفيذ سيناريو بوتين لشَشْنَنة النظام؛ أي نقل السلطة في الجمهورية بشكل تدريجي إلى شيشانيين موالين لموسكو. في تلك اللحظة، بدا أن ذلك السيناريو هو الطريقة الوحيدة لحل المشكلة، وبدا أنه كان ناجحاً. لكن مسرحية الدمي هذه، في واقع الأمر، كانت تنقصها الشرعية، الأمر الذي قــوَّض سيناريو الشَشْنَنة الذي أراد بوتين تنفيذه. كان الشيشانيون يريدون احتيار زعبمهم الششم، حتى لو كان مقدَّراً عليهم العيش في ظلّ روسيا.

بدا بوتين بأنه يتق في قاديروف. فعلى الرغم من اعتراضات حزرالاته، راهسن الرئيس الروسي على "فقيه إسلامي سابق كان قد أعلن منذ مدة قريبة فقط الجهاد على روسيا. كان الجيش الروسي يكره قاديروف السديكتاتور، السذي تجاهلسهم وطرحهم حانباً، مفضّلاً السعي لتحقيق خططه من خلال بوتين شخصياً. والمسئير للاستغراب في الأمر هو أن قاديروف نجمح في الحصول على المزيسد مسن الحكسم المستقل من موسكو، حيث أصبحت الشيشان أكثر استقلالية مما كانت عليه في عهد أصلان ماسحادوف. الكثير من الناس قالوا مستغريين، وهم ينظرون إلى النابع الجديد لموسكو في الشيشان: لماذا أشعلت الحكومة حربها الثانية على الشيشان إذا

كانت النتيجة ما تزال هي ذاتما؟ (كانت الشيشان تنسلخ عن روسيا). لكن رئيس الشيشان، هذه المرة، لم يكن كولونيلاً سوفياتياً سابقاً يمكن للمرء أن يتحدث معه بل أمير حرب يطمع إلى بناء نظام ديكتاتوري.

غير أن إمكانية وجود سلطة مطلقة في الشيشان كانت مجرد وهم. الكلّ كان يعرف بأن قاديروف كان محكوماً بالفشل. وهو نفسه كان يعسرف ذلك. كان قاديروف مهدداً بالحرب مع روسيا، وكان مهدداً أكثر بمحاربة رفاقه القدامي باللمات. كانت محاولات اغتياله لا تتوقف، وقُتل فيها العشرات من أصدقاته المقريين وأقربائك الذين كانوا يعملون كحراس شخصيين له. لم يتمكّن الانفصاليون من أن يغفروا لسه خياته، وهو الذي كان واحداً منهم، قبل أن يدلل الأدوار وينضم إلى موسكو في العام من نشاط الثوار الشيشاتين أيضاً. وقد فعل ذلك بطريقة بسيطة جداً: الشوار السذين من نشاط الثوار الشيشاتين أيضاً. وقد فعل ذلك بطريقة بسيطة جداً: الشوار السذين الذين بلغوا عدة آلاف من الرحال (من 3,000 إلى 0,500) وأصبحوا قسوة يُحسَب المذين بلغوا عدة آلاف من الرحال (من 3,000 إلى 5,000) وأصبحوا قسوة يُحسَب حسامًا. لكن رحال قاديروف بدأوا يتصرفون بطريقة أغضبت السكان المدنين. ولسن معنى وقت طويل حتى يصبحوا مشكلة جديدة للسلطات الفدرالية نفسها.

إن الاستقرار في الشيشان، الذي كان يعتمد على زعيم واحد وعلى نظام
ديكتاتوري بناه هذا الزعيم مستخدماً رحاله المقريين، لم يكن ثابتاً ومؤمناً. فقتال
المقاومين كان ما يزال مستمراً في الشيشان، ولو على نحو أقل حدَّة؛ والألغام الأرضية
استمرت في استهداف القوات الفلرالية والمسؤولين الشيشانين المسوالين لموسكو؛
وأصبحت الأنشطة الإرهابية التي كان يقوم مما المتمردون الشيشانيون في روسيا روتينا
مالوفاً؛ وبقي ماسخادوف وشاميل باسيف، الزعيمان الانفصاليان، حرَّمن طليقين،
الأمر الذي أثار الشكوك حول إرادة موسكو بالقضاء عليهما، أو حول الفساد السذي
منع القوات الفلرالية من القيام بذلك. وعلاوة على ذلك، كان الشعب يكره القسوات
الروسية ويعتبرها قوة احتلال. وخاصة مع استمرار العنف الذي كان يُهديه الجنود.
اللاأعلاقيون تجاه المدنين، مغذّين بذلك دوامة الكره المتبادل.

بدأت حملة الدوما الانتخابية، وكان الهجوم على يوكوس لا يزال مستمراً. في الواقع، كانت محاولة السيطرة على يوكوس جزءاً من الحملة. ففي بدايسة العام 2003، أظهرت استطلاعات الرأي بأن 14 بالمائة من الشحب الروسسي كانوا يُغطّطون للتصويت لحزب الكرملين "روسيا المتحدة"، وأن الشيوعيين يمكسن أن يُغطّطون للتصويت لحزب الكرملين يمكن أن يخسر، وهذا لم يكن مقبولاً بالنسبة له. أي أن الكرملين يمكن أن يخسر، وهذا لم يكن مقبولاً بالنسبة الانتخابات البرلمانية في روسيا مؤشراً إلى الطريقة السيق سيسير وفقها الانتخاب الرئاسي. والصورة في ربيع العام 2003 لم تكن صورة جميلة ومشجعة بالنسبة للسلطات. من هنا، كانت حملة الكرملين ضد الطبقة المتنفذة وسيلة فعالسة الشيوعية والديمقراطية؛ أي يابلوكو واتحاد قوى الحق (SPS). لذا، فالهجوم علسي الشيوعية والديمقراطية؛ أي يابلوكو واتحاد قوى الحق (SPS). لذا، فالهجوم علسي خودور كوفسكي ساهم في تشويه سمعة الأحزاب السياسية التي كان يدعمها بسين الناس. بالنسبة لناحي SPS – معظمهم كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الجديدة النسوعيين أثارت ردة فعل سلبية حداً ضمن الناحيين.

أقرت الحملة الانتحابية البرلمانية الجديدة، بعكس الحملات السابقة في روسيا، على طبيعة نصر بوتين. لكنها لم تستطع تغيير الوجهة العامة لتطور روسيا. لقد حدّدت انتحابات المدوما للعام 1993 – حدثت في نفس الوقت الذي أحري فيسه الاستفتاء على الدستور – مصير الدعم الشعبي للنظام الجديد الذي شكّله يلتسين بعد حلّ البرلمان الموجود، وأصبحت عاملاً في صياغة مبادئ ذلك النظام، فيصا كانت الانتخابات البرلمانية للعام 1995 نوعاً من المواجهة بين الكرملين والحسزب الشيوعي، الذي فاز فيها فأسيغ على البرلمان صفة المعارضة. أما انتخابات السلوما للعام 1999 فقد كانت صراعاً على السلطة بين فتنين حاكمتين؛ مجموعة يلتسين للعام 1999 فقد كانت صراعاً على السلطة بين فتنين حاكمتين؛ مجموعة يلتسين ليجموعة لوحكوف وبريماكوف. وتلك الانتخابات هي التي مهسدت الطسروف لومول بوتين إلى السلطة. فلو خسر حزب روسيا المتحدة، الذي يدعمه بسوتين، لاحتار يلتسين شخصاً آخر خليفة له.

لكن انتخابات العام 2003 لم تعد قادرة على تحديد مصير النظام ومبادئـــه.

لكنها كان تستطيع إضعاف شرعية بوتين في فترته الرئاسية الثانية فيما لو خسسر حزب روسيا المتحدة. لم يكن هناك أحد يشك في فوز بوتين بفترة ثانية، ولكسن، هل كان سيفوز في الجولة الأولى من الانتحاب مكتسحاً كل المنافسين الآخرين، أم سيفوز بشكل متواضع في الجولة الثانية. بالطبع، كان الكرملين يويد فوزاً سساحقاً لروسيا المتحدة، لأنه سيُظهر دعم روسيا الكامل لرئيسها.

ما هي أهم المسائل بالنسبة للحملة الانتخابية الجديدة؟ المسألة الأولى تتعلّستى عن سيفوز بالنسبة الأكر، روسيا المتحدة أم الحزب الشيوعي. في الواقع، لم يسبق لحزب السلطة أن حلَّ أولاً في انتخابات الدوما(33). المسألة الثانية، أي الأحسزاب المليرالية ستصل إلى البرلمان، هذا إن نجع أحدها في الوصول؟ والمسألة الثالثة، هسل سيحاول الكرملين تغيير نظام الأحزاب؛ وإذا فعل، فهل سينجع في ذلك؟

قرر الكرملين عدم تكرار الصيغة التي استُحدمت في العام 1999. في تلك الانتحابات، استفاد حزب السلطة من شعبية بوتين، رغم أنه لم يطسرح برنامحاً خاصاً به. ومع أن روسيا المتحدة فعل الشيء ذاته في العام 2003. إلا أن الحيزب هذه المرة استخدم موارده الإدارية، كما تُدعى، بشكل أكثر فعالية وصراحة. أي أنه تمتُّع بدعم السلطات على كل المستويات، بالإضافة إلى حقّ استعمال القنوات التلفزيونية الحكومية الوطنية، التي أصبحت أكثر الأساليب تأثيراً في صياغة السرأي العام في روسيا. بيد أن حزب روسيا المتحدة لم يعد غراً عديم الخيرة، وهـــذا مـــا كى يثير عواطف الناخبين ويوحَّدهم. إذا لم تكن مُلــك برنامحـــاً خاصـــاً بــك وشعارات خاصة بك، فأنت بحاحة إلى ما يجمِّع الناس ضد شيء آخر. في انتخابات عام 1999، قام الصحفيون المؤيدون للنظام بمهاجمة الحسزب الشميوعي ولوجكوف وبريماكوف. وفي العام 2003، عاد الحزب الشيوعي ليكون العدو من حديد، لأنه كان ما يزال الحزب المعارض الأكبر. وكلما كانت الأصــوات الــــــى يحصل عليها اليسار أقل، كلما كان فوز روسيا المتحدة أكثم إقناعاً (34). وهكذا، بدأ الصحفيون المقربون من النظام والسياسيون والبيروقراطيون بانتقاد الشيوعيين -العدو رقم واحد مرة أخرى - علناً.

كان الأمر يبدو وكأن الحزب الشيوعي وُجد فقط كي يصبح الصبي السدي يُجلد - على أخطاء ارتكبها الآخرون - خلال الانتخابات وكي يضمن النصر للسلطات. لم يتساءل كثير من الناس لماذا بقي الحزب الشيوعي بعد ثلاثة عشسر عاماً من سقوط الاتحاد السوفياتي، وهزيمة الشيوعية الحزب السياسسي الحقيقسي الوحيد في روسيا، ولماذا كان يلقى الدعم من شريحة كبيرة إلى حدَّ ما من المحتمع، هذه الحقيقة كانت تشير إلى مدى حقيقة فعالية النظام، لأن المعارضة انمكاس لها دائماً؛ بعبارة أخرى، عندما لم يكن النظام قادراً على إيجاد حلَّ لمشاكل المحتمع، وجد المحتاجون والضعفاء في الشيوعين حماية لهم. ولكن، ثمة مؤشرات أخرى تدلَّ على أن النظام كان هو الذي ينتج تلك المساحة المصطنعة من النشاط للحزب الشيوعي، الذي أظهر زعماؤه، وخاصة زيوغانوف، ضعفاً وخشية من المواجهة مع النظام. وهذا هو سبب عدم رغبة الكرملين، في تلك القترة، بالانهيار الكامسل للشيوعين، الذين أصبحوا بمثابة شريك التسدريب في لعبسة الملاكمسة بالنسسة للسلطات.

هذه المرة يجب الاعتراف بأن الشيوعيين أعلُّوا أنفسهم للهجوم عن طريت وضع ممثلي يوكوس في قوائمهم الحزبية. لكن ذلك كان بمثابة هدية للكرملين، فقد منح برابحه التلفزيونية السياسية موضوعاً رائماً للحوار: كيف باع الشيوعيون أنفسهم.

على أي حال، ثمة اتجاه آخر سلكه الكرملين ثمثّل في تشكيل الجبهة الوطنية البسارية رودينا (الوطن الأم)، التي كانت تهدف إلى حرمان الحزب الشيوعي مسن ناخبيه القوميين واليساريين. ووُضع السياسيان الطموحسان مسيرجي غلازيسف ودعيتري روغوزين على رأس تلك الجبهة. الأول كان يروق للناخبين اليسساريين، والثاني بدأ يلعب دور جرينوفسكي الجديد، مع نجاح ملحوظ (⁽⁵⁵⁾).

- y-

أسفر انتخاب الدوما الذي حرى في 7 كانون الأول عن نصر مدوَّ للنظام. للمرة الأولى، نجح الكرملين في ضمان فوز الحزب المؤيد له(³⁶⁾. بلغ عدد المصوتين 55.75 بالمائة. حصلت روسيا المتحدة على 37.57 بالمائة؛ والحزب الشيوعي علمى 12.61 بالمائة؛ ورودينا 12.61 بالمائة، ورودينا على 11.45 والحزب الديمقراطين الليبرالي (LDPR) على 11.45 والمنتبر المائة، وكانت المرة الأولى التي فشل فيها الليبراليون والسديمقراطيون في الدحول إلى الدوما، وفشلوا في تجاوز حاجز الخمسة بالمائة: يابلوكو حصل علمى الدحو SPS على 3.97 بالمائة (توزعت مقاعد الدوما علمى النحسو التالي: روسيا المتحدة 305 مقعداً، الحزب الشيوعي 51 مقاعد، الحزب الديمقراطي الليالي 36 مقعداً، رودينا 39 مقعداً، والنواب المستقلون 15 مقعداً.

خلصت بعثة منظمة PACE لم التبحاب إلى نتيجة عزنسة: "كانست الانتخابات حرّة، ولكن غير عادلة، والتحرك الروسي نحو الديمقراطية تباطاً إلى درجة كبيرة ((30). قد يبدو هذا الاستنتاج متناقضاً، لكنه يمكس حقيقة الواقع الروسي. ففي هذه الانتخابات لم تضطر السلطات إلى بذل الكثير من الجهد مسن أجل ضمان فوز الحزب المؤيد للكرملين. نعم، لقد استخدمت الضغط و "الموارد الإدارية". ولكن بشكل عام، كان التلاعب والغش خلال الانتخابات وأنساء إحصاء الأصوات أقل من السابق. ولهذا السبب كانت حرة نسبياً. أما مسألة كولها في عادلة فذلك يعود إلى أن مساحة التعبير المستقل كانت أضيق في السنوات الأعيرة، حيث احتكر حزب روسيا المتحدة التلفزيون ووسائل الإعلام الأحسرى لنفسه، على عكس الأحزاب والحركات الأحرى المعارضة للنظام التي لم يُتَع لها وقتاً مساوياً للوقت الذي حصلت عليه روسيا المتحدة من أجل البث التلفزيسوني والإذاعي. أما الجانب الذي يُظهر النحيز في ألمى صوره فقد تحكّل في حصول روسيا المتحدة (كما في انتخاب العام 1999) على دعم الشخصية السياسية الأكثر نفوذاً في روسيا المتحدة؛ وضمن فوزه.

كان حزب روسيا المتحدة يعتمد على معدلات الرئيس منذ بداية الحملة. فهو لم يقاتل، ولم يشترك في المناظرات التلفزيونية، ولم يقدم برنابحـــه الانتخـــابي - لم يفعل أي شيء - وكأن لسان حاله يقول: "إذا كنتم تدعمون الرئيس، فعليكم أن تصوِّنوا لناا" وكان الشعب الروسي يقرن الرئيس بالاستقرار والأمل بحياة أفضـــل. ولهذا السبب، حوَّل حزء كبير من الشعب، ثمن كانوا يعلَّقون آمالهم على السرئيس فقط، مساندتم إلى الحزب الذي كان يدعمه.

ولكن، كي نكون منصفين، ثمة عوامل أعرى لعبت لصالح روسيا المتحدة، وخاصة ضعف الأحزاب الأعرى المشاركة في الانتخاب، وعدم قدر تما على تقلم زحماء حدد، وشعارات حديدة لاحتذاب الناعيين. كما أن "ثورة الكرملين على الطبقة المتنفذة" سمحت لكل من روسيا المتحدة ومستنسخ الكرملين الجديد رودينا، إلى جانب عدد من الأحزاب الصغيرة المؤيدة للكرملين التي أسست قبل فترة قصيرة من الانتخابات، بالمشاركة في الحرب على الطبقة المتنفذة. صحيح أن الأحراب الصغيرة لم تكن ناجحة في الانتخاب - ولم يكن متوقعاً منها ذلك - إلا ألها المحدية الميامية في إنتاج مظهر يشبه المتعادبة الميامية في إنتاج مظهر يشبه المتعادية الميامية في الملد.

تبقى النتيجة الأكثر مأساوية للانتخابات هي هزيمة الأحزاب الليوالية، الستي فشلت في تخطي حاجز الخمسة بالمائة، وبذلك وجدت نفسها محسارج السدوما، وخارج الأنشطة السياسية العامة، لأن الأنشطة السياسية العامة في روسيا تسرتبط بالعمل مع مؤسسات السلطة. ومع أن الليواليين والديمقراطيين كانا يأملان علسى الأقل في وصول أحد أحزائهما إلى الدوما، إلا أن أياً منها لم ينجح في ذلك.

في تحليل تلفزيوني حيى للانتخاب على القناة الأولى، في 7 كانون الأول، أذكر أن العدوين الأبدين، يافلينسكي زعيم يابلوكو، وتشموهايس زعميم SPS، حاء إلى الاستوديو، بعد إعلان النتائج الأولية. كان يافلينسكي مبتسهماً بطريقة تنحو للاستغراب، بعكس تشوبايس الذي كان كتيباً وفاقداً غروره المعتاد. في ذلك البرنامج اتصل بوتين بيافلينسكي وهناه على فوزه. من الواضح أن الرئيس كان متاكداً من أن يابلوكو سيحصل على ما يكفي من الأصوات للدعول إلى المدوما. إضافة إلى ذلك، كان بوتين يريد على الأرجح أن يكون هناك حزب ليبرالي صغير في الدوما وهو كان يفضل يابلوكو، وإلا لماذا التقى مع يافلينسكي قبل الانتخابات مباشرة، منظهراً دعمه ليابلوكو، وإلا لماذا التقى مع يافلينسكي قبل الانتخابات

لا بد أن الرئيس كان يشعر بأن وحود معارضة ديمقراطية لا تحـــدد النظـــام

سيكون نافهاً. خلال الحملة الانتخابية، امتنع سياسيو يابلوكو، وخاصة يافلينسكي، عن مهاجمة بوتين، مما أوحى بأهم كانوا مستعدين للدخول في حسوار بنّاء مع الكرملين. وبالمقابل، حازف بوريس نيمتسوف، وهو أحد زعماء SPS، وهاجم الرئيس علناً عدة مرات. لقد اختلف الوضع عما كان عليه في انتخابات العام 1999. ففي ذلك الحين، يابلوكو هو الذي هاجم بوتين، ينما لعب SPS دور جزء من قاعدة بوتين؛ أما الآن نجد أن أحد أطراف SPS هو الذي ينتقبد النظام، بينما يحاول يابلوكو عدم إثارة عداوة الرئيس. غير أن المعجزة لم تحدث، ولم يدخل يابلوكو إلى مجموعة اللوما الجديدة، بالرغم من أن بسوتين مسدّ يسدّ للساعدة إلى يافلينسكي.

لغرض أن كلا الجزيين الليراليين أو واحداً منهما كان في الولمان، فماذا ميتفير عن غير للرجع أن يتمكن الليراليون والديمقراطيون من إعاقة الأغلبية الساحقة للكرملين في اللوما. لكن أكثر ما يزعج في الأمر هرو أن الليبرالين والديمقراطين مما لم يكونوا قادرين على توحيد قاعدتيهما الانتخابيين، حبيث حصل يابلوكو و SPS معا على 8 بالمائة فقط من مجموع الأصروات في حين أن عدد الناخبين ذوي الاتجاهات الليرالية في روسيا كان يلغ من 15 إلى 29 بالمائية، وهي مجموعة كبيرة من المحتمع من ذوي الميول الديمقراطية أصوالها إلى أحزاب أخرى أو ألها لم تنتخب على الإطلاق. وهذا يرجع، في الواقع، إلى خية أملهم من الأحزاب الديمقراطية-الليوالية ومن ليرالية يرجع، في الواقع، إلى خية أملهم من الأحزاب الديمقراطية-الليوالية ومن ليرالية المنمينات، ولديهم مبب وجهه خية أملهم تلك.

في الواقع، لم يكتف الحزبان الليبراليان بعدم التعاون بل بدأًا يتنازعان فيصا ينهما أيضاً. وهذا التنازع أدى إلى انحراف الوجهة الليمقراطية-الليبرالية للناخبين. كان SPS هو البادئ، عندما حاول سرقة ناخبي يابلوكو، ولم يتوقف عند هدذا الحق، بل إن رغبة زعمائه في تشويه سمعة يابلوكو والتخلص منه انخذت شكلاً قلراً ودنياً. بدلاً من توسيع الرقعة المنهقراطية، شرع حزب SPS عاسداً بسلب الأصوات من حزب يُفترَض أنه كان قريباً منه إيديولوجياً (90).

على أي حال، كلا الحزبين لم ينححا في تحديد دور خاص بمما في الوضيع

السياسي الجديد. كانا يتمزقان بين الرغبة بمعارضة النظام، والحاجة للتعاون مه. فالنهاب بعيداً في المعارضة كان يمكن أن يجعل من استمرار الحوار مسع المحتمسع مستحيلاً، لأن ذلك كان سيحرمهما من التمويل اللازم، ومن الحسق باسستعمال التفطية التلفزيونية، سينسى الناس حتى وجودهما. في روسيا، تترسخ المعتقدات السياسية بقدر ما تظهر على التلفزيون. وحالما يختفي أحد السياسين أو الأحزاب من الشاشة حتى يختفي من الحياة الواقعية أيضاً.

لكن الجلوس على مقعدين - المعارضة والحوار مع النظام - جعسل إمكانية البقاء بالنسبة للبراليين والديمقراطيين أكثر صعوبة في الواقع، لأنه أدى إلى حصول انشقاق في قاعدتيهما الانتخابيتين وإلى إرباك مؤيديهما. لم يستطع أنعسار SPS، الموالي للنظام، أن يفهموا، أو يوافقوا على، موقف نيمتسوف الشديد في المعارضة. أما بالنسبة ليابلوكو، المعارض على اللوام، فإن إلتباس موقفه المعارض وتردد قادته كانا أكثر تدميراً بالنسبة إليه. ولن يكون من قبيل المبالغة القول بأن يابلوكو دفع عمن عاولته المدعول في حوار مع بوتين. ولكن، لو لم يكن هناك حوار، لما ممكس يافلينسكي وفريقه من إيصال رسالتهم إلى الناس. على أي حال، كان بوتين يملك بعض المدعم ضمن أوساط ناحي الأحزاب الليوالية، لأنه كان يُعتبر السياسسي الوحيد القادر على إحداث تغييرات إيجابية في روسيا. باختصار، كانت الأحسزاب الليوالية واقعة في فخ لم تكن قادرة على الخلاص منه. وفي تلك الفترة على الأقل لم تكن له لمحلاص مطلقاً.

أثناء الانتخابات، كان هناك أيضاً زيادة في الشعبوية (معاداة طبقة النحبة) مع نبرة ضعنية قومية أو شوفينية ممزوحة بالحنين إلى أبحاد القوة العظمى، مسا أدى في لهاية المطاف إلى إعطاء المزيد من الأصسوات إلى الحسرب السيمقراطي الليسمرالي (LDPR) ورودينا. وهذه الزيادة كانت ناتجة عن الحملة التي قام بما الكرملين ضد الطبقة المتنفذة. في ذلك السياق، لا بد من ذكر النحاح غير المتوقع لرودينا السذي أوحده الكرملين. على أي حال، رغم أن النظام هو الذي بسداً في لعسب ورقسة الشعبوية، موقظاً مشاعر كانت كامنة في المجتمع، إلا أنه – حالما ظهرت – عاد إلى عاصرتها واحتوائها من حديد (40). من الواضح أن الكرملين كان يخشسي مسن أن

يستخدم أحد زعماء رودينا، وهو سيرجي غلازييف، الشعبوية لكي يصبح منافساً حدياً في الانتخاب الرئاسي. وحتى لو لم يحصل ذلك في العام 2004، فإن بعسض المراقبين لم يستبعدوا إمكانية أن يصبح الحزب الجديد تحت ظروف معينة قطباً للشعبوية في المستقبل، في انتخابات عامي 2007-2008. أما إذا كان ذلك ممكناً فالمستقبل كفيل بكشفه لنا.

إلى الواقع، كان يمكن لرودينا أن يكون مفاحاًة غير سارة بالفعل للكرملين. فأولئك الذين صوَّتوا للحزب المولود حديثاً كانوا - دون أن يدركوا ذلك ربما - معارضين للكرملين وبوتين. كانوا يعتبرون السياسة الرسمية ناعمة حداً وغير استبدادية بما يكفي، ولم يكونوا راضين عن التوجهات الغربية للرئيس. من الممكن حقاً، ولو أنه يبدو تناقضاً، أن يصبح رودينا، الذي أوجدده الكرملين، حزباً معارضاً؛ قصة على طريقة فرانكشتاين - تنشئ وحشاً يدمرك في تحاية الأمر.

لكن مساحة المشاعر القومية والشعبوية والحنين للقوة العظمى في المحتصع، بالرغم من توسعها، تبقى محدودة إلى حدًّ ما. فقد ازداد عدد المصوتين للأحسراب التي تتبنى هذه الأفكار بنسبة 4 بالمائة فقط مسن عسام 1999 إلى عسام 2003 (في 1999، حصل الحزب الشيوعي وLDPR معاً على نحسو 30 بالمائسة؛ وفي 2003، حصل الحزب الشيوعي وLDPR ورودينا معاً على نحو 34 بالمائه\(^{(4)}), روسيا إذن لم تكن قد أصبحت بعد أرض القومية والشعبوية والشوفينية. لكن اللهسب 4سنده المشاعر يمكن أن يودي في نحاية المطاف إلى تحويل روسيا إلى بلد يحلم فيه جزء من الشعب وغالبية الطبقة الحاكمة بإعادة إحياء السلطة والمحد السابقين.

لقد أوجدت انتخابات الدوما للعام 2003 نظاماً حزيباً حديداً في روسيا،
يتمركز فيه حزب روسيا المتحدة في المحور، والحزب الشيوعي علمى أحدد حانيب،
والحزيين الشعبويين القوميين، LDPR ورودينا، على الجانب الآخر. وسيُطلَق على هذا
النظام مؤقتاً اسم "النظام الحزبي المسيطر". ياله من خليط غريب: جهاز دولة يُدار تحت
إشراف كل من روسيا المتحدة، والحزب الشيوعي الذي كان أحد علمات النظام المقدم، وحزيين شعبويين قوميين يرعاهما الكرملين. مثل هذه النظام بمكسن أن يشهرة
المجتمع لا أن يينيه. ولكن السؤال هو، ماذا ستكون نتيجة هذا التشويه؟

بالطبع، كان الدوما الجديد أكثر تأييداً للكرملين من سابقه. فقد استلم حزب روسيا المتحدة مهمة توزيع اللحان وتنظيم العمل البرلماني، وبذلك لم يعد ثمة داع لقلق الكرملين، لأنه كان يملك ضمانات كاملة بأن البرلمانيين الجسدد سيصادقون على كل اقتراحاته التشريعية. غير أن هناك خطر من نوع آخسر: غياب المراقبة الواعية والحريصة على السلطة التنفيذية، التي لم تعد تجمد أي قيود مفروضة عليها.

- - **- - - - -** - - - -

ماذا بمكننا أن نقول عن العام 2003 بالنسبة لي شخصياً، أذكره على أنه عام الاعتياد على الشعور الشخصي بالعرضة للهجوم في كل الأوقات. وأنا أشير في ذلك إلى كل الأعمال الإرهابية التي أصبحت عنصراً دائماً في المشهد السياسي الروسي وفي حياة المواطنين العاديين. ففي شباط، انفجرت قنبلـــة في مترو موسكو راح ضحيتها 39 قتيلاً ومثات الجرحي. وفي أيار، انفحرت قنبلة في مبنى البرلمان في غروزني راح ضحيّتها 54 قتيلاً و300 حــريح. وفي تمــوز، انفحرت قنبلة في مطار توشينو في موسكو في حفلة موسيقية راح ضحيّتها 15 قتيلاً و40 حريحاً. في تموز أيضاً، انفحرت قنبلة في داغستان أودت بحياة 3 قتلي و40 حريحاً. وفي أيلول، انفحرت قنبلتان في قطار داخلي يصل بسين مسدينتي كيسلوفودسك ومينيرالني فودي راح ضحيّتها 5 قتلي و33 حريماً. وفي كانون الأول، انفحرت قنبلة في قطار داخلي في مدينة إيسينتوكي أودت بحياة 42 قتيلاً وأكثر من 100 حريح. في كانون الأول أيضاً، انفحرت قنبلة قــرب الفنـــدق الوطني في موسكو راح ضحيّتها 6 قتلي. كل هذا يعني بأن المواطنين السروس العاديين لم يكونوا يشعرون بالأمان في محطات المترو، أو القطارات الداخلية، أو الملاعب، أو الشوارع. دعوني أضيف إلى هذه القائمة الحزينة الاغتيال المدفوع أجره للديمقراطي الشهير سيرجى يوشينكوف وفقدان الفواصة في بحر بارينتس. مع كل هذه الحوادث لا يمكننا أن نتذكر عام 2003 كمام سعيد وهادئ علسي الإطلاق. 361

ولكن، على الرغم من كل ذلك، يقول عالم الاحتماع يوري ليفادا بان معظم الناس الذين شاركوا في الاستطلاع الذي أجراه اعتبروا العام 2003 أفضل من العام الذي سبقه. في ذلك الاستطلاع، وجد الشباب تحت سن 30 أنه أفضل من العام السابق. فيما وجده الأشخاص الذين تراوحت أعمارهم بين 30 و40 لا يختلف عن سابقه. أما الكهول فقد اعتبروه أسوأ من العام السابق. وكل الفشات العمرية كانت تشعر بالسأم واللامبالاة. لكن الشباب وحدهم كانوا متفائلين وتوقعوا أن تتحسن الأمور في العام 2004 أ. على أي حال، إن التفاؤل مسن عبرات الشباب. ولكن، دعونا لا تنسى أن ردة فعل الشباب تكون أقوى وأشد من غيرهم عندما لا تتحقق آمالهم. أما الشجمان من الروس الذين كانوا يحاولون استعادة الأمل بمستقبل مستقر وأفضل حالاً فقد كانوا يشعرون بأن الأمة كانست على موعد مع الزيد من التحارب القاسية في العام 2004.

روسیا تحصل علی رئیس جدید: بوتین مرة أخری

كيف تفوز في لنتخلب عن طريق تجاهله. طود كاسيانوف الذي لا يعكن إغراقه. الليبراليون أصبيوا بالشلل. بوتين يحصل على شرعيته الجنبدة، فتي تبنو هشة مرة أخرى. موسكو تفكّر في علاقاتها مع الغرب. ووسيا والاتعاد الأوروبي: مواعدة بنون أمل بالزواج.

مشاعر مختلطة من السأم والأمل كانت عمل المشهد الخلفي للحملة الانتخابية الرئاسية للعام 2004. في تلك الانتخابات، لم يكن لدى الرئيس فلاديمير بوتين أي داع يدفعه للقلق: روسيا، وإن لم تكن راضية تماماً، فهي على الأقل لم تكن تبحث عن زعماء حدد. كان الشيء الأهم بالنسبة لروسيا هو الاستمرار في المضي قدماً. لقد أظهرت انتخابات الدوما أن الأمة كانت تثق بالرئيس، وألها كانست موافقة على استمرار إدارته. لم يكن هناك أية شكوك في أن بوتين سيربح في الجولة الأولى. وكما في العام 2000، قرَّر بوتين عدم الاشتراك في الحملة الانتخابية؛ ببساطة لقسد تجاهل الانتخابات. كان يتصرَّف ليس كمرشح بل كرئيس حالي، واثق من فسوزه بفترة ثانية، لأنه لم يكن هناك أي منافسين له.

كان تنظيم الكرملين لاستفتاء حول ممديد مدة الرئيس الحالي تصرفاً حكيمـــــاً نوعاً ما. في الواقع، لقد اكتسبت السلطات الروسية خبرة في تنظيم إحراءات قادرة على إعطاء الشرعية للسلطة عبر وسائل ديمقراطية، وفي الوقت نفسه عبر استبعاد أي بديل أو قديد لها. من جهة، قدَّم الكرملين بوتين كزعيم استطاع أن يضمن الاستقرار؛ مكرراً سيناريو العام 2000. ومن جهة أخرى، حافظ ببراعمة علمى صورة بوتين غير مكتملة، تاركاً أشياء لم تُقال، وذلك كي يكون أيضاً "المرئيس الأمل"(۱). وهكذا استمر الكرملين في استخدام عدَّة وسائل في وقت واحد، الأمل الذي جعله يحظى بتأييد أولئك الذين يخافون من التغيير وأولئك الذين يريدونه.

كانت لعبة "فصامية" مؤدية إلى انفصام الهوية الوطنية، وشيوع مشاعر متضاربة، ونسرعات متعارضة في المجتمع، وسعى متزامن وراء أهداف متعاكسة، دون ضمان تحقيق أي منها. لقد حاول الفريق المسؤول عن حملة بوتين أن يجعل النساس يشمرون بالثقة في المستقبل إذا ما بقى بوتين في الكرملين. لكتهم، في الوقت نفسه، ذكروا الناس أيضاً بالمشكلات المستعصية على الحلّ، إيماء منهم بأن الزعيم لم يكن قادراً على استشراف كل شيء، وأن تحميله المسؤولية في كل الأشياء المسلية والأحلام غير المفققة أمر غير حائز. هذه السياسة، الموجّهة لتحقيق أغراض تكتيكية، أثارت عند النساس في أيه المطاف مزيجاً من التفاؤل والتشاؤم، الثقة بالنفس والإحساس بالمشاشسة، وهسفا يمكن أن يولد نتائج غير متوقعة في للمستقبل، ولكن، من كان يأبه للمستقبل، ومن كان يفكر أبعد من سنة الانتحاب في موسكو؟

كان بإمكان بوتين التصرّف كما يحلو له. كان يمتلك ذعيرة من النوايا الطبية والتأييد مكّنته من القيام بأي شيء. لقد أصبح رئيساً قادراً علمي مقاومة كل والتأييد مكّنته من القيام بأي شيء. لقد أصبح رئيساً قادراً علمي مقاومة كل الضربات . وبحسب استطلاعات مركز ليفادا للرأي العام (الذي ظلل يُمسرَف يمركز VTSIOM حتى العام 2003) في شباط عام 2003، 95 بالمائة مسن الحسزب حزب روسيا المتحقة، و 60 بالمائة من ناخيي الماؤكو، و 66 بالمائة من الخير (SPS)، و 63 بالمائة من ناخيي حزب رودينا، و 63 بالمائة من الشعب الروسي الذين لم يصوّنوا في الانتخابات البرلمانية كانوا مستعدين لإعطاء أصدواتم لمسوتين في الانتخابات البرلمانية كانوا مستعدين لإعطاء أصدواتم لمسوتين في الانتخابات الراسية. وهذا أثبت أنه من العبث محاربة الرئيس الحالي.

غير أن الحياة السياسية الروسية لم تكن مضمونة وقابلة للتوقع عسا بشكل كامل. في 24 شباط، قبل الانتخابات، قام بوتين بما لم يكن يتوقّعه أحد في ذلك الوقت: لقد قال حكومة كاسيانوف، وعين فيكتور خريستينكو رئيساً مؤقتاً لمحلس الموزراء. في الحقيقة، كانت إشاعة إقالته شائعة من قبل، ولكن، منطقياً، توقّع الكل الوزراء. في المعد الانتخابات، إلى حين تشكيل بوتين لحكومته الجديدة. على أي حال، لقد أحدث هذا القرار صدمة في المحيط السياسي. ولتهدئة المؤسسة السياسية المضطربة، التي كانت أشبه بخلية نحل أثيرت، ظهر الرئيس على التلفزيسون، عيشة المنطربة، وأعلن بشكل غير مقنع عماماً أن المقصود من تنجية رئيس الوزراء ربسح الوقت في تشكيل الحكومة الجديدة، وتسهيل الطريق أمام متابعة الإصلاحات. ولكن، كان هناك شيء غير مضحع في هذا التصريح، وهو أن بوتين كان يقسول للناس بأنه ليس هناك شك في إعادة انتخابه، وأنه أراد اتباع منسهج حديسد مسع حكومة حديدة حق قبل الانتخاب. غير أن الشعب الروسي، المتمرس سياسياً، لم يصدق الرئيس ولا تفسيراته، وكأنه كان يقول لنفسه: "لحة شيء مشبوه هنا"

وقد تأكدت شكوك الشعب الروسي حين تبيّن أن الرئيس لم يكن لديم مرشح لرئاسة الحكومة. وهذا يمني أن التعلّص من كاسيانوف كان مدفوعاً مسن أسباب عتلفة لماماً. على أي حال، بعد مشاورات حامية وعدة أيام من التسردة، أسباب عتلفة لماماً. على أي حال، بعد مشاورات حامية وعدة أيام من التسردة اقترح بوتين ميخائيل فرادكوف، الذي كان في ذلك الحين عمل روسيا في الاتحساد كان يعرف كيف يحافظ على بقائه في مواقع ومسؤوليات عتلفة (أ). صُدم الجميسع من حديد. وكان هناك شيء واحد مؤكد، وهو أن بوتين كان بحاحة إلى رئسيس حكومة لا يمكن أن يشكل تحديداً له في أي حال من الأحوال وأن يكون مسديراً تفيدياً حيداً. ولم يكن يُعرف عن فرادكوف أنه كان إصلاحياً، وهسو المسبب للزعوم لاختياره. بل كان معروفاً بصفات أعرى؛ أنه لم يتسهور أبساً بالقيام عبدرات خاصة به وهذا ما أبقاه طافياً. إن تعين فرادكوف كرئيس حديسك للحكومة يمكن أن يعن بأن بوتين كان يهتم بالاستقرار أكشر مسن اهتمامه بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحرية بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحرية بالتحديث. ولكن، حق لو لم تكن هذه الخطوة خطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحرية بالتحديث ولم تكن هذه الخطوة عطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد التحديد بالتحديث ولم تكن هذه الخطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد التحديد بالتحديث ولم تكن هذه الخطوة عطوة منظمة ومنهجية، وإنما بحريد المسلم المتحديد ولم تكن أن يعني بأن بوتين كان يقية بالمستقرار أكثير مسن اهتمامه والمناح والمناكب المتحديد والمناكبة والم

قرار دفعت الظروف الحالكة إلى اتخاذه، إلا أنه سيوثر قطعاً على الأجندة المستقبلية للرئاسة.

وبدلاً من التحوّل السريع إلى الإصلاحات كما وعد بوتين، انغمست الطبقة السياسية في مناقشات لا تحاية لها حول اللواقع الخفية للتعيين. كانست العبيسة الواضحة لتلك الخطوة مثرة للدهشة إلى حدَّ كبير، إذ كان يتوجّب على السلوما المصادقة على فرادكوف بشكل موقت، حتى موعد الانتخابات، ومن ثم سيعود بوتين إلى ترشيحه ثانية وعندها سيتوجّب على اللوما المصادقة على ترشيحه مسن جديد. هذا إذا كان بوتين ينوي الإبقاء على فرادكوف. ولكن، لماذا هذه الطريقة المستفرّنة؟ التفسير الوحيد هو أن بوتين كان يخشى من شيء مسا، فوحسد نفسسه مضطراً للتحلّص من كاسيانوف بسرعة(4).

ولكن، ما الذي يمكن أن يهدد بوتين في الانتخاب الرئاسسي؟ هـل تلقـى معلومات تفيد بأن الإبقاء على كاسيانوف خلال الانتخاب يمكن أن يكون خطيراً عليه؟ بدأ المحللون المحتارون في موسكو يطلقون تخميناقم التي تقول بأن إقاله رئيس الحكومة كانت ناتجة عن مخاوف الكرملين من أن يكون عدد الناحبين منخفضاً الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى إجراء انتخابات حديدة. وفي تلك الحالم، سيصبح رئيس الوزراء شخصية محورية، كما اعتقد البعض. ولكن، لم يكن هناك أي أساس حدي لهذا القلق، فعدد المقترعين كان يُتوقع بأن يكون عالباً، وبوتين كان سيفوز في الانتخاب؛ أولاً، لأنه كان يملك دعماً شعبياً؛ وثانياً، لأنه كان يسيطر علـي الطبقة السياسية. مع ذلك، لا يمكنني استبعاد أن يكون قد تم تحذير بوتين من هـنا الطبقة السياسية. عشباً فقط. وهذا الاحتمال، مما دفعه إلى إخراج كاسيانوف من الساحة السياسية؛ تحسباً فقط. وهذا يعبر عن انعدام إحساس الكرملين بالأمان وعن تكنيكاته الحرقاء إلى حدًا ما.

بقيت استقالة ميخائيل كاسيانوف غير المتوقعة لغزاً غامضاً، لأنه لم يتســرّب أي شيء - بهكس ما كان يحصل في سنوات يلتسين - عن الأسباب الحقيقيسة لـــللك. كاسيانوف نفسه أدلى بيضعة تعليقات متحفظة حداً حول الأمر، وكان واضحاً تماساً أنه كان يحاول كبح غيظه. كل ما أوحى به هو أن إقالته كانت متناقضة مع ترتياتـــه السابقة مع الرئيس. وبعد فترة وجيزة من رحيله، احتفى من المشهد السياسي محاساً. وهذا كان تأكيداً آخر على مدى سهولة فقدان مستقبلك السياسي في روسيا.

على أي حال، مهما كانت الدوافع وراء إقالة كاسيانوف، فإنما تعسين بسأن بوتين كان يرفض الماضي، حتى قبل الانتخابات. لقد تحمَّل رحال يلتسين طسويلاً، وقرّر بأن الوقت قد حان للتخلص منهم. لكنه فعل ذلك بطريقة أدخلت روسسيا في خضم أزمة سياسية حقيقية. وهذا التصرف غير العادي من رجل عُسرف عنسه حذره الشديد، وكرهه لخلط الأوراق، يجعلنا نخلص إلى الافتراضين التاليين: إما أن بوتين كان حساساً جداً فلم يتمكن من تحمُّل الإزعاج المتزايد من رئيس الحكومة، أو أنه كان يملك أسباباً حديّة دفعته للتخلص من كاسيانوف، وهذه الأسباب تتعلق بشيء يهدد - وإن كان مبالغاً به - سلطته.

-**9**---

في تلك الأثناء، كانت روسيا تشهد ولادة حكومة فرادكوف الجديدة، ولم يتم ذلك دون ألم. قرّر الرئيس استغلال فرصة تشكيل بحلس الوزراء الجديد لإعادة هيكلة الحكومة، وهو أمر أخّل لوقت طويل بسبب مقاومة كاسيانوف. وهكذا أشفت - بدلاً من الحكومة التقليدية المقسمة إلى وزراء متفرعين - بنية جديدة مولفة من ثلاث طبقات: وكالة خدمية وزارية فدرالية. وهذه البنية الجديدة كانت محركوف، وخفّق عدد الوزراء المساعدين إلى اثنين لكل وزير. ولكن، كان واضحاً أنه لم يكن بإمكان رئيس الوزراء ولا الوزراء، المسؤولين عن وزارات أصبحت الآن هائلة الحجم، إدارة الإجراءات اليومية الاعتيادية، وأن بعض الامتيازات كان يجب أن تُمنّع إلى مستويات أخرى في الحكومة. راقب المخللون عملية الإصلاح الحكومي بارتياب، فهم كانوا يعرفون بأن توسيع السوزارات عملية الإصلاح الحكومي بارتياب، فهم كانوا يعرفون بأن توسيع السوزارات سيؤدي إلى إبطاء، وحتى إيقاف، عملية صنع القرارات. وليس هذا فقط، بسل إن الإصلاح الجديد أنتج بنية أكثر هشاشة من قبل، فقد حلّت 73 وزارة محلّ الوزارات الـ 52 السابقة.

في التركيبة الحكومية الجليدة، حسرت القوى اليلتسينية حسارة فادحة، حيث بقي عضوان فقط فيها، هما سيرحي شويفو، وزيسر الظسروف الطارئة، وميخاليل زورابوف، الذي أصبح وزيراً للصحة والتنمية الاجتماعية. بينما احتفظ ليبرالها سان بطرسبورغ (حيرمان غريف وأليكسي كودرين) بمنصبيهما في الحكومة الجديدة. لكن غريف خسر نائبه الإصلاحيين، دفور كوفيتش ودعتريف. وكذلك الأمر بالنسبة لسيلوفيكي سان بطرسبورغ، لكنهم لم يتمكنوا من توسيع نفوذهم؛ بمكس ما كان متوقعاً.

على أي حال، كان الوقت ما يزال مبكراً للحكم على فعالية وقدرة الحكومة الجديدة على البقاء. ولكن، كان هناك مصدر متأصل للنزاع في الحكومة موجود بين رئيس الوزراء فرادكوف، ورئيس الإدارة دعتري كوزاك، الذي كان مقرباً من بوتين وكان يُفترض به السيطرة على الحكومة وتقييد سلطة رئيسها. وهناك مصدر توتر حتمي آخر ضمن بحلس الوزراء يكمن في انعسدام الانسسجام في الذهنية ووجهات النظر بين ممثل النظام القديم، فرادكوف، بأسلوبه الحذر وآرائه المعاديبة لليم اليه ويين التكنوقراطيين الليم الين، غريف وكودرين. كما أن العداوة المتبادلة بين كبار أعضاء الحكومة - بين كودرين وحوكوف، على سبيل المثال - وصراع للصالح المستمر كانا كفيلين بأن تصبح الحكومة الجديدة في القريب العاجل ساحة معركة لقتال داخلي عنيف. أما إذا كان بوتين مينجح في تلطيف المسراعات الجديدة وقدئة التوتر الناشئ فذلك لم يكن واضحاً.

إن افزيمة البرلمانية للحزب الشيوعي وبابلوكو كانت تعسي بأنسه لم يكسن باستطاعة زعيميهما، زيوغانوف ويافلينسكي، منافسة بوتين على الرئاسة. لقسد وحد بوتين ومدراء حملته الانتخابية أنفسهم في وضع غير متوقع، فهم لم يفكسروا فيه عندما رئبوا المسرح السياسي وأضعفوا المنافسين، إذ لم يكن زعماء الأحسزاب التي قُضي عليها مازو حين بطبيعتهم، و لم تكن لديهم الرغبة في التعرض للمفلة مرة ثانية من خلال الدخول في السباق الرئاسي ولعب دور الخصوم التدريبين لبوتين.

ولهذا السبب - بعد تفكير وجيز - رفض كل مسن زيوغانوف ويافلينسكي الاشتراك في السباق الرئاسي. وبعد ذلك مباشرة، قرّر جيرينوفسكي، المرشح الملائم، الانسحاب ورشّع بدلاً منه - وكأنه كان يريد أن يجعل مسن الانتخاب أضحوكة - مرافقه الشخصي من LDPR، أوليغ ماليشكين، الرحل الضخم، القليل الكلام، ذو العضلات المفتولة والملامع التي تدلّ على بلادة الذهن. ثم ظهر مرشع آخر على الساحة، وهو شخص يُدعى ستيرليفوف كان يملك مؤسسات تُعنى بدفن الموتى. مسرحية هزلية تكتمل فصولها شيئاً فشيئاً، كان يمكن لها أن تقوّض جدية العملية الانتخابية، ومعها شرعية الولاية الرئاسية الثانية ليوتين.

وهناك أيضاً مشكلة أخرى، من الناحية النظرية على الأقل: خطر مقاطعة الانتخاب من قبل الناخبين الشيوعيين والديمقراطيين، مما يهدد بتخفيض عدد المقترعين بشكل حاد. ووفقاً للدستور، إذا لم يبلغ عدد المقترعين 50 بالمائة، فإن الانتخابات الرئاسية ستُعاد.

واستمرت فصول المسرحية الهزلية مع ترشيع أحد حلفاء بوتين لنفسه، وهـو الناطق باسم مجلس الاتحاد سيرجي ميرونوف، الذي أصبح مرشحاً، كما هـو معلوم، لا لينافس بوتين بل ليدعمه! كان لدى بعض أعضاء الفريق الحاكم فكـرة غرية بحق عن العملية الانتخابية.

ولكن، عندما أدرك مخططو الكرملين حجم المشكلة التي كانت تسواحههم، حاولوا إقناع يافلينسكي وزيوغانوف بالترشح. سرت إشاعة تقول بأنه عُرض على كل واحد منهما 25 مليون دولار من أجل حملتيهما الانتخابيتين، لكنهما رفضا. وأثبت يافلينسكي بأنه كان أشد صلابة من زيوغانوف فقاطع الانتخابات بشكل كامل. لكن الأخير استسلم (ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعقد فيها تسسوية مع النظام) وقدَّم الحزب الشيوعي - كما وعد القادة الشيوعيون - مرشحاً بديلاً، هو نيكولاي خاريتونوف. لا بد أن الترشيح وحده حصل الكرملين يتسنفس الصعداء، إذ إن اشتراك خاريتونوف أعطى العملية بعض الجدية على الأقل.

ولكن، بشكل إجمالي، لا يمكن أن تكون حملة العــــام 2004 قـــــد أرضــــت الكرملين تماماً. إن الرغبة في تأمين الانتصار للرئيس الحالي، الذي كان ســـيفوز في

عندما بدأت الحملة الانتخابية الرئاسية، كانت الأحزاب الليم البة تعيش حالة من الفوضى التامة، لألها لم تأخذ الوقت الكافي للتعافي من الهزيمة التي مُنيت هما في الانتخابات البرلمانية. فما الذي كان يجب فعله؟ نوقش هذا السؤال الروسي الأبدي في عدد لا يُحصى من الاجتماعات بين الليم اليين والليمتر اطين، والنتيجة كانست انقسام في الآراء: البعض أراد مقاطعة كاملة للانتخاب على أمل أن يجعل هذا الأمر الاحتجاج؛ فيما دعا البعض الآخر إلى التحمّع حول مرشح واحد من كل القسوى الديمقر اطية لضمان مكان مناسب للجانب الديمقر اطية وفيه هذا الخصوص، أذكر أن بحموعة من الليم الين في "مؤسسة الرسالة الليم الين"، برئاسة يفغسيني ياسين، أقرحوا على الحزبين الخاسرين - يابلوكو و SPS - أن يتبنيا فلاديم ريجكوف أشرحوا على الحزبين الخاسرين - يابلوكو و SPS - أن يتبنيا فلاديم ريجكوف كمرشح لهما، هذا الرحل الذي كان يمثل الجيل الشاب من السياسسيين، والسذي كمرشح لهما، هذا الرحل الذي كان يمثل الجيل الشاب من السياسسيين، والسذي أنه لم يكن عضواً في أي حزب، وخاصة، يما أن هذه الأحزاب لم تكن على توافق مع بعضها البعض، إذ إن اعتماد شعص حديد يمكن أن يصبح نقطة إلتقاء لكسل القوى الديمقراطية ولتقاء لكسل القوى الديمقراطية ويقد كان من صالح وحداسين من القوى المقاه المعن، إذ إن اعتماد شعص حديد يمكن أن يصبح نقطة إلتقاء لكسل القوى الديمقراطية وعلي المؤلوى أخرون غسير حسوريين من

اقتراحهم، وحماصة نيكولاي فيدوروف، رئيس تشوفاشيا، إلا أن الأحزاب الليبرالية لم توافق على أي واحد منهم. وقد تبيّن أن يابلوكو كان أكثر الرافضـــين لفكـــرة تبنّى مرشح مشترك، لأن المرشح الوحيد الذي يناسبه هو يافلينسكي.

عندما سقطت فكرة المرشح الواحد، قدَّمت إيرينا خاكامادا، واحدة مسن زحماء SPS، نفسها كمرشحة، الأمر الذي أدهش الكثيرين، لألها لم تحظ بدعم يابلوكو، والأهم من ذلك أن حزمًا ذاته لم يكن يدعمها. إلا ألها دخلت الصراع على الرغم من ذلك. وقد أثار ترشيحها لنفسها مشاعر متضاربة ضمن المحتمع الليمقراطي. فقد اعتبر البعض هذا الأمر خدعة من طرف الكرملين. في الواقع، إن المنافركة مرشح ديمقراطي كان يناسب الإدارة، لأن ذلك كان سيضيفي على الانتخابات مظهر المنافسة. واعتبر آخرون ألها عاولة يالسة للقاء في اللبيمة السيامية. بينما دعمها حزء صغير من المحتمع المنيمقراطي، معتبراً مشاركتها وسيلة لنشر البرنامج المنهقراطي ولتوحيد جمهور الناخيين الليم اليين المنقسم والمرتبك. على أي حال، لقد أدارت خاكامادا حملتها بشحاعة وحيوية، إلا ألها لم تستحح في توحيد الليم الين والديمقراطين في تلك الفترة، حتى مع وحود التهديسة قادر على توحيد الليم الين والديمقراطين في تلك الفترة، حتى مع وحود التهديسة وادرعامي على الانضواء ضمن غيتو سياسي.

تضمّنت القائمة الأخيرة التي ظهرت في آذار عام 2004 سستة مرشحين مسحلين: بوتين، ماليشكين، ميرونوف، غلازييف، خاكامادا، وخساريتونوف. إن مشاركة المرشحين الثلاثة الأخيرين أعطى الانتخابات مظهر المنافسة. لكسن كل واحد من المشاركين، باستثناء بوتين، كان يسمى وراء أهداف أخرى غير المنافسة، لأن نتيحة الانتخاب في روسيا أصبحت مؤكدة والأمّة كانت تعرف اسم الفسائز مسبقاً. والفائز كان يعرف بأنه سيبقى في الكرملين على الأقل لمدة أربع سسنوات أحرى.

لقد تفصُّد بوتين عدم المشاركة في الحملة الانتخابية؛ فلم يشترك في المناظرات و لم ينحدر إلى مستوى إعطاء التفسيرات والتبريرات. و لم يُعرُّ أي اهتمام للمنافسين الآخرين. في الواقع، هو لم يكن يكترث للانتخاب نفسه، حيست تسابع القيسام بأنشطته الاعتيادية. وقد قال بوتين، مبرراً ذلك: "أعتقد بأنه من غير اللاتن أن يقوم رئيس الدولة بالدعاية لنفسه!" لقد قدّمت روسيا للعملية الديمقراطية بضعة التكارات فريدة: تقديم زعماء أحزاب مرافقيهم الشخصيين كمرشحين بدلاً عنهما دخول أنصار الرئيس إلى المنافسة كي لا يقى وحيداً ويشعر بالملل والسرئيس يخوض غمار المنافسة من أجل إعادة انتخابه من دون للشاركة في الحملية. لكن الشعب كان قد ستم من الانتخابات التي لا تغير شيئاً، والانتخابات التي لا يتحكم الم درجة أنه أصبح لا يكترث بها. وبما أن أياً من المرشحين لم يكن بمثل بسديلاً عن بوتين، كانت روسيا مستعدة لتمنح الكرملين إلى الرئيس الحالى.

مع ذلك، كان بوتين مضطراً لوضع برنابجه للفترة الرئاسية الثانية، ولو مسن باب اللياقة. كان هناك بضعة أشخاص على الأقل في الكرملين يدركون الحاجسة للخروج بفكرة ما للولاية الثانية. على أي حال، بعد تفكير طويل، أدل السرئيس بخطاب أمام ممثليه، حدّد فيه الأولويات الأساسية في برنابجه للفترة الرئاسية الثانية. وما أثار دهشة الكثير من المراقين أن خطابه كان ليبرالياً خالصاً. كان من الصعب التصديق بأن الرئيس، بعد بنائه نظامه الديكتاتوري والقضاء على الحياة السياسسية العامة، أصبح فحاة يتكلم كليبرائي مقنم. وهنا ما قاله بوتين: "أنا متأكد مسن أن المجتمع المدي المتطور وحده القادر على ضمان استقرار الحريسات الديمقراطيسة والحقوق الإنسانية والمدنية. وفي نحاية المطاف، وحده المواطن الحرّ هو الذي يستطيع ضمان النمو الاقتصادي وازدهار المولة. باختصار، هذه هو ألف بساء النحساح ضمان النمو الاقتصادي والنمو الاقتصادي.

من الواضح أن خطاب الرئيس كان موجهاً لجمهور الليم اليين، الذين كانوا على خلاف معه، وموجهاً إلى المغرب أيضاً، الذي كان يزداد ارتياباً في السنزعيم الروسسي. كان بوتين كان يقول إلى هذين الجمهورين: "أنا رجل متمدن. وما فعلته من قبل كان بحرد تقوية ضرورية للسلطة. والآن، أنا أنوي تطوير الحرية والاهتمام بالمجتمع". هنا، قد يتساءل سائل، بالطبع: يما أن روسيا لم تعد مملك تلفزيوناً مسستقلاً، أو برلماناً مستقلاً، أو المرااناً السياسية؟

فاز بوتين بانتحاب 14 آذار عام 2004 كما كان متوقعاً. وهذا الانتخصاب كان أكثر الانتخاب قابلية للتوقع بنتيجته في تاريخ روسيا الحديث: بلغ إجمالي المشاركين فيه 64.3 لمائلة من الناخبين، صوّت منهم 71.2 لمصالح بسوتين (48,900,000 شخص) (7). ولكن، لم يكن لدى بوتين ما يدفعه إلى الإحساس بالسعادة الفامرة، لأن 34.06 بالمائة فقط من عدد السكان أعطوه أصسواقم. إذاً، فهو كان بعيداً عماماً عن التأييد الساحق من الشعب الروسي، لكنه، في الوقست نفسه، كان يملك الأسلس الكافي الذي يوهله لتبنى أي سياسة مستقلة يريدها.

نشب حريق في النصب المعماري المجاور لجدار الكرملين، يُسمى مسانيحي، أفسد على المنتصر سعادته في يوم الانتخاب. كان منظراً مهسولاً ينبسئ بكارثسة بالطريقة التي ظهر فيها على التلغزيون، حيث وصلت السنة اللسهب إلى السسماء وبدت بألها كانت ستبلغ أبراج الكرملين. الكثير من المشاهدين اعتبروا المنظر نذير شوم. حتى إن أحد الأشخاص في الكرملين سارع إلى حظر إظهار السنيران مسع الكرملين كمشهد خلفي لها. هذه النيران الهائلة التي بقيت مشتعلة طسوال الليسل وسط موسكو دون أن يتمكن كل رحال الإطفاء في العاصمة من السيطرة عليها أضافت مسحة مُرَّة إلى مشاعر الانتصار التي كانت تعمّ الكرملين.

إن الانتخابات البرلمانية والرئاسية والطريقة التي أجريتا وفقها، زادت من خيبة أمل المراقيين الفريين والليم اليين من حقيقة التطور في روسيا. "يبدو المسار المنحي للعقد الماضي واضحاً كل الوضوح؟ دور متنامي للدولة ودور متراجع للمحتمع في تقرير النتائج الانتخابية"، كتب مايكل ماكفول ونيكولاي بيتروف. "بعد أكثر من عقد على الهيار الاتحاد السوفياتي، ما تزال هيمنة الدولة على المجتمع شاملة" (6). لقد تحولت الانتخابات في روسيا إلى آلية فعالة لإضفاء الشرعية على التمديد السذاتي الدائم للسلطة، ونجحت بشكل كامل تقريباً في القضاء على عنصر عسم قابلية التوقع فيها. لكن كل أولئك الذين اعتقدوا بأن الانتخابات، حتى المسئل الشكل، التبقى الآلية المكنة الوحيدة لإعطاء الشرعية للسلطات سيكتشفون عاجلاً بأم كانوا عطاين، إذ إن التطور المستقبلي للنظام ومنطق المركزة سيتطلبان محو كل المؤشرات الضعيفة الباقية الأحرى لعنصر عدم القابلية للتوقع.

بالنسبة لبوتين، كانت الانتخابات مهمة حقاً، حتى لــو كانــت نتيحتـها مضمونة. فهذه المرة، اكتسب شرعته الجديدة بشكل حقيقي و لم يســتعرها مــن أحد، و لم يعد بعد الآن خليفة للقيصر السابق، الذي حلبه ونصبه علــى العــرش. وهكذا، بدأ بوتين رئاسته الثانية بدون أي إلتزامات للفريق الحاكم القلم. وفي هذا الشأن، خلص المراقبون المقربون إلى النظام، مثل أندرانيك ميغرانيان وفياشيسلاف نيكونوف، إلى الاستنتاج التالي: "أصبح بوتين الآن يسيطر على كل أدوات السلطة ولديه الفرصة للتحرك باتجاه مزيد من التحديث".

لكن المراقبين الغربيين كانوا متشككين من هذا الأمر. "الأمور ليست 4-ذه البساطة"، حدَّر غيرنوت إيرلر، الذي عينته الحكومة الألمانية مسن أحسل تنسيق العلاقات الألمانية الروسية. "لقد تدهور الموقف الاجتماعي في روسيا من جراء هذه الانتخابات والانتخابات الأخرى" (9). وفي سياق تفسيره لكون الأمسور ليسست بسيطة، ذكر إيرلر القضايا ذاقا: الشيشان، وحقوق الإنسان، وخودوركوفسكي. بعبارة أخرى، كان المراقبون الغربيون يريلون أن يقولوا للرئيس الروسي: "إنسا لا نشعر بالسعادة بانتخابك". ولكن، لم يكن هذا حال زملاء بوتين من الرؤساء في بجموعة الثماني، الذين بدوا مرتاحين لفوز بوتين، وذلك لأغسم كانوا يعرفونه ويكنهم العمل معه.

أما إلى أي مدى كان بوتين مستعداً للمضي في رئاسته الثانية، فهذا لم يكن معروفاً. لكن معرفة ذلك لم تأخذ وقتاً طويلاً.

_**----** _

إن الأحداث التي وقعت في النصف الأول من العام 2004 أرغمت موسكو على إعادة التفكير في علاقتها مع الغرب. فيعد عملية عسكرية بهاهرة، بها الأميركيون يغوصون في مستنقع العراق، مع تزايد المقاومة المحلية لوجودهم هناك. وقد حلبت هذه المشاكل التي كان الأميركيون يعانون منها سمعادة غمامرة مسن حانب القوميين والمركزيين الروس: "لقد قلنا لكم ذلك!" وللإنصاف، فإن نفسس المشاعر كانت سائدة في باريس وبرلين أيضاً. لقد قلّمت وسائل الإعلام الروسسية

معلومات تفصيلية وحية عن الفضائح في سحن أبو غريب وإساءات الجنود الأميركيين للمساجين العراقيين. لكن النبرة الانتقادية للتقارير الإخبارية كانست تفوح منها رائحة النفاق، لأن المعاملة السيئة للمساجين - والتي كانت في العادة أشد وحشية - لطالما كانت هي المعبار في روسيا. ومن غير المسرجع أن تكون معاملة الجنود الروس للشيشانيين، وخاصة السحناء من المتمردين الشيشانيين، تجري وفق معايير متمدنة ثابئة.

إن الإخفاقات الأميركية في العراق، وظهور المزيد من الدلائل الهامسة على موقفهم غير النبيل وغير الأخلاقي من السكان المحليين، كانتا بمثابة ضربة قاسمية للمشاعر المؤيدة لأميركا التي كان بعض الروس ما زالوا بملكولها، ولنظرة الروس للمتقراطية الغربية أيضاً. لقد فعلت صور الجنود المتسمين – من الواضح أله من فعله الحملة الدعائية السوفيائية القليمة ولا خطاب جرينوفسكي وروغوزين من فعله الحملة الدعائية السوفيائية القليمة ولا خطاب جرينوفسكي وروغوزين المعادي لأميركا هذه الأيام. "كيف تكون هذه الإساءات أفضل من شيشاننا؟" تساءل مواطنون روس بسطاء وهم ينظرون إلى الصور المنشورة في الصحف الروسية. "الكثيرون من الناس في كل أنحاء العالم كانوا يومنون بان القيادة الأميركية ستجلب الحرية والرفاه للعالم، واحترام حقوق الإنسان وإشباع حاجات الناس"، كتب المحلل المناصر لأميركا فيكتور كريمينوك. "الآن، أصبحت هنساك شكوك حول قدرقم على القيادة... لعل المشكلة تكمن في بوش وفريقه ولكسن، ماذا لو أن حب الأميركين لذاقم وإيماغم الأعمى بقدركمم قد ذهب بعيداً إلى درجة ألهم اعتقدوا أن أميركا ينبغي أن تُعامَل أولاً ومسن ثم تسأتي بقيسة العسالم درجة ألهم اعتقدوا أن أميركا ينبغي أن تُعامَل أولاً ومسن ثم تسأتي بقيسة العسالم.

لقد أصبحت المأساة العراقية المستمرة والمصاعب الأميركية هناك واحدة مسن أكثر الحجج شعبية للتقليديين الروس الذين كانوا يحساولون إثبسات أن الحضسارة الغربية لا تستطيع تكوين نظام عالمي أكثر سعادة وحيراً. ولكن، كانست هنالسك أحداث أحرى أظهرت أن الأميركيين وجدوا الأساليب المناسبة لمعالجة فضائحهم، وذلك من خلال الشفافية، والتحقيق العلني في سلوك الجيش، والنقاش العلني حول

أسباب وانعكاسات الحرب العراقية. بينما ما تزال القيادة الروسية وطبقتها السياسية تفضلان إخفاء الحقيقة حول وحشية وحرائم قواتما في القوقاز الشمالي، في محاولة سوفياتية نموذجية للحفاظ على هيية اللولة(11).



لقد ساهمت أحداث العراق في تعميق خيبة أمل الشعب الروسسي بأموك... ففي أيار، 10 بالماثة فقط من المشتركين في أحد الاستطلاعات كانوا يعتقلون بأن الولايات المتحدة تلعب دوراً إيجابياً في العلاقات الدولية، فيما اعتبر 61 بالماثة ألها كانت تحاول فرض مشيئتها على العالم(21). على أي حال، كانت هله التسالج متوقعة لأن كل المحطات التلفزيونية الروسية جعلت من الوحشسية والإخفاقات الأميركية موضوعاتها اليومية الرئيسة. بإمكان المرء أن يشعر بأن وسائل الإعلام الروسية كانت تحاول عن قصد توجيه إصبعها إلى الأميركيين مسن أحل دفسع الأميركيين إلى نسيان انتهاكات حقوق الإنسان الروسية وورطتها في الشيئسان. لقد أظهرت الحملة الدعائية الرسمية الروسية أن المكرملين كان يستخدم معاداة أميركا من أحل إزاحة الانتباه عن الحرب القوقازية.

كان المؤشر يتحه نحو برودة حديدة في العلاقات الأميركية الروسية، ولم تكن المرة الأولى. ولكن، ثمة حقيقة أخرى تستحق التنويه: كان الكرملين يحاول تحسّب تسبيب مشاكل للولايات المتحدة في الساحة الدولية وفي العراق أيضاً. بعبارة أخرى، صحيح أن موسكو لم تفوّت الفرصة لاستغلال الشعارات المعادية لأميركا لأغراض داخلية، إلا ألها لم تكن مهتمة بحزيمة الولايات المتحدة في العراق أو حسى بإضعاف الدور العالمي لأميركا، خشية زعزعة الاستقرار في العالم.

لم تكن إذا مشاعر الفرح والاشمنزاز هي المشاعر الوحيدة التي أثارتها المشاكل المتزايدة لأميركا في العراق، إذ إن البراغماتيين، بمن فيهم أوك للوحدودن في المتزايدة بوتين، كانوا قلقين من أن يمتد انعدام الاستقرار في العراق – فيما لو فشل الأميركيون في السيطرة عليه وغادروا أراضيه – إلى أفغانستان وباكستان، وهو ما يمكن أن يهدد، عاجلاً أم آجلاً، استقرار القوقاز وآسيا الوسطى. عندئذ ستصبح

377

المشكلة على بعد رمية حجر من روسيا. لقد أدرك بوتين هذا التهديد. ولهذا السبب، أحير الرئيس المراسلين الصحفيين في تامبوف، في 2 نيسان عام 2004، بأن ليس لروسيا مصلحة سياسية أو اقتصادية في هزيمة الولايات المتحدة في العراق. لعل ذلك ثبط مشاعر الفرح لدى دعاة المركزية في روسيا نتيجة إخفاقات الولايسات المتحدة في العراق. وعلاوة على ذلك، أعلنت موسكو بألها مستعدة لدعم التحالف الأميركي البريطاني في العراق، ولكن فقط ضمن إطار الأمم المتحدة. وهكذا نجد أن بوتين وفريقه - بالرغم من تضارهم حول موقفهم من الولايات المتحدة في ذلك الظرف - لم يكونا يريدان تقويض الجهود الأميركية في العسراق، ولا انسسحاب الظرف - لم يكونا يريدان تقويض الجهود الأميركية في العسراق، ولا انسسحاب الجيش الأميركي منه.

ثم ظهر عامل آخر بيعث على القلق. لطالما حذر المراقبون الروس والغربيسون من حتمية التوتر وحتى التنافس بين الولايات المتحدة وروسيا في الحيز الذي كسان الاتحاد السوفياتي يشغله سابقاً، وهو ما كانت تعتبره موسكو بحال نفوذها. يبدو أن التوقع قد تحقق. لقد تحمَّلت موسكو، بشق الأنفس، تواجد الأميركيين في الحسيط السوفياتي، ولكنها، بعد تنامي قوقا وثقتها بنفسها، بدأت ترى في عودها إلى تلك المنطقة شرطاً طبيعاً وضرورياً لاستعادة دورها اللولي. وكان هذا الاهتمام المتزايد من قبل روسيا في آسيا وأوروبا ناتماً، في حزء منه على الأقل، عن خيبة أملسها في علاقاتها مع الغرب وعن الانشقاق الحاصل في الغرب، الأمر الذي دفعها إلى إعادة تنسيط الدبلوماسية الروسية. لكن الأهم من ذلك هو حقيقة أن محاولة بوتين إعادة تأسيس الدولة التقليدية، والنظام المركزي تسبّبت في إعادة إحياء غرائسز القسوة العظمي في بحال السياسة الخارحية: في روسيا، دائماً تسير مركزة المسلطة مسع النفوذ الدولي.

على عكس بعض التوقعات، لم تحاول روسيا إعادة إحيساء رابطسة السدول المستقلة (CIS)، التي ظلّت حثة سياسية لوقت طويل، بل حاولت إيجساد وسسائل أكثر ليونة لاستعادة وجودها على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق. وهذا كان يعني توسعاً اقتصادياً وضمان المصالح العسكرية والاستراتيجية في الجمهوريات السوفياتية السابقة، ولكن من خلال أساليب أكثر نعومة. كانت روسيا تسسعى لاسستعادة

وجودها في بيلاروسيا، وأوكرانيا، ومولدافيا، ودول آسيا الوسطى، والقوقاز. أما جمهوريات البلطيق، فهذه أخفت نفسها عن روسيا تحت مظلة الاتحساد الأوروبي والناتو، مما أثار مشاعر المرارة ضمن النحبة الروسية والجيش خصوصاً.

عاجلاً أم آجلاً، كانت روسيا ستحوّل أنظارها إلى جيرالها، الذين يربطها بمم ماض مشترك، ومصالح اقتصادية، وأعرى أمنية. وعلاوة على ذلك، لمة ما يقارب 25 مليون روسي يعيشون في تلك الدول المحاورة. حتى ذلك الوقست، كانست موسكو تستخلم هذه الحقيقة فقط من أجل الادعاء بمكانتها كقوة عظمسى دون الاهتمام الفعلي بالروس المقيمين في الخارج. لكن الكرملين الآن أصبح يولي اهتماماً متزايداً بالمحيط الأوروبي والآسيوي. هل كان باستطاعة موسكو مساعدة السلول المستقلة الجديدة على مساعدة دول مستقلة جديدة أخرى في حين ألها هي نفسها كانت تعاني من مشاكل كثيرة في مسألة تحوّلها بالذات؟ إن الإحابة على هذين السوالين يمكن أن تظهر مدى تغير روسيا، ومدى بقائها على ما كانت عليه.

إن إنشاء قاعدة حوية في جههورية قيرغيزيا بالقرب من القاعدة الأموكية والصراع مع أوكرانيا في مضيق كيرشينسكي للسيطرة على شبه حزيسرة تسوزلا؟ وعاولة عرض صيغتها لتنظيم منطقة دينستر؟ والضغط على بيلاروسيا في قضية نقل الغاز الطبيعي الروسي؛ والدعم المقصود للقادة الانفصاليين في أفخازيا وأدحاريا؟ كل هذه ما هي إلا أمثلة قليلة على محاولات روسيا لضمان تواجدها في المحيط السوفياني السابق. لكن نتائج وانعكاسات هذه المحاولات كانست ملتبسة. في بيلاروسيا، بُرِّر ضغط الكرملين على الزعيم البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو على أساس أنه كان يهدف إلى حل مسألة نقل الفاز الروسي إلى أوروبا دون الاضطرار إلى الاستمرار في استرضاء مينسك. في حالات أحرى، لم تؤد محساولات روسيا لتعزيز وجودها وإظهار عضلاها إلا إلى تعقيد الأوضاع أكثر، كما فعلت عنسدما حاولت التحايل على الهيئات الدولية، وفسرض حلّها الخساص للمسراع في انسدنيستريا(دا).

كان النهج الذي اتَّبعته موسكو بخصوص النــزاعات في أبخازيا، وأوســيتيا

الجنوبية، وناحوري كاراباخ، وترانسدنيستريا، التي خلّفها الهيار الاتحاد السوفيائي، اعتباراً للسياسة الروسية في المحيط السوفيائي السابق. حتى ذلك الحسين، كانست روسيا قد نجحت في تجميد هذه الصراعات. لكن حلّها كان يعني بسأن موسسكو يجب أن توقف دعمها للأنظمة التي نشأت في هذه المناطق غير المستقرة، وتعبيد النظر في الولاءات السابقة، وتفكّر في طريقة لحلّ المشاكل المتعلقة بوحدة أراضسي الموقوتة أن تنفحر، مثيرة نسزاعات عسكرية إقليمية، مما سيشكل تمديداً أمنياً لكل من روسيا والعالم ككل. كي تتقدم موسكو باتجاه الحلّ كان عليها أن تسدرك أن الوضع الراهن في تلك البقع الساخة من الاتحاد السوفيائي السابق لا يمكن الحفساظ عليه إلى الأبد. وأنا أتفق مع مايكل ماكفول والمحللين الآخورين السذين نصحوا بتلويل المسألة واحتمال اشتراك قوات دولية لحفظ السلام، كواحدة من الخطوات الأولية، تحت رعاية الأمم الدولية 100.

لكن هذا التفكير يبقى محصوراً في إطار الرغبات والأماني. فعدلال العام 2004، لم تكن موسكو مستعدة لأي نوع من الجهود الدولية في المحيط السوفياني السابق. بل على العكس من ذلك محاماً، بدأ الكرملين بإظهار استياء علني من رغبة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في أن يكون لهما وجود على أراضي الاتحاد السوفياني السابق. كما كان وزير الخارجية الروسي قد سأل واشنطن باستمرار مئ تنوي الولايات المتحدة سحب قواتها من رابطة المدول المسقلة (CIS). وأكثر ما كان يزعج موسكو هو تزايد النفوذ الأميركي في جورجيا، التي كانت علاقاتها مع الكرملين باردة، وأحياناً عدائية. كما تلقى تعيين ممثل خاص من الاتحاد الأوروبي إلى القوقاز الجنوبي قبولاً فاتراً من الكرملين. إن زيادة عدد أنصار أسلوب القسوة العظمى في البرلمان الروسي الجديد – الذين طالبوا بتوسيع النفوذ الروسي في CIS العظمى في المرلمان الروسي الجديد – الذين طالبوا بتوسيع النفوذ الروسي في CIS والفرب(15). كانت الطبقة السياسية الروسية ما تزال تعيش في عالم السياسة الروسية من النفوذ. ولكن، ما كان يستقص والغرب(15). ما كان يستقص موسكو هو الموارد الاقتصادية والعسكرية من أحل ضمان المصالح الروسية في الم المواسلة في عالم السياسة الواقعية موسكو هو الموارد الاقتصادية والعسكرية من أحل ضمان المصالح الروسية في ما مناطق من النفوذ. ولكن، ما كان يستقص موسكو هو الموارد الاقتصادية والعسكرية من أحل ضمان المصالح الروسية في

المناطق التي تعتبرها موسكو منطقة نفوذها الشرعية، وكذلك القدرة على ضـــمان استفرار وتطوّر هذه المناطق.

اعتبرت الولايات المتحدة محاولة روسيا لتعزيز تواجدها في الأراضي السوفياتية السابقة عودة إلى التقاليد التوسعية السابقة لروسيا. ولهذا السبب، أكَّد مســوولو وزارة الخارجية في أكثر من مناسبة على أن منطقة ما بعد الاتحاد السوفياتي لم تكن منطقة ذات مصالح روسية حصرية. على سبيل المثال، حدَّد السفير الأميركسي في روسيا، الكسندر فيرشبو، الموقف الأميركي بشكل لا لبس فيه، في كانون النساق من العام 2004: "نحن ندرك مصالح روسيا في هذه المنساطق [مولسدافياء آسميا الموسطى، والقوقاز)، ونشعر بأنه ستكون لعلاقاتما الجيدة مع حيراتها تأثيرات إيجابية على الوضع. والولايات المتحدة أيضاً لها مصالحها في هذه للنساطق، ولكنسها لا تتطور على حساب مصالح روسيا، ونحن نأمل بأنها ستحلب الفائلة لكل الأطراف المعنية"(16). لكن موسكو لم تكن تشعر على هــذا النحــو، حيـث ردٌّ ممثلوهــا الدبلوماسيون متسائلين كيف ستشعر واشنطن إذا ما حاولت موسسكو توسسيم وجودها في المكسيك. وهنا، يتسامل المرء، ما الذي يحكم الأسلوب الروسي؟ هل هي المصالح الاستراتيجية الحقيقية، رغم ألها لم تُحلُّد بشكل مناسب دائمًا؛ أم رغبة لا تُقاوَم بأن تكون مساوية للولايات للتحدة وأن تتبع نفس النموذج من السياسة البن تطبقها واشنطن؟ ولكن، ثمة مشكلتان تعترضان الرغبة الروسية في لعب دورها الجيوسياسي، على طريقة الولايات المتحدة، في آسيا وأوروبا: أولاً، لم تكن كــل الدول ترحّب بالوجود الروسي والهيمنة الروسية؛ وثانياً، هذه التوسّعية الجديدة لم تكن تساعد التحوّل الداخلي الروسي؛ بل على العكس من ذلك تماماً، كانت تدفع باتجاه دولة أكثر تقليدية وتثير مشاعر معادية للتحديث.

حاول المراقبون الروس مرة أخرى البحث عن تعاريف ملائمة أكتسر لسدور روسيا - أصبحوا الآن يتحدثون عن "تعلّد الاتجاهات" (للتفريق بينه وبين نظسام "تعلّد الأقطاب" الذي طرحه بريماكوف) - بحيث يمكن أن يتسع للتعساون مسع الغرب؛ والتعاون مع الدول الأخرى، وخاصة الصين والهنسد؛ وإنشساء منطقسة استراتبعية واقتصادية واحدة دامل أواضى الاتحاد السوفياتي السسابق. علسى أي حال، تُعتبر هذه المقاربة تطوراً إيجابياً بالنسبة لفكرة بريماكوف التي تقسول بسأن روسيا تمثّل مركز نظام دولي مغاير للغرب. لكن الطبيعة العمليسة لنظام "تعسلّد الاتجاهات" كانت تفتقر إلى الوضوح، مما يجعله قابلاً لأن يصبح بسهولة أسسطورة أعرى يمكن أن تلعب دور المعوَّض عن غياب تعريف واضح للمصالح القومية.

في سياق تحليله للنوحّه الجديد للسياسة الخارجية لروسيا، قدَّم ديمتري تسرينين رؤيته لصيغة حديدة لسلوك روسيا في الساحة الدولية، دعاها "الانعزالية الجديدة" كتب ترينين: "لا ينظر قادة روسيا إلى المحتمع الغربي "كوطن مشترك" بقسدر ما ينظرون إليه كمصدر للموارد من أحل التُحديث، هذا مسن جهسة، وكمصدر للتحديات الجيوسياسية من حهة أحرى. إن التناقضات والنسسزاع في الفضاء السوفياتي السابق يمكن أن يلعبا دور النذير والدافع للسياسة الخارجية لموسكو ((17). وبدوره، كان السفير الأميركي في روسيا في ذلك الحين، ألكسندر فيرشبو، يفكر في هذه السياسات. "هناك الكثير من النقاط على شاشات الرادار، كما يقول منظمو حركة الطيران. لكننا لا نعرف إذا كان ممكناً رسم محطوط بينها. مع ذلك، فنحن نخشي بالفعل أن تكون هذه نرعة نحو انعزالية حديدة"، قسال فيرشبو في مقابلة له مع صحيفة نوفايا غازيتا، معتبراً النهزعة الجديدة نهزعة سلية(١١٥). كما استنج أندريه زاغورسكي وزملاؤه من دراستهم للنسزعة ذاتما: "لدى موسسة السياسة الخارجية الروسية تصوّر خاطئ راسخ عن "الاكتفاء الذاتى"، إعادة إحياء مكانة البلد كدولة قوية بحيث لن تعود مضطرة، مع تقوية سلطتها الاقتصادية، إلى الاتفاق مع الدول الغربية "(19). أما ما هو ارتباط "الانعزالية الجديدة" مع مقاربة "تعدّد الاتحاهات" فللك لم يكن واضحاً في تلك اللحظة.



بدت روسيا - وكأنما كانت تريد أن تثبت افتراقها عن الغرب - بألها تزداد انسزعاجاً، وخيبة أمل من شركاتها الغربيين: من الهيمنسة الأميركيسة وفي نفسس الموقت من التحاهل الأميركي لروسيا، ومن رغبة الأوروبسيين في تعلسهم روسسيا الديمقراطية والسلوك الحسن في الشيشان. كانت الطبقسة السياسسية الروسسية -

مدفوعة من أشباح الماضي ومن مخاوفها الجديدة – تزداد ارتياباً من النوايا الغربيـــة تجاه روسيا، متوقعة دائماً معايير مزدوجة أو محاولات عفية لتقـــويض وإضـــعاف وتطويق روسيا.

وفي نفس الوقت، الكثير من الناس في الغرب كانوا يخشون بالفعل - لسدى مراقبتهم التطورات الروسية - من أن تصبح روسيا منافساً أو نداً. لكن ذلك كان مفهوماً على أي حال، فعلى الرغم من التغيرات الكبيرة في قيم روسيا ومواقفها وعلى الرغم من مواهبها الملحشة في التكيف، إلا ألها تبقى غريبة عن الغرب. مسن هنا، كان لا بد لبروز المخموعات القومية المركزية في روسيا مسن أن يزيد قلسق وهواجس الغرب من نوايا هذا البلد المترامي الأطراف الذي عاش تاريخياً وقسوى نفسه من خلال التوسيع والعدوان. كانت روسيا تخيف الغرب من خلال قواها المحركة الذاتية وتناقضاتها، من خلال ماضيها وحاضرها المضطرب ومستقبلها الذي كان ما يزال غير قابل للتوقع به، وخاصة إذا كان الغرب لا يستطيع فهم حقيقة صراع هذه الدولة الغربية مع ذاتها ومع ماضيها.

بالطبع، يمكننا أن نفهم لماذا لم يتمكن السياسيون الغربيون، السذين حساولوا دائماً التوصّل إلى اتفاق مع روسيا وملاطفتها والتفكير في تناقضاتها، مسن إخفساء امتعاضهم وربيتهم من روسيا، الكثير من المراقبين والمحلين الغربين أظهروا صراحة خشيتهم من إعادة إحياء روسيا، التي اعتبروها تحديداً مباشراً للفسرب، وطسالبوا بإعاقة روسيا. ومثل هذه العودة إلى المواقف التي كانت سائدة أيام الحرب البساردة للغرب كانت بلا شك تغذّي المواقف المعادية للغرب في روسيا.

إن عدم ثقة الطبقة السياسية الروسية في الغرب كانت متوقعة بعد عقود مسن الغياب المذل للنفوذ الدولي، والافتقار إلى الموقف الرسمي الداخلي. وقد تعسرٌزت هذه الربية موخراً من خلال خيبة الأمل الروسية من المرحلة السابقة من التعاون مع الغرب، الذي اعتبرته الطبقة السياسية الروسية غير ذي فاعلية وحتى بلا فائدة. إن التصميم الروسي الجديد وعودة الثقة، اللهذين ولهما الاسستقرار والنحاح الاقتصادي، عزَّزا من المشاعر الفاترة تجاه العواصم الغربية. حيث أصبحت النحسة الروسية الآن تفكر على النحو التالي: "بمكننا أن نتطور دون انتظار المساعدة مسن

أحد. أصبحنا مستعدين للسباحة لوحدنا". حتى ممثلو الدواتر الليرالية والديمقراطية، مثل يافلينسكي وخاكامادا، بدأوا بالتحدّث عن الحاجة لسياسة أكتر استقلالية لروسيا. كما انتقد بعض الليراليين، الذين كانوا مناصرين للغرب في السابق، الغرب علناً: انتقدوا أميركا لسياستها التدخلية، وأوروبا لعسدم تفهّم مشاكل روسيا.

باختصار، إن ظهور هذا الموقف الجديد المستاء من الغسرب حسى ضمن الأوساط المؤيدة للغرب كان نتيجة لعدة ظروف: التناقضات ضمن المحتمع الغربي؛ خيبة الأمل من قدرة الغرب على مساعدة روسيا في تحوها؛ الحرب الأميركية في العراق؛ والاعتقاد بأن الدواتر الغربية المتنفذة لا ترغب برؤية روسيا أكتسر قسوة العراق، وتغضّل بقايها راكدة. في الواقع، كان هناك سوء فهم حقيقي ضمن الطبقة المسياسية الروسية للمحاوف الأميركية الجديدة من روسيا؛ أي القلق الأميركي، الجمهوري والديمقراطي على حدّ سواء، من أن ضعف روسيا يمكن أن يزعزع استقرار الحيّز السوفياتي السابق وما وراءه. وفي هذا الشأن، كتب حيمس غولدغير ومايكل ماكفول: "بعكس التفكير السابق حول الاتحاد السوفياتي قبل عقد مسن الزمان، يُعتبر ضعف روسيا - أي أن تفقد روسيا قدرها على فرض سيادها داخل حدودها - بمثابة مشكلة للولايات المتحدة وقديداً لما "(20). لكن المؤسسة السياسية الروسية لم تكن تصدق هذه الآراء. على أي حال، مهما كانت دوافع وأسباب ريية وانسزعاج روسيا من الغرب، فإن الطبقة السياسية الروسية، بحلول لهاية الفترة ربية وانسزعاج روسيا من الغرب، فإن الطبقة السياسية الروسية، بحلول لهاية الفترة الرئاسية الأولى لبوتين، كانت قد تخلّت عن إيمانها بالعمل لصالح الغير في السياسية المولية من أجل إعادة إحياء روسيا.

فلاديمبر بوتين نفسه حاول في العام 2003 وبداية العام 2004 احتيار سياسة متوسطة بين مركزية الطبقة السياسية الروسية، وبين استعداد حزء كبير من المحتمع الروسي للتوجّه نحو الغرب. من الواضح أنه لم يعد يرغب بسدمج روسسيا في منظومات المحتمع الغربي. لكني أظن بأنه لم يكن يفكر بشكل حدي في الانعسزال عن الغرب. أولاً، لأنه كان براغماتياً حداً وكان يدرك عواقب الانعسزال على روسيا. وثانياً، لأن موقفه المؤيد للغرب كان حزءاً من شرعيته - لقد مُنح أصوات

الكتير من الشعب بسبب توحّهاته الغربية. أعتقد أن الكرملين في تلك المرحلة كان يبحث عن صيفة "لشراكة انتقائية" لروسيا أو حتى "إلتزام انتقائي" أقل وضوحاً مع الغرب. ولكن، كان علينا أن نرى مدى اهتمام بوتين بتلك المصبغة، وإلى أي حدّ كان مستعداً لتوسيعها، وعلى ماذا كانت تستند. حتى ذلك الحين، كانت روسيا رغم الخطاب المعادي للغرب ولفة القوة العظمى لطبقتها السياسية - سريعة بشكل مدهش في التكيف مع إمكانياتها الجديدة وفي استهلال الحسوار مسع الفسرب. في الحقيقة، كانت "ضربة بريشتينا" أثناء أزمة كوسوفو في العسام 1999 الانحسراف الوحيد عن هذه الصيفة في التكيف. لكن التطورات اللاتحلية يمكن أن تلفع روسيا بانجاه المزيد من الانعزالية، بالرغم من نوايا بوتين.

-- **&** --

إن الجدل حول العراق وخطر وجود صراع مصالح محتمل في الحيّر السوفياتي السابق كانا يقوِّضان شراكة موسكو وواشنطن، تلك الشراكة تبدو أكثر هشاشة مع مرور الوقت، بالرغم من العلاقات الشخصية الدافقة بين زعيمي الدولتين. وهذا كان دليلاً على أن العلاقات المستندة إلى التوافق الشخصي ستبدأ عاجلاً أم آحسلاً بالتفكّك إذا لم تُدعَم بأحندة وأسس أكثر صلابة (21). وإضافة إلى ذلك، فقد ظهر سبب حديد لتعميق الربية المشتركة بين العاصمتين: إلها قضية خودور كوفسكي. من الواضح أن بوتين لم يتوقّع أن يؤثر اعتقال هذا الثري المتنفذ على علاقاته مسع زملائه من الرؤساء، إلا أن الهجوم على يوكوس اعتير من قبل واشنطن وعواصم غربية أخرى بمثابة ضربة ليس فقط إلى الشركات التجارية الروسية بل إلى الملكيات الخاصة في روسيا.

من أحل أهدافه الدولية، كان البيت الأبيض مستعداً لفسض النظر عسن الشيشان، وعن القيود المفروضة على حقوق الإنسان في روسيا، ولكن، ثمة أمور لم يكن باستطاعة الزعماء الأميركيين تجاهلها، وخاصة انتهاك حقوق الملكية، الستي تُعتبر موسسة مقدسة في الغرب. على هذا النحو نظر الغرب إلى قضية يوكسوس، ولهذا السبب، عندما فقد الرئيس الروسي صورته كليرالي مؤيد لاقتصاد السسوق،

بات التعامل معه أكثر صعوبة. إن السياسين الأميركيين الذين كانوا يقولون، "حسناً، حتى لو لم يكن بوتين ديمقراطياً، فهو يقى شريكنا في التحالف وهو مناصر للسوق"، وحدوا أنفسهم أمام معضلة حقيقية. لقد تبيّن أن بوتين لم يكن ليرالياً مناصراً للسوق إلى ذلك الحدّ، ولا شريكاً بكل معن الكلمة أيضاً (22). "رغم أن بوتين حافظ على تكتّمه وسرّيته، بصفته عميل كي حيى حيى بي سسابق، إلا أن أحداثاً كالاعتقال الوحشي للملياردير النفطي الروسي خودوركوفسكي والححر على جزء من أسهم شركته "يوكوس - سيبيفت" ساعدا على إعطاء صورة واضحة للرجل الذي خلف يلتسين منذ نحو أربع سنوات"، كتب جيم هوغلاند في صحيفة الواضنطن بوست، معبّراً عن مشاعر الدوائر المتنفذة في واضعطن (23).

في خريف العام 2003، أنهم السيناتور جون ماكين وعضو الكونفرس تسوم لانتوس روسيا بألها "نظام استبدادي"، وطالبا بطردها من مجموعة الثماني. وبعسد ذلك بفترة وجيزة، حاء لانتوس إلى موسكو، وعندما حاول زيارة الدوما للحسوار مع أعضائه، لم يُسمَع له بالدخول. لم يكن النواب الروس يرغبون بسالحوار مسع منتقديهم. وهذا لم يكن بالطبع يساعد على تحسين العلاقة بين الدوما والكونفرس. فإذا كانت روسيا ما تزال تعقد الآمال على إيطال تعديل حاكسون – فانيسك، يمكنها الآن أن تنسى الأمر، على الأقل في المستقبل المنظور.

إلى موسكو. وقبل زيارت الماني عام 2004، حاء كولن باول إلى موسكو. وقبل زيارت بيوم، نشرت صحيفة إزفيستيا، وهي إحدى الصحف القومية في روسيا، مقالة وحَّه فيها وزير الخارجية الأميركي لأول مرة نقداً لاذعاً للسياسة الداخلية الروسية. فقد كتب باول "لقد جعلتنا بعض التطورات في الحياة السياسية الروسية والسياسة الخارجية نميد حساباتنا من حديد. إن النظام المنمقراطي لروسيا، كما يدو لنا، لم يحقق بعد التوازن الضروري بين السلطات التنفيذية، والتشريعية، والقضائية. والسياسية ما تزال غير ملتزمة بشكل كامل بالمعايير القانونية. كما أن الأطراف الأساسية في المحتمع المدني، مثل وسائل الإعلام الحرّة والأحزاب السياسية

المتطورة، ليست مستقلة ولا مستقرة حتى الآن. إننا قلقون من عدة أمسور تتعلق بالسياسة الداخلية لروسيا في الشيشان بالإضافة إلى سياستها تجاه حبرالها السذين كانوا ذات يوم حزءاً من الاتحاد السوفياتي (24) لم يسبق أن وجّه مسؤول رفيسع المستوى في عهد يوش مثل هذا الانتقاد الشديد للسياسة الداخلية الروسية؛ الأمسر الذي صدم الكرملين. على أي حال، رد الكرملين مظهراً امتعاضاً واضحاً مسن تصريح باول، آملاً فيما يهدو بأن ذلك لم يكن إلا مناورة انتخابية من طرف البيت الأيض.

مما لا شك فيه أن انتقاد وزير الخارجية للكرملين كان بالفعسل يسستند إلى الحملة الانتخابية الأميركية، وإلى رغبة بوش في عدم إعطاء الديمقراطيين وروسيا ورقة ضده. من الواضح أن بوش وفريقه كانوا يتذكرون حملة "من ضبّع روسيا" التي شنّها الجمهوريون خلال صراعهم الانتخابي ضد آل غور؛ في ذلك الوقست، استغلّ الجمهوريون ببراعة تقارب كلينتون من يلتسين من أحل تقسويض موقسف الديمقراطين خلال الحملة الانتخابية. و لم يكن بوش يريد أن يقع في نفس الفسخ. وهكذا، من خلال انتقاد ميول بوتين الديكتاتورية، أصبح بإمكان فريق بسوش أن يقول "أترون، نحن نرى كل عيوب بوتين وغيره بما نفكر".

ولكن، حتى بدون المنطق السياسي العادي المتفلق بالسنة التي يجري فيها الانتخاب، فقد أصبح من الصعب تفادي الاستنتاج بأن العلاقة بسين روسيا والولايات المتحدة - رغم محاولات موسكو وواشنطن لإعطاء انطباع بسأن شراكتهما كانت ناجحة - كانت تبدو كقوقعة فارغة. إن التعاطف المشترك بسين الزعيمين، والمهارات الزائفة لفريقيهما، والعمل المتواصل للفرق الدبلوماسية الهائلة من كلا الجانبين من المحيط التي كانت تدعم العلاقة الثنائية منذ فترة الحرب الباردة، كل ذلك لم يعد باستطاعته أن يخفي حقيقة أنه لم يكن هناك الكشر للتحدث كل ذلك لم يعد باستطاعته أن يخفي حقيقة أنه لم يكن هناك الكشر للتحدث بشأنه. لقد تبين أن الشراكة لم تكن إلا جهداً مكلفاً مضيعاً للوقت لم ينتج عنه الكثير. وكما يقول الروس عن جهد كبير يفضي إلى نتائج قليلة: يمخض الفيل فيلد فأراً.

وهكذا عاد المحللون للمرة المائة إلى الحديث عن وحود أرسة في العلاقسات الأميركية الروسية. إن التفوّه بشيء إيجابي عن هذه العلاقات لم يكن شسائعاً لا في

موسكو ولا في واشنطن، وفي الحقيقة، كان ذلك يدلً على قدرة تحليلية فقرة. لقد أصبح الحديث عن هذه الأزمة لازمة مألوقة لكل من يكتب عن أميركا وروسيا. لكن ما يثير اهتمامي فعلاً هو شيء عتلف تماماً: لماذا تعود العلاقة إلى سابق عهدها بعد كل نوبة تراجع، مثل الزنبوك؟ إليكم تفسيري الشخصي لظاهرة الزنبرك هذه: ثمة اعتراف من كلا الجانبين بالتهديدات المشتركة، وفههم واقعي لعواقب أي مواجهة بينهما. وهناك أيضاً فهم للغوارق بين المعايير والقيم بين كلتا العاصمتين. إن الحوف من وجود أزمة بين الطرفين، ومن عواقب هذه الأزمة عليهما مماً له تأثير مهدًى وملطف على المؤسستين السياسيتين في كلا البلدين. ولكن، في الوقت تأثير مهدًى وملطف على المؤسستين السياسيتين في كلا البلدين. ولكن، في الوقت الداخلية للبلدين. وهذا يعني بأن الولايات المتحدة وروسيا ليستا بحاجة ماسة إلى الداخلية للبلدين. وهذا يعني بأن الولايات المتحدة وروسيا ليستا بحاجة ماسة إلى العاون أكبر من أحل تعلق عورة من الضغط على أحددتيهما فيما يتعلسق بالسياسة بعضهما البعض بحيث يخفق من الضغط على أحددتيهما فيما يتعلسق بالسياسة

ولهذا السبب، نظرياً، لم تكن النعبة ولا الشعب في كل من روسيا والولايات المتحدة يشعران بأن هناك ضرورة حقيقية لبناء علاقات روسية أمركية متينية وثابتة، ولم يعد هناك المزيد من التوقعات المبالغ بها اليوم. ولكن، على أن أعتسرف بأن هذا الافتقار إلى الحاجة الداخلية الجدية لعلاقات أكثر اتساعاً بين الطرفين قيد يؤدي إلى مزيد من النفور بينهما. ولكن، كما أسلفت، إن الخوف من وقوع أزمة يخفّ من حجم هذا التهديد. من هنا، يمكننا أن نستنتج في نحاية الأمسر، بشكل تقريبي، بأن عدم وجود أي شيء مادي يعني بأن لا شيء سينهار أو يتفكك، الأمر الذي يقلّص من خطر حصول أزمة. بينما كان التوتر، الأكثسر خطورة، بسين الولايات المتحدة وأوروبا، في الوقت الحالي على الأقسل، يصود إلى التوقّعات الأمركية الكبيرة من خلفائها في الجانب الآخر من الحيط الأطلسي.

الأمر نفسه يمكن أن يقال عن خيبة الأمل الدائمة من العلاقات بين السدوائر السياسية والاجتماعية الأوسع نطاقاً في روسيا والولايات المتحدة؛ لأنما تعسود إلى الآميال المفرطة وغير المبررة في أغلب الأحيان²⁵، إذا نظرنا بشسكل واقعسى إلى

العلاقات بين العدوين السابقين، فإننا سنجد أن موسكو وواشنطن نجحتا إلى حسدً ما في تجنّب الكوارث، وحافظتا على حوار ناجح تماماً حتى مسع غيساب الثقسة المتبادلة، وبوجود المهيَّحات، والأمور المستفزة. وهذا صحيح بشسكل حساص إذا تذكّرنا ألهما يتعاملان مع علاقة بين نظامين مختلفين تحافظ على استمرارها الإرادة السياسية لزعمائهما.



بحلول أواثل العام 2004، أصبحت العلاقة بين روسيا والاتحاد الأوروبي أكثر تعقيداً حتى من الشراكة الروسية مع الولايات المتحدة. فقط عملال العامين 2001-2002، ومما يدعو للاستغراب، كانت علاقات روسيا مع الناتو أكثر تـــوتراً مـــن علاقاتما مع الاتحاد الأوروبي. ولكن، سرعان ما تُغيِّر الوضع، فأصبحت العلاقة بين بدت العلاقة بين روسيا والاتحاد الأوروبي قبل فترة قصيرة من توسسيعه في العسام 2004 أقرب إلى التوتر. بدأ الاتحاد الأوروبي وروسيا يواحهان مشـــاكل حتميـــة ما تحمله من مواصفات مميزة (التأكيد على الأرض والقوة العسكرية والسيادة)، والاتحاد الأوروبي يطور شكلاً حديداً من التكامل، مبطلاً كـل عناصـر الدولــة التقليدية. وكما كتب دوف لينش، "روسيا دولة ذات سيادة، مع نظام سياسسي واقتصادي وعسكري موحَّد"، و"الاتحاد الأوروبي نمـــوذج آخـــر مختلـــف كــــل الاعتلاف". وعلاوة على ذلك، وفقاً للينش، "أصبحت روسيا محافظة متشدّدة في بعض محالات الشؤون الدولية"، في حين أن الاتحاد الأوروبي "يقف علمي عتبـــة تطوير تقاليد حديدة في العلاقات الدولية، من بينها أفكار مثل "التدخل الإنساني" و السيادة المحدودة " وأحيراً، " في حين أن السمى المتزامن للتوفيق بين القيم والمصالح قد لا يبدو متناقضاً بالنسبة لبروكسل، فإنه يبدو كذلك من وجهة النظـــر الروسية". وهذه الفوارق "جعلت من بناء شــراكة اســـتراتيحية حقيقيـــة أمـــراً صعباً"(26).

كان لا بد لاختلاف توجها قما التطويرية أن يؤثر على المقارب المختلف لروسيا والاتحاد الأوروبي فيما يتعلق بالقيم الأساسية ومبادئ النظام العالمي. وله فا السبب، وعلى الرغم من المصالح الأمنية والاقتصادية المشتركة، فإن التناقضات والاستياء المتبادل الناتج عن الفوارق البنيوية قد أصبحا أمرًا حتميًا.

مثل هذا التغير الواضع في المشاعر يتناقض مع الوضع الذي كان سائداً قبل عدة سنوات فقط، عندما وافقت القمة الأوروبية الآسبوية على تطووير مفهوم "منطقة اقتصادية أوروبية مشتركة". ففي العام 2003، طوّرت قمّتا روما وسان بطرسبورغ فكرة إنشاء "أربع مناطق". منطقة اقتصادية مشتركة منطقة مشتركة للعلم، والخمن الخارجي؛ منطقة مشتركة للعلم، والتعليم، والثقافة.

لكن العلاقات بين موسكو وبروكسل ساءت أحوالها مع قدوم ربيع العام . 2004. بدأ المجتمع الأوروبي يزداد إحباطاً من عدم قدرة روسيا، أو افتقارها للإرادة السياسية لتنفيذ اتفاقية الشراكة والتعاون الموقعة في العام 1994. كانت مشاريع التكامل مع روسيا، بما فيها الحوار حول الطاقة، متوقفة. وكان قلم أوروبا يزداد من الميول الديكتاتورية في روسيا، ومسن الحسرب المستمرة في الشيشان، ومن تقليص الحقوق المدنية. كما زاد رفض روسيا للمصادقة على بروتوكول كيوتو من الطين بلة.

وكانت روسيا بدورها مستاءة من الخطاب المتعلق بحقوق الإنسان، والمحاضرات المستمرة من أوروبا. كما أن البروقراطية في بروكسل - يإصسرارها العنيد على معايير معينة للتعاون مع روسيا لم تكن مقبولة بالنسبة لموسكو - كانت على معايير معينة للتعاون مع روسيا، الأمر الذي يمكن، من وحهسة نظر بزيادات فورية في تعرفات الطاقة من روسيا، الأمر الذي يمكن، من وحهسة نظر الحيراء الروس، كما رفض الاتحاد الأوروبي تفسير موقفه بخصوص دخول روسيا في منظمة التجارة العالمية. وهذه المحاولة الإداريسة للبش عن الأعطاء تسببت في خروج بوتين الهادئ عن طوره، حيث تكلّم عصطلحات متقدة عنيفة عن البروقراطيين في بروكسل.

ثم اكتشفت موسكو فحاة بأن توسيع الاتحاد الأوروبي وضعها أمام تحديات حديدة لم تكن مستعدة لها. إحدى هذه التحديات كانت مسألة توسيع اتفاقية الشراكة والتعاون مع الاتحاد الأوروبي لتضم أعضاء حدد من أوروب الوسطى والشرقية. حيث إن ذلك التوسع يمكن أن يكلّف روسيا نحو 150 مليون دولار في العام الواحد، وفقاً لبعض المحللين. قدّمت موسكو إلى بروكسل ورقة مؤلفة مسن أربع عشرة نقطة، تطالب فيها بشكل أساسي بمراجعة شروط اتفاقيتها مع الاتحاد الأوروبي. وتضمّنت القائمة مطالبة بإعطاء امتيازات تجارية، وتسهيل نظام تأشيرات المرور⁽²⁷⁾. ولم يكن ردّ بروكسل أقل شدة من موسكو – وذلك أمر مفهوم – لأن خططها لم تكن تتضمّن تغير قواعدها رداً على مطالب أمة ليست عضواً في الاتحاد الأوروبي.

إن التوييخ المتبادل، والادعاءات المتبادلة المتزايدة جعلا روسيا تنظر إلى الاتحاد الأوروبي بعين ملوها الترقب، متوقعة الأسوأ منه. وبدورها، غيَّرت السلطات في بروكسل من لهجتها المهذبة السابقة مع روسيا وبدت بألها ستغيّر سياسة التنازل إلى أخرى أكثر شدة وتصلباً. وهكذا جمَّدت المفوضية الأوروبية تنفيذ الأفكار المتعلقة بالقرار الذي نشرته في بداية العام 2003 تحت عنوان "أوروبا أكثر اتساعاً"، وفيسه اعتبرت روسيا، إلى جانب اللول التي تقع على حدود الاتحساد الأوروبي، أسّة في "دائرة أصدقاء" الاتحاد الأوروبي، ففي 9 شباط عام 2004، صدفت المفوضية الاتحاد الأوروبي من روسيا. أصر الاتحاد الروسي"، الذي أظهر خيبة أمسل الاتحاد الأوروبي من روسيا. أصر الاتحاد الأوروبي، قبل النفاوض مع روسيا، علسى وجوب موافقة اللول الأعضاء على "الخطوط الحمر" التي لا يمكس تجاوزها في المحادثات مع موسكو؛ أي التوصية للعواصم الأوروبية بصدم تقسم تنازلات الحروبية بعدم تقسم تنازلات أوروبية بمدة تقسم تنازلات أوروبية بلوسكو. وفي نفس الوقت، دعت وثائق أخرى، حُشرت من قبل وكالات أوروبية لمرسيا، من خلال المنساطق رائيه المذكورة أعلاه.

تُظهر التناقضات في مواقف الاتحاد الأوروبي وجود مقاربات مختلفة تحساه روسيا في بروكسل؛ إذ تبقى الرغبة باستثناف مشروع الاندماج بالرغم من كسل

العقبات، إلى حانب مقاربة أعرى بدأت تسود، على الأقل في تلك المرحلة. يقول المويدون لهذه المقاربة الأخيرة بأن روسيا ليست لديها نية للقيام بتغييرات تسمح لها بالاندماج في منظومات الاتحاد الأوروبي. وهكذا، للمرة الأولى، نحساك دعوة مفتوحة ضمن المؤسسات الأوروبية لبناء علاقات مع روسيا علسى أسساس المصالح، وليس على أساس الاندماج، واستعداد لجمل العلاقات مع روسيا أولوبة لا تحتل المراتب العليا.

إن استياء المجتمع الأوروبي الواضح من روسيا كان نتيجة حتمية لإخفاق فكرة الذماج روسيا في المؤسسات الأوروبية، تلك الفكرة التي طورها الفسرب في التسمينيات. وفقاً لهذه الفكرة، يمكن لروسيا أن تصبح عضواً في المؤسسات الغربية (مثل بجموعة الثماني) بالرغم من ألما لم تكن موهلة تماماً لـذلك. في الحقيقة، إن المعضوية في المحلس الأوروبي وبجموعة الثماني، إلى حانب أنشطة بحلسس روسيا والناتو، كان لهما تأثير فعلي على التطورات الداخلية الروسية، إذ إن انشهاكات حقوق الإنسان في الشيشان واضطهاد وسائل الإعلام في روسيا كسان يمكسن أن يكرنا أكثر قسوة لولا رغبة بوتين في أن يصبح عضواً في المجتمع الغربي ومؤسساته. لكن الطبقة السياسية الروسية أصبحت تعتقد بأن روسيا ينبغي أن تُحسنَح معاملة دولتها التقليدية وقوانينها ومبادئها اللاعلام قي والحفاظ في الوقت نفسه علسي دولتها التقليدية وقوانينها ومبادئها اللاعلة الحاصة، وهذا ما أدى إلى تغيير الموقف دوث أصبح الغربي بحاه المضي أبعد من ذلك في عملية دمج روسيا في شسبكاتها المؤسساتية، وحيث أصبح الغرب الآن يعتقد بأن على روسيا عن الإلتزام بمعايير المؤسسات الدوليسة أولاً، ومن ثم تُعتَع العضوية، وإذا ما توقفت روسيا عن الإلتزام بمذه المعايير فسإن الطرد ينبغي أن يُوخذ بعين الاعتبار (20).

لدى دراستهما أسباب خيبة الأمل المتبادلة للاتحاد الأوروبي وروسيا، وحسد المحللان الروسيان، تيموفي بورداشيف وأركادي موشيز، أن الفوارق البنيوية بسين هذه المواضيع الدولية كان لها تأثيرها على العلاقة. " لم تعد أوروبا تؤمن أنه بإمكان روسيا أن تصبح حزءاً من مجموعة من الدول تجمعها قيم متشائمة" كان المجتمسع الأوروبي يزداد اقتناعاً بأن "روسيا لم تكن قادرة على الانسدماج وألهسا مستبقى

شريكاً منافساً خارج الفضاء الأوروبي"، وفقاً لبورداشيف وموشيز (29).

موسكو نفسها غذّت التشاؤم الأوروبي بخصوص اندماج روسيا، وذلك مسن خلال إشارقما الدائمة إلى مصالحها واحتياحاتها الخاصة، ومطالبتها بالحرية الكاملــة في السياستين الداخلية والخارجية. باختصار، كانت موسكو تؤيّد شــفهياً فقــط فكرة الاندماج لكنها لم تكن مستعدة للتحلّي عن سيادقما من أحلها، ولهذا السبب استمرت في سياستها البراغماتية المستندة إلى مصالحها الخاصة.

وفي هذا الخصوص، إنني أتفق مع أندريه زاغورسكي، الذي قال بأن أحسد الأسباب الرئيسة لإعلان التعاون مع أوروبا كان يعود إلى "تقدير موسكو المبالغ به للدورها ونفوذها على الساحة الدولية" ومطالبها "ببناء علاقات مع الدول الغربيسة ومنظمالها المتنوعة الأطراف على أساس المساواة الكاملة" (60. وليس بعيداً عن هذا الإطار، لقد نوَّهت بيكا سوتيلا إلى "ميل روسيا للمطالبة بالمستحيل". وأضافت سوتيلا: "لعل روسيا كانت تعتقد فعلاً بأن مطالبتها بالمستحيل ستحلب لها علسي الإطار تازلاً آخر في مكان آخر "10.

المقصود بالمطالبة بالمستحيل، على سبيل المثال، إصرار روسسيا علسى الحسق بالاشتراك في عملية صنع القرار في الاتحاد الأوروبي دون أن تكون عضوة فيسه، وهذا ما لم يكن باستطاعة الاتحاد السماح به. كان الأمر أشبه بدائرة مفرغة: كان تحقيق اندماج أكبر لروسيا في المجتمع الأوروبي يتطلّب انسحام التشريعات الروسية مع القاعدة المعيارية في بروكسل؛ أي يتبغي على روسيا أن تقبل بقواعد الاتحساد الأوروبي للعبة. لكن هذا كان يعني بالنسبة لموسكو علاقات غير متكافئة، وروسيا لم تكن مستعدة للعب دور شريك ثانوي. وإضافة إلى ذلك، فإن قبول مهادئ أوروبية معينة يمكن أن يكون مدمراً بالنسبة لمروسيا، التي كانت ما تزال في مستوى عتلف من التطوّر. و لم يكن الاتحاد الأوروبي بدوره مستعداً للسماح لدولة تملسك عتلف من التطوّر. و لم يكن الاتحاد الأوروبي بدوره مستعداً للسماح لدولة تملسك ما روسيا والاتحاد بين الحين والآخر خصمين وخصمين لدودين - بدلاً من أن من روسيا والاتحاد بين الحين والآخر خصمين وخصمين لدودين - بدلاً من أن من روسيا والاتحاد بين الحين هناك في الأفق طريقة للخروج مسن هذا التناقض.

الأوروبية الكبرى أصبحت متوترة. على الإطلاق! فالقادة الأوروبيون، من بينهم شرودر، وبيرلسكوني، وشيراك، وبلير سعوا لإقامة صداقات شخصية مع بسوتين، تاركين للاتحاد الأوروبي وبروكسل لعب دور "الشسرطي السسيئ". إن وحسود مستويين من العلاقات بين موسكو وأوروبا - أكثر دفعاً على المستوى الفسردي وأكثر تشتّحاً على المستوى الجماعي - ترك لروسيا مساحة واسسعة للمنساورة. وكانت موسكو بالطبع تفضّل التعامل مع المستوى الأول.

والمثير للاهتمام في الأمر هو أن الروس استمروا في اعتقادهم بأن روسيا ينبغي أن تتابع تحركها تجاه أوروبا. ففي استطلاع للرأي أجري في كانون الشاني عام 2003، أعرب 57 بالمائة من المشتركين عن أملهم في انضمام روسيا إلى الاتحاد الأوروبي. وفي تشرين الثاني عام 2003، كان 35 بالمائة من المشتركين يشعرون بأن على روسيا العمل لكي تصبح شريكاً مساوياً، و30 بالمائة كانوا يعتقدون بأن روسيا يجب أن تسعى لبناء علاقات مع الاتحاد بلون أن تصبح عضوة فيه. في حين أن 16 بالمائة فقط كانوا يعتقدون بأن لا فائدة تُرجَى من رغبة روسيا في أن تكون جزياً من أوروبا (32). إذاً، بالرغم من المشاكل على المستوى السياسي، فكان معظم الشعب الروسي لا يزال يعتقد بأن على روسيا أن تتقرّب أكثر إلى أوروبا، وهذه كانت حقيقة مشحّعة بالفعل.

-**\$**-

أجري حفل تنصيب فلاديمير بوتين كرئيس لروسيا في 7 أيار عام 2004. في ذلك الحفل، بدا بوتين رحلاً حديداً. ففي حفل تنصيبه الأول في العام 2000، مشى الرئيس عبر أروقة الكرملين وصعد السلالم الطويلة بارتباك وحرج واضحين، وكان حلياً أنه كان يحاول إخفاء عصبيته. أما هذه المرة، فقد مشى بخطوات واثقة، وهو يتلفّت حوله، وينظر مباشرة في أعين الناس المحتشدين على حاني المر. كانت تعابيره هادئة وبعيدة الغور، وربما، ساحرة. أو لعلني تخيَّلت ذلك فقسط؟ كان ينضع بالثقة بالنفس.

كان الاحتفال موجزاً ومؤثراً. أدلى الرئيس بخطابه وخرج إلى الشرفة الملكيـــة

لاستعراض الموكب الاحتفالي. هذه المرة، كانست فرقسة الخيالسة مشستركة في الاستعراض. يمكنني أن أتصوّر مدى قلق المنظمين في ذلك الحقل. لقسد حساءت الحنيول من حديقة الحيوانات في "استودبوهات موسفيلم". وعندما بسدا الموكسب استعراضه، حدث شيء غير متوقع. حيث قامت الحنيول بالانحناء حالما بدأت الفرقة الموسيقية عزفها. يبدو ألها دُرَّبت على ذلك من أحل فيلم تاريخي. على أي حسال، لم يكن الرئيس يحبّ المبالغة في هذه الأمور، إذ كان يفضّل احتفالاً بسدون ألهسة وقرحة، حتى إنه رفض عدّة رموز ملكية كان قد حاء بها يلتسين. ولحسن الحسظ، في المحطة الحاسمة، لم تصرّ الخيول على الركوع.

وهكذا استعرض فلادعم فلادعم وفيتش الموكب وشرع في رئاسته الثانية.

من الديكتاتورية النخبوية الى الديكتاتورية البيروقراطية

البرتينية كاستمرارية وكرفض لليلتسينية. اقتصاد النمو بدون تطوّر. المجال الاجتماعي: الانحلال يستمر. روسيا والغرب بيحثان عن شراكة الثقائية. عل كان الرئيس يملك خياراً؟ مخاطر المبالغة في التبسيط. تقييم للقيادة السياسية.

أولتك الذين اعتقدوا أن فلاديمو بوتين لن يكون أكثر من خليفة ليلتسين، يدافع عن إرث يلتسين وخاصة موقع "عاتلته" السياسية، كانو مخطين. فقد أصبح بوتين في فترته الرئاسية الأولى خبيراً هاماً بالعملية الديالكتيكية (الجمع بين فكرتين متنافضين في نظرية واحدة). فهو، من جهة، أظهر استمرارية للماضي، ليس فقط ماضي يلتسين بل ما قبله أيضاً، وحافظ على نجوذج الحكم الذي لم يمتلسك حسي غورباتشوف ويلتسين، اللذان بحراً على تدمير الدولة والإمبراطوريسة، الشسحاعة لإبطاله السلطة الفردية غير المجزاة. ومن جهة أخرى، وفض البلتسينية كأسسلوب ومنهج للحكم. وبذلك أنشأ نظاماً سياسياً جديداً وبدأ دورة جديسدة في تطسور روسيا.

ماذا فعل الرئيس الروسي الثاني خلال فترة دامت بين عسامي 1999–2003 لقد أخرج بوتين روسيا من المرحلة الثورية من خلال إنهاء تجربة يلتسين الفوضوية مع المنمقراطية والحريات. أما في الاقتصاد، فقد عزّز بوتين التوجّه نحسو السسوق، لكنه في نحاية المطاف بدأ يميل إلى سياسة تدخّلية قوَّضت إصلاحاته بالسذات. وفي المحال الاجتماعي، حافظ بوتين على نظام سياسي مفكك أصبح مصدراً للتسوتر الاجتماعي. وعلى الساحة الدولية، حافظ بوتين على التوجّه الغربي لروسيا، لكنسه أخفق في دمج روسيا في المحتمع الغربي، رغم أن ذلك لم يكن خطأه وحده.

لقد حاول بوتين أن يفعل المستحيل: الحفاظ على استمرارية تحوّل ناقص. لم يسبق أن ممكن أحد من حعل بناء ناقص متيناً وقابلاً للبقاء، مهما كسان مدعوماً. لقد باشر خليفة يلتسين العمل في مشروعين متعارضين في وقت واحد (فيما يبدو، لم يكن يدرك تعارضهما): عاولة الحفاظ على حكم تقليدي، وبناء اقتصاد حديث في وقت واحد. وهذا التضارب أنتج تناقضات حديدة - لم تكن ظرفية بل بنيوية - بين الطبقة السياسية المحافظة، المهتمة بمصالحها الخاصة، وبين المجتمع الأكثر دينامية؛ بين المنهج المويد للغرب وبين النوعة المركزية؛ بسين الاقتصاد الليبرالي والطبقة البيروقراطية المركزية؛ بين التطلع للحرية وعاولة كبتها؛ بين الاستقرار والحاجة للتغيير، أو الحاجة لإصلاح الآليات التي تطوّرت كي يعلمها. وإذا ما حاول أن يملها، فإنه سيضطر إلى تدمير الكثير مما بناه خلال رئاسته الأولى.

ولكن، دعونا من المستقبل الآن، ولنفكر في الماضي القريب. أنا أعرف أنسه حتى هذه اللحظة ليست كل النسسزعات التي برزت ستبقى؛ بعضها سيبقى، والبقية ستكون قصيرة الأمد. ولكن، أعتقد وأنا أكتب الآن، أي في خريف العام 2004، أن هناك ما يكفي من الدلائل لاسستناج منطق ومعضلات فترة بوتين الرئاسية الأولى.

دعونا إذن نتبع طرقاً حديدة، بدعاً من السياسة بالطبع، التي تبقى القوة المحركسة للتطوّر في روسيا، رغم أنه لم يبقَ الكثير من الحياة السياسية من رئاسة بسوتين الأولى. في الواقع، يُعتبر حفاف الحياة السياسية (إذا كنا نعني بما توليفة من المؤسسات المستقلة وآليات التواصل بين النظام والمجتمع) من التئائج الهامة لحكم بوتين. بحم فلاديم بوتين - الجديد على الساحة السياسية الروسية - بأسلوب حفر وبشكل تدريجي، وبدون الدخول في مواجهة مع المحموعة الحاكمـــة السمابقة، في إعادة بناء النظام السياسي الذي حلَّفه يلتسين. ويمكننا أن نطلق على نظام يلتسين ف مراحل تطوره الأخيرة تسمية "الديكتاتورية النخبوية"؛ أي سلطة فردية موجّهة بالدرجة الأولى نحو الحفاظ على مصالح الشركات التحارية الكبرى المقرّبة مسن يلتيسين. والأمر نفسه ينطبق على المحموعات المتنفذة الأخرى في الطبقة الحاكمة -وخاصة التكنوفراطين والبيروقراطيين - حيث كانت تسعى لخدمة مصالح طبقة الناحية (1).

لقد أنشأ بوتين نظاماً سياسياً شكَّلت البيروقراطية فيسه المصدر الأساسسي للسلطة الديكتاتورية. حاول النظام تقليص مكانة وأهمية التكنوقراطيين والشركات الكبرى (وقد نحح ف ذلك إلى حدٌّ كبير مع فعاية رئاسة بوتين الأولى). وهذا يمكُّننا من أن نصف حكم بوتين، موقتاً، "بالنظام الديكتاتوري البيروقراطسي"(2). وهذا المفهوم ليس جديداً على أي حال، فقد استخدمه عدّة باحثين في السابق، من بينهم غويليرمو أودونيل، لوصف الأنظمة التي كانت قائمية في أميرك اللاتينية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، تلك الأنظمة التي لعبت دوراً جوهرياً في تحديث الاقتصاد استناداً إلى الموارد الطبيعية. ولكن، ينبغي عدم التشديد كثيراً على التشابمات بين النظام الروسى والأنظمة الأميركية اللاتينية لأنما تنتمي إلى ظــروف تاريخية مختلفة. لقد استعرت المفهوم كي ألقى الضوء على عنصرين أساسميين في النظام الروسي الحالي: الديكتاتورية واستغلال الزعيم للبيروقراطية. وهذا الجمع بين العنصرين هو الذي يميّز نظام بوتين عن نظام يلتسين.

للديكتاتورية الروسية مكون إصلاحي تحديثي، كما ظهر من خلال السياسة الخارجية لبوتين وليبراليته الاقتصادية. لكن القدرة التحديثية للنظام الروسي كانت أقل بكثير من تلك الخاصة بالأنظمة الديكتاتورية الأخرى، مثل تشسيلي وكوريسا الجنوبية. صحيح أن الأنظمة الأخيرة ضيَّقت الديمقراطية وإمكانية القوى السياسية المستقلة في الوصول إلى السلطة، لكنها رسُّخت، في الوقت نفسه، مبادئ قانونيــة كانت تشمل الجميع بما فيهم الدولة ومسؤوليها، مما حملهم يضطرون للاتصياع

للقانون. وهذا ما سهِّل عملية الانتقال إلى مجتمع يرتكز على القانون.

في روسيا، نرى المكس من ذلك: بناء دولة قوية تفضّل وضع قواعد رسمية تتغيّر باستمرار، بدلاً من اتباع القانون. إنها الصفقات التي تجري تحست الطاولسة، والتي يغطيها النظام من خلال استخدام المحاكم ومكتب الحدعي العسام، اللهذين يشتركان في تشكيل نظام لا يستند إلى القانون. وبهذلك تكون الديكتاتوريسة البيروقراطية الروسية خالية محاماً من أي علامة من علامات بيروقراطيسة "ويسير" العقلانية، وغير قادرة على بناء نظام موسساني(أ).

- y- -

من بين العوامل العديدة المؤثرة على ظهور النظام السياسي الجديد في روسيا، سأكتفي بذكر العوامل التالية: الدور الذي أوكله يلتمسين إلى بسوتين، والمنطق البنيوي الذي تشكّل في عهد يلتمين، ورؤية بوتين الخاصة، وطبيعة الفريق السذي جمعه، والمشاعر السائدة ضمن النحبة والشعب.

لقد أوكل يلتسين وشركته الحاكمة إلى بوتين دور عامل الاستقرار، السذي يُفترَض بواسطته أن يعزّز من مواقعهم بعد مفادرة يلتسين منصبه. لكسن بسوتين اضطر في لهاية المطاف، بغية الحفاظ على سلطته، إلى تبنّى منطق ينساقض مصالح جماعة يلتسين التي كان يدين لها بوصوله إلى الحكم. وقد فعل ذلك بحذر وبشسكل تدريجي، فدفع بالموالين ليلتسين حارج الدائرة وأعاد تنظيم قاعدة حكمه.

تأثّرت قيادة بوتين بنظرته إلى العالم كمومن بالسلطة المركزية، وكعضو سابق أجهزة السلطة، وكعناصر للسوق في الوقت ذاته. حتى الآن، تُعبّر "ديكتاتورية السوق" فلسفة بوتين الأساسية، فهو أعاد إحياء إصلاحات السوق الستى توقّفست خلال عهد يلتسين، وفي الوقت نفسه، عمل على تقوية سلطته المركزية. إن عسدم ثقة بوتين بالمبتقراطية بمكن أن يصلح كتفسير لسبب اختياره لنظامه هذا. لا بد أنه كان يعتقد بأن المؤسسات المبتقراطية تقوّض الدولة الروسية، ولا يمكنها ضسمان الإصلاح الاقتصادي – وهذا ليس بالاعتقاد النادر بين الزعماء ذوي التوجّهات التكنوقراطية.

على أي حال، ثمة دافع آخر وراء أساليب بوتين الديكتاتورية: كان بــوتين الديكتاتورية: كان بــوتين الديكتاتورية: كان بــوتين على بناء قاعدة دعم خاصة به. فهو لم يكن باستطاعته الاعتماد إلى الأبد على بحموعة يلتسين، التي شكّلت حاشيته في البداية. إن الطريقة الأســرع والأبســط للمحافظة على السلطة تكمن في وضع أشخاص موالين لك في المناصب الأساسية في الدولة. ولهذا السبب، بذأ بوتين، بما يملكه من خلفية وذهنية خاصتين به، إعادة بناء الميكلية الإدارية، وذلك عن طريق حلب أشخاص من الأجهزة الأمنية(4).

لكن بوتين، كي نكسون منصفين، لم يعتمسه بشكل حصري علسى "السيلوفيكي"، حيث أدخل معه أيضاً تكنوقراطيين ويروقسراطيين براغمساتين، أصبحوا جزءاً موازياً للسيلوفيكي في الشبكة المقدّة السيّ أنشساها. صحيح أن الأشخاص الذين حلبهم بوتين معه كانوا غير قادرين على تشكيل فريق متماسك، إلا ألهم كانوا بارعين في ألف باء البيروقراطية، وتمكنّوا في نحاية المطاف من طرد معظم رفاق يلتسين، إلا بضعة أفراد ممن بقي منهم (مثل فلاديسلاف سوركوف). لقد شكّلوا مجموعة بيروقراطية أقل شفافية وأكثر جموداً من ذي قبل – مشسائمة للدولة السوفياتية – وغير قادرة على التعامل بمرونة مسع الموثرات الخارجية والظروف الطارئة. أما المجموعة الوحيدة التي كانت قادرة على الارتجال في رئاسة بوتين الأولى فهي الكتلة الاقتصادية في الحكومة، عمثلة بجيرمان غريسف وزملائه. لكنهم سرعان ما أرغموا على القبول بالقواعد البيروقراطية في عاولة منهم للحفاظ على بقائها في أروقة الكرملين.

شُكُل نظام بوتين في مرحلة من الإحباط الشعبي من تذبذب وخداع يلتسين، الطذين يفسران إلى حدَّ ما مساره المنحني. في العام 1999–2000 كانست الطبقــــة السياسية وحزء كبير من الشعب يريدان زعيماً قوياً، ويتوقان للنظام والاسستقرار. حتى الليراليون كانوا مستعدين للتضحية بعملية اللمقرطة غير المنظمة والفوضـــوية التي كانت تُستغل من قبل الطبقة الحاكمة كغطاء لمصالحها الشركاتية.

كل هذه العوامل دفعت بوتين في ائجاه أكثر ديكتاتورية بالمقارنة مع حكسم يلتسين. تشير الفترة الرئاسية الأولى لبوتين إلى استحالة ترسيخ مؤسسات ديمقراطية وحريات سياسية لم تُبنَ على أسس قانونية. طالما أن المجتمع والنظام لا يتفقان حول إعادة هيكلة السلطة على أساس القانون، فإن النسزعة الاحتكاريسة الشسركاتية ستشوّه أو ممتص الدافع الديمقراطي الضعيف. وبذلك يكون بوتين، عن طريق تقوية هذه النسزعة، قد أعطى الدافع لتكوين ديكتاتورية جديدة.

ولكن، في نفس الوقت، سيكون من السفاجة اعتبار الديكتاتورية النسزعة الأساسية في تعلور روسيا في مرحلة ما بعد يلتسين. إذ إن تقليص الحريسات السياسية في عهد بوتين حدث في وقت متزامن مع تنامي البروقراطية. وهكذا بدأ المسؤولون الذين دُفعوا خارج دائرة السلطة في عهد يلتسين بواسطة الشسركات الكبرى، وعانوا من التشظّي والإرباك طوال فترة التسمينيات، بسالتحمّع حسول الزعيم الجديد. ومع نهاية الفترة الرئاسية الأولى لبوتين، بدأ الوضع السذي كسان موجوداً قبل سقوط الشيوعية يعود من حديد بشكل تدريجي: الزعيم في القسمة، موجوداً قبل سقوط الشيوعية يعود من حديد بشكل تدريجي: الزعيم في القسمة، البيروقراطية، قاعدته الداعمة التي تحاول في الوقت نفسه أن تكون لاعباً

وهنا أيضاً من الصعب إبجاد نسزعة وحيدة. لأن الشركات الكيرى، السي أصبحت الآن خارج الدائرة الداخلية، كانت ما تزال تحتفظ، حتى في عهد بوتين، بقدرة على التأثير في النظام. ولكن، كان عليها التحوّل من الضغط المباشسر، إلى إنفاق النقود على المحموعات اللوبية (مجموعات الضغط) من أحل تأمين مصالحها. فبدلاً من الذهاب إلى مكاتب الوزراء وفتح الأبواب بأقدامهم، وبدلاً من رشوة نواب الدوما بشكل علني فاضح، أصبحت "الطبقة المتنفذة" الآن مضطرة للتحسراك بمخدر أكبر، من خلال وسطاء. وهكذا، عاد التقليد الروسي القليم مسن جديسد، التقليد الذي يقول بأن "المكتب" أكثر أهمية من "النقود"؛ الأمر الذي عسرة مسن تقليد ارتباط السلطة برأس المال.

إضافة إلى ذلك، بدأت الطبقة البيروقراطية الجديدة التي تشكّلت حول الرئيس بتطوير مؤسساتما التحارية الخاصة. إنه تكرار لما كان يحصل في صنوات يلتمسين، عندما كان البيروقراطيون يعيّنون نواباً من أجل خصخصة ملكيات اللولة، وهؤلاء النواب كانوا بدورهم مخوّلين لتنفيذ مصالح الطبقة البيروقراطية. والآن، بعد أن تمّت خصخصة القطع الأفضل من ملكيات المولة، لم يعد بالإمكان إرضاء شهية الطبقة البيروقراطية الجديدة و"الطبقة المتنفذة" الجديدة إلا من خلال إعادة توزيع الملكيات الحناصة. وفي هذا الخصوص، كانت قضية يوكوس اختباراً هاماً، لأفحا كانست متكشف ما إذا كانت السلطات مستعدة لعملية إعادة توزيع واسعة أو ألها كانت تتعامل مع بحرّد قضية "جربمة وعقاب". على أي حال، كان هناك شهيء واحمد مؤكد: ستحاول "الطبقة المتنفذة" الجديدة، الأكثر خبرة وحكمة، عاجلاً أم آجللاً التخلص من سيطرة الموظفين المخلصين، كما حصل في عهد يلتسين. من هنا، كان يتوجّب على الرئيس الجديد للكرملين أن يقرر كيف سيسيطر علمى الشسركات الكبرى؛ من خلال سن قسوانين الشركات التجارية وعلاقتها مع النظام؟

إن سياسة استعادة الأملاك التي اتبعتها الطبقة البيروقراطية في عهسد بسوتين أصبحت أيضاً تقيد سلطته الشخصية. وليست هي وحدها السي كانست تقيسد سلطته، إذ إن هناك عوامل مقيدة أخرى، منها المصالح الإقليمية المحلية ومصالح السيلوفيكي، وازدياد استقلالية المجتمع عن الدولة، والعفوية الباقية للتطور، وضعف أدوات تطبيق القانون وفسادها. وإضافة إلى ذلك، فإن وحود الشركات التحاريسة ومصالحها التي كانت ما تزال قوية حدًّتا من قدرة بوتين على المناورة. بعبارة أخرى، خلال فترته الرئاسية الأولى، بدا بوتين بأنه زعيم قوى، لكن قوته وسلطته المواسعة ححمتنا بواسطة الكثير من القوى المحركة المسؤرة. وفي بعسض الحسالات والمجالات، كان بوتين أكثر تقييداً في حركته من يلتسين، الذي كان يُعتبر زعيماً ضعيفاً بحق.



هناك ميل لتفسير التحوّل الديكتاتوري في عهد بوتين بأنه تشسويه للنظام الروسي الذي تكوَّن في عهد يلتسين. في الحقيقة، إننا أمام نتيجة منطقية لليلتسينية، وعاقبة حتمية لتفكك الآليات الديمقراطية غير الناضجة. وبما أن النظام الجديد كان مضطراً للتخلّص من الماضي من أجل فرض نفسه، بدأت البوتينية برفض اليلتسينية كعقلية، وكنموذج للحكم، وكتوازن للقوى. وفي هذا الخصوص، كان سستيفين كوتكين محقاً حين كتب عن "إساءة فهم حقبة التسعينيات، حين سادت الفوضى بدلاً من الحكم الموسساني للقانون" وأن الهجمة الديكتاتورية في روسيا لا يمكنن عزوها فقط إلى بوتين (5). دعوني هنا أؤكد على هذه النقطة: لم يكن نظام بسوتين فقط تحسيداً لأفكاره المتعلقة بالسلطة، وإنما كان ردّة فعل على ماضي يلتسين الذي كانت روسيا تحاول التخلص منه. أما عن محاولة النجبة الروسية للمروز من خسلال العودة إلى الماضي، فشمة من يقول بأن ذلك كان ناتجاً عن عدم قدرتها على مواحهة التحديات الجديدة.

رغم أن التطورات السياسية في عهد بوتين حصلت على تقديرات مختلطة في روسيا والعالم الخارجي – من التقديرات الجيدة إلى أشد الانتقادات قسوة – إلا أن التصور الاقتصادي الروسي لقي صدى إيجابياً بشكل عام. عندما استلم بسوتين مقاليد السلطة، كانت روسيا تعيش أزمة اقتصادية خانقة: تضخم، وانخفساض في الإنتاج، وأزمة في الميزانية، ودين أحني لا يُحتمل، واستثمار ضيل. وفي نحاية الفترة الرئاسية الأولى لبوتين، حيَّرت روسيا المتشائمين من خلال تعاملها النساحح مسع مشاكلها الاقتصادية الكبيرة، وتحقيقها لنمو اقتصادي ثابت (6). لقد تمكنت روسيا من موازنة الميزانية، وزادت من احتياطياتها في البنك لمركزي، وخفضت السدين من موازنة الميزانية، وزادت من احتياطياتها في البنك لمركزي، وخفضت السدين الأجني، ورفعت مستوى إنفاق المستهلك. كان التعافي الاقتصادي منسذ الانهيسار المام 1998 أسرع وأكثر قدرة على البقاء مما اعتقسد معظم المسراقيين، إلى المناء، والخدمات قد نحت بقوة (7).

للمرة الأولى في روسيا، لم يكن النمو الاقتصادي معتمداً فقط على أسسعار (OECD)، النفط. فبحسب دراسة أحرقها مؤسسة التعاون الاقتصادي والتطور (OECD)، كان الاقتصاد الروسي سينمو بقوة حتى لو كانت أسسعار السفط متوسسطة (8). وهكذا، أصبح هناك أمل في أن تتخلص روسيا من "إدماقها" على السنفط. لكسن OECD نفسها ومصادر أخرى (البنك الدولي وغوسكومستات الروسية) كشسفتا

أن الاقتصاد الروسي كان ما يزال غير متنوع⁽⁹⁾. وذلك يعني أنسه بالرغم مسن النسزعات الاقتصادية الإيجابية، إلا أن الاقتصاد الروسي على المدى البعيد سيستمر في اعتماده الكبير على قطاعات تصدير الموارد الطبيعية. وهذا يعسني بسدوره أن روسيا كانت عرضة لصدمات خارجية، وخطر "المسرض الألمساني"، وأمسراض مؤسساتية أخرى، وبشكل خاص الاحتكار والفساد.

كان ذلك النمو الاقتصادي الرائع، بشكل أساسي، غسواً يمتلسك خاصية التحدّد. وهذا ما حنّر منه يبغور غايدار "النمو المتحدّد يكون في البداية مفاحاً ما صارة لطبقة النحبة، لكنه بعد ذلك يتحوّل إلى مشكلة: لا يمكن الحفاظ على المعدل، لذا فإنه يبدأ بالانخفاض ((10). إن الإصلاحات التي كانت ستضمن النمسو الاقتصادي على أساس الصناعات التكنولوجية المتطوّرة لم تكن قسد اكتملت، وبعضها (مثل الإصلاح المصرف) لم يبدأ أساساً. فعم قدوم العام 2004، كانست موجة الإصلاح التي استهلّها بوتين في العامين 2000-2001 قد بدأت تنحسر. "إن النمو الاقتصادي الملحوظ في السنوات الأربع الأخيرة الذي حلّ محل عقود مسن الأزمات الاقتصادي المحوظ في السنوات الأربع الإخيرة الذي حلّ محل عقود مسن الأزمات الاقتصادي المعود ألسابقة"، هذا ما كتبه ليونيد غريفوريف (١١١). كان النفط المرتفعة في السبعينيات من القرن الماضي في عهد بريجينيف. وهذا التشبيه أثار النفط المرتفعة في السبعينيات من القرن الماضي في عهد بريجينيف. وهذا التشبيه أثار النفاط المرتفعة في المعر النفط؛ أي أزمة اقتصادية خانقة وأغيار الاتحاد السوفيان.



خلال رئاسة بوتين الأولى، بانت العقبات التي تقف حائلاً دون تحقيق المزيسة من التحوّل الاقتصادي واضحة. العقبة الأولى كانت عقبة نفسية، فمن الصعب القيام بإصلاحات صعبة في حالة من الاستقرار وفي ظلّ تجارة بحارجية مربحة. فهذا "يودي إلى الرغبة بالدحول في بحال القرارات الشعبوية"، هذا ما حذَّر منه فلاديمير ماو(12). لقد أدَّت الأسعار المرتفعة للنفط إلى ارتفاع معدل صرف الروبل، وتركيز

الرأسمال في قطاع الموارد الطبيعية، واستهلاك عوائد تصدير النفط والغاز. وكان لتلفق الدولارات النفطية تأثيرات مطمئنة بأن الثروة ستستمر إلى ما لا تحايسة، وخاصة في ظلّ استمرار التوتر في الشرق الأوسط، والعراق، واحتياج العالم للنفط الروسي. لكن الحظ السعيد يمكن أن ينتهي بشكل غير متوقع، وروسيا لم تكسن مستعدة لتلك المرحلة الواقعية.

أما العقبة الثانية التي كانت تواجه الإصلاحات الاقتصادية فقد كانت متحدَّرة في الصفات البنيوية الفريدة للاقتصاد الروسي: من بينها الصفقات المشبوهة السي كانت تتم في كثير من المجالات الاقتصادية، وحقوق الملكية غير المفسسونة، والمستوى غير الكافي من التحديث الاقتصادي، وانعدام التكافؤ الاقتصادي بسين المناطق، والوضع المضطرب في علاقات الميزانية بين المركز والمناطق⁽¹³⁾. لقد ذكسر ييفغيني ياسين بأن أحد الأسباب البنيوية لعدم فعالية الاقتصاد تكمن في الحفاظ على القطاع اللاإنتاجي، الذي يتضمن التعليم، والرعاية الصحية، والثقافة، والقسوات المسلحة، والإسكان. وما لم يتم إصلاح هذا القطاع، بحسب ياسين، فلن يكسون الاقتصاد قادرًا على النطور بشكل فعال (14).

لله عائق آخر وحده أوليغ فيوجين، رئيس "الخدمة الفدرالية للأسواق المالية":
إنه يتمثل بالحقيقة التي تقول بأن الاقتصاد الروسي مبنى على مبدء الاحتكارات الحماعية، التي أبعدت المنافسة البناءة(1). لقد استمرت الدولة في دعم هذه البنيسة، وهذا دليل على العلاقة الحميمة بين الحكومة والشركات الاحتكاريسة (الخاصة والحكومية، مثل غازبروم). هذا الانصهار بين الدولة والشركات التحاريسة كمنسل العقبة الثالثة التي كانت تقف أمام الإصلاح الاقتصادي.

أما العقبة الرابعة والأكثر صعوبة من بين العقبات، فهي العقبة السياسية: إنسه نظام السلطة الممركزة نفسه الذي كان يعمل من أجل إرضاء مصالح الطبقة البيروقراطية، التي كانت تريد الحفاظ على اقتصاد الموارد الطبيعية، وعلى العوائد التي يجلبها (16). وفي هذا الشأن، قال أندريه أسلاند، بالرغم من تفاؤله بخصوص الأداء الاقتصادي الروسي، بأن سعى بوتين لمركزة السلطة قد يضعف القوة الدافعة لأي نمو اقتصادي حديد. وفي هذا السياق كتب أسلاند "بما أن توازن القوة بسين

أحهزة السيلوفيكي والشركات التحارية الكبرى قد استبدل بسلطة عمركزة طبقت من خلال تحالف بين نفس أحهزة السيلوفيكي والشركات الحكومية الكبرى، فمن الصعوبة بمكان أن نعتقد أن مثل هذه المصالح الخاصة المصانة بمكن أن تدعم إصلاحات تسرع من إضعافها"(17).

أما العقبة الخاصة فتمثّل بتعقد الإصلاحات الاقتصادية نتيجة غياب إجماع الطبقة السياسية الروسية حول نموذج التطور الاقتصادي. لقد كان المختصع الروسي يدرك أن السوق هو الشكل الأمثل للاقتصاد الروسي، لكن النقاش المستمر كان حول نوع السوق الذي تحتاجه روسيا. وقد تركّرت المناقشات حول الملائة نماذج: النموذج الشعبوي اليساري (سيطرة الدولة على الاقتصاد)، المرتكز المنافذة، أي سيطرة المجموعات الصناعية المالية الكسيري؛ والنموذج اللبيرالي المنفذة، أي سيطرة المجموعات الصناعية المالية الكسيري؛ والنموذج اللبيرالي الموساني)، استناداً إلى تحفيز نشاط الشركات الخاصة. وعلاوة على ذلك، لقلم الذي عياب الاتفاق على النموذج الاقتصادي إلى غياب الوضوح فيصا يختص بالوجهة الاستراتيحية للتطور الاقتصادي. وبناءً على ما تقدم لم يتوقّف الجدال بالوجهة الاستراتيحية للتطور الاقتصادي. وبناءً على ما تقدم لم يتوقّف الجدال ينبغي حول القطاعات التي يجب استثمار الأموال فيها. لقد أصر البعض على أن الأموال نيها. لقد أصر البعض على أن الأموال نيها. لقد أصر البعض على أن الأموال أن نستثمرها في الصناعات المعالجة وصناعة الآلات". وهناك من أصر على أن المحيح. التصور المحيد، وخاصة في بحال الطوران والاتصالات اللاسلكية، هو الخيار المحيح.

حل العام 2004 و لم تصل الحكومة الروسية أو الشركات الروسية إلى انفساق حول حجم التنظيم الحكومي، أو كيف ينبغي أن تكون العلاقة بين اللولة وبحتمع الأعمال. كان هناك جانبان متعارضان ضمن الحكومة: حساول الجانب الأول، بوتيرة كانت تضعف شيئاً فشيئاً، تكوين ركائز مؤسساتية مسن أحسل استقرار الصناعات الكبرى، فيما أبدى الجانب الآخر رغبة بتسريع إعادة توزيسع العوائسة والملكيات بوسائل شعبوية (من خلال استخدام العوائد مسن القطاعسات المعسدة للتصدير) والعودة إلى سياسة التصنيع (18).

حتى الصناعيون دوو التوجهات الليرالية لم يكونوا متفقين حول الأولويسات الأساسية للتطوير الاقتصادي، فقد أراد بعض الصناعين تحقيق النمو الاقتصادي، وسائدوا السياسات الحكومية في هذا المحالا⁽⁹⁹⁾. وفي هذا الشسأن، قسال فيكسور بولتيروفيتش: "عندما تُطبَّق الإصلاحات، سيصبح "الإيجار الاقتصادي" محكنساً، والصراع حوله... سيحعل الجميع ينسون أمر الإنتاج". ولهذا السسب، يضيف بولتيروفيتش، على روسيا أن تركز على النمو الاقتصادي الذي يمكنسه أن ينستج الظروف المناسبة لتطوير المؤسسات الاقتصادية في المستقبل" (200). كمسا كسان بولتيروفيتش وأنصاره بشعرون بأن اللولة ينبغي ألا تترك الاقتصاد، لألها الوحيسة القادرة على إصلاحه. وبالمقابل، أكد ياسين وأنصاره على أن القطاع اللاإنتساجي ينبغي تحريره من سبطرة اللولة بشكل فوري، حتى لو أدى ذلسك إلى انخصاض موقت في النمو الاقتصادي ينبغي تقليصه الهنأ (19).

وهذا التناقض كان موجوداً في مبادرات بوتين. فقد باشر الرئيس العمل على إصلاحات إدارية كان أحدها يهدف إلى تقليص بيروقراطية الاقتصاد - أي تحريسر التحارة من إشراف الطبقة البيروقراطية - في حين أن قضية يوكوس أظهرت شيئا آخر مماماً، وهو رغبة الدولة في السيطرة على الشركات التحارة الكبرى. وفي هذا الخصوص، كتب فيليب هانسون، متأملاً في عواقب قصة يوكوس على الاقتصاد الروسي: "تشير الأحداث التي وقعت منذ منتصف العام 2003 إلى أن السياسة الاقتصادية "ليرالية إلى درجة عددة". من الواضح أن القيادة ترغب بالحفاظ علسى اقدرتما على التدخل الجزئي على الأقل في بعض القطاعات الاقتصادية. وهي تسعى قدرتما على الدولة غير مقيدة بواسطة نظام قانوني مستقل. الكشير مسن الخلين، بمن فيهم أنا شخصياً، يجدون هذه السياسات الاقتصادية الجديسدة (أو المكتشفة حديثاً) التي يتبعها بوتين غيبة للإمال (22).

لقد خلص غريغوري يافلينسكي من تحليله للاقتصاد الروسي في نهاية رئاســــة بوتين الأولى إلى القول: "إذا لم يتم تفيير الوضع بشكل حذري، فإننا سنتحه حتماً إلى تحقيق نمو بدون تطور، وبدون تحول احتماعي، وبدون إمكانيات بعيدة المدى. وهذا هي الحالة المثلى؛ لأننا نتوقع، في الحالة الأسوأ، ركوداً اقتصادياً وأزمات حديدة ((23).

9. -

بفضل النمو الاقتصادي، نجحت السلطات في تخفيف حدة الأزمة الاجتماعية العميقة التي برزت في التسعينيات. حيث بدأت الحكومة بدفع الأحور والرواتسب التقاعدية بشكل منتظم، وهو تغيير إيجابي بالمقارنة مع حقبة يلتسين الستي كانست تعاني من تخلف مزمن عن دفع الأحور والرواتب التقاعدية. وبحلول العسام 2004، أصبحت الأحور الحقيقية (الأحور قياساً إلى قوقا الشسرائية) والسدخل الحقيقسي (الدخل بعد حسم الضرائب منه) أعلى من أعلى ذروة بلغتها قبل الأزمسة. فقسد الأحور الحقيقية بنسبة 25 بالمائة، وبلغ متوسط الأحسر 210 دولار في الشهر في بداية العام 2004، وازداد الدخل الحقيقي بنسبة 12 بالمائة في العام 2004 (أي إلى 5.7 مليون شخص). وهكذاء للمرة الأولى خلال فترة التحول بعد الهيسار الشسيوعية، مليون شخص). وهكذاء للمواطنين الروس إجمالاً وليس فقط الأثرياء منسهم - إلى

مع ذلك، بقيت الفوارق هائلة بين الأقاليم والمناطق المحلية، بالنسبة للمداخيل الحقيقية والبطالة. والفحوة بين الأثرياء والفقراء كانت تزداد اتساعاً، حيث كان معدل مدخول العشرة بالمائة الأكثر غنى يفوق معدل العشرة بالمائة الأكثر فقراً عضاعف العدد 15.2 في حزيران 2004. وقد شهدت السنوات الأحسيرة ظهرور شريحة كبيرة من الناس - تضمنت شباناً وعائلات مع أطفالها وآباء عازيين - تعيش تحت مستوى الفقر وبدون أمل بتحسين مستويات معشتها (25).

خلال الفترة الرئاسية الأولى لبوتين، تجاهلت الحكومة السياسة الاحتماعيـــة بشكل واضح، لأنما كانت مشغولة بالتصدّي للقضايا السياسية، وتقوية الدولـــة، والتعامل مع الاستقرار الاقتصادي⁽²⁶⁾. يشكل إجمالي، لم تكـــن هنــــاك تحـــولات ملموسة في السياسة الاجتماعية للدولة، أو حتى نية لوضع تصور حول السياسة الاجتماعية. من المؤكد أن الرئيس وإدارته كانا يريدان تحفيض معدل الفقر، ولكن عبر محاولات متقطعة لسد النفرات، وعبر الآليات القليمة في إعادة التوزيسع. وفي هذا الخصوص، اعترف يفغيني كونتماعر، وهو مسؤول حكومي عسن التنميسة الاجتماعية، بأن "الحكومة رفضت ببساطة تنفيذ العديد من الإلتزامات الأساسسية المعلقة بالأمن الاجتماعي للسكان "(27). رغم أن النظام يقسر بفكسرة "الدولسة الاجتماعية" في الدستور، إلا أنه لم يدعمها بالموارد. وللحفاظ علسى الاستقرار الاجتماعي والسياسي، استمرت السلطات في استحدام الآليات السوفياتية فيمسا يختص بالأمن الاجتماعي. ولكن، بدون موارد، كان مقدراً على هذه الآليسات أن تثير توثرات اجتماعية على هذه الآليسات أن مستويات منفصلة من السلطة. واستمر توزيع الموارد الاجتماعية بطرق لم تكسن مستويات منفصلة من السلطة. واستمر توزيع الموارد الاجتماعية بطرق لم تكسن عادلة دائماً، و لم توجّه المساعدة إلى أولئك الذين يحتاجون إليها فعال على الم

إن عدم القدرة على تطبيق سياسات اجتماعية أكثر فاعلية، والإبقاء على اعتماد الشعب على المولة، كان يعود إلى رغبة الطبقة البيرقراطية في الاحتفاظ بإدارة النظام الاجتماعي لنفسها، الأمر الذي عزّز من الفساد والسرقة. لقد كانت المدولة هي العامل الأساسي في المجال الاجتماعي، فلم تستقد من المؤسسات غير المحكومية في هذا الخصوص. وعلاوة على ذلك، لم تسمح مركزة السلطة بتعزيسز دور الحكم الذاتي الحلي في القضايا الاجتماعية (مثل الإسكان). كما لم يتم ابتكار حوافر ضربيية أو حوافر أخرى من أحل حلب الشركات التجارية للعمل في بحسال الخيرية الاجتماعية. حيث اقتصر دور الشركات الروسية على الأعمال الخيرية، وهذا لم يكن كافياً لنغير الحالة المولة للخدمات الاجتماعية.

ونتيجة لكل ذلك، فقدت الدولة السيطرة على الإجراءات في بعض قطاعات الحدمة الاجتماعية، وخاصة في قطاع الصحة والقطاع الديموغرافي، حيث بسدا الانحطاط في هذين القطاعين بأنه يكاد يتعذّر معالجته، فعلى ما يبدو، لم يكن للنمو الاقتصادي أي تأثير على هذين القطاعين. ودعوني هنا أذكر بضع حقائق تكشف المشاكل المأساوية التي تواجه روسيا: لقد استمر عدد السكان بالانخفاض (من 149

مليون نسمة في العام 1991 إلى 144 مليون في العام 2003)، الأمر الذي أثار مسألة ما إذا كانت روسيا قادرة على السيطرة على مساحتها الجغرافية بعد خمسين سسنة من الآن. في العام 2003، من أصل كل 1000 مولود كان يموت 173 طفسالاً (300 وين العام 1997 و 2002)، انخفض معدل عمر الذكور ثلاث سنوات، والإناث سنة واحدة. واستمرت معدلات الوفيات بالازدياد. لقد أشارت التكهنات المتفائلة بأن عدد سكان روسيا في العام 2050 سيهبط إلى 102 مليون نسمة، بينمسا أشسارت التكهنات المتفائلة بأن

ولم يكن وضع الرعاية الصحية أقل إثارة للقلق. ففسي العسام 2004، ثلست الشعب الروسي فقط كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاء، و40 بالمائة منهم كانوا يمرضون بشكل متكرّر، و30 بالمائة كانوا يعانون من أمراض مزمنة. ثلثا الأطفسال الروس كانوا مرضى، وهذا كان يشكّل قديداً بظهور جيل معتل. والأمراض التي كان يعتقد بألها استنصلت من الاتحاد السوفياتي، مثل السل، عادت إلى الانتشار ثانية. كما أن روسيا الآن باتت على حافة تفشي وباء مرض نقص المناعة المكتسبة، الأيدز، فيها(31). إن استمرار مشاكل الصحة والوفيات يشير، أولاً، إلى استمرار غياب سياسة حكومية خاصة بالرعاية الاجتماعية. والسبب الثاني لتدهور الحالفة المصحية يعود إلى الظروف المعيشية السيئة التي يعيشها القسم الأعظم من السكان المرومين. كان الإنفاق العام على الصحة خلال عهد يلتسين يبلغ نحو 4 بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي، وقد ارتفع خلال الفترة الرئاسية الأولى لبسوتين ليصسل إلى مستوى 6.5 بالمائة وهو مستقر على هذا المستوى الآن، وهذا مستوى مستخفض مستوى مستخد.

على أي حال، ثمة مشاكل خطوة أخرى تؤثّر علسى الوضيع الاجتماعي الإنساني في روسيا على المدى القصير، منها على سبيل المثال، اليتامى من الأطفال، أو الأطفال الذي يملكون آباء لكنهم لا يهتمون بمم. مع قدوم العام 2004، كان ورسيا قرابة 3 ملايين يتيم؛ أي أكثر من عدد يتامى الاتحاد السوفياتي بعسله الحرب العالمية الثانية. هذا هو الثمن الذي يدفعه المجتمع بعد سنوات من التخريط، والهيار المدولة، وانحطاط القيم الأسرية. يعيش مئات الآلاف من الأطفال المشردين

في الشوارع، حيث يصبحون مواد للحريمة المتنامية وتعاطي المخدرات. كما أن معات الآلاف من الأطفال المعاقين الذين يعيشون في مساكن تملكها الحكومة، و لم يتلقوا أي نوع من التعليم، سينتهي بمم الأمر إلى العيش على إعانة الدولة، السي لم تكن مستعدة لذلك. وهناك أيضاً مشكلة الهجرة التي يضطر إليها الملابسين مسن العاطين عن العمل. وهذه القائمة المولمة يمكن أن تستمر إلى ما لا نحاية تقريباً.

إن التغيرات الإيجابية القليلة التي حصلت في رئاسة بوتين الأولى لا تبسدًل الصورة العامة لتهدَّم أعمدة المجتمع. ومرة أخرى، أبدت السلطات عدم اكتراثها، معتقدة، فيما يدو، بأن صبر الشعب الروسي لا حدود له. علسى أي حسال، أن ترفض الدولة زيادة الإنفاق على الصحة والرعاية الاجتماعية - مفضلة زيادة ميزانيات الدفاع والأجهزة الخاصة والموظفين الموالين - أمر عادي، إذ إن الأهم من ذلك هو ألها لم تقدّم ما يحفّز الناس لمساعدة أنفسهم، وخاصة عن طريق إطلاق الشركات التحارية الصغيرة والمتوسطة(33). بعبارة أخرى، لم تكن الدولة تقدّم أي المواع من الأسماك للناس، كما ألها لم تقدّم لهم صنارات الصيد حتى يتمكّنوا بواسطتها من إلتقاطها بأنفسهم.

9- ---

بالقارنة مع الصورة المأساوية للقطاع الاجتماعي، يمكسن اعتبار السياسة الخارجية في الفترة الرئاسية الأولى لبوتين ناجحة. لقد عزز الرئيس الروسي الشاتي المكانة الدولية لروسيا، وأعاد إحياء وجودها على الساحة الدولية. وهو لم يفعسل ذلك من خلال التهديد بالقوة العسكرية بل من خلال ضبط النفس والبراغماتية. لقد حاول بوتين القيام بما لم يستطع يلتسين فعله: فقد حاول بوتين تحويل السياسة الحارجية إلى أداة لتحقيق الأهداف الداخلية، ولتحقيق الانسجام بين طموحسات السياسة الخارجية الروسيا وبين إمكانياقها. وقد سحّل في هذا المحال عدة نجاحات.

حدّد بوتين بوضوح أولويات روسيا في السياسة الخارجية. فقد أكّد بسوتين على أهمية العلاقات مع رابطة الدول المستقلة (CIS). و لم يؤيّده في هذه السياسسة أنصار القوة العظمى لروسيا فقط بل الدوائر الليبرالية الديمقراطيسة أيضــــ، ولـــــو لأسباب مختلفة. لكنّ الكرملين لم يُعجب أبداً على هذا السوال الأساسي: هل كان يماول تأسيس مجموعة حديدة من الدول برئاسة روسيا، علسى أرض الاتحاد السوفياتي السابق، على غرار المجتمع الغربي؛ أم أنه يسعى لتسهيل حركة روسيا والدول الأخرى، هل تحاول روسيا تجميد الحالة الانتقالية لدول CIS واستغلال تحالفها مع هذه الدول من أحل تعزير ورها كقوة عظمى، أم ألها تماول دفع تحوّلها من خلال تقريب هذه السدول إلى الغرب؟

حتى هذه اللحظة، إن التكامل ضمن أراضي الاتحاد السوفياتي السابق لا يملك إمكانية التحوّل؛ أي أن CIS لم تدفع أعضاءها باتجاه تطوير قواعد أكشر فاعلية للعجة في المجال السياسي والاقتصادي. في بعض المجالات – الأمن والتحارة – قلم يكون التكامل حوهرياً بالنسبة لبعض الدول من أجل تحقيق أهداف معينة، ولكنه غالباً ما يكون على حساب مصالح أعضاء آخرين في الحلف. في الواقسع، يمكن للتكامل أن يكتسب أهمية إصلاحية فقط إذا نظر أعضاؤه – في الجزء الأوروبي من الاتحاد السوفياتي السابق على الأقل – إليه على أنه إطار من أجل تكاملهم الجماعي مع الغرب. ولكن، حتى الآن، يبدو أن كل دولة من الدول المشاركة تطور علاقاتها الأحادية الخاصة مع الاتحاد الأوروبي ومع الغرب عموماً، وهذا مسا حصل كل التحالفات ضمن منطقة ما بعد الاتحاد السوفياتي تبدو ضعيفة، أي بجرد مواعدة قصيرة الأمد، وليست حتى زيجات مصلحة.

في المرحلة الأخيرة من رئاسة بوتين الأولى، بدأت مظاهر جديدة من العلاقات بين روسيا وأوروبا بالتحسد. في العام 2001–2002، كان الحديث عن الانسدماج في المجتمع الأوروبي حديث النخبة في موسكو. حتى إن الكثير من المراقبين الروس، والأمروبين، والأمركين بدأوا في صياغة أفكار مثل "تحوّل روسيا مسن خسلال الاندماج" أو "الاندماج عبر التحوّل". وعلى سبيل المثال، أكسد المشساركون في المشروع الدولي "التحوّل والتكامل في القرن الواحد والعشرين"، برعاية مؤسسة كارنيجي في نيويورك: "إن تحوّل واندماج روسيا لا يصب في مصلحة روسيا فقط، إذ إننا نعتقد، بالرغم من كل التوترات التي توثر على العلاقات الأمركيسة

الأوروبية الروسية، بأن الوقت قد حان بالنسبة لروسيا، وأوروبا، وأميركا كسي تدرك بأن مصالحها جميعاً تفرض عليها التعاون. وإننا توكد بأنه، كما أن أوروبا وأميركا يمكنهما مساعدة روسيا في تحوّلها المبتقراطي، فإن روسيا أيضاً يمكنسها مساعدة أوروبا في انقسامها المتنامي شرقاً وغرباً، كما يمكن لكل مسن روسيا وأوروبا مساعدة أميركا في تخفيف حدّة نسزعتها لاتباع سياسات أحادية "(ك). أنا متأكدة تقريباً من أن بوتين نفسه، في وقت من الأوقات، نظر بعين الجدية إلى خطة اللماج روسيا، محاولاً سير الآراء حول إمكانية دخوله إلى الناتو والإتحاد الأوروبي والحصول إن لم يكن على حقّ الفيتو، فعلى الأقل على نفوذ في عملية صنع القرار في هاتين المنظمة لاندماج مباشر في المأعاد الأوروبي.

على أي حال، أوروبا أيضاً لم تكن مستعدة لمضمّ روسيا. فالبيروقراطيون الأوروبيون، على الأغلب، لم يكونوا يفكّرون، وربما لم يكونوا بملكون الوقست للتفكير، في أشكال أكثر فعالية للشراكة مع روسيا. فقد كانوا مشغولين مسبقاً بضمّ أوروبا الوسطى والشرقية. أضف إلى ذلك أن الأعضاء الجدد في الانحاد الأوروبي لم يكونوا بدورهم مستعدين لدعم اندماج روسيا في الاتحاد، بالم إفسم كانوا يحاولون، من خلال انضمامهم إليه، إيجاد ضمانات أمنية تحميهم من إعادة إحياء طموحات الإمبراطورية السوفياتية السابقة المجاورة.



مع نهاية الفترة الرئاسية الأولى لبوتين، برزت الحاجة لإيجاد تصور حديد للعلاقة الروسية الأميركية. لقد كان مزاج موسكو يمكس عدم استعداد روسيا لأن تكون شريكاً أقل شأناً من أميركا، وأن تكفي بالسير ورايها بشكل أعمى. مع أن السنوات الأولى من إدارة بوتين أعطت الانطباع بأن روسيا، عملياً، قسد توافست مكرهة على المبادرات الأميركية أو ألها سترغم على قبولها، وذلك لعدم امتلاكها للموارد أو لعدم إمكانية الرفض. إلى أن حصل الانقسام الجدي الأول بين واشنطن وموسكو بسبب رفض روسيا لدعم العملية العسكرية في العراق. يدو أن لعسب

دور الشريك الأقل شأناً كان له حدود بالنسبة لبوتين. فهو كان يستطيع القيام به طالما أنه لا يهدد بالتسبب بإحداث مقاومة ضمن رفاقه بالذات وقاعدته السياسية. حتى أن الموالين المخلصين له كانوا قد بدأوا يتذمرون مسن لعب دور الخاضع لواضنطن.

كان الرئيس الروسي بملك على الأقل أربعة نماذج مختلفة للعلاقة مع الولايات المتحدة. النموذج الأول هو أن يكون الخطاب أكثر عدائية دون اتخساذ أي فمسل يمكن أن يضر بالعلاقات مع واشنطن. والثاني هو اتخاذ موقف قوي مسن الممسالح الأميركية، وخاصة في منطقة ما بعد الاتحاد السوفيان، حتى لو كان ذلسك يهسد بحدوث نسزاع مفتوح مع الولايات المتحدة. والثالث هو التحرّك باتحاه إقامة حوار بناء مع الولايات المتحدة، الأمر الذي يعني القبول بدور الشريك الأقل شأناً، نظراً للفارق في الوزن بين البلدين. والنموذج الرابع هو تبنّي سياسة أكثر انعزالية عسير إبعاد روسيا لنفسها عن الجالات التي لا تملك فيها الموارد التي تؤهلها للتعاون مسع الولايات المتحدة كندً، والتحاور فقط عندما تكون موسكو قادرة على الدّفع باتجاه الاعتراف بمصالحها. وهذا النموذج الرابع كان يشبه، إلى حدّ ما، السياسة الصينية.

لم يكن بوتين مستعداً لزيادة حدة العلاقات مع أميركا. لكنه في الوقست نفسه لم يكن يرى سبباً حقيقياً لتوسيع الشراكة. والأمر الذي كان يوثر علسي تطور سياسة بوتين كان يكمن في استمرار انعدام التوازن في الإمكانيات بسين البلدين، وهو ما كان يزعج الطبقة السياسية الروسية، وذلك يعود إلى أن الحنين إلى القوة العظمى كان ما يزال موجوداً في أذهان النحبة الروسية، ويعود كذلك إلى هيمنة السياسات الأمركية وطريقة واشنطن في تنفيذها. لم تكن روسيا التي كانت ما تزال تتوقع امتلاك، إن لم يكن نفوذاً عالمياً، فعلى الأقل نفوذاً التي كانت ما تزال تتوقع امتلاك، إن لم يكن نفوذاً عالمياً، فعلى الأقل نفوذاً إقليمياً – قادرة على القبول طواعية بقيادة أمركا، وخاصة ذلك النسوع مسن القيادة التي تتبدى من علال القوة العسكرية. وفي الوقت ذاته، لم تكن روسيا مستعدة بعد للحوار كندً مع الولايات المتحدة. وهذا الوضع مهد الطريق لبروز صيغة من الشراكة الانتقائية (أو الإلتزام الانتقائي) بين البلدين. لكن هدذ الصيغة كانت بحاحة للتنقيح والتطوير.

ق تلك الأثناء، بدأت الطبقة السياسية في روسيا تشعر بالثقفة بالنفس، وبدأت تعتقد بأن روسيا، في تعاملها مع الولايات المتحدة، ينبغي أن تنطلق من موقع القوة، لأن هذا هو الأمر الوحيد الذي تحترمه أميركا. وما يدعو للأسف أن السياسة الخارجية المعتمدة على القوة للإدارة الأميركية هي السيخ أعطست الدافع لهذا الاعتقاد. ولهذا السبب، كان السياسيون الروس، حسى المعتسدلون منهم، يبحثون عن سبل تمكنهم من موازنة الفرق في القوة في علاقات روسيا مع الولايات المتحدة (35). بعبارة أخرى، لقد عزز المحافظون الأميركيون الجسدد من قوة المحافظين الروس. والأخيرون كانوا ما يزالون يحلمون بعودة عناصر نظام من قوة المحافظين الروس. والأخيرون كانوا ما يزالون يحلمون بعودة عناصر نظام بكثير من نظرة المحافظين الجدد المحلين، إلا أنه لم يصب المساء البارد على الحلامهم.

بشكل عام، إذا نظرنا إلى موقع روسيا في الساحة اللولية خيلال الفترة الرئاسية الأولى لبوتين، فإننا سنرى أن روسيا كانت موجودة في الفلك الفري - لارتباطها مع الغرب بعدة مصالح مشتركة - لكنها في الوقت نفسه بقيت خيارج النظام الغربي وخارج عملية صنع القرارات فيه. لقد كانت العلاقات بين روسيا والغرب مرتكزة على الشراكة في بعض المجالات، وعلى النعاون في بحالات أخرى، استناداً إلى المصالح المشتركة وليس إلى القيم. وفي بحالات أخرى، كانت العلاقات تشر إلى وجود تناقض ومواجهة، وإن لم يكونا ظاهرين. بكلمات أخرى، كانت العلاقات الغرب وروسيا حليفين وخصمين محتملين في الوقت نفسه.

لقد أثار هذا الوضع الفريد الأمل والقلق في آن واحد. كان التفاؤل ناشئاً من حقيقة أن نظام العلاقات بين روسيا والغرب كان قابلاً للتبــدّل، وأن مصـــالحهما المشتركة يمكن أن تشكّل في النهاية دافعاً لدمج روسيا في النظام الغربي أكثر. أســا القلق فقد كان ناتجاً من حقيقة أن الوضع الوسطي لروسيا كان يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، حتى أنه يمكن أن يمتد ليصل إلى حدّ انعزال روسيا أو يتحه إلى المزيـــد من العدائية. على أي حال، إن الحفاظ على قيم مختلفة في المجتمع الروسي، وغياب الإجماع حول القضايا للتعلّقة بالمصلحة القومية ضمن روسيا جعلا من تحرّك بوتين

نحو الغرب غير ثابت. كما أن افتقار الغرب لاستراتيجية واضحة حــول انـــدماج روسيا قد ساهم أيضاً في تعقيد الأمر أكثر بالنسبة لسياسة بوتين المويّدة للغـــرب، والخيار المستقبلي لروسيا.

كان بوتين عقاً في سعيه للتخلّص من نظام رأسمالية الطبقة الحاكمة الذي ظهر في عهد يلتسين عندما استلم مقاليد الحكم. ولفعل ذلك، كانت أمامه ثلاثة سسبل نظرية. أولاً، البدء بإعادة هيكلة النظام القديم والتحرّك باتجاه الديمقراطية الليوالية. ثانياً، التحرّك باتجاه المزيد من استبدادية السوق مع دعم من الشعب، وتجاوز الطبقة البروقراطية مع دعم مل الشعب، وتجاوز الطبقة البروقراطية مع دعم الموظفين الموالين. ولحسن المخط، كان النظام الذي تكوّن في عهد يلتسين متعدّد الإتجاهات؛ أي كانت هنالك إمكانية للتحرّك في عدّة اتجاهات. وبوتين اختار السبيل الثالث.

هل كان بإمكان التطوّر في عهد بوتين أن يسير في اتجاه الديمقراطية الليرالية؟ لنتخيل أن بوتين بدأ حكمه بقطع الحبال التي تربطه بعائلة يلتسين والشروع في بناء مؤسسات مستقلة، مبعداً نفسه عن الطبقة المتنفذة، ومعززاً من قوة وسائل الإعلام المستقلة (المستقلة عن الطبقة المتنفذة أيضاً). هل كان ذلك ممكناً في ظل وضع كان الشعب فيه عبطاً من الحريات السياسية وتواقاً للاستقرار، وكانت الطبقة السياسية لا تريد إلا الحفاظ على الوضع الراهن، وكان الديمقراطيون ضعفاء ويتنازعون فيما بينهم حول أمور تافهة؟ هل كان باستطاعة بوتين البدء "بيويسترويكا" حاصة بسه في حين أنه كان وحيداً في الكرملين بين أناس كانوا يعتبرونه دميتهم؟

كي يحاول بوتين – يحاول فقط – الخروج من الملكية المنتخبة، كان بحاجة إلى الأمور التالية: وحود ديمقراطيين ليبراليين متنفذين يمكنهم مساندته؛ وحود رغبة حقيقية عند الناس في تحقيق الديمقراطية الموسساتية (أي، الضغط مسن الأسسفل)؛ وإدراك الطبقة السياسية للحاجة لإصلاح بنيوي. بيد أن الليبراليين الروس أنفسهم أيدوا نظام "ليد القوية"، آملين على ما يبدو في أن الزعيم الديكتاتوري يمكسن أن يشكل ضمانة لتحقيق تحول في السوق. في الواقع، هذه الآمال نفسها هسى السي

دفعت التكنوقراطيين في حكومة يلتسين للبدء في بناء نظام السوق، مستغلين حكم يلتسين الفردي كدعامة لهم.

إذاً، عندما جاء بوتين إلى السلطة، لم يكن هنالك من محفّرات تدفعه باتجاه المنهقراطية الليرالية. في البداية، عند تسلّمه السلطة، ربما كان اتخاذ هذه الوجهة بمثابة انتحار بالنسبة إليه. لكنه كان يستطيع البدء بتفكيك الدولة التقليدية، أو على الأقل إزالة عناصرها الأكثر قدماً، عندما حصل على دعم الشعب. صحيح أنه لم يكن ممكناً بالنسبة لبوتين أن يقلب النظام القدع برمّته، إلا أنه على الأقسل كان يستطيع البدء بإحداث ثفرة بنيوية، يمكن لها أن تسهّل عملية بناء دولة حديدة. وعلى سبيل المثال، كان باستطاعته احتيار حكومة من الأغلبية البرلمانية، مسؤولة أمام الناحين. وكان يمكن لهذا أن يكون بداية الحروج من نظام روسيا، الذي لا يتمتع بأي نوع من المسؤولية، لأن الأحزاب فيه لا تستطيع التأثير في السياسة، فهي لا تملك أي فرصة لتشكيل الحكومة أو حسى مراقبتها؛ ولأن البرلمان يقرّ قوانين دون أن يُحاسب على نوعيتها، ولأنه لا يشكل الحكومة إلا أنه يتحتب أن يكون مصوولاً عنها. إن هذا النظام يرعى اللامسؤولية ويتحها.

لكن الإرادة السياسية كانت ضرورية لتحقيق مثل هذا التغيير. كان الأمسر أسهل بكثير بالنسبة لغورباتشوف، الذي بدأ بتحطيم السدور القيادي للحرب الشيوعي في وقت من الحماسة الشعبية المتنامية، وظهور أقلية إصلاحية ضمن الحزب. والأهم من ذلك هو أن الاقتصاد المخطّط كان قد بدأ ينهار حيى قبسل حكم غورباتشوف. ينما وحد بوتين نفسه في الكرملين في وضع مختلف تماماً. كان المجتمع قد سئم من إعادة البناء، وغالبية النحية لم تكن ثريسد المزيد مسن التغييرات، وأسعار النفط المرتفعة حعلت البلد يجلس ولا يفعل شيعاً. ومع ذلك، فأنا أعتقد بأن الشعب كان سيدعم بناء نظام أكثر مدوولية، نظام يسدعم حكسم القانون بدلاً من حكم زعيم بمفرده. ففي أواحر العام 2000 وبداية العام 2001 كان لدى الرئيس القوة الكافية لمحاولة تغيير منطق الحكم التقليدي الروسي، حيث اظهرت استطلاعات الرأي بأن 45 إلى 47 بالمائة من الشميعب الروسي، حيث

سيدعمون التغيير الذي سيقوم به بوتين لو أنه إلتحاً إلى الشعب مباشرة، متحساوزاً جهاز الدولة، ودعا لإقامة مؤسسات مستقلة. كان الشعب سيدعم التغيير، خاصة إذا جاء من قبل الرئيس، الذي يحظى بثقتهم.

لكن بوتين لم يستفد من الفرصة السائحة. واعتار النموذج الأسهل بالنسبة إليه، فلقد اعتار الطبقة البروقراطية كحليف أساسي له. بل إنه عزّز مسن نمسوذج الحكم التقليدي الذي ابتعد عنه يلتسين. هل كان بذلك يحمي عنقه؟ ربما. لكسنين أعتقد بأن حياره يرجع إلى الافتقار إلى الإيمان لا إلى الافتقار إلى الشسجاعة، إذ لا بد أنه لم يكن يؤمن بأن روسيا كانت مسستعدة للتحسديث بسدون التمسسك بالديكتاتورية.

قد يقول المشكّكون بأن بوتين لم يكن حتى يشعر بوجود أي عيار. بالنسبة لرحل كي حي بي سابق، كان هناك سيناريو واحد فقط: الإطباق على الحريات. على أي حال، أنا أحاول أن أبمتب أن أكون مطلقة في أحكامي، وأعتقد بأنسا يجب ألا نبخس قدر بوتين عبر إنكار قدرته على التفكير والشك. بوتين لسيس شخصية مستقيمة بلا تذبذبات داخلية، مثل سابقية اللذين بدأا الإصلاح في روسيا. وقمة برهان بسيط على ذلك: لقد تأرجع، وما زال، بشأن السياسة الحارجية، والأحداة الاقتصادية، واختيار الأشخاص الذين سيضمهم إلى فريق. معظم قراراته كانت مسمة بالتناقض والشكوك. في الواقع، إنه يتبع خطى يلتسين هدا الأمر. أعتقد أن بوتين يدرك طبيعة الخيارات المطروحة أمامه، ولكنه، حتى بعد أن يتجذ عياره، يتردّد بشأن تنفيذه.

أي حاكم لبلد مضطرب ومستنفذ، يتمزّق باستمرار بين خيارات متنافضة، ويتطوّر من خلال "التحربة والخطأ"، يجب أن يكون شخصاً معقداً. وبحسب العبارة الدقيقة للمؤرخ الروسي يوري بيفوفاروف، يجب أن يكون كاهناً ومسارتن لوثر في شخص واحد: معارض للتغيير، ومصلح تقليدي وغربي. وهذا السياسسي يجب أن يدير أحد وجهيه إلى الشعب لبعض الوقت، ومن ثم يسدير لسه الآخسر، وهكذا دواليك(36). ينبغي عليه إما أن يكون ذا شخصية متعدّدة الوحسوه، أو أن يعرف كيف يلعب أدواراً عتلقة، الأمر الذي يتطلّب مهارة من نوع خساص. إن

إدارة بلد غير منظّم مثل روسيا تنطلب براعة وقدرة إبداعية أكبر مما تنطلب. إدارة بلد غربي هادئ، ومدروس، وملتزم بالقانون، حيث يكون فيه السزعيم الضـــعيف مدعوماً بمؤسسات مستقلة أو مجتمع منظم.

أنا لا أنكر أن بوتين بملك طبيعة أكثر تناقضاً من غورباتشوف ويلتسين، رغم أنه أقل باعاً منهما من الناحية السياسية. فقط تأمَّل معي: ترك بوتين الكي حي بي ليعمل لصالح واحد من أكثر الليواليين إبداعاً في التساريخ السسوفياتي، أنساتولي سوبتشاك، وفي الوقت نفسه قطع روابطه بوكالته ورفض التحسّ على رئيسه الجديد. يا له من تحوّل إنني لا أشك بأن بوتين يعاني من اضطراب داخلي دائسم وحتى أنه بحاجة لاتخاذ قرارات أكثر اضطرارية من سابقيه، لأنه لا بملك الوقت الكافي للنحاح في مسعاه للحمع بين التقليدية والتحديث في المجتمع وفيه شخصياً. كان غورباتشوف ويلتسين بملكان نعمة التعجيط في التردّد، حيث كانسا يتحسفان خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء. لكن بوتين يعيش في وضمع أصبح فيسه الاستمرار في المغموض والإلتباس أكثر صعوبة، لأن المجتمع يريد أن يعسرف علسي الاستمرار في المغموض والإلتباس أكثر صعوبة، لأن المجتمع يريد أن يعسرف علسي التغيير والوضع الراهن في آن واحد – وهو ما ساعده ذات يوم في الحفساظ علسي الاستقرار – في حين أن الناس أصبحوا الآن يريلون منه المزيسد مسن الوضوح والتحديد. في الحقيقة، إلها لعبة خطرة بالنسبة لأي سياسي.

__\$

إن التساؤل حول ما كان ممكناً وما لم يكن ممكناً في روسيا في المرحلة ما بين عامي 1999-2004 ليس تساؤلاً نظرياً فقط، إذ إن الجواب عليه سيمكننا مسن إعطاء تكهن أكثر دقة حول المسار المستقبلي لروسيا. يعتقد بعض الباحثين الروس والفربيين بأن النظام الديكتاتوري التقليدي محتم على روسيا. خذ على سبيل المثال ريتشارد بايس، الخير الروسي القديم، الذي لا يرى إلا الألوان القائمة هناك. ففي مقالته "رحلة من الحرية"، يحاول تبيان أن روسيا ليست مستعدة للوحود كدولة ديمالية اليرالية (75). وكدليل على ما يقول، يستشهد بسايس بالاستطلاعات

الاجتماعية التي يُفترَض بألها توكد بأن الشعب الروسي لا يحب الملكية الخاصة، وأنه يرتاب من الغرب، ويحاول تكوين هوية جديدة تجمسع بسين القيصرية، والشيوعية، والستالينية (38). في الواقع، يبدو أن الحياة الواقعية نفسسها، ولسيس الاستطلاعات فقط، تثبت بأن روسيا - بعد فتسرة التحسر الستي شسهلها في التسعينات تعود إلى الماضي، سياسياً على الأقل.

هل يمني هذا أن بايس المتشائم عقر؟ بالتأكيد لا. ففي الواقع، إن صورة المشاعر الشعبية للمحتمع الروسي أشد تعقيداً بكثير، والعديد مسن استطلاعات السرأي لا تستكشف دواقع هذه المشاعر. والأمر كله يعتمد على الأسئلة التي تُعلَرَح. فإذا سألت جمهوراً روسيا "هل تريد لروسيا أن تكون قوة عظمسى؟" فإن الغالبية الساحقة سيحيون بنعم، لأن الروس لا يعرفون ماذا يعني العبش في دولة صغيرة ذات نفسوذ عدو. ولكنك إذا سألتهم "هل أنتم مستعدون للفع الشمن كي تصبح روسيا قسوة عظمى؟" فستحصل على حواب مختلف تماماً؛ 10 إلى 24 بالمائة فقط يمكن أن يكونسوا مستعدين للتضحية بمستوى معيشتهم مقابل عظمة بلدهم. وإذا سألت السروس عسن موقفهم من الاتحاد السوفياتي، فإن بحرد ذكر الاتحاد السوفياتي سيثير الحنين فيهم، لأن الكثيرين منهم أمضوا شباهم فيه، لكن نفس نسبة الـ 10 إلى 24 بالمائة فقط، أو ربحا أقل منها، سترغب في العودة إلى الاتحاد السوفياتي.

وفقاً للاستطلاعات التي أحراها إيغور كليامكين وتاتيانا كوتكوفيتش،
7 بالمائة من الشعب الروسي ما زالت توبد المبادئ الأساسية "للنظام الروسسي" -
هيمنة الدولة على الفرد، والرعاية الأبوية الحكومية، والإنعيزال القومي -
و22 بالمائة توبد اثنين من هذه العلامات المميزة المخاصة بالنظام القسم. ويشكل الكهول وذوو المستويات الثقافية المتدنية معظم هؤلاء. أما مؤيدو عيار الحداثة وما
بعد الحداثة، الذين يدعمون الحرية الفردية، والاستقلال، وانفتساح البلسد فهسم
يشكلون 33 بالمائة من عدد السكان، فيما يُدي 37 بالمائة من الشعب استعدادهم
لدعم المشروع التحديثي(٥٠).

لن أذهب بعيداً وأجعل المحتمع الروسي مثالياً إلى هذا الحدّ. فروسيا لم تكسن يوماً دولة ديمقراطية، وليست معتادة على التنظيم الذاتي والمراقبة الذاتية، ولم تتعلّم بعد كيف تعتبر نفسها دولة مواطنين. وهي ما تزال قابلة بسهولة للانحراف عسن الوضع السوي. بيد أن الشعب الروسي غسير المعتاد علسى الحريسة السيامسية والمؤسسات المستقلة المحتار لنفسه قيماً جديداً بسرعة كبورة. ويمكننا تلمس القسيم التحديثية السائدة في المحتمع الروسي في قبوله بالملكية الخاصة، وحريسة الإعسلام والمعارضة... إلخ. بشكل عام، تبلغ نسبة بحمل المشتركين الذين الحتاروا الجسواب التحديثي على القضايا الأساسية في المحتمع وبنيته 60 بالمائة، فيمسا بلفست نسسبة المخطون نصف هذه النسبة.

وهكذا، قبل الروس مبدأ الملكية الخاصة ومنحوها الشرعية. ومع ذلك، فهسم يرتابون في الخصحصة، رغم ألها أمر طبيعي، متحوفين مسن الجانسب اللصوصي العملي فيها. لكن المهم في الأمر هو أن غالبية الروس معارضون للتأميم الإحباري. فيحسب استطلاعات للرأي أحريت في العام 2004 كحزء من مشروع احتماعي روسي الماني مشترك، تبيّن أن نسبة 45.5 بلمائة من الشعب الروسي إيجابية تجاه التجارية الخاصة (الملكية الخاصة) وفي الوقت نفسه سلبية تجاه "الأثرياء المتنفذين" في روسيا لا يعني العداء تجاه المشاريع التجارية الخاصة بشكل عام. وقد وافق 77.2 من المشتركين في تلك الاستطلاعات على ضرورة إعادة توزيع عوائد الموارد الطبيعية بشكل يصب في صالح المجتمع، لكن 75.3 بالمائه كانوا يعتقلون بأن الدولة يجب أن تلتزم بصرامة بالقانون في النسرزاعات مسع كانوا يعتقلون بأن الدولة يجب أن تلتزم بصرامة بالقانون في النسرزاعات مسع الشركات التجارية (40).

عملك غالبية الشعب الروسي رؤية صحية مماماً لدور المحسوعـــات النعبويـــة المتنوعة في التطوير الروسي. حيث يعتبر الروس "طبقة المتنفذين" أقل شراً من الطبقة البيروقراطية. محتّل "الطبقة المتنفذة" عقبة أمام سعي روسيا للتحلّص مــــن أزمتـــها بالنسبة لحمـــة وثلاثين بالمائة من الروس، بينما يشكّل الموظفون الحكوميـــون 62 بالمائة، أي الضعف تقريباً (41).

بشكل عام، لم يعد الشعب الروسي – رغم التصريحات الكثيرة بعكس فلسك -مواطنين في أمّة إمويالية تسعى إلى البقاء من خلال إخضاع دول أخرى، و لم يعودوا مستعدين لدعم مكانة روسيا كقوة عظمى مهما كان الثمن: يرى ويريد 24 بالمائة فقط من الشعب الروسي روسيا "دولة عسكرية قوية، تكون فيها مصالح اللمولة هي الطيا"، في حين يريد 76 بالمائة العيش في دولة أحرى، دولسة "مريحسة، ومناسبة للعيش، تكون فيها مصالح الناس ورفاهيتهم هي العليا"(42).

والروس لا يرينون المواجهة مع الغرب، أقل من 20 بالمائة يشعرون بالعسداء تجاه المحتمع الغربي، ويعود ذلك غالباً إلى تأثير السلطات. وغالبيتهم يعارضون التمديد التلقائي لحكم بوتين، بالرغم من ألهم يعطونه معدلات قبول حيدة (48). ومع ألهم يتقون بالرئيس، إلا ألهم لا يثقون بالنظام، الذي فقد قداسته في نظرهم (44). وعلى الرغم من تمكّل الطبقة السياسية ومداهنة الصحافة الرسمية، إلا أن الشسعب الروسي بشكل عام لا يشعر بالخضوع للرئيس (45).

مع ذلك، فالروس ما زالوا لا يعرفون كيف يعيشون في دولة ديمقراطية ليرالية. لكن روسيا اليوم مختلفة في الجوهر عما كانت عليه منذ مائة سنة، عنسلما كانت الغالبية العظمى معادية بشكل مطلق للقيم الليرالية. وحلهم الذين كانوا مستعدين للقبول بقواعد حديدة للعبة هم الذين استطاعوا، في استفتاء أحسري في العام 1993، دعم سياسة يلتسين الاقتصادية بعد يضع سنوات من الفقر المسدقع الذي حلته لهم عملية التحوّل، وهم الذين استطاعوا أيضاً دعم إصلاحات بسوتين الاقتصادية، بعد الأزمة المالية لعام 1998 التي دمّرت حياهم مرة أعرى. وحسدهم الذين يحلمون بحل متمدن بمكنهم الحفاظ على هدوئهم وصبرهم عند المواجهة مع السلطات غير القادرة على تلبية حاجاهم. يمكن للدولة التقليدية إما أن تبدأ باقتحام قصور العليقة الحاكمة والعليقة البووقراطية، أو تتنخب حوينوفسكي أو ليبسد أو توعانوف رئيساً، لكن روسيا لم تتنحب أبداً متطرفاً، أو قومياً، أو حسرالاً ذا تطلعات ديكتاتورية، أو شيوعياً.

إن المشاعر القومية وحتى الفاشية المتنامية بين بعض الفئسات الاحتماعية في روسيا مثيرة للقلق، بقدر ما هي مثيرة للقلق مظاهر التعصّب والحنوف من الغرباء في بعض الشرائح، وخاصة الشباب. ولكن، في ظلَّ الظروف الصعبة التي يتطسور فيها المجتمع الروسي، وصعوبة تحوّل قوة عظمى وإميراطورية في وقت واحسد، لا يمكننا إلا أن نصاب بالدهشة لكون التطرّف ما يزال ظاهرة هامشية في روسيا،

بالرغم من أن السلطات نفسها تغذّيه وتفكّر فيه. فعلى سبيل المثال، في آذار مسن العام 2004، 3 بالمائة فقط من عدد السكان أعربوا عن تفهّمهم لنشاط العنصريين المتوحشين، الذين يُدعَون بحليقي الرؤوس⁽⁴⁶⁾.

ولكن، إذا كان هناك القليل من العوائق، المتعلقة بالذهنية السياسية، تقف في طريق التوجّه نحو القيم الليبرالية، فلماذا - قد يتسايل سائل - لم يصوّت المحتمسع الروسي لليبراليين والديمقراطيين في الانتخابات الأخيرة؟ والجواب: لأنه كان خائب الأمل من الحزيين الفعليين - اتحاد قوى الحق ويابلوكو - ولأنه لم يكسن يشتق في قدرة هذين الحزيين على تقديم برنامج إصلاحات مقنع لروسيا. في الانتخابسات الأخيرة، لم يرفض الناس الديمقراطية الليبرالية، وإنما لم يكونوا، ببساطة، يؤيسدون الليبراليين والديمقراطين الذين لا يوحون بالثقة (19).

معظم المشاعر المحافظة في المحتمع الروسي خلال سنوات بوتين كانت في حوهرها ردّة فعل على إدارة يلتسين؛ الفوضى، والتردد، والفساد، وانحلال الطبقة السياسية التي وصلت إلى السلطة تحت شعارات ديمقراطية. ولا أستبعد أن يردّ أي مجتمع معتاد علمى الديمقراطية على هذه الظواهر بنفس الطريقة، أي أن يرغب بحكم أكثر قوة.

على أي حال، ثمة أسباب أخرى لعدم قيام الشعب الروسي بمزيد من الجهود من أحل مساندة المشروع التحديثي بشكل فعال أهمها غياب معارضة ديمقراطيسة حديدة، وحقيقة أن بوتين – مثل يلتسين – يؤيد بالكلام فقط القسيم الليراليسة. بالطبع، هناك أيضاً ظهور الرفاهية على حزء من المحتمع، الأمر الذي أعطى تصوراً خاطئاً بأن ديكتاتورية السوق ستكون قادرة على تحقيق الاستقرار بعد مرحلة مسن التطور التغيري. ولكن، عندما سيدرك الناس بأن الحل لمشاكلهم سيتطلّب تفسير النظام، فإن صورة المستنقع السياسي الروسي قد تنفير بشكل مفاحئ.

إنني أعترف بأن جزءاً من الشعب قد يصبح فساعلاً في الأحسزاب الوطنيسة اليسارية بأسرع من إلتفاف المحتمع حول مشروع التحوّل. وأول مظهر من مظاهر التوحّد قد يتبدَّى من خلال موجة احتجاج عاطفية يمكن أن تحضَّر لها قوىً معينسة في الطبقة الحاكمة. لكن التوحّد حول برنامج إصلاحي لا يتطلّب عواطـف بــل حهوداً فكرية وتنظيمية أكثر تعقيداً.

ولكن، من الأهمية بمكان التأكيد على أن مشكلة روسيا الأساسية لا تكمسن في المجتمع بل في الطبقة الحاكمة. وهنا قد نواجه مشكلة معينة في التطوّر الروسي، وهي أن الطبقة الحاكمة اليوم أكثر رجعية من المجتمع نفسه، الأمر الذي يرغمنا على إعادة النظر في الافتراض القلع الذي يقول بأن كل بحتمسع بحصل علمي الحكومة التي يستحقها. قبل ثورة العام 1917، كان جزء من الطبقة السياسسية والاقتصادية الروسية بدون أدن شك أكثر تقدمية وتطوراً من الشسعب والمجتمع بشكل عام، الذي كان مجتمعاً زراعياً متخلفاً. ولكن، في سياق التحديث الشيوعي، أدّت عمليات التطهير المتنوعة والتغيرات في الطواقم السياسية إلى تشكل طبقة حاكمة خاضعة لا تملك روح المبادرة ولا تحتم إلا ببقائها الشخصصي. وفي نفس الوقت، خلال المرحلة السوفياتية، أو على الأقل في جزء كبير منسها، بدأ المجتمع بتحرير نفسه من النماذج الاعتيادية وأصبح أكثر تقبلاً للتغيير من النخسة الحاكمة. في روسيا، كان المجتمع والطبقة الحاكمة يسيران، وما زالا، في اتحساهين عتلفين. غالبية الشعب الروسي ترفض أن تعامل كأداة بيد الحكومة تلعسب عما كيمة عليه حتى الآن، وذلك لأن الشعب لا يعرف كيف ينظم نفسه.

بعد سقوط الشيوعية، أصبح الروس مستعدين للتقدّم نحو نظام حديد. لكن الطبقة الحاكمة لم تكن كذلك للأسف (48). لم تتعلّم النحبة أبداً كيف تحكم هذا المجتمع بأسلوب حديد، وهذه النحبة نفسها هي التي تنمسك بالأسساطير القديمة المتعلقة "بالطريق الخاص" لروسيا وبالناس الذين لم ينضحوا بعد كسى يسستحقوا المديمقراطية وبالتالي فهم ما زالوا في طور التحديث. وما يدعو للأسف حقاً هو أن هذه الأساطير يؤمن بما بعض الباحثين، الذين يفضلون رؤية الواقع الروسي بمنظسار ثابت وغير قابل للتغير، أو ألهم معتادون على اعتبار روسيا خصماً أبدياً للحضارة الغربية. من الصعب عليهم التحلي عن النمط المربح والتبسيطي الذي يعفيهم مسن الغربية. من الصعب عليهم التحلي عن النمط المربح والتبسيطي الذي يعفيهم مسن العامل مع الواقع الروسي المعقد والخير. على أي حال، ما زال المجتمع الروسى يتأرجع بمنة ويساراً. هذا المجتمع لا يعرف أين يتحد، لكنه في الوقت نفسه يُظهر ثباتاً مدهشاً وحتى براغماتية أيضاً. فعلى الرغم من كل التغيرات الجيدة والسيئة التي حدثت في التسمينيات، مُحكن المجتمع الروسي من تفادي كل السيناريوهات الكارثية التي توقع بما المراقبون، وهذه الحقيقة تعبر عن الحس السليم للنعب، أكثر من الحس السليم للنحب السيامسية والاقتصادية. لقد نجمع الروس بشكل فردي في تحرير أنفسهم من الدولة، والكثيرون منهم الآن يعتمدون على أنفسهم وليس على الدولة (45 بالمائة مسن السروس لا يعتمدون بشكل مباشر على الدولة)، بشكل عام، لم يعد المواطن الروسي بعد الهيار الاتحاد السوفياتي يحمل وعياً تقليدياً أو إيماناً بالجماعية الاشتراكية. وهذا المسواطن أصبح يعتمد على نفسه وأصدقائه وأقربائه، مع أنه لم يتحرر بشكل كامسل مسن عقدة رعاية الدولة (45).

بالطبع، إن إنتاج روح مدنية جديدة في روسيا مهمة شاقة، وخاصة عنسدما تكون الطبقة المثقفة عائقاً بدلاً من أن تكون مساعدة. إذ إن معظم المثقفين الروس البوم يفضلون الوقوف إلى جانب الطبقة الحاكمة ويؤيدون سياسستها في تحقيس الاستقرار وفق الطريقة القديمة. ولكن، دعونا لا ننسى أن المجتمع الروسي خلال العقد الماضي فقط تقبّل مبادئ نمط حديد من الحياة استفرقت أمم غيره وقتاً أطول بكثير لبلوغ تلك المرحلة. من هنا، إذا انسزلقت روسيا أكثر نحو الديكتاتوريسة، فإن ذلك سيحصل بالرغم من أمنيات الأغلبية، ولأنه لم يقدَّم أحد إلى النامس بديلاً همراطياً ليبرالياً مقدماً (لم يكن هناك أحد أساساً ليقدَّم هذا البديل)(50).



بما أن القيادة هي الموسسة الرئيسة - بل الوحيدة، في الواقع - في روسيا، فمن المناسب مناقشة مدى فعاليتها خلال الفترة الرئاسية الأولى لبوتين. وبمكننا في تقييمنا هذا استخدام عدة معايم؛ كيف أنجز بوتين الدور الذي أوكله إليه يلتسين؟ وهل بلغ الأهداف التي أعلن عنها وبأي فمن؟ وإلى أي حدّ نقل روسيا نحو بحتمسع صناعي مستقر؟

إذا كان المعيار هو دوره كعامل استقرار، فقد أنجز بوتين دوره بحلول العام 2004 بنحاح باهر. لقد حلب بالفعل الاستقرار إلى روسيا وحصل علمى المدعم لسياساته من الغالبية الساحقة من الشعب الروسي. وإذا نظرنا إلى غايت المعلنة المتعلقة بتحديث روسيا، فهنالك ما يدعونا إلى إعطائه تقييماً إيجابياً أيضاً: تحققت مؤشرات اقتصادية قومية حيدة خلال رئاسته.

ما هي كلفة سياسات بوتين؟ لقد أثبت الرئيس بأنه حقّى أهدافه بدون إنفاق طاقة زائدة، ومن خلال الحصول على دعم الطبقة السياسية والشعب. في حين أن يلتمين تسبّب بإحداث مشاكل من خلال إسقاط حكومات والتسبب بنسزاعات. لم يكن بوتين يحبّ تغيير الموظفين ويتحبّب المواجهات. وإذا لم يتمكّن من الحصول على ما يريد، فإنه لا يلحأ إلى الضغط الجماعي، وإنما ينتج أثراً من التهديد عسن طريق إطلاق تحذير ما. على سبيل المثال، إذا قرّر الكرملين التحلّص من حاكم غير مناسب، فسيبداً مكتب المدعي العام بالتحقيق في أنشطته، وهذا كاف لحمله يتحلى من الترسح لإعادة انتحابه. في قضية يوكوس، وضع المدعي العام حودور كوفسكي في السحن، وبذلك حلّ مشكلة الشركات التحارية الكيرى ككل، دون اللحوء إلى الاعتقالات الجماعية. في عهد بوتين، أحاد النظام فنّ التهديد عسير مكتسب المدعى العام، الذي تبيّن بأنه أداة إدارية فعالة.

أثبت بوتين أنه رحل تكتيكي قادر على المناورة، ولا يتسبّب بالمشاكل. مــن هنا، إذا إلتزمنا هذه المعايير، فإن هذا الرئيس الروسي يستحقّ درحـــات إيجابيـــة كزعيم يحافظ على روسيا مستقرة بكلفة متوسطة.

ولكن، إلى أي حد هذا الاستقرار مضمون؟ إن النظام المبني على مبدأ التقييد يمكن أن يعمل بشكل حيد فقط في بنية تبعية لا أخطاء فيها. وذلك يتحقق من حسلال الخوف والعنف. فإذا كانت آلية الإكراء ضعيفة، فإن مبدأ التقييد يعمل بشكل سسيع. إن مجرد تقصير صغير يمكن أن يسبّب انعداماً في التوازن، لأن كل العناصسر مرتبطسة يعضها البعض عمودياً. ولهذا السبب، يمكن التعويض عن العناصر المقصدة - علي الآن - إلا أخرى غيرها. صحيح أن عيوب حكم الرجل الواحد غير واضحة - حسيق الآن - إلا أن هذا النظام من الحكم من غير المرجح أن يكون فعالاً في أوقات الأزمات. إن تصفية وسائل الإعلام المستقلة، وتدمير المعارضة تركا النظام بدون أي تفاعل مع المجتمع، مما يعني بأنه لن يستطيع فهم الأحداث بالشكل المناسب. و له فل السبب، ذهل الرئيس عندما طار فوق غروزي في ربيع عام 2004 وشاهد المدينة المدترة بأم عينيه. وذُهل أيضاً من حجم الهجوم الإرهابي في مدينة نازران في حزيران عام 2004، حيث قال في لحظة من الاضطراب، "إنه مخالف تماساً لما أخيرت به "(أكار من مرة في المستقبل، لأنب بدون مصادر بديلة للمعلومات، قد لا يعرف ماذا يحصل في الحياة الواقعية للبلد. وسينتج عن انقطاع هذه المعلومات، بالتأكيد، قرارات خاطئة.

إن الهدوء السياسي الروسي أيضاً مضلًل، لأن حزءاً كبيراً منه غير حقيقسي؛ استقرار زائف. ديمقراطية زائفة، سلطة زائفة، ومسؤولية زائفة. هذا التزييف هسو طريقة لحلّ التناقضات البنوية بين الديكتاتورية والديمقراطية. إذاً، واستناداً إلى هذا التحليل، يمكننا القول بأن القيادة نفسها، تلك الموسسة السياسية المسيطرة الأساسية في روسيا، زائفة أيضاً.

ليس فمة ما يريح في حقيقة أن كلّ الهيكليات التي تنظّم المجتمع الروسي تعتمد على استطلاعات شعبية الرئيس. يمعنى أن أي هبوط في معدل شعبيته يهدّد استقرار النظام برمته: معدل شعبية حزب روسيا المتحدة سيسقط على الفــور، لارتباطــه يمعدل الرئيس؛ والحكومة ستبدأ بالاهتزاز، والحكام التابعون للرئيس سيصبحون معرضين للسقوط. إن الاستقرار السياسي والاجتماعي يعتمدان بشكل مباشر على معدلات شعبية الرئيس. هذا هو الجواب على السؤال: هل أصبحت روسيا أكتــر استقراراً في عهد بوتين؟ إن الديكتاتورية البيروقراطية التي تعيد إنتاج اقتصاد مرتكز على الموارد الطبيعية، وتوجّه المجتمع نحو الحفاظ البدائي على المقاء، لا يمكنــها أن تضمن موارد داخلية للتطوّر، التي لا تستطبع بدونها روسيا مواجهة تحديات عصر ما بعد الثورة الصناعية. وهذا هو الجواب على السؤال: هل روســـا في طريقهـــا لتصبح دولة عصرية؟

يُظهر لنا تطور نظام بوتين قصور التخطيط السياسي - الذي أصبح الحكسم الروسي يحبذه - وعواقبه. قد يظن أحدهم بأنه بوجود موارد إدارية كبيرة بمكنسه إنحاز أي خطة، مثل تكوين الأحزاب وحلها، وبنساء بحتمسه المسدني الخساص، والسيطرة على البرلمان. هذه التحارب الخطيرة والمثيرة للاهتمام ابتسداها بسوريس بيريز وفسكي، الذي أسس حزباً للسلطة - الوحدة - في بضعة أسسابيع في العسام 1999. ثم أصبح هذا الحزب التابع للكرملين قوة مسيطرة في البرلمان الجديد. وبعد ذلك، سار جيل جديد من التقنيين في الكرملين على خطاه، وبدأوا بتكوين واقسع افتراضي دون التفكير في العواقب.

ولكن، بعد انتخابات الدوما في كانون الأول من العام 2003، أصبح واضحاً أن الكرملين لا يمكنه دائماً التحكّم في نتائج تجاربه. أين هي الضائع بأن يتمكن الكرملين من إدارة "هرم السلطة" الذي بناه؟ إلى متى يستطيع النظام الإبقاء على الشركات التحارية والنعب الإقليمية المرعوبة والمقموعة قيد السيطرة؟ إلى أي حدّ يمكن خضوع نخب اليوم وموافقتهم على سياسات الكرملين؟ من الصعوبة بمكان دائماً السيطرة على ما هو زائف، لأن السيطرة نفسها يمكن أن تتحوّل عاجلاً أم آجلاً إلى سيطرة زائفة. ماذا سيحدث عندئذ، وأي قوى ستيز على الساحة السياسية، ومن سيستفيد من النظام الديكتاتوري الذي بناه بوتين؟

من خلال تأمين حكمه، أصبح بوتين في رئاسته الثانية - نظرياً - أكثر تحرراً من إلتزاماته السابقة وأكثر حرية في التصرّف. لكنني استنتحت بأن التحسر مسن النظام الذي شبّه قد يكون في واقع الأمر أصعب عليه، لأن ذلك النظام أصبح الآن يعيش حياته الخاصة. والتاريخ لديه الكثير من الأمثلة عن زعماء أصبحوا أسرى للقواعد التي أرسوها.

 للتطوّر: كل عملية تغيير تعقبها عملية "استعادة" (52). بالفعل، فالدوائر توجد دائماً في التطوّر التحوّلي، لأن كل ثورة تنفد من الطاقة وعندئذ تبرز الحاجة لفترة مسن التوقف. والسؤال يتعلق فقط بطبيعة ذلك التوقف: هل هو من أجل تأمين التطوّر أم من أجل العودة إلى الماضي؟ في الدول الشيوعية السابقة في أوروب الوسطى والشرقية، حصل الاستقرار على قاعدة دممقراطية ليبرالية، نتبحة لانضمامها إلى المختمع الأوروبي. بينما كان التحوّل في معظم الدول المستقلة الحديثة على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق يسير في الانجماه الآخر، نحو أنظمة ديكتاتورية، وبعضها كانت ذات طابع إقطاعي. أما روسيا، فقد نجحت في تجتب العسودة إلى الماضي السوفياتي أو الملكي، فتكوّن فيها نظام، بحسب تعبير ليون أرون الرائع، "خلسط، مزيج"، نظام هدين يتضمّن سلطة فردية، وليبرالية اقتصادية، وتوجّب غسري في السياسة الخارجية.

لقد حاول بوتين تحديث روسيا على طريقة بطرس الأكبر، أي عن طريق التبعية والإخضاع. لكنه لم يدرك بعد أن ما فعله أسلافه مع مجتمع روسي قلم من غير المرجّع أن بحدث مع الأمّة الروسية الجديدة، التي فقه فيها معظم الشعب إيماغم بالدولة التقليدية. إن الصراع بين الوسيلة (الديكتاتورية) والغاية (التحديث) كان عفياً عن الأنظار طوال المرحلة التي امتدّت ما بين عامي 1999-2004، لأن أسعار النفط المرتفعة أمّت نمواً اقتصادياً واستقراراً في البلد. وهذا أنتج انطباعاً بأن تحديث بوتين الديكتاتوري كان فعالاً. و لم يكن الصراع وهذا أنتج انطباعاً بأن تحديث بوتين الديكتاتوري كان فعالاً. و لم يكن الصراع ين السلطة التقليدية والحاجات الجديدة مفهوماً لا من المجتمع ولا من النظام؛ فلقد كان صراعاً ضبابياً غامضاً. ولكن، بإمكان هذا الصسراع أن يعدود إلى السطح في أية لحظة، وخاصة إذا هبطت أسعار النقط، وعندتذ سيتوجّب إبجاد حلّ هذا الصراع. وليس هناك سوى حلين وحيدين له: التخلّي عن التحديث.

وهذا قد ينسبّب في مشكلة معقدة: للتحلّي عن الديكتاتورية البيروقراطيه، سيتوجّب على الرئيس استخدام ديكتاتوريته (إرادته ووسائل ضفطه) مسن أحـــل وضع حدّ لها. وهذا ما حصل مع شارل ديغول الذي استخدم سلطته الشخصسية من أحل تحديث فرنسا، وإبجاد هيكيليات ديمقراطية أكثر عملية. لكن روسيا لا تملك سياسيين من هذه الطينة، يمكنهم استخدام سلطتهم الشخصية من أحل وضع حدود لها. بيد أنني لست متأكدة الماماً من هذه النقطة، فمثل هــولاء السياســين يولدهم التاريخ وحاجة الشهب.

إن سحل إدارة بوتين، كما هو سحل إداري غورباتشوف ويلتسين، يجعلنا نفكر في الدور الذي يلعبه الزعيم في التاريخ السياسي لروسيا. لماذا حعلت النقطسة الأخيرة تدور حول الزعيم؟ لأنه في بحتمع يكون فيه الزعيم هو المؤسسة السياسسية الأكثر أهمية، وغالباً الوحيدة، فهو (الزعيم) الذي يقرّر وجهة حركة المحتمع. وإذا أردت التبسيط، فسأخلص إلى ما يلي،: كان غورباتشوف إصلاحياً، فلقد حساول إصلاح نظام غير قابل للإصلاح. ويلتسين كان إصلاحياً حاول بناء رأسمالية نخبوبة فعالة يمكنها أن تكون أي شيء إلا أن تكون فقالة. وبوتين أصبع عامل استقرار وعدين أصبع عامل استقرار وعدين أصبع عامل استقرار وعديناً في نظام لا يمكن استقراره أو تحديثه.

هل مجرد كون المهمة مستحيلة يجعل من محاولة تحقيقها فشسلاً أو خطساً قاتلاً لا، اعتقد بأننا نتعامل مع عملية أكثر تعقيداً. إذا كان المجتمع لا بملسك إمكانية، أو بملك إمكانية ضغيلة، للإصلاح، وإذا كانت النحبة لا مملك رؤية للتقدم، فإن مجرد محاولة سلوك طريق، وإن كان بلا أفق، تُعتبر شسكلاً مسن أشكال التطور. لقد شهدت روسيا في عهدي غورباتشوف ويلتسين إحفاقات ثورة البريسترويكا وما بعد البريسسترويكا ووصلت إلى إدراك أن المسرء لا يستطيع إصلاح ما ينبغي تفكيكه وأن المرء لا يمكنه ضسمان الحريسة بسدون استقرار. وفي عهد بوتين، تعيش روسيا تجربة أخرى، مستنظهر مسا إذا كسان بالإمكان تحديث المجتمع بدون حرية.

هذا المنهج ينتج أوهاماً حديدة. ولهذا السبب، أنتحت الفنسرة الرئاسسية الأولى لبوتين انطباعاً بأن الديكتاتورية البيروقراطية يمكنها أن تحلّ المشساكل. على أي حال، إذا تمكّنت رئاسته الثانية من تبديد هذا الوهم، فستكون هسذه هي مساهمته في تحوّل روسيا. نعم، قد يكسون إخفساق بسوتين في تحديث الديكتاتوري أكثر فائدة لروسيا من نجاحه. لأن النحاح سيعمل فقط على إطالة مدّة الوهم، وسيبقى بحرد حلّ مؤقت. وعاجلاً أم آجلاً، سيأتي زعيم جديسد سيضطر إلى إثبات أن روسيا سلكت طريقاً مسدوداً وسيكون بحاجة إلى إيجاد طريق آخر للخروج.

لكن السؤال هو: هل باستطاعة فلاديمير بوتين نفسه أن يرى بـــأن روســـيا بحاجة للتحلّي عن نظام لا أفق له؟ إن فترته الرئاسية الثانية ستقدّم لنــــا الجــــواب. وعلى أي حال، لن ننتظر وقتاً طويلاً لنعرف ذلك.

الغطل الثابي عطر

أجندة جديدة وخيبات أمل جديدة

روسيا تريد الديمقر اطية. الداروينية الاجتماعية للسلطة. خردوركوفسكي بتأسف. اللبير الية ضد المحافظة الجديدة. الشرشان: جريمة القتل الشمائرية لقاديروف. عل بقيت هناك أحزاب في روسيا؟ التحتي الاقتصادي ليوتين. الأزمة المصرفية. سياسة روسيا الخارجية: محاولة من خلال "واقعية جديدة". مأساة بيسلان وعاقبتها.

مزوداً بدعم كبير من الانتخابات الرئاسية الثانية، كان باستطاعة فلاديمسير بوتين صياغة أولوياته بالشكل الذي يريد، دون إزعاج من أحد. في تلك الأثنساء، بدأت المؤسسة السياسية الروسية بتخمين ما سيقوم به الرئيس في ولايته الثانية. قال البعض بأنه سيعيد إحياء إصلاحات السوق. فيما شعر آخرون بأن روسيا حققت أقصى حدَّ ممكن من الإصلاح، وألها كانت بحاجة إلى بعض الوقت لهضم ما قامت به في العقد السابق. ولكن، كان هناك شيء مؤكد واحد فيما كان سيحدث على الساحة السياسية، وهو تعزيز الديكتاتورية البيروقراطية.

لم يعد الكرملين يخفي خططه الهادفة لبناء دولة الحزب الواحد، وكان يحضّسر لتغير النظام الانتخابي المختلط إلى نظام نسي، مناقشاً إلفاء الانتخابات الحاكميسة (المتعلقة بانتخاب الحكام). كما استمر النظام في تدمير بقايا الاستقلال الأعمرة في وسائل الإعلام⁽¹⁾. كان حنائيو الكرملين، مسلحين يمقصاقم، يراقبون بإمعسان

الحقل السياسي الموحود أمامهم، وهم على أثمّ الاستعداد للانقضاض على أي أعشاب شاذة قدّد بتحريب المنظر السياسي الذي زرعوه.

من الواضح مماماً أن السلطات اعتقدت بأن روسيا كانت تتوقع تعزيز الحكم الفردي. لكنها كانت عطعة، لأن المشاعر العامة كانت قد تغيرت في بداية الولاية النافية لبوتين، ونسبة الناس الذين كانوا يتوقعون من الرئيس توسيع الديمقراطية ارتفعت إلى حدًّ كبير. ففي آذار من العام 2000، كان 35 بالمائدة مسن الشعب الروسي يتوقعون ذلك من الرئيس، وفي نيسان من العام 2004، أصبحت النسبة 55 بالمائة. في الولاية الثانية لبوتين، أصبحت المنيقراطية مطلب الشعب الأساسسي. في العام 2000، نصف الشعب الروسي تقريباً (47 بالمائة) كان يشعر بالحاجة لمعارضة العام 2004، نواعا كانوا يخالفولهم الرأي. وبحلول العسام 2004، ارتفعست نسبة أولك الذين يعتقدون بضرورة وجود المعارضة إلى 11 بالمائة، فيما انخفضت نسبة الذين يعتقدون العكس إلى 17 بالمائة(2).

كل شيء كان يشير إلى أن الدعم الشعبي للرئيس لم يكن يعني دعماً للحكم الديكتاتوري. وهنا، يمكننا عزو استمرار دعم بوتين بالرغم من أن الشعب كان يربد المزيد من الديمقراطية إلى سبين: أولاً، لم ير الروس أي زعيم آخر يمكنه أن يحميهم من الديكتاتورية (لم يكن الناس يعتقدون بأن بوتين قادر على تأسيس ديكتاتورية و في العام 2000، 10 بالمائة فقط كانوا يعتقدون بأنه قادر على ذلك، وفي العام 2004، أصبحت النسبة 9 بالمائة) وثانياً، لألهم كانوا يأملون بأن بوتين سبعيد إحياء الموسسات الديمقراطية.

إذاً فالهجوم على المؤسسات النهقراطية حدث بالرغم من مشاعر غالبيسة الشعب الروسي. لكن هذه المشاعر النهقراطية لم تصل إلى حسد الرغبة بتغسيم النظام. وهذا مفهوم أيضاً، لأنه لم تكن هناك قوى في المجتمع تستطيع تكوين بنيسة سياسية قادرة على ضمان الحرية والاستقرار في وقت واحد. لكن التوق المتنسامي إلى المؤسسات المستقلة والمعارضة كان يعني بأن النظام أصبح ممتلك أحنسدتين متعارضين وأن صدامهما أصبح عتوماً، سواء أكان ذلك عاجلاً أم آجلاً.

لقد أشار خطاب بوتين السنوي أمام بحلس الاتحاد في 27 أيار عام 2004 إلى أولويات ولايته الثانية، التي وقع اختياره عليها بعد مشاورات طويلة. كرّر الرئيس نفس السياسة التي وضعها في خطاب العام السابق فيما يتعلّى بمكافحة الفقر ومضاعفة الناتج المحلي الإجمالي (GDP) بحلول العمام 2010، سياسة قوبلست بتعليقات متشككة من الشعب. لكنه حرّر نفسه من عسبء مسوولية تحقيق الأهداف من خلال تحديد الموعد النهائي بعد لهاية ولايته الرئاسية الثانية. أما النقطة الأكثر أهمية في الخطاب فهي استعداد بوتين للبدء بالإصلاحات المولمة السي كسان يؤجلها. بالفعل، كان هناك شعور بأن بوتين قرّر تخفيض المساعدات الاحتماعية، لكنه لم يشأ قول ذلك صراحة.

وكانت هنالك أيضاً مفاحآت غير سارة بالنسبة لليراليين وذوي التوجّهات الغربية. حيث تكلّم بوتين بحدة عن المنظمات غير الحكومية، و حاصة تلك الموالة من قبل مؤسسات أحنية، متهماً إياها "بخدمة بحموعات مشبوهة ومصالح بحارية". كانت هذه نفحة أخرى من المواقف السوفياتية القديمة تجاه بحموعات حقوق الإنسان والمؤسسات الغربية، مع اختلاف وحيد فقط، وهو أنه لم يتهمها بالتحسّر.

9-

في أيار عام 2004، صادق البرلمان على تعيين ميخائيل فرادكوف رئيساً للوزراء لدورة ثانية. انضم مستنسخ الكرملين، حزب رودينا، إلى الحزب الشيوعي وصوَّت ضد ترشيح فرادكوف. وهكذا، انبثقت معارضة جديسة في السدوما، تعارض الحكومة وفي نفس الوقت تساند الرئيس الذي شكّل الحكومة، وذلك تبعاً لخطة ابتدعها الكرملين قمدف إلى إحداث انطباع بوجود التعدّدية في روسيا.

المتعصب المحترف فلاديمير حيرينوفسكي محترماً إلى حدٍّ كبير بالمقارنة مع الـــوطني اليساري الجديد.

عندما بدأ الناس يرون أن الكرملين بدا وكأنه ينظسر بحنسو إلى السوطنيين اليساريين، كل من كان يملك ولو قدراً ضغيلاً من الطموح، ثمن لم يجدوا مكاناً لهم في الحياة السياسية، هرع إلى تلك الزاوية على الفور. كانت ردّة فعل الكرملين تجاه تلك الحركة المتصاعدة في مطبخ الوطنية والشعبوية هادئة تماماً. أكد المنحازون للكرملين "كل شيء تحت السيطرة". لكنها كانت لعبة عطرة، وعاصة قبل مرحلة قصيرة من الإصلاحات الاحتماعية التي عطط لها الرئيس.



في تلك الأثناء، سرَّع بوتين وتيرة الإصلاحات الإدارية المتوقّفة، الأمر الذي أثار معارضة كبيرة من الطبقة الحاكمة لم يُثرها أي إصلاح آخر، وذلك الأنحا ببساطة كانت قمد بتقويض مواقعهم القيادية في الطبقة البيروقراطية مسن خسلال إعادة تنظيم الدولة. وكان الهدف الأساسي للإصلاح هو إخضاع النظام المستحكم بالإدارة إلى متطلبات السوق وتأسيس معايير جديدة للفعالية. بدأ بوتين إصسلاحه بحذر. ففي البداية، استهل جيرمان غريف وفريقه المرحلة الأولى مسن الإصسلاح "بتحفيف سيطرة البيروقراطية" على الاقتصاد (1999–2002)، فحدًا مسن تحكّس الدولة بالتجارة. لكنهما لم يحققًا الكثير في هذا المحال.

وبدأت المرحلة الثانية من الإصلاح الإداري في العام 2003-2004 وتضمنت إعادة تقييم وظائف موسسات السلطة التنفيذية والقضاء على النشابه والتكسرار. وحدت اللحنة المكلفة، برئاسة نائب رئيس الوزراء السابق بوريس ألبشين، 800 المائف وظيفة حكومية زائدة وحاولت تخفيض العبء الإداري بنمسية 30 بالمائسة. ولكن، هذه المرة، اضطر الكرملين للتدخل، تحت ضغط من المصالح الشيركاتية، عولاً وظائف الدولة الزائدة إلى "موسسات ذات إدارة ذاتية"، وهسي في الواقسع ليست إلا مجموعات بهروقراطية تجارية.

تمثّلت الخطوة الثانية من الإصلاح في تقسيم المحالات الإدارية بين مستويات

السلطة، رابطة الإنفاقات بإمكانيات الربع في كل مستوى من مستويات الإدارة (سُميَّت "بقوانين كوزاك" نسبة إلى ديمتري كوزاك، نائب رئيس الإدارة الرئاسية). وبذلك، تشكلت بنية حديدة للحكومة: مؤسسة وزارية - فدراليسة خدميسة - فدرالية. وبعد ذلك سنَّ الكرملين قانون "الخدمة المدنية الحكومية"، الذي يُغترض بأنه سيكون القاعدة لتشكيل طبقة إدارية روسية جديدة (أ).

كان واضعو الإصلاح الإداري يأملون بأنه سيوسس لعملية إدارية أكتر شفافية، ويؤدي إلى تخفيض ضغط المصالح البيروقراطية والفرعية (أ). في الحقيقة، إن القوانين الجديدة يمكن أن تودي بالفعل إلى الحدّ من سيطرة الدولة على الاقتصاد، وتأسيس عملية توظيفية تنافسية على مناصب في السلطة التنفيذية، وتغيير دوافسع الموظفين الحكوميين. لكن الإصلاح لم يحلّ مشكلة صراعات المصالح في بسئ الإدارة؛ على سبيل المثال، بين مصالح المسؤول ومصالحه التحارية. إضافة إلى وحود أثر حاني غير محسوب يتمثل في زيادة الوظائف الرقابية في كل فروع الاقتصاد، ولم تُحلّ كذلك مشكلة صراعات المصالح ضمن الوزارات المستقلة. على أي حال، كانت النتيجة الملموسة الوحيدة لذلك الإصلاح زيادة رواتب المسؤولين – حدث كانت النتيجة الملموسة الوحيدة لذلك الإصلاح زيادة وواتب المسؤولين – حدث خلك في العام 2004 – وقُدَّمت هذه الخطوة على ألها طريقة لحاربة الفساد(5).

حتى أن المراقبين الموالين للكرملين بدأوا بالإفصاح علناً عسن تشككهم في الإصلاح الإداري، حيث قال أركادي فولسكي، رئيس الاتحاد الروسي للصناعيين والمقاولين، بأسلوب مبتكر: "ينبغي على مديرة الماحور أن تغير الفتيات، ولسيس الأسرّة". بيد أن فولسكي كان عنطاً. لا ينبغي أن يُنفّذ الإصلاح من قبل المديرة - أي المسؤولين - بل من قبل مؤسسة عامة مستقلة. لكن الرئيس أوكل لجهاز الدلة مهمة إصلاح نفسه.



وفي لهاية المطاف، انتقل الكرملين إلى إصلاحات أشد حساسية بمكن لها أن تغيّر الظروف المعيشية للناس على المدى البعيد: إصلاح الميزانية وبمحموعــة مـــن الإصلاحات الاحتماعية التي تتضمّن عشرات من القوانين الجديدة التي تنظّم كـــل حوانب الحياة الاجتماعية. لقد بدأ الرئيس بوتين، وعلى غير ما توقّع الكشيرون، باتخاذ خطوات تنطوي على المحازفة، حيث فعل ما لم يتحرأ على فعله غورباتشوف ويلتسين: كان يجازف برفض مبدأ رعاية الدولة وإعادة هيكلة الوظائف الاجتماعية للدولة استجابة لمتطلبات السوق.

وبذلك، كان بوتين يقوم بثورة لا تقل أهية عن الخصعصة في زمنسها. في العام 2003، صادق الدوما على قانون يتعلق بالحكم الذاتي المحلي، وعلسى قانون وحل تنظيم هيئات للسلطة في المقاطعات غير بنية العلاقات بين المركز والمقاطعات. وفي صيف العام 2004، قرّر الكرملين سنّ بحموعة من القسوانين تعبيد تحديسه المسؤولية الاجتماعية للدولة. أما القرار الأسوأ بالنسبة للمحتمع فهسو اسسبدال المساعدات الاجتماعية العينية بالتعويض المالي⁽⁶⁾. فمن الناحية العملية، كان هسلما القرار يعني تصفية حوالى ثلث الإلتزامات الموجودة للدولة، التي كانت عمول نصفها العملات وفقط. وفي الوقت عينه، تحويل جزء من الإلتزامات إلى المقاطعات (بقيت السلطات الفدرالية عُمّم باربعة عشر مليون منتفع من الإعانة الحكومية، وتم نقل 19 مليسون إلى المقاطعات)(7).

كان ازدياد المعرفة القانونية للمواطنين من العوامل التي سرَّعت إقرار المجموعة الجديدة من القوانين. حيث بدأ الناس بمقاضاة السلطات والفوز بما مستحهم إيساه القانون؛ أي السكن للجنود المتقاعدين، إعانة الأطفال، مبلغ إضافي للحدسة في ساحة المعركة... إلح. وكانت الحكومة مضطرة لدفع كل الأضرار التي تم كسسبها في تلك الدعاوى القضائية، التي بلفت عشرات الآلاف من الروبلات⁽⁸⁾.

لقد آن الأوان منذ وقت طويل لترسيخ علاقات السوق في المحال الاجتماعي. وكان الوقت قد حان بالنسبة للدولة لكي تضع حداً لنفاقها فيما يتعلسق بقبسول مسؤوليات لم تكن تنوي إيفاءها. إن تعامسل الدولة مسع نظام المساعدات الاجتماعية، الباقي من المرحلة السوفياتية، لم يكن يجري علسى أسساس الحاجسة الفردية، ولم يكن عادلاً في كل الحالات، وكان بحاحة للإصلاح⁽⁹⁾. وإضافة إلى ذلك، فإن التحلي عن المساعدات فتع الباب أمام إصلاح الفسسان العسمي والاجتماعي، وإصلاح قطاع الإسكان.

لقد حاولت السلطات تنفيله هذه الإصلاحات بمدوء، آملة بأن الشعب لسن يفهم ما كانت تفعله. حدثت "الثورة الاحتماعية" في الصيف، عنسدما كان المواطنون في إحازاتهم ولا يتابعون السياسة. لكن الدفع بابتماه سنّ قسوانين تغير العلاقة بين الدولة والمحتمع بدون حوار مع المحتمع كان أشبه بوضع قنبلة موقوتسة. فبعد سنة من ذلك، عندما وُضعت هذه القوانين قيد التنفيذ، استنج الناس بسألهم علموا.

ولم تكن المشكلة تكمن في طريقة تنفيذ الإصلاح الاجتماعي فقسط بسل في عتواه أيضاً، حيث كان النظام بحاول تحرير نفسه من العبء الاجتماعي من خلال تحويل معظمه إلى المقاطعات. ولكنه، في نفس الوقت، كان يخفّض المصادر الضريبة في المقاطعات، وكذلك المساعدة التي كانت تتلقاها من الميزانية الفدرالية. وهكذا أصبحت المقاطعات مسؤولة عن رعاية النساس المحوّلين بالمساعدات الاجتماعية، وعن دفع رواتب 7 ملايين شعص (10). لكن المقاطعات لم تكن تملك الموائد الكافية لتنفيذ هذه الإلتزامات. لقد كتب ميحائيل زادورنوف "أسند إلى المقاطعات بحموعة من الإلتزامات الجديدة دون توفير مصادر ضريبية إضافية لها، بل على المعكس من ذلك، لقد أرغمت على المساهمة في الميزانية الفدرائيسة بســـ 1.5 بالمائة من ضريبة الدخل، ودفعات مقابل موارد الغابات وضريبة الميساء. وبسذلك، بالمائة من ضريبة المسام، وبسفائي أن نتوفّع توتراً احتماعياً في أربعين مقاطعة تتلقى معونات من الدولسة "(11). بمكون لهاية العام 2004، اكتشفت الحكومة بألها كانت تعاني من عجز مقداره 57 مليون دولار في دفع النعويض المائي للمساعدات العينية.

المنولون بالحصول على الإعانات الحكومية في المناطق الريفية السذين لم يستفيدوا من إعاناقم أبداً، ربحوا الأقم حصلوا على إضافات على أحدورهم ورواتبهم التقاعدية بلغت من 11 إلى 45 دولاراً في الشهر. لكن المخولين الاستفادة من تلك الإعانات في المدن خسروا، وخسروا بشدة (12). ويموجب ذلك سيحصسل فقط ثلث العشرة ملايين محتاج، يمن فيهم المحاربون القسدامي والمعاقون، على تعويضات كاملة على إعاناقم. وقوق ذلك، كانت الدولة تخطط أيضاً لتخفيض الدعم للتعليم، حيث لم تعد تكفل التسجيل المجاني في الكليات المناطقية. كما ألغي

قانون دعم الشركات التحارية الصغيرة، وكذلك القوانين السني تحمسي مسكن المواطنين. أما الشيء الوحيد الذي قرّر الكرملين الإبقاء عليسه فهسو المساعدات الخاصة بتكلفة السكن، فالكثير من المواطنين الروس لم يكونوا قادرين على دفسع إيجار سكنهم بالكامل.

عندما كان اللوما يقرّ القانون الخاص "بتحديث" المساعدات الاجتماعية، كان المبنى مطوّقاً بمجموعات من القوات المسلحة. كانت تلك هي المرة الأولى منذ أمد طويل التي احتاج فيها النواب لحماية من الجماهير الفاضية، السيّ هتفست بشعارات مناهضة لبوتين. قاوم اتحاد النقابات المستقلة الإصلاحات الاجتماعية وبدأ بحشد الناس. ثم بدأ الحكام بالإفصاح عن انتقادهم للإصلاحات. حسى أن بعض الأعضاء البارزين في حزب روسيا المتحدة ثاروا على الأمر، من بينهم نالب الناطق باسم الحزب حورجي بوس، الذي قال: "استراتيجية الحكومة صحيحة، لكن تنفيذها خاطئ من البداية حتى النهاية"(13).

كان الإصلاح أشبه بدلو من الماء البارد بالنسبة للشعب، لأن المساعدات الاحتماعية كانت تعوَّض إلى حدَّ ما أحوره ورواتبه التقاعدية الزهيسدة. وكانست المساعدات بالنسبة للكثير من الناس تمنحهم مكانة اعتبارية (مثل الاستحدام الهمان لوسائل النقل في المدن للمحاربين القدامي). من بين أولئك المشتركين في أحسد الاستطلاعات، 61 بالمائة كانوا يشعرون بأن الدولة من خلال استبدال المساعدات بالتعويضات المالية كانت توفّر المال على حساب الشرائح الأكثر فقراً في المحتمسع (29 بالمائة فقط كانوا يعتقدون بأن ذلك يهدف إلى تحسين نصيب تلك الشرائح، و10 بالمائة لم يكن لهم رأي)(14). كالعادة، كانت السلطات "تحلّ شكلة ما مسن خلال إصلاح احتماعي دون التفكير في تأثيره على الظروف المعشية للمسواطنين خلال إصلاح احتماعي دون التفكير في تأثيره على الظروف المعشية للمسواطنين الأكثر فقراً. وفي هذا السياق كتب إيفان بريوبراحينسكي "هذه سياسة حديسة قدف إلى تخفيض تكاليف الميزانية على حساب المواطنين الأشد فقراً (18).

كانت الحكومة تتخلّص من إلتزامات باقية من زمــن الاشـــتراكية. لكــن الرأسمالية، التي كانت الحكومة تدفع المجتمع نحوها، كانت مبنية على مبـــدا "انقـــذ نفـــك". لم تكن السلطات تعمل على إيجاد ظروف مناسبة للناس كـــى يهتمـــوا

بأنفسهم من خلال مبادرات خاصة. وهكذا، بدأ المواطنون يتساعلون لمساذا تمست التضحية بالفقراء دوناً عن بقية شرائح المحتمع. لماذا لم يبدأ الإصلاح بالإسساعات الفاضحة للطبقة البيروقراطية، و"الثقوب السوداء" في الميزانية الفدرائية، والسسرقة المائلة للمساعدة المخصصة للشيشان؟ وأخيراً، لم يستطع الناس إلا أن يتسساعلوا: لماذا بدأت الحكومة بالتخلص من المساعدات الاحتماعية في وقت كانت فيه روسيا تتمثّع بتدفّق أموال النفط؟

وفي نفس الوقت، كان الكرملين يوسَّع من الامتيازات الاجتماعية لمسسؤولي الحكومة مطبقاً المبادئ الداروينية على المجتمع. كان المتقاعد العادي يحصل شهرياً على مساعدة احتماعية قيمتها 1.100 روبل (حوالى 38 دولاراً)، والوزير الفدرالي 85.000 روبل (3.000 دولار)، والإداري الحكسومي العسادي 42.640 روبسلاً (1.48 دولاراً). وهكذا، يبدو حلياً أن الإصلاحات الاجتماعية التي شرَّع لها الكرماين ستعمل حتماً على توسيع الهرة الهائلة مسبقاً بين الأغنياء والفقراء.

بالطبع، كان المراقبون مهتمين بالسؤال التالى: ما هي احتمالات حدوث توتر المحتماعي؟ كانت الغالبية العظمى من الشعب الروسي قلقة من الإصلاحات، إذ إن الناس كانوا يشعرون بألها لا تلبي احتياحاقم(17). لكنهم، مع ذلك، لم يكونوا الناس كانوا يشعرون بألها لا تلبي احتياحاقم(19). لكنهم، مع ذلك، لم يكونوا مستعدين للاحتجاج في المام 2004، ولكن محكنة"، في حين اعتبر 20 بالمائدة في أحد الاستطلاعات بأن "الحياة صعبة، ولكن محكنة"، في حين اعتبر 20 بالمائدة منهم بأن الوضع كان كارثيا، بينما كان العشرون بالمائة الباقون يعتبرون بالمائة الوضع مقبول إلى حدًّ ما. كما ارتفع مؤشر عدم الرغبة في الاحتجاج من 63 بالمائة في العام 2003، إلى 67 بالمائة في 2004. في حين أن 21 أو 22 بالمائة فقسط مسن المشتركين كانوا مستعدين للانضمام إلى الاحتجاجات، و19 بالمائة فقسط كانوا

 الإسكان – يمكننا أن نتوقع ازدياداً في الاحتجاج. والأكثر قابلية للاحتجاج همم أولئك الذين ينتمون إلى فنات ليست فقيرة إلى الدرجة التي توهملها للحصول علمى المساعدات والتعويضات المالية، أي الشمر الحج السدنيا والمتوسسطة مسن الطبقـة الوسطى(19). وإضافة إلى ذلك، فإن احتجاجات بعض الطبقات الاجتماعية علمى التحوّل إلى قوى السوق يمكن أن نزيد من حدّة استياء شرائح أخرى مسن عسم تحقيق آمالها باللبمقراطية.

هل شعر الفريق الحاكم بالتوتر الاحتماعي المتنامي؟ بلا شك. ولذلك قسرًر الفريق بأن الطريقة الأمثل لمعالجة الإصلاحات غير الشعبية تكمن في السيطرة على المجتمع بشكل كامل، وفي نفس الوقت فتح قنوات لتنفيس غضب المحتجر، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تكون فيها السلطات أسيرة السوهم القائسل بسأن الاحتجاجات يمكن السيطرة عليها، وليس هذا فقط بل إنها تستطيع الاستفادة من هذه الاحتجاجات لخدمة أغراضها الحناصة.

بدأ الكرملين العمل بشكل حاد من أحل احتثاث حذور الاضطراب المحتمل قبل حدوثه. فكون أحنحة بمينية ويسارية ضمن حزب روسيا المتحدة، وشوه سمعة الحزب الشيوعي، وعزز من احتفاب رودينا للناخبين اليساريين، وشكل أحزاباً مروضة للتأثير على الناخبين الفاعلين، وسيطر على النقابات، وهذه كلها بحرد أمثلة قليلة على الجهود التي بذلها. ودعونا نضيف رسم صورة العدو الأول والأخير، أي الطبقة المتنفذة، كوسيلة لتحويل الاستياء إلى أماكن لا تحدد النظام.

ولكن، للإدارة دائماً حدودها. فمن المستحيل بالنسبة للنظام بعشرة كل أشكال الاحتجاج الإجتماعي ضد أفعالها. حيث تتشكّل دائماً أشكال حديدة من العصيان - عثل إضرابات الجياع - يصعب التحكّم بها. وهناك كذلك الحركات المتطرفة التي تظهر بين الشباب، التي يمكن أن تحتّل الشرارة لاضلطرابات أوسع. و"اليسار الجديد" الذي خرج إلى شوارع موسكو كان خير دليل على إمكانية مثل هذا السيناريو. وهمة مصدر آخر للقلق، إلهم القادة الذين صنعهم النظام، والله يمكن أن يتخلصوا من سيطرته، ويقودوا موجة جديدة محتملة مسن الاحتجاج، مهددين النظام نقسه.

إن نظام الحكم المبني على أساس آلية السير الناقل، الذي يكون فعالاً في الظروف المستقرة، غير قابل للسيطرة في أوقات الأزمات ويميل إلى الردّ بعنف على الاحتجاج الشهبي، الذي سيزيده عنفاً. صحيح أن منابع القلبق والاضطاب في المحتمع المتشظى لم تكن تشكّل قديداً حدّياً للكرملين في تلك المرحلة، والسلطات كان يامكا فا أن تنام محدوء وسكينة، إلا أن المستقبل غير مضمون، إذ قد يحدث أي شيء يفسد عليها ذلك النوم. بعبارة أعرى، بعد أن دمر الفريق الحاكم الآليات القديمة للاستقرار الاجتماعي دون التفكير في آليات حديدة، أعطى بذلك القسوة الدافعة لتحوّلات بنيوية مستقبلية في سلوك المجتمع.



عندما كانت روسيا تعيد انتخاب زعمائها، كان ميخائيل خودور كوفسكي ما يزال قابعاً في سحنه. اعتقد الكثيرون بأن رئيس يوكوس سيطلق سراحه بعد الانتخابات، وأن قضية يوكوس ستنتهي قمدوء. لكن هذا لم يحصل. فقد قرر الكرملين تغيير أسلوبه والسعي للحصول على الشركة النفطية الهائلة، وهذا يعين تغيير مالكيها وإدارةًا. من هنا، فالمصالح السياسية التي سادت في بدايدة قضية يوكوس استُكملت الآن بدوافع اقتصادية.

كان خودور كوفسكي قد أصابه الإرهاق من المقاومة وبدأ يسعى للتسوية مع النظام. وهذا ما ظهر في رسالتيه المليتين بالندم اللتين بعث هما إلى الرئيس. يحسب السحناء الروس إرسال الرسائل إلى السلطات العليا، فقد بعث في السابق زعيسا الحزب الشيوعي كامينيف وزينوفيف رسائل مشاهة إلى ستالين بعد أن أمر بسحنهما، وهذا التشابه يضيف مسحة من اليأس والحزن إلى الوضع الحالي. إليكم النقطتان الأساسيتان اللتان تضمنتهما رسالة خودور كوفسكي التي بعث قما مسن السحن: الليواليون هم المسؤولون عن إخفاقات التحول الروسسي وإذا لم يثبتوا السحن: الليواليون هم المسؤولون عن إخفاقات التحول الروسسي وإذا لم يثبتوا الوحيدة وعلى المرء أن يتوافق معه. لقد كتب رئيس يوكوس بتواضع ذليل "الرئيس هو المسلطة هو المؤسسة التي تضمن وحدة واستقرار الأمة... وتاريخ البلد يعلمنا أن السلطة

الفاسدة أسوأ من عدمها"(²⁰⁾، من الواضح أن السجن علَّمه أن "يسذكُّر" كيسف يكون مرناً. وعلى أي حال، ليس هناك ما يثير الاستغراب، إذ سبق وحطَّمست السجون الروسية رحالاً أفضل منه.

في رسالته، كان خودركوفسكي يريد أن يقول: "إنني أتخلى عن طموحساتي السياسية. دعني أخرج واغفر لي"(²²⁾. لكن بوتين لم يردّ على الرسالتين النسادمتين، وقضية يوكوس اكتسبت زخماً جديداً. كان النظام يريد مسن خودوركوفسسكي أكثر من الأسف والندم؛ كان يريد أملاك أكبر شركة للنفط في روسيا.

___**y**-__

لم تأت الرسائل بالحرية إلى رئيس يوكوس، لكنها أثارت حدلاً محموماً حول مصير الليرالية في روسيا بين الليراليين "القدامى" من حيل يلتسين، بما فيهم غايدار، وتشربايس، ونيمتسوف. أعلن الليراليون بأنه ليس لديهم ما يسدعوهم للأسف. وهذا ما صرّح به تشوبايس في مقابلة له مع صحيفة الفايننشال تابحز، حيث قال بسخرية: "دعوا خودوركوفسكي يندم على خطاياه، أما أنا فساعالج خطاياى بنفسي "(23).

نشر ييغور غايدار ردّه على خودور كوفسكي، مؤكداً عدم موافقته على أن الليراليين يتحملون مسؤولية كل الإخفاقات، رغم أنه شخصياً لم يكن يحاول التملص من المسؤولية عن تطور البلد. لكن الأخطاء المحددة التي ارتكبها الليراليون في الحكومة لم تكن تعني، بحسب غايدار، الهيار الليرالية في روسيا، وأنا أتفق معسه في هذا الأمر بالكامل. ورداً على أولئك الذين استنتجوا بأن الليرالية كانت تعيش مراحلها الأخيرة، قال غايدار: "هذا لن يحدث!"(24).

بدا تفاؤل غايدار فيما يتعلَّق بمصير الليبرالية بأنه غير واقعسي. فالوضع في روسيا كان يتطوّر في الاتجاه المعاكس محاماً. وكل الذين كانوا يأملون في البقساء في الساحة السياسية غسلوا أيديهم من الأفكار الليبرالية حتى، لا سمسح الله، لا يُنظَسر إليهم على أغم ينتمون إلى معسكر الفاشلين. أن تكون ليبرائياً في روسيا في العسام 2004 كان يعني أنه مقدَّر عليك البقاء معزولاً في غيتو سياسسي. كمسا بسدات

الصحافة الرحمية، المقربة إلى الكرملين، والأحزاب وزعماؤها بمضايقة كل مسن لم يتخلَّ عن صلاته بالليراليين. وهكذا، أصبح الليراليون مسؤولين عن كل الأشسياء السيئة التي حدثت في روسيا. لكن ما يثير الاستغراب فعلاً هو أن الهحسوم علسى الليرالية حدث في الوقت الذي كان فيه الرئيس يجدّد إصلاحاته الليرالية. وهسذا دليل إضافي على مدى تشابك وتعقّد الواقع السياسي الروسسي وكيسف أنسه لا ينسحم مع الأفكار المتطابقة.

وفي هذا السياق، يمرز السوال التالي: هل كان أولئك السذين اقتصروا في توجها قم على التحولات الاقتصادية ونسوا كل ما يتعلق بالموسسات الديمقراطية ليمراليين أساساً؟ هل كانوا ليمراليين عندما اعتملوا، مثل تشروبايس، ديكتاتورية زعيم الكرملين؟ وإضافة إلى ذلك، دعونا لا ننس أن التكنوقراطيين الذي أترا إلى الحكم مع يلتسين لم يحصلوا على سلطة كاملة أبداً. وأن حكومة غايدار دامت سنة واحدة فقط. عبارة أخرى، بعد سقوط الشيوعية، كانت روسيا ما ترال تسدار بواسطة نخبة سوفياتية تعلّمت كيف تتفوه بشعارات ليرالية. من هنا، يمكنا أن يخلص إلى القول بأن روسيا لم تتبع يوماً سياسة ليبرالية بكل ما في الكلمة من معنى، بل استخلت اسمها لتمويه مصالح الطبقة الحاكمة. ولهذا السبب، كان طبيعياً أن يوض المحتمع "الليبرالية الروسية" هذه.

ترافقت الهجمات الحادة على الليم اليين مع ظهور بدعة روسية جديدة؛ هذه المرة، محافظة جديدة. لطالما وُحدت النــزعة المحافظة في روسيا، لكنها كانت إمـــا

قومية الطابع أو شيوعية، أو بعبارة أخرى، إيديولوجية العودة إلى الأزمنة السوفياتية وما قبل السوفياتية. أما مبتكرو هذه المحافظة الجديدة الموالون للكرملين فقد حاولوا تبرير الحاجة للحفاظ على الوضع الراهن⁽²⁵⁾.

وإليكم حمحهم الرئيسة: قال الميررون، معتبرين انتقاد النظام محاولة ساذحة للوصول إلى الكمال. أولاً، الديمقراطية المثالية مستحيلة. ثانياً، تطوّر الديمقراطية في تطوّر تدريجي دائماً، مشيرين إلى وجود العبودية في القرن الأول من الديمقراطية في أميركا. ثالثاً، لا يوجد بديل ديمقراطي ليبرالي للنظام الروسي. كما أكّد الحسافظون الجدد على أن روسيا مهددة من قبل بديل قومي أو شيوعي.

كانت المحافظة الجديدة في روسيا نوعاً من الموالاة للنظام بالنسبة للطبقسة السياسية. والمحافظون الجدد كانوا يصرّون على ذلك مهما كان الزعيم: النظام على حق وكل البدائل أكثر سوءاً. قالوا ذلك في عهد يلتسين وكرّروه في عهد بوتين.

رغم ألها تبدو براغماتية ظاهرياً، إلا أن المحافظة الجديدة الروسية، في واقسع الأمر، تشوّه الواقع وتعيق الابتكار. كانت محافظة تقدف إلى التحديث من حسلال العودة إلى الدولة التقليدية. وكان بإمكالها بسهولة أن تكون قاعسدة للعسودة إلى الديكتاتورية، طالما أن "النظام كان دائماً على حق"، وأن كل ما كسان موجسوداً منطقي. كان المحافظون الجدد – سواء أكان ذلك مقصوداً أم لم يكن – يوجلسون مسألة متابعة تحوّل روسيا، مركزين اهتمام المجتمع والطبقة السياسية على أمر واحد فقط هو القبول المذعن لما هو موجود. وعلى هذا الأسلم، كان مسن المستحيل بالنسبة لهولاء المحافظين الجدد أن يصبحوا – في تحسّدهم السالي – ديمقسراطيين احتماعين أو ليواليين. إلها ليست سوى قصة قديمة عن العبراع على البقساء في بلاط القيصر بأي تمن.

وبداً الفصل الثاني من المسرحية التي تُدعى يوكوس. في حزيران عسام 2004، طالب وزير الضرائب بأن تدفع الشركة 3.4 مليار دولار كضسرائب وغرامسات سابقة من العام 2000. ثم تلقّت يوكوس ضربة أخرى من الخلسف حساءت مسن

رومان أبراموفيتش، الذي قسخ اندماجه مع يوكوس وحاول الاستفادة من محنتها. الهتر السوق الروسي بقوة. فحرج بوتين عن صمته بشأن قضية يوكوس، في محاولة من لتهدئة الأمور، وأعلن في أوائل حزيران بأن "الحكومة لم تكن مهتمة بسافلاس يوكوس". وعلى الفور، رفع تصريحه هذا أسعار أسهم يوكوس، وأعطى الأمل بأن الرئيس كان ينوي الحفاظ على الشركة. بيد أن الهجمات على يوكوس بدأت من جديد، بعد بضعة أيام فقط من ذلك. فأرسل وزير الفنسرائب فساتورة ضميحمة أخرى، هذه المرة للضرائب التي لم تُلفَع في العام 1001 أي 3.4 مليار دولار أيضاً. كانت مهزلة فاضحة، لأن الشركة لم تكن تستطيع دفع ديولها وممتلكاتها بحمدة. ثم تكرّرت هذه الأمور عدة مرات أخرى. وبفضل التقلبات المفاجعة في أسعار أسهم يوكوس، ربح بعض الأشخاص أموالاً طائلة.

استمر مجلس إدارة يوكوس وخودروكوفسكي في محاولة الوصول إلى اتفاق مع الكرملين. حتى ألهما طلبا من شخص خبير واسع النفوذ، فيكتور حير ششينكو، رئيس سابق للبنك المركزي، بأن يتولى رئاسة بحلس إدارة الشركة. ثم طلبا مسن رئيس الوزراء الكندي السابق حان كريتيان التوسط لهما مسع الكسرملين. لكن يوكوس كانت مخطئة في ظنها بألها تستطيع التفاوض مع الكرملين، الذي طلسب رضوحاً كاملاً لشروطه.

واستمر تفتيش مكاتب يوكوس، مصحوباً بقوات خاصة، كوسيلة للمزيد من الضغط على يوكوس. وانخفض رأسمال الشركة - الذي كان منذ وقت قريب يبلغ 40 مليار دولار بحلول صيف العسام 2004. وإلى حانسب يوكوس، بدأ السوق الروسي يشهد انخفاضاً في نشاطه الاقتصادي، ففي ربيع العام 2004، خسر السوق الروسي نحو 30 بالماتة، أي مليسارات السدولارات. وبسداً المستثمرون بالهرب من البلد. بينما حافظت الحكومة على هدولها، وكأن شيئاً لم يكن.

أخيراً، في عموز بدأت محاكمة خودور كوفسكي وشريكه بلاتون ليبيديف (26). قام خودور كوفسكي بخطرة أخرى تجاه السلطات وعرض تقدم 44 بالمالسة مسن الأسهم التي بملكها في الشركة للبيع بفية دفع ديون الشسركة. لكسن المسلطات تجاهلت عرضه. سعر الصحفيون من الأمر وقالوا بأن يوكوس ستصبح شفافة إلى درجة ألها ستختفي كلياً. وفي هذا الخصوص، ذكر بروس ميسامور، المسؤول المالي في الشركة، بأن "تصرفات الحكومة الروسية دفعت الشركة الروسية الأكثر موثوقية للي حافة فقدان القدرة على دفع ديولها وربما إلى حافة الإفلاس (27). وبذلك بدا أن تحويل ملكية وإدارة الشركة إلى عمثلين عن الحكومة أمراً عتوماً. والسوال هو كيف سيتم ذلك، من خلال إفلاس الشركة أم من خلال شيء آخر. ونتيحة للله الخلوم القادرون على الشراء اهتمامهم بالأمر، حيث بدأ بعض المستمرين الفسريين الفريارة موسكو بشكل متكرّر، بانتظار الفرصة المناسبة للحصول على قطعمة مسن إمراطورية يوكوس. يبدو أن محنة شركة النفط الروسية لم تثبط من عزيمة كل الأوساط الاقتصادية الغربية، حيث أبدت على الأقل بعض الشسركات النفطيسة المؤربية الكبرى استعدادها للاستثمار في بيئة خطرة من الناحية السيامسية، دون أن النفطيسة انعدام الضمانة في البلد.

في لهاية تموز العام 2004، قرّرت الحكومة بيع ياغانسكنيفتغاز - الشركة الأسامية في يوكوس، التي كانت تنتج 60 بالمائة من النفط الإجمالي للشركة - من أحل تسوية الديون الضريبية. لولا هذه الشركة، لكانت يوكوس في ورطة حقيقية. والآن أصبح السوال هو، من سيحصل على بقايا إمبراطورية خودوركوفسكي النفطية? لم يكن ثمة شك بألها ستذهب إلى موسسات قريبة من الكرملين. في تلك الأثناء، قرّرت السلطات الروسية استحار شركة غربية، هي دريسدنر كلينوورت واسيرتسن، من أحل تقييم الممتلكات الأساسية ليوكوس، ومن أحل إنتاج انطباع لدى الناس بعدم تحيّزها. لكن هذه كانت إشارة واضحة إلى رغبة بوتين بالحفاظ على المظاهر، التي لم تعد تفش أحداً أصلاً.

على أي حال، يتبين لنا من خلال طريقة سير الأحداث بأنه لم يكن هناك اتفاق ضمن يوكوس وكذلك ضمن الحكومة حول كيفية التصسرف. فبعد زج خودوركوفسكي في السحن، فقدت الشركة توازلها، لأن كل شيء في الشسركة كان يعتمد على رئيسها، الذي أسسها وفق أسلوب حكم الرحل الواحد. وهذا ما فحر النزاعات والتناقضات ضمن مجلس الإدارة، وبين مجلس الإدارة والمسدراء

حول كيفية الاستمرار (28). لقد سببت الشركة المقطوعة الرأس عدة مراكز للنفوذ، وفقدت القدرة على المقاومة. لكن النظام أيضاً لم يكن يملك خطة لما سبغمله مسع هذه الشركة القابضة. صحيح أن الكرملين كان هو من أعطى الأمسر – وذلك واضع – بالهجوم على خودور كوفسكي، إلا أن تفاصيل الحملة على يوكسوس لم تكن منسقة. فبعض الأعضاء في الحكومة حاولوا استغلال المشكلة الضريبية مسن أحل إرغام خودور كوفسكي على إطاعة قواعد الكرملين. وكان البعض الآخر، إلى حانب شركاتهم الشركاتيين، يلهث وراء أملاك الشركة. بينما كان آخرون يحلمون بتأميمها. نفس الاضطراب الذي كان موجوداً ضسمن يوكسوس كان موجوداً ضمن الحكومة (29). إن غياب التنسيق بشأن يوكوس، ووجسود مواقف متباينة اتجاهها داخل الكرملين دفعا بالمراقبين إلى الاستنتاج بأن الرئيس فقد سيطرته على حاشيته ينعن الأمر لم يكن على هذا النحو. كان بوتين متردداً حسول مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على المسائة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيطرة على مسألة أي محموعة في حاشيته ينبغي أن تحصل على الجائزة؛ أي السيفة.

في تلك الأثناء أكّد تعين إيغور سيتشين، حليف بوتين الوثيق، رئيساً لجلس إدارة شركة روزنيفت الحكومية بأن رفاق بوتين كانوا قد بدأوا تحويسل نفوذهم السياسي إلى نفوذ اقتصادي. كان فريق بوتين يسعى للسيطرة علمى "المقسدرات الاستراتيجية"، لأن الدولة، من وجهة نظر أعضاء الغريق، هي الوحيدة القادرة على الاستراتيجية أن الدولة، ولكن، كان هناك دافع التحكم بالموارد الطبيعية، المصدر الأساسي لميزانية الدولة. ولكن، كان هناك دافع الموتر أيضاً: أن يضمنوا لأنفسهم موقعاً مفيسداً في الصسراع على السلطة في الانتخابات التالية(31). بالطبع، كان الهدف هو السيطرة على الموارد الطبيعية السي الانتخابات التالية (10 من يبدو أن القاعدة القديمة للتطور الروسي لم تستغير: لطالما ترافق تغيير مواقع النخبة في روسيا مع إعادة توزيع الأملاك. لم يعتمد فريستي لولما التقاعدة في ولايته الأولى، وعلى ما يبدو كان مستعجلاً لتحقيستي بوتين على هذه المرة. لقد كتب أحد الصحفين "كلهم كانوا يضعون نصب أعينسهم التحول إلى الأعمال التحارية الخاصة، والسؤال الأهم هو ما إذا كانست روسسيا التحول إلى الأعمال التحارية الخاصة، والسؤال الأهم هو ما إذا كانست روسيا ستشهد ظهور أي نخب حديدة قبل العام 2008 (32). وعلاوة على ذلك، كانست ستشهد ظهور أي نخب حديدة قبل العام 2008 (32). وعلاوة على ذلك، كانست ستشهد ظهور أي نخب حديدة قبل العام 2008 (32).

هناك إشارات أخرى تدلَّ على أن التحضيرات كانت تسير على قدم وساق مسن أحل جولة جديدة من الخصحصة. فقد وافقت الحكومة على بيع حصة الدولسة في شركة لوكويل، وثمَّت أخيراً المصادقة على قرار خصحصة شركة ليروفلوت. كان المسؤولون الجدد مستعدين لكي يصبحوا متنف ذين جدد، ويوكوس كانت واسطتهم الأساسية لتحقيق ذلك.

لقد أظهرت المسرحية التي دارت حول إمبراطورية خودور كوفسكي بأن السلطات كانت تعاني من صعوبات في إعادة توزيع الأملاك، ولقد كانت ما تزال تبحث عن طرق لتبرير ذلك. على أي حال، حتى صيف العام 2004، لم يكسن بوتين قد قرّر بعد كيف سيتم تنفيذ السيطرة على يوكوس؛ بأن يجعلها شركة نفط وغاز حكومية قابضة حديدة تنوي غازبروم تكوينها، أو شركة شبه حكومية، أو شركة خاصة ولكن موالية للنظام؟ و لم يكن مؤكداً أية بحموعة في الفريق الحاكم ستفوز في المعركة على الموارد الطبيعية الاستراتيجية. لكن المؤكد في الأمر هو أن الصراع حول يوكوس، وحول إعادة توزيع الأملاك في المستقبل قد قسم حاشية بوتين. كانت يوكوس ساحة المعركة التي ستقرّر التوازن المقبل للقوى السياسية، والعلاقات بين النظام والشركات التجارية.

إن تطهير الساحة النعبوية الروسية لم يكن يعني أن السلطات الفدراليسة ستعامل المستثمرين الأحانب بنفس الأسلوب. أظهر بوتين اهتمامه بالاستثمار الأحني وبدا بأنه – في بعض الحالات – يفضل التعامل مع الشركات الأحنية، التي لم تكن لديها طموحات سياسية. كان هناك شرط واحسد لكسي تعمسل الشركات الأحنبية بأمان في روسيا: عليها أن تحصل على موافقة الرئيس على الصفقة (33).

يبدو أن خودوركوفسكي نفسه أدرك بأنه فقد يوكوس. والآن، أصبح مصيره الشخصي في خطر. في تصريحه أمام المحكمة، وعد خودوركوفسسكي: "سأثبت بأن التّهم لا أساس لها من الصحة" ولكن، لم يعد هناك أحد يهستم بأدلته. ق 4 عوز من العام 2004، بعد تأحيلات كثيرة، احتمع بوتين أخيراً مع ممثلين عن الشركات الكبرى. كان هذا اللقاء عتلفاً بشكل ملفت للنظر عن اللقاءات السابقة التي جمعت بين الرئيس وكبار الأثرياء. ففي السابق، كان هؤلاء يجلسون حول مائلة مستديرة كبيرة في واحدة من أكثر القاعسات فعامة في الكسرملين ويتبادلون النكات. وكان بوتين يدور عليهم ويصافح كل واحد منهم يسداً بيسد، مظهراً احترامه لهم. وكان يصفي لهم بانتباه وحتى يسمح لهم بمحادلته. لكن بوتين هذه المرق، بعد عقوبة عودور كوفسكي العلنية، اتتخذ أسلوباً مختلفاً. حجمع الأثرياء في فرفة متواضعة وتركوا ينتظرون. وعندما دخل الرئيس، لم ينظسر إلى أي منسهم وحلس في منتصف أحد حوانب طاولة مستطيلة مقابل رحال الأعمال العسامتين المصطفين في الجانب الآخر. بدأ بوتين الاجتماع بتهذيب ولكن ببرود، عسدقاً في عاوريه. وأمام نظرته المتفرسة التي لا تطرف، أصابهم الضعف والتسردد. يسالأمس القريب فقط، كان هؤلاء هم الأكثر نفوذاً في روسيا، والآن يبدون كأطفسال في المدسة سُمح لهم بالدخول إلى غرفة استراحة المدرسين 160، إن شكل وأسلوب الاجتماع قصد منهما إظهار أن الرئيس تنازل وقيل استقبالهم من أحل إعطائهم الاجتماع بعد التي بدت مثل الأوامر.

أثار اللقاء شكوكاً بأن الكرملين كان ما يزال مهتماً بسياسة التنسيق مع الشركات التحارية، أي أنه كان يتعامل مع المنظمات التحارية كشركاء أساسيين في النظام (35). في المراحل الأولى من رئاسة بوتين، كانت الحكومة تدعم المنظمات التحارية؛ وخاصة الاتحاد الروسي للصناعين والمقاولين، السذي كان يرضي الكرملين لأنه كان يسيطر على الشركات التحارية، وفي نفس الوقت كان مفيداً للشركات لأنه كان يمثل قناة للتواصل مع النظام (36). ولكن، سرعان ما تبسين أن الكرملين استبدل أسلوب الحوار بأسلوب الفرض والأمر. ولم تكسن المنظمات التحارية، بسبب تناقضالها المداخلية وتنوع مصالحها، قادرة على لعب دور الشريك الصغير للنظام بشكل حيد.

وفي الوقت نفسه، أوضح الفريق الحاكم بجلاء أن مبدأ المسافة المتساوية، الذي أرساه بوتين في السابق كنموذج لسلوك الشركات التحارية، لم يعد مناسباً. وعلى هذا الأساس، وضع سيرجي ستيباشين، رئيس غرفة تنقيق الحسابات، أسلوباً جديداً لسلوك رحال الأعمال؛ فأصبح رجل الأعمال "الصالح" لا يتحتّب السياسة ويدفع الضرائب فقط، بل يشارك في المشاريع الاجتماعية للدولسة (37). وهكذا، اندفع كل رحال الأعمال الكبار للبحث عن "مشاريع اجتماعية مسلوولة" كسي تتركهم السلطات وشأغم ويجبهم الشعب أكثر، فخرجوا بأفكار خوريسة، مشل مساعدة دور البتامي وبناء بجمعات رياضية. وكانت هذه المقترحات تجمعها صفة محيزة واحدة: كان التمويل – غالباً – يأتي من صندوى الشركة، وليس من الأملاك الشخصية لرجال الأعمال.

____<u>_</u>

على أي حال، لم يكن بوتين قد حدد موقفه بشكل نائي تجاه الشركات التحارية. كان واضحاً عدم حبه للأثرياء المتنفذين، لكنه كان يدرك بالهم القوة المحركة للاقتصاد الروسي. ولم يقرّر بعد ما إذا كان سيحعل من قضية يوكوس المعيار أم الاستثناء. فإذا كانت تلك القضية تمثّل بداية لممارسة تقليدية، فمسن سيكون الضحية التالية بين "المتنفذين"؟ وهل ستقف السياسة التدخلية عند حلة الموارد الطبيعية أم ألها ستتوسع إلى بحالات اقتصادية أخرى؟ صحيح أن بوتين استمر في وحهته الليرالية، إلا أن قضية يوكوس أوحدت شكلاً جديداً من المنطق سبكون من الصعب إيقافه.

ولم يقرّر بوتين كيف سيتعامل مع الخصخصة: ما إذا كان سيحعلها شرعية بشكل كامل؛ مرغماً الأثرياء على دفع بعض الضرائب على الأملاك التي حصلوا عليها بشمن بخس، ومعيداً التفكير في مشاريع الخصخصة الأكثر إثارة للربية؛ أو إذا كان سيحافظ على خموض موقفه من الخصخصة، مبقيساً الأثريساء "المتنفذين" معتمدين بشكل كامل على إرادة النظام. لقد كان متردداً.

مليار دولار فقط من الخصاصه، في حين أن شركة سيينيفت السي بملكها أبراموفيتش وحدها خسرت من قيمتها 1.5 مليار دولار. كان واضحاً أن المحاسبين بقللون من قيمة خسارة الدولة من الخصاصة. ثانياً، قال المحاسبون بأن الأشخاص المذنبين في قضايا خصاصة غير شرعية، في 89 بالمائة من الحالات، كانوا مسؤولين حكوميين وليسوا رجال أعمال. وهذا الاستنتاج قوص ثورة الكرملين على العلبقة المتنفذة من أساسها. لم يكن الرئيس، فيما يبلو، مستعداً للقيام بإجراءات واسعة النطاق ضد الأثرياء، على الأقل في صيف العام 2004. لكنه، مع ذلك، لم يكسن مستعجاً لوضع حد للماضى المضطرب.

في تلك الأثناء، طالب رئيس غرفة تدقيق الحسسابات، ستيباشسين، باتخساذ إجراءات حاسمة ضد "المتنفذين"، كان منها اسستعادة ممتلكساتهم. وقسد هساجم ستيباشين أبراموفيتش بشكل محاص، لكن بوتين لو وافق على التحقيق مع أقسرب أصدقاء عائلة يلتسين، لوحدت غرفة التدقيق نفسها خارج اللّعبة. على أي حسال، فبوتين لم يمنح ستيباشين الحرية المطلقة. كان بوتين ما يزال يفكر (أسلوبه المعتاد). لكن غموض موقفه هذا وسع المجال أمام إجراءات البيروقراطيين الفاسدين السذين البيروا الشركات التحارية الروسية، فهربت من البلد وأخذت أموالها معها بعسد أن فقدت ثقتها في المستقبل (180).

تسبّب سياسات الكرملين تجاه الشركات التجارية الكبرى خلال العام 2004 بالصداع للمراقبين. فالدولة، من جهة، زادت من سيطرتها على الاقتصاد، حيست استعادت غازبروم الأملاك التي سبق لها أن باعتها. وأعلن رئيس غازبروم، ألكسي ميلر، عن تكوين شركة غازبرومنيفت، التي سندير الموارد الطبيعية الاسستراتيجية. وأوقفت اللولة خطة تشوبايس لإعادة هيكلة شركة الكهرباء الروسية RAO . UES. وفوق كل ذلك، كانت تحاول علناً السيطرة على يوكوس. ولكسن، مسن جهة أخرى، وافق بوتين شخصياً على بيع جزء من أسهم اللولة في شركة لوكويل لشركة مستثمرة أميركية، هي كونوكوفيلييس. كما ثم نشر قائمة بالشسركات التجارية المملوكة من قبل الدولة التي تعرضها الحكومة للبيع، عما فيها أسسهم سفيازينفيست وأيروفلوت، الأمر الذي يثبت استمرارية عملية الخصخصة. هذه السياسة المتناقضة أنتجت انطباعاً بعدم وجود تنسيق في الإدارة فيما يتعلق بقواعد اللُّمة. وهكذا استمر الجدل حول دور الدولة في الاقتصاد وفي الحسق في الملكيسة الحاصة.

أما كيف ستردّ الشركات التحارية على الوضع الجديد، فهذا لم يتقرّر بعـــد. ف ذلك الوقت، حاول المتنفذون الذين لم يكونوا يشعرون بالأمان مهادنة السلطة التنفيذية، وإثبات ولائهم للنظام وكل أعضائه. وهـــذا لم يـــزد إلا مـــن اتكـــال "المتنفذين" على السلطة؛ مع كون الفساد هو النتيجة الحتمية لهذا النوع من العلاقة. والمرء هنا لا يمكنه استبعاد الخيار الذي قد تتحذه الشركات التجارية الموسية في سعيها للأمان، وهو التحوّل إلى الأجهزة الأمنية لحمايتها، وعقد تحسالف حديسة وعطير بين المال والإكراه. وهذا التحالف قد يتعذ اتجاهين مختلفين: ضد المشاعر الشعبوية في المحتمع، وفي الوقت نفسه ضد زعيم إصلاحي قد يحاول تطبيق قواعسد أكثر شفافية للُّعبة، رافضاً الصفقات القديمة بين جهاز الدولة والمال. وهذه الطريقة ستجعل الشركات التجارية من نفسها أكثر اعتماداً على القدوة والبيروقراطية، وستصبح أقل حصانة. أما الطريقة الأخرى، فهي أن تحرّر نفسيها مسن الخطيشة الأصلية المتصلة بمولدها في التسعينيات، وتربط نفسها بأجندة إصلاحية، وتتقسله باتجاه المجتمع المدنى، وتبنى علاقة حديدة مع السلطة. وفي هذا الخصــوص، كــان ستيفين سيستانوفيتش محقاً عندما بيَّن بأن مستقبل التعددية السياسية في روسيا سيعتمد قبل كل شيء على الخيارات التي تتعلها الشركات التحارية الروسية. لقد أوضح سيستانوفيتش "من بين كل القوى المحتملة في الحياة السياسية الروسية، يملك 'المال' القاعدة المادية الأقوى والشكوك الأكبر بخصوص شرعيته. أما كيف سيحلُّ هذه المعضلة، فهذا سيخبرنا ما إذا كان النظام السياسي الروسي قد اكتسب شكله 'النهائي' ما بعد السوفياتي أم لا". وأنا لا يمكنني إلا أن أوافق على هذا الكلام(39).

 في 9 أيار من العام 2004، اغتيل الرئيس الشيشاني أحمد قاديروف، في عملية مدبرة. كانت هنالك 17 محاولة سابقة لقتله. ولكن، هذه المرة نجحست، حيسث

انفحرت قبلة وُضعت تحت المقاعد في ملعب كان يحضر فيه عرضاً احتفالياً علمى شرف انتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية. لقد قتل الانفصاليون رحلاً عمسوباً على موسكو في عيد وطني روسى، يوم يُعد مصدر فحر للأمّة. وبـــذلك، أراد الانفصاليون أن يجعلوا من هذا اليوم مصدر ذل لروسيا.

لم يكن هذا القتيل رجلاً عادياً أبداً. فبعد أن أعلن الجهاد علسى روسيا، في العام 1995، داعياً المسلمين لقتل الروس أينما وُحدوا؛ والذي قسال ذات مسرة، "هناك مليون شيشاني، و 150 مليون روسي. فإذا قتل كل شيشاني 150 روسياً، فسننتصرا، يُمنَح المحاهد السابق بعد وفاته، في العام 2004، وسام بطل روسيا. في بعض الأحيان، بدا الأمر وكأن بوتين كان يثق به أكثر مما يثق في جنرالاته بالذات. فقد ملم قاديروف، بدلاً من حاشيته، مهمة الإشراف على المساعدة المالية السين كانت تتلقاها الشيشان. ومن هذا المنطلق، يُعتَر مقتل قاديروف ضربة مباشرة لبوتين وسياسته، ششتنة الجمهورية.

لم يكن قاديروف محبوباً. صحيح أنه كان مرهوب الجانب، إلا أنسه كسان عترماً. ولهذا السبب، سلم القادة العسكريون الشيشانيون أنفسهم له ووثقسوا في كلمته. وإضافة إلى ذلك، فقد نجمع في جلب العديد منهم من موسكو، ودافع عسن استقلال الشيشان، ومنع الحرب الأهلية من الانتشار. ولكن، بعد رحيل قاديروف، أصبع هناك عطر في أن تتحول المقاومة الشيشانية إلى حركة جماهيرية مرة أحرى.

كانت موسكو بحاجة لإجراء انتخابات جديدة وإبجاد خليفة لقداديروف مستعد للعب دور المتهور. لكن موت صنيع موسكو المبلب حطّم كل الأوهدام بقدرة أي شخص على قدئة الأوضاع في الشيشان. مازلت أذكر تقريراً إحباريساً تلفزيونيا تُقل من الكرملين عندما استقبل بوتين ابن قاديروف، رامزان، رئيس حراسه الشخصين. كان جيء رامزان إلى الكرملين عاجلاً إلى درجة أنه لم بملك الوقت الكافي لنفير ثيابه. إن المنظر الذي جمع الشاب غير الأنيق - السذي بسدا كلم شوارع ببذلته الرياضية المجعدة - مع بوتين الشاحب والمرتبك في غرف الكرملين المظلمة كان أكثر إثارة للقلق من أي تعليق: كان واضحاً أن الفريسق الحكوم لم يكن يعرف مؤان ميفهل مع الشيشان وشعبه.

كانت الحلول لمشكلة الشيشان تنهال على بوتين من كل الجوانسب. لكسن معظم الضغط حاء من السيلوفيكي، التي دفعت باتجاه إقامة حكم رئاسي مباشر في الشيشان. وفي هذه الحالة، ستسيطر الأجهزة الأمنية على المساعدة المالية الآتية من موسكو. لكن بوتين قاوم الضغط، وراهن مرة أعرى على الششنة، داعماً علسو ألحانوف (41 عاماً)، وزير داخلية الشيشان وواحد من جماعة قاديروف، كمرشح لرئاسة الشيشان.

في غضون ذلك، وحمّ الانفصاليون ضربة أحرى، منفذين غارة على أراضي إنغوشيتيا، في تكرار لسيناريو الهجوم على بوديونوفسكا قبل تسع صنوات. وفي ليلة و حزيران (يوم رمزي آخر بالنسبة لروسيا، ذكرى الفرو النسازي للاتحاد السوفياني)، دخلت وحدة كبيرة من الجنود مدينة نازران وعدّة مدن إنغوشية أعرى. سار "الجاهدون" في الشوارع علناً مردّدين "الله أكبر!" وقاد الهجوم شامل باسيف، الذي وحد منسعاً من الوقت لتسجيل مقابلته التلفزيونية في مستودع للأسلحة تم الاستيلاء عليه. عندما سمع رحال الأمن صوت إطلاق النار، هرعوا إلى المكان، فوقعوا في الفخ الذي نصبه لهم المتمردون الذين كان العديد منهم يرتسدون الزي العسكري الروسي. وما إن انتهت العملية حتى تسلّل المنفذون إلى الغابة واختفوا فيها. بعضهم عاد إلى هويته السابقة كمدي مسالم. وقُتل نتيجة الهجوم 80 رحل أمن والكثير من المدنيين. وهكذا، أخذت القوات الفدرالية على حين غرّة ثانية.

من سخرية الأقدار، أن وزير الدفاع الروسي سيرجي إيفانوف، كان في ذلك الوقت في أقصى شرق روسيا، يشرف على تدريبات لكيفية محاربة الإرهابيين. كانت المناورات ناجحة، لكن القتال الحقيقي مع الإرهابيين لم يكن كذلك. طسار الرئيس إلى نازران على الفور وجال على المناطق التي وقعت فيها المذبحة. كسان يدرك بأن هجوم باسيف الأخير كان بمثابة هزيمة شخصية له، لكنه لم يكن قادراً، فيما يبدو، على تغير سياسته في الشيشان، على الأقل في الوقت الحاضر.

مع ذلك، فبوتين كان مرغماً على الردّ على الفشل، وردّ وفــق الأســلوب التقليدي للكرملين: طرد القادة العسكرين المسؤولين عن الشيشان، بمــن فــيهم

رئيس هيئة الأركان القوي، الجنرال أناتولي كفاشنين (40). وبذلك اتبع بوتين نفس النهج الذي اتبعه يلتسين، الذي كان يغيّر الأشحاص المسؤولين عن الشيشان مراراً وتكراراً، بدلاً من تغير سياسته.

بالرغم من أن الشيشان لم يكن يسمح لروسيا بنسيان وجوده، إلا أن النعبة الحاكمة الروسية كانت تعرف القليل عما كان يحدث في القوقاز الشمالي. كان الواقع الشيشاني يتسبّب بصدمة كل السياسيين الذين يروه عن قرب. وهذا ما حصل مع غريف الذي ذهب إلى هناك للمرة الأولى مع بوتين في أيار مسن العام 2004، حيث قال مستغرباً: "لا يبدو الوضع بهذا الشكل الكارثي على التلفزيون". وعندما صادفت سيارته فجوة على الطريق الرئيسي في غروزي، قال: "أعط الأوامر بترميم كل هذه الفحوات على الفور". لم يكن يعرف بأن اللّغم الأرضسي التالي سيحدث فحوات أخرى في الطريق المرمّم.

يظهر أن النظام الروسي كان يقوم بكل ما من شأنه جعل الشيشان أكتسر حقداً على روسيا. ففي نيسان عام 2004، برَّأت المحاكم الروسية أربعة ضباط في سبيتسانسز كانوا قد أعدموا أربعة مدنيين شيشانيين. وفي حزيران برَّات محكمة الاستعناف ضابطين روسيين قتلوا ثلاثة عمال بناء شيشانيين لألهم كسانوا مسئوين للارتياب. تلك المحاكم كانت تولَّد المزيد من "الأرامل السود" الشيشانيّات، اللواتي كنّ ياتين إلى موسكو وهن يرتدين الأحزمة الناسفة، ويفحّرن أنفسهن بين المسارّة الأبرياء.

حُدَّد موعد الانتحابات الرئاسية التالية في الشيشان في 29 آب عسام 2004. ولكن، قبل فتح صناديق الاقتراع بوقت قصير، هاجم نحو 300 متمرَّد عدداً مسن مراكز الشرطة في غروزي. لقد فاجاً الهجوم القوات الفدرالية وقسوات الأمسن الشيشانية الموالية لموسكو، وأوقع فيهما العشرات من القتلى، من بينهم مسدنيون، وهذه كانت رسالة تحذير أرسلها الانقصاليون إلى موسكو والمسوالين لها قبسل الانتخابات. وبعد عدة أيام من الانتخابات الرئاسية الشيشانية، تعرَّضت روسيا لمحوم إرهابي آخر، حيث تم تفجر رحلتين جويتين داخليتين في وقت واحد قُتسل فيهما 90 شخصاً، وبدت العملية وكألها محاولة لتقديم "9/11" روسية. وعلى أشر

غير أن هذه الهجمات الرهيبة لم تغيّر من المعطط السياسي المقرّر للشيشان؛ فلقد انتُحب علو ألخانوف، كما هو متوقّع، فائراً بحوالي 47 بالمائة من الأصسوات. لقد تعلّمت موسكو والجماعات الموالية لها في الشيشان كيف تضسمنان حصيلة الانتحاب. لكن مرشح الكرملين، ألخانوف، رجل مدان مسبقاً، مثل سلّفه، مسالم يتمكن من وضع حد لحتمية المأساة الشيشانية، التي تصيب أولئك الذين يحساربون روسيا وأولئك الذين يخدمولها. في هذه المرحلة من المحازر الشيشانية التي لا تنتهي، بعدت ششنة العملية السياسية - أي نقل السلطة بشكل تسدريجي إلى شيشسانين موالين للكرملين - بألها الحل الممكن الوحيد، أو على الأقل الحل الواقعي الوحيد. لكن هذا الخيار، وفقاً لأناتول ليفنين، يمكن أن ينجح فقط إذا تسوقرت شسروط عددة، أي إذا أحريت مع الششنة عملية تحديث وبناء دولة (١٩٠٠).

المجزن في الأمر أن دوامة العنف واليأس الشريرة لم تتوقف. كان السيناريو الأمثل هو أن ينجح ألخانوف على الأقل في تضييق دائرة الحرب، والبدء بشكل تدريجي في إعادة بناء البنية التحتية الشيشانية المنهارة. لكن السيناريو الأسوأ لم يكن مستبعداً بالكامل أيضاً؛ إذ قد يفشل ألخانوف في السيطرة على الوضع، وقد يؤدي الحكم الوحشي لجماعة قاديروف إلى إثارة المزيد من الإرهاب وإراقسة السدماء. والأسوأ من ذلك هو أن ينضم الانفصاليون الشيشانيون إلى شبكات القاعدة، وأن تتحوّل الجمهورية الانفصالية إلى ملاذ للإرهاب الدولي، وكانت هنائك مؤشرات على بدء تطوّر الإسلام المعتدل والمتسامع في الشيشان في هذا الانجساه (42). وهسذا بدوره سيثير ردّة فعل روسية أكثر وحشية، وهذه المرة بدعم من المجتمع الروسي.

- y. -

والآن، دعونا نلقي نظرة إلى حانب آخر من الحيساة السياسسية الروسسية: الأحزاب. أصيب النظام الحزبي في روسيا بالشلّل بعد الانتخابات. في البداية، بدت

فكرة الكرملين بتكوين حزب منضبط ليكون أداة لتنفيذ السياسة الروسية بأفسا فكرة ناجحة. فقد لعب حزب روسيا المتحدة دوراً ناجحاً في المصادقة على كسل القرارات التي اتخفقا السلطة التنفيذية. إلا أن الحزب لم يكن بملك قاعدة انتخابية مستقرة أو إيديولوجية محددة وواضحة. وإضافة إلى ذلك، فمن خلال استخدام نواب روسيا المتحدة في صياغة قرارات لا تحظى بالشعبية، كان النظام يضمف من موقع حزبه بالذات. ومن هذا المنطلق، فمن المحتمل أن يضطر الكرملين للتفكير بشأن تكوين أداة حديدة للتأثير قبل الانتخابات التالية.

غير أن صورة الأحزاب الأخرى كانت أكثر تثبيطاً للهمم. عقد الليراليسون والشيوعيون مؤتمريهما الحزبين في حزيران وتموز من العام 2004، وهنساك ظهر بوضوح أن النظام الحزي الباقي من عهد يلتسين كان على حافسة الافيسار، إذ إن الصراع بين الليرالين والشيوعيين، الذين دعموا الحياة السياسية في التسعينيات، لم يؤد إلى استنسزاف طاقة هذا النظام وحسب، بل أدّى إلى استنسزاف الحسزين الأساسيين في تلك الحقية.

لكن هذا لا ينطبق على يابلوكو، الذي عقد موتمره في 3 تموز عسام 2004. ففي ذلك الموتمر، حاول المخلصون للحزب - بالرغم من الهزيمـــة القاســـية الــــيق أرغمت حزيهم على الحزوج من الحياة السياسية والدخول في حالة من البـــأس - إيجاد طريقة محترمة للحفاظ على الذات. للمرة الأولى، ظهرت بحموعة معارضـــة ضمن الحزب، لكن يافلينسكي تصرّف بحكمة، فبدلاً مــن دفعهـــم إلى خـــارج الحزب، أكّد بأن وجودهم يعكم قابلية الحزب للاستمرار.

كان يابلوكو يعقد موتمره في أوقات اجتماعية صعبة. لم يكن ثمة شك بأنسه كان سيلحاً إلى فلسفته الليبرالية الاجتماعية. ولكن، ما لم يكن واضحاً هو قدرتسه على التعبير عن مصالح الفئات الاجتماعية التي ستنعكس عليها نتائج هذه الفلسفة. في الواقع، كان أعضاء يابلوكو يعرفون بأن ظهور مشاعر السخط في المجتمع كان حتمياً، ولهذا السبب بدأوا بالاستعداد لها، محاولين التحرك باتجاه موقسف أكتسر معارضة للكرملين. لكن ازدواجية موقفهم بقيت على حالها. وقد ظهر ذلك مسن خلال تعين أحد الأعضاء القيادين في الحزب، إيغور أرتيمييف، رئيساً للخدمسة

الفدرالية لمكافحة الاحتكار، إذ أصبح بذلك حزءاً من الحكومة. وهذا الوضع كان يشبه ازدواحية اتحاد قوى الحق (SPS)، حيث كان بعض قادته بهاجمون النظام رغم أن تشوبايس كان حزءاً منه.

أظهر موتمر SPS الذي انعقد في 26 حزيران عام 2004 شلل الحزب الكامل. حتى أن بحرد عمكن الحزب من جمع ما يكفي من الناس لعقد موتمره كان مشار استفراب الكثيرين. كان الحدث الأساسي في الموقمر يدور حول محاولات قادته منع المؤتمر من انتخاب زعيم للحزب. وهذه بدعة أخرى أضيفت إلى البدع الأخرري التي تنفرد بما روسيا: عادةً، تتصارع الأطراف من أجل منصب زعيم الحرزب، في حين أننا نجد قادة SPS يحاولون إثبات أنه من الأفضل عدم فعل ذلك. علمي أي حال، لقد نجحوا بصعوبة في إقناع عملي الحزب بتأجيل الانتخابات، لكنهم اتفقوا على تنظيم انتخابات أولية ضمن الأعضاء والناحبين المشاجين لهم في العقلية مسن على انتخاب زعيم للحزب لاحقاً. وكان الافتقار إلى الزعيم يعني بأن الحزب لسن يكون قادراً على تحديد سياسته أو موقفه من النظام. في الحقيقة، كان الأمر كلسه يعتمد على تشوبايس، الزعيم الحقيقي والممول الأساسي للحزب، الذي لم يكن قد قرّر بعد دوره في الحياة السياسية. ولكن، مع تبني الجناح اليميني في حزب روسيا المتحدة لأفكار SPS الليرالية، لم يتي للأخير مكان في الحياة السياسية.

تشير بيانات استطلاعات الرأي إلى أن الروس، بعد انتخابات 2003-2004 كانوا ما يزالون عبطين من الحزيين الليراليين السنمقراطيين الموحسودين. ففسي استطلاع للرأي أحرى في شباط عام 2004، وافق 24 بالمائة علسى أن يسابلوكو SPS قد "انتهيا، ولكن هناك احتمال بظهور حزب دمقراطي حديسد سيفوز بالمدعم المناسب"، في حين ذكر 19 بالمائة بأن "هذين الحزبين سيتحدان ويستردان مكانيهما المناسبين في البلد في ظرف عدة سنوات". ومن الجسدير بالسذكر أن 10 بالمائة فقط من المشتركين قالوا بأن "المهقراطية غربية عن النموذج الروسي للحياة السياسية"، و6 بالمائة قالوا بأن "المهقراطية والمهقراطية في روسيا قد انتهيا". فيما لم يكن 25 بالمائة يعرفون إذا كانت هنالك قرص لنحاح المهقراطية في روسيا⁽³⁾.

في روسيا. فيما كان ربع المشتركين تقريباً يأملون بظهور حزب ديمقراطي حديد، لكنهم لم يكونوا يعتقدون بأن أملهم سيتحقّق في القريب العاجل (44). خلال العام 2004، حدثت ثلاث محاولات هامة لتكوين منتديات ديمقراطية جديدة: لجند الخيار الحر-2008، بقيادة بطل العالم السابق في الشطرنج غياري كاسباروف؛ و"عيارنا" بقيادة إيرينا خاكامادا؛ ونادي الحوار الليمقراطي "الخيار السيمقراطي"، الذي أسسه عضوان مستقلان في الدوما، ميخائيل زادورنوف وفلاديمو ريجكوف. صحيح أن هذه المنتديات الصغيرة من المتقفين لم تكن تملك أملاً حدياً في التحسول إلى أحزاب شعبية، إلا ألها على الأقل ساعدت في الإبقاء على الجمر مشتعلاً تحست رماد ما تبقى من الآمال الديمقراطية للتسعينيات.

وماذا عن الشيوعين؟ لقد عُقد مؤتمرهم (في الحقيقة، لم يكن مؤتمراً واحداً، بل مؤتمراً، وحداً، بل مؤتمراً، حيث عقد منشقون في الحزب مؤتمراً خاصاً همم) في 3 تموز عام 2004، وكان مهزلة حقيقية. حرى مؤتمر رفاق زيوغانوف في الظلام، لأن بعسض المسيئين المجهولين قطعوا النيار الكهربائي عن المبنى. وقد شكّلت المشاهد السريالية التالية مادة للسخرية بالنسبة لأعداء الحزب الشيوعي: زيوغانوف يقرأ خطابه على ضوء المصابيح، الظلال المضحكة الملقاة على الجدران لأعضاء اللحنه التنفيذية، أعضاء الحزب التعساء يتحولون في الممرات بحثاً عن المراحيض.

أما بالنسبة للشيوعيين المنشقين، فقد عقدوا مؤتمرهم بشكل مريح على ظهر إحدى السفن وانتخبوا زعيماً جديداً، وهو حاكم مقاطعة إيفانوفو، فلادتمير تيخونوف. سرت إشاعات تقول بأن الانشقاق في صفوف الحزب الشيوعي كان بتخطيط من الكرملين. في الحقيقة، ليس هناك شك بأن انحلال الحزب كان يناسب النظام، الذي كان يخشى من أن يكتسب الحزب الشيوعي طاقة جديدة مع تسامي التوتر الاجتماعي.

لكن الحدث الأكثر مدعاة للسخرية وقع بعد مؤتمري الشيوعيين المتنافسين. دعا بوتين كلاً من الزعيمين المتنافسين وسألهما - وكأن شيئًا غربياً لم يحسدث -عن سير الأمور في الحزب (إما أن الرئيس كان يملك حسّاً غربياً بالدعابة، أو أنه لم يكن مطّلعاً بشكل كامل على التفاصيل التقنية "لعملية مكافحة زيوغسانوف"). اشتكى زيوغانوف لبوتين من إدارته وأحهزته الأمنية، منهماً إياها بمحاولة تفكيك الحزب الشيوعي. يالها من نكتة طريفة بالفعل: زعيم معارض يطلب مسن النظام مساعدته في الحفاظ على حزبه!

في النهاية، أحمد زيوغانوف النار المشتعلة في الحزب واستأنف سيطرته على البياعه. لكن هذا الحزب لم يعد الحزب الشيوعي الذي هدد في السيابق يلتسين، وكان حتى وقت قريب جداً يسيطر على الدوما. حتى الناخبون التقليديون للحزب المشيوعي المتقاعدون - بدأوا بالتحوّل إلى روسيا المتحدة. صحيح أن الحزب الشيوعي كان ما يزال يسيطر على 12.7 بالمائة من الناخبين وأن الوقت كان ما يزال مبكراً لإسقاطه من الحسابات، إلا أن الشيوعيين، إذا أرادوا استعادة ولو حزء من نفوذهم السابق، كانوا بحاجة لتغير زيوغانوف، والتحرّك باتجاه معارضة أشد للنظام.

أما بالنسبة للحزيين الشعبويين القوميين، الحزب الديمقراطي الليمرالي ورودينا، فقد كان الأول يمتلك 5 إلى 6 بالمائة من الناحبين، والثاني مسن 3 إلى 4 بالمائة. ولإيقاف التقلّص في دعم حزيم، حاول قادة رودينا استخدام الشعارات الشعبوية، واتباع سياسة ديمقراطية احتماعية، بفية احتسفاب مويسدي الحسزب الشيوعي ويابلوكو.



يبدو أن الرئيس الروسي لم يكن لديه ما يدفعه للقلق بشأن السياسة الداخلية، إذ أصبح من السهولة بمكان الآن السيطرة على الحياة السياسية الروسية. وإلى أن يأتي العام 2006 (العام الذي يمكننا أن نتوقع بأنه سيشهد صراعاً حقيقياً علسى السلطة) كان باستطاعة الكرملين التلاعب بالمشهد السياسي دون بذل الكثير مسن الجهد. لقد تفككت البنية السياسية التي وُحدت في زمن يلتسين، وتحوَّل أبطالها إلى أشباح ما زالت تطوف حول الساحة السياسية، لكنها فقدت أهيتها بالنسبة للطبقة السياسية والاقتصادية الجديدة. أما التطوَّرات الحاسمة فهي التطورات التي كانست تحدث في المحال الاقتصادي. ولكن، حلف الصورة الوردية للنسو الاقتصادي النشيط الذي تحسده أية دولة صناعية، كانت هنالك مؤشرات مقلقة تبدأ بالظهور.

لقد تبين أن الانطباع الأولي عن حكومة ميعائيل فرادكوف - بألها لم تكن تحسل فريقاً متعانساً، وألها كانت تحتوي في داخلها على مصادر للتوتر - كان صحيحاً، حيث أثار وضع الخطة التمهيدية لميزانية العام 2005 انشقاقاً واضحاً في الحكوسة. وأصبع واضحاً أن رئيس الحكومة والوزراء الليبراليين فيها كانوا علكون أحسدة وقيماً عتلفة، وأنه كان مقدراً عليهم أن يواجهوا صراعات داخل الحكومة. وقسد أظهر سلوكهم خلال العام 2004 بأن أحداً منهم لم يكن مستعداً للتراجع والبحث عن تسوية، الأمر الذي جعل من إمكانية صياغة صياسة موحدة للحكومة أمسراً صعباً، إن لم يكن مستحيلاً. وإضافة إلى ذلك، فقد لعبت الأنا دورها أيضاً، حيث لم يكن فرادكوف راضياً عن لعبه دور "رئيس وزراء تقييّ"، لأنه كان مضطراً للمصادقة على السياسات التي ترسمها الوزارات الأساسية؛ وأولها وزارة التنميسة الاقتصادية، برئاسة حيرمان غريف، المفضل بالنسبة ليوتين. لم يكن فرادكوف مستعداً لتحجيم سيطرة الدولة ودعم المبادرات التي يريدها غريف.

بدا مسار الحكومة المستقبلي بأنه سيكون أشبه بلعبة شــد حبــل متواصلة وسلسلة من التذبذبات. وللدفاع عن مواقفهم، قد يلحــا ألــوزراء إلى السرئيس، وعندها قد يضطر للعب دور الحكم واتخاذ القرارات النهائية، وهو ما لم يكن يحبه. وفي تلك الحالة، سيكون الرئيس - وليس رئيس الحكومــة أو السوزراء - هــو المسؤول عن أحندة الحكومة، وأثناء ذلك، سيعتمد أعضاء الحكومة تكتيك "انتظر وانظر ماذا سيحدث". على أي حال، لعله كان الخيار الأمثل بالنسبة للحكومــة الي لم تكن عملك فرصة لها إلا سنتين، قبل العام 2006، عنــدما ســتبدأ الحملــة الجديدة وقيمن مسألة الخلافة على أذهان الناس.

في تلك الأثناء، في صيف وخريف العام 2004، كان فرادكوف يتحسرًك في انجاهين متعاكسين. لقد ذكر مسألة إصلاح شركة غازبروم، وفي نفس الوقست، أكّد على ضرورة تعزيز دور الدولة في أنشطتها. كما أوقف عملية إصلاح شركة الطاقة RAO UES، لكنه سرعان ما أعلن بأن خطة إصلاحها قد أرحست وأنسه شخصياً سيممل على دفعها قدماً (1).

بعد خيبة أملهما من أفعال فرادكوف، قام حيرمان غريف وألكسي كودرين

ما سيحعلانه نمطاً سائداً للسلوك في المستقبل، فلقد ذهبا لرؤية الرئيس في سوتشي، حيث كان يقضي عطلته، واشتكيا إليه. إن القشة الأخيرة التي أرغمتهما على اتخاذ خطوة رافضة، والمخاطرة بالتسبب بفضيحة علية تمثلت في إصرار رئيس السوزراء على أن تكون نسبة نمو الناتج المحلي الإجمالي في العام 2005: 7.5 بالمائة، بسالطبع، بلون إصلاح صناعات الطاقة والغاز، والنقل، والحلمات الاحتماعية، وحسلمات بلون إصلاح صناعات الطاقة والغاز، والنقل، والحلمات الاحتماعية، وحسلمات الإسكان. رد رئيس الحكومة بالقول بأنه كان يقترح "إصلاحات واقعية، ولسيس أفكار العضوين الليرالين في حكومته. ولدى حديث عسن دور وزيسر التنعيسة أفكار العضوين الليرالين في حكومته. ولدى حديث عسن دور وزيسر التنعيسة قائلاً بأن مهمة غريف الرئيسة هي "إحداث التوترات مع الوزراء". وهنا يبدو حلياً أيضاً كم هي مهمة بوتين صعبة في الحفاظ على هذه الحكومة موحسدة كفريسق أبطأ.

في المجال الاقتصادي، كانت المهمة التي يواجهها بوتين في ولايته الثانية تتمثّل في حلّ، أو على الموارد الطبيعية. في حلّ، أو على الموارد الطبيعية. وهذه المهمة كانت في طريقها لتصبح التحدّي الأصعب بالنسبة إليه. كانست العواقب السلبية للاعتماد على الموارد الطبيعية واضحة تماماً: استمرار السمعي للاحتكار، وزيادة الفساد، وانعدام التساوي في المداخيل؛ كلسها كانست كفيلة بتقويض أي أداء بعيد المدي (45).

كانت القيادة الروسية تواجه بجموعة بنيوية جدية من التحدّيات، والأكتسر أهمية فيها كان الإصلاح الإداري، الذي سيزيد من مسؤولية المحاكم ومن فعالية الطبقة البيروقراطية. كان بوتين يدرك التحدّي، لكنه - نظراً لجهسوده البطيئسة في إصلاح الطبقة البيروقراطية - على ما يهدو، لم يكن مستعداً لإنتاج أعسداء لسه في جهازه الحكومي. والتحدّي الذي لا يقل أهمية عن التحدي السابق يتمثّل في إعادة هيكلة الشركات الاحتكارية التي تسيطر عليها الدولة في قطاعات الغاز الطبيعسي، والكهرباء، والإسكان من أحل تأسيس هيكليات تسمح بالمنافسة. كانت هذه هي

الاختبارات الحقيقية التي يواحهها الرئيس وفريقه، والتي ستحدّد في نهاية المطاف أي نوع من المهام كان بوتين يريد تحقيقه في ولايته الأخيرة.

ومن الأولويات الرئيسة الأعرى كان الإصلاح المصرفي، وتحسين ظروف الشركات الصغيرة والمتوسطة، وتقلع سياسة مالية أكثر فعالية، الأمر الذي كان الشركات الصغيرة والمتوسطة، وتقلع سياسة مالية أكثر فعالية، الأمر الذي كان يعني زيادة الأعلىء قطاع للوارد الطبيعية وتخفيضها على قطاعات الاقتعساد الأعرى. كل هذه الأولويات تقريباً كانت موجودة مسبقاً على أحندة ولاية بوتين الأولى. لكن فشل الحكومة في تنفيذها يمكن عزوه إلى حقيقة أن بوتين مضطراً لإحكام قبضته على السلطة. ولكن، لم يعد له أي عفر الآن، ففي ولايته الثانية، أو أصبح يمسك بكل أدوات السلطة التي يريدها، ولذلك فقد كان أمامه عياران: إما أن يدفع باتجاه الإصلاحات البنيوية أو أن يعترف بأنه، في حال لم يفعل ذلك، يملك أفكاراً أخرى في ذهنه أو أنه لم يستطع التغلب على العقبات؛ وأهمها المسالح الخاصة. إذا كان بوتين يويد الشروع في إصلاح بنيسوي بحسق، فإن حكومة فرادكوف ليست بالأداة المثالية لتحقيق ذلك.

___<u>-</u>___

بالمقارنة مع الفوضى التي تميّزت بها الجبهة الداخلية، بدت السياسة الخارجية الروسية أكثر تنظيماً. عندما قرّر بوتين بوحوب انتهاء الأزمة في العلاقات الروسية مع الاتحاد الأوروبي، فعل ما كان يجب عليه فعله. وتمّ النعامل مع النقاط الرئيسية في النسزاع وكأنه لم يكن هناك أي استياء مشترك وصل إلى حدّ إعطاء إنسذارات لهائية. ففي 27 نيسيان عيام 2004، وقمّست روسيا والاتحياد الأوروبي، في لوكسمبورغ، اتفاقاً يحلّ مشكلة انسداد عبور البضائع بين الجزء الأساسيي مسن أرض روسيا وكالينغراد. واتفق الجانبان على زيادة الكمية المحمدة للمسادرات الروسية من الفولاذ إلى البلدان الأوروبية، وتخفيض التعرفات الجمركية على السلع. كما تعهد الأقروبي بالإشراف على وضع الأقلبات القومية في جهوريسات البلطيق. وهذا يعني بأن حسائر روسيا من توسع الاتحاد الأوروبي ستكون في حدودها الدنيا، وأن بإمكان روسيا ضمان مصالحها بدون هيستويا أو قديدات.

وخلال القمة الروسية الأوروبية الثالثة عشر التي انعقدت في موسكو في 21 أيار عام 2004، تمَّ التأكيد على سياسة بوتين الهادفة إلى تسوية العلاقة بين موسكو وبروكسل. في تلك القمة، وقُّع الجانبان بروتوكولاً يقضى بـــأن يـــدعم الاتحـــاد الأوروبي رغبة روسيا في الانضمام إلى منظمة التحارة العالميـــة (WTO). وهكــــذا أصبح الهدف الذي أراد بوتين تحقيقه منذ مدة طويلة أكثر واقعية من ذي قبا (46). إذ عندما ستماند بروكسل روسيا، فلن يكون بمقدور الولايات المتحدة والصين منع دخول روسيا إلى WTO إلى الأبد. لقد تطلُّب الأمر من روسيا وبروكسل سنة أعوام كاملة حتى تصلا إلى هذه النتيجة؛ بعد حدالات ونقاشسات وأكسواب لا تُحصى من القهوة. لم ينم الوفدان حتى وقّعا الاتفاق. وقد عمل غريف وباسكال لامي، المفوض التحاري الأوروبي، طوال الليل على تسوية كل التفاصيل. وفي نهاية الأمر، وافقت بروكسل على دعم موسكو في المفاوضات من أجل الانضام إلى WTO مقابل وعد موسكو بالمصادقة على بروتوكول كيوتو. وتحت ضغط مسن بوتين، تخلَّى الاتحاد الأوروبي عن "الإنذار الأحير بخصوص الغاز"؛ أي المطالبة برفع أسعار الغاز في روسيا فوراً، وتصفية شركة غازيروم الاحتكارية، وضمان بنماء حطوط أنابيب خاصة لنقل الغاز. ووافقت روسيا على رفع أسعار الغساز المحلسي بشكل تدريجي.

عند توقيع البروتوكول بعد انتهاء المفاوضات بين روسيا والاتحـــاد الأوروبي، إلتفت بوتين، الذي لم يستطع إخفاء ابتسامته المعبرة عن الرضا عمــــا تحقّـــق، إلى رومانو برودي، رئيس المفوضية الأوروبية، وقال بمشاعر ودية رائعــــة، "رومـــانو، شكراً جزيلاً لك". كان برودي على وشك البكاء، فتعانقا، وصفّق الحاضرون.

منذ توسيع الاتحاد الأوروبي في 1 أيار عام 2004، بلغ حجم التبادل التحاري بين روسيا والاتحاد أكثر من نصف حجم التبادلات التحارية الروسية الإجماليسة. تغطي روسيا أكثر من ربع احتياجات الاتحاد من الطاقة. وهذا يُظهسر الاعتمساد الاقتصادي المتبادل بين روسيا والاتحاد، الأمر الذي لا يتوافر في العلاقسات بسين روسيا والولايات المتحدة. لكن روسيا والاتحاد كانا بحاجة لحل العديد من القضايا العملية المتعلقة بالسيطرة على الحدود، والجريمة، والهجرة غير الشسرعية، وإذالسة

الرسوم على الصادرات، وموازنة أسعار حاملات الطاقة. أما بالنسبة لمدى سسرعة حلَّ هذه القضايا، فذلك يعتمد على مدى سرعة روسيا والاتحاد الأوروبي في إيجاد صيغة للشراكة تنسحم مع هذا الوضع.

g.

ولكن، ليس كل شيء في السياسة الخارجية الروسية يسير فسنده الطريقة السلسلة. وعلاقات روسيا مع حورجيا، التي لطالما كانت تشكّل قضية حساسسة بالنسبة لروسيا، خير مثال على ذلك، إذ إلها أصبحت مصدر توتر حسدي. فبعسد تولّي ميخاليل ساكاشفيلي رئاسة الجمهورية، حاولت تبليسي استعادة وحسدة أراضي الدولة، التي فقدتها في التسعينيات. لكن نجاح الرئيس الجورجي الجديد كان يعتمد على روسيا، التي كانت تدعم الحركات الانفصالية في أبخازيا، وأوسسيتيا الجنوبية، وتؤيّد استقلال أدحاريا وكلها أحزاء أساسية من حورجيا.

بدأت تبليسي محاولة ضمّ الأراضي الجورجية في أدجاريا - كان زعيمها، أصلان أباشيدزي، يملك صلات وثيقة مع روسيا - بالتصاون، في البداية، مسع مجموعة محافظ موسكو يوري لوجكوف. معظم المراقبين كانوا متأكدين من أن بوتين، في حال وقوع نسزاع بين زعيم أدجاريا وساكاشفيلي، سيدعم الحليف القديم لموسكو. ولكن، بعد مرحلة من الانتظار، أرسل الزعيم الروسسي رئيس المحلس الأمني، إيغور إيفانوف، إلى باتومي، عاصمة أدجاريا. وهناك، قدَّم إيفانوف اقتراحاً مقنعاً باللحوء السياسي لأباشيدزي لم يكن الأخير يجرؤ على رفضه. وتلك كانت الخطوة الحاسمة التي تجنّبت وقوع إراقة للدماء في الجمهورية الانفصالية، وصحت لساكاشفيلي باستعادة السيطرة على أدجاريا.

كما كان الحال مع الاتفاق الذي تم التوصل إليه في القمة التي جمعت موسكو مع بروكسل، أظهرت التسوية السلمية لمشكلة أدجاريا استعداد بــوتين لاتخــاذ خطوات لا تويدها الطبقة السياسية الروسية. وقد عملت موسكو مع واشــنطن، التي منعت ساكاشفيلي من الإقدام على أي فعل متهور، من أجل حــل النــــزاع الاحجاري. ولكن، لم تكن للشاعر الإيثارية هي التي دفعت موسكو للتسوية مـــع

تبليسي. فالجيش الروسي كان يويد خدمة بالمقابل من حورجيا: اتفاق على توسيع القواعد الروسية في الأراضي الجورجية (47) الأمر الذي كانت ترفضه حورجيسا، مظهرة صراحة نيّتها لطرد الروس من كامل أراضيها. كان بوتين يحاول عدم زيادة حدّة التوتر في القوقاز، لأنه لم يكن يريد تعريض علاقاته مسع الغسرب للخطر، وخاصة مع الولايات المتحدة. لكنه بالكاد استطاع إخفاء مشاعره الحسادة تجساه تبليسي.

قرر ساكاشفيلي، مدفوعاً من نماحه السريع في أدحاريا، متابعة نجاحسه مسن خلال محاولة استعادة سيطرة تبليسي على أوسيتيا الجنوبية. لكن الوضع هنا كسان أكثر تعقيداً. فالأوسيتيون الذين يتذكرون محاولات حورجيا لاستعادة الأراضسي الأوسيتية بالقوة، لم يرغبوا بالعودة إلى حورجيا. كانوا يفضلون البقاء تحت حمايسة روسيا، وهذا مفهوم لأن أوسيتيا الجنوبية كانت تعيش على تجارقا مسع روسسيا، وعلى الرواتب التقاعدية، والإعانات التي تدفعها روسيا.

حرَّك الجورجيون نافدو الصبر الصراع الساكن، الأمر الذي عبًّا على الفسور قادة أوسيتيا الجنوبية. كان الرهان كبيراً بالنسبة لساكاشفيلي، إذ إن مستقبله السياسي برمّته كان يعتمد على هذا الأمر، وهزيمته في العسراع علسى استعادة أوسيتيا الجنوبية قد تشكّل ضربة قاسية لرئاسته. في الواقع، كانت أوسيتيا الجنوبية بحرد خطوة نحو الفوز بحائزة حقيقية: أبخازيا المنفصلة. بيد أن النطورات اللاحقة كانت تعتمد على موقف بوتين، وهذا ما اعترف به ساكاشفيلي شخصياً، حين قال: "أخبرين بوتين بأنه سيسمح لنا بالتدخل في أدحاريا، لكنه لن يسمح لنا بفعل الشيء ذاته في أبخازيا (47). وهذا السبب، كان عليه النفاوض مع موسكو.

ازدادت حدة التوتر بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية في صيف العسام 2004، وبدا الصراع العسكري وشيكاً. ووصل المتطوعون إلى أوسيتيا الجنوبية (معظمهم أبخازيون ومن القوقاز الروس). عندائد، أية حركة طائشة كان يمكسن أن تكسون الشرارة التي تشعل المنطقة بأسرها، فمن غير المحتمل أن تقف أوسيتيا الشمالية على الحياد عند حدوث صراع مسلح بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية. وهذا ما مستفعله كاراتشييفو تشيركيسيا، وأديجيا، والشيشان - كلها أجزاء من روسيا - إذا مسا

حاولت حورجيا استعادة أبخازيا. ومع ذلك، تبادل الجورجيون والأوسيتيون الجنوبيون بالفعل إطلاق النار على بعضهما البعض وحدثت أول إراقة للدماء. كان هذا اختباراً لقدرة موسكو على إيجاد حلَّ سلمي، واختباراً آخر لبعد نظر بوتين وبرودة أعصابه.

لكن بوتين لم يكن قد حدّد بعد أهدافه في القوقاز. لا بد أن بوتين، بصفته سياسياً براغماتياً، كان يدرك حاجة روسيا لأن تكون جورجيا مستقرة. ولهذا السبب، كان يجب حلّ مشكلة وحدة أراضيها. في الحقيقة، لم يكن باستطاعة موسكو الاستمرار في سياسة المعايير المزدوجة إلى ما لا تحاية: من جهة تحساول بسط سيادةًا على الشيشان المتمردة؛ ومن جهة أخرى، تــدعم الانفصــال في الجمهوريات الجورجية المحتزأة. ولكن، من الواضح أن المدوائر السياسية والعسكرية الروسية كانت قد قطعت وعدوداً لمساعدة الانفصاليين في الجمهوريات غير المحددة هويتها. وهنالك أيضاً فئات معينة في روسيا تملك مصالح تحارية في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، اللتين تحولتا إلى ممرات للتـــهريب. وإضافة إلى ذلك، فبوتين كان مرغماً على أن يضع في حسبانه معارضة الطبقة السياسية القوية لتوجّه حورجيا المناصر للغرب. ثم حاءت قلة صبير القيادة الجورجية الجديدة وعدوانيتها لتصبُّ الزيت على النار. وبالمقابل، من الواضح أن بوتين كان يريد تجنّب نشوب صراع قوقازي حديد. وعلاوة على ذلك، فموسكو لم يكن بوسعها تجنّب حقيقة أن غالبية الشعب الروسي كانت تويّسد موقفاً محايداً من حانب روسيا في الصراع بين حورجيا وأوسيتيا الجنوبية: 36 بالمائة من المشتركين في أحد الاستطلاعات كانوا يؤيدون الحياد الروسي، و29 بالمالة كانوا يعتقدون بأن روسيا يجب أن تلعب دور الوسيط، فيمسا أبدى 6 بالمائة فقط تأييدهم للدعم المسكري للانفصاليين (49).

كان الأمر بالنسبة لساكاشفيلي أكثر سهولة مما كان بالنسبة لبوتين، فهو كان يعرف ماذا يريد. أما بوتين، فقد ورث مشاكل لم تفكر فيها روسيا منسل وقست طويل. "يمكننا أن نتعامل مع بعضنا البعض"، قال ساكاشفيلي بعد اجتماع له مسع بوتين. في الحقيقة، لقد آن الأوان لمعرفة إلى أي حدّ سيكون تعاملهما حيسداً مسع

بعضهما البعض. ولكن، حتى لو تمكّنا من إيجاد لفة مشتركة، فقد كانا مرغمــــان على جعل سياستيهما منسحمتان مع مشاعر النخب الروسية والجورجية.



عند هذه النقطة من القصة، ينبغي على أن أعود إلى الظاهرة التي أصبحت لغزاً بالنسبة للمراقبين: "الصيف الروسى "الحار". في البلسدان الطبيعيسة، يكسون الصيف وقتاً للاسترخاء والاستحمام. ولكن ليس في روسيا، ففي كل صيف، كان يحدث فيها شيء ما. وهذه السنة، التي كانت فيها أسعار النفط مرتفعة، حسدت أزمة مصرفية حديدة، للمرة الثالثة خلال أربعة عشر عاماً. ونتيحة لذلك، هحسم المودعون الخائفون على ماكينات صرف النقود الآلية من أحل سسحب أمسوالهم، وتوقّفت المتاجر عن قبول بطاقات الاعتماد. كما امتد الذعر ليصل إلى البنوك التي توقّفت عن إعطاء الناس أموالهم، ورفضت تلبية إلتزاماتها مع البنسوك الأحسرى. كانت روسيا بحق فريدة من نوعها بحصول مثل هذه الأزمة فيها وسط مؤشسرات اقتصادية رائعة.

إليكم ما حدث. طلب البنك المركزي استعادة رحصة أحد البنوك المتوسطة المحجم، وهو سوبديزنيسبانك، لاشتباهه بأنه كان يغسل الأموال (لم يكن الاشتباه من دون أساس). لكن أسلوب البنك المركزي الأخرق في مقاربته للمشكلة أصاب المودعين فيه بالذعر. وعلى الفور، سرت إشاعة تقول بوجود قائمة من البنوك التي سيتم إغلاقها، الأمر الذي أصاب المودعين في البنوك الأحرى بالهلم. ثم وصل الأمر إلى أكبر 20 بنكاً في روسيا، بما فيهم غوتابانك وألفابانك، اللذين دفعا 200 مليون دولار للمودعين خلال بضعة أيام.

صحيح أن البنوك التي لم تكن مستعدة للتحوّل إلى الشفافية، لقسد كانست مسوولة، لكن المسوولية الأساسية في الأزمة كانت تقع على عساتق إدارة البنسك المركزي ومديرها التنفيذي الأول سيرجي إيغاناتييف، الذي لم يتمكن من السيطرة على الوضع في الوقت المناسب. كان يتوجّب على البنك المركزي أن يحلّ مشكلة المصارف غير الموّلة بشكل جيد منذ وقت طويل، لكنه سمح للوضع المضطرب

469

بالتطور⁽⁶⁰⁾. ويعود سبب عدم قدرة البنك المركزي على اتخاذ قرار حاسم إلى دوره المتناقض في السوق الروسية، فهو المشرف والمنظم للنظام المصرفي، وفي نفس الوقت إنه مالك الحصة الكيرى في سبيربانك، أكبر بنك في روسيا.

على أي حال، لقد انتهت الأزمة المصرفية بنفس السرعة التي ابتدأت هدا. حيث عمد البنك المركزي إلى تخفيض المتطلبات الاحتياطية مرتبن، وأصدر فاتورة تضمن ودائد مصل إلى 100,000 روب (3,400 دولار)، واشدى بندك فنيشتورغبانك بنك غوتابانك. حتى أن الرئيس نفسه تدخل في الأمر وهداً مسن روع المودعين. وهكذا هدأت العاصفة - ولكن ليس من دون ضحايا. فالبنوك الحاصة الروسية ستكون مضطرة، من حديد، لإعادة كسب ثقة زبائنها. لكن البنوك الصغيرة والمتوسطة، بالطبع، كانت الأكثر تضرراً بما حدث. أما الرابحون، فهم البنوك الحكومية والمؤسسات المالية التي لها روابط مع الدولة، بالإضافة إلى فروع البنوك الغربية الشهيرة.

لقد أظهرت الأزمة المصرفية الحاجة إلى إصلاح القطاع المصرفي وتطهير البنوك المشبوهة. لكن ذلك يتطلّب إرادة سياسية من القيادة الروسية، وتصميماً من البنك المركزي.

لنعد الآن إلى السياسة الخارجية من جديد. في 12 مموز عسام 2004، التقسى بوتين بالسفراء الروس الذين تم استدعاؤهم إلى موسكو من كل أنحاء العالم. كسان احتماعاً روتيناً، لكنه، في نفس الوقت، كان احتماعاً رمزيساً. في العسادة يقسوم الرئيس في مثل هذه الاجتماعات بتكرار مبادئ السياسة الخارجية الروسية، لكنه هذه المرة، قدَّم العناصر الخمسة الرئيسة في استراتيجية السياسسة الخارجيسة السي صاغها خلال ولايته الأولى. دعونا نتلوها بالترتيب الذي تلاه الرئيس: أولاً، يجب على السياسة الخارجية أن تصبح وسيلة لتحديث البلد. ثانياً، إن العلاقسات مسع على السياسة الخارجية الروسية على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق محسل أولويسة بالنسبة للسياسة الخارجية الروسية. ثالغاً، بقى علاقات روسيا مع أوروبا "أولويسة بالنسبة للسياسة الخارجية الروسية. ثالغاً، بقى علاقات روسيا مع أوروبا "أولويسة

تقليدية"، وردَّ الرئيس على المناصرين لفكرة القوة العظمى بتأكيده على أنه "لسيس هناك بدائل للتعاون مع الاتحاد الأوروبي والناتو". رابعاً، نوَّه بوتين إلى الحاجـــة إلى الشراكة مع الولايات المتحدة. خامساً، البدء بالتعاون مع السدول الواقعــة علمى الساحل الأسبوي من المحيط الهادي من أجل تطوير سبيريا.

أصبحت السياسة الخارجية في عهد بوتين أكثر تحديداً. نقد تخلّى الكرملين عن المعضلتين اللتين كانتا تحيِّرانه: الغرب أم الشرق؟ الحلف الأطلسي أم الاتحاد الأوروبي؟ و لم تتخلّ روسيا فقط عن الادعاءات بحقها في لعب دور أحد القطيين في العلاقات الدولية، وإنما تخلّت أيضاً عن الرغبة في أن تصبح حسراً بين أوروبا وآسيا. "تغفيض التكاليف"، "الواقعية الجديد"، "سياسة متعددة الإنجاهات"، كانت هذه هي المفاهيم التي تسيّر السياسة الروسية. ومن الناحية العملية، كانت المفردات الجديدة في السياسة الخارجية تعني رغبة الكرملين في جعل السياسة الخارجية تعني رغبة الكرملين في جعل السياسة الخارجية تسيحم مع السياسة الخارجية.

في الحقيقة، كانت صيغة بوتين متعددة الإنجاهات تعني أشياء أخرى أيضاً: أولاً، تراجعاً عن اندماج روسيا في المحتمع الأوروبي في المدى القريب؛ ثانياً، علاقة أكثر واقعية بين الطموحات والموارد المحدودة؛ ثالثاً، عدم الرغبة بالمواجهة مسع الغرب؛ ورابعاً، محاولة لضمان دور مهيمن لروسيا على أراضي الاتحاد السوفياني السابق، ولكن من خلال أساليب أكثر مرونة. عرَّف بعض المراقبين صيغة بسوتين بألها محاولة لإيجاد "طريق ثالث" في العلاقات الدولية، طريق لا يسعى للاندماج مع الغرب، ولكنه في الوقت نفسه لا يسمى للمواجهة معد⁽⁵²⁾. أعتقد بأنه كان يفكر روسيا فيما يتعلق بالاستقرار. "معاً ولكن منفصلين" قد يكون الشسعار المناسسب لحاولة بوتين في تلك للرحلة. كان مبتكرو هذه السياسة يشعرون بأن روسيا، بهذا النجح، يمكن أن تتعاون مع بعض الدول، وتبعد نفسها عسن دول أخسرى أو تعارضها، اعتماداً على مدى انسحام تلك الدول مع مصالحها. كتسب ديمشري تعارضها، اعتماداً على مدى انسحام تلك الدول مع مصالحها. كتسب ديمشري نفسها عن الغرب. وأفضل ما يكننا أن نقوله نفسها كلاعب دولى مستقل، مبعدة نفسها عن الغرب. وأفضل ما يكننا أن نقوله نفسها كلاعب دولى مستقل، مبعدة نفسها عن الغرب. وأفضل ما يكننا أن نقوله نفسها كلاعب دولى مستقل، مبعدة نفسها عن الغرب. وأفضل ما يكننا أن نقوله نفسها كلاعب دولى مستقل، مبعدة نفسها عن الغرب. وأفضل ما يكننا أن نقوله نفسها كلاعب دولى مستقل، مبعدة نفسها عن الغرب. وأفضل ما يكننا أن نقوله

471

عن هذا الأمر هو ألها محاولة للعب دور قوة عظمى تحت ظروف معاصرة حديدة". بينما وصف أندرو كوتشينــز الصيغة الجديدة لدور روسيا الدولي بأنــه تفاعـــل أكبر، بدلاً من التكامل، مع الغرب⁽⁵³⁾.

كانت الفلسفة المتعددة الإتجاهات بالنسبة لروسيا المثل طريقة للتكيّسف مسع واقعها الجيوسياسي الجديد في وقت كان تحوّلها الداخلي ما يزال ناقصاً. من المحتمل أن تقرّب سياسة "معا ولكن منفصلين" - وهي موجهة نحو النعاون مع الفسرب في عدّة قضايا اقتصادية وأمنية حساسة - روسيا أكثر من الحضارة الليرالية، ولكسن، من المحتمل أيضاً أن تزيد من الشك المتبادل بين الطرفين. على أي حال، من غسير المرجع أن يكون المجتمع الغربي مهتماً بتشجيع نحضة روسيا طالما ألها تحافظ علسى نظام من القيم غريب بالنسبة للغرب.

<u>پ</u>

خلال الفترة نفسها، بدأت روسيا تسعى بجدية لتحقيق مكانسة لها كقسوة عظمى إقليمية. ولكن، هذه المرة، أراد بوتين تحويه الجوانب الإمبريالية، التي كانت تقلق جوران روسيا والفرب. يجدر بنا في هذا الخصوص أن نذكر اجتماع قسادة رابطة الدول المستقلة (CIS)، الذي ترأسه بسوتين في 19 تحسوز عسام 2004 في موسكو، حيث انتقد الرئيس الروسي، للمرة الأولى، السياسات الروسية تجاه CIS، قائلاً: "من الحظأ أن نظن بأن روسيا تملك نوعاً من الاحتكار على الأنشطة في هذا الحيز " لقد أكد الرئيس الروسي على ما يلي: أولاً، أنه لم يكن مهتماً بتكوين ووقع عظمى في CIS، لقد أكد الرئيس الروسي على ما يلي: أولاً، أنه لم يكن مهتماً بتكوين باستخدام أساليب السوق. من الواضع أنه كان يريد إيجاد رابط حديد بين المصالح الموساسية والمصالح الاقتصادية. لكن الكرملين لم يكن سيتخلى عسن اسستغلال الاقتصادية من أجل تأمين الوجود العسكري الروسي في المنطقة. وحسير مثال على هذا الأمر التعاون العسكري المتحدد بين روسيا وأوزبكستان مقابسل مثال على هذا الأمر التعاون العسكري المتحدد بين روسيا وأوزبكستان مقابسل الاستثمارات الروسية في قطاع الغاز والنفط الأوزبكي.

ويتحلَّى بحث روسيا عن طرق لاستعادة نفوذها في منطقة ما بعــــد الاتحــــاد

السوفياتي من خلال تكوين أشكال متعددة ومتنوعة مسن التعساون الاقتصادي والعسكري مع جيرافا (55). لكن كثرة هذه الأشكال من التعاون بالذات كانت دليلاً على عدم فعاليتها. بالفعل، كانت بعض الاتحادات فارغة من الداخل بسبب تنافر مصالح أعضائها. كان هناك أمر واحد يجمعهم، وهسو أفحسم لم يكونسوا يستطيعون الجلوس على طاولة واحدة مع بلدان متطورة من الناحيسة المسناعية، وهذه الحقيقة أضفت على المشاريع التكاملية في تلك المنطقة طابع المعز. لم تكسن روسيا مستعدة لأن تكون الواهبة لكل جيرالها، وهذا مسا ألغسى رغيسة هسؤلاء بالتكامل؛ إذ كانوا يفضلون إقامة علاقات ثنائية، بدلاً من ذلك.

بالرغم من براغماتية بوتين، لم يكن الكرملين قادراً على تحرير نفسه من الذهنية السوفياتية. الحفاظ على القواعد العسكرية الروسية في جورجيا ضد رغبات تبليسي؛ ودعم القوى الانفصائية في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية؛ ومحاولة التأثير علسي الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا في العام 2004؛ كل هذه الأمور كانست دلسيلاً واضحاً على سعي روسيا للمحافظة على الهيمنة الروسية، الأمر الذي يناقض تأكيد بوتين على تخفيف نفقات السياسة الخارجية. كان ما يزال هناك مناصرون متنفذون لفكرة القوة العظمى داخل المؤسسة السياسية والعسكرية الروسية، و لم يكن هناك أمل في تغيير طريقة تفكيرهم على المدى القريب. صحيح ألهم لم يعودوا يحسدون وحهة السياسة الخارجية والأمنية كان ممكنياً ورسيا في العالم. إن تأثير التقليدين على السياستين الخارجية والأمنية كان بمكنياً لورسيا يلى احتياجات تطورها، وفي نفس الوقت لا يذل الأمة، التي اعتادت على النوسياسيوب عالمي.



إذاً كيف كانت العلاقات تتطوّر بين روسيا وشريكتها الأساسية، الولايسات المتحدة ؟ في لهاية حزيران عام 2004، حصل أمر أظهر موقف الكرملين من الإدارة الأمركية السبتي كانست تحقسق في الأمركية السبتي كانست تحقسق في

473

أحداث 9/11 ذكرت وكالة الأعبار الرسمية، إنترفاكس، بأن "المتعابرات الروسية علمت في بداية العام 2002 بأن قوات عراقية خاصة كانت تخطّط لعمل إرهبهي على أراضي الولايات المتحدة... أعطينا هذه المعلومات عدة مرات إلى شسركاتنا الأميركيين شفهياً وكتابة في خويف العام 2002". لكن هذا التقرير لم يحز علسى القدر الكافي من الاهتمام، ولهذا السبب، بوتين نفسه قال في مسؤقم صحفي في عاصمة كازاخستان، أستانا: "في الواقع، بعد أحداث 11 أيلول وقبل بدء العمليات في العسكرية في العراق، تلقّت الاستخبارات الروسية مراراً معلومات من هذا النوع وأعطتها لزميتها الأميركية" كما نوَّه إلى أن الرئيس بوش شكر شخصسياً أحسد مدراء وكالات الاستخبارات الروسية على المعلومات.

يمكن النظر إلى هذا التصريح على أنه دعم لصديق بوتين بوش عندما كسان يواجه مشاكل حول العملية العسكرية في العراق ومبرراتها. لكن السوال هسو: إذا كانت هنالك حقائق تتعلّق بالخطر الذي يمثّله صدام حسين، لماذا إذن لم يُذكر هذا الأمر خلال المباحثات حول موضوع العراق في بحلس الأمن ولماذا صوَّت روسسيا ضد العملية العسكرية في العراق في بحلس الأمن ولماذا صوَّت وسيعه، قال بوتين بأن موقف روسيا الرافض للحرب في العراق لم يتغيّر. "لحمة إجراءات معترف عليها في القانون الدولي لاستحدام القوة في الشوون الدولية، وتلك الإجراءات لم تُلاحظ في تلك الحالة"، أكد الرئيس الروسي (65). وردًا على تصريح بوتين، أعلنت وزارة الحارجية الأميركية بألها لا تعلم شيئاً عن الوقائع التي ذكرها الزعيم الروسي. حتى كولن باول لم يعلم بمذا الأمر. ومع ذلك، كان الأميركيون يسعون بكل جهسدهم كولن باول لم يعلم بمذا الأمر. ومع ذلك، كان الأميركيون يسعون بكل جهسدهم

ماذا تخيرنا هذه القصة؟ تخيرنا بأن بوتين استفلّ الفرصة ودعم بوش في السباق الرئاسي؛ وسيقوم بذلك في عدّة مناسبات أخرى. وتُظهر لنا تفضيل موسكو التقليدي للرؤساء الجمهوريين وخشيتها من الرؤساء الديمقراطيين. كما تبيّن بسأن الشراكة مع الولايات المتحدة كانت هامة بشكل استثنائي بالنسبة لبوتين. وتخيرنا أيضاً بأن بوتين كان يحاول إيصال رسالة إلى حلقائه في محيط صا بعد الاتحاد السوفياني: "أنا أملك علاقات خاصة مع أميركا. إننا مقربون من واشتنطن. أما

أنتم، فلا تنحرأوا وتحلموا بإقامة علاقات مستقلة مع الأميركيين. عليكم أن تتعاملوا مع موسكو كوسيط". على الأقل، إن توقيت تصريح بوتين والجو الذي حرى فيه يدفعاننا لتفسيره على هذا النحو.

لكن هذا التمبير عن الشراكة حرى بطريقة حيَّرت الأميركيين. وهذا النـــوع من المناورات كان يمكن أن يضع موسكو في موقف حرج لـــو أن بـــوش خــــــر الانتحاب.



كانت روسيا تتحه نحو آب حديد، الشهر الذي غالباً ما كان يجلسب معه المآسي والكوارث للروس. وآب عام 2004 حاء ليوكد أسوا التوقعات؛ كان شهراً سيئاً بحق بالنسبة للشعب الروسي. لقد هزّت الأعمال الإرهابية البلد واحداً تلو الآخر. حيث شنّت العصابات هجمات جديدة على العاصمة الشيشانية، غروزني، كانت حصيلتها عشرات القتلى والجرحي في صفوف القوات الفدرالية وأولسك الموالين لموسكو من الشيشانيين. وأتبع تلك المجمات إسقاط الطار تين المليئتين بالمسافرين، وتفحير في عطة أنفاق موسكو حصد معه أيضاً العشرات من الضحايا. وأخيراً، حاء كابوس بيسلان: استولت بجموعة من الإرهابيين، معظمهم مسن الشيشانيين والإنفوشيين، على مدرسة في مدينة في أوسيتيا الشمالية، واحتجزت ما يزيد عن 1.200 طفل مع آبالهم كرهائن. وانتهت العملية بمقتل عدد كبير مسن يزيد عن 1.200 شخص، معظمهم مسن الأشخاص بالقابل والرصاص، فلقد قُتل أكثر من 300 شخص، معظمهم مسن أو الاطفال، لكن الحصيلة النهائية للقتلى ما تزال غير معروفة حتى الآن ورعا تبلغ 500 أو 600 شخص. كانت أسواء كارثة احتجاز رهائن في العالم؛ أعلسن مسؤوليته أو 600 شخص، كانت أسواء كارثة احتجاز رهائن في العالم؛ أعلسن مسؤوليت الشيشانين.

راقب العالم بفزع الفظائع غير المسبوقة التي طالت الأبرياء من المدنيين. وأثبت "النظام الهرمي الرئاسي" لبوتين بأنه عاجز عن التعامل مع أزمة الرهائن. فقد وصل مسؤولان مقرّبان من الرئيس – نيكولاي باتروشيف، رئــيس الخدمــــة الأمنيـــة الفدرالية، ورشيد نورغالييف مدير وزارة الداخلية – سراً إلى أوسيتيا لكنـــهما لم

475

يأتيا إلى موقع الحدث. كما كان رئيس أوسيتيا الشمالية، ألكسندر دزاسوهوف، المعين من قبل الكرملين، قريباً من المكان لكنه كان ينتظر الأوامر مسن موسكو، ورفض عرض الإرهابيين بالقدوم إلى المدرسة والتفاوض معهم. واحتبا رئيس إنفوشيتيا المحاورة، الجنرال مراد زيازيكوف، وقطع الاتصال الهاتفي. بوتين نفسسه احتار فيما سيفعل إلى أن وقع الأسوا. وبدلاً من التفكير في طريقة لإنقاذ المواطنين الأبرياء، كذب المسؤولون بشكل معيب بخصوص كل شيء: عدد الرهائي، وعدد الضحايا، وعدد الرهائي، وقومياقم (57).

وتجمّد القوقاز الشمالي خوفاً من مأساة إضافية. وبساماً الأوسيتيون - بعسد انتظارهم دون حدوى محاكمة رسمية لأولئك السذين خطّط والكارث يسالان - استعدادهم للانتقام، حيث قال أحد المواطنين هناك: "نحن سنتقم. سستكون هناك حرب دموية!" أتسع الغضب بين الأوسيتين من الإنفوشيتين والشيشانين المحاورين، لأن العديد من المختطفين كانوا من هذين الشسعين. وللعساوة بسين الأوسيتين والإنفوشيين حفور عميقة بعد العبدامات الطويلة التي حدثت في التسعينيات. كما بدا خطر انتقال الصراع إلى الجمهوريات القوقازية الأعرى، بما فيها داغستان المتعدة القومات، محتوماً. باختصار، كان بوتين يواجه تحديات حسيمة في القوقاز الشمالي.

لقد أثبت مأساة بيسلان مرة أعرى أن النظام الرئاسي الفسردي في روسيا عاجز عن معالجة أية أزمة، وأنه يصاب بالشلل عندما تكون هناك حاجة إلى تفاعل احترافي وكفاءة. وهذا ناتج عن مركزة السلطة التي تولّد اللامسؤولية مسن أعلسي مستويات السلطة إلى أسفلها: المسؤولون المحليّون ينتظرون الأوامر مسن الأعلسي، وأولئك الموجودون في الكرملين، بدورهم، ليسوا مستعجلين لتحمّل المسؤولية. لقد أكدت الأحداث التي وقعت في بلدة قوقازية صغيرة ما كان واضحاً منه وقست طويل، وهو أن المسؤولين المحليين المعينين من الكسرملين لا بملكسون النفسوذ ولا الاحترام من قبل مواطنيهم. أما رسلان أوشيف – رئيس إنفوشيتيا السابق السذي أخرجته موسكو من السلطة بسبب سلكوه المستقل – فقد كان هو مسن قابسل الإرهابيين واستطاع تحرير 30 رهينة (معظمهم من الرضّع)، في الوقت الذي كسان فيه الموالون للكرملين في عنابتهم.

في 13 أيلول، بعد المذبحة، ظهر بوتين أخيراً على الهواء. بدا مهزوزاً وشاحباً. كان عليه أن يقرر ماذا ينبغي عليه أن يفعل، بعد أن تعرضت قدرته على القيسادة لا تحتبار قاس. كان باستطاعته استغلال مأساة بيسلان كدافع لإعادة الستغكر في سياسته في الشيشان، ولعللب الغفران من شعبه. كان يمكن للمأسساة القومية أن تصبح لحظة مناسبة بالنسبة له لإعادة بناء قيادته للأمة على قاعدة جديدة. لكنه ظل على موقفه. لم يكن الرئيس يبحث عن الففران، بل كان يبحث عن المستعاص ليحملهم مسؤولية إخفاقه. وفوق ذلك، رفض أي انتقاد لسياسته في الشيشسان، وكان لسان حاله يقول: إن مسألة بيسلان تتعلق بالإرهاب اللولي ولا تتعلق بتائج سياسة.

آكد بوتين "إننا أمام هجوم مباشر من الإرهاب اللولي ضد روسيا". ثم أضاف بأن ماساة بيسلان أظهرت "أننا ضعفاء وأن الضعفاء يتعرّضون للضرب". ولحلفا السبب، ينبغي أن تكون روسيا من الآن فصاعلاً أكثر قوة. وذلك يعني شيئاً واحداً: استمرار الحرب الشيشانية. وتضمّن خطاب بوتين إلى الأمّة أيضاً عبدارة حوهرية، أذهلت كل أصلقاته (شركائه) في الغرب: "بعض الأشخاص يريدون سلبنا قطعة لذيذة من فطيرتنا، وهناك آخرون يساعلونهم. يساعلونهم في ترسيخ الاعتقاد بأن روسيا - بصفتها واحدة من الدول النووية الرئيسة في العالم - ما تزال محلّل قديداً لبعض الناس. ولهذا السبب، يجب إزالة هذا التهديد". كسان بسوتين غامضاً بخصوص هوية أعداء روسيا أولئك. لكن المسؤولين عن حملة الكسرملين غامضاً بخصوص هوية أعداء روسيا أولئك. لكن المسؤولين عن حملة الكسرملين الدعائية سرعان ما سيوضحون من كان يقصد الرئيس.

وقال بوتين أيضاً بأنه لن يكون هناك تحقيق على في الأحداث؟ تماماً كما لم يكن هناك تحقيق على في حادثة المسرح في موسكو في تشرين الأول عسام 2002، ومأساة الغواصة كورسك. استمرت السلطات الروسية – عاولة إنفاذ هيبة الدولة – في الإبقاء على حقيقة خلفية هذه الكوارث الوطنية الروسية طي الكتمان. يبدو أن الحقيقة كانت صادمة إلى درجة ألها كانت ستغير موقف الشعب الروسي مسن نظامه.

سياق ردّه على الهجمات الإرهابية. أعلن بوتين بأنه سيتحلّص مسن انتخابات الحكام، ويقدم نظاماً نسبياً لانتخابات الدوما. لقد أعطت مذبحة بيسلان على الملاماً للكرملين للبدء بمعلمة تقوية طويلة الأمد لهرمية السلطة التنفيذية. وفقاً للإصلاحات المقترحة، لن يعتمد الحكام بعد الآن على ناخبيهم، وسيدينون بالولاء فقط إلى موسكو. وهذه ليست لهاية خطط الكرملين، فقد قُلَّم مشسروع قانون يضع الهاكم تحت إشراف السلطة التنفيذية، ونوقشت مسألة توسيع المقاطمات. كل هذه التغيرات معاً كانت بمثابة إصلاح شامل للاتحاد الروسي.

بيد أن هذه الإصلاحات تسببت بإضعاف الدستور الروسي، لأنه عندما يُزال مدماك دستوري واحد، فسيصبح البناء الدستوري برمته مهزوزاً. ولكن، من يكرث للدستور عندما يكون فريق النحبة الحاكمة بحاجة لتحقيق أهدافه التي تفوق الدستور أهمية أي إعادة توزيع الموارد، وإدامة سلطته بشكل ذاتي. في 13 تشرين الأول، حاول بوتين أن يطمئن الصحفيين الأجانب: "إننا سنسمى بكل الوسائل لإقامة نظام سياسي وبناء علاقات بين المدولة والمجتمع بحيث يعززان من بنية المبهقر اطبة!

وبعد ذلك بفترة قصيرة، أعطى نائب رئيس الإدارة الرئاسية فلاديسلاف سوركوف - الخبر الذي ساعد يلتسين من قبل وبقي ليساعد زعيم الكرملين الجديد - مقابلة حول ما بدا أنه تصوّر الكرملين لنهج حديد (58). كان هذا التصوّر أشبه بأفكار ستالينية بحدَّته، حيث كرّر سوركوف بأن القوى الغربية كانت تشكّل غطاء للإرهابين الذين يهاجمون روسيا من أحل "إطعام الحيوان المفترس لحم ضخص آخر". كما وصف مؤيدي الغرب وشركاءهم داخل روسيا "بالطابور الحامس" الذي يتضمّن "ليراليين مزيفين ونازيين حقيقين. إلهم يكرهون ما يسموها روسيا وتين، مما يعني في الواقع بألهم يكرهون روسيا ذالها"، قال موضعاً. يسموها روسيا ذالها"، قال موضعاً. وهكذا، اضطرت روسيا للاستماع إلى أغنية منسية حول العلو الذي أصبح عنسد البوابة: العدو موجود في كل مكان، الأعداء هم كل أولتك الذين يملكون موقفاً سياسياً عتالهاً.

لا يمكن للمرء أن يصدَّق أنه بعد 20 عاماً من العفوية والحرية النسبية، يقـــرّر

الكرملين القيام همند الانعطافة. كنت أقول لنفسي: "هذا إما حلم سيئ أو مسزاح سخيف. غداً سنستيقظ وسيتلاشى كل شيء". لكن شيئاً لم يستلاش. فسالواقع الجديد كان هناك، وكان مظلماً ومرعباً. وهكذا، بذا البحث عن أعداء روسسيا، داخل البلد وخارجها، وأصبح الحديث عن مؤامرة عالمية الوجبة الأساسية في اليوم بالنسبة للمحتمع السياسي. والليراليون والمنتقراطيون الباقون، الذين اعتقدوا بألهم يستطيعون الانتظار في الغيتو الذي تُرك لهم في ولاية بوتين الأولى، أصبحوا الآن آكثر تشاؤماً بخصوص فرص بقائهم.

وظل العدو الأساسي هو الولايات المتحدة وكل من يتصل بالأميركيين. في الواقع، إن اختيارهم للعدو الأساسي يمكن تفسيره بسهولة: لم تكن الطبقة السياسية الروسية تستطيع الاعتراف يحزيمتها من قبل الشيشانيين. فالعدو ينبغني أن يكسون كبيراً بحق؛ الولايات المتحدة والعالم بأسره خارج روسيا. بدا الأمر وكأن حولة حديدة من الحرب الباردة كانت على وشك الانطلاق.

على أي حال، فالمواطنون الروس العاديون لم يكونوا يعتقدون بأحد السلطات ستوقف الإرهاب. حيث قال 93 بالمائة مسن المستركين بأحد الاستطلاعات بأن وقوع هجمات حديدة أمر مرجع، و67 بالمائة قسالوا بالقادة الروس لا يمكنهم حماية الشعب الروسي منها. وكان 36 بالمائة يعتقدون بأن ردّ القيادة الروسية على المحمات أظهر "صرامة وعزماً"، بينما قسال 40 بالمائة بأن الردّ أظهر بأن القادة كانوا غسو متأكدين مسن كيفية عاربة الإرهاب (99). وكان لانعدام الإحساس بالأمن - كما حصل بعد انفحسارات الأبية السكنية في العام 1999 - أثره على الشعب الروسي، الذي أصبح يرتاب في العالم الخارجي، حيث أعرب 68 بالمائة من المشتركون في استطلاع أحري في العالم الخارجي، حيث أعرب 68 بالمائة من المشتركون في استطلاع أحري في قال 2004 عام 2004 عن اقتناعهم بأن روسيا كانت عاطة بالأعداء؛ فيما قال 25 بالمائة بأن العدو الرئيسي هو الولايات المتحدة؛ وقال 7 بالمائة بأنه يسأني الشيئان (60). وذلك أمر طبيعي عاماً، لأن الشعب الخبط وغير الآمن الواقع من الشيئان (60). وذلك أمر طبيعي عاماً، لأن الشعب الخبط وغير الآمن الواقع غيت تأثير الحملة الإعلامية الرسية بدأ يبحث عن وصفة قديمة.

479

وبعكس التوقعات، التي حاءت بعد فقدانه بعض النقاط، لقد مسنح النساس لموتين مرة أخرى الذي أثبت صورته كزعيم مقاوم للصدمات. وعلى الرغم من أن الناس لم يكونوا يتفقون معه، إلا ألهم لم يتحولوا عنه. حيث أبدى ثلث المشتركين في أحد الاستطلاعات معارضتهم لتشديد الإحراءات من قبل بوتين، إلا أن هذه المعارضة لم توثّر على ثقتهم فيه: 73 بالمائة كانوا ما يزالون يتقسون فيه، أن هذه المعارضة لم توثّر على ثققون فيه بشكل مطلق، و52 بالمائة كانوا أقسرب إلى الثقة فيه؛ بينما كان 25 بالمائة لم يكونوا يتقسون فيه مطلقاً. إن الافتقار إلى البدائل والخوف من وقوع الأسوأ ما زالا يثبتان بالهما فيه مطلقاً. إن الافتقار إلى البدائل والخوف من وقوع الأسوأ ما زالا يثبتان بالهما لفكرة تعيين الحكام في المقاطعات؛ 55 بالمائة من المشتركين كانوا يويدون مركزة السلطة التي يقوم 14 بوتين. لكن 36 بالمائة من الموس كانوا لا يتفقون مع الرئيس بخصوص لهحه، وهذا يدلّ على أن البلد كان منقسماً (19).

للمرة الأولى، أحس المجتمع الغربي بالخطر الحقيقي، واتهم بوتين باتباع سياسة
ديكتاتورية. لكن انتقاد بوتين - مما يدعو للسخرية - أدى إلى توحيد المحافظين
والليراليين، المناصرين السابقين للديمقراطية في روسيا وأولئك الذين لم يؤمنوا يوما
بنحاحها. إن مقارنة بريجينسكي لبوتين بحوسوليني بجرد مثال واحد علسى كيفية
تعامل وسائل الإعلام الغربية مع بوتين. ولكن، بالرغم مسن الانتقاد المتسامي
لديكتاتورية بوتين في وسائل الإعلام الغربية والمجتمع الغربي عموماً، إلا أن ذلك لم
يؤثر على العلاقات الودية بين الزعيم الروسي والقادة الغربيين. كان السيامسيون
الغربيون على استعداد لمساعة بوتين على سلوكه غير الديمقراطي طالما بقى مسيطراً
على الوضع في روسيا، وطالما بقى حليفاً للغرب في الحرب على الإرهاب.

سمح بوتين للمسؤولين عن الدعاية بالقيام بحملة ضد المنشسقين وتغذيسة هيستيريا معاداة الأميركيين. لكنه من جهته كان حذراً، وترك لنفسه خيار اتباع سياسة أكثر اعتدالاً. لقد أوجد انطباعاً بأنه ما يزال على إلتزامه مع الفسرب، بالرغم من أن الكرملين كان يحاول تعبئة روسيا من خلال خطاب معاد للغرب. إذاً، فهو ما يزال يجلس على كرسيين، عاولاً تقسيم القيم والمصالح. حتى أنسه

اتخذ خطوات لتلطيف الأجواء، حيث مهد الطريق أمام طرح أسهم غازبروم للبيع، وهو ما كان يتوق إليه المستثمرون الغربيون منذ وقت طويل؛ ووقع على بروتوكول كيوتو من أجل تخفيض الانبعاثات الحرارية. توحي سياسة العصا والجزرة هذه بأن موسكو تود الحفاظ على علاقات بناءة مع الغرب. لكن هذا لم ينجح في قدئه الغرب على الإطلاق. وكان ستروب تألبوت بالتأكيد من بين أولئك القلقين. فقد حدّر تالبوت "إذا كنا قد تعلّمنا فسيئاً ما من القسرن الفسرين، فهو أن طبيعة النظام الداخلي لروسيا هو السذي يحدد سلوكها الخارجي. فروسيا التي تحكم شعبها بالقوة والديكتاتورية، من المؤكسد ألها، عاجلاً أم آجلاً، ستعمل على إكراه جبرالها وتجعل من نفسها واحدة مسن مشكلات العالم بدلاً من أن تكون مساهمة في حلها" (20).



إن الأحداث التي صبغت بداية ولاية بوتين الثانية باللون الداكن حعلت حتى أشد المتفاتلين عناداً يشعرون بالقلق. اغتيال قاديروف، والحاجة لانتخابات رئاسية حديدة في الشيشان؛ الأزمة المصرفية؛ الإصلاح الاجتماعي الذي سببب اسستياء الشعب؛ التوتر مع حورجيا؛ وأخيراً تصعيد العمليات الإرهابية؛ كل هذه الأشسياء كانت أكثر من كافية لإثارة قلق حدي. صحيح أن شبعاً لم يكن بهدّد سلطة بوتين في ذلك الوقت، ولكن، كان هناك سؤالان منطقيان بحاجة للإجابة: هل كانست قوته الكامنة قادرة على الاستمرار طوال ولايته الثانية، وما هي التهديدات الأكثر خطورة بالنسبة لقيادته؟

بدأ بوتين ولايته الثانية بإظهار أنه كان يدرك مهمته حيداً، وأنه كان مستعداً لتحقيقها. وأنا أعني هذا، قبل كل شيء، قراره بتصفية روح الشراكة في الدولة. لكن الطريقة التي اختارها لحل المشاكل الاجتماعية يمكن أن تسثير احتحاجاً اجتماعياً، وتضعف قاعدة دعمه السياسية في الوقت الذي كان فيه الفريق الحاكم يبحث عن ضمانات لبقائه بعد العام 2008.

كان بوتين محقاً في شروعه بإصلاح إداري. لكنه عندما سلَّم مهمـــة إعـــادة

481

هيكلة الدولة إلى مسؤوليه، حمل من إصلاحه إصلاحاً مزيفاً. وكان محقاً في محاولته ترويض الطموحات السياسية والمصالح الذاتية للشركات التحارية الكبرى. لكنسه عبر إخضاع الشركات إلى الطبقة البيروقراطية، كان يشوه السسوق، السني أراد تطويره. وكان محقاً أيضاً في تحفيف طموحات روسيا باستعادة مكانسها كقوة عظمى. لكن أمله في أن تؤسس روسيا شراكة مع الغرب وفي نفس الوقت تحسافظ على دولتها التقليدية كان وهما آخر. بكلمات أخسرى، في كل مسرة كانست السلطات تحاول تطوير أجندة تحديثية، كان النظام الذي شكلته بنفسها يقف حائلاً دون تحقيق مساعيها.

وهذه ليست التناقضات الروسية الوحيدة، على أي حال. فمن خلال التوجّه غو المزيد من المركزية، حقّق بوتين بعض الانتصارات التكتيكية عسر استعادة السيطرة الكاملة على المقاطعات. لكنه، من الناحية الاستراتيجية، أضعف قيادت وأضعف شرعيتها؛ لأنه من الآن فصاعداً سيكون مسؤولاً عن كل الإخفاقات التي يُمن لها المعينون من قبله في المقاطعات. وعاجلاً أم آجلاً، سيصل إلى النهاية ذاقسا التي وصل إليها يلتسين: "سلطة شاملة عاجزة"؛ وهي النتيجة الحتمية لكل سلطة فردية ديكتاتورية. من هنا، فإن التهديدين الأساسين المحدقين بروسيا خلال ولايسة بوتين الثانية هما: دولة ضعيفة، ونظام سياسي ضعيف سسيحاولان ادعساء القسوة والصلابة.



على أي حال، كانت ولاية بوتين الثانية في بدايتها، والحياة يمكن أن تسلك العديد من المنعطفات غير المتوقعة. أثناء كتابيق هذه السطور، لم تكن هناك أية قوى في روسيا يمكنها تقدم استراتيحية بديلة. ولهذا السبب، كانت روسيا مضطرّة لاتباع أسلوب التحربة والحطأ، بحربة ونابذة أسلوباً تلو الآخر. لعل بسوتين كان مقدراً له أن يكون الزعيم الذي سيثبت بأن روسيا قد استنفذت كل أنماطها التقليدية في الحياة، والسلطة، والفكر كي يأتي الزعيم التالي ويتنعذ استراتيحية

في العام 2004، كان هناك أمر آخر مثير للقلق: بدا الرئيس في أغلب الأوقات وكأنه فقد حيويته السابقة. كان أشبه برحل نفذت منه طاقته قبل الوصول إلى خط النهاية، وأصبح يتحرّك بشكل ميكانيكي، بدون الرغبة في الفوز. كانست عيناه غارقتين في محريهما. لعل ذلك كان ناتجاً عن استنفاد قوته الروحية، أو فقدانه لتوازنه، أو بحرد تعب مؤقت سيتغلب عليه. وإذا تغلّب عليه، فمن أجل أي غايد؟ هذا ما سنراه.

على أي حال، كان ما يزال هناك الكثير من الفمسوض؛ لسيس في سياسة الكرملين، التي اكتسبت منطقاً محدداً، بل في نتيحتها التي يمكن أن تكون محتلفة عما تتوقّعه السياسية الشعبية التي تشسيع في موسكو أن تصف بدقة بالغة مشاعر المواطنين الروس وملاحظاقم في تلك اللحظة: "قال رجل مريض أخذته سيارة إسعاف: إلى أين تأخذونني؟ أحاب السدكتور: إلى مستودع الجثث. ولكني لم أمت بعد. فأحابه الطبيب: ونحن لم نصل إلى هناك بعد"، والكثير من الأمور يمكن أن تحدث قبل بعد"، والكثير من الأمور يمكن أن تحدث قبل فهاية ولاية بوتين الثانية.

القصة غير المنتهية لروسيا

الغوب – الوسيلة والغلية. الصنفة الفارستية. عل ستكون روسيا قادرة على التخلي عن "النظام الروسي"! كمل روسيا.

إن القارئ الذي يتابع كل الظروف الجيدة والسيئة التي رافقت عملية تحسول روسيا، قد يعتريه الارتباك من المسار المتعرّج للتطورات الروسسية، ويشغر لديسه التساؤل: في أي اتجاه ستتحرك روسيا في غاية المطاف - نحو نظام فسردي أكسر صرامة، أم نحو الإبقاء على نظامها الديكتاتوري البيروقراطي الهجين، والبدء - بعد فهم عوالتي هذا النظام - ببناء مؤسسات ديمقراطية فعالة، مستندة هسنه المسرة إلى حكم القانون، وليس إلى حريات سياسية غير منظمة? من الصعب على أي شخص كل أن يجيب على هذا السوال الآن. بالفعل، فبعد ولاية بوتين الأولى، أصبحت فرص الحفاظ على بعض الحريات السياسية - على الأقل - قليلة حداً. وعسلاوة على الأساسية هي أن تكون واجهة لنظام غير ديمقراطي? ومع ذلسك، وبسالرغم مسن المورات الباعثة على الاكتاب التي شهدتما روسيا في عامي 2003-2004، فمسا الطورات الباعثة على الاكتاب التي شهدتما روسيا في عامي 2003-2004، فمسا زال الموقت مبكراً حداً لدفن الديمقراطية الليرائية في هذا البلد.

والسكينة في السلطة الفردية، ولهذا السبب فهم يوافقون على السلطة المركزية المفرطة لبوتين. ولكن، في نفس الوقت، إن قابلية الروس للتقديم إلى الأسام دون الإنفاف إلى الوراء تتعزّز بشكل تدريجي. لقد تطلّب الأمر منهم عشرين عامـاً بدءاً من بيريسترويكا غورباتشوف في العام 1985 - للتعلي عن عدد قليل حـداً من التقاليد، وأنحاط الحياة، وذهنية اعتادوا عليها؛ أي ما كـان يشـكل "النظام الروسي"، القالب الذي كان يجسد روسيا. نعم، عشرون عامـاً، زمـن طويـل بالنسبة لحياة الإنسان، لكنه مرحلة قصيرة في التاريخ، بحرد ومضة. على أي حال، ليس واضحاً بعد كم سيستغرق البلد كي يتخلّص من البقايا الأخيرة للنظام القلع، وما هو الثمن الذي سيدفعه من أحل تحرّره نهائياً من الديكتاتورية، ومحاولات لعب دور القوة العظمى والسعى "للفرادة".

لقد نبذ الشعب الروسي مع بداية القرن الجديد، كما آمل، الادعاءات بكون روسيا قطباً ذا حضارة مختلفة. ولكن، إذا كان هذا البلد سيتحرّك باتجاه الغسرب، فسيكون عليه معرفة الأشكال التي يمكن أن يتخذها ذلك التحرّك، والمسالك السيق يمكن أن يتبعها. ينبغي على الروس أن يحموا أنفسهم من أوهام حديدة وتطلعسات غير منطقية، وأن يتعلموا كيف يتعاملوا مع الإحباطات والآلام المختمية. وأخسيراً ينبغي على الروس أن يتغلبوا على الإغراء الأساسي الجديد المتعلق باتباع ما يبدو أنه الطريق الأسهل: تقليد السوق والديمقراطية في حوانهما السطحية، والمحافظة في العمق على علاقات الراعى والزبون، وحكم الأقلية، والحكم بدون محاسبة.

-9-

إن التحالف الذي عقدته روسيا مع الغرب في العام 2001 يتضمَّن ليس فقط إمكانية التطوِّر إلى شراكة حقيقية وإلى اندماج روسيا في الغرب، بل يتضمَّن أيضاً قديداً باغتراب روسي حديد. صحيح أنه من المستبعد أن ترجع روسيا إلى عدائها السابق تجاه الحضارة الغربية، إذا ما حصلت إساءات فهم حديدة وصسراعات في المسالح مع الغرب، إلا ألها قد تصاب بالياس وعدم الرضا عسن أي شسخص وأي شيء؛ بما فيها روسيا نفسها.

حتى الآن، اتعد التحالف بين روسيا والغرب شكل الصفقة الفاوست (أي على حساب القيم). وجوهر هذه الصفقة بسيط جداً: الغرب يضم روسيا إليه من أحل تنفيذ بعض من مصالحه الجيوسياسية - الحرب على الإرهاب، تعزيز الأحددة الأمنية، تعزيز الحوار حول الطاقة - وفي نفس الوقت يضمض عينيه عن مدى أله روسيا عن أن تكون دولة ديمقراطية ليبرالية. وعلاوة على ذلك، يستمر الفسرب في النظر إلى قيادة روسيا باعتبارها الضمانة الأساسية لعلاقاتها الدافقة مسع الغسرب، فيصادق بذلك على الحكم الروسي من خلال السلطة الفردية. وبسدورها، تحسل روسيا مشكلة الموارد الخارجية من أجل مسألة تحديثها، وتحتفظ في الوقت نفسسه بالقواعد القديمة للعبة في الداخل.

للصفقة "الفاوستية" مؤيديها بين كل من أولتك الذين يعتبرون روسيا بحسرد حليف في السعي لتحقيق أهداف معينة؛ وأولئك الذين ما زالوا يعتبرون روسيا بلداً عدوانياً، يمثل تجسيداً للشر؛ وأولئك الذين يفضّلون أن تبقى روسسيا في موقعها الحالي على الحدود الخارجية للحضارة الغربية، كستار يفصل الغرب عن الصسين. وفي روسيا، بالمقابل، تحظى الصفقة الفاوستية بتأييد أنصار الديكتاتورية و"فسرادة" روسيا. بعبارة أخرى، إن الشراكة الحالية بين روسيا والغرب تساعد في الحفساظ على الديكتاتورية البيروقراطية في روسيا.

إن ضم روسيا إلى الفلك الغربي على قاعدة وحود بعض المصالح الجيوسياسية المتبادلة ما هو إلا اندماج ظرفي وموقت. أما الشيء الوحيد الذي يمكن أن يضمن تحقيق اندماج حقيقي لروسيا في المحتمع الغربي، فهو وحود قسيم مشمتركة بسين الطرفين. وعلى هذا الأساس، سيتوجّب على روسيا أن تتبتى بالكامل المبادئ المديمقراطية الليرالية، وتنبذ أي محاولة لتفصيل الموسسات الديمقراطيسة وفقاً لاحتياجات السلطة الفردية والدولة البيروقراطية. عندئذ فقط يمكن لروسيا أن تعقد "شراكة بناءة" مع الغرب.

في البداية، ستكون تلك الشراكة غير متكافقة حتمـــاً، وخاصــــة في الجـــال الاقتصادي. والتحدّي الجدي الذي تواجهه روسيا هو التخلي عن فكرة التـــوازن العسكري مع الولايات المتحدة، والاعتراف بإمكانياتها المحدودة الحالية، وتحويـــل

مواردها لكي تصبّ في بناء بمتمع غني؛ هذه المرة، لإرضاء شعبها، وليس غرورها. إن التحلّي عن طموحاتها العالمية الآن لا يستثني إمكانية بروز روسيا في المستقبل كقوة إقليمية مزدهرة اقتصادياً، وربما كقوة عالمية أيضاً. ولكن، من أجل مستقبلها بالذات، سيتوجّب على روسيا - والغرب - أن تنهي لعبة التزييف والتقليد، المحزية لكل المشتركين فيها، والمدمرة لروسيا.

9.

هل الشعب الروسي مستعد لنبذ المحاولات الساعية للحمع ما بين المتنقضات: التوجّه إلى الغرب مع طموحات القوة العظمى على الطريقة السوفياتية، الديمقراطية مع السلطة الفردية، السوق مع الدور المنظّم للبروقراطية؟ هل هو مستعد لنبذ فكرة القوة العظمى المستندة إلى القوة العسكرية؟ إن البيانات المذكورة في هذا الكتساب توحى بأن الكثير من الشعب الروسي أصبح في نحاية التسعينات ناضحاً بما يكفسي كي يرغب بالاندماج مع نظام ذي قيم ليبرالية.

لكن الكثيرين في الطبقة السياسية ليسوا مستعدين للتحلّي عسن سسعيهم للسيطرة، ونبذ الحقوق الوراثية، وترك الشبكات المشبوهة، والتغلّب علسى حنينهم للماضى الإمبريالي. أولئك الذين يعتبرون أنفسهم نخبة المحتمع يخافون من التحلّي عن مفاتيح التحكم، لأهم لم يعتادوا على العيش في محتمدون علسي يرتعبون من المنافسة ويخافون من شعبهم ومن أي بدائل. وهم يعتمدون علسي الشرطة، والأجهزة الأمنية، والجيش، وجهاز الدولة لأهم يعتبرونها شبكة أمنهم وضمانة بقائهم. إن عجزهم، وثقافتهم الضعيفة، وقلة جسبرقم، وافتقسارهم للعيش في بيئة من الحوار والتوافق، كل هذا يدفعهم لندمير كلل منافسيهم المحتملين. الطبقة السياسية في روسيا، المهووسة بالحفاظ على الذات، هي السي أعاول إعادة إسياء العناصر القديمة في اللاوعي الشعبي، وتعزيز الشك في الغرب، والخوف من الانفتاح، والحنين للماضي المقود. إن القوة العظمى والاستبدادية هما القلعتان الأخيرتان لأولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون، ويحكمون وفق أسلوب جديد. وكلما فقدت الطبقة السياسية الروسية سيطرقها على التطورات،

كلما ازداد شعورها بالعجز والمسّكها بالدولة التقليدية، وأدواقسا الإكسراه أو التهديد بالإكراه.

في خريف العام 2001، أرغم بوتين الطبقة الحاكمة على قبول تحوّل محدو الغرب. فحسو الغرب. فما كان من النحبة الجبانة والانتهازية إلا أن أتبعت الزعيم صاغرة، كمساهي العادة في روسيا. من هنا، إذا أراد بوتين أن يرفع الخيار الرئاسي إلى مستوى القرارات الحقيقة، فسيكون بحاحة إلى طبقة إدارية حديدة، طبقة قادرة على التحرّر من مواقفها السطحية وخضوعها، والتفكير في أولويات العصر التنافسي الجديد.

في الوضع الحالي، ليست هنالك إمكانية لتحقيق خيار الكرملين بسالتحوّل إلى الغرب بشكل كامل، لأنه لم يصبح غاية إيديولوجية بالنسبة لروسيا ولا أولوية بالنسبة لنحبتها. وعلاوة على ذلك، فالزعيم لم يتحاوز الصفقة الفاوستية بعد. وهو ما يزال المحدّث الروسي الكلاسيكي، الذي يعمل ضمن حدود الثالوث المقسلات الحكم الفردي، الموارد الغربية، واقتصاد السوق. إن الرئيس الروسي والنحب الروسية يأملان بالانضمام إلى الغرب وفق شروطهما الخاصة؛ أي مع الحفاظ على "النظام الروسي". في الحقيقة، عشرون سنة ليست فترة زمنية كافية كي يعتاد المرء على تقليد آخر؛ كي يحيا، ويعمل، ويسير بدون قيد. البعض تعلم كيف يقسوم بذلك، لكن البعض تعلم كيف يقسوم بذلك، لكن البعض الآخر ما يزال خائفاً أو كارها.

ஓ

لم يقرّر الغرب بعد مدى حاجته لروسيا. فالحكومات الغربية ليست مستعدة حتى الآن لإدماج روسيا في منطقتها. وهذا مفهوم، لأن أحداً لا يعسرف مساذا ستستفيد الحضارة الغربية من ضمَّ عملاق ضسعيف (حالياً)، بكسل تناقضاته وادعاءاته، وماضيه الملتبس، ورغباته التي ما تزال غامضة، وطموحات، الواسسعة، وقدراته المترافقة مع بقايا موروثات سوفياتية، وما قبل السوفياتية.

نعم، هناك إدراك – وخاصة في أوروبا – بأن القضايا الجوهرية التي تواجسه العالم لا يمكن حلّها بدون روسيا. لكن أوروبا الآن تسسير في اتحاههــــا الخـــاص، وتعمل على ابتكار سياسة من نوع جديد – من خلال صياغة حكــــم انتقــــالي، وتصفية بعض وظائف الدولة - الأمّة، وإزالة الحدود بين الدول. بينما ما تسزال روسيا تعمل على بناء دولة تقليدية، وتحاول مرة أخرى حصر المحتمع المدني ضمن نطاق محكم. إنني أتعجب كيف يمكن للحداثة الروسية وما بعد الحداثة الأوروبية أن تتعايشا. لأنه من غير الواقعي أن نتوقع اندماج كيانين يمتلكان وجهات نظر عتلفة جذرياً حول طبيعة التطور المستقبلي نفسها.

وإضافة إلى ذلك، فالقوى السياسية، على نطاق واسم، في الفسرب غسير متعاطفة مع روسيا في الوقت الحالي. فالليم اليون الغربيون مستاؤون من الطموحات العالمية لروسيا، ومن حربها في الشيشان، ومن تعدّي الكسرملين علمي التعدّديمية والحرية. أما بالنسبة للمحافظين الغربيين، فهم مستعدون لإشراك روسيا في الحوار، ولكن فقط ضمن إطار السياسة الواقعية، متحنين ذكر المشاكل الداخلية الروسية، ومعتبرين روسيا دولة غربية قطرياً، وغير قابلة للتغيير.

حتى أولئك الغربيون الذين يساندون تبني روسيا لم يحسموا أمرهم فيمسا إذا كان يجب الانتظار حتى تنهي روسيا تحوّلها إلى دولة ديمقراطية، أم البدء في عملية الاندماج دون انتظار نتائج النحوّل الروسي. إن الدوائر السياسية الغربية متسردة بشأن هذا الأمر، والكثير منها توصّلت إلى استنتاج أنه مسن الأفضل الانتظار؛ فأوروبا ما تزال تعمل على إدماج ألمانيا الشرقية ضمن ألمانيا الغربية، ومسا تسزال بحاجة لضم أوروبا الشرقية والوسطى ودول البلطيق؛ وليس هناك وقست لتحمّل أعباء حديدة وليس هناك أموال. والدول المنهقراطية الليرالية خارج أوروبا مملك دافعاً أقل منها للتفكير في ارتباط طويل الأمد مع روسيا.

لكن روسيا لا تستطيع تحويل نفسها إلا إذا كانت حزءاً من الحسوار. وقسد تصبح الحوافر من العالم الخارجي عاملاً هاماً وضرورياً للتغيير. ولا يجب النظر إلى اندماج روسيا في مجموعة الدول الصناعية على أنه يعني بالضسرورة شسراكتها في الناتو أو الاتحاد الأوروبي. فالاندماج عملية من علاة مراحل، وهنالك علاة أشكال عكنة من التعاون؛ تعاون في مجالات محددة بدقة، تكيّف، اعتماد متبادل، اشستراك من خلال الانتساب، علاقات ثنائية متينة. في الحقيقة، أن تطمع روسيا إلى شراكة كاملة مع المؤسسات الدولية الغربية يمكن أن يجلب حيبات أمسل حديسدة لكسلا

الطرفين، وخاصة إذا كانت روسيا غير قادرة، أو غير مستعدة لتلبية متطلبات تلك الشراكة، وإذا استمرت في سعيها لتحقيق "مكانتها الخاصة"



حتى الآن، تريد روسيا أن تبدو بمظهر المتمدّنة في عيني العالم من خلال محاولة إعادة تكوين النظام الموسساتي الغربي بالكامل في روسيا، باستثناء الأشياء السبي لا تجبها، وهي الأشياء الهامة في الواقع: قواعد محددة للّعبة السياسسية ونتسالج غسير مؤكدة. فما تريده النحب السياسية الروسية في الواقع هو العكس تماماً: قواعد غير محددة للّعبة، ونتاتج مؤكدة تضمن بقاءها في السلطة. وليس فقط بوتين وفريقه، بل حزء من المجتمع الروسي أيضاً، ما زال يعتقد بأن الديمقراطية التي تسديرها "مسن الأعلى" بجموعة صغيرة من الناس هي النموذج الأمثل، وربما الوحيد، للحكم؛ على الأقل في هذه المرحلة.

وعلى المدى البعيد، إن النظام المبني على غياب البدائل، وعلى التوقعات القليلة، وعلى أسعار النفط المرتفعة، لا بد أن يكون نظاماً مضراً. كل اللاعبين السياسين الروس يعتمدون على ولائهم للزعيم، الذي يعتمد على معدلات دعم الشعب له. ودعونا هنا نتخيّل ماذا يمكن أن يحصل فيما لو انخفضت معدلات الريس: سبهتز النظام بأكمله وربما سينهار. إن النظام المبني على الصفقات التي تتم في الظل وحكم الرجل الواحد أكثر ضعفاً من النظام المبني على أساس مستين مسن المؤسسات القوية والفاعلة. ما زال ينبغي على روسيا أن تصل إلى هذا الاستناج، وهذا هو التحدّى الأساسي الذي تواجهه.

قد تكون توليفة الحكم الفردي والليبرالية الاقتصادية ملائمة تماماً لدفع بلد زراعي على طريق التصنيع، ولكن، لمواجهة تحدّيات عصر مسا بعسد الشورة الصناعية، والتحرّك باتجاه التكنولوجيا المتطورة، ثمة حاجة لنظام من نوع آخر، نظام يفسح المجال للمبادرات الاجتماعية الخاصة، والحكم الذاتي المحلي، والحرية الشخصية. الأسئلة التي تحتاج إلى إحابات ما تزال تتراكم. كيف يمكن للحوار مع الغرب أن يعيش مع الرغبة بإحكام السيطرة على المحتمع، وحرمانه من الحربات التي اعتاد عليها في سنوات يلتسين؟ كيف يمكن لموسكو أن تخرج من الحسرب الشيشسانية وترسّخ الاستقرار في القوقاز الشمالي؟ كيف يمكن للكرملين أن يمنع الاستقرار من التحوّل إلى ركود؟ كيف يمكن للسلطات معالجة الأزمات الاحتماعيسة؟ وكيسف يمكن للروس أن يحققوا تقدماً حديداً دون الوقوع في الفوضى والتفكّك؟ أمسئلة، أسئلة فائقة الصعوبة...

حتى الآن، إن السياسة التي يتبعها الكرملين لا تقوم إلا بصنع الأفخاخ لروسيا وللرئاسة، وهذه الأفخاخ قد تكون كارثية على النظام الحالي. فهي من حهة تسمع بالنمو الطبعي، ولو البطيء، للطبقة المتوسطة، الجيل الروسي الجديد المستعد للعيش والتنافس في العالم الحديث، ومن حهة أخرى، تحكسم الحنساق علسى الحريسات السياسية. وعاجلاً لم آجلاً، لن يكون بالإمكان تحتّب وقوع الصراع بين الفسات الاجتماعية الجديدة التي تناضل من أحل تحقيق المتعقراطية البرلمانية، والحكم الذاتي المحلي، والحريات، وإلغاء مركزية السلطة، وبين أولئك الذين يدعمون النظام الحالي المكون من البيروقراطية، ووزارات السلطة، والطبقة الحاكمة.

من الصعب أن تتكهّن بالشكل الذي سيتخذه هذا الصراع - ضغط مسن الأسفل، أم إصلاح تدريجي من الأعلى، أم توليفة من الأثنين - وكيف سيتهي. لكن المهم في الموضوع هو حلّ الصراع بدون إراقة دماء، أو حدوث اضطراب اجتمساعي كبير. ولا يقل أهمية عن ذلك تجنّب غو طبقات قومية هامشية، وهسو أمسر - كمسا اكتشفت أوروبا القديمة - يمكن أن يحدث حتى في السدول الديمقراطيسة الناضسحة والمستقرة. وهذه ستكون مهمة بوتين في ولايته الثانية، أو من الأرجع أفسا سستكون مهمة الرقيم النابل. على أي حال، إن تغيير آليات الحكم الروسي تحدّ لا مفر منه.

9

للزعيم الروسي تأثيره على مستقبل روسيا، بل إنه في بعض الأحيان يصنع هذا المستقبل، مع أنه غالباً ما يكون مرغماً على اتخاذ بعض المواقف، أو يضطر إلى قيادة نظامه من الخلف. فهل الرئيس الروسي قادر على إدراك أن الحكم الـذي أسّمه لن يسمح له بتحقيق هدفه المتمثّل بتأسيس اقتصاد سوق عصـري ودولـــة حديثة او إذا كان مؤسس الديكتاتورية البيروقراطية يدرك ذلك، فهل هو مســـتعد لإعادة هيكلة حكمه وفقاً لذلك؟

في بداية ولايته الثانية، واحمه بوتين المعضلة التالية: هل يحسافظ على دوره كعامل استقرار للراسمالية الفاسدة ولبلد قُدّر له أن يعيش في غرفة انتظار الحضارة الفربية، أو يصبح عامل تغيير ويبدأ ببناء نظام حديد، يسمح لروسيا بأن تتحوّل إلى دولة ديمقراطية ليرالية متطوّرة، وتدخل العالم الصناعي كند حسدير بسالاحترام. اختيار الطريق الأول سيعني استمراراً للتزييف، والتقليد، وبناء واحهات سياسسية على طريقة "قرى بوتمكين"، الهواية الاعتيادية للزعماء الروس والطبقة السياسسية الروسية. إنه سيعني حياة من الادعاء: السلطات تدّعي بأنما تحكم، والشعب يدّعي بأن يطبع. وسبعني أيضاً انحطاطاً بطيئاً دون أن تُتاح لروسية الفرصة للوقوف على قدميها. أما السيناريو الأكثر قتامة بالنسبة للبلد في حال احتيارها لهذا الطريق، فهو الانحلال البطيء، والذي قد لا يكون ظاهراً للعيان على الدوام، لكنه في نحاب المطاف سيؤدي إلى تحطيم إرادة الشعب، وتحطيم روح المفامرة لسدى السروس، المطاف سيؤدي إلى تحطيم إرادة الشعب، وتحطيم روح المفامرة لسدى السروس، الحالى.

بالنسبة لبوتين شخصياً، قد ينتهي الطريق الأول إلى تكرار قصة يلتسين - أي "خصخصة" الزعيم والنظام من قبل عصبة من المتآمرين في الكرملين. وليس هسو فقط، أي زعيم في روسيا محكوم بالفشل إذا لم يملك موسسات قوية تسانده. لكن المصير الشخصي للزعيم في سياق التاريخ، إذا ما أصبح أسراً لحاشيته أو ظروف، ليس مهماً أو حتى مثيراً للاهتمام. فهو سيُذكر فقط على هامش التساريخ؛ فهسو الزعيم الذي أضاع فرصته.

أما الطريق الممكن الثاني بالنسبة للرئيس بوتين – إصلاح النظام – فسسيكون أكثر مجازفة، وبدون ضمانة بالنحاح، ومع إمكانية أن يكسر رقبته. لأنه إذا لم تُتَرَ عجلة الفيادة السياسية بحذر، فقد ينتهي الإصلاح كما انتهت الغورباتشسينية، أي فقدان الزعيم لسيطرته على السلطة والأحداث. غير أن كسر رقبة السزعيم أنساء قيامه بمهمة تاريخية ليست النهاية الأسوأ بالنسبة إليه، بل إنها لشرف له. وبوتين كان يملك فرصة كبيرة، وكان يمكن أن يحقّن ما لم يحقّنه أي زعسيم روسي أو سوفياتي من قبل، لو أنه قرّر فتع نوافذ النظام، ونجع في عبور طبقة الجليد الرقيقة دون الوقوع فيها. كان بإمكانه الشروع في بناء نظام حكم مسؤول يرتكز لسيس على السلطة الألوهية الجسدة في الزعيم بل على حكم القانون. ذلك كان يمكن أن يكون فصلاً جديدة في التاريخ الروسي. إن التغلّب على السذات وإبجاد دوافيع حديدة وغاية حديدة كافيان تماماً لجعل أية أمّة عظيمة وأي زعسيم يستحقان التذكّر. لكن بوتين اختار الطريق الأول، مفضلاً السير مع التقاليد. لم يسبق أن قام شخص ما في التاريخ السياسي بمثل هذا الشسيء المتناقض: أن يكون نظاماً

جي.

لعلنا نطلب المستحيل من فلاديم المحلّث. إننا نلومه على حكمه الفردي وسعيه للسيطرة على مصير البلد. ولكن، في نفس الوقت، لم يسبق أن قدَّمت قوىً متنفذة في المجتمع الروسي المساعدة الكافية لقيام نظام ديمقراطي حديد بالكامل. الليبراليون أنفسهم يدعمون الملكية المستخبة، فما بالنا نتوقع من زعيم ديكتاتوري أن يوسّس الديمقراطية "من الأعلى"، وأن يتخلّى طوعاً عن السلطة إلى الموسسات في المجتمع الروسي، التي تبدو غارقة في نوم عميق.

لكن القيادة تفترض وجود رؤيا وقدرة على النظر إلى المستقبل. إن الغاية من الحصول على السلطة هي نقلها للآخرين، وإلا فإلها لن تكون قيادة، بسل حشماً للسلطة. إن حكم الفرد في روسيا هو رمز من رموز الماضي عاد إلى الظهور ثانية، وقد حان الوقت للتخلص منه هدوء. فإذا ممكن أي زعيم روسي، في مرحلة ما، من فهم هذا الأمر وامتلك الشحاعة لحل هذه المشكلة، فإنسه سسيد حل التاريخ الروسي باعتباره الزعيم الذي حوّل روسيا.

ما تزال القيادة هي المؤسسة الأساسية في روسيا. ولكن، عاحلاً أم آجلاً، سيضطر الشعب الروسي لتقرير مصور بلده بنفسه. إن هذا الصير، والمحافظة على التقاليد، والخمول التي يقصف بها المجتمع مثيرة للاستغراب إلى درجة يسدو معها صعب التغيير أو التحوّل أو الإصلاح. لقد سنحت للشعب الروسي الكثير مسن الفرص لتقوية نفسه، وطرد الحشرات البيروقراطية المحيطة به، والاندفاع في موجه من العنف والدمار على الطريقة الروسية، أي بدون عميز ومع إراقة المماء. لكن روسيا، في عهد يلتسين ولاحقاً في عهد بوتين - رغم ألها أصبحت أكثر إحباطاً وتعاسة - بحبّبت الوصول إلى هذه الدرجة من الهيستيريا والجنون وما زالت تتحبّب الأسوأ. والآن أصبح هناك أمل في أن يتحقّق الإصلاح الأكثر أهمية بالنسبة لروسيا - أي تغيير الديكتاتورية، وتقسيم السلطة إلى أجزاء مؤسساتية - بدون إراقـة أي

يمكن لروسيا أن تقول وداعاً لتاريخها المأساوي، وللأثر البنيوي البساقي مسن ذلك التاريخ، إذا ما احتمعت عدة عوامل: الضغط من المحتمسع، وإدراك الطبقسة السياسية بأن الحكم من خلال السلطة الفردية والامسؤولية النخبسة خطر على بقائها، وإدراك الزعيم بأن فصل السلطات، والسماح بالمشاركة في السلطة سيحملان من حكمه أكثر استقراراً.



لقد أظهر التاريخ في عهدي يلتسين وبوتين بأنه خلال فتسرة التحسو لات التاريخية، ينبغي النظر إلى الكثير من الأشياء بمنظار حديد. فالشيء الذي يسدو عقبة خلال التطوّر الطبيعي قد يتبيّن بأنه نعمة عندما يكوّن بجتمعاً انتقالياً في خضم بحثه عن هوية حديدة. ولهذا السبب، ما يزال حدوث اتحاد كامل بسين المجتمع والحكم في روسيا مستحيلاً. والواقع اليوم، بما فيه النظام السديكتاتوري البيروقراطي، لا يمكن اعتباره قالباً اسمنتياً واحداً، وبذلك فإن التحرّك باتجساه أكثر إيجابية ما يزال ممكناً. إن المرضى الذين يتعافون من مرض خطير معرّضون لنكسات بين الحين والآخر.

إن الصراعات والنــزاعات التي أعيد إحياؤها في روسيا بــالرغم مــن عاولات الكرملين للسيطرة على كل شيء حيــدة أكثــر ممــا هــي سيغة. فالنــزاعات دليل على أن البلد ما يزال حيــا، والمعــالح تتشــكُل حــلال النــزاعات. إن الصراع لا يسمح للنظام بالتصلّب. والعامل الأكثر إيجابية من الصمراع هو العفوية الموجودة في الشعب وتنامي اســـقلاليته: حــلال أحــد الاستطلاعات، قال 45 بالمائة من الشعب الروسي بأن المدولة ليس لها أي دور على الإطلاق في حياقم.

بالطبع، أن يسير المجتمع والدولة في مسارين متوازيين غير مفيد لهما معاً، لكن المفيد هو خروج الناس من ظلَّ وحش الدولة والعيش باستقلالية. ولسن يطول الوقت حتى يتمكّنوا من بناء شكل جديد من الدولة يخدم مصالحهم الخاصة. وفي غضون ذلك، ما تزال روسيا تحتفظ بنوع من العقوية والعناد يسمحان للمحتمع بالتنفس. عندما أرى جهاز الدولة يحاول السيطرة على حياتنا مرة أخرى، أفكر في نفسي وأقول: كلما ازدادت العقوية، كلما كان أفضل لنا؛ في الوقت الحالي علسى الأقل.

___**y**___

في المحصلة، ما سيحدث في العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة سيعتمد على الجيل الذي سيحل على الشرائع الأخيرة من النجة السوفياتية. ومن هم النساس الذين سيحتلون المشهد السياسي في العام 2008 أو 2012 إلهم الناس الذين نشأوا في عهود غورباتشوف، ويلتسين، وبسوتين. نحسن نعلم بسألهم لا يهتمون بالإيديولوجيا، وألهم لا يتذكرون تاريخ الديكتاتورية الروسية حيداً، وألهم محرّرون؛ وأحياناً إلى حدّ زائسد. والعديسد منهم متشككون، أو يسلون كمتشككين.

لكن الأهم من ذلك كله هو ألهم ليسوا حبناء؛ إلهم لم يعرفوا الخوف أبداً. لم تمد غرائز العبيد موحودة فيهم. وهذه ظاهرة جديدة محاماً في روسيا؛ ستكون نخبتها المستقبلية متحرَّرة من العقد والمخاوف التي أثقلـــت كاهــــل الطبقــــات الحاكمة في البلد منذ قرون. مع ذلك، ليس واضحاً بعد كيف ينظرون إلى مستقبل روسيا. فإذا كان بوتين سيوجد لهم الفرص من أجل تعليمهم، ويعطيهم الفرصة لتحمّل مسؤولية أفعالهم، فهذه ستكون واحدة من مساهماته في تطوّر البلد.



في الوقت الحالي وفي السنوات القليلة القادمة، ستشهد الحياة السياسية الروسية معارك القصور، في المستويات العليا والدنيا. ستكون هناك محاولات مسن حانسب الطبقة السياسية لتأسيس نظام سياسي يناسب احتياحاتها من أحل ضمان مسستقبل لنفسها في وضع غير مستقر. وستكون روسيا مضطرة للفع عمن تسدريب قادقسا وفرقهم مرات ومرات. وسيتوجّب على روسيا أن تحلّ مشكلة أخسرى: انتقسال سلمي وشرعي للسلطة من قلاديمو بوتين إلى حلقه المنتخب ديمقراطياً؛ وليس المعين هذه المرة.

وسيتوجّب على الروس أيضاً ألا يسقطوا، بل أن ينهضوا بعسد كسل مسرّة يسقطون فيها. وسيتوجّب على روسيا والغرب العمل على علاقتهما ومسن غسير المحمل ألهما سيتحبّان الشكوك والاستياءات المتبادلة. فالاقتصاد الروسي ما يسزال غير مستقر، ومعرَّض للهزات لأنه أصبح مرتبطاً بالاقتصاد العالمي ولأنه ما يزال غير منظم.

لسوء الحظ، لا يمكننا أن نستبعد احتمال حدوث محنة أخرى في روسيا؛ مع استبدادية أكثر قساوة. إذ من غير الواضع كيف سيتصرف أولئك السذين يمكمون البلد إذا ما وقعت أزمة ما أو عند عاولتهم التشبث بسلطتهم. ماذا لو قرروا - بدافع من شعورهم باليأس والانحشار في الزاوية - بأن الطريقة الوحيدة لحل المشاكل هي اللحوء إلى العنف وقلب الطاولة؟ إن نتيجة هسذه التحربسة واضحة مسبقاً: إنما ستغشل لأن السلطات لا تملك القوة لإرجاع المحتمم إلى عنهم أصبح أكثر اعتياداً على العيش بحرية، ولو أفسا حريسة عدودة.

وهكذا وصلنا إلى تحاية احتراراتنا. "هل هذا كل شيء؟" قد يسأل القسارئ، الذي تُرك مع أسئلة بدون أجوبة. إن الأشخاص الذين اعتادوا على الوضوح وعدم الالتباس سيشعرون بالارتباك. هل روسيا دولة ديمقراطية أم ديكتاتورية؟ ومن هسو بوتين؛ فارس نبيل أم شيطان شرير؟ في الواقع، ما تزال روسيا عصية على الأجوبة الواضحة. إن هذه الدولة ستكون هجينة لفترة طويلة من الزمن. وكلا المتشسائمين والمتفائلين سيحدون الحجج التي تدغم وجهة نظرهما حسول روسسيا. وكلاهسا

وماذا عن الأمل؟ هل سيكون هناك المزيد من خيبات الأمل المعباة، كمسا كان الحال دائماً في روسيا؟ إن الأمر يعتمد على طريقة تفكيرنا. أنا أعتقد اليــوم بأن روسيا، بالرغم من كل نكساتها وآلامها وفضائحها المتعبة، ليست فقط تحافظ على بقائها واستمراريتها، بل إلها تتحرّك. ومع ألها تعــرج، إلا ألهـا تتحــرّك... واعتقد بألها تتحرّك نحو المستقبل.

للقصل الأول

- 1. Russia's oligarchs are the country's biggest businessmen. Their influence over state officials, often gained through blatant corruption, has allowed them to establish and advance their business empires, while degrading government power. The leading oligarchs of the Yeltsin era were Boris Berezovsky, Vladimir Potanin, Petr Aven, Mikhail Khodorkovsky, Mikhail Fridman, Alexander Smolensky, and Vladimir Gusinsky, known as the "seven bankers." In 1996, that group played a major role in Yeltsin's reelection to a second term as president. In members were rewarded with extensive property (mainly in the field of natural resources) for which they paid almost nothing, in a deal that came to be known as "loans for shares." Under Putin, new oligarchs have emerged, among them Alexei Mordashov, head of the metallurgy conglomerate Severstal, Oleg Deripaska, who privatized Russia's aluminum industry, and Sergei Pugachev, a Saint Petersburg banker who allegedly was close to Putin's team. See Paul Rlebnikov, Godfather of the Kremlin: Boris Berezovsky and the Losting of Russia (New York: Harcourt Brace, 2000), and David E. Hoffman, The Oliganhs: Wealth and Power in the New Russia (New York: Public Affairs, 2002).
- Thomas E. Graham, Russia's Decline and Uncertain Recovery (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2002), p. 26.
- 3. Lebed was killed in a belicopter crash on April 27, 2002. The first person who attempted to play the role of Russian Pinochet tragically departed from the political scene. Lebed was a well-known author of aphorisms. A couple of them: "Pinochetthis is a Chilean problem. To be exact it is not a problem—this is Chilean luck"; "You can't change horses while crossing the river, but you should change the assholes."
- 4. Primakov could not stand independent journalists and was suspicious of the press in general. But at the same time, in the dark days for Russia's independent television station NTV and later TV-6, he was one of the few politicians who was not afraid to come to the station and be interviewed by opposition journalists. Later, in 2002,

- Primakov helped the team of independent journalists from the old NTV to build a new private channel TVS, becoming a member of its board.
- Boris Yeltsin, Prezidentskii manafon [Presidential marathon] (Moscow: AKT, 2000), p. 246.
- The president pushed Korzhakov out of his entourage on the eve of the 1996 elections. Korzhakov later wrote his memoirs. Dawn to Sunset (Moscow: Interbook, 1997), which revealed unflattering facts about Yeltsin and his family—unverifiable, whether true or not.
- 7. Roman Abramovich had at a certain point in his entrepreneurial career been under investigation on suspicion of embezzlement. Voloshin, Berezovsky's right-hand man, managed the structures which, so the newspapers said, siphoned funds out of pyramid schemes that had been created by Berezovsky.
- 8. Former deputy secretary of state Strobe Talbott drew my attention to a certain logic in Yelsan's appointments as prime minister: young—old—young—old (Gaidar, Chernomyrdin, Kiriyenko, Primakov, Stepashin). Apparently, age had meaning for Yelsan when he was thinking about breakthrough versus stabilization. For breakthroughs, he sought out young prime ministers, when he thought about stabilization, he turned to middle-aged politicians. Putin, however, did not fit entirely this logic.
- 9. Subsequently, Stepashin grew close to Putin and was appointed head of the Accounting Chamber. From this post, he initiated an attack on the oligarchs, obviously not without the president's knowledge, turning over materials on the machinations of the big businessmen to the presecutor general's office.
- 10. The journalist Sergei Dorenko, a friend of Berezovsky's and one who was privy to much information, described the search process this way: "The name [Putin] was first thought of by Yumashev. It was supported strongly by Voloshin. Putin was received and they came to an agreement. Putin resisted for a long time and expressed unwillingness to be involved in this adventuristic undertaking. He was persuaded." S. Dorenko, "Statista Putina smenit general Shamanov" [Moderate Putin will be replaced by general Shamanov], Moskovskaya pravda, March 24, 2001. In turn, Berezovsky later declared more than once that it had been his idea to make Putin Yeksin's successor.
- 11. Prosecutor general Skuratov was videotaped relaxing with prostitutes and then black-mailed. He refused to retire voluntarily and tried to prove that Yelisin was firing him because he was investigating wrongdoing at the Kremlin. Putin unambiguously took Yelisin's side in the matter, and his agency, the Federal Security Service (FSB), was active in coming up with compromising materials that hurt Skuratov. Later it became clear that some evidence against Skuratov had been forged.
- 12. The August 19, 1999, New York Times carried an article by Raymond Bonner and Timothy O'Brien, "Bank Activity Elicits Suspicion of Ties with Russian Organized Crime." According to Bonner and O'Brien, nearly \$4.2 billion from Russia had

passed through Bank of NewYork accounts in NewYork City in the course of a year, and the transfers, they said, could be part of money-laundering operations of Russian criminals. Rumors spread alleging that the entire International Monetary Fund tranche given to Russia before the financial collapse of 1998 had been privatized by Russian bureaucrats and oligarchs and transferred to the West through the Bank of New York.

- 13. Russian officials instantly sprang to the defense of their own. The minister of foreign affairs, Igor Ivanov, declared, "We have no need to justify ourselves, and as for Russia's good name, we have it" (Russiiskii delovoi monitor, September 4, 1999).
- 14. Mabetex is a construction firm that participated in the restoration of the Kremlin and was also involved in highly publicized corruption scandals with people from the Yeltsin circle, primarily Pavel Borodio, who headed the office of the president's affairs and was personally close to Yeltsin. The Italian newspaper Cornere della Seus of August 25, 1999, contained an exposé listing tredit cards slips signed by Yeltsin and his daughters that were allegedly found during a police raid on the Mabetex offices in Lugano, Switzerland. The article alleged that Mabetex paid the bills on the Yeltsin family credit cards.
- 15. Rumors spread that right before the invasion Berezovsky allegedly met in France with Shamil Bassyev, one of the Chechen separatist leaders who led the attack by the Chechen separatists on Dagestan, and Alexander Voloshin, the head of Yeltsin's presidential staff. Bassyev is one of the most famous of the Chechen warlords, long suspected of having ties to the Russian secret services. See "Vnimanie, snimayu" [Attention, Camera!], Profil", November 27, 2000, pp. 18-20.
- 16. Human rights activist Sergei Kovalev spoke about this openly, as did Chechen president Aslan Maskhadov, who, by the way, separated himself from the actions of the fighters who attacked Dagestan. In his interview with the Spanish newspaper La Guardia, Maskhadov said the following: "As for Dagestan, I can declare with full responsibility that Berezovsky, Voloshin, Magomedov [chair of the State Council of Dagestan], and Putin all knew. We absolutely did not need either Dagestan or the conquest of alien territory. It was all programmed by Moscow. Dagestan was an excuse for war." Cited from Kommersant-Dafty, February 8, 2000.
- 17. One of the most ruspicious episodes of this drama took place in Ryazan', where officers of the FSB were caught planting gexogen, an explosive used in the explosions in Mostcow, in the cellar of the apartment house. The head of the FSB, Nikolai Patrushev, later declared that his people were taking part in "an exercise" (!). The Kremlin prevented any further investigation into what had happened in Ryazan'. See Pavel Voloshin, "Ceksogen. FSB. Ryazan," Novaye gazeta, March 13–16, 2000.
- 18. In March 2002, Berezovsky, who had moved to London, organized the screening of a film he had commissioned from French journalists, which attempted to prove that the 1999 apartment building explosions were the work of the Russian security agen-

cies. The Kremlin responded by accusing Berezovsky of being mixed up in the Chechen separatist' invasion of Dagestan. This looked clumsy: If Moscow had proof of Berezovsky's involvement in the invasion of Dagestan, he should have been brought to justice long before. But the question raised in the film financed by Berezovsky and entitled "Assault on Russia" has never been answered.

19. "Zhelezuyi Putin" [Iron Putin], Kommersant-Daily, March 10, 2000.

القصل الثاتى

- The upper house of the parliament—the Federation Council—is formed from the representatives of the regions appointed by the regional authorities.
- 2. Putin showed support for the SPS in his characteristically restrained manner: He received Sergei Kiriyenko, one of the party's leaders, in the Kremlin and heard him out attentively in front of the television cameras, looking benignly at the thick program of the party that Kiriyenko had placed on a table for him. In farewell, Putin smiled and promised to study the program. That was all. But the very fact of the meeting was interpreted by the leaders of the SPS—and not only them—as a gesture of support from Putin, who did not contradict that interpretation.
- 3. After the parliamentary elections, Primakov became the leader of the Fatherland and All-Russia faction in the Duma. But he was obviously bored by parliamentary work. After lengthy negotiations with the Kremlin, he was appointed head of the Chamber of Commerce. He had requested the post of speaker of the Federation Council, the upper chamber of the parliament, but Putin gave that to his man from Saint Petersburg, Sergei Mironov.
- 4. Anatoly Chubais, who was in charge of the SPS election headquarters, described the party's election results as "a complete revolution in the political structure of Russia." On another occasion, he trumpeted: "SPS is tomorrow's power." As usual, he exaggerated.
- 5. Soon after, Sergei Kiriyenko, who accepted the post of presidential representative in Putin's new superpresidential regime, confirmed the evolutionary tendencies of the leaders of the SPS movement, whose aim was to have at any cost an official post that would give them the opportunity to engage in business. Chubais was already a state oligarch, having become under Yeltsin the director of RAO UES (Unified Electricity System), a "natural monopoly" that managed all of Russia's electricity.
- 6. According to a VTsIOM poll conducted January 6-10, 2000, 51 percent of Russians expressed satisfaction with Yeltsin's retirement, 27 percent surprise, 11 percent delight, 7 percent confusion, 4 percent each anxiety and regret, and 1 percent outrage; 12 percent had no particular feelings about it, and 1 percent had no opinion.

- 7. Notably Yeltsin spoke about resigning even sooner and handing over power to Putin before the parliamentary elections. That might suggest that the ruling Family had already made its decision about the successor. It also suggests that the Kremlin was not very worried about the results of the Duma election, apparently feeling that they could control them. But obviously the failure of the pro-Kremlin movements to get a majority of votes in December 1999 could have led to corrections in the "succession plans."
- 8. In September 1999, according to VTsIOM, the desire to see Yeltsin retire predominated among Russians. Thus, 65 percent of those polled (elt that it would be better for Yeltsin to retire and for new elections to be held, 21 percent felt that Yeltsin should stay on to the end of his term but not get involved in the work of the government. 5 percent felt that Yeltsin should keep all his powers to the end of his term, and 9 percent had no opinion.
- 9. See the analysis of Yeltsin's rule in Leon Aron, Yeltsin: A Revolutionary Life (New York: Saint Martin's Press, 2000); Peter Reddaway and Dmitri Glinsky, The Tragedy of Russian Reforms (Washington, D.C.: U.S. Peace Institute, 2001); Michael McFaul, Russia's Unfinished Revolution (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 2000); George Breslauer, Gorbachev and Yeltsin as Leaders (New York: Cambridge University Press, 2002); and Lilia Shevtsova, Yeltsin: Myths and Reality (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 1999), which is also available in a Russian edition, Rezhim Borisa El'tsina (a Carnegie Moscow Center publication; Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 1999).
- 10.1 remember, in a film about Yelssin shown in 2000, that Yelssin's daughter Tatyana is watching former Soviet president Mikhail Gorbachev on television and says to her father, "How Gorbachev has aged!" Yet at that time, Yeltsin was a total ruin in comparison with the dynamic, youthful, still attractive Gorby.
- 11. Guillermo O'Donnell, "Delegative Democracy," Journal of Democracy, vol. 5, no. 1 (January 1994), pp. 59-62.

الغصل الثالث

- 1. Putin celebrated the New Year as acting president in notable fashion—he and his wife flew to war-torn Chechnya. It was yet another demonstration of his new, mobile leadership style.
- Moskovskie novosti, January 5, 2000.
- Oligarch Boris Berezovsky said, "Putin is a man who could guarantee the succession of power," explaining that he defined succession as "not allowing a redistribution of property." Kommersant-Daily, November 27, 1999.

- 4. Nezavisimaya gazeta, December 30, 1999.
- 5. Izvestija, February 25, 2000.
- Lev Gudkov and Boris Dubin, "Vse edino: Rossiiskomu obshchestvu stalo zhit' khuzhe, stalo zhit' skuchnee" [All the same: The Russian government began to live worse and its life became more boring], ltogi, January 23, 2001.
- 7. Thus, in April 2000, only 2 percent of those polled felt that positive changes could be expected right after the election, 10 percent felt that such changes would happen after six months, 20 percent after a year, and 22 percent in two to three years; 20 percent felt it would take more than three years, 12 percent doubted there would be such changes under this president, and 14 percent had no opinion.VTsIOM, www.polit.ru, April 14, 2000.
- 8. VTsIOM, www.polit.ru, March 7, 2000.
- 9. VTsIOM, www.polit.ru, April 14, 2000.
- 10. Putin worked for Borodin for a time in the Office of the President's Affairs. After his election, he recommended Borodin for secretary of the Russian-Belarusian Union—a diplomatic position that gave him immunity. By making this recommendation, Putin was demonstrating his gratitude.
- 11. Obshchaya gazeta, February 9, 2000.
- 12. VTsIOM, www.polit.ru, November 2000.
- 13. Kasyanov was supported by 325 deputies—a record. The most influential prime minister before him, Yevgeny Primakov, got 317 votes.
- 14. Putin named as head of the Central Okrug Georgy Poltavchenko, lieutenant general of the tax police and Putin's close friend. The head of the North-West Okrug was to be Victor Cherkesov, an FSB contrade of Putin's in Saint Petersburg and the first deputy director of the FSB. Sergei Kiriyenko, a leader of the SPS faction and former prime minister, was named head of the Povolzhye Okrug. For the Siberian Okrug, Putin tapped Leonid Drachevsky, minister of affairs of the Commonwealth of Independent States. The head named for the North-Caucasus Okrug was General Victor Kazantsev, previously responsible for operations of the "antiterrorist operation" in the Northern Caucasus. The head of the Ural Okrug was to be Lieutenant General Petr Laryshev, deputy minister of internal affairs. For the Far East Okrug, the head was to be General Konstantin Pulikovsky, commander of federal forces in Chechnya in the first Chechen war. On Putin's Federation reform, see Eugene Huskey, "Center-Periphery Struggle: Putin's Reforms," in Archie Brown and Lilia Shevsova, eds., Corbachev, Yeltsin, and Putin: Political Leadership in Transition (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2001).
- 15. The first law gave the president the right to demand that the regional bosses obey the laws of the Russian Federation and to punish them by suspending the powers of the

law-breaking governors and replacing them with temporary leaders. Another law gave the same powers to the governors vis-à-vis local leaders. The third law covered new principles for the formation of the Federation Council, among them that governors and heads of local legislatures could no longer preside in the upper chamber and no longer had immunity from prosecution for criminal or administrative wrongdoing. The Federation Council would consist of regional representatives proposed by the regional authorities.

- 16. Writing in Kommenant-Daily on May 20, 2000, Ilya Bulavinov, Nikolai Vardul, and Azer Mursaliev declared, "There is yet another revolution in Russia. And once again from above. Of course, it is not clear whether it will achieve its goals. After all, not only are the disadvantages of the former administration still here, but new ones have appeared."
- 17. By 2002, the presidential representatives in the oling; had basically fulfilled their positive role—thanks to the pressure on the governors, they had helped bring local laws in line with the Russian Constitution. But then they became an obstacle in the relations between the regions and the center, increasing its bureaucratization. Putin seemed to realize that, but he did not know what to do with his representatives.
- 18. Chubais's role in this period was contradictory. While trying to curtail Berezovsky and Gusinsky, he continued to support the oligarch Vladimir Potanin, who was close to the liberals at that time.
- "Diktatura razrushit stranu: Obshchestvu est' chto teryat" [Society has a lot to lose]. Obshchaya gazeta, May 25–31, 2000.

القصل الرابع

- 1. I observed this unequal battle close up—in 2000, I was a member of the Public Board of NTV, a consultative organ of the television network, headed by former USSR president Mikhail Gorbachev. The board included several well-known democrats of the first wave: Yurs Afanasyev and Yurs Ryzhov; writer Alexander Gelman; the editor of Obshchaya gazeta, Yegor Yakovlev; the editor of Novay gazeta, Dmitry Muratov; and Mikhail Fedotov, a former press minister in the Yelsin government. The Public Board tried to organize support for the persecuted journalists.
- 2. The results of another poll conducted by the VTsIOM in July 2002 are worth mentioning. In that survey, 39 percent were attracted to Putin because he was energetic and strong-willed, 19 percent thought he could bring order to the country, 9 percent thought that he was a leader who could lead others, 6 percent considered hum an experienced politician, and 5 percent thought him a far-seeing politician. The rest selected other qualities in Putin—that outwardly he was nice, that he understood the

needs of ordinary people, and so on. When the same respondents were asked what they didn't like about Putin, 29 percent of them said that he had ties to the Yeltsin entourage, 12 percent that he had no clear policies, and 10 percent that his actions in Chechnya were solely to boost his popularity. Forty-three percent of respondents could not identify what they did not like about the new president.

- 3. Berezovsky, attempting to appear to be a defender of democracy, began subsidizing nongovernmental and human rights organizations. He even bailed out the Andrei Sakharov Foundation, named for one of the best-known Soviet dissidents, which was in a perilous financial state. Sakharov's widow, the human rights activist Yelena Bonner, accepted the money, albeit after some vacillation, thereby legitimating Berezovsky's new role.
- 4. But the intriguer remained faithful to intrigue—in his numerous speeches in that period, Berezovsky left open the possibility of rapprochement with Putin, if the president only called him. Berezovsky always said that there was no alternative to Putin in the presidential elections and that he would support him again.
- 5. After fleeing to London, Berezovsky created his party, Liberal Russia, which was joined by the well-known liberals and former members of the SPS Sergei Yushenkov and Victor Pokhmelkin. The oligarch took his place among the leadership of the party, which he financed. In April 2002, Berezovsky published "Manifesto of Russian Liberalism," one of the most eloquent attempts to set a liberal agenda for Russia. The former oligarch seemed to understand better than many other liberal politicians what Russia needed to resume in liberal reforms. Boris Berezovsky, "Manifesto of Russian Liberalism," Nezavismoya gazeta, April 11, 2002. In October 2002, Berezovsky was expelled from his own party after trying to make friends with nationalists and communists.
- 6. Kommersant-Vlast, August 20, 2000.
- 7. When Russians learned from a note found with one of the bodies that some of the crew had remained alive for a time after the accident, 40 percent of those polled expressed outrage at the authorities, 25 percent expressed grief over the deaths, 16 percent said that the people had been lied to, 11 percent expressed andness, 6 percent expressed no feelings, and 2 percent could not define their reaction to the event.
- 8. At that time, the Kremlin administration began examining the possibility of ending gubernatorial elections. The idea was fully consonant with the logic of the president's pragmatic authorizarianism, which was built on the lower echelons' dependence on the leader and not on the voters. Besides which, the people in the Kremlin were tired of expending energy and money supporting their candidates in the regions.
- The president's political engineers began work on new electoral legislation. It proposed introducing proportional elections—following the model the Duma had created—in all the regional parliaments by 2003. That would change the political land-

scape in the regions, strengthening the center's control, because, in accordance with the law on parties, regional parties were in fact liquidated. The new laws on parties and on elections were supposed to be a new step in political reform that would establish the role of the Krernlin "party of power" (first it was Unity, later United Russia) and make it the ruling party.

- 10. In the fall of 2002, the pro-Kremlin party United Russia suggested that the threshold required for the political party to get representation in the Duma be raised from 5 to 7 percent (at the beginning, a 12.5 percent threshold was suggested). It was one more step toward a party system fully controlled from above that would keep the ruling team from having any unpleasant surprises.
- 11. The "Pristina dash" by Russian parachutists in 1999 during the Kosovo crisis (the purpose of the "dash" was to force NATO to guarantee for Russia a separate sector of responsibility in Kosovo) was organized by the head of the General Staff, Anatoly Kvashnin, and his deputy, Leonid Ivashov, without the knowledge of minister of defense Igor Sergeyev and most likely also without Yelxin's knowledge. It could have created a real conflict between Russia and NATO.
- 12. Unbelievable but true: In 2001, almost a million Russian service members continued to guard "mobilization resources" in case of global war, that is, they worked as warehouse guards. The warehouses they protected held enough old-style military topcoats to dress the entire male population of draft age.
- 13. Thus, in the course of the military reform initiated by Putin, the salary of officers went up by 300 to 500 rubles (\$100 to \$160), which would hardly have satisfied them.
- Oleg Odnikolenko, "Skol'ko stoi profi" [How much do professionals cost], Itogi, January 22, 2002.
- 15. Every Russian man of age 18-27 years is required to serve two years in the military. But most get deferments for higher education and other reasons or exemptions for poor health. Others avoid the call-up by paying bribes or just fleeing.
- 16. In the heat of the 1996 reelection campaign, Yeltain had pledged to form a fully contract military by 2000. But his promise was quickly disavowed by top officials, who said that such a project was too expensive.

الغصل الغامس

 On the second Chechen war, see Gail W. Lapidus, "Putin's War on Terrorism: Lessons from Chechnya," Post-Soviet Affairs, vol. 18, no. 1 (January-March 2002), pp. 41–49; Anna Politkovskaya, A Dirty War: A Russian Reporter in Chechnya (London: Harvill Press, 2002); and Alexei Malashenko and Dmitri Trenin, Vremia Juga: Rossiia v

- Chechnie—Chechnya v Rassii [The time of the South: Russia in Chechnya—Chechnya in Russia] (a Carnegie Moscow Center publication; Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2002).
- And only 17 percent felt that Russia was obligated to compensate Chechnya for war damages, while 73 percent were against it, feeling that Russia had enough of its own problems without the Chechens Yuri Levada, "Rossiyane ustali ot voiny" [Russians are tired of war], Obshchaye gazeta, August 17–23, 2000.
- 3. Politkovskaya, A Diety War, p. 21.
- Ruslan Khasbulatov, "Situatsiya v Chechenskoi respublike" [The situation in the Chechen Republic], Nezavisimaya gazeta, December 29, 2000.
- Quite a few Russians in the army, including officers, entered into a deal with Chechen units to sell Chechen oil illegally or to sell arms to the separatists Russia was fighting.
- 6. In April 2000, 60 percent spoke out in support of military action in Chechnya, but by October the figure was down to 44 percent. In April, 21 percent supported the idea of negotiations with Chechnya, whereas in October it was 47 percent. Yuri Levada, "Chto schitaem po oseni" [What we think in autumn], NG-Stenarii, November 15, 2000.
- 7. In November, an International Monetary Fund mission came to Moscow and found the economic situation in the country so good that it concluded that Russia did not need new credits and could pay the Paris Club. This was a blow to the government, which had been counting on International Monetary Fund loans.
- 8. The price of Russian exports rose as much as 38 percent, while the cost of imports fell 14 percent. The index of industrial growth, compared with the same period in 1999, rose 9.6 percent. The growth in oil production continued. Real incomes rose 9.5 percent in ten months compared with the same period the year before. But they did not reach the 80 percent level of pre-crisis 1997. Vedomosti, November 27, 2000.
- 9. Niezavisimaja gazeta, November 17, 2000.
- 10. Polls showed that only 39 percent of Russians supported reinstating the Soviet anthem. The rest preferred other options, including the current anthem with music by Ivan Glinka (20 percent). Vedomosti, December 9, 2000.
- 11 Komsomolskaya pravda, December 8, 2000. Yeltsin spoke after Anatoly Chubais drove out to the dacha where Yeltsin was living like a hermit and persuaded him to protest the return to the Soviet symbols. It was obvious that Yeltsin was sincerely upset by Putin's decision to reinstate the old symbols.
- 12. The only possible path for Russia is to conclude a long-term strategic alliance with Asia, said Alexander Dugin, one of the ideologues of Eurasianism, a form of Russian nationalism. Available at www.strana.ru, November 14, 2000.
- 13. Strobe Talbott, The Russia Hand, A Memoir of Presidential Diplomacy (New York:

Random House, 2002).

- 14. Thomas Graham and Arnold Horelick, U.S.—Russian Relations at the Turn of the Century, Report of the U.S. and Russia Working Groups (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2001), p. 9.
- 15. Talbott, The Russia Hand, p. 4.
- 16. Jim Hoagland, "From Russia with Chutzpah, or How to Alienate a Partner," International Heald Tribune, November 23, 2000.
- 17. U.S. assistance to Russia was significant, but not as large as the Russian leadership expected. Between 1992 and 1999, the United States provided Russia with \$7.67 billion in economic assistance (the European Union between 1991 and 2000 provided Russia with \$2.28 billion). In addition, Russia got \$8.89 billion in commercial financing and insurance from the U.S. government, of the \$18.01 billion provided to the newly independent states. In 1999, Washington provided \$905 million in official assistance to Russia. (The European Union provided \$144 million, including Germany's contribution of \$82 million.) Russia became the second largest recipient of American aid, after Israel. Eather Brimmer, Benjamin Schreer, and Christian Tuschoff, Contemporary Perspectives on European Seasity, German Issues No. 27 (Washington, D.C.:American Institute for Contemporary Studies, Johns Hopkins University, 2002). In the 1990s, the United States became the largest outside investor in the Russian economy, accounting for 30 percent of all foreign investments.
- Yuri Levada, "2000 god—razocharovaniya i nadezhdy" [The year 2000—disappointments and hopes], Moskovskie novosti, December 26, 1999–January 2, 2000.
- 19. Kommersant-Vlast', December 26, 2000.

للقصل السائس

- According to polls, only 15 percent of Russians at that moment wanted Russia to take
 "the path of European civilization common to the modern world," 18 percent wanted to return to the path followed by the USSR, 60 percent preferred Russia's "own special path," and 7 percent had no opinion. Lev Gudkov and Boris Dubin,
 "Rossiiskomu obshchestvu stalo zhit' khuzhe, stalo zhit' skuchnee" [Life is worse and less merry for Russian society], Itogi, January 23, 2001, p. 14.
- 2. Gudkov and Dubin, "Rossiiskomu obshchestvu stalo zhit' khuzhe," p. 14.
- Alexander Tsipko, "Smozhet li Putin pereigrat" Gusinskogo?" [Will Putin be able to
 outplay Gusinsky?], Nezavisimaya gazeta, February 20, 2001, and Vitaly Tretyakov,
 "Bolshaya stat'ya o Putine i Rossii" [Big article on Putin and Russia], Nezavisimaya
 gazeta, January 31, 2001.

- 4. Gudkov and Dubin, "Rossiiskomu obshchestvu stalo zhit' khuzhe."
- 5. At the peak of the crisis with NTV in March 2001, 35 percent of those polled across the country expressed outrage over the events (in Moscow it was much higher—55 percent). In April, three-quarters of Muscovites said they trusted NTV. Almost half those polled in this period thought that the conflict surrounding NTV had been created because of the authorities' desire to liquidate independent television. Another 33 percent were blaming the company. Yuri Levada, "Vlast' silna no bespomoshchna" [The regime strong but helpless], Moskovskie novosti, April 10–16, 2001.
- 6. Part of the team from the old NTV, headed by Yevgeny Kiselev, moved to a different channel, TV-6, which by an irony of fate was owned by Boris Berezovsky. This is the drama of the Russian mass media—there were no alternative publicly financed outlets, and media that wanted to be independent of the state had to bow down to the oligarchs.
- The former teams of Itogi and Segodnya soon began to publish the new journals Ezhenedel'ny zhumal and Djelovaya khronika. But those journals had no previous popularity.
- In 2002, the Kremlin began discussing the idea of forming the government on the basis of the dominant party, United Russia.
- A number of active members of the Union of Right Forces (SPS), among them Sergei
 Yushenkov and Victor Pokhmelkin, created the new Liberal Party, in opposition to the
 Kremlin, with the active support of oligarch Boris Berezovsky.
- Vitaly Tretyakov, "Putin, Chubais i SPS" [Putin, Chubais, and the SPS], Nezavisimaya gazeta, May 23, 2001.

للقصل السابع

- Now three disciplinary warnings were enough to get a judge fired. The mechanism
 for holding judges criminally liable was simplified. Ordinary judges and their tenures
 depended on the chairmen of courts, who were appointed by the executive branch.
- In Europe, small and medium-sized businesses accounted for 70 percent of gross domestic product, whereas in Russia, they accounted for only 10 percent. Novye izvertiya, December 21, 2001.
- 3. The Putinists were also known as the Northern Alliance, a reference to Afghanistan's Northern Alliance and to the fact that these people had come with Putin from Saint Petersburg, Russia's "northern capital." The Putinists of that period included Nikolai Patrushev, director of the FSB; his depury, Nikolai Zaostrovtsev; Igor Sechin and Victor Ivanov of the presidential staff; and Victor Cherkesov and Georgy

Polizychenko, presidential representatives in the olongs (new regional jurisdictions).

- 4. The leader of the Yelssinites was first head of the presidential staff Alexander Voloshin. Prime Minister Mikhail Kasyanov was part of the group. They were soon joined by former privatization tar Anatoly Chubais, who would for some time be the new inspiration of the old Yelssin circle. Several oligarcha, such as Oleg Deripaska and Roman Abramovich, were part of the circle as well.
- On United States—Russia relations under Bush and Putin, see Angela Stent and Lilia Shevtsova, "America, Russia and Europe: A Realignment?" Survival, vol. 44, no. 4 (Winter 2002–2003).
- 6. Other administration officials were less restrained. The secretary of defense, Donald Rumsfeld, said openly, "Russia is an active proliferator. It has been providing countries with assistance in these areas in a way that complicates the problem for the U.S. and Western Europe." And the deputy secretary of defense, Paul Wolfowitz, was even more frank: "These people seem to be willing to sell anything to anyone for money. I recall Lenin's phrase that the capitalists will sell the very rope from which we will hang them."
- 7. Right after the terrorist attacks on the United States, 52 percent of Russians polled expressed their support for Americans. A majority of 54 percent, however, thought Russia should remain neutral and not take part in the response to September 11; only 28 percent said Russia should give the West moral support, and 30 percent supported participation in United States—organized military operations aimed at terrorists.
- Figures in this paragraph and the next are taken from "Rossiia v poiskakh strategicheskoi positsii" [Russia in search of a strategic position], posted on www.liberal.ru, October 2002.
- 9. "Rossiia v poiskakh."
- 10. At least a partial flare-up in the Russian public occurred during the Winter Olympic Games in Salt Lake City in February 2002, when the Russians began to lose. Some Russian media outlets tied these losses to a "conspiracy against Russia" with a bias toward the United States. Even Putin did not avoid outrage over "nonobjective judges."
- Patrick E. Tyler, "In Spat on NATO and Russia, Powell Fends Off Rumsfeld," New York Times, December 8, 2001.
- 12. According to Public Opinion Foundation polls, 43 percent of Russians had negative feelings about the U.S. withdrawal from the ABM Treaty, 31 percent were indifferent, and 8 percent were positive (18 percent had no opinion). And 42 percent of those polled felt that Putin had to take action in response (only 28 percent felt that he should not). Posted on www.fom.ru, December 27, 2001.
- 13. Rodric Braithwaite, Across the Moscow River: The World Turned Upside Down (New

Haven, Conn.: Yale University Press, 2002), pp. 338-39.

 Yuri Levada and Leonid Sledov, "Obshchestvenno-politicheskaia situatsiia v dekabre 2001" [The sociopolitical situation in December 2001], VTslOM, December 27, 2001.

القصل الثامن

- Putin's constant vacillation increased the frustration of the liberal-minded people in Russia who had strongly endorsed his pro-Western shift. See Andrei Piontkovsky, "My Putin," Novaya gazeta, October 10, 2002.
- 2. Putin proved that he was consequential—he did not forgive and he did not forget his personal enemies as his predecessor sometimes had done. At that time, the president's chief enemy was Boris Berezovsky, who was waging his own vendetta against Putin and who continued to be the owner of TV-6. Having no possibility of reaching Berezovsky in the United Kingdom, where the oligarch found political asylum in 2000, the Kremlin cracked down on TV-6. But even without Berezovsky, independent television in Russia had no future.
- 3. Moskovskie novosti, January 8-21, 2002.
- 4. Financial Times, February 10, 2002.
- Andrew Kuchins, Summit with Substance: Creating Payoffs in an Unequal Partnership, Carnegie Endowment Policy Brief 16 (May 2002).
- 6. In the spring of 2002, the United States withdrew from its steel agreement with Russia, increasing its tariffi, which was a painful blow to Russian producers: It cost Russian producers up to \$600 million annually. Moscow reciprocated with a ban on American poultry—"Buth chicken legs" (as Russians called American chickens imported into Russia beginning during George H.W. Bush's presidency)—that affected American farmers in 32 states and cost American producers \$800 million a year. In the end, the United States made exemptions on steel imports for its European allies. Those exemptions did not, however, extend to Russia. Meanwhile, Russia lifted its ban on American poultry.
- 7. Nezavisimaya gazeta, April 8, 2002.
- Leon Fuerth, "On Russia, Think Big," Washington Post, May 1, 2002. Katrina Vanden Heuvel and Stephen Cohen criticized Washington policy for "treating Russia not as a real partner but as a helper when it suits U.S. purposes." Katrina Vanden Heuvel and Stephen Cohen, "U.S. Takes Russia for Granted at Its Peril," Los Angeles Times, May 1, 2002.
- 9. Robert Legvold, "Russia's Unformed Foreign Policy," Foreign Affairs, vol. 80, no. 5

- (2001), p. 72. On United States-Russia relations after September 11, 2001, see Robert Legvold, "U.S.-Russian Relations Ten Months after September 11," paper presented at the 27th Conference of the Aspen Institute, U.S.-Russia Relations; A New Framework (Washington, D.C., August 15-21, 2002).
- 10. See Current History, October 2002, available at www.currenthistory.com.
- 11. Thomas Graham, Russia's Decline and Uncertain Recovery (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2002), p. 84.
- 12. Stephen Kotkin, Armageddon Averted: The Soviet Collapse, 1970-2000 (New York: Oxford University Press, 2001).
- 13. On issues of order in Russia, see Richard Rose and Neil Munro, Elections without Order: Russia's Challenge to Vladimir Putin (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).
- 14. Vedomosti, April 23, 2002.

القصل التاسع

- 1. The Russian government retained other influential members of the Yehsin group: Mikhail Lesin, head of the Ministry of Press and Information; Mikhail Zurabov, head of the Pension fund; Sergei Shoigu, minister of emergency situations; Vladimir Rushailo, head of the Security Council; and numerous less significant figures.
- 2. Mikhail Kasyanov made no efforts to flex his political muscles. He was too busy. according to his closest subordinates, with his own business. But he clearly would not have minded taking the most prestigious post in the land if it were offered to him and if all the dirty work needed to obtain it were done for him. What politician would mind it?
- 3. Address to the Federal Assembly of the Russian Federation, May 16, 2003. Available at www.kremlin.ru.
- 4. Russian observers expressed serious doubts about how things would develop after Saddam was removed."No one doubts that the US is capable of destroying the Iraqi army in a few weeks," wrote Alexei Arbatov. "The problem is elsewhere: what is to be done after the operation is completed?" Alexei Arbatov, "Irakskii krizis: moment istiny" [The Iraq crisis: the moment of truth], www.politcom.ru.
- VTsIOM, January 24–27, 2003.
- 6. Andrei Piontkovsky wrote: "The confrontation with America for the sake of confrontation and showing 'toughness' is not in the national interests of the Russian Federation.... For Russia, with its presently limited resources and the specter of security threats to the South and East, the properly phrased question is: how best to use

- the potential of the only superpower in the world [i.e., the United States] to solve the problems of our own security." A. Piontkovsky, "Lovushka dlia prezidenta" [Trap for the President]. Nowaya pazeta, March 13, 2003.
- L. Ivashov, "SShA terpiat politicheskoe porazhenie" (The USA is suffering a political defeat), Nezavisimaya gazeta, March 25, 2003.
- Alexei Pushkov, "Printsipy—eto te zhe interesy" [Principles are just interests], Nezavisimaya gazeta, March 21, 2003.
- 9. Le Figaro, March 26, 2003.
- 10. Stephen Sestanovich, "Restoring US-Russia Harmony," New York Times, May 31, 2003. In turn, Dmitri Trenin wrote, "The events in Iraq could easily have led to a break between Moscow and Washington, but it did not happen. George Bush, apparently, decided that his relations with Putin were worth saving." D. Trenin, "Russian-American Relations Two Years after September 11," Briefing, Carnegie Moscow Center, August 2003.
- Angela Stent, "Washington, Berlin and Moscow: New Alignment after Iraq?" National Interest, vol. 2, no. 29, July 23, 2003.
- Leon Aron, Russia, America, Imq (Washington, D.C.: American Enterprise Institute, 2003). Available at www.AEI.org/publications.
- 13. Pushkov, "Printsipy."
- 14. In 1993, both companies won a tender to develop the oil fields of Sakhalin-3 and even began investing in the development. But despite Putin's promises to settle the question positively with legal rights to the development, the Russian government decided to hold a new tender, annulling the results of the 1993 competition.
- Angela Stent, "How Close an Embrace with Moscow?" World Policy Journal, vol. 20, no. 4 (Winter 2003–2004), pp. 76–77.
- 16. Sestanovich, "Restoring US-Russia Harmony."
- 17. FOM (Public Opinion Foundation), www.fom.ru.
- 18. During Desert Storm, Mikhail Gorbachev sent his emissary Yevgeny Primakov, who knew the Iraqi leader well, to Baghdad to help Saddam. This time, Putin sent Primakov to Baghdad right before the start of military action to persuade Saddam to give up power.
- 19. One of the warnings of the coming "anti-oligarch revolution" was the May 2003 report of the so-called Council on National Strategy, a Kremlin-created group of analysts. The report tried to show that Russia was in danger of an "oligarchic revolt," whose ideologue was allegedly Khodorkovsky and whose aim was the transformation of Russia into a parliamentary republic, controlled by big business. The revolt was to take place during the 2004 Duma elections, when a government headed by

- Khodorkovsky would be formed "An Oligarchic Revolt Is Planned in Russia." Report of the Council on National Strategy, available at www.apn.ru.
- 20. Putin's attitude toward Khodorkovsky became plain at the meeting between the president and the oligarchs on February 19, 2003, when Khodorkovsky expressed his doubts about the purity of Rosneft's acquisition of Servernaya Neft for \$600 million. Putin responded by asking Khodorkovsky how YUKOS had obtained its super reserves. "The ball is in your court," the president announced, staring at Khodorkovsky unblinkingly and with such hostility that Khodorkovsky grew pale.
- 21. While in Washington, Khodorkovsky discussed the possibility of his going into politics with representatives of the American elite, and that fact was clearly no secret from the Kremlin. Visits to Washington have hastened the fall of important Russians in the past: Prime Minister Chernomyrdin lost his post because Washington began to see him as a pretender to the presidency.
- 22. At one point, Voloshin's circle tried to raise public concern and foment outrage against Putin's siloviki, hoping to stop the president from his anti-oligarchic move. But the attempt failed. Gleb Pavlovsky, an adviser to the administration close to Voloshin, had written a letter denouncing the Saint Petersburg group of siloviki—Sechin, Ivanov, and Pugachev—for trying to create their own power center in the Kremlin. See Vedomosti, September 8, 2003. But later Pavlovsky changed his position. Only the flexible survive in Russian politics.
- Otto Latsis, "Zagryaznenie atmosfery" [Pollution of the environment], Russkii Kur'σ, August 8, 2003.
- 24. Vlast'i biznes: Leto 2003 (Moscow: Liberal'naya Missia Foundation, 2003), p. 67.
- 25. In July, the members of the Russian Union of Industrialists and Entrepreneurs, the union of the oligarchs, wrote Putin a letter in which the tycoons stated that the main cause of their problems was the law and order agencies and demanded an end to the campaign "unleashed in the country by those forces who are threatened by stability." The initiator of the letter was Anatoly Chubais, who understood perfectly well that as soon as Putin's Praetorian Guard was through with the oligarchs, it would be his turn, as one of the most independent politicians and state "oligarch." The president did not like their letter, and the oligarchs wrote a second one, which was much milder and asked the regime to make a "civil contract" with them, in which the regime would pledge not to reconsider the results of privatization and business would guarantee to pay taxes. The president ignored this letter, too. And the courts kept the YUKOS managers in prison.
- 26 I remember my conversation with several major oligarchs, who were incensed by Khodorkovsky's behavior. In their opinion, he had endangered them all with his political ideas and attempts to wrest control of the Duma. They were afraid that the attack on big business would continue and they would all feel the blows. "He's gone

- overboard," was the general reaction of Russian business. There wasn't a hint of sympathy for Khodorkovsky.
- 27. See www.liberal.ru.
- See Marshall Goldman, The Pinetization of Russia: Russian Reform Goes Aury (London: Routledge, 2003), on the character of Russian privatization.
- 29. Vlast' i Biznes, p. 31.
- 30. One of the most active proponents of this idea was Sergei Glazyev, from whom the concept of natural rent was borrowed by various political forces.
- 31. In his article "Liberalism: Without Democracy It Won't Work," Yegor Gaidar wrote, "The argument is that it's time to redistribute the assets, since they have become much more valuable. Naturally, redistribute it for the benefit of the people, even though in fact such attempts always end with redistribution for the benefit of the elite close to the regime." Vedomosti, April 16, 2004.
- 32. In June 2004, Paul Khlebnikov, editor-in-chief of Forbes Russia, was murdered in Moscow while returning home after work. Few people doubted that it was a contract killing. If so, looking into the pockets of hundreds of oligarchs, what Khlebnikov was doing, was really like walking in a minefield. Russian oligarchs still did not feel themselves secure and that means that privatization and with it Russian stability were not secure at well.
- 33. In 1993, the pro-Kremlin Russia's Choice got 15.5 percent, coming in behind the Liberal Democratic Party (22.9 percent). In 1995, Democratic Choice of Russia did not make it over the 5 percent barrier, getting 3.9 percent of the votes. The pro-Kremlin Our Home Is Russia came in fifth, with 10.1 percent. In the 1999 election, Our Home Is Russia got 1.2 percent, while the new pro-Kremlin party United Russia was second with 23.3 percent to the Communitat 24.3 percent.
- 34. Dmitrii Kamyshev, "Kremlya Palata," Kommersant- Vlast', December 1-7, 2003.
- 35. VTsIOM polls in November 2003 showed that 26.2 percent would vote for United Russia, 19.6 percent for the Communist Party, 5.5 percent for SPS, 5.4 percent for Yabloko, 5.3 percent for LDPR, and 4.1 percent for Rodina.
- 36. See the analysis of the election results: Igor Bunin, Alexei Zudin, Boris Makarenko, and Alexei Makarkin, "Do i posle 7 dekabrya: razvitie politicheskoi situatsii v Rossii" [Before and after 7 December: development of the political situation in Russia], available at www.politcom.ru.
- The Party of Pensioners and the Agrarian Party both got more than 3 percent—3.09 and 3.64 percent, respectively.
- 38. Nezavisimaya gazeta, December 11, 2003.
- 39. A member of the presidential administration noted in a conversation with me about

SPS and Yabloko: "We did not bother them. They couldn't stay afloat on their own."

Yes, the Kremlin did not actually try to drown them. But the Kremlin created conditions in which swimming was very difficult.

- 40. It seems that the Kremlin spin doctors thought that their child Rodina would get 4 to 5 percent of the vote at best. But once Rodina got more, it began making demands. The Kremlin had no intention of satisfying the clone's demands, and it began turning off the oxygen supply, primarily of the most uncontrollable and ambitious Rodina leaders, Sergei Glazyev, who had presidential aspirations. Soon after the election, the pro-Kremlin part of Rodina, which was headed by Rogozin, got rid of Glazyev.
- 41. This fact was noted by Leon Aron, "The Duma Election," American Institute for Public Policy Research, Winter 2004, available at www.wei.org.
- 42. Yuri Levada, "2003-Events and People," Moskovskie novosti, no. 49, 2003.

القصيل العاشر

- I. Bunin, A. Zudin, B. Makarenko, and A. Makarkin, "Prezident poaledniego sroka: politicheskaya situatsiia v Rossii poale prezidentskikh vyborov" [The president of the last term: the political situation in Russia after the presidential elections], available at www.politcom.ru.
- According to FOM (the Public Opinion Foundation, a survey institution close to the Kremlin), in February 2003 Putin would get 74 percent of the vote; Glazyev, 7 percent; Kharitonov, 6 percent; Khakamada, 5 percent; Mironov, 2 percent; Malyshkin, 1 percent; and Rybkin, 1 percent. Available at www.fom.ru.
- Fradkov had worked at different jobs in USSR embassies, had been deputy minister and then minister of foreign economic relations in the Russian government, minister of trade, and director of the federal tax police.
- According to the Levada Center, the popularity of Kasyanov's government was growing. The approval rating grew from 46 percent in February 2003 to 50 percent in 2004. Available at www.levada.ru.
- 5. The nomination of Ivan Rybkin and the business of his disappearance before registering as a presidential candidate were apparently related to the attempts of Boris Berezovsky, who was financing Rybkin, to discredit the election. In the end, after becoming the center of the scandal, Rybkin decided not to run.
- 6. Putin's speech to his representatives, Levestiya, February 13, 2004.
- Communist candidate Kharitonov got 13.7 percent (9.4 million votes); Glazyev, 4.1
 percent (2.8 million); Khakamada, 3.8 percent (2.6 million); Malyshkin, 2 percent
 (1.39 million); and Mironov, 0.76 percent (588,000).

- Michael McFaul and Nikolai Petrov, "What the Elections Tell Us," Journal of Democracy, vol. 15, no. 3 (July 2004), p. 29.
- Gernot Erler, "Kak vospitat' 'khoroshuyu vlast'" [How to bring up a 'good regime'], Nezavisimaya gazeta, Dipkur'er, April 5, 2004.
- 10. Viktor Kremenuk, "Sovrashchenie sverkhderzhavy: Skandal vokrug pytok v Irake vysvetil opasnuyu transformatiyu amerikanskogo obshchestva" [Seduction of a superpower: the scandal around torture in Iraq exposes a dangerous transformation of American society], Nezavisimaw gazeta, May 19, 2004.
- 11. The soft punishment of the Russian colonel Budanov, who had killed a Chechen girl and was caught red-handed, was only one of numerous cases that demonstrated the selective ways of the Russian court system.
- 12. VTsIOM poll, Interfax, May 14, 2004.
- 13.1 have in mand the attempt of Dmitri Kozak, the deputy chief of the presidential administration, to push through his proposal to solve the Transdanstria conflict, which overruled the agreements reached with the mediation of the Organization for Cooperation and Security in Europe. After some vacillation, Kishinau rejected Kozak's plan, much to the embarrassment of the Kremlin. See the comments by Stephen Pfifer in Rossija v global'noi politike [Russia in global politics], vol. 2, no. 2, March-April. 2004, p. 116.
- Michel McFaul, "Reengaging Russia: A New Agenda," Current History, vol. 103, no. 675. October. 2004. p. 312.
- 15. Ariel Cohen said in this context: "The fact that nationalists will exert considerable influence in the Russian legislature appears to sharply reduce the chances of a softening of Russian policy [in the post-Soviet space]." Ariel Cohen, "US Officials Warily Monitor Russian Policy Debate on Caucasus," available at http://eurasianet.org.
- Alexander Vershbow, "Putin stavit kontrol" i poryadok vyshe svobody i ekonomicheskogo rosta" [Putin prefers control and order over freedom and economic growth], Kommersant-Vlast', January 12, 2004.
- D. Trenin, "Rossiia vkhodit v 'novy izolyassionism" [Russia is entering a 'new isolationism"], Nezavisimaya gazeta, December 8, 2003.
- 18. Novaya gazeta, June 28-30, 2004.
- L. Grigoryev, A. Zagorsky, and M. Urnov, Vtoroi srok prezidentskogo pravleniia V Putina: dilemmy rossiiskoi politiki [Putin's second term: dilemmas in Russian politics] (Moscow, Prava Czeloveka, 2004), p. 62.
- James M. Goldgeier and Michael A. McFaul, Power and Purpose: U.S. Policy toward Russia After the Cold War (Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2003), p. 111.
- Angela Stent and Lilia Shevtsova, "America, Russia and Europe: A Realignment?" Survival, vol. 44, no. 4 (Winter 2002–2003), pp. 121–34.

- 22. My personal meetings with Western politicians confirmed that Khodorkovsky was that last straw that made them change their minds about Putin. They weren't planning to refuse to deal with the Kremlin. But their resentment regarding the Russian leader and his team had increased, which could have political repercussions later. "We don't trust him anymore," said recent allies of the Russian president.
- 23. Jim Hoagland, "A Payoff for Putin," Washington Post, November 6, 2003.
- Colin Powell, "Partnerskie otnosheniya: rabota prodolzhaetsya" [Partner relations: work continues]. Izveriwa. January 26, 2004.
- 25. I confess that until recently I too had unjustified hopes for a more profound content in the Russian-American relationship. I saw every downturn in the relations as a harbinger of something incurable and dramatic.
- Dov Lynch, "Russia Faces Europe," Chaillot Papers (Institute for Security Studies, European Union), no. 60 (May 2003), pp. 78–79.
- 27. But then, and not for the first time—as, for instance, in the negotiations over the Kaliningrad enclave—after issuing an ultimatum, Russia made concessions and compromised with Brussels.
- Michael McFaul writes: "For instance, if Putin continues to roll back democracy and increase the state's role in running the economy, Russia's standing in the G-8 should be reviewed." McFaul, "Reengaging Russia," p. 312.
- T. Bordachev and A. Moshes, "Rossiia: konets evropeizatsii?" [Russia: the end of Europeanization?], Rosiia v global'noi politike, vol. 2, no. 2, March-April 2004, p. 110.
- L. Grigoryev, A. Zagorsky, M. Urnov. Vioroi srek prezideniskogo pravleniya V Putinf: Dilemmy rossitikoi politiki (Moscow: Prava Czeloveka), p. 78.
- Pekka Sutela, The Russian Market Economy (Helsinki: Kikimora Publications, 2003), pp. 257–58.
- 32. Poll, available at www.VTsIOM.ru.

للمسل الحادي عشر

- 1. The metaphor "elected monarchy" (or "elected autocracy") that I used earlier in the book to describe Yeltsin's rule continues to reflect the content of that rule, accenting the contradictions between personified power and the elective method of legitimizing it. The concept of "oligarchic authoritarianism" has to reflect the direction of the evolution of the political regime under the first Russian president and its nature during the final stage of Yeltsin's presidency (1995–1999).
- 2. There were numerous attempts to define Russian political reality through the con-

cept of limited democracy, that is, "democracy with adjectives." Examples are Michael McFaul's "electoral democracy," Fareed Zakariah's "illiberal democracy," and Andranik Migranyan's attempt to define it as a plebiscite or "delegated democracy." These definitions allowed us to believe that there was democracy in Russia, but either not full or deformed. The deformation needed to be corrected, certain aspects of the democracy had to be strengthened, and then we could hope for Russia's movement toward total democracy. Evolution of Russian power under Putin has proved that this rule needs different categorization. Timothy Colton and Michael McFaul, Popular Choice and Managed Democracy: The Russian Elections 1999 and 2000 (Washington, D.C.: Brookings Institution, 2003); Fareed Zakariah, "The Rise of Illiberal Democracy," Foreign Affain, vol. 76, no. 6, November-December, 1997, pp. 22–23; Andranik Migranyan, Chot takoje Putinism? [What does Putinism mean?] (Moscow: Yedinstvo vo imia Rossii. 2004).

- 3. Of the definitions of the new Russian political regime, I find productive Michael Mann's "semi-authoritarian incorporation," which means limited civil society and pluralism but not polyarchy. Richard Sakwa developed the idea further, offering the useful option: "semi-authoritarian bureaucratic incorporation." Talk at Chatham House. "Putin's Second Term." March 2004.
- 4. Nikolai Petrov shows how Putin created the administrative construction in the center and the region by using people from the power structures to control personnel policy and implement orders from the center. Petrov calls it "grassroots activity." Nikolai Petrov, "Federal raforma is kadry" [Federal reform and personnel], Briefing at the Carnegie Moscow Center, April-May 2004, www.carnegie.ru. Olga Kryshtanovskaya also wrote about the massive influx of people from the special services, especially from the former KGB, to the administration. Anatoly Kostyukov, "Vlast' trevets khaki" [Khaki-colored power], interview with O. Kryshtanovskaya in Nezawisimaya gazeta, August 19, 2003.
- 5. Stephen Kotkin, "What Is to Be Done?" Financial Times, March 6, 2004.
- 6. The real gross domestic product (GDP) grew 7.3 percent in 2003, and 8 percent in the first quarter of 2004. The federal fiscal budget ran a surplus of 3 percent in 2004. Fewer than six years after the 1998 default, currency reserves increased tenfold, reaching \$88 billion in March 2004. Inflation declined from 84 percent in 1998 to 12 percent in 2003. Export-oriented industries grew 7.8 percent and domestic manufacturing 5.6 percent in 2003. The share of investment in GDP increased to 21 percent in 2003 (from 19 percent in 2002). Foreign direct investment (FDI) increased 70 percent in 2003. Still, it amounted to \$4 billion. Cumulative FDI since 1991 amounted to \$21 billion. Personal spending grew 8–9 percent on the average, or 38 percent in four years.
- For the first time after the economic decline of the 1990s, the fuel, nonferrous metals, and forestry resources sectors accounted for almost 70 percent of industrial growth

- in 2000-2003, with the oil sector alone accounting for about 45 percent. In 2003, there was relatively strong growth in some parts of the food sector and a strong pick-up of growth in machine building. Organization for Economic Cooperation and Development, OECD Economic Surveys: Russian Federation (Paris: Organization for Economic Cooperation and Development, 2004).
- In 2003, Russian GDP growth achieved a rate of 7.3 percent and with stabilized oil
 prices at \$19 per barrel for the Urals, the growth would have been about 6.2 percent.
 OECD Economic Surveys: Russian Federation.
- The resource-exporting sectors in 2004 accounted for 80 percent of Russian exports.
 The main investments continued to be in the oil and gas sector, totaling 21–22 percent of all investments (only 3 percent went into machine building).
- Yegor Gaidar, "Ekonomicheskii rost i chelovecheskii factor" [Economic growth and the human factor], Nezavisimaya gazeta, April 30, 2003.
- L. Grigoryev, A. Zagorsky, and M. Urnov, Vioroi srok prezidentskogo pravleniia V Putina: dilemmy rossiiskoi politiki [Putin's second term: dilemmas in Russian politics] (Moscow, Prava Cheloveka, 2004), p. 28.
- V. Mau, "Okna rosta i prioritety ekonomiki" [The windows of growth and economic priorities], Rossiia v global'noi politike, vol. 2, no. 2 (March-April 2004), p. 56.
- Pekka Sutela, The Russian Market Economy (Helsinki: Kikimora Publications, 2003), pp. 227–29
- 14. Y. Yasin, "Strukturnye reformy ili ekonomicheskii rost?" [Structural reforms or economic growth?], available at www.liberal.ru.
- 15. "Quasi-state monopolies predominate in the energy and banking spheres," said Oleg Vyugin. "In such an economic structure, competition does occur. But its goal is control over the shares and satisfying the interests of the monopolists, not the production of any goods." "Makroekonomicheskaya situatsiia k nachalu 2003 g." [The macroeconomic situation in early 2003]. Liberal Mission Foundation, www.liberal.ru.
- 16. "The reforms are blocked not by the resistance of the people but the rule itself," Vyugin said in despair.
- Anden Åslund, "Russia's Economic Transformation under Putin," Eurasian Geography and Economics, vol. 45, no. 6 (September 2004), p. 417.
- 18. V. Mau, "Okna rosta i prioritety economiki," pp. 56-59.
- Within the government, the most active proponent of economic growth was presidential adviser Andrei Illarionov.
- Victor Polterovich, "Makroekonomicheskaya situatsiia k nachalu 2003 g," available at www.liberal.ru.
- 21. If the path of structural reform is taken, Yasin maintained, economic growth in

- 2005-2007 would fall to 2-3 percent. But by 2008-2010, it would go back up to 5 percent and perhaps higher.
- Philip Hanson, "Putin and Russia's Economic Transformation," Eurasian Ceography and Economics, vol. 45, no. 6 (September 2004), p. 425.
- Grigory Yavlinsky, Periferiinyi kapitalizm (Moscow: Epicenter and Integral-Inform, 2003), p. 68.
- 24. In 2003, real household incomes, which by 1999 had plummeted to 49 percent of their 1990 level, recovered to 61 percent. Average annual income growth from 2000 to 2003 was 11.3 percent. The number of people living below the poverty line decreased from 37 percent in 1999 to 25 percent in 2003 and 20.4 percent in 2004.
- Organization for Economic Cooperation and Development, OECD Economic Surveys: Russian Federation.
- 26. Mikhail Dmitriev, Gref's first deputy, explained the reasons that social reforms did not get off the ground during Putin's first term: "We did not have the resources. We met with an overbureacratized process of taking decisions and an insufficient priority for social reform in key players." Besides which, even Gref's team, burdened with day-to-day paperwork, did not have time for "formulating policy," according to Dmitriev. Profil', May 18, 2004.
- Yevgeny Gontmakher, "Sotsial'naya politika v Rossii: evolutsiia 90-x gg i novyi start" [Social policy in Russia: evolution of the 1990s and a new start], Pro et Contra, Summer 2001, pp. 1-11.
- 28. See Vadim Radaev, "Kto pomozhet rabotzyushchem bedrym?" [Who will help the working poor?], Pro et Contra, Summer 2001; and Tatyana Maleva and Sergei Vasin, "Invalidy v Rossii—uzel starykh i novykh problem" [Invalids in Russia—the knot of old and new problems], Pro et Contra, Summer 2001.
- 29. As a result, there were situations in which the minimum pension was three times greater than the minimum wage; and when the neediest were left without the support of the state, while aid went to the less-needy.
- 30. Although the death rate (14 per 1,000 people in 2003) is still higher than the birthrate (10 per 1,000), the birthrate has slightly grown since 1999. Life expectancy for men in 2004 was still only 62 years, and for women 68 years. Russia faces the problem of a declining workforce starting in 2005.
- 31. Before 1999, Russia had only a few thousand HIV-positive people; in 2004, official statistics put the number at 280,000 and unofficial statistics at about 1 million.
- 32. In 2004, the number of illegal migrants in Russia was close to 5 million people, who had no status and were in dire straits.
- 33. The 2004 budget allotted 2.68 percent of the gross national product (2.34 percent in 1999) for national defense, 2 percent (1.28 percent in 1999) for law enforcement, 0.76

- percent (0.52 percent in 1999) for education, 0.30 percent (0.025 percent in 1999) for health, and 1.05 percent (1.04 percent in 1999) for social policies.
- Russiah Engagement with the West: Transformation and Integration in the Twenty-First Century, edited by Alexander Motyl, Blair Ruble, and Lilia Shevesova (Armonk, N.Y.: M. E. Sharpe, 2004), p. 12.
- 35. See D. Trenin, "Realpolitik Moskvy," Nezavisimayo gazeta, February 9, 2004.
- 36. Yuri Pivovarov, "Russkaya politicheskaya kul'tura," Pro et Contre, Summer 2002, p. 38.
- 37. There is another form of simplification, the optimistic version. An example is "A Normal Country," by Andrei Shleifer and Daniel Treisman, Foreign Affairs, March-April 2004, which attempted to define Russia as a "a normal middle-income country" with a commensurate level of democracy. It is true that the level of economic development and well-being influences the quality of democracy, and that the problems that Russia had been experiencing are characteristic of many other transitional societies. But the question is how to understand "normal." Concluding that Russia is "normal" may justify a rejection of democracy. For if everything is going normally, as it is everywhere for everyone, there is no need for concern; democracy will come when income levels rise. This understanding of "normal" deprives society of stimuli for transformation. Incidentally, in an unexpected way, the adherents of such "normalcy" in Russia come to the same conclusion as the adherents of Russia's special path," who maintain that Russia is not ready for democracy.
- 38. Richard Pipes, "Flight from Freedom," Foreign Affain, May-June 2004.
- T. Kutkovets and I. Klyamkin, "Normal'nye lyudi v nenormal'noi strane" [Normal people in an abnormal country], Maskovskie novosti, July 12–17, 2003.
- The Economic Elite of Russia in the Mirror of Public Opinion: Analytical Report (Moscow: IKSI and Friedrich Ebert Foundation, 2004).
- 41. Economic Elite of Russia.
- 42. Kutkovets and Klyamkin, "Normal'nye lyudi."
- Starting with 2000, 65–67 percent of Russian respondents were constantly against extending of Putin's rule. Data are from www.levada.ru.
- 44. Of the respondents, 29 percent trusted the president's administration; 14 percent, the government; 12 percent, the city administration; 6 percent, the Federation Council; and 5 percent, the State Duma. Data are from www.fom.ru.
- 45. The number of Russians who bought busts or portraits of the president has grown from 9 percent (2001) to 11 percent (2004). But 81 percent had no such desire. Only 15 percent thought that distributing pictures of Putin increased his authority, and 29 percent thought that this "invites mockery and puts the president in a bad light." Most of Putin's fains were young people, 18–24 years of age, with a high school education. Putinomania was a provincial youth fad Young people from small towns wore T-shirts.

with Putin's picture the way young people once wore Che Guevara T-shirts.

- 46. Research by the Public Opinion Foundation, known as FOM, available at http://bd.fom.ru.At the present time in Russia, according to Ministry of the Interior data, there are approximately 15,000 members of skinhead gangs, with about 2,500 in Moscow and the Moscow region. Nezavisimaya gazeta, April 2, 2003.
- 47. Yet the majority of Russians are sure that sooner or later they will live in a democracy. In 2003, 23 percent of respondents believed that Russia would be a democracy in 15-20 years; 13 percent, in 20-50 years; 10 percent, that it already was a democracy; 9 percent, that it would be one in 5 years; and 8 percent, that it would take more than 50 years. Only 18 percent thought that Russia would never be a democracy. Levada Center polls, available at www.levada.ru.
- 48. It is noteworthy that Russians know the value of their elites—48.9 percent feel that the interests of the population and the elites do not coincide (and only 4 percent believe that they do); Economic Elite of Russia.
- Mikhail Afanasyev, "Nevynosinaya slabost' gosudarstva" [The unbearable weakness of the state], Otechestvennye zapiski, no. 2 (2004), p. 226.
- 50. See chapter 12 on the striving for democratization at the start of Putin's second term.
- 51. German Gref, after a trip to war-torn Chechnya, offered remarks in the same vein: "Chechnya looks like the set of a Hollywood blockbuster." It seems the authorities don't know how bad things are in a region they are constantly dealing with!
- 52. See Leon Aron, "The Putin Restoration," available at www.zei.org.

الغصل الثاني عشر

- Savik Shuster's talk show "Freedom of Speech" and Leonid Parfenov's "Last Night" were canceled by NTV in the summer of 2004.
- 2. Polls by Levada Center, May 2004; see www.levada.ru.
- See Olga Anchishkina, "Burokratiia nachinaet, no . . . vyigryvaet li?" [The bureaucracy starus, but . . . is it winning?], Otecheswennye zapiski, summer 2004. Vitaly Kurennoi, "V poiskakh dostoinstv: smysl i logika administrativnoi reformy" [In search of metit: the meaning and logic of administrative reform], Otecheswennye zapiski, summer 2004.
- 4. One of the intended results was supposed to be a reduction in personnel. In 2004, there were 593,000 people working in Russia's federal organs and 217,400 in the regional ones. The reforms were supposed to reduce the number by 10 to 15 percent.
- A U.S. senator is paid approximately 5 to 6 times more than the average American.
 After the salary raise, a Russian minister receives \$43,600 a year; that is, his pay is 17

times more than the average annual salary in Russia (\$2,500).

- 6. The decision was to replace benefits with financial compensation ranging from \$5.10 to \$53 a month, and \$6 billion was budgeted for that in 2005.
- 7. Starting in 2005, the federal budget no longer was responsible for the salaries of the staffs of state-financed institutions, including teachers and doctors. Their salaries and pensions were to come out of regional budgets.
- 8. Mikhail Zadornov, "My riskuem sozdat' v Rossii 'Garlemy" (We risk creating 'Harlems' in Russial, Noveye gazeta, July 12-14, 2004.
- 9. There were 156 kinds of benefits and aid that covered 236 categories of the population, or almost 97.9 million people (68 percent of Russia's population).
- 10. Municipal governments were getting 7 percent of the organizations—including day care centers, schools, clinics, and sanitariums—that had been in the federal budget. In view of the impoverished state of many regions, it was clear that all these institutions would be shut down.
- 11. M. Zadornov, "Budzhet nazval 'krainikh'" [The budget has named the 'marginalized'], Moskovskie novosti, June 18-24, 2004.
- 12. According to a survey, 38 percent of those polled had free public transport, 33 percent had reduction in rent, 21 percent did not pay their full telephone bill, and 91 percent had benefits for health care. Those people definitely were losing as a result of social reform
- 13. Nezavisimava pazeta, August 4, 2004.
- 14. Polls by the Levada Center, www.levada.ru.
- 15. Ivan Preobrazhensky, "Budzhet protiv budzhetnikov" (Budget against those subsidized by the budget], Profil, May 24, 2004.
- Novaya gazeta, July 12-14, 2004.
- 17. Thus, in 2004, 57 percent felt that pension reform was not in their interest (24 percent thought that it was), and 64 percent felt that communal reforms would simply lead to higher prices (26 percent believed that it would improve the quality of communal services). Levada Center, www.levada.ru.
- 18. Moskovskie novosti, June 18-24, 2004.
- 19. See I. Bunin, A. Zudin, B. Makarenko, and A. Makarkin, "Novaya real nost': osnovnye napravlenija razvitija politicheskoj situatsij v 2004–2008 pp." [The new reality: basic directions of development of the political situation in 2004-2008], available at www.politcom.ru.
- 20.M. Khodorkovsky, "Krizis liberalizma v Rossii" [The crisis of liberalism in Russia], Vedomosti, March 29, 2004.

- 21. Another major stockholder of YUKOS, Leonid Nevzlin, who found asylum in Israel, had only a few months earlier still been ready to fight the regime and financed Irina Khakamada's presidential bid. He also wrote a letter to Izvestia, in which he announced that he was leaving the political struggle.
- 22. Vremya novostei, April 15, 2004.
- 23. Financial Times, April 16, 2004.
- 24. Vedomosti, April 16, 2004.
- 25. Neoconservative slogans were presented with the greatest clarity by Vyacheslav Nikonov, the ideologist of United Russia. They were reiterated in a more popular form by the film director Andrei Konchalovsky, who liked to say, "Russia is not ready for democracy and never will be."
- 26. Only 28 percent of those polled thought that Khodorkovsky's trial was objective and dispassionate, 49 percent thought it was not, and 23 percent had no opinion. Levada Center, Moskovskie novosti, June 4-10, 2004.
- 27. Delovye Novosti, Kommersant-Vlast', July 6, 2004.
- 28. A reflection of these contradictions was this statement by Gerashchenko: "Inside the company and beyond it, both in Russia and abroad, there are groups of influence interested in prolonged conflict with the state in order to solve their personal mercantile interests." Nexavisimana gazeta, July 15, 2004.
- Dmitri Butrin, "Kogda v mogil'shchikakh soglas'ia net" [When the grave diggers disagree], Kommersant-Vlast', July 26, 2004.
- 30. Yulya Latynina, "Konets okhoty" [End of the hunt], Novaya gazeta, July 26-28, 2004.
- 31. Soon, other Putin allies joined the boards of major natural resource companies: Vladislav Surkov was installed on the board of TransNeftProduct, the monopoly producer of pipeline hardware. Yevgeny Shkolov, another deputy head of presidential administration, was named to the board of Transneft, which controls Russian pipelines.
- 32. Denis Yermakov, "Non Free Fall," Yezhenedelny Zhurnal, August 29, 2004.
- 33. Before the YUKOS debacle started, Putin had approved the formation of TNK-BP. As the height of the hunt on YUKOS, Putin approved the sale of 7.59 percent of LukOil shares to U.S. ConocoPhillips.
- 34. Clouds were gathering over some of the "oligarchs." This time, there was talk of possible problems for Vladimir Potanin, the head of Norülsk Nikel, and Victor Vekselberg, the head of Sual-Holding.
- 35.I have in mind such organizations as the Union of Industrialists and Entrepreneurs, the Chamber of Commerce, Business Russia, and Opora (the Association of Entrepreneurial Organizations of Russia).

المراجع

- 36. This tendency led scholars to speak of the appearance in Russia of a "neocorporative model." See Alexei Zudin, "Neokorporativism v Rossii" [Neocorporativism in Russia], Pro et Contra, vol. 6, no. 4, Fall 2001.
- 37. Nezavisimaya gazeta, April 21, 2004.
- 38. In 2003, until Khodorkovsky was arrested—that is, until the third quarter 2003—there was a net inflow of capital into Russia totaling \$3.9 billion. In the third quarter of 2003, the outflow of capital reached \$7.7 billion. The trend was continuing in 2004. According to the Central Bank estimates, \$5.1 billion was taken from Russia in the first six months of 2004. Economic development minister German Gref made an admission that the net outflow of capital from Russia in 2004 will reach \$12 billion. Kommersant-Vlast', August 6, 2004.
- Stephen Sestanovich, "Force, Money and Phralism," Journal of Demonsey, vol. 15, no. 3 (July 2004), pp. 41–42.
- 40. Actually, this time it also solved a long-standing problem: Kvashnin was an obstacle to army reform and had big ambitions. The new chief of staff is General Yuri Baluevsky, a man capable of strategic thinking and devoid of political goals.
- Anatol Lieven, presentation at the Carnegie Endowment for International Peace, September 2, 2004.
- 42. Russian society continued to be split on Chechnya issue. A total of 55 percent of respondents said that the situation would not change after the presidential elections, 28 percent of those polled said the elections would help to improve the situation (and 8 percent said that situation would only worsen), 44 percent of those polled did not support the Kremlin's policy in Chechnya, and 41 percent said they supported it. The number of those supporting it has increased over the past two years, www.romir.ru, August 27, 2004.
- 43.Polls carried by the Analytical Service VTsIOM-A and can be found at www.levada.ru. After March 2004, the center was reformed as the Yuri Levada Analytical Center.
- Yuri Levada, "What the Polls Tell Us," Journal of Democracy, vol.15, no. 3 (July 2004), pp. 50-51.
- See Organization for Economic Cooperation and Development, Economic Surveys: Rustien Federation (Paris: Organization for Economic Cooperation and Development, 2004), p. 51.
- 46. Half of Russian citizens—50 percent—felt that joining the WTO was in Russia's interests, 21 percent felt that it was contrary to its interests, and 29 percent had no opinion. Levada-Center, Moskovskie novosi, May 28-June 3, 2004.
- 47. Russia was supposed to withdraw its troops from Georgia and the Transdruster region in accordance with agreements made at the 1999 Islanbul summit of the

Organization for Cooperation and Security in Europe.

- 48. Arkady Ostrovsky, "How to Be a Founding Father," Financial Times, July 7, 2004.
- 49. www.wciom.ru, July 28, 2004.
- 50. Some observers in Moscow were convinced, however, that the banking crisis in the summer of 2004 was created both to clear the bank arena of unclean banks and to redistribute financial resources in favor of the state banks.
- 51. Sergei Medvedev was right when he wrote: "For the first time in Russian history, national interest is not linked to sheer power and territorial control, but rather to domestic reform." Sergei Medvedev, "Russia at the End of Modernity: Foreign Policy, Security, Identity," Russia and the West at the Millennium, ed. Sergei Medvedev, Alexander Konovalov, and Sergei Oznobishchev (Garmisch-Pattenkirchen: George Marshall European Center for Security Studies, 2004), p. 511.
- 52. Richard Sakwa, talk at Chatham House, "Putin's Second Term," London, March 2004.
- 53. Dmitri Trenin, "Identichnost' i integrassia: Rossiia i Zapad v 21 veke" [Identity and integration: Russia and the West in the 21st century], Pro et Contra, vol. 8, no. 3 (2004), p. 15.
- 54. Kommersant-Vlast', July 20, 2004.
- 55. At the start of Putin's second term, the following integration associations that included Russia were active on the territory of the CIS: the Shanghai Organization of Cooperation, the Eurasian Economic Community, the Organization of Agreement on Collective Security, and the Single Economic Space.
- 56. Kommersant-Vlast', June 21, 2004.
- 57. Masha Lipman, "Putin's Burden," Washington Post, September 9, 2004.
- 58. Komsomol'skaya Pravda, September 29, 2004.
- 59. www.levada.ru, October, 2004.
- 60. Data from www.moscownews.com.
- 61. From www.levada.ru.
- Strobe Talbott, "The Strains of Putin's Clampdown," Financial Times, September 27, 2004.

كتساب من إصدارات مؤسسسة كارنيجي

روسيا بوتين

قبل في إطراء الطبعة الأولى من هذا الكتاب:

وروسمها بوقين كتاب صيل جداً وشيق لثقاية. وهو بأش في الوقت التاسب أيضاً لأن روسها تواجه خيارات جديدة فيما يتخفق بمستقبقهما. وأنا متأكد من أن أفكار وآراء مراقب نكي ومهتم من أمثال لبليما شوقتسوها سنتقى تجاوياً حاراً من

- ميخائيل غورباتشيف

الجمح كشاب لوليها شيطتنمو شال إلقماء الضوء علمي مكاشد السلطة العقمدة في موسكو وفي تقديم شعليل فيهم للتوقرات والمعضلات التي ستشكل إرث الأجيال الثالية من الزعماء في روسياء.

– هنري کيسنجر

تبدة عن المؤلفة

ليلينا شيلقتمو فاعمر مارزل البرمامج الروسي والأرربي الأسوري ل مؤسسة كارتيسي لندرمينت للملاء العالمي المختصصة بالمتحدث شؤدي صلها مرحكات كارتيمي في كل من و اشتطن العاصمة وموسكو، وهي واحدة من ألمع المطلق السياسين في روسها وصحافية بارزة ومعلقة سياسهة دائمة في الشيكان التلفزيونية والإنائية العالية ألغة شيفتسوقا سنة كلب من بينها بروسيا بالنسي الخراطان والطيطة، وشباركنا في إهداد كتاب دور بالكوف بالنمخ، وبوتح، القيادة السياسية في الفترة الانتقالية لروسياء،



الدار العربية، للعلوم . ناشرون Arab Scientific Publishers, inc. www.asp.com.ib - www.aspbooks.com

مي ب £1367 غيران 2060 1569 سيزه - البنان

لبيد الأركاني في القالمان ومطورون